

# المواقف الروحانية والفيوضات السبوحية

تأليف

الأمير عبد القادر بن محيي الدين الجزائري

المتوفى ١٣٠٠هـ

اُعْتَمِدَ بِهِ

السيد الدكتور تاج الدين إبراهيم الكيال  
الحسيني الشاذلي الدقاوي

المجلد الأول

مستورات

محمد رحيمي بيضون

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

مكتبة دار الكتب العلمية بيروت



دار الكتب العلمية

جميع الحقوق محفوظة

Copyright

All rights reserved

Tous droits réservés

جميع حقوق الملكية الأدبية والفنية محفوظة  
لدار الكتب العلمية بيروت لبنان.  
ويحظر طبع أو تصوير أو ترجمة أو إعادة تنظيم الكتاب كاملاً أو  
جزئاً أو تسجيله على أي وسيلة ميكانيكية أو إلكترونية أو  
أخرى من غير إذن الناشر خطياً.

Exclusive rights by

Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah Beirut - Lebanon

No part of this publication may be translated,  
reproduced, distributed in any form or by any means,  
or stored in a data base or retrieval system, without the  
prior written permission of the publisher.

Droits exclusifs à

Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah Beyrouth - Liban

Il est interdit à toute personne individuelle ou morale  
d'éditer, de traduire, de photocopier, d'enregistrer sur  
cassette, disquette, C.D, ordinateur toute production  
écrite, entière ou partielle, sans l'autorisation signée  
de l'éditeur.

الطبعة الأولى

٢٠٠٤ م - ١٤٢٥ هـ

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

رمز الطوليف - شارع المحنوي - بناية ملكات  
الإدارة العامة: عرمون - القبة - مبنى دار الكتب العلمية  
هاتف وفاكس: ١١/١٢/١٣ - ٨٠٤٨١٠ (٥ خطوط)  
صندوق بريد: ٩٤٢٤ - ١١ بيروت - لبنان

Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah

Beirut - Lebanon

Ram Al-Zarif, Bohtory Str., Melkart Bldg. 1st Floor

Head office

Aramoun - Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah Bldg.

Tel & Fax: (+961 5) 804810 / 11 / 12 / 13

P.O.Box: 11-9424 Beirut - Lebanon

Dar Al-Kutub Al-Ilmiyah

Beyrouth - Liban

Ram Al-Zarif, Rue Bohtory, Imn. Melkart, 1er Étage

Administration général

Aramoun - Imn. Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah

Tel & Fax: (+961 5) 804810 / 11 / 12 / 13

P, P: 11-9424 Beyrouth - Liban

ISBN 2-7451-3951-7



<http://www.al-ilmiyah.com/>

e-mail: [sales@al-ilmiyah.com](mailto:sales@al-ilmiyah.com)

[info@al-ilmiyah.com](mailto:info@al-ilmiyah.com)

[baydoun@al-ilmiyah.com](mailto:baydoun@al-ilmiyah.com)



صورة الأمير عبد القادر الجزائري

# بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## تقديم

بسم الله الرحمن بمخلوقاته، الرحيم بأوليائه وأحبائه، القائل في الحديث القدسي: «سبقت رحمتي غضبي». والقائل: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴿٢﴾﴾ [طه: الآية ٥]. والقائل: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الأنبياء: الآية ١٠٧]. والحمد لله الظاهر بآلانه التي هي مرايا أسمائه وصفاته للأرواح والأسرار، والباطن عن العقول والأبصار بمقتضى قوله تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْبَصَرُ ﴿١٠٣﴾﴾ [الأنعام: الآية ١٠٣]. وقوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴿١٨٠﴾﴾ [الأنعام: الآية ٩١]. وقوله: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعَزْوِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨١﴾﴾ [الصفافات: الآية ١٨٠]، وقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى: الآية ١١]، المنيزه عن حضرتي التشبيه والتنزيه بمقتضى قوله: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ ﴿١٠٣﴾﴾ [الحديد: الآية ٣]، والمطلق عن حضرتي الإطلاق والتقييد بمقتضى: ﴿فَأَيْنَمَا تُولَؤُوا فَتَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ﴿١١٥﴾﴾ [البقرة: الآية ١١٥].

وصلّى الله على سيدنا محمد القائل: «أصدق كلمة قالتها العرب كلمة لبيد: «ألا كل شيء ما خلا الله باطل». وقوله: «كان الله ولا شيء معه». وزاد العارفون بالله تعالى: وهو الآن على ما عليه كان. وعلى آله الطيبين الطاهرين من دنس رؤية خيال الأغيار المتحققين بقوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢١﴾﴾ [سبأ: الآية ٢١]، وبقي وجهه ربك ذو الجلال والإكرام ﴿٢٧﴾ [الرحمن: الآيتان ٢٦، ٢٧]. وعلى أصحابه الأخيار الممتزجين والمتخلفين بأنوار مقامات حبيهم المختار المتجلية بالأنفس والآفاق مصداقا لقوله تعالى: ﴿سَرُّبِهِمْ عَائِنَتْنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴿٥٣﴾﴾ [فصلت: الآية ٥٣].

وبعد فيما أن غاية خلق الأكوان أن يتحقق الإنسان بقوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴿٣٠﴾﴾ [البقرة: الآية ٣٠]، ويقول: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ



وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبْتِكَ أَنْ يَحْمِلَنَهَا وَأَشْفَقَنَ مِنَهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٦﴾ [الأحزاب: الآية ٧٦]. ويقول ﷺ: «إن الله خلق آدم على صورته» وفي رواية: «على صورة الرحمن» ويتم له ذلك من خلال الفناء في عوالم الملك والملكوت والجبروت، مترقيًا من شهود تجليات الأفعال الإلهية، إلى شهود تجليات الأسماء والصفات، إلى شهود تجليات أنوار الذات. كل ذلك بمثابة لأقوال وأفعال وأحوال النبي ﷺ في مقامات الدين الإسلامي الكامل الثلاث: الإسلام والإيمان والإحسان، الشريعة والطريقة والحقيقة، برعاية شيخه الوارث المحمدي، الذي سلك الطريق ثم عاد ليخبر القوم بما استفاد.

ومن هؤلاء الشيوخ الكُمل؛ الوارثين المحمديين، الذين قطعوا مخاطر ومهلك الطريق الموصلة إلى معرفة الله تعالى، الإنسان الكامل والقطب الفرد المحقق الشيخ عبد القادر الجزائري، رحمه الله تعالى ونفعنا والمسلمين بعلمه وأسراره التي جمعها في كتابه: «المواقف الروحية والفيوضات السبوحية». وهو الكتاب الذي بين أيدينا والذي قمنا بضبطه وتصحيحه والتعليق عليه. ليستفيد منه المسلمون والمؤمنون والمحسنون، العابدون والقاصدون والمشاهدون، كلٌ بحسبه وعلى قدر قابليته واستعداده مصداقًا لقوله تعالى: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: الآية ٤٨]، وقوله تعالى: ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرِبَهُمْ﴾ [البقرة: الآية ٦٠].

يقول الشيخ عبد القادر الجزائري مبيّنًا غاية وجوده في هذا العالم والمخاطر التي قطعها في سبيل تحقيقها: «إن في الوجود معشوقة غير مرموقة، الأهوية إليها جانحة والقلوب بحبها طافحة والأبصار إلى رؤيتها طامحة يطير الناس إليها كل مطار ويرتكبون الأخطار ويستعذبون دونها الموت الأحمر، ويركبون لطلبها المكعب الأسمر (قناة الرمح)، ولا يصل إليها إلا الواحد بعد الواحد في الزمان المتباعد، فإذا قُدر لأحد مشاركة حماها ومقاربة مرماها، ألقت عليه إكسيرًا لا له مادة ولا مدة، ولا هو عين معتدة، فيحصل انقلاب عينه وجميع الأعيان في عينه إلى عين هذه المعشوقة، التي هي غير مرموقة، المعلومه المجهولة، المغمودة المسلوقة، الظاهرة الباطنة، المستورة الساترة الجامعة للتضاد، بل ولجميع أنواع المنافاة والعناد، ولا يقدر أن يعبر عنها بعبارة، ولا يشير إليها بإشارة، أكثر من قوله: إني وصلتها وحصلتها».

ثم يبين الشيخ عبد القادر الجزائري المذهب العقائدي الذي اعتمده في تأليف كتابه المواقف فيقول: «وطريقة توحيدنا ما هي طريقة المتكلم، ولا الحكيم المعلم،

ولكن طريقة توحيد الكتب المُنزَّلة، وسُنَّة الرُّسُل المرسلة، وهي التي كانت عليها  
بواطن الخلفاء الراشدين والصحابة والتابعين والسادات العارفين، وإن لم يصدقوا  
الجمهور والعموم، فعند الله تجتمع الحصوم».

هذا ويعتبر هذا الكتاب خلاصة كتاب «الفتوحات المكية» للشيخ الأكبر  
محيي الدين بن عربي خاتم الأولياء في زمنه إذ لا يخلو العالم من خاتم في جميع  
الأزمنة إلى قيام الساعة. وقد أخبر المصنّف أن كتابه «المواقف» هو عبارة عن:  
«نفثات روحية، وإلقاءات سيوحية، بعلوم وهبية، وأسرار غيبية، من وراء طور  
العقول، وظواهر النقول خارجة عن أنواع الاكتساب والنظر في كتاب قيدها لإخواننا  
الذين يؤمنون بآياتنا». ثم يخبر بأنه «إذا لم يصلوا بعد إلى اقتطاف أثمارها فما عليهم  
إلا أن يتركوها في زوايا أماكنها إلى أن يبلغوا أشدهم ويستخرجوا كثرهم».

فَسأل الله تعالى أن يجعلنا من المسلمين الكاملين المقلّدين، والمؤمنين الموقنين  
أهل الدليل والبرهان، والعارفين الموحدين أهل الشهود والعيان، وأن ينفعنا بما في  
كتاب «المواقف الروحية والفيوضات السبوحية» من حِكَم إيمانية وأنوار ربّانية وأسرار  
إحسانية إلهية، إنه سميع قريب مُجيب.

كتبه الشيخ الدكتور  
عاصم إبراهيم الكيالي  
الحسيني الشاذلي الدرقاوي

## ترجمة الأمير عبد القادر الجزائري<sup>(١)</sup>

(١٢٢٢ هـ - ١٣٠٠ هـ / ١٨٠٧ م - ١٨٨٣ م)

هو المجاهد الكبير والعالم العامل والصوفي الأديب والشاعر .

الأمير عبد القادر بن محيي الدين المصطفى بن محمد بن المختار بن عبد القادر بن أحمد المختار بن عبد القادر بن أحمد المشهور بابن خده - وهي مرضعته - ابن محمد بن عبد القوي بن علي بن أحمد بن عبد القوي بن خالد بن يوسف بن أحمد بن بشار بن محمد بن مسعود بن طاوس بن يعقوب بن عبد القوي بن أحمد بن محمد بن إدريس الأصغر بن إدريس الأكبر بن عبد الله المحض بن الحسن المثنى ابن الإمام الحسن السبط رضي الله عنهم .

من العلماء الشعراء البسلاء، وُلِدَ في ٢٣ من رجب عام ١٢٢٢ هـ/مايو ١٨٠٧ م، وذلك بقرية «القيطنة» بوادي الحمام من منطقة «وهران» بالمغرب الأوسط أو الجزائر، ثم انتقل والده إلى مدينة وهران، وكان والده ذا شأن بين الناس، فهو لا يسكت عن الظلم، فكان من الطبيعي أن يصطدم مع الحاكم العثماني لمدينة «وهران»، وأدى هذا إلى تحديد إقامته في بيته، فاختار أن يخرج من الجزائر كلها في رحلة طويلة، وكان الإذن له بالخروج لفريضة الحج عام ١٢٤١ هـ/١٨٢٥ م. فخرج مصطحباً ابنه عبد القادر معه، فكانت رحلة عبد القادر إلى تونس ثم مصر ثم الحجاز ثم البلاد الشامية ثم بغداد، ثم العودة إلى الحجاز، ثم العودة إلى الجزائر ماراً بمصر وبرقة وطرابلس ثم تونس، وأخيراً إلى الجزائر من جديد عام ١٨٢٨ م، فكانت رحلة تعلم ومشاهدة ومعاشية للوطن العربي في هذه الفترة من تاريخه، وما لبث الوالد وابنه أن استقرا في قريتهم «قيطنة»، ولم يمض وقت طويل حتى تعرضت الجزائر لحملة عسكرية فرنسية شرسة، وتمكنت فرنسا من احتلال العاصمة فعلاً في ٥ يوليو ١٨٣٠ م،

(١) مصادر الترجمة: (١) الأمير عبد القادر الجزائري العالم المجاهد لنزار أباطة، (٢) عبد القادر... الجهاد والأسر... إسلام أون لاين.نت، (٣) الأعلام لخير الدين الزركلي.

واستسلم الحاكم العثماني سريعاً، ولكن الشعب الجزائري كان له رأي آخر. إلا أن الشقاق بين الزعماء فَرَّقَ كلمة الشعب، فسارع أهالي وعلماء «وهران» إلى البحث عن زعيم يأخذ اللواء ويباعون على الجهاد تحت قيادته، ولكنه اعتذر عن الإمارة وقبل قيادة الجهاد، فأرسلوا إلى صاحب المغرب الأقصى ليكونوا تحت إمارته، فقبل السلطان «عبد الرحمن بن هشام سلطان المغرب، وأرسل ابن عمه «علي بن سليمان» ليكون أميراً على وهران، وقبل أن تستقر الأمور تدخلت فرنسا مهتدة السلطان بالحرب، فانسحب السلطان واستدعى ابن عمه ليعود الوضع إلى نقطة الصفر من جديد، ولما كان محيي الدين قد رضي بمسؤولية القيادة العسكرية، فقد التفت حوله الجموع من جديد، وخاصة أنه حقق عدة انتصارات على العدو، وقد كان عبد القادر على رأس الجيش في كثير من هذه الانتصارات، فاقترح الوالد أن يتقدم «عبد القادر» لهذا المنصب، فقبل الحاضرون، وقبل الشاب تحمل هذه المسؤولية، ونمت البيعة، ولقبه والده بـ «ناصر الدين» واقترحوا عليه أن يكون «سلطاناً» ولكنه اختار لقب «الأمير»، وبذلك خرج إلى الوجود الأمير عبد القادر ناصر الدين بن محيي الدين الحسيني، وكان ذلك في ١٣ رجب ١٢٤٨ هـ/نوفمبر ١٨٣٢ م.

تلقى الأمير الشاب مجموعة من العلوم فقد درس الفلسفة (رسائل إخوان الصفا - أرسطو طاليس - فيثاغورس) ودرس الفقه والحديث فدرس (صحيح البخاري ومسلم)، وقام بتدريسهما، كما تلقى (الألفية) في النحو، و(الستوسية)، و(العقائد النسفية) في التوحيد، و(إيساغوجي) في المنطق، و(الإتقان في علوم القرآن)، وبهذا اكتمل للأمير العلم الشرعي، والعلم العقلي، والرحلة والمشاهدة، والخبرة العسكرية في ميدان القتال، هذا إضافة إلى زهده وسلوكه طريق التصوف وقراءته لأشهر كتب الطريقة والحقيقة كـ (إحياء علوم الدين) لحجة الإسلام أبي حامد الغزالي و(الفتوحات المكية) و(فصوص الحكم)، للشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي، هذا وسنتكلم لاحقاً عن تصوفه، وعلى ذلك فإن الأمير الشاب تكاملت لديه مؤهلات تجعله كفوؤاً لهذه المكانة، وقد وجه خطابه الأول إلى كافة العروش قائلاً: «... وقد قبلت بيعتهم (أي أهالي وهران وما حولها) وطاعتهم، كما أنني قبلت هذا المنصب مع عدم ميلي إليه، مؤملاً أن يكون واسطة لجمع كلمة المسلمين، ورفع النزاع والخصام بينهم، وتأمين السبل، ومنع الأعمال المنافية للشريعة المطهرة، وحماية البلاد من العدو، وإجراء الحق والعدل نحو القوي والضعيف، واعلموا أن غاييتي القصوى اتحاد الأمة المحمدية، والقيام بالشعائر الأحمدية، وعلى الله الاتكال في ذلك كله».

## الأمير عبد القادر يقيم دولة مستقرة آمنة

وقد بادر الأمير عبد القادر بإعداد جيشه، ونزول الميدان ليحقق انتصارات متلاحقة على الفرنسيين، وسعى في ذات الوقت إلى التآليف بين القبائل وفض النزاعات بينها، وقد كانت بطولته في المعارك مثار الإعجاب من العدو والصديق فقد رآه الجميع في موقعة «خندق النطاح» التي أصيبت ملابسها كلها بالرصاص وقُتِل فرسه ومع ذلك استمر في القتال حتى حاز النصر على عدوه، وأمام هذه البطولة اضطرت فرنسا إلى عقد اتفاقية هدنة معه وهي اتفاقية «دي ميشيل» في عام ١٨٣٤ م، وبهذه الاتفاقية اعترفت فرنسا بدولة الأمير عبد القادر، وبذلك بدأ الأمير يتجه إلى أحوال البلاد ينظم شؤونها ويعمرها ويطورها، وضرب نقوداً من الفضة والنحاس سماها «المحمدية»، وأنشأ معامل للأسلحة والأدوات الحربية وملابس الجند وجعل مدينة (معسكر) حاضرة إمارته ووضع للدولة دستوراً تضمن مجموعة القوانين التي نظمت الدولة، وقد نجح الأمير في تأمين بلاده إلى الدرجة التي عبر عنها مؤرخ فرنسي بقوله: «يستطيع الطفل أن يطوف ملكه منفرداً، على رأسه تاج من ذهب، دون أن يصيبه أذى!!». وقبل أن يمر عام على الاتفاقية نقض القائد الفرنسي الهدنة، وناصره في هذه المرة بعض القبائل في مواجهة الأمير عبد القادر، ونادى الأمير في قومه بالجهاد ونظم الجميع صفوف القتال، وكانت المعارك الأولى رسالة قوية لفرنسا وخاصة موقعة «المقطع» حيث نزلت بالقوات الفرنسية هزائم قضت على قوتها الضاربة تحت قيادة «تريزيل» الحاكم الفرنسي. ولكن فرنسا أرادت الانتقام فأرسلت قوات جديدة وقيادة جديدة، واستطاعت القوات الفرنسية دخول عاصمة الأمير وهي مدينة «المعسكر» وأحرقتها، ولولا مطر غزير أرسله الله في هذا اليوم ما بقي فيها حجر على حجر، ولكن الأمير استطاع تحقيق مجموعة من الانتصارات دفعت فرنسا لتغيير القيادة من جديد ليأتي القائد الفرنسي الماكر الجنرال «بيجو»؛ ولكن الأمير نجح في إحراز نصر على القائد الجديد في منطقة «وادي تفتة» أجبره على عقد معاهدة هدنة جديدة عُرفت باسم «معاهدة تافنة» في عام ١٨٣٧ م.

وعاد الأمير لإصلاح حال بلاده وترميم ما أحدثته المعارك بالحصون والقلاع وتنظيم شؤون البلاد، وفي نفس الوقت كان القائد الفرنسي «بيجو» يستعد بجيوش جديدة، ويكرر الفرنسيون نقض المعاهدة في عام ١٨٣٩ م، وبدأ القائد الفرنسي يلجأ إلى الوحشية في هجومه على المدنيين العزل فقتل النساء والأطفال والشيوخ، وحرق القرى والمدن التي تساند الأمير، واستطاع القائد الفرنسي أن يحقق عدة انتصارات

على الأمير عبد القادر، ويضطر الأمير إلى اللجوء إلى بلاد المغرب الأقصى، ويهدد الفرنسيون السلطان المغربي، ولم يستجب السلطان لتهديدهم في أول الأمر، وساند الأمير في حركته من أجل استرداد وطنه، ولكن الفرنسيين أخذوا يضربون طنجة وموغازور بالقبائل من البحر، وتحت وطأة الهجوم الفرنسي يضطر السلطان إلى طرد الأمير عبد القادر، بل ويتعهد للفرنسيين بالقبض عليه.

يبدأ الأمير سياسة جديدة في حركته، إذ يسارع لتجميع مؤيديه من القبائل، ويصير ديدنه الحركة السريعة بين القبائل فإنه يصبح في مكان ويمسي في مكان آخر حتى لقب باسم «أبا ليلة وأبا نهار»، واستطاع أن يحقق بعض الانتصارات، ولكن فرنسا دعمت قواتها بسرعة، فلجأ مرة ثانية إلى بلاد المغرب، وكانت المفاجأة أن سلطان المغرب وجه قواته لمحاربة الأمير، والحق أن هذا الأمر لم يكن مفاجأة كاملة فقد تعهد السلطان لفرنسا بذلك، ومن ناحية أخرى ورد في بعض الكتابات أن بعض القبائل المغربية راودت الأمير عبد القادر أن تسانده لإزالة السلطان القائم ومبايعته سلطاناً بالمغرب، وعلى الرغم من انتصار الأمير عبد القادر على الجيش المغربي إلا أن المشكلة الرئيسية كانت في الحصول على سلاح لجيشه، ومن ثم أرسل لكل من بريطانيا وأمريكا يطلب المساندة والمدد بالسلاح في مقابل إعطائهم امتيازات في سواحل الجزائر: كقواعد عسكرية أو استثمارات اقتصادية وبمثل ذلك تقدم للعرش الإسباني ولكنه لم يتلق إجابة، وأمام هذا الوضع اضطر في النهاية إلى التفاوض مع القائد الفرنسي «الجنرال لامور يسار» على الاستسلام على أن يسمح له بالهجرة إلى الإسكندرية أو عكا ومن أراد من أتباعه، وتلقى وعداً زائفاً بذلك فاستسلم في ٢٣ ديسمبر ١٨٤٧م، ورحل على ظهر إحدى البواخر الفرنسية، وإذا بالأمير يجد نفسه بعد ثلاثة أيام في ميناء طولون ثم إلى إحدى السجون الحربية الفرنسية في أمبواز ونقل إلى بوردو ثم إلى نانت ثم أعيد إلى أمبواز، وهكذا انتهت دولة الأمير عبد القادر، وقد خاض الأمير خلال هذه الفترة من حياته حوالي ٤٠ معركة مع الفرنسيين والقبائل المتمردة والسلطان المغربي.

### الأمير عبد القادر في الأسر

ظل الأمير عبد القادر في سجون فرنسا نيفاً وأربع سنين يعاني من الإهانة والتضييق حتى عام ١٨٥٢م إلا أنه بقي عالي الهمة لم تؤثر فيه شدة المشاق التي أحاطت به من كل جانب وكان الناس يأتون إليه من أنحاء فرنسا وغيرها لزيارته ومنهم أصحاب المناصب والضباط. ثم استدعاه نابليون الثالث بعد توليه الحكم، وأكرم



نزله، وأقام له المآذب الفاخرة ليقابل وزراء ووجهاء فرنسا، ويناقشهم في كافة الشؤون السياسية والعسكرية والعلمية، مما أثار إعجاب الجميع بذكائه وخبرته، ودُعي الأمير لكي يتخذ من فرنسا وطنًا ثانيًا له، ولكنه رفض، ورحل إلى الشرق، حيث الأستانة وقابل السلطان عبد المجيد خان فأكرم وفادته وأنعم عليه بدار فخمة في بروسة، ومدح السلطان بقصيدة طويلة منها:

الحمد لله تعظيمًا وإجلالاً  
والشكر لله إذ لم ينصرم أجلي  
وما أتت نفحات الخير ناسخة  
وامتد عمري إلى أن نلت من سندي  
فالله أكرم مني حقًا وأسعدني  
قد طال ما طمحت نفسي وما ظفرت  
أسكن فؤادي وقَرَّ الآن في جسدي  
هذا المرام الذي قد كنت تأمله  
وعيش هنيئًا فأنت اليوم أمين من  
فأنت تحت لواء المجد مغتبطًا  
وته دلالًا وهذا العطف من طرب  
أمنت من كل مكروه ومظلمة  
هذا مقام التهاني قد حَلَلْت به  
وأبشر بقرب أمير المؤمنين ومن  
عبد المجيد حوى مجدًا وعزَّ وعلا  
كهف الخلافة كافيها وكافلها  
يا رب فاشدُد على الأعداء وطأته  
وأظهرنَّ حزبه في كل متجه  
وابسط يديه على الغبراء قاطبة  
فالمسلمون بأقصى الغرب طامحة  
كم خائف يرتجي أمنا بسطوته  
فرح الخلافة وابن الأكرمين ومن

ما أقبل اليُسْرُ بعد العُسْرِ إقبالًا  
حتى وصلت بأهل الدين إيصالًا  
من المكاره أنواعًا وأشكالًا  
خليفة الله أفياء وإظلالًا  
وحطَّ عني أوزارًا وأثقالًا  
لكن للوُضَل أوقائًا وأجالًا  
فقد وصلت بحزب الله أحبالًا  
هذا مُنَاك فِطْب حَالًا بما آلا  
حمام مكة إحرامًا وإحلالًا  
في حضرة جمعت قطبًا وأبدالًا  
وغنَّ وارقص وجرَّ الذيل مختالًا  
فبُح بما شئت تفصيلًا وإجمالًا  
فارتع ولا تخش بعد اليوم أنكالا  
قد أكمل الله فيه الدين إكمالًا  
وجَلَّ قدرًا كما قد عمَّ أفضالًا  
من لا عهدنا له في القرن أمثالًا  
واحفظ جماء وزده منك إجلالًا  
وسدِّدْن منه أقوالًا وأفعالًا  
وذللن كل من في الأرض إذلالًا  
أبصارهم نحوه يرجون إقبالًا  
وحائر يرتجي للخرن تسهالا  
شادوا عُرا الدين أركانًا وأطلالا

كم أزيمة فَرَجُوا كم غُمَّة كَشَفُوا  
هم رحمة لبني الإيمان سائرهم  
أنصار دين النبي بعد غيبته  
قد خَصَّهم ربُّهم في خير منقبة  
كم حاول الصَّحْب والآل الكرام لها  
ما زال في كل عصر منهم خَلْفٌ  
حتى أتى دهرنا في خير مُنْتخَب  
قد كنت مضمِر خَفُض ثم أكسبني  
وبالإضافة بعد القطع عرفني  
هذا وحق عُلاه منتهى أملي  
لا زال تخدمه نفسي وأمدحه  
أهدي مديحي وحمدي ما حييت له  
جزاه عني إله العرش أفضل ما

وأقام في بروسة حتى سنة ١٢٧٠ هـ حين عاد إلى الآستانة ومنها توجه إلى باريس، ثم عاد إلى بروسة، وكان يدرّس فيها بجامعة العرب القريب من داره.

وفي سنة ١٢٧١ هـ عزم على سكن دمشق، فارتحل إليها عن طريق بيروت التي وصلها في ٥ ربيع الآخر ١٢٧٢ هـ / ٢٤ تشرين الثاني ١٨٥٦ م، فاستقبله أهل بيروت برئاسة وإليها نامق باشا استقبالا كريما واجتمع أمراء تلك المنطقة ومشايخها لملاقاته في جبل لبنان، ورتّبوا جموعهم، وأطلقوا البنادق، وساروا عن يمينه وشماله يرتجزون. ونزل ضيفا على الكولونيل تشارلز تشرشل الإنكليزي الذي جاء إلى لبنان سنة ١٢٥٨ هـ / ١٨٤٢ م على رأس هيئة أطلق عليها اسم البعثة البريطانية في سورية، واشترى قرية بحوارة وهي بين عاليه وبحمدون وبنى فيها بيتا، وهو ينتسب إلى أسرة تشرشل الإنكليزية المشهورة. ليلة واحدة، ثم سار يقصد دمشق فبلغ الخبر إليها محمود نديم باشا فخرج هو وعزة باشا رئيس العسكرية وغيرهما من أعيان البلدة لملاقاته فوافقوه عند قرية دُمُر.

ودخل دمشق في حفاوة وتكريم، وتقدمت موكبه كتيبة من الجيش تعزف الموسيقى العسكرية، واستقبله أهل دمشق أحسن استقبال. وقيل: إنه لم يدخل دمشق



عربي رُحِبَ به هذا الترحيب منذ صلاح الدين الأيوبي . ويقول الأمير بهذه المناسبة : «قد فرح بنا أهل البلد وخرجوا كلهم لَلْقِيَانَا الرجال والنساء». وقال أيضًا : «لقد استقبلني الدمشقيون أحسن استقبال وعدّوا يوم دخولي مدينتهم كيوم عيد، فالرجال والنساء قد تسابقوا أمامي».

وإثر دخوله دمشق توجه مباشرة إلى زيارة جامع الشيخ محي الدن بن عربي، ثم اتخذ له سكنًا بمعرفة والي دمشق، وعُرفت داره بدار السيد، وكانت تُعرَف بدار عزّة باشا، وأصلها للقاضي محيي الدين بن الزكي . وبنو الزكي هم الذين نزل بهم الشيخ محيي الدين بن عربي حينما قَدِمَ دمشق وتزوج منهم وسكنهم في هذه الدار ثم دفن بمقبرتهم في سفح قاسيون.

وبدأ الزوّار يتوافدون إليه وكانت أحاديثه في لقاءاته معهم تدور حول العلم والصلة الروحية بالله تعالى ولم يحدثهم عن نفسه . وأخذ الطريقة المولوية آنذاك عن الشيخ صبري شيخ الطريقة بدمشق.

ولمّا رحل الأمير من بروسة قاصدًا دمشق، أنعم عليه السلطان بألف كيس بدلًا من الدار التي كان أهدها إياها . فاشترى بدمشق دارين واسعتين بينهما دار صغيرة في زقاق النقيب بالعمارة، هدم إحداهن وعفَى آثارها وابتنى في موضعها دارًا جميلة، ولمّا تمّ بناؤها وأصلحت الداران الأخريان انتقل من الدار التي استأجرتها له الدولة العثمانية إلى هذه الدُور وذلك سنة ١٢٧٤ هـ وهنأه بسكنائه الجديد الشعراء منهم حسن الدجاني وأمين الجندي وغيرهما .

ثم اشترى بدمشق سبع دُور أخرى جعل إحداهن منزلًا لأضيافه، وعدة دُور في محلّة العمارة البرانية جعل بعضها حديقة مقابلة للدُور، وكان نهر بردى يمرّ بين الدُور والحديقة .

واشترى مزرعة بدير بحدل بالغوطة وعمر بها بيتًا، وأرضًا في أشرفية صحنايا، وأرضًا في قرية قرحتا بطرف الغوطة، ومزرعة بلاس، وطاحونة الإحدى عشرية، وخان الصعب بالعمارة، وأرضًا بوادي دُمر، وبنى فيه قصرًا لمصيفه . ولمّا تمّ بناؤه صنع وكيرة ودعا إليها العلماء والأعيان وقرؤوا بعدها شيئًا من صحيح البخاري للتبرّك، وهنأه الشعراء بالقصر في قصائدهم، ومنهم الشاعر عبد الغني الرافعي الطرابلسي .

وفي سنة ١٢٧٣ هـ توجه إلى بيت المقدس والخليل للزيارة فذهب من طريق صغد ورجع من طريق حوران. ومدحه الشاعر حسن الدجاني حين توجه إلى يافا إجابة لطلب مُفتيها بقصيدة مطلعها:

عهدنا بغرب مطلع البدر مشرقاً      وإننا نراه الآن قد لاح مشرقاً  
وللغرب أصل الفضل إذ هو مطلع      وإن يك بدر التم في الشرق أشرقاً  
وآرخ في البيت الأخير تلك الزيارة فقال:

وأضحى ليمن بالقدوم مؤرخاً      إلى المسجد الأقصى سرى يطلب التقى

وفي شهر رمضان من السنة نفسها قرأ (صحيح البخاري) في مدرسة دار الحديث الأشرفية، وكتاب (الإتقان) وكتاب (الإبريز) في المدرسة الجمقمقية.

ثم في شهر رمضان من سنة ١٢٧٥ هـ اعتكف في الجامع الأموي، وقرأ كتاب (الشفاء) والصحيحين في مشهد سيدنا الحسين رضي الله عنه.

**الأمير وحادثة الستين ١٢٧٦ هـ / ١٨٦٠ م:**

لم تكذ الأنباء تتوارد عن قرب وقوع هذه الفتنة حتى جمع الأمير العلماء والوجهاء والأعيان من أهالي دمشق وجماعة المهاجرين المغاربة وخاطبهم قائلاً: «إن الأديان وفي مقدمتها الدين الإسلامي أجل وأقدس من أن تكون خنجر جهالة أو معول طيش أو صرخات نذالة تدوي بها أفواه الحثالة من القوم. أخطركم أن تجعلوا لشیطان الجهل فيكم نصيباً، أو أن يكون له إلى نفوسكم سبيلاً».

وبلغ عدد الذين أنقذهم الأمير من القتل والعذاب ممن التجؤوا إلى داره نحواً من خمسة عشر ألف شخص من القناصل وأعيان النصارى والرهبان والراهبات. ولما ضاقت بهم داره بعث بقسم منهم إلى قلعة المدينة. كما احتفى بحي السوقية ويخان المغاربة نصارى الميدان، وكان نتيجة ذلك مقتل عدد من المغاربة هناك كان بينهم فضلاء رافقوا الأمير في جهاده وهاجروا معه من الجزائر.

وطلب منه جماعة من النصارى أن يؤمن لهم طريق الوصول إلى بيروت ففعل وأبلغهم مأمئهم.

ولم يزل الأمير يعاني من هذه الفتنة إلى أن حضر إلى دمشق فؤاد باشا وزير الخارجية العثماني، وأجرى فيها الأحكام العرفية، فقبض على زمام الأمور، وسجن

آلافًا من الناس، وعين مجالس خاصة للمحاكمات فقتل من ثبت عليه القتل أو إثارة الفتنة، ونفى جماعة من الأعيان، ثم عقد مجلسًا عسكريًا للنظر في أمر الوالي أحمد باشا وجماعة من رؤساء الجند، وأقر الأمن.

وكتب الأمير بعد الفتنة معبرًا عن سبب موقفه النبيل الذي فسره الناس تفسيرات مختلفة يخاطب ملكة بريطانيا: «إنني لم أفعل إلا ما توجب عليّ فرائض الدين ولوازم الإنسانية».

منحته الدول الأوروبية الأوسمة الفخرية وكلها من المرتبة الأولى، فنال وسام الجوقة الفرنسي، ووسام صليب النسر الأبيض الروسي، ووسام صليب النسر الأسود البروسي، ووسام صليب المخلص اليوناني. وأهدت إليه ملكة بريطانيا بندقية مرصعة بالذهب.

ومدحه الخطباء والشعراء، ومنهم الشاعر أمين الجندى:

إليك، انتهى المجد الرفيع المؤئل	وعنك؛ أحاديث المكارم، تنقل
تفرزت في الآفاق، بالسؤدد، الذي	على فضله، بين الأنام؛ المعول
سموت سموت البدر، في برج عزه	ونورك، للأكوان - مولاي - يشمل
ألسنت ابن سلطان الرجال!! ومن له	على كل قطب، في الوجود، التفضل
أما أنت من آل النسبي، كدرة	تجل، فلا يجري عليها التمثل؟
أما أنت كشاف الكروب، عن الوري؟!	ومنجدهم؛ إن حلّ خطب، ومعضل؟!
حماك؛ غدا للناس آية كعبية	فما عنه للعافين - يومًا - تنقل
وموردك السامي؛ صفا عن كدورة	فمنه، ذوو الآمال؛ بالبشر، تنهل
ظهرت بأوصاف الكمال. وإنما	لديك؛ انطوى ما بعضه اللب؛ يذهل
ومن ظن يستوفي المديح أو الثنا	عليك، إذن؛ عند التأمل، يخجل!!
ولا عجبًا!! فإله جلّ جلاله	عليم. يرى؛ حيث الرسالة، يجعل
ملكك زمام المنجد؛ فانقاد مسرعًا	إليك. وقوم حاولوه؛ فحولوا
ملأت قلوب الناس؛ لطفًا وهيبه	وكل إذن؛ في باب، جاء يجمل
جمعت الندى، للحلم. والبأس، للثقى	فأنت لمن وافاك؛ ركن، ومنهل
تهاب ليوث الغاب، في أجماتها	سظاك. ويرجو البر منك؛ المؤمل
وقفت على سرّ الحقيقة؛ فانجلت	لديك، عروس الإنس، بالعز، تخجل

يعزّ - إليها - عن سواك، التوصل  
بعزمك، دهرًا، فيه ذو الحزم؛ يحل  
لهم بين شجعان الخليقة؛ منزل  
بها؛ تقف الأفكار، عجزًا، وتخبل  
وهذا؛ هو الفضل، الذي ليس يجهل  
على بعضهم بعض، بما ليس تقبل  
تزيل الرؤوس. والأسود تجندل  
وصنت، من الأعراض، ما لا يحل  
يضرّ سخيّ الطبع، والتمتول  
ولا أحد - حقًا - له يتوصل  
وما خاب عبد، في رضا الله؛ يعمل  
على شرف، في حوزة، أنت أول  
نكير له، في الكون. أو متأول  
وجودك فيهم!! ما لذلك معذل  
ومن أين لي - لولا رضاك - التوصل  
فقل، أنت متي، بالقبول مجمل  
وعزًا. وضدي، بالمذلة يرفل  
هزارًا، عليه المدح في الغير، ينقل  
عقودًا. ولا كلّ الأقاويل، تُقبل  
وما زلت، عفواً منك - مولاي - أسأل  
من الله، ما سار الحجاج يهلل  
وما قام، في جنح الدجى، متوسل  
وماخصّ، بالتسليم، في الناس، مرسل

وأبرزت، من كنز العلوم، دقائقًا  
حفظت بلادًا، كنت فيها مملكا  
وحاربت قومًا، أهل بأس وشدة  
وكنت عليهم ظاهرا، في مواقف  
أقرّ بذا خصم، هشمت ذراعه  
وفي الشام، لما أن بغى الناس، واعتدى  
نهضت لإخماد الفساد، بهمة  
حقنت دماء؛ حرّم الشرع سفكها  
بذلت، من الأموال؛ وفرًا. بمثله؛  
صنيعك هذا؛ ليس يقدر قدره  
قصدت به مرضاة ربك، مخلصا  
ملوك النوري - طرًا - حبتك علائما  
وصيتك؛ عمّ الخافقين. فلا يرى  
كفى أهل هذا العصر، عزًا ورفعة  
وحق لي الشريف، إذ كنت سيدي!!  
وجذك، في سلمان، قال مقالة  
لأرقل في قومي بثوبي، كرامة  
أقبل عثراتي. وأتخذني لمدحك  
فما كل من ألقى الدراري، يصوغها  
وإني - وإن قصرت - فالعذر واضح  
فلا زلت ملحوظًا، بعين رعاية  
وما بسط الداعي الأكف لربه  
وما أشرفت شمس. وما هبت الصيا

وكان الأمير على رغبة دائمة في التوجه لأداء الحج وزيارة النبي ﷺ، ولم يكن يمنعه منه إلا القيام على خدمة والدته المُسيئة السيدة زهراء بنت محمد بن دوحه الحسيني التي كان يرعاها بنفسه ويعنى بشؤونها ويتمتع بمشاهدتها ومجالستها. فلما توفيت آخر سنة ١٢٧٨ هـ عن ثمانين عامًا غادر دمشق في أول رجب من السنة التالية

متوجّها إلى الديار المقدسة عن طريق مصر، مصطحباً معه الشيخ سليم حمزة، والشيخ عبد الغني الميداني الغنيمي. وخلال اثني عشر شهراً قضاها في مكة لم يغادر فيها حجرته إلا للذهاب إلى الحرم كان لا ينام في اليوم إلا أربع ساعات ولا يأكل فيه إلا مرة واحدة.

وفي مكة أخذ الطريقة الشاذلية عن الشيخ محمد الفاسي وحصل له فيها فتح كبير أشار إليه في قصيدته الرائية يمدح فيها شيخه المذكور وهي:

أوسعوداً! جاء: السَّغْدُ والخَيْرُ واليسرُ  
ليالي: صدود، وانقطاع، وجفوة  
فأيامها، أضحت: قتاماً ودجنةً  
فراشي فيها؛ حشوه الهَمُّ والضمي  
ليالي أنادي - والفؤادُ متيماً  
أمولاي!! طال الهجر. وانقطع الصبر  
أغث - يا مغيث المستغيثين - والهأ  
أسائلُ كلَّ الخلق. هل من مخبر  
إلى أن دعنتي همّةُ الشيخ، من مدى  
فشمزْتُ، عن ذليبي، الأزار. وطار بي  
وما بعدت عن ذا المحب، تهامة  
إلى أن أنخنا، بالبطاح. ركبنا  
بطاح؛ بها البيت المعظم، قبلةً  
بطاح؛ بها الصيد الحلال محرم  
أتاني مربي العارفين، بنفسه  
وقال: فإنني منذ أعداد حجّة  
فأنت بنيتي، مذ (ألست بربكم)  
وجدك قد أعطاك، من قدم، لنا  
فقبلت من أقدامه وبساطه!!  
وألقي على صفري بإكسير سرّه  
وأعني به: شيخ الأنام. وشيخ من

ورأت جيوش النحس. ليس لها ذكرُ  
وهجران سادات، ولا ذُكِرَ الهجرُ  
لياليها؛ لا نجم يضيء، ولا بدر  
فلا التذلي جنب ولا التذلي ظهرُ  
ونار الجوى؛ تشوي. لما حوى الصدرُ  
أمولاي!! هذا الليل؛ وهل بعده فجرُ؟!  
ألم به، من بعد أحبابه، الضرُ  
يحدثني عنكم؟ فينعشني الخبرُ؟!  
بعيدي. ألا فادُن!! فعندي لك الذخر!!  
جناح اشتياق، ليس يخشى له كسرُ  
ولم يشنه سهل - هناك - ولا وعر  
وحطّ بها رحلي. وتمّ لها البشر  
فلا فخر؛ إلا فوقه، ذلك الفخر  
ومن حلها؛ حاشا يبقَى له وزر  
ولا عجب!! فالشأن أضحى له أمر  
لمنتظر لقياك. يا أيها البدر!!  
وذا الوقت - حقاً - ضمّه اللوح والسطر  
ذخيرتكم فينا. ويا حبذا الذخر!!  
فقال لك البشري!! بذأ قضي الأمر  
فقليل له: هذا هو الذهب التبر!!  
له عمّة، ذي عذبة، وله الصدر

عياذي، ملاذي، عُمدتي، ثم عُدتني  
غياثي من أيدي العداة. ومنقذي  
ومحيي رفاتِي؛ بعد أن كنت رمّة  
محمد الفاسي، له مِن محمد  
بفرضٍ وتعصيب؛ غدا إرثه له  
شمائله؛ تغنيك، إن رمت شاهداً  
تضوّع طيباً، كل زهرٍ ينشره  
وما حاتم، قل لي. وما حلم أحنف؟  
صفوح؛ بغض الطرف، عن كل زلّة  
هشوش، بشوش، يلقي بالرحب، قاصداً  
فلا غضب - حاشا - بأن يستفزّه  
لنا منه صدر؛ ما تكذره الدّلا  
ذليل لأهل الفقر. لا عن مهانةٍ  
وما زهرة الدنيا، بشيء له ترى؟  
حريص على هدي الخلائق، جاهد  
كساه رسول الله؛ ثوب خلافةٍ  
وقيل له؛ إن شئت قل: قدمي علا  
فذلك فضل الله؛ يؤتيه من يشا  
وذا - وأبيك - الفخر. لا فخر من غدا  
وهذا كمال؛ كل عن وصف كنهه  
أبو حسن، لو قد رآه؛ أحبه  
وما كل شهم، يدعي السبق صادق!!  
وعند تجلّي النقع؛ يظهر من علا  
وما كل من يعلو الجواد بفارس  
فيحامي ذمّاراً، يوم لا ذو حفيظة  
ونادي ضعيف الحي. من ذا يغثني؟!

وكهفي؛ إذا أبدى نواجه الدهر  
منيري، مجيري، عندما غمّني العمر  
وأكسبني عمراً. لعمرى؛ هو العمر  
صفيّ الإله، الحال، والشيم الغر  
هو البدر، بين الأوليا، وهم الزهر  
هي الروض. لكن؛ شقّ أكامه القطر  
فما المسك؟ ما الكافور؟ ما التّد؟ ما العطر؟  
وما زهد إبراهيم أدهم؟ ما الصبر؟  
لهيبته؛ ذلّ الغضنفر، والنمر  
وعن مثل حبّ المزن؛ تلقاه يفتّر  
ولا حدّة. كلاً، ولا عنده ضر!!  
ووجه طليق؛ لا يزياله البشر  
عزيز. ولا تية لديه، ولا كبر  
وليس لها - يوماً - بمجلسه نشر؟  
رحيم بهم، بز، خبير، له القدر  
له: الحكم، والتصريف، والنهي، والأمر  
على كل ذي فضل، أحاط به العصر  
وليس على ذي الفضل حصراً، ولا حجر  
وقد ملك الدنيا، وساعده النصر  
فمن يدعي هذا؛ فهذا هو السر  
وقال له: أنت الخليفة. يا بحر!!  
إذا سبق للميدان؛ بأن له الخسر  
على ظهر جردبل، ومن تحته حمر  
إذا نار نقع الحرب. والجو مغبر  
وكلّ حماة الحي، من خوفهم، فزوا  
أما من غيور؟! خانني الصبر والدهر



ولا كل كزار عليًا؛ إذا كزوا  
وما كل صياح - إذا صرصر -؛ الصقر  
ولا كل من يدعى بعمرو؛ إذن عمرو  
على قدم صدق؛ طبيبًا له خبر  
غريقًا، ينادي: قد أحاط بي المكر  
له خبرة، فاقث. وما هو مغتر  
وفي كل مصر. بل وقطر؛ له أمر  
وأكرم بقطر؛ طاز منه له ذكر  
فما طاولتها الشمس - يومًا - ولا النسر  
حجيج الملا. بل ذلك عندهم الظفر  
وجل؛ فلا ركن لديو، ولا حجر  
فهذا له ملك. وهذا له أجر  
تقدس سرًا؛ لا يجد له السير  
بصدق؛ تساوى عنده السر والجهر  
ويلقى فراتًا؛ طاب نهلاً فما القطر  
فيا حبذا المرأى!! ويا حبذا الزهر!!  
وما لجنان الخلد. إن عثقت؛ نشر!!  
فيا حبذا كأس!! ويا حبذا خمر!!  
وليس بها برد. وليس بها حر!!  
ولا هو قبل المزج؛ فإن ومحمر  
وما ضمها دن. وما نالها عصر  
بأحمالها. كالأ؛ ولا نالها نجر  
تخلت عن الأملاك - طوعًا - ولا قهر  
لما طاش، عن صوب الصواب، لهم فكر  
فقصدتهم قصد. وسيرهم وزر  
به كل علم، كل حين، له دور

وما كل سيف ذو الفقار، بحده  
وما كل طير، طار في الجو، فاتكا  
وما كل من يسمى بشيخ، كمثل  
وذا مثل للمدعين. ومن يكن  
فلا شيخ؛ إلا من يخلص هالكًا  
ولا تسأل من ذي المشايخ، غير من  
تصفح أحوال الرجال مجربًا  
فأنعم بمصر؛ ربث الشيخ يافعًا  
فمكة ذي، خيز البلاد، فديتها  
بها كعبتان: كعبة؛ طاف حولها  
وكعبة حجاج الجناب، الذي سما  
وشتان ما بين الحجيجين عندنا  
عجبت لباعي السير، للجناب الذي  
ويلقى إليه نفسه، بفنائه  
فيلقى مناخ الجود والفضل؛ واسعًا  
ويلقى رياضًا؛ أزهرت بمعارف  
ويلقى جناتًا؛ فوق فردوسها العلا  
ويشرب كأسًا صرفة من مدامة  
فلا غول فيها. لا، ولا عنها نرفة  
ولا هو بعد المزج؛ أصفر فاقع  
معتقة من قبل كسرى، مصونة  
ولا شانها زق. ولا ساز سائر  
فلو نظر الأملاك ختم إنائها  
ولو شمت الأعلام في الدرس، ريحها  
فيا بعدهم، عنها! ويا بش ما رضوا!!  
هي العلم، كل العلم. والمركز، الذي

ولا جاهل؛ إلا جهولاً به غر  
 سوى رجل، عن نيلها، حظه نزر  
 سوى واه. والكف من كأسها صفر  
 وصرخ ما كنى. ونادى نأى الصبر!!  
 ولا تسقني سراً، إذا أسكن الجهر  
 فلا خير في اللذات؛ من دونها ستر  
 ونازلهم بسط. وخامرهم سكر  
 وشمس الضحى، من تحت أقدامهم، عفر  
 فتحن ملوك الأرض. لا البيض والحمز  
 فليس لهم عرف. وليس لهم نكر  
 فليس لهم ذكر!! وليس لهم فكر!!  
 ويرقصهم رعد؛ بسلع له زار  
 تظن بهم سحراً. وليس بهم سحرا!!  
 إذا ما بكث. من ليس يدري له وكر  
 تدوب له: الأكباد والجلمد الصخر  
 وأحداقها بيض. وقاماتها سمر  
 فهان علينا كل شيء. له قدر  
 فلا قاصرات الطرف، ثني. ولا القصر!!  
 ملاعبهم مئي؛ الشرائب والتحر  
 فما عاقنا زيد. ولا راقنا بكر!!  
 ولا هالنا قفر. ولا راعنا بحر!!  
 فيا حبذا هذا!! ولو بدؤه مر!!  
 علي. فما للفضل عد، ولا حصر  
 فله؛ حمد دائم، وله الشكر  
 فقسمتكم ضئى. وقسمتنا كثر!!  
 وهات لنا كأسا. فهذا؛ لنا وفر

فلا عالم؛ إلا خبير بشربها  
 ولا غبن في الدنيا. ولا من رزينة  
 ولا خسر في الدنيا. ولا هو خاسر  
 إذا زمزم الحادي بذكر صفاتها  
 وقال: اسقني خمراً. وقل لي: هي الخمر  
 وصرخ بمن تهوى، ودعني من الكنى  
 ترى ذائقها: منها؛ هامت عقولهم  
 وتاهوا!! فلم يدروا من التيه؛ من هم!!  
 وقالوا: فمن يرجى من الجون، غيرنا؟!  
 تמיד بهم كأس. بها قد تولهوا  
 حيارى!! فلا يدرون أين توجهوا!!  
 فيطربهم برق، تألق بالحمى  
 ويسكرهم طيب النسيم؛ إذا سرى  
 وتبكيهم ورق الحمائم، في الدجى  
 بحزن وتلحين؛ تجاوبتا بما  
 وتسبيهم غزلاً رامة؛ إن بدت  
 وفي شمها - حقاً - بذلنا نفوسنا  
 وملنا عن الأوطان، والأهل جملة  
 ولا عن أصحباب الدواب. من غدت  
 هجرنا لها الأحقاب، والصحب كلهم  
 ولا ردنا عنها العوادي، ولا العدى  
 وفيها حلا لي الذل، من بعد عزة  
 وذلك؛ من فضل الإله. ومنه  
 وقد أنعم الوهاب - فضلاً - بشربها  
 فقل لملوك الأرض: أنتم وشأنكم  
 خذ الدنيا والأخرى. أباغيهما!! معاً.



به هاديًا. فالأجرُ منه، هو الأجر بها؛ صار لي كنزٌ. وفارقني الفقر وساعدني سعدٌ. فحصيلًا دُرٌّ لفيضك محتاجٌ. لجدواك مضطرٌّ أنا العبدُ، ذاك العبدُ، لا الخادم الحُرُّ لنا حصنٌ أمينٌ؛ ليس يطرقه دعرٌ وأعينهم عميٌّ. وأذانتهم وقر تراهم عيونٌ ينظرون؛ ولا بصرا!! فليس يرى؛ إلا لمن ساعد القدر هدايا. ومن نعمائه؛ عمنا اليسر وروح هداة الخلق - حقًا - وهم ذر أسعود!! جاء: السعد، والخير، واليسر!

جزى الله عنا شيخنا؛ خير ما جزى أمولاي!! إني عبد نعمائك، التي وصرت مليكًا؛ بعدما كنت سوقةً أمولاي!! إني عبدُ بابك، واقفٌ فمرٌ: أمرٌ مولى للعبيد. فإنتي هنيئًا لنا. يا معشر الصَّحْبِ!! إنا فتحن بضوء الشمس. والغير في دجى ولا غرور في هذا!! وقد قال ربنا: وغيم السماء، مهما سما؛ هان أمره ألا فاعملوا - شكرًا - لمن جاد، بالذي وصلوا على خير الوري، خير مرسلٍ عليه صلاة الله: ما قال قائل:

### الأمير والتصوف:

«توغل الأمير في آخر عمره بالتصوف وعلوم القوم، وأظهر من الرقائق والمعارف ما أشار إلى سمو مقامه ورفيع قدره.

وتنقسم حياته الصوفية إلى ثلاث مراحل:

الأولى: هي المرحلة التي سافر فيها إلى دمشق مع والده وأخذ عن علمائها وتلقى الطريقة النقشبندية فيها عن الشيخ خالد النقشبندي، والطريقة القادرية التي تلقاها ببغداد عن الشيخ محمود الكيلاني القادري. وبعد ذلك رجع إلى الجزائر فأنشأ مراكز في القرى وبين القبائل لنشر الطريقة القادرية. وكان هؤلاء هم الذين غدوا حركة الجهاد التي قام بها الأمير بعد ذلك.

الثانية: مرحلة عزلته وخلوته في مدينة أمبواز حين كان سجينًا، وإلى هذا أشار في كتابه المواقف (الموقف ٢١١).

الثالثة: هي المرحلة التي تم له فيها الترقى الصوفي، وصل إليها في مجاورته بمكة المكرمة سنة ١٢٧٩ هـ كما ذكرنا حيث أقبل على العبادة والخلوة، والتقى بالشيخ محمد الفاسي الذي أعطاه الطريقة الشاذلية.

## مؤلفات الأمير عبد القادر

ترك الأمير عبد القادر الجزائري مؤلفات عدة منها:

- إجابات الأمير عبد القادر (وهي أسئلة من بعض علماء عصره عن إشكالات بعض عبارات الصوفية كقول الغزالي مثلاً: ليس في الإمكان أبدع مما كان).
- رسالة في الحقائق الغيبية (وهي شرح البيتين المشهورين التاليين على المشرب الصوفي):

رأت قمر السماء فأذكرتني ليالي وصلها بالرقمتين  
كلانا ناظر قمرًا ولكن رأيت بعينها ورأت بعيني

- رسالة في شرح سورة التكوير (على الطريقة الصوفية).

- المواقف الروحية والفيوضات السبوحية وهو أشهر كتبه؛ فتر به بعض الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة تفسيرًا مزججه بالفقه والتاريخ بأسلوب صوفي، وكان يلقي موافقه في مجالسه الخاصة. ثم اقترح عليه الشيخ عبد الرزاق البيطار أن يدوّن ذلك ويستجله، فكان هذا الكتاب الذي تقوم بنشره.

- تعليقات على حاشية جدّه عبد القادر (في علم الكلام).

- الصافنات الجياد (في محاسن الخيل وصفاتها).

- ذكرى العاقل وتنبية الجاهل (كتاب في الأخلاق والشريعة).

- المقرض الحاذق قطع لسان أهل الباطل والإلحاد.

وله منظومات وأشعار منها:

- القصيدة التي أشرنا إليها في مدح شيخه الفاسي بمكة المكرمة.

- قصيدتان على لسان أهل الله.

- ديوان شعر (وفيه قصائد متنوّعة المعاني).

## من صفات الأمير عبد القادر

- «كان الأمير رجلاً معتدل القامة، عظيم الهامة، ممتلئ الجسم، أبيض اللون، مُشربًا بحمرة، أسود الشعر، كثّ اللحية، أفضى الأنف، أشهل العينين يخضب بالسواد.

وكان عاكفًا على شهود صلاة الجماعة في أوقاتها يلازم صلاة الفجر في المسجد القريب من داره بحي العمارة (زقاق النقيب) لا يتخلف عن ذلك إلا لمرض.

كثير التهجد والخلوات، كثير الصدقات، يبرّ العلماء والصالحين، والفقراء برواتب شهرية، وينتصب لقضاء حوائج العباد، عاملاً بتقوى الله في السرّ والعلن، يصوم شهر رمضان على الكعك والزبيب، ويعتزل خلاله الناس كلهم، وكانت له خلوة يتحثّ فيها بقصره في دمر.

كان الأمير حليماً زاهداً ورعاً، وله مواقف إنسانية ذكرنا بعضها وخاصة في حادثة الستين سنة ١٢٧٦ هـ / ١٨٦٠ م. وكان معظماً عند ملوك البلاد الأوروبية، وكانوا يطلبون صورته ويرغبون أن يكتب عليها يخطفه فكان يكتب أحياناً هذه الأبيات:

لئن كان هذا الرسم يعطيك ظاهري	فليس يُريك النظم صورتنا العظمى
فثم وراء الرسم شخص محجب	له همة تعلو بأخمصها النجما
وما المرء بالوجه الصبيح افتخاره	ولكنه بالفضل والخلق الأسمى
وإن جمعت للمرء هذي وهذه	فذاك الذي لا يبتغي بعده نعما

وكان الناس يلجؤون إليه في حلّ مشكلاتهم وخصوماتهم فيصلح بينهم ويرتضون أحكامه، وكان يعطي من ماله إذا ما تبين له عجز الذي يحكم عليه عن الأداء، وكان يهب الشبان مُهوراً للزواج، وقد يتوسط الأهالي لديه للعتق عن المحكومين فما كان يرذ الرجاء إذا جاءه من يكفل المحكوم ويضمن توبته، فكان مسموع الكلمة لا يرذ له الولاية طلباً، ويتقربون إليه بتنفيذ ما يشير به. واعتاد الفقراء أن يقصدوه لتجهيز موتاهم، وعين مخصصات للفقراء تُعطى إليهم أيام الجمعة، ومنها الخبز الذي يُوزع على مئات الأسر المُعدّمة طوال شهر رمضان.

أحبّه أهل دمشق وعلماؤها وأعيانها وأجمعوا على تقديمه حتى قال له الشيخ عبد الرزاق البيطار يخاطبه يوماً: «نحن أهل دمشق نعدّ أن نعم الله علينا عظيمة وكثيرة في هذه البلدة وقد زادنا جَلّت عظمته من فضله أن جعل إقامتك فيها فأفادنا من علومك ومعارفك».

وكان بيته في دمشق مركز اجتماع أعيانها لمناقشة المسائل الهامة وموتل العلماء، وكانت له فيه جلسة خاصة مع كبارهم يفسر فيها من الآيات الكريمة والأحاديث

الشريفة وأقوال السلف الصالح رضي الله عنهم على طريقته الخاصة التي أعجبت الكثيرين فرجوه أن يسجل آراءه في كتاب فكان كتابه (المواقف الروحية والفيوضات السبوحية) الذي هو بين أيدينا الآن.

وكان من أقرب المقرّبين إليه من العلماء الشيخ محمد الطنطاوي، والشيخ محمد الطيب، والشيخ محمد الخاني، والشيخ عبد الرزاق البيطار، وقال هذا الأخير في كتابه (الحلية): «حضرت عليه مع من حضر كتاب (فتوحات الشيخ الأكبر) ورسالة عقلة المستوفز له) وكتاب (المواقف) للأمير وهو كتاب كبير في الواردات التي وردت عليه ونسبت إليه، وكنا لا يرد علينا إشكال من آية أو حديث أو غير ذلك إلا وأجاب عنه بأحسن جواب بفتح الملك الوقاب، وكان في كل مدة قليلة يدعوننا إلى بعض محلاته خارج البلد، فكان يُدخِل علينا كل سرور ويُفرغ علينا كل حبور، وفي كل سنة في أيام الصيف يخرج إلى قصره في أرض دمر، فكان يأمرني بالخروج معه ولا زلت ملازمًا له إلى أن توفي».

## وفاته

وفاه الأجل بدمشق في منتصف ليلة ١٩ رجب ١٣٠٠هـ/ ٢٤ من مايو ١٨٨٣ م عن عمر يناهز ٧٦ عامًا، وقد دفن بجوار الشيخ محيي الدين بن عربي بالصالحية.

وترك الأمير بعده زوجته ابنة عمّه أم البنين وعشرة أبناء ذُكُور وهم الأمراء محمد باشا ومحيي الدين باشا وإبراهيم والهاشمي وأحمد وعبد الله باشا وعلي باشا وعمر وعبد الرزاق وعبد الملك وست بنات وثلاث جوارٍ جركسيات وجارية حبشية.

وفي سنة ١٣٨٨ هـ/ ١٩٦٨ م رغبت حكومة الجزائر وبعد سبع سنوات من استقلالها بنقل رُفات الأمير إلى الجزائر، فتمّ ذلك في احتفال رسمي مهيب.



## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### وبه نستعين

الحمد لله وحده.

قال سيدنا وأستاذنا، وعمدتنا وملاذنا، العارف المحقق، والمكاشف المدقق، مولانا الأمير السيد عبد القادر، ابن مولانا السيد محيي الدين رحمه الله، أماننا الله بفضله على محبته، وحشرنا بكرمه في زمرة، تحت لواء سيد المرسلين، وحيب رب العالمين آمين.

الحمد لله حمدًا يوافي نعمه، ويكافيء مزیده.

اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ عَلَى الْمَبْعُوثِ رَحْمَةَ الْعَالَمِينَ، سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ.

هذه نفثات روحية، وإلقاءات سبوحية، بعلوم وهبته، وأسرار غيبته، من وراء طور العقول، وظواهر النقول، خارجة عن أنواع الاكتساب، والنظر في كتاب، قيدتها لإخواننا الذين يؤمنون بآياتنا، إذا لم يصلوا إلى اقتطاف أثمارها، تركوها في زوايا أماكنها؛ إلى أن يبلغوا أشدهم، ويستخرجوا كنزهم، وما قيدتها لمن يقول هذا أفك قديم وأساطير الأولين، ويحجر على الله تعالى، ويقول: ﴿أَهْتُولَاءَ مَنْ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيِّنَاتٍ﴾ [الأنعام: الآية ٥٣] من علماء الرسم، القانعين من العلم بالاسم، فإننا نتركهم، وما قسم الله تعالى لهم، فإذا أظهروا لنا ملامًا وخصامًا؛ تلوتنا: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَمًا﴾ [الفرقان: الآية ٦٣]. ونعيرهم أدنا صماء، وعينا عمياء، ونقول لهم: آمنة بالذي أنزل إلينا، وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد، ونحن له مسلمون، ولا نجادلهم، بل نرحمهم ونستغفر لهم، ونقيم لهم العذر من أنفسنا في إنكارهم علينا، إذ جئناهم بأمر مخالف لما تلقوه من مشايخهم المتقدمين، وما سمعوه من آباؤهم الأولين، فالأمر عظيم، والخطب جسيم، والعقل عقال، والتقليد وبال، فلا عاصم إلا من رحم ربي.

وطريقة توحيدنا ما هي طريقة المتكلم، ولا الحكيم المعلم، ولكن طريقة توحيد الكتب المنزلة، وسنة الرسل المرسله، وهي التي كانت عليها بواطن الخلفاء الراشدين، والصحابه والتابعين، والسادات العارفين، وإن لم يصدقوا الجمهور والعموم، فعند الله تجتمع الخصوم، وقد أشرت إلى بعض ما ذكرت، في شبه مقامة لي وهي قولي:

حضرت محاضرة من محاضرات الشرفا، ومسامرة من مسامرات الظرفا، في ناد من أندية العرفا، فجاؤوا في سمرهم بكل طرفه غريبة، ومستظرفة عجيبة، وكان الحديث شجوناً، وألواناً وفنوناً، إلى أن تكلم عريف الجماعة، ومقدم أهل البراعة فقال: أحدثكم بحديث هو أغرب من حديث عنقاء مغرب، فاشرأبوا لسماعه، ومدوا أعناقهم، وفرغوا قلوبهم، وحدقوا أحداقهم، فقال:

إن في الوجود معشوقة غير مرموقة، الأهوية إليها جانحة، والقلوب بحبها طافحة، والأبصار إلى رؤيتها طامحة، يطير الناس إليها كل مطار، ويرتكبون الأخطار، ويستعذبون دونها الموت الأحمر، ويركبون لطلبها المكعب الأسمر<sup>(١)</sup>، ولا يصل إليها إلا الواحد بعد الواحد، في الزمان المتباعد، فإذا قدر لأحد مشاركة حماها، ومقاربة مرماها، ألقت عليه إكسيراً لا له مادة ولا مدة، ولا هو عين معتدة. فيحصل انقلاب عينه، وجميع الأعيان في عينه، إلى عين هذه المعشوقة، التي هي غير مرموقة، المعلومة المجهولة، المغمودة المسلوقة، الياطنة الظاهرة، المستورة الساترة، الجامعة للتضاد، بل ولجميع أنواع المنافاة والعناد، ولا يقدر أن يعبر عنها بعبارة، ولا يشير إليها بإشارة، أكثر من قوله: إني وصلتها وحصلتها، وبعد التعب والعناء، ومعاناة الضنا، وجدت هذه المعشوقة؛ أنا!! ويتبين لي أنني الطالب والمطلوب، والعاشق والمعشوق!! فما كان هجري للذاتي، إلا في طلب ذاتي، ولا كانت رحلتي، إلا لرحلتي، ولا وصولي إلا إلي، ولا تفتيشي إلا علي، ولا كان سفري إلا مني في إلي!! فيقال له: هل رأيت محبتها، وشمنت رباها، حتى قلت أنا إياها؟! فيقول: رأيت، وما رأيت، وما رميت إذ رميت. ويأتي بأوصافها بما تنبو عنه العقول، ولا تحتمله ظواهر النقول، ما طرق الأسماع، ولا طمعت في فهمه الأطماع، برفع الضدين تارة، وتارة يجمعهما. ويجمع النقيضين ويضمهما، فيقال له: هذا الذي تقوله؛ ثبت عندك

(١) المكعب: ذو الكعب. يقصد به قناة الرمح. الأسمر: الرمح.

بدليل أو برهان؟! فيقول: لا دليل بعد عيان:

وكيف يصح في الأذهان شيء، إذا احتاج النهار إلى دليل؟!  
فراجع فلا يرجع، ويغلط فلا يسمع، وحينئذٍ يحكم الناس عليه بالجنون  
والعته والسفه والبله، ويجهلون له ولو كان أعلمهم، ويسفّهونه ولو كان أحلمهم،  
ويستبيحون منه العرض، في الطول والعرض، ويجعلونه مرمى غمزهم ولمزهم،  
ونبزهم ووكزهم، يهجره الحميم العاطف، ويقلبه الصديق الملائف، وهو مع هذا  
ناعم البال بما لديه، قرير العين بما حصل بين يديه، لا يلتفت إلى قطعهم وهجرهم،  
ولا يبالي بلغوهم فيه وهجرهم!!

فلما تمت القصة، واجتليت عروسها على المنصة، وما كاد أن ينقضي إعجابنا  
منها، واستغرابنا لها، قلت لهم: يا قوم أستم تعلمون أنني طلاع الثنايا؟ وسباق  
الكتيبة إلى معترك المنايا؟ فأنا أتياكم بحقيقتها ومجازها، وأفك لكم المعنى من  
الغازها؛ أو أموت فأعذر، ولا علي إن لم أقبر! فقال لي بعض المستبصرين من  
الحاضرين، وكان ممن جرب هذا الأمر، وفر عن تجربته الدهر: إن صدقت  
لهجتك، وهانت عليك مهجتك، وأردت الوصول إلى ذلك الجناب، وقطع تلك  
الجبال والبحار والهضاب؛ فاركب نسراً أو غراباً وأنه لا ينال ما قصدت؛ إلا من  
كان عليّ الهمة قوي العزيمة.

إذا هم؛ ألقى بين عينيه عزيمةً ونكب عن طرقي العواقب جانباً  
ولم يستشر في رأيه غير رمحه ولم يرض إلا قائم السيف صاحباً

لا يصرفه صارف، ولا تحركه العواصف، جلس من أحلاس الخيل مله النهار  
والليل، أسد في شجاعته، خنزير في حملته، كلب في وقاحته، أذنه صمًا عن العاذل،  
وعينه عميًا عن الهاجر والواصل، وطريق مطلوبك طامسة، وأعلامها دارسة، بحرها  
تيار، وهوؤها نار، وأرضها مفاوز قفار، أسدها كواسر، وأغوالها عن أنيابها حواسر،  
مهامه فيج مجاهل، العارف فيها جاهل، والدليل الخزيت بها حائر، والتبه فيها هلاك  
حاضر...

فقلت له: جهتها أي الجهات؟ فقال لي: هيهات هيهات!! لا يستفهم عنها بمتى  
ولا أين، ولا يرشد إليها أثر ولا عين. فاعتمدت على الواحد الأحد، لا ألوي على  
أحد، فمررت في طريقي، على فرق من قريقي، فرأيتهم بين سادم باهت، لا هو  
بالحاصل ولا الفايث، وبين حابر واقف، التبست عليه المواقف، وبين غريق في لجاج



تلك البحار، وتايه في تلك المفاوز القفار، وبين من نقبت راحلته، وآخر دبرت زاملته، وبين من يدب دبيب النمل، حافياً بلا نعل، مررت على جماعة منهم في بعض المشاهد فأنشدوا لي قصيدة فيها نحو العشرين بيتاً. رجعت إلى الحس بيت واحدٍ منها، وهو:

أيا من نحن في تعب الجبال وهو يخوضها ولا يبالي

وما زلت ممتطياً صهوتي النسر والغراب، محملاً نفسي كل مكروه، مستعذباً أنواع العذاب، لا تظلمن بي دار، ولا يستقر بي قرار، إلى أن ظهرت لي الأعلام، التي ظهرت لمن قبلي من الوافدين الأعلام، ونادى المنادي، وحدا الحادي:

أبشر بوصل فهذه العلامات كم طالين، ودون الوصل، قد ماتوا

وألقي علي ما ألقى عليهم، وثبت لدي ما ثبت لديهم. ولما وصلت حيث وصلوا، وحصلت على ما عليه حصلوا، طلبت الإباحة والجواز، إلى التقدم والجواز، وقد عرفت الحقيقة والمجاز، فقبل لي: لا تتخط رقاب الصديقين. ارجع فما وراء موقفك إلا العدم المحض، لا ثبات ولا ركض.

وحين رجعت إلى الأصحاب. قالوا: ما وراءك يا عصام؟! فقلت: القول ما قالت حذام، ولكن يا قوم، لا تعجلوا بالعتب واللوم، أرأيتم لو جاءكم عنين عديم حاسة الذوق، وقال عرفوني لذة الجماع، بم كنتم تفهمونه علم ذلك وتعلمونه؟! فقالوا: لا سبيل إلا الذوق، لما هنالك، فقلت لهم: وهذا من ذلك!! فمنهم من سلم وأنصف، ومنهم من ألح وتعسف، وربك أعلم بمن هو أهدى سبيلاً، وأقوم قبلاً، وعندما ينجلي الغبار، يتبين راكب الفرس من الحمار.

فلو رأيت الذي شاهدته علنا	لكنت تعذرنا إذن أعاذلنا
وكنت تعلم كيف الأمر متضح	وكيف قلنا الذي قلنا وقيل لنا
وكنت تبكي دماً تقول وأسفاً	وتبذل الروح منك كي تواصلنا
محزون قلب له شغل بغايته	تري لنا الفضل حيث الله فضلنا
فشؤم نُكْرُك يا مشؤوم حاق بكم	ما راعنا أبداً وقتنا وهولنا
فنحن في غبطة صفا الزمان لنا	منعمون بما الإله حوّلنا
جمالنا بعلوم أنت تجهلها	بها حباننا الذي أهدى وجملنا
عرفنا كل الذي وصفتونا به	ونحن أعرف منكم بأنفسنا

بل نحن أعرف منكم بأنفسكم  
فأنتم عندنا أرواح طاهرة  
عرفنا منزلكم لم تدروا منزلنا  
ونحن عندكم رجس أجاهلنا

\*\*\*

يا صاح إنك لو حضرت سماءنا  
وشهدت أرضاً زلزلت زلزالها  
ونظرت أرضاً بدلت وسماءنا  
وشهدت صعقتنا والإله قائل  
ثم الإفاقة والمهيمن يلقي من  
لشهدت شيئاً لا يطاق شهوده  
وعلمت أن القوم ماتوا حقيقة  
فلذا أباح لهم حماه المالك

\*\*\*

أمطنا الحجاب فانمحا غيب السوى  
ولم يبق غيرنا وما كان غيرنا  
تجمعت الأضداد فيّ وأنني  
فلا تحتجب بما ترى متكثراً  
فما كنت ناظراً بنا أنت ناظر  
هو الدين توحيدي فلا تحسبن غيري  
فما دمت غيرنا فأنت شريكنا  
وما دمت موجوداً فشركك ظاهر  
ففارق وجود النفس تظفر بالمنى  
وما توحيدى المقبول قولاً وأنه  
وما هو إلا أن تصير إلى الفنا  
تشاهد أحوال القيامة جهرة  
هناك تصير موقناً وموحدًا  
ويغنى الذي قد كان من قبل فانيًا  
فإن كنت ذا فأنت ذا الملك الذي

وزال أنا وأنت وهو فلا لبس  
أنا الساقى والمسقى والخمر والكاس  
أنا الواحد الكثير والنوع والجنس  
فما هو إلا شخصنا النزه القدس  
إلينا وإلا أنت أعمى به طمس  
يوحدني غيري هو الشرك والرجس  
وهل ثم غير يا بليد به هوس  
فإن لم تكن فربما رحل النحس  
وزايل ضلال العقل إذ أنه الحبس  
لفعل فلا يغرك جن ولا إنس  
وتصعق ليس ثم روح ولا حس  
تهيأ لك الأكفان والغسل والرمس  
وتعرف ما هي الذنابة والرأس  
ويبقى الذي لا زال قبل هو الأس  
له عنت الوجوه أصواتها همس

\*\*\*

فأعجب به أراه من حيث لا أرى  
 وزال حجاب البين وانحسم المرا  
 وقد كان غايباً وقد كان حاضرا  
 لضدين من كل الوجوه تنافرا  
 وقربني فكان سمعاً وباصرا  
 بسر حكى لطف النسيم إذا سرا  
 أني قد اخترت قد اصطفت بلا امترا  
 تمتع وكحل بالجمال نواظرا  
 وكان جمالي بالحجاب مسترا  
 محب لذلك الحسن لو كان قدراً  
 لبعض الذي شاهدت مات فأقبرا  
 في ليلى فمات والهأ متحيرا  
 إليك فحدث عن عطاي مخبرا  
 وكن فرحاً بالوصل لله شاكرا  
 أبحننا لك الذي ترا جل ما ترا  
 فمن له مثل ذا يكن بدا أجدرا  
 فكان الذي قد كان منه مسطرا  
 وكأنا وكأنا شيئاً ما أنا حاضرا  
 له زدني ما ينفك قلبي مسعرا  
 وصلت إلى لا أين حقاً ولا ورا  
 صقت ودك طورنا جراً ما جراً

تجلى له المحبوب من حيث لا يرى  
 وغيبتي به فغاب رقيبنا  
 فصرت أراه كل حين ولحظة  
 وما عرف الخلاق إلا بجمعه  
 وواصلني فلا تناكر بعد ذا  
 أسر إليّ حيث لا بين بيننا  
 ولا ظفني بقوله الحق معلنا  
 وباسطني يا ما أئذه قائلاً  
 فقد طالما قد كنت تصبو إلى اللقا  
 وكم من شهيد مات بالشوق والفنا  
 وكم من شهيد للغرام مشاهد  
 وذا قيس عامر تخيل نورنا  
 لقد سبقت بالفضل منا عناية  
 وغنّ ودندن لا تمل لمفند  
 تملّ وقر عيناً وأنعم بوصلنا  
 وتنه وتدلّل أنت أهل لكل ذا  
 وقد شرب الحلاج كأس مدامة  
 وأني شربت الكاس والكاس بعده  
 وما زال يسقيني وما زلت قائلاً  
 وفي الحال حال السكر والمحو والفنا  
 أنا الموسوي الأحمدي وراثه

\*\*\*

يا من هم الروح لي والروح والراح  
 وخفقت في محيا الحسن ترتاح  
 عقل ونفس وأعضا وأرواح  
 إلا وأحباب قلبي دونه لاحوا  
 فلا يروق لقلبي بعد ملأح

أوقات وصلكم عيد وأفراح  
 يا من إذا اكتحلت عيني بطلعتهم  
 دبت في كل جوهره حمياهم  
 فما نظرت أبداً إلى شيء بدا  
 نظرت حسن الذي لا حسن يشبهه

ولو قلتني الورى لذاك أو شاحوا  
 في بحرهم سَفِينٌ حَقًّا وملاح  
 أن ليس تبدو له شمس وأشباح  
 حنو أو من شوقهم ناحوا وقد صاحوا  
 لو أبصرتهم لما جاؤوا ولا راحو  
 صبر المحبين ما ناحوا ولا باحوا  
 تهتكى كيف لا والحب فضاح  
 ولا الصوارم في صدري وأرمح  
 وذا السحر صحة وإصلاح  
 فلي به بين أهل العشق أمداح  
 فإن قلبي بما تهواه مشحاح  
 مهلاً فإنك مكشاح وملحاح  
 عنهم وما له من توراتي ألواح  
 بصرم خل غدا من شجونى مرتاح  
 فذاق من جملة الإنعام سراح  
 أساويد الشوق في أحشائه طاحوا  
 ولا يشججه من سعاد أرواح  
 له لأخبارهم نشر وإفصاح  
 ففي حديثهم تجر وأرباح  
 فيها ثمار وأطييار وأدواح  
 يرتاح مهما تهب منه أرواح  
 وقد أدبرت أباريق وأقداح  
 يا ليته لم يكن ضوء وأصباح  
 والدهر كله أنوار وأفراح  
 بلغت ما رمت قر الناس أو ساحوا  
 خزائبًا ما لها قفل ومفتاح

وليس لطافة الرؤية لغيرهمو  
 غرقت في حبههم دهرًا وما أنا ذا  
 ماذا على من رأى يومًا جمالهم  
 أجبال مكة لو رأت محياهم  
 شهب الدراري مدى الأزمان سابحة  
 لو كنت أعجب من شيء لأعجبنى  
 أريد كتم الهوى حينًا فيمنعني  
 لا شيء يثني عناني عن محبتهم  
 قال العذول بكم سحر فقلت له نعم  
 لا زال يربو مع الآتات بي أبدًا  
 يا عاذلي كن عذيري في محبتهم  
 إن الملام لإغراء وتغوية  
 إنى لأهجر خلًا لا يحدثنى  
 شرع المحبة قاض في حكومته  
 مسكين ما ذاق طعم العشق منذ بدا  
 ما بات يرعى النجوم ساهرًا قلقًا  
 ما دب في عظمه خمر الهوى أبدًا  
 فما نديمي ولا سميري غير فتى  
 لا كسب بل ولا شغل ولا عمل  
 ما جنة الخلد إلا في مجالسهم  
 هوى المحب لدى المحبوب أين ثوى  
 أود طول الليالي إن خلوت بهم  
 يروعني الصبح إن بدت طلايعه  
 ليله بدا مشرقًا من حسن طلعتهم  
 أسكن فؤادي وقر ناعمًا شاكرًا  
 وأطلب إلهك في المزيد إن له

يقوم برسمنا فيشملة الحد  
يجيب إذا دعى لا رد ولا جحد  
ولم يبق إلا قادر ماله عبد  
وزال خيال الظل وارتفع السد  
فصار ضلالاً ما يراه له رشد  
ألا فاطلبوا من ذا يكلمكم قصد  
فما عمروكم عمرو ولا زيدكم زيد  
وتعبيري ما يغي فيبدو ولا يبدو  
كما أن من قد ذاق عاذركم يغدو

أرى الذي أفناني سيخلفني بعد  
لذلك أرى اسمه يعين رسمنا  
فما بالهم يدعونه عبد قادر  
لقد باد من قد كان من قبل بائداً  
وزال عن العقل المصون حجابهُ  
فلست أنا ذاك الذي تعرفونه  
ولستم أنتم الذين عرفتهم  
لقد ضاق صدري بالذي أنا واجد  
ألا فاعذروا من ذاق أن ضاق صدره

\* \* \*

فأي الأمور ثابت هو لي أي  
وهل أنا ثابت وهل أنا منفي  
وهل أنا محجوب وهل أنا مزي  
ولست سماوياً ولا أنا أرضي  
وهل أنا ذا شيء وهل أنا لا شيء  
وهل عالمي غيب أو أنني شهادي  
وهل أنا جسماني أو أنني روحاني  
وهل أنا ذا ميت وهل أنا ذا حي  
وهل أنا عالم وهل جاهل عي  
وهل قدرتي يقال أو أنا كسبي  
رأيتني فاعلاً به وذا بادي  
بعكس الذي قد كان والأمر ملوي  
فلم يبق إلا الله ماله ثاني  
وإن شئت فادفعها فتشرك لي طي  
رجعت لإطلاقي لا رشد ولا غي  
فلا خلق لا عبد ولا شيء كوني  
ومن روحي حتى قيل إنني قدسي

لقد حرت في أمري وحررت في حيرتي  
فهل أنا موجود وهل أنا معدوم  
وهل أنا ممكن وهل أنا واجب  
وهل أنا في قيد وهل أنا مطلق  
وهل أنا في حيز وهل عنه نازح  
وهل أنا ذا حق وهل أنا ذا خلق  
وهل أنا جوهر وهل أنا ذا كيف  
وهل أدري من أنا في هذا تحيري  
وهل أنا مجبور وهل لي خيرة  
وهل فاعل أنا وهل غير فاعل  
وكنت أراني فاعلاً ثم بعد ذا  
ومن بعد ذا رأيتني بي فاعلاً  
ولم يبق ذا وذا ولا ذاك باقياً  
فإن شئت فأثبت لي النواقض كلها  
وأنني حال السحق والمحو والفنا  
وصرت إلى حقي وربّي وغيبتي  
تجردت من حسي ومن نفسي راقباً

\* \* \*

لقد ضقت ذرعًا فما ينفع  
 جواهري مبثوثة أجمع  
 فسأل إلى أصله أنفع  
 بسد عليّ فما أطلع  
 وإن كنت عينًا فذا أقطع  
 فكل النقيضين لا يرفع  
 فكل النقيضين لا يجمع  
 إذا لم يكن برقه يلمع  
 إذا كان هذا هو الدفع  
 فقد جمع الضد لي مجمع  
 أنا العالم الأكبر الأجمع  
 فقير دعاه فلا يسمع  
 ولا من يجير ولا يدفع  
 فهيهات هيهات لا مطمع  
 يقول فذا الداء لي الموجه  
 توالت فكان لها المرجع  
 وحتى القيامة لا تقلع  
 فليس إلى غيرها مفرع  
 وكلُّ لقد ضم ذا المصرع  
 على العين ستري فلا يتشع  
 ومن هو في أسفل الأرض عو  
 له ثم وجه له برقع  
 ومن يتحول في صور فاسمعوا  
 عقول الورا اغتالها سبع  
 مجاهل أرواحها زعزع  
 وكل يقول إليّ امرعوا  
 وعندى السبيل وذا المهيع

أيا حيرتي وما الذي أصنع  
 أكاد تراني منفطرًا  
 وطورًا أذوب كثلج بما  
 وكلمًا قلت هذا مخرج  
 فإن كنت غيرًا أنا مشرك  
 وإن كنت لا ذا ولا ذا أنا  
 وإن كنت ذلك وذلك أنا  
 وأين تسميه لي ظاهرًا  
 وأين تسميه لي باطنًا  
 وإن كان لي ظاهرًا باطنًا  
 وكل العوالم طورًا أنا  
 وطورًا لا شيء يقال له  
 أنادي مغيثًا فلا منجد  
 فهل من دوا بهذا العضال  
 وكل طبيب شكوت له  
 وأهرب من حيرتي كلما  
 فحيرتي ما كنت كائنة  
 فأشكو إلى حيرتي حيرتي  
 وكم كائن بهذا ابثلي  
 فيا خيبة العقل في حكمه  
 فأين الذي فوق عرش على  
 ومن أينما نتولى فهو  
 ومن أينما كنا معنا يكن  
 فما بين هذا وذه وتة  
 وتاهت في بيداء مظلمة  
 سكارى وشتى مذاهبهم  
 فعندي النجاة وعندى الهدى

وما لي من حدّ فلا تبغوا لي حدًا  
ولا صورة لا أعدو منها ولا بدأ  
وإن شؤوني لا يحاط بها عدًا  
فلا تطلبوا مثلاً ولا تبغوا لي ضدًا  
فلا تنظروا عمرًا ولا تنظروا زيدا  
سوى خيالات تحسبون لها وجدا  
لأبله عقل صور صبحت عينه رمداً  
فهل غيره ما صار صورته زيدا  
ولا كائن يكون لي أبداً قيذا  
ولا ظاهر غيري فلا أقبل الجحدا  
وقل أنت وهو لست تخشى به ردًا  
ألا فاعبدوني مطلقاً نزهة فردا  
محبباً ومحبوّباً وبينهما ودًا  
فكنت أنا ربّاً وكنت أنا عبدا  
زهوداً نسوكتاً خاضعاً طالباً مداً  
وفي وسطي الزنار أحكمته شدًا  
وبالروح روح القدس قصداً ولا كيدا  
أقرر توراة وأبدي لهم رشدا  
ولا أظهر التثليث غيري ولا أبدا  
وما قال بالاثنيين إلا أنا لحدا  
ولا شيء عيني فاحذر العكس والطردا

\* \* \*

فأنت يا غافلاً على شفا جرف  
أضلك العقل أيقن أنت في تلف  
تظل تعبد ما خلقت في شغف  
حكمت جوراً عليه جور معتسف  
تنفك تحكم فيه حكم ذي سرف

أنا مطلق لا تطلبوا الدهر لي قيذاً  
وما لي من كيف فيضبطني لكم  
وما لي شأن يبقى آئين ثابتاً  
وما لي من مثل وما لي من ضد  
ولا تنظروا غيري من كل صورة  
ولا تطلبوا غيري فما هو كائن  
وما هي إلا سترة قد نصبتها  
ألا فانظروا إلى الحبيب وفكروا  
فلا كائن إلا أنا به ظاهر  
ولا باطن إلا أنا ذلك باطن  
فقل عالم وقل إله وقل أنا  
تعددت الأسماء وإنني لواحد  
أنا قيس عامر وليلى محققاً  
أنا العابد المعبود في كل صورة  
فطوراً تراني مسلماً أي مسلم  
وطوراً تراني للكنائس مسرعاً  
أقول باسم الابن والأب قبله  
وطوراً بمدارس اليهود مدرسا  
فما عبد العزيز غيري عابد  
ولا أوري نار الغرس غير موري  
أنا عين كل شيء في الحس والمعنى

يا من غدا عبداً لفكره فقف  
جعلت عقلك هادياً ونور هدى  
نحتت ربّاً كما تهوى وقلت به  
صورته صورة بالوهم باطلة  
حكمت عقلك في الرب العظيم فما



الحق في طرف وأنت في طرف  
 القيد حد وليس الله كالهدف  
 نفيت ما أثبت القرآن في صحف  
 لما نفيت فإن النفي بعد نفي  
 شتان ما بين ذا وذا فلا تخف  
 فحيثما سار سر وإن يقف فقف  
 أو قال لي أعين فقل بذا كلقي  
 منزلها أحا تشبيهه بلا جنف  
 إذا تجلى لجمع الخلف والسلف  
 خسارة العقل يا ويلاه من صدف  
 والناس أعينهم ترنو إلى الصدف  
 تقليد من يمشي نحو الظلمة السدف  
 مستخرجًا كنزه المحفوف بالطرف  
 تلقاه يسمو إلى العليا والشرف

تقول ليس كذا وليس هو كذا  
 قيدتم مطلقًا لا قيد يحصره  
 فكيف تنكر وصفه حقيقته  
 لولا توهم أن النقص يلحقه  
 الحق في مشرق والعقل في مغرب  
 عليك بالشرع فالزم طريقته  
 إن قال ليس كمثلي شيء قل هو ذا  
 شبهه ترهه في التشبيه حتى ترى  
 لا شك أنك يوم الحشر تنكره  
 وتستعيد عيادًا منه جهلاً فيا  
 عندي من العلم لبه وجوهه  
 قد قيدتهم عوائد وثبطهم  
 فلو وجدت له أهلاً لبحت به  
 لكن أهله قد مضوا فلا طالب

\*\*\*

أجد حشواً حشاي من الشوق نيرانا  
 بها صبت كان حرها ضعف ما كانا  
 وتذكيها أرواح تناوح ألوانا  
 لما نالني ريّ ولا زلت ظمآننا  
 لأسلو عنهم زادني القرب أشجانا  
 نافع ففي قربنا عشق يخليني هيماننا  
 ولا تقطع الخليل للشعر ميزاننا  
 ويزداد كلما بهم زدت عرفاننا  
 دواؤك عزّ لست تنفك ولهاننا  
 ويا ناظري لا زلت بالدمع غرقانا  
 وكان الجنون مثل ما قالوا أفناننا  
 ولا أتحاشا رجلانا ولا ركبانا

أراني كلما توهمت سلوانا  
 نيرانًا فلو أن البحار جميعها  
 يؤججها نسيم نجد إذا سرى  
 فلو أن ماء الأرض طرًا شربته  
 وكلمنا قلت قد تدانت ديارنا  
 فما القرب هو لي شفا ولا البعد  
 وفي بعدنا شوق يقطع مهجتي  
 فيزداد شوقي كلما زدت قرينة  
 فيا قلبي المجروح بالبعد والدنا  
 ويا كبدي ذوبي أسى وتحرقًا  
 أسائل عن نفسي فأني ضللتها  
 أسائل من لاقيت عني والهّا



أقول لهم من ذا الذي هو جامعي  
 وأسأل عن نجد وفيه مخيمي  
 منازل هنّ مربعي ومصيفي  
 ومن عجب ما همت إلا بمهجتي  
 أنا الحب والمحب والحب جملة  
 أقول أنا وهل هنا غير من أنا  
 ففي أنا كل ما يؤمله الورى  
 ومن شاء توراة ومن شاء إنجيلاً  
 ومن شاء مسجداً يناجيه ربه  
 ومن شاء كعبة يقبل ركنها  
 ومن شاء خلوة يكن بها خاليًا  
 ففي أنا ما قد كان أو هو كائن

\* \* \*

يا عظيمًا قد تجلّى  
 أنت مُبدي كل بادٍ  
 كل من في الكون أنتم  
 حسنك البارى تعالى  
 كل حسن مستعار  
 أي حسن أي حسن  
 كنت قبل اليوم صبًا  
 فأزال السّتر عني  
 زادني القرب احتراقًا  
 عجبى من عشق نفسي  
 ليس تشببى وغزلى  
 أنا سعدى أنا سلمى  
 أنا بدر أنا شمس  
 أنا نور أنا نار

كل مجلى له مجلى  
 أنت أبدى أنت أجلى  
 أنت مولى كل مولى  
 أن نرى عنده مثلاً  
 من جمال قد تدلّى  
 غير حسن قد تعلى  
 أسأل المحبوب ميلاً  
 فبدا لي الفصل وصلاً  
 فأنا بالوصل أصلى  
 ما أحببت غيري أصلاً  
 وغسرامسى إلا إلا  
 أنا هند أنا ليلي  
 أنا صبح قد تجلى  
 أنا برق ضياء ليلاً

أنا كأس أنا خمر  
 كتب العشق زبوراً  
 كل يوم كل حين  
 ما نسيت الدهر وقتنا  
 بين أنس بمهابة  
 وحسنات غانيات  
 وأسود ضاربات  
 كل نعماكم لذيد  
 كل بلواي حقيير

\* \* \*

يقولون لا تنظر سعاد ولا علوا  
 فإنك مكلوم الفؤاد متيم  
 وقد ملك الليل البهيم تحرقاً  
 فقلت أراني ما أرى غير من سبا  
 نظرت إليه والمليحة تحسبن  
 ولكن جمال من أحب تبدا لي  
 يكلمني بالرمز من خلف ساتر  
 فلا متكلم سواه مخاطب  
 أخاطبني إياي فيه تحقّقاً  
 فيا ويح ما أعلل النفس في الهوى  
 فقل للذي ما ذاق طعم شرابنا  
 إليك تنحا إننا خضنا أبحرًا

\* \* \*

لا تعجبوا من حديثي جل عن عجب  
 ولدت جدي وجدته وبعدهما  
 وبعده ذا ولدوني بعد كوني أنا  
 وكنت من قبل في الحجور ترضعني  
 وليس يدري الذي أقول غير فتى

\* \* \*

حقيق قولي لا لغو ولا كذب  
 أبي تولد عن أمي وأي أب  
 ووالدي البر تومان في صلب  
 بطيب ألبانها الأمات لا ترب  
 قد جاوز الكون من عين ومن رتب

ويا شمسًا بلا نور	فيا نورًا بلا شمس
وساحلاً بلا بحر	ويا بحرًا بلا حد
ويا عرفًا بلا نكر	ويا نكرًا بلا عرف
ويا عينًا بلا غير	ويا غيرًا ولا عين
ويا كشفًا بلا ستر	ويا سترًا بلا كشف
ويا ليلاً بلا فجر	ويا فجرًا بلا ليل
يا حرف ما له مفر	يا حيرتي يا دهشتي
في حيرتي وفي أمري	لقد حيرتني حتى
وذو عقل وذو فكر	وحار كل ذي كشف
عرفناكم إلى خسر	وغاية الذي يبغى

\* \* \*

هويته سمعي هويته البصر	وما نحن إن حققت بالغير والسوى
هويته كلي لا تبقى ولا تذر	هويته عقلي هويته قلبي
هويته نفسي وإنني ما ذكر	هويته رجلي هويته يدي
مذ كنت فاسمع لي واعتبر	وما حلني ولا حلته أنا به فكأنني
فما ثم إلا الله لا عين الغير	تعددت الألقاب والعين واحد
فأنت هو الأنا وهو أنت فادكر	فشيئان لفظ نحن والعين واحد
كرجع الصدا الثاني في الحس والأثر	يجيب إذا دعوت فهو الذي دعا

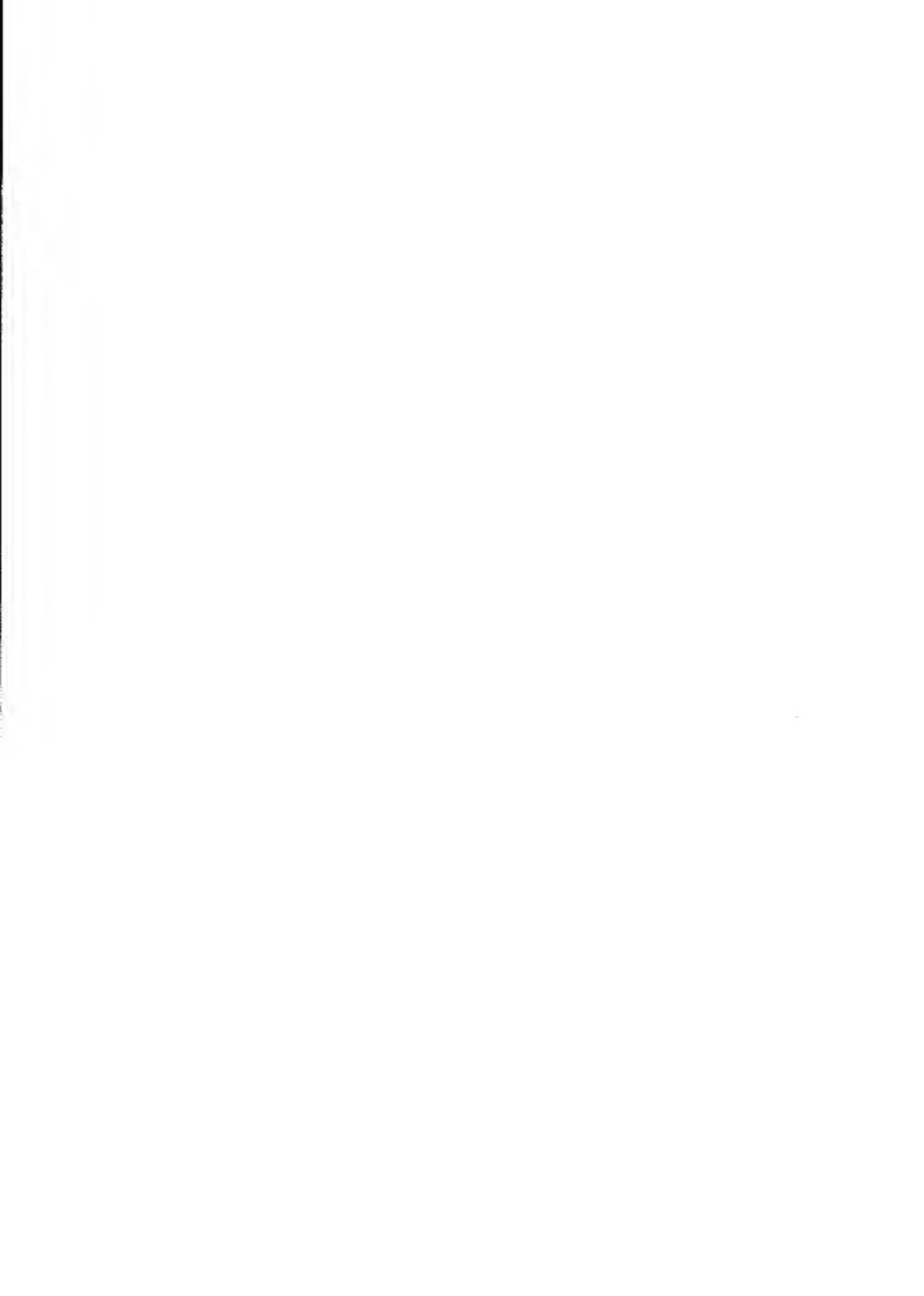
\* \* \*

ويا أنت من تكون إن لم تكن أنا	أيا أنا من أكون إن لم أكن أنت
فكشرتم لذاك طاشت عقولنا	ما بالكم قلتم آله واعبد
فقد رفع الستر المفرق بيننا	إذا رفعت من بيننا العين والألف
ولا أنت معبود فزال حجابتنا	وذلك حين لا أنا لك عابد
أنا عرش أنا فرش أنا نار أنا خلد	أنا حق أنا خلق أنا عبد أنا رب
أنا كم أنا كيف أنا فقد أنا وجد	أنا ماء أنا نار وهو أنا صلد
أنا ذات أنا رصف أنا قبل أنا بعد	أنا وصل أنا فضل أنا قرب أنا بعد

\* \* \*

أنا كون ذاك كوني أنا وحدي أنا فرد  
 بالعلم منه قيده لا تبديل لا تغيير  
 فكلنا في قبضته مقيد ومحصور  
 يا حيرة العقل ويا ظلمة ما لها نور  
 سوى الذي عرفه كشفًا فذاك مبرور  
 وتنجو مثل من نجى  
 لا شك أنني مجبور وجابرني مجبور  
 والعلم أيضًا تابع لمتبوع ومقصور  
 فأين لو شئنا ولو أردنا فيه تخيير  
 والجبر لا عذر به لجاهل يا مغرور  
 فحقق الأمر تفز بعلم عندي مدخور  
 والذنب منك مغفور

لما انفتح الباب وارتفع الحجاب، واجتمعت الأحباب، على الشراب اللذيذ  
 المستطاب، رتب الأفراح، حيث ما دبت الراح، وبعد أن طار السكر والمحو ونزل  
 الحضور والصحو، رأيت شمسنا طالعة، مشرقة ساطعة والناس في ظلمة وليل، ومرج  
 وويل، قلت ما بال الناس؟ فقيل إنهم في عمى وإفلاس، وما لكم ولهم؟! إنهم عالم  
 وأنتم عالم!! والله غالب على أمره الحاكم العزيز العالم.



## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### الحمد لله وحده

#### الموقف الأول

قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: الآية ٢١].

هذه الآية الكريمة تلقيتها تلقياً غيبياً روحانياً، فإن الله تعالى قد عودني، أنه مهما أراد أن يأمرني، أو ينهاني، أو يبشرنني، أو يحذرنني، أو يعلمني علماً، أو يفتيني في أمر استفتيته فيه، إلّا ويأخذني مني مع بقاء الرسم، ثم يلقي إليّ ما أراد بإشارة آية كريمة من القرآن، ثم يرذني إليّ فأرجع بالآية قرير العين، ملأن اليدين، ثم يلهمني ما أراد بالآية، وأتلقى الآية من غير حرف ولا صوت ولا جهة، وقد تلقيت والمنة لله تعالى، نحو النصف من القرآن بهذا الطريق وأرجو من كرم الله تعالى أن لا أموت؛ حتى أستظهر القرآن كله<sup>(١)</sup> فأنا بفضل الله محفوظ الوارد، في المصادر والموارد، ليس للشيطان عليّ سلطان، إذ كلام الله تعالى لا يأتي به شيطان، ما تنزلت به الشياطين، وما ينبغي لهم وما يستطيعون، وكلّ آية تكلمت عليها؛ إنما تلقيتها بهذا الطريق. إلّا ما ندر، وأهل طريقنا - رضي الله عنهم - ما اذعوا الإتيان بشيء في الدين جديد، وإنما اذعوا الفهم الجديد في الدين التليد، وساعدهم الخبر المروي. إنه لا يكمل فقه الرجل حتى يرى للقرآن وجوهاً كثيرة.

والخبر الآخر؛ أن للقرآن ظهراً وباطناً، وحداً ومطلعاً، رواه ابن حبان في صحيحه، والأثر الوارد عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أنه قال: «ما حرّك طائر جناحيه في السماء؛ إلّا وجدنا ذلك في كتاب الله»<sup>(٢)</sup>.

(١) قد حقق الله تعالى رجاءه فاستظهر القرآن كله. رحمه الله ورضي عنه.

(٢) وقد روى نحوه أحمد في المسند عن أبي ذر الغفاري بلفظ: «لقد تركنا محمد ﷺ وما يحرك طائر جناحيه في السماء إلّا أذكرنا منه علماً». ورواه الهيثمي في مجمع الزوائد (٢٦٣/٨) طبعة القدسي.

ودعاؤه - ﷺ - لابن عباس: «اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل»<sup>(١)</sup>.

وفي الصحيح عن علي - كرم الله وجهه - أنه قيل له: هل خصصكم رسول الله - ﷺ - أهل البيت، بشيء دون الناس؟! يعني من العلم، فقال: «لا. والذي فلق الحبة، وبرأ النسمة. إلا أن يكون فهما أعطيه رجل في كتاب الله»<sup>(٢)</sup> وما في هذه الصحيفة، وما في هذه المواقف؛ من هذا القبيل، والله يقول الحق، وهو يهدي السبيل. ومن أراد أن يبلو صدقهم؛ فليسلط طريقهم، وأن القوم - رضي الله عنهم - ما أبطلوا الظواهر، ولا قالوا ليس المراد من الآية إلا ما فهمنا. بل أقرأوا الظواهر على ما يعطيه ظاهرها. وقالوا: فهمنا شيئاً زائداً على ما يعطيه ظاهرها، ومن المعلوم أن كلام الحق - تعالى - على وفق علمه، وعلمه - تعالى - محيط ومتعلق بالواجب والممكن والمستحيل، فغير بعيد أن يكون مراد الحق - تعالى - من الآية؛ كل ما فهمه أهل الظاهر وأهل الباطن. وما لم يفهموه. ولهذا ترى كلما جاء أحد ممن فتح الله بصيرته، ونور سريره، يستخرج من الآية والحديث معنى ما اهتدى إليه من قبله، وهكذا إلى قيام الساعة. وما ذاك؛ إلا لاتساع علم الحق - تعالى - فإنه معلمهم ومرشدهم، فنقول في هذه الآية - مع قلّة حروفها - من الإعجاز؛ ما لا يعبر عنه بحقيقة ولا مجاز. فهي بحر زاخر، ما له أول ولا آخر، فكل ما ألفه المؤلفون من أحكام الدين والدنيا؛ داخل تحت إشارتها بلا ثنيا.

قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب:

الآية ٢١].

أي بالنظر إلى معاملة الحق - تعالى - لرسوله - ﷺ - فإنه أعطاه ومنعه، وضره ونفعه، وسلط الأعداء عليه، وجعل الحرب دولا، تارة له وتارة عليه، وقبضه وبسطه أخرى، وأجاب دعاءه وردّه أخرى، تارة يقول له:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ [الفتح: الآية ١٠]، ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: الآية ٨٠]، ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: الآية ٣١]، ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَنْ يَكُ اللَّهُ رَمِيًّا﴾ [الأنفال: الآية ١٧].

(١) رواه البخاري: كتاب الوضوء، باب وضع الماء عند الخلاء، حديث رقم (١٤٣). ورواه مسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، حديث رقم (٢٤٧٧).

(٢) رواه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب فكك الأسير حديث رقم (٣٠٤٧).



«فإن قوة الكلام تعطي أن المراد: ما أنت إذ أنت، ولكن أنت الله! ومرة يقول

له:

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [التقصص: الآية ٥٦]، ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ﴾ [آل عمران: الآية ١٢٨]، ﴿إِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمِعُ الْأُصْمَ الدُّعَاءَ إِذَا وَلُوا مَدِيرِينَ﴾ [الشمس: الآية ٨٠]، ﴿وَمَا أَنْتَ بِهَادِيَ الْعَمَىٰ عَنِ ضَلَالِهِمْ﴾ [الروم: الآية ٥٣]، ﴿أَفَأَنْتَ تُفَقِّدُ مَنْ فِي النَّارِ﴾ [الزمر: الآية ١٩]، ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ﴾ [ق: الآية ٤٥].

فأنزله له تارة منزلة نفسه العليّة، وتارة منزلة العبد الحقير. ويدخل تحت هذا القسم؛ من العلم بالله تعالى وصفاته وغناه عن مخلوقاته وافتقارهم إليه، ومن العلم بالرسول - عليهم الصلاة والسلام - وما يجب لهم ويجوز ويستحيل في حقهم، وحكمة الله في مخلوقاته، وترتيب الآخرة على الدنيا ما لا يحصى ولا يستقصى من العلوم.

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: الآية ٢١].

أي بالنظر إلى معاملته - ﷺ - لربه، من تحقيق العبودية والقيام بحقوق الربوبية، والفقر إليه، وتوكله في كل أموره عليه، والاستسلام لغيره والرضى بقضائه، والشكر لنعمائه، والصبر على بلائه... ويدخل تحت هذا القسم؛ جميع العلوم الشرعية: عبادات، وعادات، ومنجيات، ومهلكات، وهي علوم لا يبلغها عد، ولا تحدُّ بحد.

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: الآية ٢١].

أي بالنظر إلى معاملة الخلق له - ﷺ - فإنهم بين مصدق ومكذب، ومحب، ومبغض، وآذوه - ﷺ - بالقول والفعل وبأشروه بكل مكروه دون القتل، شج وجهه الشريف، وكسرت رباعيته وتحزبت عليه الأحزاب، وأسلمه الحميم، وما زاده ذلك؛ إلا بصيرة في أمره، وشدة في حاله، ويدخل تحت هذا القسم من شمائله - ﷺ - وأخباره، وأخبار الأنبياء - عليهم السلام - وأخبار العارفين بالله، وماذا لقوا من المكذبين لهم... ما لا يدركه ضبط، ولا يبلغه ربط.

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: الآية ٢١].

أي بالنظر إلى معاملته - ﷺ - للخلق، من محبتهم، وإرادة الخير لهم، حتى

قال له ربه:

﴿لَعَلَّكَ بَحْجٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾﴾ [الشعراء: الآية ٣].

والصبر عليهم، ورؤية وجه الحق - تعالى - فيهم، ظلموه فعفا، وحرموه فأعطى، وجهلوا عليه فاحتمل، وقطعوه فوصل، وقال: «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون»<sup>(١)</sup>. دفع السيئة بالحسنة، وقابل كل مكروه بالأضداد المستحسنة، تخلقاً بالأخلاق الإلهية وتحققاً بالأسماء الرحمانية، فإنه لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله. ويدخل تحت هذا القسم من مكارم الأخلاق وحسن الشمائل، وعلوم سياسة الدين والدنيا، التي بها نظام العالم وعمارته، وسعادة السعيد ما لا تضبطه الأقلام، وتكل دونه الأوهام.

فيجب على المرید، بل والعارف؛ أن يجعل هذه الآية قبلته في كل مكان، ومشهده في كل زمان، فإن أحواله لا تخرج عن هذه الأربع حالات، ولعلها هي الصراط المستقيم، الذي قعد عليه الشيطان لابن آدم والأربع الجهات. فإنه حلف: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ لَأَنْزِلَنَّ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَّ مِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الأعراف: الآيتان ١٦ - ١٧].

فمن قام بما دلت عليه الآية الكريمة؛ فهو من الشاكرين. وليس عليه سلطان للشياطين.

\* \* \*

## الموقف الثاني

قال الله تعالى: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: الآية ٥].

ظاهره يعطي أن العبد قادر على بعض الفعل، وعاجز عن بعضه، لأن لكل من المتعاونين نسبة في الفعل، أي الحاصل بالمصدر، فاعلم أن مخاطبة الحق - تعالى - لعباده في كتبه المنزلة، وعلى السنة رسله - عليهم الصلاة والسلام - إنما جاءت على حسب مبلغ علم عامة العباد، ومنتهى عقولهم وما أدت إليه بديهتهم، ولما كان عامة العباد يتوهمون أن لهم وجوداً مستقلاً مبايناً لوجود الحق، حادثاً أو قديماً، تركهم الحق على وهمهم لأن حالتهم التي هم عليها لا تحتمل أكثر من ذلك، وليحكّم هو يعلمها، وخاطبهم على أن لهم وجوداً كما زعموا، وأضاف لهم الأفعال والتروك، والقدرة، والمشية، وغير ذلك على حسب دعوهم فقال لهم: افعلوا واتركوا:

(١) رواه البخاري، كتاب الأنبياء، باب حديث الغار، رقم (٣٤٧٧). ورواه أحمد في المسند عن عبد الله بن مسعود حديث رقم (٤٢٠٢).

﴿أَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ [الأنعام: الآية ٧٢]، ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الرِّبَا﴾ [٣٢] ﴿[الإسراء: الآية ٣٢]، ﴿فَسَبَّحْ بِحَمْدِ اللَّهِ عَمَلِكُمْ وَرَسُولِهِ﴾ [التوبة: الآية ١٠٥]، ﴿وَلَنْ يَتْرَكَنَّ أَهْلَكَكُمْ﴾ [محمّد: الآية ٣٥]، ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ [الكهف: الآية ٢٩]. ونحو ذلك.

ومن المعلوم البين أن القدرة على الفعل والترك والمشية وسائر الإدراكات؛ تابعة للوجود. فما لا وجود له، لا فعل ولا ترك ولا إدراك له، والإنسان وكل ممكن؛ لا وجود له، مستقلاً لا قديماً ولا حادثاً برهاناً وكشفاً، أما الكشف فالعارفون مجمعون على هذا، وأما البرهان فلأنه لو كان لممكن، أي ممكن كان، وجود مستقل مبين لوجود الحق تعالى؛ فوجوده عارض لماهيته، والفقرة السليمة قاضية بديهية بأن ثبوت كل صفة لموصوف؛ فرع ثبوت الموصوف في نفسه، فالممكن - على هذا - ممتنع الوجود إذ لو وجد؛ لكان وجوده عارضاً لماهيته وعروض الوجود له؛ متفرع على وجوده أولاً، فهذا الوجود السابق إما أن يكون عين اللاحق، أو غيره. والأول مستحيل، ضرورة تقدم الشيء على نفسه، والثاني مستحيل أيضاً، لأننا نحول الكلام إلى الوجود السابق، فيلزم الدور أو التسلسل وكلاهما محال.

ولمّا كان خطاب الحق عباده؛ إنما هو على حسب تخيلهم، وتمشية لدعواهم، وكان الأمر دايراً بين ما توهمته عامة الخلق، وبين ما هو الأمر عليه في نفسه، جاءت نسبة الأفعال الصادرة من العباد في بادئ الرأي ونظر العقل، متنوعة مختلفة في الكتاب والسنة، فمرة جاءت منسوبة إلى الله بالإنسان، كما في قوله تعالى:

﴿فَتَلَوْتُمُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ [التوبة: الآية ١٤] ونحوه.

ومرة منسوبة إلى الإنسان بالله، كما في قوله تعالى:

﴿كَمْ مِنْ فِتْنَةٍ فَلَئِنَّ غَلَبَتْ فِيكُمْ كَثِيرَةً يَأْذِنُ اللَّهُ﴾ [البقرة: الآية

[٢٤٩] ونحوه. وتارة منسوبة إلى الإنسان وحده، كما في قوله تعالى:

﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ﴾ [البقرة: الآية ٢٧٧] ونحوه.

تارة نفاها عن الإنسان صراحة. كما في قوله تعالى:

﴿لَا يَفْقَهُونَ عَلَيَّ شَيْءٌ مِمَّا كَسَبُوا﴾ [البقرة: الآية ٢٦٤]، ﴿فَلَمَّ تَقَاتَلُوا﴾

﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ قَلْبُهُمْ﴾ [الأنفال: الآية ١٧].

ونحوه قوله تعالى:

﴿وَأَيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: الآية ٥].

جاء أمرًا وخطابًا على ما توهمته العامة، لأنه لولا توهم العبد أن له قدرة على بعض الفعل؛ ما طلب العون على البعض المعجوز عنه، فإن قلت: قال - تعالى -:

﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: الآية ٥٦].

وظاهر هذا؛ ينافي ما قلت: من أن علة التكليف هي الدعوى، قلت: العبادة التي خلق لها الجن والإنس؛ هي العبادة الذاتية كسائر المخلوقات. ولا شك أن للجن والإنس عبادة ذاتية، والعبادة التي قلنا سببها الدعوى، هي العبادة التكليفية، التي نشأت من اجتماع النفس الناطقة بالجسم العنصري.

\* \* \*

### الموقف الثالث

قال تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ [٩٨] وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴿٩٩﴾ [الحجر: الآيتان ٩٨، ٩٩].

الخطاب للنبي - ﷺ - والمراد غيره من أمته «إياك أعني واسمعي يا جارة» ومثله في القرآن كثير، وهو أمر لمن كان من المؤمنين من وراء الحجاب، وفي الحالة العامة: أن يسبح الحق - تعالى - أي ينزهه بتنزيه العقول، ويعتقد عقيدة العموم. وأن يسجد له - تعالى - أي ينزهه بتنزيه العقول، ويعتقد عقيدة العموم. وأن يسجد له - تعالى - ويعبد ربّه وهو الوجه، الذي تعرف الحق تعالى به للعبد، فإن لكل مخلوق اسمًا من أسماء الحق - تعالى - هو الوساطة بين الحق - تعالى - والعبد، ولا يعرف العبد الحق - تعالى - إلا من طريقه، ولا يعبد العبد من الحق - تعالى - إلا ذلك الاسم، ولو تجلى الحق - تعالى - للعبد بغير مقتضى ذلك الاسم ما عرفه، بل ينكره، ويقول له: لست ربي، ويتعوذ منه، لأن العامي لا يقدر أن يعبد الحق مطلقًا، ولا يعرفه في جميع تجلياته، فأمر الحق - تعالى - أن يعبد ربه بأنواع العبادات الشرعية، والوظائف السنية، ويتقرب إليه بنوافل الخيرات. والحكمة في الأمر بملازمة التسبيح والتنزيه والسجود والعبادة، هو أنه ربما سمع العامي المحجوب أحوال العارفين بالله وكلامهم، وما من الله - تعالى - عليهم به من العلوم الوهيبية، والأسرار الربانية، فيتعلق بذلك على غير وجهه، وطريقه الموصول إليه، ويترك ما بيده من الأعمال

والوظائف الشرعية، فيهلك ويبقى لا هو بالفأيت ولا بالحاصل. ويتشبه بهم في أحوالهم الباطنة الخاصة بالكاملين، ويتكلم بكلماتهم في وحدة الوجود، ومثلها من المسائل المشككة من غير سلوك طريقهم، على وجهه المعروف عندهم. فنصح الحق عباده وأمرهم بالتمسك بما عندهم، والعمل به والخير يجر بعضه إلى بعضه، كالغيث يكون قطرة ثم ينهمل، فإذا عمل العبد على أمر الحق له، وواظب على أنواع النوافل؛ أحبه الله، فإذا أحبه كان سمعه وبصره ولسانه ويده وجميع قواه. وهو المراد بإتيان اليقين بمعنى الكشف، وزوال الغطا عن حقيقة الأمر، وباطنه، وأن الحق هو قوى العبد جميعها، وحينئذ، يعرف العبد من هو المسيح والساجد، والعابد، وما فائدة السجود والعبادة، وما علتها الغائية، وأنه ليس المقصود من التكليف الشرعية؛ إلا أنها أسباب وأدوية لرفع الحجاب عن وجه الأمر، وبعد فتح الباب، ورفع الحجاب؛ يزيد العبد تعظيمًا للأوامر الشرعية، والتزامًا لها، لأنه ما رآه كمن سمع. ويكون إتيانه بالعبادات بعد رفع الحجاب على طريق أعلى وأفضل، وعلى وجه أعدل وأكمل، لا مناسبة بينه وبين إتيان العبادات الأول، وكل من ادعى أنه شم رائحة من طريق أهل الله - تعالى - ولم يزد للشرع تعظيمًا، وللسنة اتباعًا، فهو مفتر كذاب.

\* \* \*

### الموقف الرابع

قال تعالى: ﴿بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ آلِجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ﴾ [سبأ: الآية

[٤١].

كنت ليلة بالمسجد الحرام قرب المطاف، متوجهًا للذكر وقد نامت العيون، وهدأت الأصوات، فجلس بالقرب مني يمينًا وشمالًا، أناس، وجعلوا يذكرون الله - تعالى - فخطر في قلبي أئنا أهدى سبيلًا إلى الحق تعالى؟! فبعد الخاطر بقريب؛ أخذني الحق - تعالى - عن العالم وعن نفسي، ثم ألقى إلي قوله:

﴿بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ آلِجِنَّ﴾ [سبأ: الآية ٤١].

فعلمت أن عبادتهم كانت مشوبة بأغراض نفسية، وحفظوا شهادتي. وأقول تبعًا للمحققين من أهل الله تعالى: إن كل من عبد الله - تعالى - خوفًا من النار، أو طلبًا للجنة، أو ذكر الله - تعالى - لتوسعة رزق مثلاً أو لصرف الوجه إليه، وهو الجاه، أو لدفع شر ظالم، أو سمع في الحديث من فعل العبادة الفلانية أو ذكر الذكر الفلاني؛ أعطاه الله تعالى كذا وكذا من الأجر... فهذه كلها عبادة معلولة، ليست عند الله

بمقبولة، إلا بالفضل والمنة، إلا أن تكون هذه الأشياء المذكورة، غير مقصودة، بأن كان خطورها تابعاً لا حاملاً، فلا بأس.

قال تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أُحَدِّثُ﴾ [الكهف: الآية ١١٠].

وهذه الأشياء المذكورة كلها أحاد فهي شركاء، والحق - تعالى - أغنى الشركاء عن الشرك. فالحق - تعالى - أمر عباده أن يعبدوه، مخلصين له الدين، أي العبادة والجزاء بأن لا يطلبوا جزاءً إلا وجهه، وهو يهبهم الأجور والدرجات، ويقيهم جميع السيئات والمكروهات، وأن كل ما سوى الحق إذا قصد مع الحق في العبادة فهو شريك، والشريك معدوم مستور، اسم بلا مسمى، وإليه يشير قوله:

﴿بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ﴾ [سبأ: الآية ٤١].

فإن الجنَّ من الاجتئان وهو الاستتار، وكل ما سوى الله تعالى فهو مستور بستر العدم، وإن ظهر للمحجوبين موجوداً، والعاقل لا يراعي العدم، ولا يقصده بالعمل كما أنني أقول، والله تعالى القائل على لساني: إنَّ كل من لم يسلك طريق القوم، ويتحقق بعلومهم حتى يعرف نفسه لا يصح له إخلاص، ولو كان أعبد الناس وأورعهم وأزهدهم وأشدهم هروباً من الخلق، واختفاء، وأكثرهم تدقيقاً وبحثاً عن دسائس النفوس، وخفايا العيوب، فإذا رحمه الله - تعالى - بمعرفة نفسه؛ صحَّ له الإخلاص، وتصير الجنة والنار والأجور والدرجات وجميع المخلوقات... كأن الله ما خلقها. فلا يعظمها ولا يعتبرها؛ إلا من حيث اعتبرها الحق - تعالى - شرعاً وحكمة. لأنه حينئذٍ يعرف الفاعل مَنْ هو. فليس العبد فاعلاً، خالفاً لأفعاله الاختيارية، كما ينسب إلى المعتزلي، ولا أن العبد فاعل مجبور، كما يقوله الجبري، ولا أن له جزأ اختيارياً، به يسمى العبد فاعلاً كما يقوله الماتريدي، ولا أن العبد له كسب، بمعنى وقوع الفعل بإرادته واختياره، لا خلق ولا جبر، ولكن أمر بين أمرين كما يقوله الأشعري، ولا أن تأثير الحق - تعالى - في عين الفعل، وتأثير العبد في صفته من كونه طاعة أو معصية. كما يقوله إمام الحرمين، ولا كما يقول جميع الطوائف من الحكماء والمتكلمين، وأما نسبة الفعل إلى العبد شرعاً، وترتيب الثواب والعقاب على الطاعة والمعصية؛ فمن وجه آخر، ذكرناه في بعض هذه الموافف.



## الموقف الخامس

قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [التحل: الآية ٤٠].

اعلم أن للحق - تعالى - إرادة واحدة لها نوعان من التعلق، نوع مطلق غير مقيد، ولا واسطة بينه وبين المراد، وأمر كذلك. وهذان نافذان ولا بدء، أعني الإرادة المطلقة، والأمر المطلق، يريد تعالى الشيء المعدوم، فيأمره بالكون فيكون، ذلك الشيء المأمور بالكون، سواء كان مما ينسب لمخلوق أم لا، وللحق - تعالى - إرادة مقيدة بواسطة وأمر، كذلك. كأن يريد الحق - تعالى - من مخلوق فعلاً يفعله ذلك المخلوق، أو يأمره بشيء يفعله. فهذه الإرادة والأمر لا ينقذان، لأنه أراد المخلوق يفعل، وأمر المخلوق يفعل، وما أمر الشيء بالكون في ذلك المخلوق. ومن البين المعلوم؛ أن مراد الحق - تعالى - من عباده جميعاً الإيمان والطاعة، وأمرهم بذلك. فلو تعلقت إرادته المطلقة وأمره المطلق، بوجود الإيمان والطاعة في الجميع، لكان ذلك موجوداً، لأنه قال: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [التحل: الآية ٤٠].

ولما كان الأمر والإرادة متوجهين للجميع، وما حصل متعلق الإرادة والأمر من الجميع، بل من البعض؛ علمنا أن بين الإرادتين والأمرين فرقاً، وأن ما أراد كونه فينا من الأفعال والإيمان والطاعة، وأمره بالكون فينا؛ كان، شئنا أو أيينا، وما أراد كونه مثلاً، أو أمرنا نحن نفعله؛ وكله إلينا لا غير، فهذا لا يكون مثل إيمان أبي بكر - رضي الله عنه - أراد الحق - تعالى - كونه في أبي بكر، وأمر الإيمان بالكون في أبي بكر ولذلك ما تخلف، وإيمان أبي جهل أراد الحق - تعالى - في أبي جهل تكوينه، وأمر أبا جهل بتكوينه، فلم يكن، فبين: أراد به، وأراد منه، وأمر به، وأمره؛ فرقان. والحاصل: أن الأمر أمران: أمر الشيء المطلوب كونه بالكون، فهذا لا يد أن يكون. وأمر المكلف بتكوين الفعل منه، فهذا لا يكون. كما أن الإرادة نوعان: إرادة متعلقة بالفعل نفسه، فهذه نافذة الوقوع، وإرادة متعلقة بالفاعل أن يفعل، فهذه غير نافذة التعلق؛ إلا إذا جامعتهما الإرادة الأخرى. ولما غفل المعتزلة عن هذا الأمر، وما انكشف لهم هذا السر؛ جعلوا للإرادة تعلقاً واحداً، وللأمر كذلك. وقالوا: لا يأمر الحق - تعالى - إلا بما يريد كونه وإيجاده. وقالوا: إيمان أبي جهل مأمور به مراد الله - تعالى - فلزمهم تخلف مراد الله تعالى، بل وقوع ما لا يريد - تعالى - في ملكه.



وأما ردُّ الأشاعرة على المعتزلة: بأن الإنسان في الشاهد، قد يأمر بما لا يريد وقوعه، فهو أعلى ما وصلت عقولهم إليه، ومن قدر عليه رزقه، فلينفق مما آتاه الله. على أن المحققين من الأشاعرة؛ ضعفوا قياس الغائب على الشاهد.

\* \* \*

### الموقف السادس

كان الحق تعالى لحقيقته يقول: أنا، والعبد لجهله يقول: أنا، والعبد يقول: هو لشهوذه من ربِّه البعد، والربُّ يقول: هو لكون ذلك مشهود العبد، فلما تنفس صبح العناية، وجعل منادي الهداية، وأشرق الست<sup>(١)</sup> والخمس<sup>(٢)</sup>، بإشراق الشمس، زال الهو من البين، والتبس أنا بأنا، عينًا بعين، من غير امتزاج، ولا اتحاد، ولا حلول، إذ الكل في طريقنا وتوحيدنا معزول، فليس عندنا إلا وجود واحد، هو عين، وشرط الثلاثة عند الثلاثة: تعدد الوجود والعين، فلا يكدرن صفونا بجمعتهم؛ ولا يروعوننا بمعمتهم.

\* \* \*

### الموقف السابع

أخذني الحق عني، وقربني مني، فزالت السماء بزوال الأرض، وامتزج الكلُّ بالبعض، وانعدم الطول والعرض، وصار النفل إلى الفرض، والانصبغ إلى المحض، وانتهى السير، فانتفى الغير، وصحَّ النسب، بإسقاط الإضافات والاعتبارات والنسب، اليوم أضع أنسابكم، وأرفع نسبي، ثم قيل لي، مثل قولة الحلاج، غير أن الحلاج قالها، وأنا قيلت لي، ولا أقولها، وهذا الكلام يعرفه، ويسلمه أهله، ويجهله وينكره، من غلب جهله.

\* \* \*

### الموقف الثامن

قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ ﴿٥٦﴾ [الذاريات: الآية

.[٥٦]

أي ليعرفون، بإجماع المحققين، من أهل الله تعالى. ويؤيده الخبر الوارد في بعض الكتب المنزلة: كنت كنزًا مخفيًا لم أعرف، فأحببت أن أعرف؛ فخلقت الخلق خلقًا وتعرّفت إليهم، فبي عرفوني. وقال:

(٢) الحواس.

(١) أسماء الجهات.

﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: الآية ٢٣].

أي حكم. فما خلقهم إلا ليعرفوه. فلا بد أن يعرفوه المعرفة الفطرية التي فطر الله الناس عليها. فالحق ما جهله أحد من هذا الوجه، وحكم أن لا يعبدوا إلا إياه، فلا يعبدون أبداً سواه، لأن حكمه نافذ لا يرد، ولا يغالب وإنما تفاوتت معرفتهم، لتفاوت عقولهم، وإنما تفاوتت عقولهم، لتفاوت استعداداتهم، والاستعدادات لا تعلل، لأنها قديمة غير مجعولة، فهي فيض قدسي ذاتي، ما تخللته صفة من الصفات، ولما تعددت ظهورات المقصود بالعبادة؛ تعددت الملل والنحل، لأن المقصود بالعبادة التعظيم، والذلة والخضوع من كل عابد نحو من يملك الضر والنفع، والعطاء والمنع، والرزق والخفض والرفع، وهذه الصفات في نفس الأمر ليست إلا لفرد واحد وهو الحق - تعالى - وهو غيب مطلق، فكل عابد صورة من شمس وكوكب، ونار ونور، وظلمة وطبيعة، وصنم وصورة خيالية وجن، وغير ذلك، يقول في الصورة التي عبدها: إنها صورة المقصود بالعبادة، ويصفها بصفات الإله، من الضر والنفع، ونحو ذلك، وهو محق من وجه، لولا أنه حصره وقيده، فما قصد عابد بعبادته للصورة التي عبدها إلا الحقيقة المستحقة للعبادة، وهو الله - تعالى - وهو الذي قضى به الله وحكم، ولكنهم جهلوا ظهورها المطلق الذي لا يشوبه تقييد ولا حصر، فجهلوا على التحقيق، وعرفوها في الجملة، وهي المعرفة الفطرية، فكل من عبد الحق - تعالى - ما عدا الطائفة المرحومة طائفة العارفين، إنما عبده مقيداً محصوراً محكوماً عليه لأنه عرفه هكذا، حتى طوائف المتكلمين، فإنهم حكموا عليه بأنه على كذا، ولا يصح أن يكون على كذا. وينبغي أن يكون على كذا، وليس هو على كذا، فحكموا عقولهم في الحق والعقل ليس عنده إلا التنزيه الصرف، وتوحيد الشرع الذي جاءت به الكتب والرسول - عليهم الصلاة والسلام - تنزيه وتشبيه، ولا شك أن المتكلمين من سني ومعتزلي؛ ما حكموا على الحق - تعالى - بما حكموا، من إثبات وسلب؛ إلا بعد تصوّره بصورة عقلية خيالية، فإن الحكم فرع التصور ضرورة وإن قال المتكلم، ليس للحق تعالى في عقلي صورة، فهو إما جاهل بالتصور ما هو، وإما مغالط مباحث. ولذلك تجدهم بعد حكمهم بما حكموا به يقولون: كل ما يخطر ببالك؛ فإله - تعالى - مخالف لذلك. مقصودهم بهذا الكلام: تبرؤهم ممّا قالوا. وقولهم هذا أيضاً حكم تلزمهم التبرئة منه، فكل طائفة من الطوائف؛ تحصر الحق - تعالى - في معتقدها، وتنفي أن يكون للحق - تعالى - تجلّ وظهور على خلاف عقيدتها فيه، وهذا هو سبب إنكار المنكرين للحق - تعالى - وتعوّذهم منه يوم القيامة،

فقد ورد في الصحيح :

«إن الله - تعالى - يأمر أن تتبّع كل أمة ما كانت تعبد. وتبقى هذه الأمة فيها منافقوها. فيأتيهم الله - تعالى - في صورة لا يعرفونها، فيقول لهم: أنا ربكم، فيقولون: نعوذ بالله منك، هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا، فإذا جاء ربنا عرفناه، فيتحول لهم في صورة أخرى يعرفونها فيقولون: أنت ربنا»<sup>(١)</sup>.

الحديث بمعناه. والصورة المذكورة في الحديث والتحول؛ إنما هي ظهورات للحق - تعالى - بما يريد أن يظهر به، وهي إعدام لا حقيقة لها، ولا وجود؛ إلا في إدراك الناظر، والحق - تعالى - على ما هو عليه قبل الظهور والتجلي؛ لا يلحقه تغيير عما هو عليه. كسائر تجلياته في الدنيا والآخرة، ولقد صدقوا في إنكارهم له أولاً، وفي إقرارهم به ثانياً. والمتجلي واحد أولاً وثانياً، ولكن تجلّى لهم أولاً في صورة ما كانوا عرفوه عليها في الدنيا، ولا اعتقدوها ولا تخيلوه فيها. وما عرفه كل واحد من المنكرين إلا محصوراً مقيداً بالصورة التي تخيله عليها في الدنيا، وحكم عليه بأنه لا بد أن يكون كذا، ولا يكون كذا. وما عرفه أحد منهم مطلقاً غير محصور في معتقد ولا مقيد بصورة لا يتجلى غيرها، فلما تجلى بالصورة. أي الصورة التي كانوا تخيلوه عليها في الدنيا؛ أقرّوا به أنه ربهم وهو - تعالى - المتجلي أولاً وثانياً، فما عرف أحد من المنكرين المتعوزين الحق تعالى من حيث الإطلاق، وإنما عرفه من حيث تقييده بصورة معتقده، صور تلك الصور بعقله، واعتكف عليها يعبدها. ولولا إذن الشارع في تخيل المعبود وقت العبادة؛ لقلنا لا فرق بين من ينحته بيده ويصوره وبين من يصور بعقله، لكن الشارع أذن في الصورة الخيالية، ومنع الصورة الحسية، وهو الصادق الأمين، قال في حديث الإحسان:

«أن تعبد الله كأنك تراه»<sup>(٢)</sup>.

أي تخيله كأنه في قبلك مثلاً، وأنت بين يديه حتى تتأدب في عبادته، ويحضر قلبك فيها. فالأمر ورد بهذا التخيّل ربطاً للقلوب في الباطن، عن الخوض والتشتيت، كما ربط الأجسام باستقبال القبلة في الظاهر؛ ربطاً للأجسام عن الالتفات والحركات،

(١) رواه البخاري كتاب التفسير، باب «إن الله لا يظلم مثقال ذرة» حديث رقم (٤٥٨١). ورواه مسلم: كتاب الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية، حديث رقم (٣٠٢).

(٢) رواه البخاري: كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان، حديث رقم (٥٠). ورواه مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان، حديث رقم (١).

وما أمر هذا المتخيل للحق - تعالى - أن يقيدته عنده. ولا يكون عند غيره، وأنه محصور في قبلته، ولا يكون في قبلة غيره ولا أن يحصره في ذلك المتخيل دون غيره، من الصور المتخيلات، فإنه - تعالى - مطلق في حالة التخيل عن التخيل، فهو المطلق المقيد لأنه عين المطلق والمقيد، فهو عين الضدين. والعارفون - رضوان الله تعالى عليهم -، عند هذا التجلي والتحول في الصور في الآخرة؛ ساكتون لا يتكلمون ولا يعرفونه لأحد كما هم اليوم في الدنيا، لأنهم عرفوه في الدنيا بالإطلاق الحقيقي، حتى عن الإطلاق لأن الإطلاق قيد. وعلموا أنه - تعالى - المتجلي الظاهر بكل صورة حسية، أو عقلية، أو روحانية، أو خيالية، وأنه الظاهر، الباطن، الأول، الآخر، فما أنكروه في الدنيا ولا ينكروه في الآخرة، في أي تجلٍ ظهر. ولهذا قال بعضهم في العارفين: هم غذا، كما هم اليوم إن شاء الله.

\* \* \*

### الموقف التاسع

ورد في صحيح مسلم:

«إن الله - تعالى - يتجلى لأهل الموقف. ويقول لهم: أنا ربكم فيقولون له نعوذ بالله منك لست أنت ربنا، هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا، فإذا جاءنا ربنا عرفناه»<sup>(١)</sup>.

سأل وارد الوقت عن التجلي، الذي يكون أولاً لأهل المحشر، ويستعيذون منه، المنزه والمشبه، إلا العارفين بالله - تعالى - ما هو؟! فإنه لو كان تجلي تنزيه؛ لأقرت به المنزهة. ولو كان تجلي تشبيه؛ لأقرت به المشبهة. وليس المعروف؛ إلا هاتين المرتبتين. فكان الجواب: أنه - تعالى - يتجلى في ذلك اليوم بتجل جامع للتنزيه والتشبيه، على وجه لا تهتدي إليه العقول، ولا الكشف الآن. وما عرف الحق - تعالى - إلا بجمعه بين الأضداد، بل هو عين الأضداد، لا أن هناك عيناً جامعة للأضداد. ولذا كان لا يعرف الحق - تعالى - في ذلك التجلي ويقر به؛ إلا الطائفة العارفة به، الجامعة بين اعتقاد التنزيه والتشبيه في الدار الدنيا، وكل ما عداها من الطوائف؛ فإنه يستعيذ من الحق - تعالى - ثم يتجلى لهم في معتقداتهم فيه وتخيلاتهم له في الدنيا؛ فيقرون به، ويعترفون له بالربوبية، وهو هو المنكور أولاً، المعروف ثانياً، فسبحان الواسع الحكيم.

\* \* \*

(١) هذا الحديث سبق تخريجه.

## الموقف العاشر

قال تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا﴾ [يس: الآية ٨٠].

هذا توقيف على كمال قدرته وبديع حكمته، وأنه - تعالى - يخرج الأشياء من أصدادها، ويخفي الأمور في أصدادها، حتى لا يعرج معرج؛ إلا عليه، ولا يتوجه متوجه؛ إلا إليه، فإنه أخرج النار الحارة اليابسة، من الخضرة الباردة الرطبة، ولذا قيل في معنى اسمه اللطيف: إنه الذي يخفي الأشياء في أصدادها، ولمَّا أخفى ليوسف الملك في الرق؛ قال: ﴿إِنَّ رَقِّي لَطَيِّفٌ لِّمَا يَسَاءُ﴾ [يوسف: الآية ١٠٠].

نبه بهذا عباده حتى لا يقفوا مع ظواهر الأشياء وما تعطيه طبائعها وصورها، وحتى لا يقفوا مع علم ولا عمل ولا حال. فإن هذه كلها كسائر الأكوان، يجب عدم الوثوق بها، والاعتماد عليها، فإن الحق - تعالى - قد يخرج منها ضد ما تعطيه صورها عادة، وحتى يعرفوا انفراد - تعالى - بالخلق والتدبير، وإن فعله - تعالى - لا يتوقف على الأسباب العادية ولا العقلية، وإنما يفعل مع الأسباب إذا أراد لحكمته، ويفعل مع فقدها إذا أراد لقدرته. فهو الفعّال لما يريد، يخرج الخير ممّا صورته شرًّا، ويخرج الشرّ ممّا صورته خير، كما هو مشاهد لكم، فكم أخرج مئة من محنة، ومحنة من مئة، لا إله إلا هو الواسع الحكيم.

\*\*\*

## الموقف الحادي عشر

قال تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: الآية ٥٤]، وقال: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: الآية ٤٧].

وقال - ﷺ -: «إِنْ حَقًّا عَلَى اللَّهِ مَا رَفَعَ شَيْئًا فِي الدُّنْيَا إِلَّا وَضَعَهُ»<sup>(١)</sup>.

ونحو هذا من الآي والأخبار، الدالة على وجوب أشياء على الحق - تعالى - فلا يفهم من هذا الحقيقة المعروفة في العرف، الوجوب، الذي يستحق فاعله المدح وتاركه الذم، حتى يكون الحق - تعالى - داخلًا تحت الحجر والحصر، تعالى عن

(١) رواه أبو داود: كتاب الأدب، باب في كراهية الرفعة في الأمور، حديث رقم (٤٨٠٢) و(٤٨٠٣).

ذلك، وإنما الحق - تعالى - أخبرنا. ورسوله - ﷺ - بأن هذه الأشياء وأمثالها؛ اقتضتها مرتبة الألوهية اقتضاء ذاتياً لها، لا مقتضى لها غيرها، إذ لا يصدر من الحق - تعالى - شيء؛ إلا ولذلك الشيء اسم إلهي، اقتضى صدور ذلك الشيء كائناً ما كان. فالألوهية نسبة ومرتبة، لها أحكام وخصوصيات، لا بد منها لتحقيق المرتبة، والحق - تعالى - مختار في كل فعل وترك، لا مكره له، ولا مقتضى، الألوهية من ألوهيته، أعني مرتبته، كأن يفعل الملك مثلاً أشياء من لوازم المملكة ومقتضياتها، فيرى السوقة أن الملك تكلفها وألزم نفسه ما ليس بلأزم عليه، وما يدري السوقة أن رتبة المملكة اقتضت ذلك الفعل لذاتها، لا لمقتض آخر خارج عنها، ولو ترك الملك ذلك الفعل، الذي اقتضته رتبة المملكة؛ لما أكرهه غيره عليه، ولكن ما تصح له رتبة المملكة بالحقيقة؛ فإن المرتبة تعزله في نفس الأمر لنقص شيء من مقتضياتها وخصوصيتها. ورتبة الألوهية ثابتة لله - تعالى - عقلاً ونقلاً، ظاهراً وباطناً، فهو يفعل ما تقتضيه ألوهيته من غير اعتبار شيء زايد على ذلك، وقد تكلم أماننا محيي الدين على هذه المسألة بغير هذا، والكل من عند الله - تعالى - كلاً؛ نمذ هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك. وما كان عطاء ربك محظوراً.

\* \* \*

### الموقف الثاني عشر

قال تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُبْتَغَىٰ فِيهَا ذَمُّنَ الْمَرْءِ وَيُذَكَّرُ فِيهَا أَسْمُهُمْ يُسَبِّحُ لَمْ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ۗ (٣٦) رِجَالٌ لَا لُئْلِيهِمْ يَخَزَاةٌ وَلَا يُبَاعُ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [النور: الآيات ٣٦، ٣٧].

إنما خص الرجال بالذكر دون النساء؛ لأنه - تعالى - ذكر الغدو والآصال، وهو كناية عن ملازمة المساجد في هذين الوقتين، وهذا لا يكون من النساء غالباً، والنادر لا اعتبار به، ولا حكم له. وقوله تعالى:

﴿لَا لُئْلِيهِمْ يَخَزَاةٌ﴾ [النور: الآية ٣٧].

والتجارة أعم من البيع والشراء. يقال: فلان يتجر في كذا، وهو جالس في بيته مثلاً، معنى أن يبيعه وشراءه إذا باع واشترى؛ يكون فيه، وقد يكون في دكانه أو سوقه يقصد البيع والشراء، وما حصل منه بيع ولا شراء بالفعل. فهو في هذه الحالة وفي حالة ملابسة البيع والشراء؛ غير ملهي عن ذكر الله، وليس المراد خصوص ذكر



اللسان، وإنما المراد أن حركاتهم وسكناتهم كانت لله، وفي الله وبالله. فكان لهم حضور مع الله - تعالى - ومراقبة ونيةً سالحة في حالة بيعهم وشرايتهم وتجارتهم وجميع تصرفاتهم، وهو المراد بقوله تعالى:

﴿الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ [المعارج: الآية ٢٣].

أي يكونون في جميع أحوالهم وتصرفاتهم، حاضرين مع الله - تعالى - مراقبين له، كحضورهم معه، ومراقبتهم له، في حال كونهم في صلاتهم. إذ من المعلوم: أنهم كانت لهم ضروريات، لا بدّ لهم من التصرف فيها، ولذا قال:

﴿لَا تَلْهَمُهُمْ حِجْرَةٌ وَلَا يَبِيعُ﴾ [التور: الآية ٣٧].

وما قال: لا يتجرون ولا يبيعون، وفي الصحيح عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: «كان رسول الله - ﷺ - يذكر الله تعالى على كل أحيانه»<sup>(١)</sup>. أي حالته وأوقاته.

والمراد: أنه كان دائم الحضور والمراقبة لله. إذ من البين أنه - عليه الصلاة والسلام - كان يأكل ويشرب وينام ويتصرف في مصالح بيته ومصالح غيرهم من أصناف الخلق.

\* \* \*

### الموقف الثالث عشر

قال تعالى: ﴿سَأُنَبِّتُكَ بِأَوَّلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف: الآية ١٧٨].

كنت مغرمًا بمطالعة كتب القوم - رضي الله عنهم - منذ الصبا، غير سالك طريقهم، فكنت في أثناء المطالعة أعر على كلمات تصدر من سادات القوم وأكابرهم، يقف (أي يقوم منها) شعري، وتنقبض منها نفسي، مع إيماني بكلامهم، على مرادهم، لأنني على يقين من آدابهم الكاملة، وأخلاقهم الفاضلة، وذلك كقول عبد القادر الجيلاني - رضي الله عنه -: «معاشر الأنبياء أوتيتم اللقب، وأتينا ما لم تؤتوه».

وقول أبي الغيث بن جميل - رضي الله عنه -: «خضنا بحرًا وقفت الأنبياء بساحله». وقول الشبلي - رضي الله عنه - لتلميذه: «أشهد أنني محمد رسول الله؟» فقال له التلميذ: «أشهد أنك محمد رسول الله»... ومثل هذا كثير عنهم.

(١) رواه البخاري: كتاب الأذان، باب هل يتتبع المؤذن فاه هلينا، حديث رقم (٦٣٤). رواه مسلم: كتاب الحيض، باب ذكر الله تعالى في حال الجنابة حديث رقم (٣٧٣).



وكل ما قاله القائلون المأولون لكلامهم، لم تسكن إليه النفس، إلى أن من الله تعالى - عليّ بالمجاورة بطيبة المباركة فكنت يوماً في الخلوة متوجهًا، أذكر الله تعالى - فأخذني الحق - تعالى - عن العالم، وعن نفسي، ثم ردني وأنا أقول: «لو كان موسى بن عمران حيًا؛ ما وسعه إلا اتباعي» على طريق الإنشاء، لا على طريق الحكاية، فعلمت أن هذه القولة؛ من بقايا تلك الأخذة، وأني كنت فانيًا في رسول الله - ﷺ - ولم أكن في ذلك الوقت فلانًا، وإنما كنت محمدًا. وإلا لما صُح لي قول ما قلت؛ إلا على وجه الحكاية عنه - ﷺ - ..

وكذا وقع لي مرة أخرى في قوله - ﷺ - : «أنا سيّد ولد آدم ولا فخر»<sup>(١)</sup>.

وحينئذ تبين لي وجه ما قال هؤلاء السادة، أعني أن هذا أنموذج ومثال، لأني لا أشبه حالي بحالهم. حاشاهم، ثم حاشاهم، ثم حاشاهم، فإن مقامهم أعلى وأجل، وحالهم أتم وأكمل، وكذا قال الشيخ عبد الكريم الجيلي: «كلُّ من اجتمع هو وآخر في مقام من المقامات الكمالية؛ كان كلُّ منهما عين الآخر، في ذلك المقام ومن عرف ما قلناه علم معنى قول الحلاج وغيره». انتهى كلام الجيلي - رضي الله عنه - .

وقبل أن تصدر مني هذه المقالة: كنت ثالث ليلة من رمضان متوجهًا للروضة الشريفة فحصل لي حال وبكاء فألقى الله تعالى في قلبي أنه - عليه الصلاة والسلام - يقول لي: «أبشر بفتح». فبعد ليلتين: كنت أذكر الله تعالى فغلبني النوم فرأيت ذاته الشريفة امتزجت مع ذاتي، وصارتا ذاتًا واحدة. أنظر إلى ذاتي؛ فأرى ذاته الشريفة ذاتي. فقممت فزعًا مرعوبًا فرحًا، فتوضأت ودخلت المسجد للسلام عليه - ﷺ - ثم رجعت إلى الخلوة. وجعلت أذكر الله - تعالى - فأخذني الحق - تعالى - عن نفسي وعن العالم، ثم رُدني بعد أن ألقى إليّ قوله: ﴿الْفَنَّ يَحْتِ بِالْحَقِّ﴾ [البقرة: الآية ٧١] الآية.

فعلمت أن الإلقاء تصديق للرؤيا. ثم بعد يوم، أخذني الحق - تعالى - عن نفسي كالعادة، فسمعت قائلاً يقول لي: «انظر ما أكننته حتى كنته» بهذه السجعة الجناسية المباركة. فعلمت أن هذه القولة: تصديق للرؤيا السابقة. والحمد لله تعالى، وقد أمرني الحق - تعالى - بالتحدث بالنعيم، بالأمر العام لرسول الله - ﷺ - بقوله:

﴿وَأَمَّا يَنْعَمِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: الآية ١١].

(١) رواه الحاكم في المستدرک (٦٠٤/٢) طبعة تصوير بيروت.

لأن الأمر له - ﷺ - أمر لأُمَّته؛ إلا ما ثبت اختصاصه به، وأمرني بالخصوص  
مرازا، بإشارة هذه الآية الشريفة: ﴿وَأَمَّا يَنْعَمَ رَبُّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: الآية ١١].

\*\*\*

### الموقف الرابع عشر

قال تعالى: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: الآية ٦].

ألقى عليّ وأنا في صلاة الصبح؛ أن الهداية إلى الصراط المستقيم؛ جنس لا  
نهاية لأفراده، لأن الحق - تعالى - أمر عباده بطلب الهداية إلى الصراط المستقيم، في  
كل ركعة من ركعات الصلاة، الفريضة والنافلة، وفي غير الصلاة. والهداية هي  
العلامة على المقصود. والصراط المستقيم هو صراط أهل معرفته - تعالى - ومعرفته  
- تعالى - لا نهاية لها، لأن معرفته هي معرفة كمالاته. وكمالته - تعالى - لا نهاية  
لها. ولذا قال بعض العارفين: «السير إلى الله تعالى له نهاية. والسير في الله؛ لا نهاية  
له» يشير إلى هذا، فالهداية المأمور بطلبها لا نهاية لها، إذ من المحال أنه - تعالى - ما  
أجاب أحداً من الطالبين للهداية بشيء من الهداية. ومحال أنه أجابهم بجميع الهداية،  
لأن الأمر بطلب تحصيل الحاصل محال، فتبين أنه - تعالى - أجاب بعض الطالبين  
للهداية، ببعض أفراد الهداية. وأمرهم بطلب الزيادة منها على الدوام. ولذا قيل  
لأهدى الخلق: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: الآية ١١٤].

والمنعّم عليهم؛ هم الذين أراهم الحق - تعالى - حقائق الأشياء، كما هي. ولذا  
قال - عليه الصلاة والسلام - في دعائه: «اللَّهُمَّ ارْزُقِ الْأَشْيَاءَ كَمَا هِيَ»<sup>(١)</sup>.

فانكشف عنهم الغطاء، وتفتّح سحاب الجهل، بطلوع شمس المعرفة لقلوبهم،  
فعرفوا الحق والخلق، معرفة يقين، لا يدخلها شك، ولا تتطرق إليها شبهة، حتى  
صار الغيب عندهم شهادة، وهم الرسل والأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - وورثتهم  
السالكون طريقهم.

والمغضوب عليهم؛ هم الطوائف الذين ما عرفوا معبودهم ولا تصوّروه إلا  
بصور محسوسة من نور، وشمس وكوكب، ووشن وصنم.

والضّالّين بمعنى الحائرين، لأن كل ضالّ حائر، فهم الناظرون في ذات الله  
بعقولهم، من حكيم فيلسوفي ومتكلم، فإنهم ضالون حائرون، في كل يوم، بل في

(١) لم أجده بهذا اللفظ إنما ورد: «اللَّهُمَّ ارْزُقِ الدُّنْيَا كَمَا أَرَيْتَهَا الصَّالِحِينَ». (إتحاف السادة المتقين  
للزبيدي ٣٢٠/٩، تصوير بيروت).

كل ساعة، يرمون وينقضون ويبنون ويهدمون ويجزمون بالأمر بعد البحث الشديد والجهد الجهد، ثم يشكّون في جزمهم، ثم يجزمون بشكّهم، ثم يشكّون في شكّهم... وهكذا حالهم دائماً بين إقبال وإدبار، وهذه حالة الحائر الضال، وقد نقل عن إمام الحرمين زعيم المتكلمين - رضي الله عنه - أنه قال: قرأت خمسين ألفاً في خمسين ألف، وخلت أهل الإسلام وإسلامهم وعلومهم. وخضت في الذي نهى الشرع عنه، وركبت البحر الخضم... كلُّ هذا في طلب الحق، وهروباً من التقليد. والآن رجعت إلى كلمة: عليكم بدين العجائز «الفالويل لابن الجويني إن لم يدركه الله بلطفه» ونقل عن فخر الدين الرازي إمام المتكلمين أنه قال عند الموت: «اللهم إيماناً كإيمان العجائز». ومن شعره يتأسف على ما فاته:

نهاية إقدام العقول عقال      وأكثر سعي العالمين ضلال  
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا      سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا

إلى آخر ما قال. وأنشد محمد الشهرستاني، في كتابه «نهاية العقول» وهو كتاب ما ألف مثله متكلم:

لعمري لقد طفت المعاهد كلها      وسرّحت طرفي بين تلك المعالم  
فلم أزل إلا واضعاً كف حائر      على ذقنه أو قارعاً سن نادم

فهؤلاء فحول المتكلمين، انظر إلى حيرتهم وضلالهم. فكيف تكون حالة من دونهم؟! ولهذا ترى طوائف المتكلمين يلعن بعضهم بعضاً، ويكفر بعضهم بعضاً، بخلاف أهل الله - تعالى - العارفين به فإن كلمتهم واحدة في توحيد الحق. وأمرهم جميع كما قال تعالى: ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: الآية ١٣].

وأما الحيرة الحاصلة للعارفين: فما هي الحيرة الحاصلة للمتكلمين. وإنما هي حيرة أخرى حاصلة من اختلاف التجليات وسرعتها وتنوعاتها وتناقضها. فلا يهتدون إليها ولا يعرفون بما يحكمون عليها. فهي حيرة علم لا حيرة جهل. فلا تقاس الملائكة بالحدادين.

وفي قوله: ﴿الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: الآية ٧].

تعريف لهم بأنه إنما أتى عليهم منهم، حيث حول الإسناد إلى بناء المجهول. وما قال: «الذين غضبت عليهم» ولا قال: «الذين أضللتهم». كما قال:

﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: الآية ٧].

فأصل النعمة منه تعالى وهو سببها، وأصل الغضب من المغضوب عليه وهو سببه، فما كان أصله وسببه القديم - تعالى - فإنه لا يزول، وما كان أصله وسببه الحادث؛ فإنه يزول، فافهم ما أومأنا إليه، ففي الآية جبر لكسرهم.

\*\*\*

### الموقف الخامس عشر

قال تعالى: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ [الحديد: الآية ٣].

المحجوب حال حجاب؛ يعتقد أن له وجودًا مستقلًا منفصلًا من الوجود الحق، إما حادثًا كما هو معتقد المتكلمين، وإما قديمًا كما هو معتقد بعض الحكماء. كما يعتقد أنه هو الظاهر بالصورة المحسوسة المنسوبة إليه، المسماة بزيد أو عمرو، وكما يعتقد أن له صفات مغايرة لصفات الحق - تعالى - من قدرة وإرادة وعلم ونحوها، كما يعتقد أن له أفعالًا صادرة عنه، هو فاعلها، إما خلقًا أو اكتسابًا.

ولو كان الأمر هذا الزعم والتوهم؛ لما بقي للتوحيد أثر، ولا للأحدية خير، ولظهر الشرك واستقر. فإذا رحمه الله - تعالى - وأزال حجاب الجهل عن عين قلبه؛ علم أنه لا وجود لعينه لا قديمًا ولا حادثًا وأنه باق في عدمه وإمكانه. إذ الممكن من حيث هو؛ لا عين له قائمة، وإنما هو أمر معقول، لأنه برزخ بين الواجب، الذي لا يقبل الانتفاء. وبين المستحيل، الذي لا يقبل الثبوت. وكلُّ برزخ؛ لا صورة له قائمة. ولا يكون محسوسًا أبدًا. والصورة المحسوسة لهذا المحجوب وأمثاله؛ ليست له لأنها لو كانت له لكان هو الظاهر. إذ صورة الشيء هي التي يكون بها ظهوره، ولا ظهور لحقيقة الممكن وعينه؛ لأنها معدومة أزلاً وأبدًا، وإنما الحق - تعالى - هو الظاهر بأحكام استعدادات الممكنات. والأحكام هي نسب واعتبارات، لا عين لها في الوجود. فكلُّ ظاهر؛ فهو الحق - تعالى - من اسمه الظاهر بحكم قوله تعالى:

﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ [الحديد: الآية ٣].

مَحَقٌّ - تعالى - بهذه الآية، كما قال الشاذلي - رضي الله عنه -، الأغيار كلها. لأن كل ما يصحُّ أن يعلم ويخبر عنه، وهو الذي يصحُّ أن يعبر عنه بالشيئية؛ لا يخرج عن هذه المراتب الأربع. فلا أول إلا هو، ولا آخر إلا هو، ولا ظاهر إلا هو، ولا باطن إلا هو. إذ من المعلوم: أن تعريف الجزأين يفيد الحصر. وكذا صفاته التي

يعتقدها مغايرة لصفات الحق - تعالى - ليست كذلك، وإنما هي صفات الحق، قائمة بالحق. لكنها لما ظهرت في مرتبة التقييد؛ تقيدت آثارها. إذ المقيد لا تكون آثاره إلا مقيدة. وبقدر ما ينفك هذا المقيد عن أحكام التقييد؛ تنفك صفاته عن التقييد. ويظهر الإطلاق في آثاره إطلاقاً نسبياً. وأول مراتب الإطلاق النسبي قوله تعالى<sup>(١)</sup>: «إِذَا أَحْبَبْتَهُ؛ كُنْتُ سَمْعَهُ وَبَصَرَهُ».

الحديث بطوله<sup>(٢)</sup>. ومحال أن يكون الحق - تعالى - سمع غيره وبصره وسائر قواه. لأنه - تعالى - ذات، والذات لا تقوم بغيرها. ومحال أن تقوم صفاته بغير ذاته - تعالى - فافهم إشارة الحق، فإنه: السامع والسمع والمسموع والبصير والمبصر والبصر... وكذا أفعال المحجوب، التي يعتقدها أفعاله، ليست كما توهم، وإنما هي أفعاله - تعالى - بلا واسطة. ولا للعبد فيها، في نفس الأمر، من حيث صورته العبدية، بوجه ولا حال.

﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَرَ وَلَكِنَّ تَعْمَى الْقُلُوبَ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: الآية ٤٦].

\* \* \*

### الموقف السادس عشر

قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ﴾ [يونس: الآية ٣١] الآية.

قل للذين صرفوا عقولهم لغير الله - تعالى - وقصروا نظرهم عليه، وتعلقوا بالوسائط والأسباب، وأعرضوا عن مسببها، وجعلوها عمدتهم وركنهم الذي إليه يأوون، من يرزقكم، يعطيكم ما تنتفعون به من السماء؟ يريد ما تنتفع به العقول من العلوم والأسرار والأمور التي لا يهتدي إليها العقل؛ إلا بالفيض الإلهي. والأرض ما تنتفع به الأجسام والنفوس الحيوانية كما قال في الآية الأخرى:

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ [المائدة: الآية ٦٦]. يريد رزق العقول والأرواح العلوية.

﴿وَمِنْ نَحْيِ أَرْجُلِهِمْ﴾ [المائدة: الآية ٦٦]. رزق النفوس الحيوانية.

(١) أي في الحديث القدسي الذي رواه النبي ﷺ عن الله تعالى.

(٢) ابن حجر (فتح الباري ١١/٣٤١)، طبعة دار الفكر.

﴿أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ﴾ [يونس: الآية ٣١].

يتصرف فيها تصرف المالك لها، فتسمع وتبصر الشيء على حقيقته، وعلى ما هو عليه؛ إذا شاء إسماعها وإبصارها، ويصرفها ويمنعها؛ إذا شاء عدم إسماعها وإبصارها، فلا تسمع ولا تبصر الشيء على حقيقته، وعلى ما هو عليه وهي موجودة من غير آفة ظاهرة، ألا ترى المحجوبين الجاهلين كيف يسمعون كلام الحق - تعالى - ولا يسمعونه؟! أعني لا يعرفونه. وإذا انتقت فائدة السمع؛ فقد انتفى السمع لانتفاء المقصود منه، فقد ملك الحق - تعالى - سمعه، وصرفه عن معرفة المسموع كلام من هو؟ وكذلك يبصرون الحق - تعالى - ولا يعرفونه، فانتفى البصر لانتفاء فائدته. فقد ملك الحق أبصارهم وصرفها عن معرفة المبصر من هو؟ فتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون.

وأي الأرض تخلو منك حتى تعالوا يطلبونك في السماء

تراهم ينظرون إليك جهراً وهم لا يبصرون من العماء

بل يتحققون بجهلهم أن المسموع غير كلام الله - تعالى - وما أبصروه غير الحق - تعالى - فسبحان مقلب الأفئدة والأبصار، ومن يخرج الحي من الميت يخرج العارف بالله - تعالى - من الجاهل الغافل عنه، والمؤمن من الكافر.

﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾

[الأنعام: الآية ١٢٢].

كمن مثله في الظلمات فلا نور إلا العلم بالله - تعالى - ولا حياة إلا به، ولا موت ولا ظلمة إلا الجهل بالله - تعالى - والغفلة عنه، ومن يدبر ويصرف أمر الله - تعالى - الذي هو كلمح بالبصر، والعوالم العلوية والسفلية كلها موجودة بإيجاده، قائمة به. وهو المقوم لها، والواسطة بين الحق - تعالى - والخلق، يستمد من الحق ويمد الخلق. فالحق يدبر الأمر، والأمر يدبر الخلق، فسيقولون الله. يعني: أنك إذا أوقفتهم على هذه الأمور المتقدمة، ومنها ما لا يعلم له سبب ظاهر. ومنها ما فيه السبب موجود، ولا توجد ثمرته، كسماع المسموع على غير حقيقته، وإبصار المبصر على غير وجهه، بل قد ينتج الشيء ضد ما كانت العادة تقضي به كإخراج الحي من الميت. والعكس، فسيقولون: الله. فيعترفون بأن الله تعالى هو الفاعل المؤثر فقل: أفلا تتقون؟ أي أفلا تجعلون الله - تعالى - وقاية بينكم وبين ملاحظة هذه الأسباب والوسائط التي أضلتكم وأصمتكم وأعمتكم. وتنظرون مسببها من



ورائها وتعلمون أنه لا فاعل ولا مؤثر إلا هو - تعالى - وأنه الفاعل بالأسباب، وعند الأسباب، وعند فقد الأسباب، فذلكم الله ربكم الحق، أي الذي رأبتموه مؤثرًا من الأسباب ليس هو غير الله - تعالى - ولا له استقلال بنفسه، بل هو الله - تعالى - من جهة وجوده وفعله، إذ ليس الوجود والفعل إلا لله - تعالى - وحده، لا شريك له. فلو نسبتم الفعل والأثر إلى الأسباب، على جهة أنها وجوه الحق - تعالى - وذاته ظاهرة فيها، من غير حلول ولا اتحاد ولا امتزاج؛ لكنتم مصيبيين. فالله هو الحق الثابت، وماذا بعد الحق إلا الضلال؟ أي إلا صور وتقاير وخيالات وأوهام وظلال لا ثبات لها بل وتفتى وتتجدد في كل آن لكونها ليست حقًا. فأتى تصرفون؟! استفهام إنكاري. وتعجب من عمائيتهم، كيف صرف الله عقولهم عن رؤية الحق حقًا، والباطل باطلاً. وكيف شركوا العدم الصرف مع وجود الحق؟! والخيال الزائل مع الحق الثابت؟! فإنه - تعالى - يصرف البصائر والأبصار.

\*\*\*

### الموقف السابع عشر

سئل سيد الطائفتين الجنيد - رضي الله عنه - عن العارف والمعرفة فقال: «لون الماء لون إنائه» وسكت. يريد أن الماء لا لون له، وإنما يظهر متلونًا بلون الإناء. وكذلك الحق - تعالى - لا صورة له، وإنما يظهر بصورة العارف له. فالعارف الكامل؛ هو الذي تظهر فيه صورة الحق - تعالى - على الكمال، لأنه مرآة الحق، يرى الحق فيه أسماءه وأوصافه، فالعارف صورة الحق: أعني صورة العارف الباطنة؛ فظاهر العارف خلق. وباطنه حق. فصورة باطنه هي صورة الحق - تعالى - لأنه متخلق بأخلاقه متحقق بأسمائه. فكل من رأيناه تظهر منه أخلاق الحق - تعالى - وأوصافه وأسمائه، عرفنا أنه عارف بالله، وأن المعرفة وصفه. فالعارف بمثابة الإناء، والحق - تعالى - بمثابة الماء. ولما كان الماء لا لون له، وإنما يتلون ويظهر بلون الإناء؛ فكذلك الحق - تعالى - لا صورة له مخصوصة. وإنما يتصور ويظهر بصورة العارف له. فهو هو، وكل صور العالم آتية، لظهور ماء الحق - تعالى - ولكن ليس كالإنسان، فإنه الآتية الوحيدة في قبول هذا الظهور، وليس المراد من نسبة الصورة إلى الحق - تعالى - إلا أسمائه. لا أن له شكلًا مصورًا محدودًا، تعالى الله عن ذلك.



وفي الخبر: إن الله خلق آدم على صورته<sup>(١)</sup>. فالعارف خليفة الله، والخليفة لا بد أن يكون ظاهرًا بصورة مستخلفه، وهي أسماؤه وصفاته. وإذا نقصه شيء من الصفات فقد نقصه من الخلافة بقدرها. والعارفون متفاوتون في هذا. والظاهر بالصفات والأسماء على الكمال؛ هو الخليفة الكامل ولا يكون إلا واحدًا في كل زمان، وهو الإنسان الكامل. والآنية الفريدة بالنسبة لجميع المخلوقات. فأشار الجنيد - رضي الله عنه - إلى أن العارف لا يعرف أنه عارف. وأن المعرفة نعتة؛ إلا إذا ظهر متخلفًا متحققًا بالأسماء والصفات الإلهية. أعني الصفات والأسماء التي يمكن الظهور بها في دار الدنيا. وأما صفات الربوبية، فإن أدب الموطن، وهي الدار الدنيا؛ يقضي بعدم الظهور بذلك من أجل حكم الحصر والقيود على صورة العارف الظاهرة المسماة عبدًا لمقتضياته الذاتية اللازمة لصورته الناقصة لئلا يلزم التناقض بين حاله ومقاله. وذلك ليس من الكمال فكتمه لأوصاف الربوبية هو الكمال.

\* \* \*

### الموقف الثامن عشر

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَابِيحِ﴾ [الحجر: الآية ١٨٧] الخ.

كلُّ من رحمه الله تعالى وعرفه بنفسه وبحقيقة العالم كله علوه وسفله. وجعل يشناق إلى رؤية عالم الغيب والخيال المطلق، وما غاب عن الأبصار الحسيّة من الصور التقديرية والنسب العدمية التي لا حقيقة لها؛ إلا الوجود الحق. وهي ظهوراته واعتباراته ونسبه العدمية، فهو مخطيء غير مصيب سيء الأدب. وكنت ممًا رحمه الله - تعالى - وعرفه بنفسه وبحقيقة العالم على طريقة الجذبة، لا على طريق السلوك؛ فإن السالك أول ما يحصل له الكشف عن عالم الحسن، ثم عن عالم الخيال المطلق، ثم ترتقي روحه إلى السماء الدنيا، ثم إلى الثانية، ثم إلى الثالثة، ثم إلى العرش. وهو في كلِّ هذا؛ من جملة العوام المحجوبين، إلى أن يرحمه الله - تعالى - بمعرفته، ويرفع عنه الحجاب؛ فيرجع على طريقه فيرى الأشياء حينئذٍ بعين غير الأولى، ويعرفها معرفة حقّ. وهذه الطريقة - وإن كانت أعلى وأكمل - ففيها طول على السالك، وخطرها عظيم. فإن هذه الكشوفات كلها ابتلاء. هل يقف السالك عندها أو لا؟ فربما وقف السالك عند أول كشف أو عند الثاني إلى آخر ابتلاء واختبار، فإن

(١) رواه البخاري: كتاب الاستئذان، باب بدء السلام، حديث رقم (٢٦٦٧). ورواه مسلم: كتاب البر، باب النهي عن ضرب الوجه، حديث رقم (٢٦١٢).

كان السالك ممن سبقت له العناية، ودام مصممًا على طلبته، ماضيًا على عزمته، معرضًا عن كل ما سوى مطلوبه؛ فاز ونجا. وإلَّا طرد عندما وقف، ورجع من حيث جاء، وخسر الدنيا والآخرة، ولذا قال في الحكم: «ما تبرجت ظواهر المكونات لسالك؛ إلَّا ونادته هوائف الحقيقة؛ ما تطلب أمامك؟ إنما نحن فتنة فلا تكفر!!» وقال بعض القوم:

ومهما ترى كل المراتب تجتلي عليك فحل عنها فعن مثلها حلنا  
فإذا حصلوا على المعرفة المطلوبة؛ حجبوا عند نهايتهم عن هذه الكشوفات.  
وأما عن طريق الجذبة؛ فهي أقصر وأسلم. والعامل لا يعدل بالسلامة شيئًا. وإلى هذين النوعين يشير قوله تعالى:

﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَبُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى﴾ [طه: الآية ١٣٥].

أي ينكشف لكم من هم المهتدون بالوصول إلى معرفته - تعالى - بسلوكهم على الطريق السوي المعتدل، الذي لا عوج فيه، وهو صراط الله - تعالى - وصراط رسوله - ﷺ - ومن اهتدى، أي وصل إلى معرفة الله - تعالى - من غير سلوك ولا مشي، على المقامات، بل بجذبة إلهية، وعناية رحمانية، وهو المراد الذي عرفوه بأنه المجذوب عن إرادته، مع تهيؤ الأمور له. فجاز الرسوم كلها، والمقامات من غير مكابدة. والمقابل لهما محذوف. وهو الذي ما وصل إلى معرفة الله - تعالى - لا بسلوك ولا بجذبة. وقد خطر لي في بعض الأيام: لو أن الله - تعالى - كشف لي عن عالم الخيال المطلق، ودام عليّ هذا الخاطر يومين، وحصل لي قبض؛ فكنت أذكر الله، فأخذني الحق - تعالى - عن نفسي، ثم ألقى عليّ قوله:

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ [التوبة: الآية ١٢٨] الآية.

ففهمت أن الحق أشفق مما حصل لي. وفي حالة القبض دعوت في بعض الصلوات وقلت: «اللهم حققني بحقائق أهل القرب، واسلك بي مسلك أهل الجذب» فسمعت في سري: «وقد فعلت» فتنبّهت من غفلي، وعرفت أن ما طلبته إما لم يحضر وقته، وإما الحكمة اقتضت عدم حصوله. وإني غالط في هذا. وإن مثلي مثل من دعاه الملك إلى حضرته والجلوس معه للمحادثة والمباشطة، وهو مع ذلك يتمنى أن لو خرج لمشاهدة دواب الملك وسواه وخدامه والتفرج في الأسواق!! فرجعت إلى الله وسألته أن يحققني بما خلقني لأجله من معرفته وعبودته. وكان مثل هذا الخاطر خطر لي وأنا بطيبة المباركة. وتوجهت للذكر؛ فأخذني الحق عن نفسي، ثم

ألقى علي إلى قوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَنَافِقَاتِ وَالْقُرْءَانَ الْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ﴾ [الحجر: الآيات ٨٧، ٨٨] الآية.

فلما رجعت إلى حسي قلت: حسي حسي!! وغاب عني هذا وما تذكرته؛ إلا

بعد.

\*\*\*

## الموقف التاسع عشر

قال الله تعالى: ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢﴾﴾ [فاطر: الآية ٢].

من الحكايات المتواترة عند القوم؛ أن عارفا رأى مریدا حزينا، فسأله عن سبب حزنه، فقال له المرید: مات أستاذي، فقال له العارف: ولم جعلت أستاذك من يموت؟! ففي هذه الحكاية أدب عظيم، وإرشاد جسيم إلى طريق مستقيم. وأكثر المریدين عن هذا في غفلة. يأتي المرید الشيخ وقد تقرر في أذنه أنه يجب على المرید أن يعتقد في شيخه الكمال، وأنه أكمل أهل عصره، وأنه صاحب الهمة الفعالة والبصيرة النافذة، وأنه كذا وأنه كذا. فإذا حضر عند الشيخ وقال له: جئت أطلب الطريق إلى الله - تعالى -، فالشيخ لا يرد من كان هذا قوله، كائنا من كان، ولو اطلعه الله - تعالى - على باطن المرید، بالكشف أو الفراسة، وقد كان - ﷺ - يقبل أقوال المنافقين، مع اطلاعه على بواطنهم، وقد يكون المرید كاذبا في دعواه الطريق إلى الله، أو تكون همته باردة، أو يكون الحق - تعالى - لم يقسم له شيئا في طريق المعرفة، أو تكون له قسمة زمانها بعيد، أو تكون له قسمة لكن على يد شيخ آخر؛ فيخرج هذا المرید من طريق الشيخ الذي كان دخل تحت عهده، ويصير يتكلم في الشيخ ويقول: ما هو إلا كذاب، ما هو إلا نصاب، يأكل أموال الناس بالباطل، ولو كان شيخا صادقا؛ لحصل لي منه ما قصدته... ونحو هذا، فيهلك هلاكاً أبدياً إن لم يتداركه الله - تعالى - بالتوبة. فلو حضر المرید عند الشيخ، وقد عرف واعتقد أن الشيخ إنما هو داع إلى معرفة الله - تعالى - وأن الحق - تعالى - قد قسم الحظوظ والأرزاق المعنوية والحسية في الأزل، وقال: «ما يبدل القول لدي، فلا يزد لأحد في قسمته ولا ينقص له منها». وإنه لا مانع لما أعطى الله، ولا معطي لما منع، وأن الشيخ باب الله - تعالى - فما تفضل به الله - تعالى - على المرید: وصله على يد الشيخ وخرج له على الباب. وما لم يتفضل به الله - تعالى - لا يقدر الشيخ على

إعطائه، وأن الشيخ طيب يعرف الخلط الفاسد، والركن الغالب، فيأمر المرید بما يصلح الفاسد، ويعدل الغالب، ويقول له: استعمل الدواء الفلاني، واترك الغذاء الفلاني، وهذه أسباب إن سبق القدر بنجاحها ونفعها؛ نفعت وإلا؛ فلا، كسائر الأسباب. لا أن الشيخ يعطي من لم تسبق له قسمة في الأزل، أو يقدم ما تأخر، أو يؤخر ما تقدم. فإن هذا شيء لم يجعله الله - تعالى - لأحب خلقه، وأفضل رسله، وأكرمهم لديه، فقال له: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: الآية ١٥٦]، ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: الآية ١٢٨]، ﴿أَفَأَنْتَ تُنقِذُ مَنْ فِي النَّارِ﴾ [الزمر: الآية ١٩]، ﴿وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعَمَىٰ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ﴾ [النمل: الآية ٨١]، إلى أمثال هذا.

وإنما الواجب على المرید الكامل، أن يكون مع الشيخ الكامل، كما كان الصديق - رضي الله عنه - مع رسول الله - ﷺ - فإنه كان يراه باب الله الأعظم، والداعي إلى الطريق الأقوم، وأنه أفضل العالمين، وسيّد المرسلين، وما كان يعتقد بيده ضرراً ولا نفعاً، ولا عطاء ولا منعاً، ولا هداية ولا ضلالة، ولهذا ثبت يوم سوته - ﷺ - وخطب خطبته المشهورة فقال: من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت، وتلا: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ﴾ [آل عمران: الآية ١٤٤].

فكل رسول ووارث داع، إنما دعواه إلى الله. والله لا يزول ولا يحول. بل كل الدعاة إنما هم ظهورات الحق - تعالى - وصوره وهو الداعي نفسه لنفسه بنفسه، فهو الداعي من حيث ظهوره وتعيينه بصور الرسل والمشايخ، والمدعو من حيث ظهوره وتعيينه بصور المریدين، ودعوته لنفسه من حيث رتبة الألوهية، لا رتبة الإطلاق.

\*\*\*

## الموقف العشرون

طلبت من الحق - تعالى - أن يجعل لي نوراً أكشف به، حتى أعرف ما أتى وما أذر. فقال لي في الحين: ها هو ذا في الكتاب والسنة. فانتبهت حينئذٍ لقوله - تعالى -:

﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾ [المائدة: الآيات ١٥، ١٦].

فعرفت أنه لا نور يرغب فيه الراغبون مثل الاستقامة على الكتاب والسنة. لأنه - تعالى - ضمن النجاة في العمل بهما، وما ضمنهما في العمل بالكشف ولذا قال أستاذنا أبو الحسن الشاذلي: إنه يرد عليّ الوارد؛ فلا أقبله إلا بشاهدين عدلين، وهما: الكتاب والسنة. أو كما قال. وإن طوق الشريعة لا يزول عن رقة عازف ولا مكاشف؛ ما دام بدار التكليف.

\* \* \*

## الموقف الواحد والعشرون

قال تعالى في سحرة فرعون: ﴿قَالُوا ءَأَمَّنَّا رَبِّبِ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿١٢٢﴾ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿١٢٣﴾ [الأعراف: الآيتان ١٢١، ١٢٢].

وقال حكاية عن فرعون: ﴿ءَأَمَّنْتُ أَنَّمُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَأَمَّنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: الآية ٩٠].

إنما زاد السحرة ذكر موسى وهارون، وما اقتصرُوا على قولهم رب العالمين؛ لأنهم مأمورون بتصديق موسى وهارون، فيما جاء به من الأوامر والنواهي الزائدة على التوحيد. وكلُّ من كان داخلاً تحت رسالة رسول، أي رسول؛ فلا ينفعه توحيده دون إيمانه بذلك الرسول، وانقياده له. فإنه مأمور أن يوحد؛ لقول الرسول له: وَخُدْ، لا مطلق التوحيد، ففي ذكر السحرة لموسى وهارون؛ إقرار برسالتهما، وأن توحيدهم هذا أتباع لهما وإذعان لما جاء به من التوحيد وغيره كأنهم قالوا - في ضمن ذكر موسى وهارون -: صدقنا برب العالمين، لأمر موسى وهارون. وفي ذلك نجاتهم. لأن التوحيد المجرد عن الإيمان برسول؛ إنما ينفع من لم يكن داخلاً تحت رسالة رسول كقس بن ساعدة الأيادي، وزيد بن عمرو بن نفيل، وإضرابهما. وكذا قول فرعون:

﴿ءَأَمَّنْتُ أَنَّمُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَأَمَّنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ﴾.

مراده بني إسرائيل: موسى وهارون وأتباعهما. فهو توحيد وإقرار برسالة موسى وهارون وإذعان لهما، ولما جاء به. وما هو بإيمان يأس، فإنه شاهد كرامة الله - تعالى - لموسى، وعاین قدرته - تعالى - كيف جعلت البحر يبسا، فلم يبأس من حصول هذه الكرامة له، بإيمانه بموسى وهارون عليهما الصلاة والسلام - وقد نصَّ الله - تعالى - على أن فرعون آمن إيماناً كاملاً بقوله: ﴿ءَأَلْفَنُ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ﴾ [يونس: الآية ٩١].

فما نعى عليه إلا تأخير الإيمان فقط، لأن عصيان فرعون ما كان عن جهل بصحة رسالة موسى وصدقه؛ وإنما جحوده استكباراً، مع معرفته في الباطن. قال تعالى في حقه وحق قومه: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: الآية ١٤].

وأقوى حجة للمخالف في عدم قبول إيمانه قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى﴾ [التازعات: الآية ٢٥].

ولقد أعلمني الحق - تعالى - أن معناها: أنه جمع لفرعون في الغرق نكال الآخرة والدينا، فلم يبق عليه بعد الغرق نكال في الآخرة، هكذا ألقى إلي. وقد ذكر أستاذنا محيي الدين للآية وجهًا غير هذا. وما كان فرعون مغرغراً؛ حتى لا يقبل إيمانه، فإن الغرغرة؛ نفس واحد يخرج ولا يرجع، وفرعون تكلم بعد الإيمان كلمات كثيرة، حكاها الله عنه، وخاطبه الحق بكلمات كثيرة. وكون إيمان اليأس غير مقبول؛ إنما هو في دفع العذاب الدنيوي، سنة الله التي قد خلت في عباده إلا قوم يونس، لما آمنوا؛ كشف الله عنهم العذاب في الدنيا. ولذلك قال في آخر الآية: ﴿وَخَيْرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾ [غافر: الآية ٨٥].

الإشارة للبعيد، وهو يوم القيامة أي الذين ماتوا وهو كفار، لا الذين ماتوا وهم مؤمنون، وإنما لم يفهمهم إيمانهم في كشف العذاب الدنيوي، لأنه - تعالى - جعله لهم تظهيراً لما سلف من الكفر والعناد، كالحدود في الدنيا، فإنها لا ترفعها التوبة. وقد شهد - عليه السلام - لما عز: بأنه تاب توبة، لو قسمت على أهل الأرض؛ لو سعتهم<sup>(١)</sup>. ومع هذا؛ رحمه - عليه السلام - وكيف لا يكون إيمان اليأس مقبولاً. وقد وارى - ﷺ - القوم الذين قتلهم خالد بن الوليد - رضي الله عنه - وكان خالد صبّحهم فجعلوا يقولون: «صبأنا صبأنا» ولم يحسنوا أن يقولوا: أسلمنا<sup>(٢)</sup>، وقال - عليه السلام - لأسامة - رضي الله عنه -، أقتلته؟ بعد أن قالها. قال أسامة: فما زال يكررها حتى تمنيت أنني لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم<sup>(٣)</sup>، وقال - عليه السلام - للذي سأله: أ رأيت لو لقيني مشرك، وضربني، وقطع إحدى يدي، ثم لازمني

(١) رواه مسلم: كتاب الحدود، باب من اعترف على نفسه بالزنى، حديث رقم (١٦٩٥).

(٢) رواه البخاري: كتاب الأحكام، باب إذا قضى الحاكم بجور، حديث رقم (٧١٨٩).

(٣) رواه البخاري: كتاب المغازي، باب بعث النبي ﷺ أسامة بن زيد حديث رقم (٤٠٢١). ورواه مسلم: كتاب الإيمان، باب تحريم قتل الكافر بعد أن قال لا إله إلا الله، حديث رقم (١٥٩).



بشجرة. وقال: لا إله إلا الله. أقتله؟! فقال له - عليه السلام - إن قتلته كنت بمنزلته قبل أن يقولها<sup>(١)</sup>. وكلُّ هذا في الصحيح. فمن قال بعدم قبول إيمان اليأس؛ ما أمعن النظر. ومن عرف الحق عرف أهله. ومن عرف الحق بالرجال تاه في مهامه الضلال. وربما يقول الواقف: إن هذه المسألة مما لا يعني. وإنما ذكرتها ليعلم الواقف سعة رحمة الله فلا ييأس ولا يقنط ويظن خيراً فيكون الحق عند ظنه.

\* \* \*

## الموقف الثاني والعشرون

ورد في الصحيح عنه تعالى، قال: «أنا جليس من ذكرني»<sup>(٢)</sup>.

الحديث بكامله.

لفظة (أنا) و(ني)؛ يقتضيان أن المراد المجالسة بالذات. ومجالسة الحق - تعالى - الذاتية إنما هي إذا ذكره بأسماء الذات، كالله والهو والحق والأحد. وأسماء الضمائر. وأما إذا ذكره بالذات بأسماء الصفات، أو أسماء الأفعال، وكان قصد الذكر المعنى الذي دلّت عليه لفظة الاسم؛ فلا يكون الحق جليسه إلا من حيث ذلك المعنى خاصة، لا بالذات. وكذلك إذا ذكره بالاسم، الله، وكان قصد الذكر معنى من المعاني التي دلّت عليها الاسم، الله، من حيث أنه جامع لجميع معاني الأسماء، كما إذا قال: يا الله ارزقني، أو يا الله عافني مثلاً، فإن مقصوده من لفظة الله: ما دلّت عليه من معنى الرزق والمعافي، وكل اسم من أسماء الصفات والأفعال له اعتباران: اعتبار من حيث دلّته على الذات، واعتبار من حيث المعنى الذي دلّت عليه لفظة الاسم، فأما من حيث الاعتبار الأول؛ فهو عين الذات وعين جميع الأسماء، فيصح نعته بجميع الأسماء. وأما من حيث الاعتبار الثاني؛ فهو غير الذات وغير جميع الأسماء. ومن هذا المعنى الذي أسلفناه قوله تعالى:

﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفَدًا﴾ [مریم: الآية ٨٥].

فحيث لم يكن المتقي جليساً للرحمن في الدنيا، وإنما كان جليساً لاسم من أسماء الجلال، كالمنتقم والجبار وشديد العقاب ونحوها، ومجالسة أسماء الجلال؛

(١) رواه البخاري: كتاب المغازي، باب شهود الملائكة بديراً، حديث رقم (٣٧٩٤). ورواه مسلم: كتاب الإيمان، باب تحريم قتل الكافر بعد أن قال: لا إله إلا الله، حديث رقم (١٥٥ - ٩٥).

(٢) العجلوني (كشف الخفاء، رقم ٦١١، طبعة دار الكتب العلمية بيروت).



تمنع من مجالسة أسماء الجمال كالرحمن ونحوه. وهي التي حملته على التقوى جزاء الله - تعالى - بحشره إلى الرحمن وفذاً، حتى يرحمه الرحمن ويكرمه وينعمه. وقد عقل عن هذا المعنى العارف الكبير أبو يزيد البسطامي - رضي الله عنه - فإنه سمع قارئاً يقرأ: ﴿يَوْمَ تَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفَذَا﴾ ﴿٨٥﴾ [مرئيم: الآية ٨٥].

فقال: يا عجباً كيف يحشر إليه جليسه؟! ولذا قال إمام العارفين محيي الدين: ليس العجب من قول الله هذا، وإنما العجب من قول أبي يزيد. والكمال لله. فلهذا نقول: الذي يحشر إلى الرحمن؛ مقطوع بنجاته، بخلاف الذي يحشر إلى الله كما في قوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [المائدة: الآية ٩٦].

فإنه بين خوف ورجاء من حيث الاسم، الله، الجامع لمعاني أسماء الجلال والجمال، فيمكن أن يقابل المحشور إليه بأسماء الجمال، ويمكن أن يقابله بأسماء الانتقام لا يقال: إن الاسم، الرحمن، كذلك له الأسماء كلها كما قال - تعالى -: ﴿قُلْ أَدْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [الإسراء: الآية ١١٠].

لأننا نقول الاسم الرحمن، ولو كانت له الأسماء كلها، كما هي منه؛ فإنها حين تكون تحت حيطته وفي قبضته؛ لا تخرج إلا بنفسه، وهو الرحمة لأن الدولة والحكم له. وأما قوله تعالى:

﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ [الأنعام: الآية ٥١] الآية.

فكذلك خافوا من الحشر إلى الحضرة الجامعة لأسماء الربوبية كلها. ولا يعرفون ما يثقلهم منها من الأسماء. ولو عرف كل واحد أنه يحشر إلى ربه الخاص؛ ما خاف لأنه كان معه في الدنيا. وكل واحد من المرئيين مرضي ربه، لأن المرئوب؛ شأنه طاعة ربه الخاص، فلذلك هو ربه، راض عنه كيفما كان ربه مضافاً أو هادياً أو جباراً أو عفواً، أو غير ذلك. وهذا الخبر الرباني، ما جاء على مقتضى خطاب العموم حتى تقبله العقول المحجوبة من غير تأويل، وما قبلته إلا بضرب من التأويل. ولا جاء على ما هو الأمر عليه في نفسه وحقيقته، فإنه لو جاء على هذا؛ لقال لا يظن ذاكري أنه غيري، فأنا الذاكر والذكر والمذكور. والحكمة في وروده باللفظ الذي ورد به؛ هو قبوله لتأويل المتأولين، بخلاف ما لو صدعهم بصريح الحق ونفس الأمر فإنهم يعجزون عن تأويله، فلا يقبلونه. وكم من حديث رده علماء الرسوم لعجزهم عن تأويله. وعندهم من علامة وضع الحديث وروده بصفة تخالف

العقل ولا يقبل التأويل حتى يجمع بين مقتضى العقل ومقتضى الحديث، وهؤلاء جعلوا عقولهم أصلاً يرجع إليه الكتاب والسنة وهذا آخر شيء على المتكلمين في المتشابهات من الآيات وأحاديث الصفات، نعوذ بالله من الجهل الذي صورته صورة علم. ولو كان من هذه سبيله عامياً يؤمن بالمتشابهات على مراد الله - تعالى - ومراد رسوله - ﷺ - كالسلف لكان خيراً له. وأول من وسّع باب التأويل أبو الحسن الأشعري - رضي الله عنه - ولكنه ما اتخذه ديناً وعقيدة، وإنما ألجأه إلى ذلك أهل الأهواء والبدع فإنهم يستدلون لبدعتهم من الكتاب والسنة، فكلمهم بلسانهم ورد عليهم بسهامهم. ولذا قال في كتابه الإبانة، وهو آخر مؤلفاته: إن مذهبه في المتشابهات؛ مذهب إمام السنة أحمد بن حنبل - رضي الله عنه - .

\* \* \*

### الموقف الثالث والعشرون

قال تعالى: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ [الحديد: الآية ٣].

اعلم أن الحق - تعالى - هو الظاهر بهذه الصور المشكلة المحدودة التي هي خيالات لا وجود ولا حقيقة لها إلا في المشاعر الإنسانية كما إذا أخذت عوداً في طرفه نار، وأدرته بسرعة فإنك ترى دائرة نار لا تشك فيها، وكذا إن حركته مستقيماً فإنك ترى خطأ من نار لا تشك فيه بحسبك وتخيلك، وتحكم بعقلك وعلمك: أنه ليس ثمة إلا الجمرة التي على رأس العود. فهكذا جميع ما ترى في الأرض والسماء ليس إلا أمر الله الذي هو مجموع صفات الله، الظاهر بكل صورة. وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر. وهذه الصور المشكلة المحدودة في الأرض والسماء هي أحكام الاستعدادات الممكنة الثابتة في العلم التي ما شئت رائحة الوجود ولا تشم أبداً المسماة بالأعيان الثابتة وبالحقائق؛ عند الصوفية، وبالماهيات؛ عند المتكلمين. والحق الذي هو الأمر الظاهر بها، على ما هو عليه من الإطلاق وعدم التقييد بهذه المظاهر. والوجود الحق المسمى بالأمر لا يظهر إلا بما يقتضيه استعداد كل عين ثابتة، وما هي طالبة له من الأحوال ومتأهلة من الأزل والقدم من إيمان وكفر وطاعة ومعصية وعلم وجهل وصلاح وفساد وحسن وقبيح... وغير ذلك من الأقوال والأفعال والاعتقادات والصفات، فصاحب هذا الشهود إذا بدا له قول أو فعل يسوؤه من صورة؛ لا يقول هذا حق، وإنه مستحق لهذا الأمر الصادر من هذه الصورة؛ وإنما يرجع إلى نفسه ويفتئها.

﴿بَلِ الْإِنْسَانِ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾﴾ [القيامة: الآية ١٤].

لأن الفاعل والمتكلم وإن كان هو الحق حقيقة من خلف أستار الصور: فهو لا يفعل ولا يقول إلا ما هو مقتضى العين الثابتة التي تلك الصورة حكاية عنها، كحكاية الصور الظاهرة في المرايا مما قابلها من الأشخاص. فأمر الله الذي هو الوجود المفاض على المكونات؛ هو الظاهر وهو الشهادة، وهو المحيط بكل شيء. والمخلوقات هي الباطنة وهي الغيب ولكن الحكم دائماً للباطن في الظاهر، وللغيب في الشهادة. فحكمت أحكام الأعيان على الوجود الحق الظاهر بما تقتضيه حقائقها، فلا يظهر إلا بأحكامها، كائنه ما كانت، من نقص أو كمال. وهي إعدام لأنها نسب وأعراض وهو - تعالى - في هذا الظهور على ما هو عليه من الكمال، لا حلول ولا اتحاد ولا امتزاج. ومن هنا كانت الحجة البالغة للحق - تعالى - على الخلق.

﴿وَلَا يَظِلُّ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: الآية ٤٩].

لأنهم يطلب استعداداتهم؛ طالبون منه - تعالى - أن يظهر بأحكام كل عين وما تقتضيه. وهذا الاستعداد الكلّي؛ غير مجعول. فما هو مخلوق ولا هو من فعله فتكون الحجة للخلق. وهنا ظلمات مدلهما تقصر دونها الخطأ وتضل فيها القضا.

\* \* \*

## الموقف الرابع والعشرون

قال تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [محمد: الآية ١٩].

المعنى أنه لا يستحق العبادة والخضوع والاتصاف بصفات الإله وجه من وجوه الحق - تعالى - الظاهرة بالمظاهر التي هي (أي المظاهر) إعدام عند التحقق؛ إلا الذات المسمى بالله. وذلك أن الحقيقة المسماة بالله واحدة من كل وجه، ومع وحدتها، فهي ظاهرة وتظهر بما لا نهاية له من الصور. ولها في كل صورة وجه خاص بتلك الصورة، فهي واحدة كثيرة. واحدة بحقيقتها، كثيرة بتعيناتها ومظاهرها. فحقيقة الله وإن ظهرت بكمالها في مظاهرها التي لا تتنافى؛ فهي لا تتجزأ ولا تتبعض، ولها في كل مظهر وجه خاص، أي ذات. ولا يستحق العبادة وجه من تلك الوجوه الظاهرة بالمظاهر إلا الذات المسمى بالله، لأن غيرها وإن كان هو هي؛ فإنه لا يسمى الله، فإنه - تعالى - لما ظهر بهذه الصور؛ سماها غيراً أو سوى وإنساناً وملئاً وعرشاً وفلكاً وشمساً وكوكباً ونحو ذلك. قال تعالى موبخاً لعبدة الأصنام: «قُلْ سَمُّوهُمْ» يعني الأصنام التي عبدوها، فلو

سموهم ما سموهم إلا حجرًا أو شجرًا أو نحو ذلك وما سموا معبوداتهم الله أبدًا. فكل من عبد شيئًا غير مسمى الله فهو كافر. وإن كانت حقيقة ذلك المعبود هي الحقيقة المسماة بالله، وما أصاب الحق إلا من عبد الذات المسمى بالله الغيب المطلق الذي لا صورة له ولا يعرف منه إلا وجوده لا غير، من حيث اتصاف الألوهية. وما سوى ذلك مما يعده المتكلمون في الذات من علماء الرسوم معرفة، فهو إلى الجهل أقرب منه إلى المعرفة. وعلى هذا التفسير يكون الاستثناء ظاهرًا، فهو بمثابة قولنا: لا رجل إلا زيد، نفينا صفة الرجولة عن كل رجل، وإن كانت ثابتة له. وأثبتناها للذات المسماة بزيد فقط. وأما التفسير المشهور؛ فالاستثناء فيه مشكل. ولذا كثر فيه اللغظ والاختلاف حتى قال بعض العلماء: ينبغي أن يكون الاستثناء في الكلمة المشرفة قسمًا برأسه، ليس من أقسام الاستثناء المعروفة. والذين عبدوا ما عبدوا من دون الله؛ ما قصدوا بعبادتهم إلا المظاهر التي حصروا الحق فيها، وهي الصور المشهودة لهم وما عرفوا الحق الظاهر بتلك الصور وبغيرها فضلوا وأضلوا.

\* \* \*

## الموقف الخامس والعشرون

قال في الحكم<sup>(١)</sup>: «لولا ميادين النفوس؛ ما تحقق سير السائرين».

معناه لولا ما يكون فيه سير معنوي، ويحصل فيه تردد وصعود وهبوط، وهي صفات النفس المعبر عنها بالميادين، أي المجالات المتسعة، والسير فيها بقطع وصلتها وتبديل وصفاتها ومحو آثارها وعاداتها. والنفس حقيقة واحدة ولكن تعددت باعتبار تعدد صفاتها وتباين مقتضياتها فيقال: أمانة لؤامة ملهمة مطمئنة... ما تحقق سير السائرين، أي ما ثبت نسب سير لسائر لأنه ليس هنالك شيء محسوس يسير فيه السالك حتى يقطعه، وإنما هو سير معنوي في مجالات معنوية، وهي النفوس التي يكون سير السالك فيها. وقطعها؛ كناية عن تبديل صفاتها البهيمية بالصفات الإلهية، بمعنى أنه يملكها، حتى يضع كل وصف في محله اللائق به، ويصرف كل وصف مصرفه. وأما محو الصفات بمعنى زوالها بالكلية فهو غير واقع لأنها لو محيت لمحيت النفس رأسًا وانعدمت. ولا يتوهم متوهم أن السالك سائر إلى الله في مسافة

(١) (قال) أي: الشيخ تاج الدين أبو الفضل أحمد بن محمد بن عبد الكريم بن عطاء الله الإسكندري الجذامي الشاذلي المتوفى بالقاهرة سنة ٩٠٧ هـ. (في الجكم) أي: حكيمه المشهورة بالحكم العطائية التي بلغت ٢٦٤ حكمة.

محسوسة، وأن الوصول إلى الله؛ وصول محسوس، فإن هذا وهم باطل، وجهل عاطل، لأن مَنْ هو أقرب للإنسان من جبل الوريد ومن العجيس، كيف يتوهم السير والوصول إليه؟! لا مسافة بينك وبينه تقطعها رحلتك، وتطويرها وصلتك، فلا يصح إطلاق السير إلى الله - تعالى - إلا بنوع من المجاز، وهو أنه لما كان السالك السائر في ميادين النفوس، إذا قطع تلك العقبات المعنوية يصل إلى العلم بالله - تعالى - صح أن يقال: سار إلى الله. وألا فجل ربنا أن يسير إليه أحد ويصل إليه. فإنه أقرب إليك من نفسك التي تتخيّل مغايرتها لله - تعالى - وأنها سائرة إليه وواصلة.

\*\*\*

### الموقف السادس والعشرون

قال تعالى: ﴿قَوْلٍ وَجْهَكَ شَطَرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ﴾ [البقرة: الآية ١٤٤].

الحكمة في تحجير الأمر باستقبال القبلة في الصلاة مع قوله فأينما تولوا فثم وجه الله: أي ذاته. ومع كون التحجير فيه نوع تقييد للمعبود أنه ما ظهر بغيرها، ومع ما في ذلك من التشبه بعبدة الأوثان والأصنام في الظاهر إذ التوجه في الصلاة والطواف بها لا يقع في ظاهر الأمر وبإدبي الرأي إلا إلى الكعبة وأحجارها، هو أنه - تعالى - لو أطلق الأمر وما حجره وجعل التخيير للمصلين؛ لأذى ذلك إلى التفرقة والحيرة فربما يريد مصل جهة، ويريد الآخر أخرى، وآخر أخرى... فينحل النظام وتخل - الجماعة، وأساس الدين هو الاجتماع والاتفاق. وأيضاً تكون حيرة العارفين في الإطلاق. وعدم التحجير أعظم، لأنهم عارفون بظهور الحق - تعالى - في كل مظهر وصورة بوجه خاص، والمظاهر متفاضلة بما لا يتحصر، في قبول الظهور. والعارف أكثر مشاهدته وتوجهه إلى المظهر الذي خواص الوجود فيه، أكثر ظهوراً. وخواص الوجود الحق ما ظهرت في مظهر مثل الإنسان الكامل في كل عصر. فلو أطلق الأمر إلى العارف ما توجه إلا إليه. وهو مجهول المكان، فتعظم حيرة العارف.

\*\*\*

### الموقف السابع والعشرون

قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَكَ وَأَبْكَيْكَ﴾ [التنجم: الآية ٤٣].

كنت متوجهاً أذكر الله في خلوتي، فأخذني الحق - تعالى - ما أضحكنا وأبكنا في الدنيا؛ إلا ليضحك لنا في الآخرة. فلما رجعت إلى نفسي؛ علمت أن هذا تسلية

وبشارة، فإن السالك السائر تتلون أحواله دائماً، فتارة قبض، وتارة بسط، وتارة ضحك وتارة بكاء، والموجب لذلك مشاهدتان:

**الأولى:** مشاهدة ما بين الله - تعالى - إليه من الستر عليه والإحسان إليه، وأنه عبد الله - تعالى - وأنه سائر إليه ولحضرة قربه، ولحسن ظنه بربه، بأنه سيرحمه ويرفع حجبهِ ويعرفه بنفسه ويجلسه مجلس الرضى مع الأحباب المخصوصين بالقرب والكرامة، فهذه مشاهدة توجب الفرح والضحك والانبساط.

**والثانية:** مشاهدة ما بينه إلى الله - تعالى - من سوء الأدب، والتقصير في الأوامر، وعدم شكر النعم، مع التفكير في حالته الراهنة، وبعده من حضرة الأحباب، وتراكم الحجب، وغلبة النفس والهوى. واستيلاء حب الدنيا والشهوات على قلبه... فمشاهدة هذه الأمور؛ توجب القبض والحزن والبكاء بل توجب إزهاق الروح لمن كانت له همة سنئية، ونفس إنسانية. فالسالك لا يخلو من هاتين الحالتين أبداً ولا تظهر له من الحق - تعالى - علامة الرضى وهو الضحك الخالص، ما دام في هاتين المشاهدين. فإذا أراد الله - تعالى - رحمة؛ أظهر له علامة الرضى برفع الحجاب، وأذناه من حضرة الأحباب وعرفه بنفسه، وخلع عليه من خلع الكرامة، وأنعم عليه بأنواع النعم. لأن من عادة الملك إذا ضحك لأحد؛ فعل به أنواعاً من الكرامة. ويكون المراد بقوله: «في الدنيا» الحالة القربى من السالك وهي بدايته في السلوك والسير، إذ الدنيا مأخوذة من الدنوّ، وهو القرب لكونها أقرب إلينا من الآخرة. ويكون المراد بالآخرة؛ حالة السالك المتوجه حين يرحمه الله - تعالى - بحلول رضوانه عليه، وكشف حجابهِ، لأنها آخرة بالنسبة إلى حالته الأولى. وما سُميت الآخرة آخرة؛ إلا لتأخرها بالنسبة إلى الدنيا.

\*\*\*

### الموقف الثامن والعشرون

قال تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ نُنْفِذَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ [الكهف: ١٠٩].

قال عاقل المفسرين: الكلمات؛ هي المقدورات لأن القدرة تتعلق بكلّ ممكن، ولا نهاية للممكنات. وعندني من باب الإشارة؛ أن المراد بالكلمات؛ الكلمات الحقيقية، جمع كلمة. وذلك أن الحق - تعالى - هو المتكلم من وراء جدار كلّ صورة



ينسب الكلام إليها، لأنه لسان كل متكلم وسمعه وبصره، كما ورد في الصحيح. ولأنه وجود كل متكلم. والكلام تابع للوجود كسائر الصفات. فالكلام له - تعالى - حقيقةً ولغيره مجازاً والمتكلمون مجازاً لا نهاية لكلامهم، لأنهم بعد دار الدنيا يصيرون إلى الدار الأبدية، التي لا نهاية لها، فلا نهاية لكلامهم. وليس كلامهم إلا كلام الله، وإنما كان لا نهاية له؛ لأنه لم يدخل جميعه في الوجود، فيلزمه التناهي، فهو غير محصور. بخلاف البحر فإنه محصور داخل في الوجود. وكل ما دخل في الوجود؛ فهو متناه. فلو كان البحر المتناهي مدداً لكلمات ربي غير المتناهية؛ لنفد البحر وانقضى قبل أن تنفذ كلمات ربي لأنها غير متناهية، ولو جئنا بمثله مدداً. أي ولو جئنا ببحر آخر مثله، أي مماثل له في صفاته التي من جعلتها دخوله في الوجود والتناهي مدداً. أي تقوية له وزيادة فيه؛ لنفد قبل أن تنفذ كلمات ربي غير المتناهية. وأيضاً كلامه - تعالى - تابع لعلمه؛ أو هو العلم نفسه تعددت أسماؤه لتنوع ظهوراته. فإذا أضيف علمه - تعالى - إلى استماع دعوة المضطر؛ قيل سميع. وإذا أضيف علمه إلى رؤية كل شيء؛ قيل: بصير. وإذا أفاض علماً على قلب عبد من عباده. قيل: متكلم، ونحو هذا. ومعلوماته لا نهاية لها فكذلك كلامه لا نهاية له.

\* \* \*

### الموقف التاسع والعشرون

كنت بين النائم واليقظان فقبل لي: «إن الناس يظنون أنهم في حالة النوم؛ في خيال وعدم، وفي حالة اليقظة؛ في وجود حق، وما يدرهم أنهم في الحالتين في خيال لا حقيقة له؟! فإنهم في حالة النوم في خيال متصل، وفي حالة اليقظة في خيال منفصل، وحقيقة الخيال فيهما واحدة إذ الخيال المتصل شعبة من الخيال المنفصل. والخيال لا موجود ولا معدوم، ولا منفي ولا مثبت وجميع ما يدرك بأي آلة من آلات الإدراك كانت؛ فهو في هاتين المرتبتين وليس في الوجود الحق الثابت إلا الله - تعالى - عز وجل. والأرواح والأجسام خيال كلها.

\* \* \*

### الموقف الثلاثون

قال لي الحق تعالى: «أتدري من أنت؟ فقلت، نعم. أنا العدل الظاهر بظهورك، والظلمة المشرقة بنورك. فقال لي: عرفت فالزم. وإياك أن تدعي ما ليس لك. فإن الأمانة مؤداة، والعارية مردودة، واسم الممكن منسحب عليك أبداً، كما هو منسحب



عليك أولاً. ثم قال لي: أتدري من أنت؟ فقلت: نعم. أنا الحق حقيقة، والخلق مجازاً وطريقة، أنا الممكن صورة، الواجب ضرورة. اسم الحق لي هو الأصل، واسم الخلق عليّ العارية، والفصل. فقال لي: أعم هذا الرمز، ودع الجدار ينقض على الكنز، حتى لا يستخرجه إلا من أعجب نفسه، وعابن رسمه. ثم قال لي الحق - تعالى -: ما أنت؟ فقلت: إن لي حقيقتين من حيثين: أما من حيث أنت فأنا القديم الأزلي الواجب الوجود الجلي. أما الوجوب؛ فمن اقتضاء ذاتك. وأما القدم؛ فمن قدم علمك وصفاتك. وأما من حيث أنا؛ فأنا العدم الذي ما شَمُّ رائحة الوجود، والحادث الذي في حال حدوثه مفقود. فما كنت حاضرًا بك لك؛ فأنا وجود، وما كنت غائبًا بنفسي عنك؛ فأنا مفقود موجود. ثم قال لي: ومن أنا؟ فقلت: أنت الواجب الوجود بالذات، المنفرد بكمال الذات والصفات. بل تنزهت عن كمال الصفات بكمال الذات. فأنت الكامل في كل حال، المنزه عن كل ما يخطر بالبال. فقال: ما عرفتنى!! فقلت: من غير خوف عقوق، وأنت المشبه بكل حادث مخلوق. فأنت الربُّ والعبد، والقرب والبعد، وأنت الواحد الكثير، والجليل الحقير، الغني الفقير، العابد المعبود، الشاهد المشهود. فأنت الجامع للمتضادات ولجميع أنواع المنافاة، فإنك الظاهر الباطن، المسافر القاطن، الزارع الحارث، المستهزئ الماكر الناكث، فأنت الحق، وأنا الحق، وأنت الخلق، وأنا الخلق، ولا أنت حقٌّ -، ولا أنا حقٌّ -، ولا أنت خلق، ولا أنا خلق. فقال: حسبك. عرفتنى؛ فاسترني عمَّن لا يعرفني. فإن للربوبية سرًّا لو ظهرت؛ لبطلت الربوبية. وللعبودية سرًّا لو ظهرت؛ لبطلت العبودية. واحمدنا على أن عرفناك بنا، فإنك لا تعرفنا بغيرنا، إذ لا دليل غيرنا علينا.

\* \* \*

### الموقف الواحد والثلاثون

قال الله تعالى<sup>(١)</sup>: «لَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ؛ حَتَّىٰ أَحِبَّهُ. فَإِذَا أَحَبَبْتَهُ؛ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ».

الحديث القدسي بطوله، أخرجه البخاري ومسلم. هذه رتبة عليا، وصاحبها غير كامل، لأنه يرى له ذاتا ونفسا قائمة موجودة. والحق صفاتها، من سمع وبصر ويد ورجل فنفسه عنده مقررة، وأفعاله بالحق تعالى. وأعلى منه وأكمل؛ عكسه، وهو

(١) أي في الحديث القدسي.

الذي يرى نفسه صفات الحق، فيكون سمع الحق وبصره، وكلامه إلى آخره. وهذا وإن كان أكمل ممن قبله؛ ففيه بقية نقص فإنه ما انعدمت عينه جملة واحدة. وأعلى منهما معاً؛ من يحصل على الفناء والمحقق فإنه رجوع إلى الإطلاق بعد التقييد، ولم يبق له اسم، ولا عين ولا رسم، ونودي عليه لمن الملك اليوم؟! هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزاً؟! وفي هذا الفناء تحصل الرؤية الحقيقية. فإنه ما غاب عن العالم وعن نفسه إلا برؤية الحق - تعالى - وفي نفس الأمر الرائي والمرئي واحد والتعدد اعتباري. وما عدا هذا ممّا يقال فيه رؤية؛ فهو مجاز. ومن السالكين من يحصل على الفناء والمحو قبل قرب النوافل والفرائض وهو السالك المجذوب بالعناية.

وقوله: كنت سمعه إلى آخر الحديث؛ فيه إيحاء إلى ما هو الأمر عليه في حقيقته بأن الحق - تعالى - هو السامع والسمع والمتكلم والكلام، إذ لا يصح أن يكون الحق - تعالى - صفة يقوم بذات العبد الحادث لأنه - تعالى - ذات، ما هو صفة. والذات لا تقوم بذات أخرى. فمنطوق الحديث غير مفهومه، لأن منطوقه إثبات عين العبد وتقررها. ومفهومه نفي عين العبد ومحوها، وأنه ليس هنالك إلا الحق - تعالى - هو العين والصفة، وهو الظاهر بأحكام عين العبد الثابتة في العلم والعدم، إذ العبد معدوم أبداً، كما هو معدوم أولاً. وإنما هو عبارة عن الأحكام العدمية التي ظهر الوجود الحق بها لا غير ولا حلول، ولا اتحاد كما يفهمه العميان، ولا تأويل كما يقوله أصحاب الدليل والبرهان، وسمى الحق - تعالى - نفسه في هذا الظهور وهذه المرتبة عبداً وهو العزيز الحكيم، ولا يسأل عما يفعل.

ويدلّ قوله - تعالى - كنت سمعه؛ أنه تعالى سميع بذاته بصير بذاته، إلى آخر الصفات، ولا يفهم من قوله: كنت سمعه... إلى آخره، أنه لم يكن كذلك، ثم كان. وإنما المراد رفع الحجب عن هذا المتقرب بالنوافل حتى يشاهد الأمر على ما هو عليه في هذه المرتبة. وهذا الظهور، لا أنه حدث ذلك بعد أن لم يكن فوقها مراتب، كما ذكرنا. فهو المتكلم منك لأنه لسانك، وهو السامع لأنه سمع مخاطبك، فهو المتكلم والسامع من كل متكلم وسامع، فتحت إشارة هذا الحديث الرباني بحور زاخرة، ترجع العقول عنها حائرة، كأنها حمر مستنفرة، فرت من قسورة.

## الموقف الثاني والثلاثون

قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: الآية ١٨٦].

اعلم أن الحق - تعالى - لا يعطي أحداً ما يطلبه بلسان مقاله؛ إلا إذا وافق طلب لسانه طلب استعداده، فإذا خالف طلب الاستعداد طلب اللسان؛ فلا يعطي - تعالى - إلا ما طلبه الاستعداد كائناً ما كان ذلك الطالب وذلك المطلوب فلو طلب الفار تبيض لونه!! ما أجابه الحق، لأن استعداده يطلب خلافه، وهو السواد. ولو طلبت شقة الكتان<sup>(١)</sup> مثلاً تسويدها: ما أجاب الحق سؤالها، لأن استعدادها يطلب خلاف ذلك، وهو تبييضها. والإنسان قد يكون له استعداد الطلب باللسان، وما يكون له استعداد قبول المطلوب. فإذا سأل أحد من الحق - تعالى - شيئاً. ولم يعطه إياه؛ فإنما ذلك لكون استعداده طلب خلافه، وليس له استعداد لقبول ذلك المطلوب. وإلا فتعالى الحق أن يمنع أحداً عن بخل. فالآية الكريمة؛ وإن كانت مطلقة في ظاهر اللفظ فهي مقيدة بطلب الاستعداد وسؤاله. فإن مدار الأمر كله على الاستعداد للقبول سواء طلب أو لم يطلب. والاستعدادات الكلية قديمة لم يتعلق بها جعل، وإنما حصلت بالفرض الأقدس الذاتي<sup>(٢)</sup>، فالحق - تعالى - حكيم لا يعطي أحداً شيئاً هو غير طالب له باستعداده، فيكون مستعداً لقبوله. فلو عمد الملك مثلاً إلى خزائن السلاح فأعطاه العلماء لطلبهم إياها منه، وعمد إلى خزائن الكتب ففرّقها على الجند لطلبهم إياها منه؛ ما كان حكيمًا. لأن العالم غير مستعد لاستعمال السلاح والحرب، ولو طلب السلاح بلسانه، والجندي غير مستعد لفهم الكتب، ولو طلبها بلسانه، والله عليم حكيم.

\* \* \*

(١) ومثل ذلك القطن والتلج.

(٢) الفيض الأقدس الذاتي: هو التجلي من الكثرة الأسمائية غير المجمولة. أو هو التجلي الحبي الذاتي الموجب لوجود الأشياء واستعداداتها في الحضرة العلمية. أو هو التجلي الذاتي والفيض الغيبي من غيوب الشؤون الذاتية. أو هو تعيين المعلومات في العلم الأزلي (شرح فصوص الحكم، مصطفى زادة الحنفي، دار الكتب العلمية. وشرح فصوص الحكم، مؤيد الدين الجندي، بوشان كتاب قم، مطبعة مكتب الإعلام الإسلامي).

## الموقف الثالث والثلاثون

سمعت المؤذن في المسجد الحرام يتلو على المنارة قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ [آل عمران: الآية ٥].

فعجبت من هذا الإخبار لرسوله - ﷺ - مع تأكيده بأن!! ثم ألقى الحق إليّ: أن المقصود بهذا الخطاب والإخبار؛ العامة الجاهلون بالحق. وأما العارفون؛ فإنهم عرفوه - تعالى - عين كل شيء في الأرض والسما. فكيف يخفى عليه شيء في الأرض والسما؟ وهل تخفى عليه عينه؟ فهذا الخطاب بمنزلة قوله: أنا عالم بذاتي، ولا يخفى عليّ شيء من ذاتي وهذا غير مفيد للعارفين شيئاً لم يكن عندهم، وجلّ الحق - تعالى - عن الخطاب بغير فائدة. فتعيّن أن المقصود بهذا الإخبار العامة الجاهلون بالحق؛ لأنّ تأكيد الخبر لا يكون إلا لمنكر أو متردد، والرسول - ﷺ - وورثته؛ ما وقع منهم تردد، فضلاً عن الإنكار.

\* \* \*

## الموقف الرابع والثلاثون

قال تعالى: ﴿قَوْلٍ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [البقرة: الآية ١٤٤].

الآية.

اعلم أنه لا وجود إلا الوجود الواحد الحق - تعالى - والمسّمى عالمًا ومخلوقات مظاهره، من أول مخلوق إلى آخر مخلوق، فحقّ بلا خلق؛ لا يظهر، وخلق بلا حق؛ لا يوصف بالوجود. والوجود الحق واحد لا يتعدد ولا يتغيّر ولا ينحصر ولا يحد ولا تقيده الأكوان والمظاهر. ومظاهره متعددة متغيرة منحصرة مقيدة. فيظهر في مظهر بالعلم، لأنه حكم استعداد ذلك المظهر، فيسمى المظهر عالمًا. ويظهر في مظهر بالجهل، فيسمى ذلك المظهر جاهلاً. ويظهر في مظهر بالقهر، فيسمى ذلك المظهر قاهرًا، لأنه حكم استعداد ذلك المظهر. ويظهر في مظهر بالذل فيسمى ذلك المظهر ذليلاً مهزوزًا، لأنه حكم استعداد ذلك المظهر. ويظهر في مظهر بالمعبود فيسمى معبودًا، لأنه حكم استعداد ذلك المظهر. ويظهر في مظهر بصورة العابد، فيسمى المظهر عابد الكون، وذلك حكم استعداد ذلك المظهر، والحق ما عرف إلا بجمعه الأضداد، فكل المتضادات في العالم؛ هو جامع لها. بل هو عين الأضداد كلها. وإنما يظهر في كل صورة بحكم استعدادها، وبما هو من أحوال عينها الثابتة في العلم والعدم. وعليه فالحق - تعالى - ظهر في الصورة المسماة بالكعبة بصورة

المعبودية، وهو المعبود. وإن وقعت العبادة للكعبة في الحس، كما أنه ظهر في الصورة المسماة بمحمد بصفة العابدية، وهو العابد، وإن ظهرت العبادة من الصورة المحمدية، في الحس والعقل. فسمى نفسه عابداً في مظهره؛ لظهوره فيه بصفة العابد. وسمى نفسه في مظهر معبوداً؛ لظهوره فيه بصفة المعبود، إذ المسمى مخلوقاً؛ ليس هو إلا أسماؤه - تعالى - ظهرت بذلك الشكل، وتلك الصورة. والأسماء أمور عديمة، فظهورها في التحقيق، ظهور ذاته السارية في كل مخلوق من غير سريان. ولكن الذات باطنة هنا، لظهور التعدد في الأسماء. ومقتضى الوحدة بظهور الأسماء، فهي باطنة حال ظهورها. وقد نقل عن الشيخ الأكبر أنه قال: مظهرية الكعبة؛ أفضل من مظهرية محمد - ﷺ -، فإن صح النقل عنه؛ فوجهه ما ذكرناه: من مظهرية العابدية والمعبودية لا غير. ولا يلزم منه فضل الكعبة، ولا هو مذهب الشيخ ولا غيره من العارفين.

\* \* \*

### الموقف الخامس والثلاثون

قال تعالى: ﴿قَاعَلَمَ أَنهٗ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ﴾ [محمد: الآية ١٩].

فالحق - تعالى - إنما أمر عباده بمعرفة مرتبة ذاته، وهي الألوهية. وما أمرهم بمعرفة ذاته التي هي الغيب المطلق والوجود البحت. بل نهاهم عن طلب ذلك. قال تعالى: ﴿وَيَحذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَكُمُ﴾ [آل عمران: الآية ٢٨].

وقال - ﷺ -: «تَفَكَّرُوا فِي آلاءِ اللهِ وَلَا تَتَفَكَّرُوا فِي ذَاتِهِ»<sup>(١)</sup>.

فما أمر الله تعالى رسوله - ﷺ - إلا بمعرفة الألوهية التي هي مرتبة الذات وظهور الصفات؛ لأن الأثر ليس إلا للصفات، وإن كانت لا عين لها، وإنما هي مراتب للذات. ومعرفة الأثر؛ توصل إلى معرفة المؤثر، كما قيل: البعرة تدل على البعير. فالذات - من حيث هو - لا يدرك حساً ولا عقلاً ولا كشفاً، بخلافها من مرتبة الألوهية، فإنها تدرك حساً وعقلاً وكشفاً، والمتكلمون في التوحيد العقلي؛ خلطوا الأمر، وحيروا الفكر، وخبطوا خبط عشواء في ليلة ظلماء. فكلامهم إن كان

(١) ابن كثير (التفسير ٤٤١/٧ طبعة الشعب)، والسيوطي (الدر المنثور ١١٠/٢ طبعة دار الفكر)، والألباني (السلسلة الصحيحة، طبعة المكتب الإسلامي)، والعجلوني (كشف الخفاء، حديث رقم ١٠٠٣، طبعة دار الكتب العلمية).

في الذات البحث؛ فالذات لا كلام فيها بنفي ولا إثبات. وإن كان في مرتبة الذات، وهي الألوهية؛ فهي لا حصر عليها ولا حصر، ولا تقييد لها. فالذات البحث؛ لا خبر عنها ولا وصف ولا اسم ولا حكم ولا رسم. المخبر عنها صامت والناظر إليها باهت، فإن المطلق بالإطلاق الحقيقي؛ لا يصحُ الحكم عليه بشيء، وإلا انقلبت حقيقته وصار مقيداً، وقلب الحقائق محال. ومرتبة الألوهية مطلقة مقيدة، فهي جامعة للضدين، مطلقة من حيث أنها لا حصر ولا حدٌ لظهوراتها. فلا ينفي عنها للتعبين والظهور بشيء من الصور الحسية أو العقلية أو الخيالية، ولا التحول في الصور، ولا النزول والمجيء والهرولة والجوع والعطش والمرض ولا الجمع بين الضدين كالأولية والآخريّة، والظاهرية والباطنية، وكونه في الأرض السابعة، ومستو على العرش، وموجود في كلِّ مكان ومع كل مخلوق وقائم على كل نفس... ونحو هذا ممّا ورد في الكتاب والسنة. وأما كونها مقيدة؛ فمن كونها هي الظاهرة بكلِّ مظهر، المتعينة بكلِّ تعين. وما ظهر شيء من الأشياء ولا تعين إلا منها. وهي في حال تعينها وتقييدها بالمظاهر مطلقة. فتقييدها عين إطلاقها. ولولا إطلاقها ما ظهرت بالمظاهر التي لا نهاية لها، مع وحدتها وعدم تجزئتها. فمرتبة الإطلاق لا يحكم عليها بشيء. ومرتبة التقييد والظهور لا ينفي عنها شيء، جاء في الكتب أو على السنة الرسل - عليهم السلام - أو أدنوا فيه أو في مثله. وكلُّ من حصر الحق في معتقد ونفاه عمّا عداه؛ فهو جاهل بالله، كائنًا من كان، وبالأخصّ إذا ظنَّ التقييد إطلاقاً كالمتكلمين، فلا ضد للحق - تعالى - فينافيه ويناويه، ولا مثل له فيشبهه ويدانيه، من حيث الذات. فمن في قول المتكلمين الحق - تعالى - لا يكون كذا، وليس هو كذا. فلا يدري كلامهم أهو في مرتبة الذات البحث الغيب المطلق، الذي لا يعلم منه إلا نسيه واعتباراته. أو كلامهم في مرتبة الذات المطلق، وهي الألوهية، التي جاءت الكتب المنزلة، والرسل المرسلّة، في أوصافها بالمتضادات، وبحيطنها بأنواع المنافاة بتعينها بكل التعينات، وتشبيهاها بأنواع التشبيهات. فإذا ردّنا ما وصف الحق به نفسه على ما يليق بكبريائه، وما قبلناه وأجربناه على ما يوافق عقولنا، وأولناه وخصنا بأفكارنا فيما وصفته به رسله الذين هم أعرف الخلق به - تعالى - كذا جاهلين، بل كذا غير مؤمنين بكلام الله وكلام رسله. بل مؤمنين بما حسنته عقولنا وأدت إليه أفكارنا نعوذ بالله أن نكون من الذين ضلّ سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا.



## الموقف السادس والثلاثون

قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [النساء: ٦٤].

الآية ٦٤].

هذا إخبار منه - تعالى - أنه ما أرسل رسولاً من رسله: إلا ليطاع أي إلا ليطيعه كل من أرسل إليهم المصدق والمكذب، والمهتدي به والضال، وذلك إما طاعة الأمر الظاهر، وإما طاعة المشيئة الباطنة. وإذا أرسل الحق - تعالى - رسله ليطاعوا فلا يكون غير الطاعة أبداً. بل لا يتصور خلاف الطاعة. وكل رسول لا بد أن يهتدي به بعض من أرسل إليهم، ويضل به بعض، فإنه أرسل لبيان الطاعتين معاً قال - تعالى - في حق القرآن العظيم: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا﴾ [البقرة: الآية ٢٦].

وما أطيع رسول الطاعة الظاهرة بحيث اهتدى به كل من أرسل إليهم ولا عصى بحيث ما اهتدى به أحد. ولا بد لكل رسول من هذين الأمرين، ولمن أرسل إليهم من الطاعة بهذين الحكمين، وظهور الضلالة والهداية فيهم. فالمهتدي أطاع الأمر الظاهر، والضال أطاع الأمر الباطن. وكلا الأمرين أرسل الرسول بهما، لأن رسالته لتبيين الرشد من الغي، فحيث كان ضلال الضال مستوراً وتبين بسبب الرسول، كان ظهور ضلاله طاعة للرسول من هذا الوجه، لأنه لا بد من ظهور الهدى والضلالة بالرسول فكان الرسول أرسل بذلك. فظهور الضلالة طاعة له، وقوله: «بإذن الله» أي بعلمه، يعني أن الواقع من طاعة كل رسول بهذين الأمرين، وظهور أثر هذين الاسمين، الهادي، والمضل؛ واقع بعلمه وإرادته - تعالى - وجلّ ربنا أن يقع في ملكه ما لا يعلمه ولا يريد، أو معنى «بإذن الله» بإعلامه، أي لا بد من طاعة كل رسول بإظهار الهدى والضلالة. وهذا بإعلام الله وإخباره. وخبره على وفق علمه. والخبر على وفق العلم؛ لا يكون إلا صدقاً. وأما كون اللام في «ليطاع» لام العلة أو لام العاقبة والصيرورة وكون الطاعة طاعة الأمر الظاهر فقط؛ فسمّاً ياباه التحقيق.

\*\*\*

## الموقف السابع والثلاثون

قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: الآية ٤٤].

وإنه أي القرآن؛ لذكرك لك تذكر ربك بتلاوته، وتتعبّد بترديده، ولقومك، أمّتك، مجازاً. ولا شك أن تلاوة القرآن ذكر لله بل هو أجل الأذكار عند العارفين



بالله - تعالى - فقط، في كل الأوقات خلافاً لمن قال: إنه أفضل الأذكار؛ إلا في الأمكنة والأزمنة التي ورد الأمر فيها بأذكار مخصوصة. وخلافاً لمن قال: إنه أفضل الأذكار؛ إلا فيما بين صلاة الصبح وطلوع الشمس، وفيما بين صلاة العصر والمغرب.

الثانية: وإنه لذكر لك ولقومك، بمعنى مذكر، يذكرك وقومك (أمتك مجازاً) العهد القديم الذي أخذه الله على الأرواح يوم «ألست بربكم»؟! فإن القرآن وسائر الكتب المنزلة، إنما نزلت لتذكر العباد بذلك العهد القديم، الذي أخذ عليهم، بالإقرار بالربوبية والتوحيد.

الثالث: وإنه لذكر لك ولقومك، بمعنى تذكر أنت بالقرآن ويذكر به قومك أي العرب، على ظاهر اللفظ، ما دام يتلى فيذكر به الرسول، لأنه معجزته الدائمة الناطقة بتصديقه، وتذكر به العرب لأنه نزل بلسانها ولغتها.

الرابع: وإنه لذكر لك بمعنى مذكر، ولقومك (أمتك مجازاً) أي وعظ وواعظ. ولا يخفى أن القرآن الكريم أعظم واعظ وأفضل وعظ لما اشتمل عليه من الوعيد والزجر والتخويف والتحذير، بل ما تعلم واعظاً وعظماً؛ إلا منه، ولا تكلم مذكر إلا بلسانه.

الخامس: وإنه لذكر لك ولقومك العرب خاصة، بمعنى شرف لك ولقومك. أما شرفه - ﷺ - بالقرآن فلكونه معجزته لإعجاز الخلق عن أن يأتوا بأقصر سورة من مثله، ولما فيه من الإخبار بالمغيبات والإنباء عن الأمم البائدة، والقرون الخالية. وأما شرف العرب بالقرآن وهم قومه - ﷺ - فلكونه نزل بلسانهم الذي به يتكلمون، ولغتهم التي بها يتحاورون، وألزم الخلق جميعهم من أنس وجان أن يتلوه بهذا اللسان، في كل زمان ومكان.

\* \* \*

## الموقف الثامن والثلاثون

قال تعالى في الحديث الرباني: «أنا عند ظن عبدي بي»<sup>(١)</sup> إلى آخر الحديث.

(١) رواه البخاري: كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُكُمْ اللَّهُ تَنَسُّمًا﴾ [قال عمران: الآية ٢٨] حديث رقم (٧٤١٥). ورواه مسلم: كتاب التوبة، باب في الحض على التوبة والفرح بها حديث رقم (٢٦٧٥).

هذا الحديث تلقينه تلقياً روحانياً غيبياً بزيادة لفظة «المؤمن» بعد لفظة «عبيدي» والرواية المعروفة في الصحيح إسقاط لفظة «المؤمن» وما أدري هل وردت رواية به أم لا؟ والمراد بالظن هنا؛ الاعتقاد الجازم، كما في قوله:

﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: الآية ٤٦].

لأن الظن القوي كالعلم. والمعنى: أنه - تعالى - عند اعتقاد كل معتقد، بل هو عين الاعتقاد فجميع عقائد الخلق، على اختلافها، الحقُّ عندها أي عينها. فهو على ما اعتقدوا فيه، سواء كانت حقاً في ظاهر الشرائع، أو باطلة، غير أن مَنْ وافقت عقيدته ظاهر الشرع؛ فعقده صحيح ظاهراً وباطناً. ومَنْ خالف عقده ظاهر الشرع فالحق عند عقده باطناً لا ظاهراً، وهو مبطل آثم. وإنما كان الحق - تعالى - عند ظنِّ كلِّ معتقد لأنه ليس هناك غير له، فهو المعتقد والمعتقد فيه والعقد.

وجه آخر في المعنى: مَنْ ظنَّ واعتقد جازماً أن كلِّ محسوس ومعقول ومتخيل هو الحق الظاهر في هذه المحسوسات والمعقولات والمتخيلات؛ فالحق عند ظنِّه، أي هو كذلك - تعالى - فهو عين الأشياء بحقيقته المتعينة، والأشياء كلها أعدام باطلة، وخيالات عاطلة. وإن جزم وظن أن الحق - تعالى - مغاير لكل محسوس ومعقول ومتوهم ومتخيل؛ فالحق عند ظنه، أي هو كذلك بحقيقته المطلقة. وإن ظن جازماً أن الحق - تعالى - محسوس، غير محسوس، معقول غير معقول، متخيل غير متخيل؛ فهو كذلك جامع للتنافي والتضاد، بل هو عين التنافي والتضاد، قابل لصفات الوجوب والإمكان، ولثما يتجلى الحق - تعالى - لأهل المحشر، بعد ما ينكرونه، ويتعوذون منه، كما في الخبر؛ يتجلى بصورة كل معتقد اعتقده الخلاق فيه، من أول معتقد إلى آخر معتقد من هذه الأمة المحمدية حتى يقرر الخلاق كلُّهم بأنه ربهم ويعرفونه، لأن العلامة التي يقولون إن بينهم وبين ربهم علامة ليست إلا الاعتقادات التي يعتقد كلُّ معتقد أن ربَّه كذا وليس كذا. فيتجلى الحق في ذلك الزمان الفرد بما يعتقد فيه كلُّ واحد من الجن والإنس. ولو بقي واحد ما تجلى له بمعتقده ما عرفه. ولا أقرُّ له بأنه ربُّه. وذلك لا يكون، والله واسع عليم، وقوله: فليظن بي ما شاء؛ ليس الأمر على ظاهره أمراً، ولا هو للتخيير والإباحة، وإنما المراد أنه الحق - تعالى - قابل لكلِّ معتقد. ولولا تجليه - تعالى - لذلك المعتقد في صورة ما اعتقده؛ ما كان ذلك الاعتقاد، لأن من العقائد والظنون ما نهى الشارع عنها، وإن كان الأمر باطناً - كما قلنا - لحكمة هو يعلمها. والله لا يأمر بالفحشاء، وليست الفحشاء إلا ما نهى الشارع

عنها. إذ لا حاكم إلا هو عندنا. ولذا قال آخر الحديث: «إن خيرًا فخير. وإن شرًا فشر» فالخير ظن الإطلاق، والتنزيه في التشبيه، والتشبيه في التنزيه، كما نزلت به الكتب، وأخبرت به الرسل - عليهم السلام - والشرُّ ظن التنزيه فقط أو التشبيه فقط. فكلتا الفريقين أعور، والكامل يبصر بعينين، مشاهد للحقيقتين، عارف بالحضرتين، حضرة الإطلاق والتنزيه، وحضرة التقييد والتشبيه، فهو ينظر الإطلاق في التقييد، والتقييد في الإطلاق، والتنزيه في التشبيه، والتشبيه في التنزيه، في آن واحد، لا يحجبه هذا عن هذا، ولا هذا عن هذا.

\*\*\*

### الموقف التاسع والثلاثون

قال تعالى: ﴿بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [ق: الآية ١٥].

وورد في الصحيح: أنه - ﷺ - رأى جبريل مرتين على صورته<sup>(١)</sup>. فرآه قد سد الأفق لعظم صورته. وورد في أخبار كثيرة: أن جبريل كان يدخل عليه - ﷺ - في حجرة عائشة - رضي الله عنها - ويجلس معه فيها، وفي بعض الأخبار: أن جبرائيل وإسرافيل؛ جلسا معه - ﷺ - في الحجرة.

ومن المعلوم أن الحجرة كانت صغيرة جدًا، وقد تكلم علماء الرسم في كون جبريل تارة يسد الأفق، وتارة تسعه الحجرة مع إسرافيل، وهو مثله في العظم، وجاؤوا في ذلك بما لا يجدي، ولا يزيد الواقف عليه إلا حيرة. بل كلام ما له مستند، ولا عليه معتمد، وتكلفوا وتعسفوا، وما علموا أن العالم كله العرش. وما حواه من الصور، سواء كانت الصور حسيّة أو عقلية أو خيالية؛ فهي أعراض والمقوم لها والقائمة به هو الوجود الإضافي المسمّى بنفس الرحمن، وبالأسامي الكثيرة. فهو كالجوهر لها. وكما أن العرض المعروف عند المتكلمين لا يبقى زمانين عند الأشاعرة، يتجدد في كل آن، يذهب ويخلفه مثله أو ضده؛ فكذلك هذه الصورة المحسوسة، التي هي أعراض عند أهل الله - تعالى - العارفين به وبحقائق الأشياء، وهي جواهر عند الجاهلين بالله - تعالى - وبحقائق الأشياء، لا تبقى زمانين، ففي كل آن يخلع النفس الرحماني الذي هو مقوم للمصور صورة ويلبس أخرى، إمّا مثل الأولى

(١) رواه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب «فكان قاب قوسين أو أدنى». حديث رقم (٤٨٥٦) ورواه مسلم: كتاب الإيمان، باب معنى قول الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُفْرَقًا﴾ [النجم: الآية ١١٣] حديث رقم (٢٨٧ - ١٧٧).

أو مخالفة لها. هكذا على الدوام. وهذه الصورة المحسوسة هي عند التحقق نسب وإضافات واعتبارات، وهي أحكام الأعيان الثابتة في العلم والعدم، المعدومة أبداً وأزلاً، يظهر بها نفس الرحمن المسمى أيضاً بأمر الله الذي هو كلمح بالبصر، ولا بقاء لها ولا ثبات، لا سيّما الملائكة الكرام فإنها أرواح مجردة، ما لها صورة مخصوصة لازمة.

ولما كان استعداد جبريل يقتضي الظهور بهذه الصور العظيمة مرة والصغيرة أخرى، وذلك في نظر المدرك فقط، بإرادة جبريل؛ ظهر نفس الرحمن بهذا الاستعداد تارة هكذا وتارة هكذا، وهو جبريل حقيقة في كل صورة وكل ظهور. والصور التي يخلعها النفس الرحماني؛ تنعدم في الحس كما هي معدومة في نفس الأمر أن لبس خلافها أو ضدها، وأما أن لبس مثلها؛ فإنه لا يدرك انعدامها، إلا بكشف صائب، أو عقل ثاقب، فالصور لا بقاء لها زمانين على كل حال لأنها أعراض، فالصور التي هي جبريل، مع كثرتها وصغرها وكبرها واختلافها؛ هي أحكام عين جبريل الثابتة في العلم. والظاهر بها؛ هو نفس الرحمن، وأمر الله الظاهر بأحكام كل عين، سواء العين المسماة بجبريل وغيرها من سائر المخلوقات المقدرات، ومن استعداد جبريل وأحكام عينه تعدد صورته واختلافها. وهكذا جميع الملائكة والروحانيين من جنّ وولي مشروحن. وإني قد بينت الحق في هذه المسألة، وإن كانت لا تقبلها العقول، لأنها فوق طورها. فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر.

\*\*\*

## الموقف الأربعون

قال تعالى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ﴾ [يوسف: الآية ٢٦] الآية.

سأل بعض الأصحاب عن الأفضلية بين الملك وخواص البشر، وذكر اختلاف أهل الظاهر والباطن، وما ورد على كل دليل، بحيث ما سلم دليل من معارضة ونقض واحتمال. واستغرب اختلاف أهل الباطن؛ من حيث أنهم أهل شهود وكشف. فالشيخ الأكبر قال بفضل الملك. والشيخ الجليل فضل خواص البشر. فأجبت: بأنه لا غرابة في اختلاف العارفين في معلوم لا تعلق له بمعرفة الله وتوحيده. وانظر إلى قصة موسى والخضر - عليهما السلام - وهما ما هما، يقول موسى: ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا﴾ [الكهف: الآية ٧٤].

شيئاً أمراً. ويقول الحضر: ما فعلته عن أمري، فأراد ربك، وقول الخضر لموسى في هذه القصة نفسها: أنت على علم علمك الله؛ لا ينبغي لي أن أعلمه. وأنا على علم علم منية الله؛ لا ينبغي لك أن تعلمه. وقوله: ما نقص علمي وعلمك من علم الله؛ إلا كما نقص هذا العصفور بنقرته من البحر.

وفي صبيحة تلك الليلة؛ توجهت إلى الحق - تعالى - في كشف هذه المسألة، فأخذني الحق عن العالم وعن نفسي، وألقى إلي قوله: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَيْتِ إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَمَأْمَنَ وَأَسْتَكْبِرْتُمْ﴾ [الأحقاف: الآية ١٠].

فلما رجعت إلى الحس؛ فهمت من إشارة الآية الكريمة؛ أن الشاهد الذي شهد في هذه المسألة هو الشيخ الأكبر، على مثله في البشرية والجنسية، يعني الكل من البشر. وشهادته عليهم للملائكة، بثبوت الأفضلية من جهة، واعتبار «فأمن» يعني الشيخ الأكبر، بما أشهده الحق من ثبوت الأفضلية للملك باعتبار.

ومن وجه «واستكبرتم» يعني استكبر من قال بأفضلية خواص البشر على الملك مطلقاً. وما أظن الشيخ الجيلي يقول بأفضلية خواص البشر على الملك مطلقاً. فإن للملك فضلاً بالتوسط بين الحق وخواص البشر بالوحي والإلهام. وإن كان للكامل من خواص البشر تلق من الوجه الخاص بلا واسطة ملك. والأكبر بواسطة الملك. وإن لخواص البشر الكاملين؛ فضلاً بالجمعية الكمالية والمظهيرية لجميع الأسماء الخلافية، وليس للملك هذه الجمعية.

ثم بعد، رأيت الشيخ الأكبر ذكر في الباب الثامن والخمسين وثلاثمائة مثل هذا، وقال في كتابه «ما لا يعول عليه» ما نصه: الكشف الذي يؤدي إلى فضل الإنسان على الملائكة، أو فضل الملائكة على الإنسان مطلقاً من الجهتين؛ لا يعول عليه. فكلامه هذا، وما ذكره في الباب المتقدم ذكره، نص في أن قوله: «بفضل الملك على خواص البشر» إنما هو بوجه واعتبار، لا مطلقاً، والحمد لله على الموافقة.

\* \* \*

## الموقف الواحد والأربعون

قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾

[التحل: الآية ٩٨].

الحكمة في الأمر بالاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم، عند إرادة قراءة القرآن، وعدم الأمر بذلك عند إرادة الصلاة أو الصوم أو الذكر، أو غير ذلك من سائر العبادات؛ هو أن القصد الأول بالقرآن، بيان الأحكام بين حلال وحرام ووجوب وحظر، وذكر قصص الأنبياء وأخبار الأمم البائدة والقرون الماضية مع ذكر الجنة والنار وما أعد لأهلها، من الكرامة والإهانة، والوعد والوعيد. فكأن قارنه لا يقصد منه غالباً، إلا معرفة ما ذكر. فأمر لذلك بالتحصين من الشيطان، لئلا يضلَّه عن طريق الرشاد، ويزيغه عن القصد، فيما يقصد معرفته، على مراد الله - تعالى - . فإن القرآن العزيز - كما قال فيه تعالى - يضلُّ به كثيراً ويهدي به كثيراً، ولهذا ترى جميع الفرق الإسلامية الثلاث والسبعين؛ تأخذ أدلتها والحجج لمذاهبها مع تباينها من القرآن العظيم. وما ذلك؛ إلا لإعجازه وخروجه عن طوق البشر، بخلاف سائر العبادات. فليس المقصود منها عند التلبس بها إذا كانت جارية على مراد الله منَّا في أدائها إلا مجالسة الحق - تعالى - والخلوة به، مع صرف النظر عن كل مخلوق، ولنسيان كل سوى والاشتغال بمشاهدة من ليس كمثله شيء، والغيبة عن الجنة والنار، والملك والملوك. ومن كانت عبادته على هذا الوجه؛ فما للشيطان عليه من سبيل فهي حصنه من الشيطان. فتبين من هذا أن المقصود الأغلب من قراءة القرآن؛ أحكام الله - تعالى - ومخلوقاته. والمقصود من سائر العبادات؛ الله عينه، ولهذا ترى العارفين بالله وبطريق السلوك إليه؛ يسلكون مريدتهم بالأذكار وسائر نوافل الخيرات. ولا يأمرونهم بالتلاوة إلا قدر الحاجة. لأن تلاوة القرآن للمبتدي الجاهل بالله - تعالى - لا تجديه غالباً في رفع حجبه، والترقي إلى المراتب العلية. والعارف الكامل يتلوه على طريق، لا يهتدي إليها غيره، فيستخرج منه الأسرار والعلوم والمعارف والفوائد التي تحار العقول فيها.

\* \* \*

## الموقف الثاني والأربعون

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لَّا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾﴾ (ص: الأيتان ٣٤، ٣٥).

كان سليمان - عليه السلام - قال: لأطوفن الليلة على مائة امرأة، تحمّل كل واحدة منهن بفارس، يجاهد في سبيل الله. فقال له صاحبه: قل إن شاء الله. فلم يقل



إن شاء الله، فلم تحمل منهن إلا واحدة، جاءت بشقِّ إنسان!! الحديث أخرجه البخاري في صحيحه. والمراد بصاحبه؛ الملك. وتركه - عليه السلام - قول إن شاء الله كان نسياناً. وبعد ما صدر منه هذا، وكان ما كان كشف الله عن عينه الثابتة؛ فرأى أنه سيحصل له ملك، زيادة على ما كان له من الملك. وأنه لا يحصل لأحد من بعده مثله، بشرط سؤاله لذلك. فأجاب ورجع عن مراده واستغفر من تمنى ما لا علم له بحصوله، وإن كان تمنى خير. ودعا ربّه أن يهب له ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده، لا حسداً لغيره، ولا رغبة في الملك، ولا تحجيراً على الله - تعالى - ولكن المقام أو الكشف اقتضى هذا السؤال، فإن الحق - تعالى - يعلم الأشياء على ما هي عليه، حيث كان العلم تابعاً للمعلوم. فما كان من الممكنات يحصل بشرط أو سبب أو شروط أو أسباب؛ يعلمه - تعالى - بشرطه أو سببه. وما كان يحصل لا عن شرط ولا سبب؛ يعلمه كذلك. فاستغفاره - عليه الصلاة والسلام - ما كان عن ذنب، وإنما كان من تمنّيه ورغبته فيما لا علم له بحصوله، وتركه إن شاء الله لا غير. وهذا لا يوجب استغفاراً في حق غير الأنبياء، ولكن مقام النبوة الأسمى؛ اقتضى الاستغفار من مثل هذا. فحسنت الأبرار سيئات المقربين. وسمى الحق - تعالى - ولادة شقِّ الإنسان لسليمان - عليه السلام - فتنة له، حيث كان الأمر ضدّ رغبته وخلاف أمنيته. فإنه تمنى مائة فارس يجاهد في سبيل الله. فكان الجسد الذي ألقاه الله على كرسي سليمان؛ هو شقِّ الإنسان الذي ولد له، وعبر - تعالى - عن ولادة الشقِّ بإلقائه على الكرسي، حيث كان ذلك بسبب سليمان - عليه السلام - وقرن الحق - تعالى - قصة فتنة سليمان مع قصة سؤاله ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده، حيث كانت القصة الثانية كالتسلية له - عليه السلام - ولا يخفى عن أرباب البلاغة، العارفين برشاقة الكلام، ورقة المعاني ما في هذه الألفاظ من المناسبة.

\* \* \*

### الموقف الثالث والأربعون

قال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُورُونَ﴾ ﴿١٥﴾ [المطففين: الآية ١٥].

كلُّ من يسمع ذكر الحجاب من غير العارفين؛ يتوهم أن هناك حجاً ومحبوباً، ومحبوباً عنه، كما هو المتبادر من جوهر اللفظ وهذا وهم باطل، لأنه ليس ثمة إلا الحق - تعالى - والخلق، أعني مرتبة الوجوب والإمكان، ولا واسطة بينهما. فالخلق حجاب عن نفسه باعتبار، ومحجوب باعتبار. فهو محجوب من حيث



أنه حين حصول المعرفة بالله والعلم به؛ يكون الخلق هو العارف العالم لا غيره. ومن حيث أنه لا واسطة بين الحق والخلق. وقد كانت المعرفة معدومة، والعلم منتفياً ثم حصلت المعرفة والعلم فهو الحجاب. وهذا من أعجب ما يسمع وأغرب ما يعلم. بل عند التحقق مسمى الحجاب لا عين له موجودة، لا حقيقة ولا مجازاً، إذ لا حجاب إلا الجهل، والجهل عدم العلم، لأن تقابله مع العلم؛ تقابل عدم والملكمة. وإذا رحم الله عبداً بمعرفته لا يجد حجاباً، ولا يعرف كيف كان هذا المانع من المعرفة بالله، ولا كيف زال، ولا كيف حصلت المعرفة. لأنه يجد نفسه ما ارتحل عن مكانه، ولا دخل عليه شيء من خارج، بل هو هو!! فمن أين جاءت هذه المعرفة، وحصل هذا العلم، وكان هذا الاتساع الباطني؟! فسبحان القاهر الحكيم الذي يحجب بلا حجاب، ويعلم بلا معلم، ويستتر بلا ستر، ويظهر بلا ظهور.

وأما ما ورد في الخبر: «إن الله سبعين حجاباً من نور». رواه أبو الشيخ، وزاد

الطبراني:

«وظلمة لو كشفها؛ لأحرقت سبحات وجهه، ما أدركه بصره من خلقه».

فالمراد بالحجب هنا؛ المظاهر العظيمة، والتعينات الفخمية التي هي حجب على نفسها وعلى غيرها، وليس المراد خصوص هذا العدد، وإنما المراد التكثير فالحجب النورانية هي الحقائق الغيبية. والحجب الظلمانية هي الحقائق الكونية. وكلها متفقة في الحجابية، بمعنى أنها سترت المحجوب، لا أنها سترت الحق - تعالى - عن ذلك. وقوله: «لو كشفها؛ لأحرقت سبحات وجهه، ما أدركه بصره».

كل من رأيناه تكلم على هذا الحديث من العارفين رأيناه جعل ضمير «بصره» عائداً على الحق - تعالى - والذي ألقاه الحق عليّ: أنه عائد على ما وقعت عليه ما، وهي واقعة على المخلوق، إذ الحق - تعالى - ليس بمحجوب، وبصره يدركنا بلا ريب. وإنما نحن المحجوبون، وأبصارنا لا تدركه. فإذا أراد - تعالى - رفع الحجاب وكشفه عن أحد من مخلوقاته، وليس إلا الجهل، وواجهته السبحات الوجيهة؛ أحرقت خلقته، فزالت حجابيته، وثبتت حقيقته. وفي الحجاب رحمة لبعض الخلق، وفي كشفه رحمة لبعضهم. كما قال بعض التراجمة:

فلو أنني ظهرت بلا حجاب      لتيَّمت الخلائق أجمعين  
ولكن في الحجاب لطيف معنى      به تحيي قلوب العاشقين

فالممتنع هو كشفه عن الجميع فلا تحرقه السبحات الوجهية لا عن البعض وعندما تحترق الخلقية، وتبقى الحقيّة؛ يبصر الحق نفسه بنفسه، إذ الخلق محترق منتف. وجعل - ﷺ - نسبة الأبصار إلينا، وهو المبصر والمبصر حقيقة، فأحترقت سبحات وجهه؛ المخلوق الذي يريه - تعالى - نسبة الأبصار إليه ففني فاحترقت خلقته وانمحقت، فرآه. وما رأى الحق إلا الحق تعالى.

\* \* \*

## الموقف الرابع والأربعون

روى مسلم في صحيحه أنه - ﷺ - مَرَّ بَقَوْمٍ يُؤْبِرُونَ النَّخْلَ فَقَالَ لَهُمْ: «لَوْ لَمْ تَفْعَلُوا لَصَلَحَتْ»<sup>(١)</sup> الحديث.

فليس المراد من هذا: أنه - عليه السلام - يريد منهم ترك الأسباب العادية التي أجرى الحق - تعالى - عادته بها في مخلوقاته، إذ الرسل - عليهم السلام - والعارفون إنما يأمرون برفع حكم الأسباب لا برفع عينها. بل يأمرون بإثبات عينها من حيث أن الأسباب وضعها وأثبتها الحكيم العليم، بما يجريه ويثبت - سبحانه - فمن طلب رفع العوائد الجارية والأسباب العادية؛ فقد أساء الأدب وجهل. وكيف يدعي المعرفة لله والوصلة به والصحة له مَنْ يطلب رفع العوائد ومعروفه وصاحبه الحق - تعالى - هو الذي وضعها؟! ومن شرط الصحة؛ الموافقة. فمن طلب رفع ذلك؛ فهو منازع وليس بمواصل ولا صاحب. بل هو إلى العناد أقرب. فالذي يثبت العادات والأسباب على وجه لا يناقض التوحيد؛ هو العارف بالله، لأنه يشهد الحق - تعالى - فيها. إذ كل شيء من الأشياء هو تجل من تجلياته - تعالى - وإنما المراد أنه - عليه السلام - أراد أن ينبههم على باطن الحقيقة، ونفس الأمر. وهو أن هذه الأسباب العادية والصورة المشهودة؛ لا تأثير لها في شيء مما جرت به العادة أنه يوجد عندها. وإنما الحق - تعالى - هو الفاعل لذلك، فهو المؤثر بوجهه الخاص الذي له - تعالى - في كل مخلوق. لأنه - تعالى - له في كل مخلوق حتى الذرة وجه خاص لا يشاركه غيره فيه، به يكون التأثير. وإنما ستر - تعالى - فعله بصور مخلوقاته رحمة بخلقه، وتقديسًا لجنابه، فمراده - عليه السلام - بقوله: لو لم تفعلوا لصلحت. أن يكونوا مشاهدين للحق، الفاعل الحقيقي، عند ملابسة الأسباب، معتمدين عليه لا على الأسباب. لا

(١) كتاب الفضائل، باب وجوب امتثال ما قاله شرعًا، حديث رقم (٢٣٦٣).

أن مراده - عليه السلام - منهم ترك الأسباب. إذ لا بدُّ من الأسباب وجودًا، والغيبة عنها شهودًا. وقوله - عليه السلام - لما طلعت النخل شيصًا: «أنتم أعرف بدنياكم».

كلام خرج منه مخرج الإعراض عنهم، حيث ما فهموا مراده بقوله: «لو لم تفعلوا لصلحت».

وحملوه على ترك التأبير، وليس هو المراد. وإنما المراد: أنه - تعالى - يفعل الأشياء عند الأسباب وعند عدم الأسباب وهو التوحيد الحقيقي، ولا يفهم من قوله: «أنتم أعرف بدنياكم».

أنه - عليه السلام - جاهل بأمور الدنيا والدين وما أرسلهم - تعالى - إلا ليعلموا الناس مصالح معاشهم ومعادهم ويرشدوهم إلى ما جهلوه من ذلك. فأظهر لهم - عليه السلام - التقرير على عاداتهم، حيث فاتهم فهم مراده، وما فهموا إلا ترك السبب جملة واحدة. وليس هو المراد. وقد تكلم إمام العارفين محيي الدين، وصاحب الإبريز<sup>(١)</sup>، على هذا الحديث بغير ما ألقاه - تعالى - إليّ. والكلُّ صواب، إن شاء الله. فإن الكل من عند الله.

\*\*\*

### الموقف الخامس والأربعون

قال تعالى: ﴿هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ بَرَزُوكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [فاطر:

الآية ٣].

المعنى: لا خالق إلا الله. لأن الاستفهام الإنكاري نفي. فلا أحد - غير الله - يقدر على إيجاد شيء من الأرزاق الحسيّة والمعنوية إلا الله - تعالى - وإن كانت الأسباب حاضرة متهيئة. فالسماء والأرض سببان ومحلان لوجود الأرزاق. وهما موجودان حاضران، ولا يقدر إلا الله على إخراج الأرزاق منها. وكذا سائر الأسباب والمسببات عنها. وإذا كان لا يقدر أحد - غير الله تعالى - على إيجاد المسببات مع حضور أسبابها وتهيئتها؛ فهو عن خلق السبب أعجز. والرزق الذي يخرج الله من الأرض هو رزق الأشباح، وهو ما به قوام الأجسام. والرزق الذي ينزله الله من السماء هو رزق الأرواح والعقول، وهو ما به قوامها في العلوم والأسرار. وفي قوله: ﴿بَرَزُوكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [يونس: الآية ٣١].

(١) كتاب (الإبريز من كلام سيدي عبد العزيز الدباغ) تأليف أحمد بن مبارك السجلماسي اللمطي

إشارة إلى اعتبار الوسائط والأسباب، مع نفي التأثير عنها. فإنه قال: منها. وقد قال: بها. فهو - تعالى - يوجد المسببات عند أسبابها حكمة واختياراً، لا عجزاً واضطراراً، إلا إذا اعتبر السبب فيكون التأثير - حينئذٍ - عند السبب، وبه. كما هو مذهب المحققين من أهل الله، بمعنى أنه كالألة للتجار مثلاً. والفاعل هو الصانع لا الآلة.

\* \* \*

## الموقف السادس والأربعون

قال تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ ﴿١٦﴾ [الرَّحْمَنِ: الآية ٢٦].

الجار والمجرور متعلق بمحذوف، أي استقر عليها أي الأرض. ولا تدخل العلويات، لأنها ليست بمستقرة على الأرض، والمستقر على الأرض المحكوم عليه بالفناء؛ هو الصور الأرضية، التي تدبرها الأرواح العلوية. والفناء هنا؛ ضد الوجود، وإن كان في غير هذا المحل ضد البقاء. والمراد: أنها فانية في الحالة الراهنة، وإن حصل الشعور بوجودها؛ فهو شعور مخالف لما في نفس الأمر. وهذا الشعور من غلطات الحس والعقل، ولهما غلطات كثيرة، بعضهم ينسبها إلى الحس، وبعضهم ينسبها إلى العقل، لأنه الحاكم. وهذا هو الحق. فهذا الشعور والحكم في جملتها، لأن قوله «فان» اسم فاعل، وهو حقيقة في الحال اتفاقاً. ولا يعدل عن الحقيقة إلا عند التعذر، أي تعذر الحمل عليها.

وجه الحق - تعالى - ذاته، باعتبار قِيُومِيته - تعالى - على كل موجود. أي يبقى العلم بوجهه الذي هو وجوده وذاته - تعالى - حين يرتفع اللبس، وتظهر الحقيقة، ويتبين أن كل شيء قيل فيه «سوى وغير» فهو باطل معدوم في الحال والاستقبال، إذ لا وجود؛ إلا الوجود الحق في الحال والاستقبال. ولا يتوهم متوهم أن الآية تدل على أن ما على الأرض له وجود في الحال، وإنما يفنى في ثاني حال؛ فإنه وهم باطل. وإنما مثل هذا قول القائل من العارفين: حتى يفنى من لم يكن، ويبقى من لم يزل. يعني: يفنى الشعور والظن الذي كان يظن أنه علم بوجوده، لا أنه كان وجوداً وانعدم وفني. لأنه قال: «لم يكن» أي لم يوجد مع الشعور، والظن الباطل بأنه وجود، فهو عدم، في أن الشعور بوجوده. فإذا ارتفع الحجاب الذي هو الجهل لا غير؛ فلا يقع العيان، إلا على فقد الأعيان، يعني إذا حصلت المعاينة الحقيقية، الموافقة لما في نفس الأمر؛ فلا تقع إلا على فقد الأعيان، أي عدم ما كان يتوهم أنه

أعيان ثابتة مغايرة للوجود الحق - تعالى - فليس إلا الوجود الحق الظاهر بالمظاهر التي هي خيال ووهم:

إنما الكون خيال وهو حق في الحقيقة  
كل من قال بهذا حاز أسرار الطريقة

وقد وافقت السوفسطائية على كون كل محسوس من العالم خيالاً ليست له حقيقة. فلو قالوا كقول العارفين: العالم خيال، وباطنه حق ثابت. أي هو حق في صور خيالية؛ لأصابوا الحق. ويحتمل أن يكون الضمير في «عليها» عائداً على معهود ذهني، ومقرّر علمي، وهو حقيقة الإمكان أي كل من سلك على طريقة الإمكان، صحّ وثبت مروره على حقيقة الممكن؛ فهو فان هالك حالاً، لا وجود له. وحينئذٍ يشمل حكم العدم في الحال: كل ممكن من المظاهر العلوية، كالأرواح المجردة، والصور المثالية، والأجسام والمعاني... وكل ما يسمى «غيراً أو سوى» كان الله ولا شيء معه، وكان هنا تامة، أي الله وجود. ولا شيء معه بوجود. وهذا الوجه والاحتمال يشمل كل ممكن كما قلنا، بخلاف الأول، فإنه خاص بمن على الأرض، فيحتاج إلى دليل آخر على عدم كل ممكن في الحال الحاضرة. ومن المعلوم: أن الإمكان الذي هو حقيقة كل ممكن، لا عين له قائمة، وإنما هو أمر معقول. لأنه برزخ بين الوجود المطلق، والعدم المطلق، الذي هو المحال، والبرزخ لا يكون إلا معقولاً. فلو كان محسوساً؛ ما كان برزخاً. إذ حقيقة البرزخ؛ هو الأمر المعقول الحاجز بين الشئيين، لا يكون عين واحد منهما ولا خارجاً عنهما.

\*\*\*

### الموقف السابع والأربعون

قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: الآية

[٥٦].

الحكمة في تكليف العباد بالتكاليف الشاقّة، والزامهم بالأوامر والنواهي، والتحجير عليهم؛ هو أن العبد، وإن كان يسمى ممكناً لنسبة مجازية أورثته هذا الاسم؛ فله نسبة حقيقية إلى الربوبية. والحق - تعالى - أراد بظهوره في المسمى خلقاً وعبدًا؛ أن يرى جميع أسمائه فيهم. وأن يعرفوه ويعبدوه. فلو تركهم مطلقين؛ ما أمرهم ولا نهاهم ولا حجر عليهم، لما ظهرت فيهم جميع أسمائه، ولتعلقوا بما فيهم من الربوبية، ونسوا إمكانهم، وما جعل الحق - تعالى - لهم عينين ظاهرة وباطنة إلا

لينظروا بالعين الباطنة نسبتهم الباطنة، وبالعين الظاهرة نسبتهم الظاهرة، الإمكانية. فمهما غفلوا عن واحدة من النسبتين هلكوا. وحيث كانت النسبة الباطنة التي هي الربوبية غالبية وحاكمة؛ جاءت الأوامر الإلهية، والنواهي والتكاليف القهرية ملازمة لهم، ما داموا في هذه الدار التي هي دار الغفلة والنسيان والحجاب حتى يبقوا واقفين عند ما خلقوا لأجله ملتزمين لآداب العبودية. ولا يتعلقوا بما فيهم من الربوبية، حيث كان مراد الحق - تعالى - منهم؛ إظهار نسبة العبودية والغيرية في هذه الدار. فإذا انقلبوا إلى الدار التي مراد الحق - تعالى - منهم فيها إظهار نسبة الربوبية؛ أزال عنهم الحجر، وحط التكاليف، وجعلهم يقولون للشيء: كن؛ فيكون، وأحل عليهم رضوانه؛ فأمنوا سخطه، ولا لذة أحلى وأعظم من لذة الأمن، ولحكم أخرى، منها ما لا يجوز إيداعه بطون الأوراق.

\* \* \*

## الموقف الثامن والأربعون

ورد في خبر متواتر متداول بين القوم، وإن ضعفه الحفاظ من علماء الرسم: «مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ عَرَفَ رَبَّهُ»<sup>(١)</sup>.

يعني من عرف نفسه التي هي ربه المقيد؛ عرف ربه الذي هو نفسه المطلق. فإن حقيقة النفس هي الروح، وحقيقة الروح هو الحق - تعالى - واتحد هنا الشرط والجزاء والفرق بينهما التقييد والإطلاق، أعني اتحادهما معنى لا لفظاً. فإن كانت النفس لا تعرف بل هي مجهولة أبداً فكذلك الرب لا يعرف أبداً. إذ المعلق على الممنوع ممنوع. بل الرب - تعالى - أحق وأولى بعدم تعلق المعرفة به، فمعرفة الرب مشروطة، بتقدم معرفة النفس. والتقديم رتبى لا زمانى، إذ ليس في هذا المقام زمان، فلا مساء عند ربك ولا صباح، والقضية الشرطية لا تقضي وجود المقدم، بل ولا إمكانه، لئن أشركت ليحبطن عملك، وهو لا يشرك، بل لا يتصور منه الإشراك. ومَنْ يقل منهم إني إله من دونه؛ فذلك نجزيه جهنم. ولا يتصور من الملائكة دعوى الألوهية، وإن كانت النفس تعرف من وجه دون وجه وباعتبار، لا من وجه واعتبار. فكذلك الرب، يعرف من وجه واعتبار دون كل الوجوه والاعتبارات. ولذا ورد في الخبر، «أعرفكم بنفسي أعرفكم بربه»<sup>(١)</sup>.

(١) العجلوني (كشف الخفاء، حديث رقم ٢٥٣٠).



وورد أيضًا: «أنا أعلمكم بالله وأشدكم منه خشية»<sup>(١)</sup>.

فالناس متفاوتون في معرفة نفوسهم، كما هم متفاوتون في معرفة ربهم، بما لا يكاد ينحصر، ولا يدخل تحت ميزان.

\*\*\*

## الموقف التاسع والأربعون

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: الآية

[٣١].

محبة الله - تعالى - من حيث الذات الغنية عن العالمين، التي لا تطلب العالم ولا يطلبها؛ محال. لأن المحبة لا تكون إلا لمناسبة، ولا مناسبة بين الخلق والذات البحت، ولا ارتباط بوجه ولا حال. فعلم بهذا؛ أن العبد لا يحب الذات من حيث هي هي؛ لأن ما لا يسمى ولا يوصف ولا يعلم؛ لا يحب، والذات تشهد ولا تعلم. ومرتبة الصفات تعلم ولا تشهد، فمرتبة الصفات، وحضرة النسب والإضافات، هي المحبوبة لجميع المخلوقات. فما أحب محبًا إلا حضرة الجمال، ونوعت الإفضال، كالإنعام والإفضال، والرحمة والغفران، ونحو ذلك. وعند التحقيق؛ ما أحب محبًا إلا آثار صفات الجمال. بل ما أحب إلا نفسه. ومن هنا قال محققو العارفين؛ لا يكون أنس بالذات العلية أبدًا، لعدم المناسبة والمجانسة، وإنما يكون الأنس ببعض الأسماء الجمالية، وقد أشار - ﷺ - إلى أن الذات البحت الغيب المطلق؛ لا تتعلق بها محبة أحد، بقوله: «أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمه»<sup>(٢)</sup>.

رواه الترمذي والحاكم، فأرشد - عليه السلام - إلى أن محبة الله - تعالى - لا تكون إلا من هذا الوجه، وهو كونه منعمًا رحيماً ستارًا إلى نحو ذلك. وهي مرتبة الصفات.

وفي قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: الآية ٥٤].

وفي قوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ﴾ [آل عمران: الآية ٣١].

إشارة إلى أن متعلق محبة العبيد، إنما هي مرتبة الألوهية لا غير كما قلنا. وعليه فالحكاية المشهورة بين القوم، عن أبي سعيد الخراز - رضي الله عنه - أنه

(١) العجلوني (كشف الخفاء حديث رقم ٦٠٧).

(٢) رواه الترمذي: كتاب المناقب، باب مناقب أهل البيت حديث رقم (٣٧٨٩).



اجتمع برسول الله - ﷺ - فقال له: يا رسول الله، شغلتنى محبة الله عن محبتك، فقال له - ﷺ -: «يا مبارك، محبة الله هي محبتي» يا مبارك؛ معناه يا مغفل. يريد شغلتنى محبة المظهر الروحي العلوي، عن محبة المظهر الجسمي الأرضي. فأجابه - عليه السلام - بأن الظاهر في المظهرين؛ واحد لا تعدد فيه ولا تغاير. فالمحبيب في المظهرين واحد. ولا يضرك تغاير المظاهر وتعددتها حيث كان الظاهر المحبوب فيها واحد لا يتجزأ ولا يتبعض. إذ المظاهر كلها إعدام، والعدم لا يحبه عارف، ولا يشغل باله به عاقل. فمن أحب الظاهر في المظهر الروحي؛ فقد أحب الظاهر في المظهر الجسمي. وليس الظاهر في جميع المظاهر العلوية والسفلية؛ إلا الصورة الرحمانية، المسماة بالحقيقة المحمدية. وكل ما قيل فيه أرواح وأجساد ومثال وخبثان؛ ليس ذلك بشيء ثابت. وإنما هي تقادير وتصاوير، قدرها الحق لظهور صورته، ولا وجود لها، لا قديم ولا حديث. وإنما الوجود للحق - تعالى - وحده كما قيل:

مراتب بالوجود صارت      حقائق الغيب والعيان  
وليس غير الوجود فيها      بظواهر والجميع فان

كأنه - عليه السلام - قال لأبي سعيد الشيء الذي قلت إنه رسول الله، وإنك مشغول عن محبته؛ ليس هو بشيء مغاير لله - تعالى - الذي قلت: شغلتنك محبته. بل هو هو، فالرسول - عليه السلام - مرتبة ظهور الحق - تعالى - وهذه المرتبة؛ واسطة لجميع الظهورات، ومنها تفرعت، فهي ينبوعها وهيولها.

\*\*\*

### الموقف الخمسون

قال تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ [الأنفال: الآية ١٧].

اعلم أن نسبة الفعل الصادر في بادئ الرأي من المخلوق؛ جاءت متنوعة في الكتاب والسنة، فمرة جاءت نسبة الفعل إلى المخلوق، ومرة إلى الله - تعالى -، بالعبد، ومرة إلى العبد بالله - تعالى - فأما نسبه إلى الله؛ فمن جهة أنه الوجود الحق، والفاعل الحقيقي. وأما نسبه إلى المخلوق؛ فمن جهة أنه مصدر الفعل في الحسن. وأما نسبه إلى الله بالمخلوق؛ فمن جهة أنه آلة الفعل، كآلة النجار والحداد. والفاعل هو الصانع لا الآلة. وأما نسبه إلى المخلوق بالله؛ فمن جهة أن المخلوق مظهر، وتعين للحق. والحق غيب، والمخلوق شهادة. وفعل المخلوق - في الحقيقة - سواء

كان حيواناً أو إنساناً أو ملكاً أو غير ذلك، هو فعل الله - تعالى - وفعل المخلوق من حيثة واحدة، ولا حلول ولا اتحاد. إذ اسم المخلوق إنساناً أو غيره؛ شامل لظاهره وباطنه. وباطنه باعتبار هو الوجود الحق وظاهره باعتباره هو الصورة المحسوسة، التي هي أحكام الاستعدادات الثابتة وأحوالها، وهي معان ظهرت في صورة محسوسة، كما تتصور المعاني يوم القيامة وفي البرزخ، صوراً محسوسة تتكلم وتوزن، كما ورد في الأخبار الصحيحة. فمن كان شهوده مقصوراً على الحس؛ قال الفعل للعبد، ولا بدّ يعني الصورة الظاهرة المحدودة المقدرة، ومن كان شهوده مقصوراً، على أن الكمال والقدرة على الفعل؛ لا يكون إلا لله - تعالى - ، قال الفعل لله - تعالى - ولا بدّ يعني الأمر الغيبي، ولا مدخل للصورة المشكّلة المحسوسة إلا من جهة الكسب. وكلا الطائفتين يرى أن الحق - تعالى - مباين للعبد ومنفصل عنه، فيلزمه، ولا بدّ أن الحق في جهة من جهات العبد لا محيص له عن ذلك. ومن كان كاملاً عارفاً بالحقائق ذا عينين؛ قال الفعل للحق - تعالى - من حيث هو فعل العبد، وفعل العبد من حيث هو فعل الرب، إذ ليس في نفس الأمر؛ إلا الوجود الحق الظاهر بأحكام الأعيان الثابتة التي هي نسب الوجود واعتباراته تستر بها، وتسمى باسم العبد والمخلوق، ووصف بأوصافه في هذه المرتبة، وهذا الظهور. ومن عجيب أن الظهور تستر، والتستر ظهور. وفي هذا المجلي عميت العقول، فتباينت مداركها وأخطأت في كل ما تقول، من قدرتي وجبري وكسبي وجزء اختياري فلا طائل تحتها عند السير والتحقيق ودفع التشغيب والتفريق، وقد قال إمامنا وأستاذنا أبو حامد الغزالي، إن مسألة نسبة الفعل الصادر في العبد إلى الله - تعالى - أو إلى العبد؛ لا يرفع أشكالها شرع. يعني الأدلة الشرعية، ولا عقل ولا كشف، ونحن - والمئة لله - رفع عنا أشكالها بالكشف، مع أننا نعلم يقيناً أن كشف الشيخ أتم وأعلى بما لا نسبة بيننا وبينه. والله أعلم بمطمح نظر الشيخ.

\* \* \*

### الموقف الواحد والخمسون

قال تعالى: ﴿وَنُنشِئُكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الروافة: الآية ٦١] الآية.

إنه يوجد في كلام سادات القوم - رضوان الله عليهم - لفظة الانسلاخ. كما يوجد لفظة المعراج التحليلي ومعنى اللفظتين واحد. وإيضاحه: هو أن يعلم أن كل ما يطلق عليه اسم موجود في أي مرتبة من مراتب الوجود كان، ليس هو إلا الحق - تعالى - ظاهراً ومقيداً بحسب تلك المرتبة التي حصل الظهور فيها. فهو

الظاهر في ملبسه اللبسية المتعین بأسمائه القدسية، والظهورات والتعينات والتفيدات كلها؛ أمور اعتبارية عقلية لا وجود لها خارج العقل، كسائر الأمور المصدرية. ولما ظهرت حقيقته المطلقة، مقيدة في بادئ الرأي والوهم، وإلا فهي مطلقة حالة الحكم عليها بالتقييد. ولا يكون العارف كاملاً؛ حتى يشهد الإطلاق في التقييد، والتقييد في الإطلاق، في أن واحد، انحبب من حيث تقييده، عن نفسه من حيث إطلاقه، فاشتاق المطلق إلى الاتحاد بالمقيد، وإلى هذا يشير سلطان العاشقين بقوله:

فكلّي لكلّي طالب متوجّه      وبعضي لبعضي جاذب بالأعنة

فأرسل الرسل لذلك، وشرع الشرائع، وأمر باستعمال الأدوية والأسباب المعينة على رفع الحجب المسدولة على المقيد، بالوهم والخيال، حتى يتحد المطلق بالمقيد، الاتحاد النسبي المعروف عند أهله، وليست الأسباب الرافعة للحجب إلا الأدوية التي ركبها الرسل - عليهم السلام - من العبادات والأوامر والنواهي والرياضات والمجاهدات.

ثم ليعلم ثانياً أن صورة كل شيء، كائنًا ما كان، حقًا أو خلفًا؛ هي ما به ظهور ذلك الشيء وتعيينه من غيبه النسبي. فالأجسام صور الأرواح، والأرواح صور الأعيان الثابتة، والأعيان الثابتة صور الأسماء الإلهية، والأسماء الإلهية صور الذات العلية، الغيب المطلق، فلولاً الأسماء التي هي كالصور للذات الغيب البحت؛ ما ظهرت الذات ولا عرفت. ولولا الأعيان الثابتة التي هي صور ومظاهر للأسماء الإلهية؛ ما ظهرت الأسماء ولا تعيّن. ولولا الأرواح التي هي صور الأعيان الثابتة؛ ما عرفت الأعيان الثابتة. ولولا الأجسام التي هي صور الأرواح؛ ما عرفت الأرواح ولا ظهر لها أثر. فإذا استعملت حقيقة من الحقائق المقيدة الأدوية التي جاءت بها الرسل - عليهم السلام - على وجه مخصوص، وكيفية معروفة عند أهل هذا الشأن؛ حصل له علم ضروري كسائر الضروريات بأن هذا الجسم؛ ليس هو بشيء حق له حقيقة وثبوت. وإنما هو خيال ووهم كسراب بقية تراه شيئاً محسوساً. فإذا حققت وجدته لا شيء، وكما إذا أخذت عوداً على رأسه جمرة نار، وأدرته بسرعة؛ فإنك تراه دائرة من نار محسوسة عندك لا تشك فيها، فإذا أمعنت النظر فيها بعقلك؛ حكمت أنه ليس ثمّة إلا الجمرة التي على رأس العود، ولا دائرة هناك أصلاً. وكذا إذا حركته مستقيماً؛ ترى خطاً من نار ولا شيء غير الجمرة. فكل ما يدركه الحس من الصور والأجسام؛ فهو مثل دائرة النار. والخط لا حقيقة

له إلا في المدارك وحينئذ يصير الجسم عنده ليس بشيء يعتد به ويعول عليه، ويرى في ذلك الشهود وذلك العلم أنه روح. فإذا داوم على التوجه والإقبال على الله، ودأب على ذلك؛ حصل له علم وشعور بأن هذا التعيين الروحي مثل التعيين الجسمي لا حقيقة له، ويرى أن حقيقته الخفية إنما هي عينه الثابتة في العلم القديم. وحينئذ يصير في علمه وشعوره عيناً ثابتة، ثم بعد هذا؛ يحصل له علم بأن حقيقته إنما هي الأسماء الإلهية، وحقيقته الخفية هي الذات العلوية، لأن الاسم عين المسمى، ما هو بشيء زائد على ذات المسمى إلا في التعقل، وإلى هذه الملابس الوهمية والخيالات المتخيلة يشير ابن الفارض بقوله:

إذا ما أزال اللبس لم يبق غيره ولم يبق بالأشكال أشكال ريبة

وإليها يشير الشيخ الأكبر بقوله:

جلّ الإله الحق أن يبدو لنا فرداً وعيني ظاهر وبقائي

وإذا أردت تعرفاً بوجود قسّمت ما عندي على الغرماء

وعدمت من عيني فكان وجوده فظهوره وقف على إخفائي

يريد تحليل النشأة العنصرية، والغرماء هم العناصر الأربعة: الماء والتراب والنار والهواء، فإن السالك ما دام مقيماً بهذا الهيكل؛ لا يعرف الله - تعالى - فإنه لا يعرف الله إلا الله. فإذا تجرّد السالك من كل تعين جسمي وروحي وقلبي وفني وصل إلى العلم بالله - تعالى - وتحصل له علوم وأسرار ما كانت تخطر له ببال، وبعد هذا؛ إما أن يمسكه الحق عنده، أو يرده فيلبس ملابسه الأول التي كان خلعها فيلبسها لكن على غير اللبس الأول. ففي اللبس الأول حق ظهر بخلق باطنه حق، وظاهره خلق، وفي اللبس الثاني حق ظهر بحق فهذا هو الانسلاخ والمعراج التحليلي، وإن اختلفت العبارات عنه وكل واحد عبّر بما حصل عنده، فإنه ما سلك اثنان على طريق واحدة من كل الوجوه، ولولا القهر الإلهي ما عبّرت عن هذا:

﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ [الكهف: الآية ٢٩].

وبعد ما كتبت هذا الموقف: ألقى الحق - تعالى - علي في الواقعة قوله تعالى:

﴿إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعِيرًا مَسْكُورًا﴾ [الإنسان: الآية ٢٢].

والحمد لله رب العالمين.

## الموقف الثاني والخمسون

قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ رَزَقْنَاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّهَا ﴿١٠﴾﴾ [الشمس: الآيات ٩، ١٠].

الزكاة الطهارة وتزكية النفس؛ تطهيرها من دعواها ما ليس لها لنفسها، وكفها عن غضب كمالات غيرها والتحلي بها حتى تترك جميع الدعاوى الكاذبة لأن النفس تدعي الوجود مع الحق - تعالى - وهي فاجرة كاذبة في ادعائها، وغصبت الكمالات التابعة للوجود من العلم والقدرة والاختيار والفعل والتركت فتحلّت بها وادعتها وهي فاجرة في دعواها، لأن الوجود وكلّ كمال تابع للوجود فهو خاص بالحق - تعالى - لا شريك له في ذلك. فمن عرف أنه العدم الظاهر، وتحقّق أنه لا علم ولا قدرة ولا فعل ولا اختيار له، وأنه محلّ لفعل الحق - تعالى - فهو الفاعل فيه وبه. فهو الذي زكّى نفسه وطهرها من الجور والفجور. ومن لم يعرف هذا وادعى خلافه؛ فهو الذي دسى نفسه: ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّهَا ﴿١٠﴾﴾ [الشمس: الآية ١٠].

والدسّ ستر الشيء وتغطيته، فمن ادعى له وجوداً مع الحق - تعالى - فقد ستر عدمه بوجود الحق - تعالى - وكذا من ادعى له كمالاً من علم وقدرة واختيار؛ فقد ستر عجزه وجهله وضعفه بعلم الحق - تعالى - وقدرته وقوته. ومن ادعى ما ليس فيه؛ افتضح، إذا حصص الحق واتضح.

\*\*\*

## الموقف الثالث والخمسون

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [الغنكوت: الآية 69].

أي الذين بارزوا أنفسهم بالمجاهدات والرياضات فينا، بسبب الوصول إلينا وإلى جنة معرفتنا ومشاهدتنا؛ لنهدينهم سبلنا، الطرق الموصلة إلينا، فإنهم ما جاهدوا في غيره، لا دنيا ولا آخرة. ثم ليعلم: أن دخول جنة المعارف والمشاهدة؛ خلاف دخول جنة اللذات المحسوسة. فجنة المعارف والمشاهدة دخولها غالباً بالكسب والمجاهدة، كما قال: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا﴾ [الغنكوت: الآية 69].

أي جاهدوا أنفسهم بسببنا. ثم تقسم بالوهاب والوجود الإلهي والاستعداد. ودخول جنة اللذات المحسوسة يكون بالرحمة. ثم تقسم بالأعمال، كما ورد في الخير: «ادخلوها برحمتي واقتسموها بأعمالكم»<sup>(١)</sup>.

(١) لم أجد هذا اللفظ إنما أورده الهيثمي في مجمع الزوائد، باب جامع في البعث. بلفظ: =

والحكمة في هذا الاختلاف أن جنة اللذات المحسوسة؛ يستحقها كل مؤمن ولو بعد حين، بحسب الوعد الصادق، فلو منعها مؤمن دون مؤمن لدخل النار وخلد فيها. إذ ليس هناك إلا داران، وهما ضدان. فلهذا كانت الرحمة العامة سبباً في دخولها. وأما جنة المعارف، فإنها مخصوصة بقوم مخصوصين، من خواص المؤمنين، أصحاب المجاهدات والرياضات. فإذا لم يدخلها بعض المؤمنين دخل جنة اللذات المحسوسة. ولو دخل المؤمنون كلهم جنة المعارف والمشاهدة في الدنيا؛ ما دخل أحد من المؤمنين النار يوم القيامة. وقد سبق العلم القديم والإرادة الأزلية، بدخول طائفة من عصاة المؤمنين النار، ثم يخرجون بالشفاعة. ومما يجب اعتقاده؛ بأنه لا بد من نفوذ الوعيد، في طائفة من عصاة المؤمنين.

\* \* \*

### الموقف الرابع والخمسون

قال تعالى: ﴿فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: الآية ٢٢].

ليعلم أن حال أهل جنة المعارف والمشاهدات؛ مخالف لحال أهل جنة اللذات المحسوسة، في الدنيا والآخرة، لأن أهل جنة المعارف الإلهية أشهدهم الحق أولاً، أنفسهم كغيرهم، فشهدوها فاعلة تاركة مختارة. ولهذا تراهم في بداياتهم يعاقبون أنفسهم؛ إذا حصل منها تقصير، ويشكرونها إذا وفّت بالعمل في زعمهم، ولولا شهودهم أن لهم فعلاً وتركاً وقدرة؛ ما فعلوا بها ذلك.

سأل بعض العارفين، مريداً لبعض المشايخ، فقال له: بيم يأمركم شيخكم؟ فقال المرید: يأمرنا بالأعمال ورؤية التقصير فيها. فقال له العارف: أمركم بالمجوسية المحضة!! هلا أمركم بالأعمال والغيبة عنها بشهود مجريها؟!... إلى آخر القصة.

ثم إذا رحمهم الله وفتح لهم الباب ودخلوا جنة المعرفة والمشاهدة؛ عرفوا أنهم ليس لهم من الأمر شيء، من حيث ظاهريهم ومن حيث أنفسهم، وشهدوا الرهبة والمثمة فيما كانوا يشهدونه، صادراً من أنفسهم، كما شهدوا المثمة والوهب الصرف أخيراً، فغابوا عن أنفسهم وعن العقل والوهب واستغرقهم مشاهدة الواهب؛ فاصطفاهم الحق لنفسه، واختارهم لمجالسته.

وأما أهل الجنة المحسوسة؛ فإن الحق أشهدهم أيضاً كسبهم واختيارهم، فهم يعملون الصالحات ويتسبون لها لأنفسهم، قاصدين الوصول إلى الجنة المحسوسة،



غافلين عن جنة المعارف والمشاهدات، فأبقاهم الحق - تعالى - على غفلتهم في الدنيا وفي البرزخ وفي الحساب وفي حال دخول الجنة إلى وقت الرؤية في الكثيب الأبيض. ولذا يقول لهم الحق: ﴿يَلِكُمْ الْجَنَّةُ الَّتِي كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: الآية ٤٣].

فنسب الفعل في ذلك الوقت إليهم، تقريرًا لغفلتهم وجهلهم ويقول لهم: «اقتسموها بأعمالكم». كما ورد في الخبر، كلُّ هذا تمثية لدعواهم السابقة. حتى أنَّ منهم مَنْ يقول له الحق - تعالى - أدخل الجنة برحمتي، فيقول: لا، بل أدخلها بعلمي. ففي ذلك الوقت، ما كشف لهم العطاء، ولا زال عنهم الحجاب. فهم واقفون مع أنفسهم، ونسبة العمل إليها.

وأما قوله تعالى: ﴿فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: الآية ٢٢].

إذا حمل على الميت، إنما هو كشف عن بعض المغيبيات دون بعض. ولا يرفع الحجاب بالكلية وتقع اليقظة النامة؛ إلا بعد رؤية الحق - تعالى - في الكثيب. لأن الناس في الدنيا نيام، بالنسبة إلى اليقظة الحاصلة بعد الموت في البرزخ. وهم نيام في البرزخ، بالنسبة إلى اليقظة الحاصلة في البعث والحساب. وهم في الحساب نيام؛ بالنسبة إلى اليقظة الحاصلة في الجنة. وهم نيام بعد دخول الجنة، بالنسبة إلى اليقظة الحاصلة عند رؤية الحق - تعالى - الرؤية الخاصة في الكثيب. وإنما فعل الحق - تعالى - مع هؤلاء هذا الأمر؛ لأنهم ما طلبوا بالأعمال إلا الجنة المحسوسة، وما تشوقوا لجنة المعرفة والمشاهدة، ولا سمت همتهم إليها، وما كان مطلوبهم؛ إلا ما تشتهي الأنفس لا ما تشتهي الأرواح. ولا يظلم ربك أحدًا. وكانت جنة المعرفة والمشاهدة لقوم مخصوصين دون عامة المؤمنين، والجنة المحسوسة لعامة المؤمنين، لأن جنة المعرفة والمشاهدة يدخلها أهلها في الدنيا قبل الموت الحسي؛ وبعد الموت المعنوي. ومحال أن يدخل النار من دخل جنة المشاهدة والمعرفة، وقد سبق العلم القديم والإرادة الأزلية بدخول بعض المؤمنين النار، ثم يخرجون بالشفاعة، فجنة المعرفة والمشاهدة مثل: لا إله إلا الله. فلو وضعت كلمة التوحيد في الميزان؛ ما دخل مؤمن النار، وإنما توضع في الميزان حسنات المؤمنين غير كلمة التوحيد، ولا توضع كلمة التوحيد في ميزان؛ إلا في ميزان صاحب السجلات خصوصية. فلهذا كانت جنة المعرفة والمشاهدة مخصوصة بقوم مخصوصين، وهم الذين أراد الحق - تعالى - بقوله: ﴿فَأُولَئِكَ يَبْدُلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ [الفرقان: الآية ٧٠].



### الموقف الخامس والخمسون

قال تعالى: ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ [الأنعام:

الآية ١٣٤].

ما موضوعه للعموم، فكل وعد ووعد آت للموعود به ولاحق به، خيرًا كان أو شرًا في الدنيا والآخرة طلبه أو هرب منه، بمعنى أن ما قُدِّر لكل إنسان، أو عليه، وسبق العلم القديم والإرادة الأزلية بلحوقه به؛ فهو واصل لا محالة. فلا يقدر أحد أن يعجز المقدور ويسبقه، بحيث لا يلحقه ما قُدِّر له أو عليه سواء طلبه أو لم يطلبه. وسواء هرب منه أو استقبله.

\* \* \*

### الموقف السادس والخمسون

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [التحل:

الآية ٤٠].

فقوله: قولنا، يريد أنه متكلم، وهو عبارة عن توجه إلهي يحصل به سماع المأمور بالتكوين، فيكون لنفسه، بما فيه من الاستعداد، وليس للحق - تعالى - إلا الأمر، ولما كانت فائدة الكلام ونتيجته؛ هي إيصال ما في نفس المتكلم ومراده إلى المخاطب السامع، أخبر الحق - تعالى - أنه متكلم، بمعنى أن له صفة الكلام وحقيقته. وهو إيصال ما في إرادته - تعالى - ونفسه إلى من يريد أمره أو نهيه أو إخباره أو تبشيره أو تحذيره... مما يحصل عرفًا بالكلام. فلا مناسبة بين كلام الحق - تعالى - وكلام المخلوقين إلا من هذا الوجه الواحد، وهو إيصال ما في نفس المتكلم إلى السامع.

وكلام الحق - تعالى - على نوعين: باعتبار بغير واسطة مشهودة، ويسمى إلهامًا أو إلقاء، ونحو ذلك. وبواسطة مشهودة، وهي المظاهر الروحانية، ويسمى وحياً. وكلام الحق، إذا كان بغير واسطة مشهودة؛ لا يدرك سامعه له كقيته ولكن يجد السامع له مراد الحق - تعالى - منه مقررًا عنده، من غير إدراك كيفية من الكيفيات التي تكون لكلام المخلوقين.

وكلام الحق - تعالى - يسمعه الأنبياء، وللأولياء منه نصيب، ولكن أدواقهم في السماع مختلفة متباينة، فليس ذوق النبي كذوق الولي، فبين ذوقيهما ما بين رتبتهما.

وإنما اختص موسى - عليه السلام - باسم الكليم، من بين سائر المكلمين، لذوق اختصاص به موسى - عليه السلام - لا يعلمه إلا هو. كذا قال شيخنا محيي الدين، باخبار موسى - عليه السلام - له بذلك. والذي ألقاه الحقُّ إليَّ: أنَّ اختصاص موسى بالتكليم، دون غيره من المكلمين، لكون كلِّ من كَلَّمه الحقُّ - تعالى - لا يكلمه إلا في باطنه، بحيث لا يسمع الحاضرون تكليم الله إياه.

وموسى، كَلَّمه الحقُّ بحضرة السبعين الذين اختارهم من قومه، وكلُّهم سمعوا تكليم الحقِّ وخطابه لموسى - عليه السلام -.

وليعلم أنه كما أن الوجود للحقِّ - تعالى - خاصَّة، وليس لغيره وجود مستقل، لا قديم ولا حادث، وإنما لغيره - تعالى - النسبة للوجود؛ فكذلك توابع الوجود من كلام وعلم وقدرة وإرادة... ليست لغيره - تعالى - فهو الوجود من وراء حجابية كل موجود. والعالم من وراء حجابية كل عالم. والمتكلم من وراء حجابية كل متكلم. ونحو ذلك. فالوجود وتوابع الوجود، إذا نسبت لغير الحقِّ - تعالى - فهي مجاز. وفي الحقيقة؛ ليس كلامه - تعالى - سوى ظاهر علمه، وجميع صفاته ترجع إلى علمه، ولا ينفصل بعضها من بعض؛ إلا في العبارات، لتفهم المعاني المتواضع عليها. فإذا أضيف علمه إلى دعوة المضطر؛ قيل: سميع. وإذا أضيف علمه إلى رؤية كلِّ شيء؛ قيل: بصير. وإذا أوصل ما في نفسه من أمر أو نهي أو إخبار، وأفاض ذلك على المراد إيصاله إليه؛ قيل: متكلم.

وكما أن للحقِّ - تعالى - الظهور بالصور، كذلك هو المتكلم بها.

قال تعالى: ﴿فَأَجْرُهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ﴾ [التوبة: الآية ٦].

وكلامه صفته، وصفته لا تقوم بغير ذاته، أي حتى يسمع كلام الله بمظهرية رسول الله - ﷺ - فهو كلام الله؛ من حيث أنه كلام رسول الله، من حيثية واحدة، فافهم وإلا سلم تسلم، ولا تنكر تندم، إذا كشف الساق والقدم.

وكما أن ظهور الحقِّ - تعالى - بالصور حادث، فكذلك كلماته، لأن كلماته أفعاله، وأفعاله حادثة، وأعني بكلماته: مخلوقاته المخاطبة: «بكنُّ» لا نفس الكلام الذي هو صفته. وصفاته - تعالى - إذا نسبت إلى مرتبة الإطلاق؛ تكون مطلقة، فيتعلَّق علمه وكلامه بالواجب والممكن والمستحيل، وتتعلَّق قدرته وإرادته بكلِّ ممكن، وسمعه وبصره بكلِّ مستعد، لأن يرى ويسمع. وإذا نسبت إلى مراتب

التقييد لا تظهر إلا مقيدة، فيتعلق العلم ببعض المعلومات والقدرة ببعض المقدورات... وقس على هذا.

\* \* \*

### الموقف السابع والخمسون

رأيت في بعض المراتبي: أنني جالس في قبة بيضاء، وأنا أتكلم مع أشخاص لا أراهم. فتكلمنا في قول القطب عبد السلام بن بشيش - رضي الله عنه -: «واجعل الحجاب الأعظم حياة روعي، وروحه سر حقيقتي».

فقلت لهم: سأل الشيخ بهذا أن يكون الحجاب الأعظم، وهو الحقيقة المحمّدية، والتعين الأول المسمّى بالأسماء الكثيرة، بحسب اعتباراته ووجوهه؛ حياة روجه. أي اجعلني به حيًا على الكمال لا مطلق الحياة، لأن الروح مستلزم للحياة ولا عكس. فكل روح حيّ، وليس كل حيّ له روح. ومطلوب الشيخ ومقصوده: أن يكون روجه مظهرًا كاملاً ومجلى تامًا للروح الكلّي الذي هو الحجاب الأعظم، والحقيقة المحمّدية. إذ كلّ روح إنّما هو من الروح الكلّي المحمّدي، ولكن لا على الكمال إلا أرواح الكلّ الحاصلين على رتبة الكمال، من الورثة المحمّديين فإنه ينطبع فيه كانطباع الطابع في الشمع ونحوه.

فقال لي واحد لم أر شخصه: فعلى هذا؛ يتمثل المنطبع فيه مع الطابع. فقلت له: هيهات!! المنطبع حقيقة وأصل، والمنطبع فيه مجاز وفرع. فإنا نقول في الحق - تعالى - حيّ، وفي زيد حيّ. وأين حياة الحق - تعالى - من حياة زيد؟! ونقول في زيد: عالم، وفي الحق - تعالى - عالم. وأين علم الحق - تعالى - من علم زيد؟! فإن تباين حقيقة كلّ واحد من الموصوفين بالصفة الواحدة، مؤذن بعدم المشابهة بينهما في النسبة. كما إذا ضرب نور الشمس في حائط من كوة مثلاً، فنقول: ظهرت الشمس في الحائط. وأين الشمس من شعاعها الظاهر في الحائط؟! وقوله: «وروجه سر حقيقتي» يريد الشيخ - رضي الله عنه - روح الحجاب الأعظم. فالضمير عائد عليه، وروح الشيء ما به قوامه، وروح الحجاب الأعظم هو الذات الغيب المطلق البحت، الذي لا يعبر عنه بعبارة، ولا تنطرق إليه إشارة. إذ الحجاب الأعظم هو غاية معرفة العارفين، ونهاية السائرين، غير أنهم علموا أن وراء هذا الذي أدركوه شيئًا من حقيقته، وصفته نفسه، أنه لا يعرف ولا يدرك منه سوى وجوده لا غير. فكان إدراك العجز عن إدراكه؛ إدراك. إذ العلم انكشاف المعلوم على ما هو عليه.

فحينئذٍ ظهر لي واحد منهم، وقبّل يدي. وليعلم أن كثيرًا من أهل الرياضات والمجاهدات على غير طريق الأنبياء وصل إلى الروح الكلي، فظنّ أنه هو حقيقة الحقائق، وأنه ليس وراءه مرمى؛ فكفر ورجع من حيث جاء. ولهذا يقول بعض سادة القوم: ما رجعت من رجعت؛ إلا من الطريق. ولو وصلوا؛ ما رجعوا. يعني الوصول إلى الذات الغيب المطلق، إذ ليس وراء الله مرمى. وأما مرتبة التعيين الأول، والحقيقة المحمّدية، والحجاب الأعظم؛ فوراءه مرمى وهو الله، من حيث أنه اسم مرتجل علم على الذات الغيب المحض، لا شيء فيه من الوصفية.

\* \* \*

### الموقف الثامن والخمسون

قال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا لَأُحْسِنُوا لَهُمْ وَأَحْسِنُوا لَهُمْ وَزِيَادَةً﴾ [يونس: الآية ٢٦].

المراد: أحسنوا لأنفسهم. وأحسنوا دخلوا حضرة الإحسان، فإن الحق - تعالى - لا يحسن أحد إليه، ولا يسيء، كما قال: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ [فصلت: الآية ٤٦].

والإحسان هو الحضور مع الله - تعالى - في الأعمال الصالحة. وهو يستلزم إخلاص العمل من كل شوب، وفشّر - ﷺ - الإحسان كما في الصحيح، في حديث سؤال جبريل - عليه السلام - فقال: «هو أن تعبد الله كأنك تراه»<sup>(١)</sup>.

يعني العبادة على الحضور. فالعبادة الخالصة من الشرك الخفي؛ لا تكون إلا لمن دخل حضرة الإحسان. وقد وعد الله - تعالى - ووعد الحق، فإنه لا يخلف الميعاد من عبده، كأنك تراه بالحسنى، أي المعرفة والشهود اللائقين بهذه الدار. والزيادة وهي المعرفة والشهود اللائقان بالدار الآخرة. فإن الشهود هناك أتم، والمعرفة أكمل، لا أن الشهود يتبدل والمعرفة تتغير، فإن صاحب الشهود والمعرفة في الدنيا، يكون في الآخرة كما هو في الدنيا، كما قال بعض العارفين، هم - يعني العارفين في الآخرة، كما هي في الدنيا إن شاء الله. وإن كان الحجاب مصاحبًا في الدارين، لأن رداء الكبرياء لا يرتفع عن وجهه - تعالى - لا دنيا ولا آخرة، كما ورد في الصحيح. وليس بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم؛ إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن. ورداء الكبرياء هو أول التعينات، وهو الحقيقة المحمّدية.

(١) رواه البخاري: كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان... حديث رقم (٥٠).

ورواه مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان... حديث رقم (١ - ٨).

وقوله - ﷺ - : «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ» .

تعليم لدخول حضرة الإحسان، وإذن في تخييل الحق - تعالى - بالحضور مع العابد، وأنه في قبلة المصلي، وبينه وبين القبلة، وأنه يناجيه - كما في صحيح الأخبار<sup>(١)</sup> - فإذا أَرَادَهُ اللهُ - تعالى - لقربه، وأزال الحجاب عن عين بصيرته؛ صيره إلى حالة لا يعبر عنها لسان، ولا تخطر لعقل بجنان؛ منها أن يرفع عنه الكاف من كأن. وحينئذ تصير حضرة الإحسان في حقه؛ فيها نوع سوء أدب، لما فيها من الحصر والتقييد بالنسبة إلى ما صار إليه. وحسنات الأبرار سيئات المقربين، وإنما أمر - ﷺ - ورغب في حضرة الإحسان، تعلّمًا وتدريبًا وتدريبًا لما هو أعلى وأقدس وأعلى وأنفس وهو - ﷺ - سيّد المعلمين، وأحكم العالمين.

\* \* \*

### الموقف التاسع والخمسون

قال تعالى: ﴿يَسِّرْ اللَّهُ الرِّجْمَ الرَّجِيمَ ۝۱﴾ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿۲﴾ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿۳﴾ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿۴﴾ السَّائِغَةِ: [الآيات ١ - ٤].

من أراد أن ينظر إلى تبشير الحق - تعالى - عباده بسعة رحمته، وإخبارهم تلويحًا بل تصريحًا لمن عقل بعموم عفو، وشمول مغفرته؛ فلينظر فيما جعله الله فاتحة لكلامه - تعالى - المنزل على رسوله - ﷺ - وخاطب به كل من بلغه. فإنه أخبر - تعالى - أنه الملك يوم الدين، أي ملك الجزاء، بعد أن أخبر - تعالى - أن الحمد له، على الحصر والاختصاص، أو الاستحقاق. وهو بمعنى جنس الحمد، إن كانت اللام لاستغراق أفراد الجنس. أو حقيقة الحمد، إن كانت اللام للحقيقة والماهية. والحمد هو الثناء على المحمود بصفاته الجميلة، وليست إلا صفات الجمال: كالعلم والعفو والستر والرحمة والكرم والإحسان، لا صفات الجلال كالانتقام وشدة البطش والغضب، فإن الحمد عليها من كونها صفات كمال؛ فالحمد عليها نسبي. ثم أخبر - تعالى - أنه رب العالمين، والرب هو المصلح لكل ما أضيفت إليه تربية. فيربيه إلى أوان حصول ثمرته المقصودة منه، وبلوغ نتيجه، والقصد الأول من خلق المخلوقات معرفة الحق - تعالى - .

(١) رواه البخاري: كتاب الصلاة، باب حك البزاق حديث رقم (٤٠٦) وباب لبيزق عن يساره حديث رقم (٤١٣).

قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [٥٦] [الذَّارِيَاتِ: الآية

[٥٦].

أي يعرفون. لأن العبادة فرع المعرفة وثمرتها، وقال تعالى في الخبر المتداول بين القوم: «كنت كنتراً مخفياً فأحببت أن أعرف فخلقت خلقاً وتعرفت إليهم فعرفوني بي».

فمعرفة - تعالى - حاصلة لكل مخلوق من وجه، وهي معرفة الفطرة.. وغير حاصلة لمخلوق، أي مخلوق كان، من وجه، وهي معرفة الكنه. وحاصلة لبعض دون بعض من وجه، وهذا الوجه الحاصل لبعض دون بعض، من لم يحصل له في الدنيا حصل له في الآخرة، ولو كان لا على الكمال. فمن حصلت له المعرفة في الدنيا؛ فهو سعيد في الدنيا والآخرة. ومن لم تحصل له المعرفة إلا في الآخرة؛ فهو سعيد في الآخرة والكل تحصل له في الآخرة. فالكل حاصل على الثمرة المقصودة من إيجادها، فالكل سعيد في الآخرة. والشقاء الحاصل لبعض في الآخرة؛ إنما هو مثل الشقاء الحاصل لبعض في الدنيا، بالأمراض والفقر، وسائر الآلام الزائلة بضدها، أو بالموت.

ثم أخبر تعالى: أنه الرحمن الرحيم، بصيغة المبالغة، إفاضة للتكثير، بمعنى أنه تعالى كامل الرحمة، بحيث لا يشوبها نقص. يرحم عباده بسبب وبغير سبب، كما أوجدهم، بلا سبب غير رحمته. فلا سبب لرحمته عباده؛ إلا رحمته، فمن رحمته إيجادهم، ومن رحمته إسعادهم.

ثم أخبر تعالى: أنه مالك يوم الدين، بمعنى مالك الجزاء، فيجازي كل أحد بما يريد مجازاته به. ومن المعلوم ضرورة أن الحق - تعالى - أرشدنا وندبنا في كتبه وعلى السنة رسله - عليهم الصلاة والسلام - إلى العفو والصفح والستر فيما بيننا، ومدح فاعل ذلك، ووعد به جزيل الأجر، بل جعله - تعالى - واجباً عليه، فقال: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: الآية ٤٠].

وعلى من صيغ الوجوب. ومحال أن يأمر - تعالى - باستعمال مكارم الأخلاق، ويندب إلى الإحسان، ثم لا يفعل ذلك هو مع عباده ولا يعاملهم به، تعالى عن ذلك. إذ لا أحد أحب إليه المدح من الله - تعالى - كما في الصحيح<sup>(١)</sup>، ولا سيما

(١) روى مسلم عن عبد الله قال: قال رسول الله: «ليس أحد أحب إليه المدح من الله، من أجل =



والحكمة التي وضع لأجلها - تعالى - العقوبات والحدود التي شرعها لنا في الدنيا لإصلاح ديننا ودنيانا، وإبقاء لعمارة الدار الدنيا إلى أجلها الموعود، زالت في الآخرة، وما بقيت لها فائدة يرجع منها نفع للمخلوقين بعد حصول القصاص فيما بينهم، واستيفاء كل ذي حق حقه. وقد أخبر الحق - تعالى - أنه يوقف عباده يوم القيامة ويحاسبهم ويأخذ للمظلوم من الظالم ولا يضيع حق أحد، وهو الصادق فيما أخبر، وكل هذا، الرحمة فيه أغلب من الغضب، والحلم أكثر من العقوبة. وفي الخبر الصحيح: أن الله - تعالى - يصلح بين عباده يوم القيامة فلا تزال الرحمة - في حال الحكم وبعد الحكم بين الخلائق - تغالب الغضب وتسابقه، حتى تمحو أثره وتنسى خبره فتشمل السعادة وتعمم الرفادة. ولا شك أن الحق - تعالى - مالك يوم الدين. سواء كان المراد بيوم الدين يوم الجزاء في الدنيا والآخرة، أو الآخرة فقط. فهو في الدنيا يملكه بوسائط وأسباب وحجب، وهو الفاعل المالك من ورائها، لأن الدنيا مبنية على الحكمة. وفي الآخرة ترفع تلك الحجب، وتهتك تلك الأستار، لأن الآخرة مبنية على إظهار القدرة، فيشهد كل فعل للواحد القهار.

\* \* \*

### الموقف الستون

قال تعالى: ﴿وَكِبْرُهُ تَكْبِيرًا﴾ [الإسراء: الآية ١١١].

أي تكبيرًا بالغًا في الفخامة والضخامة غاية ما يتصور. وإنما أمر المصلي بقول: «الله أكبر» عند دخوله في الصلاة، وعند انتقالاته في الركوع والسجود والرفع منه، إلى تمام الصلاة؛ لكونه أمر بأن يعبد الله، كأنه يراه. وأن يعتقد أن الله - تعالى - في قبلته. وأنه مطلع عليه يراه، وأنه بينه وبين القبلة، وأنه يناجيه. . . وأمثال هذا، مما ورد في الأخبار الصحيحة<sup>(١)</sup>، وكل هذا يستلزم التخيل والتصوير لا محالة، وكل مصلي، بل مخلوق؛ يتصور معبوده ويتخيله، بمعنى أنه يعتقد في معبوده، أنه كذا وليس كذا. وهذا هو التصور والتخيل، فلما كان الأمر هكذا، وعلى ما ذكرنا؛ أمر المصلي وغير المصلي أن يقول: الله أكبر، بصيغة المفاضلة، أي مسمى الله في مرتبة إطلاقه أكبر وأعظم من أن يتخيل أو يتصور أو تحوم حول حماه شائبة تقييد بجهة أو

= ذلك مدح نفسه، وليس أحد أكبر من الله، من أجل ذلك حرم الفواحش<sup>٢</sup>. حديث رقم (٢٧٦٠). ورواه البخاري: كتاب النكاح، باب الغيرة حديث رقم (٥٢٢٠).

(١) سبق تخريجها.



صفة، أو يحصره نعت أو اعتقاد. فإنه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: الآية ١١].

وكما نفت هذه الآية الكريمة المثلثة؛ نفت الضدية، فلا مثل له - تعالى - فيدانيه، ولا ضد له فيناويه، بل هو المطلق حتى عن الإطلاق، لأن الإطلاق تقييد له بالإطلاق، وإنما ضرورة التعبير أوجت إلى ذكر الإطلاق، ونحوه من الألفاظ الضرورية. فالمفاضلة إذاً على بابها، بمعنى أنه - تعالى - في مرتبة إطلاقه، أكبر منه وأعظم في مرتبة تقييده، وهو هو في المرتبتين لا غير، من غير تغيير يلحقه، ولا تحويل. فهو المطلق في آن تقييده، المقيد في آن إطلاقه، كما أنه الأول في عين آخريته، الآخر في عين أوليته، الباطن في عين ظاهرته، الظاهر في عين باطنته. . . . ولما كان الحق - تعالى - فاعلاً لأفعالنا في مرتبة التقييد؛ جاءت صفة المقاضلة في الكتب المنزلة، وفي السنة المفضلة، كقوله تعالى: ﴿أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: الآية ١٤]، ﴿حَيْرُ الرَّزِقِينَ﴾ [المؤمنون: الآية ٧٢]، ﴿فَنِعْمَ الْفَعْدُونَ﴾ [المرسلات: الآية ٢٣]، ونحو هذا.

وفي السنة: «الله أفرح بتوبة عبده»<sup>(١)</sup> الحديث بطوله، ونحوه كثير. فكل هذا باعتبار مرتبة الإطلاق والتقييد، فهو مفضل على نفسه باعتبارين، كمسألة الكحل عند النحاة<sup>(٢)</sup>. وإنما أمر الشارع - ﷺ - بحضرة الإحسان، للتعليم والتأنيس. فإذا دخلها العبد، وأراد الله رحمته رحمة كاملة؛ رفعه منها إلى رؤيته - تعالى - في كل جهة، حيث لا جهة، بل يرى حقيقته هو لا جهة لها، فيرى الحق في الخلق، والخلق في الحق، من غير حلول ولا اتحاد ولا زندقة في هذا ولا الحاد، وإنما هو توحيد

(١) رواه البخاري: كتاب الدعوات، باب التوبة حديث رقم (٦٣٠٨). ومسلم: كتاب التوبة، باب في الحض على التوبة والفرح بها حديث رقم (٢٦٧٥).

(٢) مسألة الكحل عند النحاة هي: جعل اسم التفضيل رافعاً لاسم ظاهر، إذا صح أن يحل محل التفضيل فعل بمعناه من غير فساد في المعنى ولا في التركيب مثل: «ما رأيت طفلاً أجمل في عينه الكحل» منه في عيني صديقي سمير». وسميت هذه المسألة كذلك لورود كلمة الكحل في المثل السابق والمقصود كل مثل يشابهه. علامات هذه المسألة:

١ - ورود كلمة الكحل في المثل أو في ما يشابهه.

٢ - أن يكون اسم التفضيل نعتاً والمنعوت اسم جنس مسبوفاً بنفي أو ما يشبهه.

أن يكون الاسم المرفوع باسم التفضيل أجنبيًا منه ويخضع لطور فيه تفضيل شيء على آخر. فالكحل في المثل السابق مفضل باعتباره في عيني سمير ومفضل عليه في عيني الطفل. وهذه الفقرة الأخيرة هي موضع استشهاد المؤلف رحمه الله تعالى.

محض، ورفض للشرك ودحض، ومن ذاق عرف، ومن جهل لُج وما أنصف، ولو سلم كان له أسلم.

لا يعرف الشوق إلا من يكابده ولا الصبابة إلا من يعانيها  
اللهم زدني علماً بك، فأنت خير مسؤول، وأكرم مأمول.

\*\*\*

### الموقف الواحد والستون

قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَىٰ دَارِ الْأَلْبَتِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [يونس: الآية ٢٥].

أخبر تعالى: أنه يدعو عباده من أنس وجن، في الحال والاستقبال، إلى دار السلام، بمعنى السلامة، وهي الرحمة المحضة العامة، التي تعم العباد كلهم بعد نهاية الغضب الإلهي يدعوهم في الحال بالسنة الرسل - عليهم الصلاة والسلام - إلى الأعمال والأقوال والاعتقادات الصالحة التي هي أسباب نيل السلامة، بمعنى الرحمة الكاملة الخالصة، من غير أن يتقدمها شوب غضب، ويدعوهم في الاستقبال إلى نيلها بالفعل، ثم أخبر - تعالى - أنه - وإن دعا الجميع في الدنيا، بمعنى دعائهم إلى الأعمال، واتباع الرسل فيما أرسلهم به - فقد فرّق بينهم بحكمته وإرادته فيهدي من يشاء هدايته، وهم المؤمنون؛ إلى صراط مستقيم، أي طريق قريب الوصول سهل الممشى إلى السلام، فيصلون إليها من غير مشقة ولا تقدم غضب، ويضل من يشاء، وهم الكافرون العاصون للرسل - عليهم السلام - فلا يصلون إلى الرحمة الكاملة؛ إلا من طريق غير مستقيم بعيد، وبعد نفوذ الغضب الإلهي، وهم الذين قال تعالى في حقهم: ﴿أُولَٰئِكَ يَتَدَوَّرُونَ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: الآية ٤٤]، من الرحمة المحضة، إلى الرحمة المحضة، فإنها لا تنالهم إلا بعد حين.

\*\*\*

### الموقف الثاني والستون

قال تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَّجٌ بِالْبَصْرِ﴾ [القمر: الآية ٥٠].

اعلم أن كل ما يقع إليه الإدراك من محسوس ومعقول ومتخيّل؛ فهو متغيّر متجدّد في كل نفس، يوجد ويعدم، إذ كل مدرك فهو صورة قائم بغيره كقيام العرض

بالجوهر عند علماء الكلام. وذلك الغير المقوم لتلك الصورة؛ هو نفس الرحمن، وأمر الله وحقيقة الحقائق. وله أسماء كثيرة بحسب اعتباراته، والكون كله العرش، وما حوى من عالم الأرواح وعالم المثال وعالم الأجسام؛ أعراض. ونفس الرحمن مقوم لها، وهي قائمة به.

قال بعضهم: ما الكون إلا عرض، سيان في ذلك الجوهر والعرض، ولولا أن هذه الصور المدركة بأي مدرك كان، من أنواع الإدراكات؛ أعراض؛ ما صح انقلاب العصا حية، ولا العرجون سيفًا ولا صح مسخ. إذ لو كانت هذه الصور المدركة هي حقائق الأشياء؛ ما صح انقلابها، لأن قلب الحقائق محال، فحقيقة الأشياء؛ غير هذه الصور المدركة. بل حقيقة كل شيء هو المقوم لصورته، وهو غير مدرك بالحس. بل يدرك بالحس ولا يعرف أنه هو، لأنه لا يتميز عن الصورة ولا تتميز عنه. وإذا صح أن كل ما يتعلق به الإدراك مطلقًا؛ صورة. بمعنى عرض قائم بغيره، فهو لا يبقى زمانين، بل زمان وجوده عدمه، كما تقول الأشاعرة من المتكلمين، العرض لا يبقى زمانين، وقال بعدم بقاء الجسمية زمانين؛ قوم من الحكماء قديمًا، عقلاً. والقوم - رضي الله عنهم - قالوه كشفًا. فكل صورة مطلقًا، لا يقع عليها إدراك - أي إدراك كان - إلا إذا تميزت عند المدرك، لأن موجودة الأشياء؛ تابعة للإدراكات، لا غير عن الوجود العام المفاض عليها المقوم لها، وزمان تميزها حيث يتعلق الإدراك بها؛ هو زمان عدمها، لأنه ما حصلت على اسم الموجود؛ إلا بملاسة الوجود الحق الظاهرة فيه وبه من غير حلول ولا اتحاد. فإذا تميزت عنه في المدارك المدركة؛ حصلت على العدم، بمثابة الصورة المرئية في المرأة. فمهما نظر الناظر الصورة في المرأة؛ لا يرى المرأة. فانعدمت المرأة في نظره، وانعدمت الصورة، لأن المقوم لها هو المرأة. ولو بقيت الصورة في ظنه وفي خياله؛ فهي معدومة في المرأة، موجودة في خياله. فهو يراها في خياله ويظن أنه يراها في المرأة، أعني زمان انعدامها، وأيضًا الوجود الحق - تعالى - من حيث هو غني عن العالمين، فهو ظاهر بذاته الأحدية لذاته، ووحدته تطلب عدم الكثرة؛ لأن مقتضى الأحدية إعدام الكثرة، وأسماءه - تعالى - تطلب ظهورها بظهور آثارها، وهو مقتضى الكثرة. فالكون دائمًا بين مقتضى الأسماء وهو ظهور الكثرة. وإن كان ظهور الكثرة بظهور الأسماء بآثارها؛ هو ظهور الذات في الحقيقة، حيث إنها أعدام ونسب، لا قيام لها بدون الذات. ولهذا كان الحق - تعالى - ظاهرًا باطنًا، أولاً آخرًا، من حيثية واحدة، وجهة متحدة.

ولا يفهم من تمثيلنا بالجواهر والعرض المعروفين عند المتكلمين، أن العالم والمقوم له مثلهما من كل وجه، وإنما هو للتقريب، إذ لا يشترط في التمثيل التساوي من كل وجه.

وأكثر الناس يعلمون هذه المسألة، ولا يعلمون أنهم يعلمون. لأنك إذا قلت للمنطقي مثلاً؛ ما حقيقة الإنسان؟ فيقول: الحيوان الناطق. فتقول له: الحيوانية والناطقية، جواهر أو عرض؟ فيقول: عرض، عند المحققين. فكأن الإنسان الذي هو أعظم الجواهر وأشرفها وأجمعها لحقائق الأجسام عندهم عرضاً تجري عليه أحكام الأعراض، إذن ولا بد.

وكذا، تقول للطبيعي: العلوية غير العرش والكرسي والأطلس... وتلك الثوابت. والسفلية المشهودة وغير المشهودة من أي شيء هي مركبة؟ فيقول لك: من العناصر الأربعة، وهي التراب والماء والهواء والنار. فتقول له: والعناصر الأربعة، من أي شيء هي مركبة؟ فيقول لك: التراب مركب من البرودة واليبوسة، والماء مركب من البرودة والرطوبة، والهواء مركب من الحرارة والرطوبة، والنار مركبة من الحرارة واليبوسة. فتقول له: وهذه الطبائع الأربعة، جواهر وأعراض؟ فيقول: هي أعراض. فكانت الجواهر والأجسام كلها مركبة في الأعراض، تجري عليها أحكام الأعراض ولا بد.

\*\*\*

### الموقف الثالث والستون

قال تعالى: ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ [مریم: الآية ١٧].

ورد في صحيح مسلم: «تجلى الحق - تعالى - لأهل المحشر، وتحوله في الصور».

وفي الصحيح المتواتر أنه - ﷺ - كان يرى جبريل في صورة دحية، ويعرفه أنه جبريل، والصحابة يجزمون أنه دحية. وهذا هو التجلي الذي أنكره علماء الرسوم المحجوبون على العارفين - رضي الله عنهم - ورموهم بالحلول والاتحاد. ولو أنصفوا ما أنكروا ما جهلوا، لأن الحكم على الشيء تصويباً وتزييفاً؛ فرع من تصوره. وهم ما تصوّروا التجلي والشهود، على ما هو عند القوم - رضوان الله عليهم - فما ردّ علماء الرسوم؛ إلا باطلهم الذي تصوروه في أنفسهم، تصوّروا باطلاً وردّوا باطلاً، إذ القوم - رضي الله عنهم - لا إثنيّة عندهم، ولا يقولون بوجودين قديم وحادث حتى

يُتحد أحدهما بالآخر أو يحل فيه، فحقيقة الوجود عندهم واحدة لا تتعدد ولا تنجزاً ولا تتبعض، وهي ما به وجدان الشيء وتحققه التحقق الذي له بالذات، فالأشياء كلها من عالم الأرواح والأجسام وعالم المثال والمعاني، المجردة العقلية، لا تظهر ولا تتعين إلا بظهور الوجود الحق فيها، من غير حلول ولا اتحاد ولا اتصال، ولا انفصال، كما أن الوجود الحق لا يظهر ولا يتعين؛ إلا بمخلوقاته. ومثال ذلك - والله المثل الأعلى -: العالم، إذا لم تكن الشمس مشرقة عليه، وظاهرة لديه؛ كان كالعدم لا وجود له في الأعيان، ولا يتميز بفضه عن بعض. فإذا أشرقت عليه الشمس ظهر للأعيان، وتحقق وجوده وتميز بعضه من بعض. وظهور نور الشمس في أجزاء العالم، ليس بحلولها فيه، ولا اتصالها به، ولا انتقالها، ولا بتغييرها عما كانت عليه: ولا بانفصال بعضها عنها، ولولا أجزاء العالم؛ ما ظهر نور الشمس ولا تعين، ولو قدرنا ارتفاع العالم وعدمه. وكذا الوجود الحق - تعالى -، لا وجود لمخلوقاته: إلا بإشراق نوره عليها. ولا ظهور له ولا تعين؛ إلا بها. وظهور نور الشمس وإشراقه على أجزاء العالم يختلف بحسب صفاتها وقوابلها واستعداداتها وهو شيء واحد غير متعدد، ولا متجزى، ولا متلون، وإنما عدده ولونته أجزاء العالم بحسب صفاتها، وكثافتها ودنسها، وشفافتها، فتجلي الوجود الحق على العالم كله واحداً، لا فرق بين جليل وحفير، وصغير وكبير. ولكن لا يظهر في صورة إلا بحسب قابليتها.

مثال آخر للتجلي والشهود الذي دلّت عليه الآية والأحاديث: الشمع إذا صورت منه صورة إنسان أو حيوان، ثم أحضرت لدى جماعة فيهم عقلاء وجهال وصبيان. فالجهال والصبيان لا يقع إدراكهم إلا على الصورة، ولا يتأملون إلا فيها، وفي تخطيطها وتشكيلها، وأعضائها. . . غافلون عن الشمع الذي هو مادتها وبه قامت وظهرت حتى صارت تتعلق بها الإدراكات الحسية. وأما العقلاء؛ فإنهم ينظرون الصورة كما ينظرها غيرهم، ويتعدى نظرهم إلى الشمع الذي قامت الصورة به وتعينت، ويعرفون أن الصورة من حيث هي، لولا الشمع أظهرها؛ ما ظهرت ولا وقع عليها إدراك، لأنه لو كان لها وجود مستقل منفصل عن وجود الشمع؛ لكان يصح أن تنفصل عن الشمع وتبقى على ظهورها، وتتعلق الإدراكات بها، وذلك محال. فثبت أن الوجود والظهور للشمع وإن ظهر بالصورة، أي متلبساً بها. فالظاهر هو، والصورة خيال. إذا فتشتها لا تجدها شيئاً مع إطلاق الحقيقة الشمعية وتقييدها بالصورة، وتلك الهيئة والشكل والتخطيط. فلو فرض أن الحقيقة الشمعية

تكيفت بكيفية إرادية من عدم الظهور بتلك الصورة المخصوصة، وظهورها بصورة أخرى، أو بعدم الظهور مطلقاً؛ انعدمت تلك الصورة التي كان ظاهراً بها، مع بقاء الحقيقة الشمعية على حالها من غير تغيير ولا زيادة ولا نقص. ولا يصح أن يقال: الصورة حلت في الشمع، ولا اتحدت به، ولا امتزجت... لأن هذه الأمور؛ إنما تقال على شيئين مستقلين بالموجودية، وليس إلا شيء واحد وهو الشمع مثلاً، والصورة ليست بشيء.

والقوم - رضوان الله عليهم - لا يثبتون الوجود إلا لشيء واحد، وهو المقوم القائم على العالم جميعه جواهره وأجسامه وأعراضه، والعالم كله أعراض عندهم؛ بمعنى أنه كالعرض القائم بالجواهر عند المتكلمين، ولو أدركنا الصور بحواسنا نتكلم وتفعل أفعالاً مختلفة؛ فإنما ذلك لتعلق إدراكنا بالصور، دون نفوذ إلى بواطنها وحقائقها التي الصور فيها بمثابة العرض في الجوهر. ولو عرفنا حقيقة الأمر؛ لعرفنا أن الأفعال كلها، للحقيقة المقومة للصور. لأن الأفعال والكيفيات كلها تابعة للوجود وقد ثبت أنه لا وجود إلا للحقيقة المقومة للصور. والصور عدم متخيل وجوده. غير أن الصور ظهرت لظهور الوجود الحق مثلبساً بها، إذ ظهوره بلا صورة متخيلة محال، لأنه لا صورة له. فظهرت به وظهر بها مع عدمها. ولا يقال في الصورة إنها عين ما قامت به، لأنها عدم. والمقوم لها وجود. ولا يكون العدم عين الوجود، ولا أنها غيره، لأن الغيرين عند المتكلمين أمران وجوديان، وليس إلا وجود واحد، لا قديم ولا حادث، وإذا قيل: إنها غير؛ فهي غيرية اعتبارية لا حقيقية. وكذا إن قيل: إنها عين؛ بمعنى أن الظاهر عين المظهر؛ فهو مجاز أيضاً، لأنها شؤونه في مرتبة التعيين الأول، فلا يقال: إنها عين ولا غير. وإن قيل: في مرتبة الظهور، إنها أحكام الاستعدادات، أعني الصور. وما يتبعها من الأحكام زيادة إيضاح، أن الأعيان الثابتة هي حقائق الممكنات في العلم، ولا وجود لها أزلاً وأبداً، وإنما لها الثبوت. ولو وجدت؛ لكان قلباً لحقيقتها، وقلب الحقائق محال. فكل ممكن، له حقيقة وماهية في العلم، وليست غير العلم، ولا العالم، لأن علمه عين ذاته، عند المحققين، فإذا أراد الحق - تعالى - أن يظهر بأحوال عين من الأعيان الثابتة، ويظهرها؛ توجه بإرادته وكلامه على تلك العين الثابتة، فكانت هذه الصورة المحسوسة، وهي معان اجتمعت فكانت منها صورة قائمة بنفسها في بادئ الرأي والتخيل، وهي نسبة بين الوجود الحق وبين عينها الثابتة التي كان التوجه إليها من الوجود الحق. والنسب



كلها أمور اعتبارية لا موجودة ولا معدومة، فوجودها إنما هو في اعتبار المعبر ما دام معبراً، وفي عقل المتعقل كسائر الأمور المصدرية، فهي مثل الصورة الظاهرة في المرآة والمتوجه على المرآة؛ ما ظهرت الصورة في المرآة، والصورة خيال لا حقيقة لها. وإنما نسبنا الوجود للصورة مجازاً. لكونها ما ظهرت إلا بتوجه المتوجه على المرآة، وهو الوجود. فالعالم كله، بما فيه الصور الحسية والخيالية والعقلية؛ ظلٌ لأعيانه الثابتة من جهة الصورة المقيّدة، وظلٌ للوجود الحق من جهة الوجود، وتوابع الوجود من الأفعال والإدراكات. ففاصر النظر الجاهل الذي لا يرى إلا الظل؛ يتوهم أن الأفعال الصادرة من ذي الظل، هي للظل فقط، حيث ما تعدى نظره إلى ذي الظل، وأما من يرى ذا الظل، حيث نفذ نظره من الظل إليه؛ فإنه يعلم الأمر على ما هو عليه، ويعرف أن ذا الظل هو الفاعل للأفعال كلها، والظل تابع له لا استقلال له بشيء أصلاً.

\* \* \*

### الموقف الرابع والستون

قال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ ﴿٤٩﴾ [القمر: الآية ٤٩].

قري، بالرفع في غير المشهورة، وهي قراءة أبي السماك. اعلم: أنه ليس للحق - تعالى - ذات، ولمخلوقاته ذوات مستقلة قائمة بأنفسها لم يحددها أبداً، وإنما ذات الحق - تعالى - هي عين ذوات المخلوقات من غير تعدد ولا تجزئة لذاته تعالى. وذوات المخلوقات؛ هي عين ذات الحق - تعالى - لا على أن للحق ذاتاً وللمخلوقات ذوات. ثم اتحدت ذوات الحق بهم أو امتزجت أو حلت فيهم، فإن هذا محال، وليس بمراد، بل بمعنى أن ذاته - تعالى - التي هي وجوده المقوم للمخلوقات، القائم عليها؛ هي عين ذوات المخلوقات أي هي، أي ذوات المخلوقات عبارة عن ظهور الوجود الحق متلبساً بأحكام استعدادات المخلوقات أي أعيانها الثابتة في العلم والعدم أولاً وأبداً، وهي نسب الوجود الحق واعتبارات وإضافات. ولا عين لها في الوجود الحق. ولكن لما كان الشأن أنه لا حكم إلا لباطن في ظاهر، ولا أثر إلا لغيب في شهادة؛ حكمت أحكام الاستعدادات الثابتة علماً، المعدومة عيناً، على الوجود الحق، الظاهر بأحكامها، وصارت الأحكام والأوصاف لها فيه مع عدميتها، فذاته - تعالى - وجود حق قديم قائم بنفسه. وذوات المخلوقات كلها هي الوجود الحق، الظاهر بأحوال أعيانها الثابتة الحادثة



الظهور القديمة بالعلم، والظاهر بها الذي قامت به الوجود الحق القديم فهو - تعالى - ذاتنا من حيث ظهور صفات أعياننا، وأحوالنا به حاكمة عليه في الانصاف بها، ونحن ذاته من حيث ظهوره بنا، فهو ظاهر بنا وإن كنا عدماً، وذات الشيء؛ ما به ظهوره، ولا يقدح فيما ذكرنا، التعبير «بنحن» وهو «لأن ضرورة التفهيم؛ أحوجت إلى ذلك، فليس إلا ذات وحقيقة واحدة، إذا ظهرت بالتأثير والفعل وصفات الكمال؛ كانت إلهاً، وإذا ظهرت بالانفعال والتأثر وصفات النقص؛ كانت خلقاً وعبداً، والعين واحدة، وكذلك الصفات، ليس للمخلوقات صفات مغايرة لصفات الحق - تعالى - فصفاته المطلقة المتعلقة بكل ما يصح تعلقها به؛ هي عين صفاتنا المقيدة التي تتعلق ببعض ما يصح تعلقها به دون بعض. وصفاتنا المقيدة؛ هي عين صفاته المطلقة. فقدرته المطلقة؛ تتعلق بكل ممكن، وقدرته المقيدة بنا؛ تتعلق ببعض الممكنات دون بعض. وعلمه المطلق؛ يتعلق بكل واجب ومستحيل وجائز. وعلمه المقيد بنا، يتعلق ببعض الممكنات دون بعض. وعلمه المطلق؛ يتعلق بكل واجب ومستحيل وجائز. وعلمه المقيد بنا، المنسوب إلينا؛ يتعلق ببعض المعلومات دون بعض. فمن حيث الإطلاق؛ هي صفات الحق - تعالى - ومن حيث التقييد؛ هي صفات الخلق، وهي هي في الحاليتين والنسبتين وإنما تميّزت بالإطلاق والتقييد. والمطلق عين المقيد في الخارج، وإن كان غيره في الاعتبار والتعقل والتقييد والحدوث، إنما حصلنا للصفات بإضافتها إلى الخلق، وكذا أفعال المخلوقات هي أفعاله - تعالى - وأفعاله أفعال مخلوقاته، ولذا ورد في الكتاب والسنة، نسبة الأفعال إلى الحق تارة، ونسبتها إلى المخلوقات تارة، ونسبتها إلى الحق - تعالى - بالخلق تارة، وإلى الخلق بالحق تارة، فافهم. واحذر أيها الواقف على هذا، ترمينا بحلول أو اتحاد، أو زندقة، أو إلحاد، فنحن بريئون من فهمك الأعوج، وعقلك الأهوج.

\* \* \*

### الموقف الخامس والستون

قال تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: الآية ٢٨٦].

قد طوّل المتكلمون من علماء الرسوم، الحديث في الثواب والعقاب، من حيث أن فعل العبد بقضاء الله وقدره وإرادته وسبق علمه، فما للعبد حيلة في التحول عن مراد الله - تعالى - فيكون العقاب ظلماً على وهمهم، حتى أدى النظر في هذا إلى

الاختلاف والتشعب بين المسلمين، فقالت طائفة: الخير فعل الله، والشر فعل العبد. وقالت أخرى: العبد يخلق أفعاله الاختيارية، فجعلت لله - تعالى - شركاء لا يحصون عددًا. وقالت طائفة: بالكسب، ولم يفهم أحد حقيقته على اليقين، حين ضرب به المثل في الخفاء، وهو في الحقيقة اسم بلا مسمى، ولفظ بلا معنى، وقالت طائفة: بالجزء الاختياري، وهو كالذي قبله. فإن محصل كلام القائل به؛ يرجع إلى أنه معنى اعتباري، لا وجود له؛ إلا في اعتبار المعبر، ما دام معتبرًا. وكيف يكون ما لا وجود له في الخارج، علّة للموجود في الخارج عندهم وعلى مذهبهم؟! إلى غير ذلك من المقالات المذكورة في كتب علماء الكلام، ولو كشف الله - تعالى - الغطاء عن بصائرهم؛ لعلموا: أن الثواب فضله ورحمته، لأن الرحمة بها الإيجاد والإمداد والثواب. وأما العقاب والجزاء على سيء أفعالنا؛ فإنما جاء من قبلنا فإننا لما كنا عند أنفسنا موجودين، بعد أن كنا معدومين؛ تخيلنا أن لنا وجودًا حادًا مستقلًا مبيّنًا للوجود الحق - تعالى - وتوهمنا أن لنا صفات مبيّنة لصفات الوجود الحق، من قدرة وإرادة، وعلم واختيار، وأنا تفعل إذا أردنا، ونترك إذا أردنا، فعاملنا الحق - تعالى - حسب تخيلنا، وخاطبنا بذلك في كلامه، وبألسنة رسله، فقال: افعلوا واتركوا، وهو يعلم: أنه لا فعل لنا ولا ترك. وأنه الفاعل - تعالى - وحده، ورثب - تعالى - الثواب والعقاب على وهمنا هذا، والثواب منة منه - تعالى - وفضل، فما جاءنا الشر؛ إلا من قبلنا، ولا حملنا ما حملنا إلا بجهلنا، قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ﴾ [الأحزاب: الآية ٧٢] الآية.

يعني تعالى: أنه عرضها عليهن عرضًا لا إلزامًا، فأبين وخفن من حملها، لأنها عارفة بالله - تعالى - فطرة وما طرأ عليها حجاب، وعرفت أن حمل الأمانة؛ يستلزم الحجاب الذي هو سبب المخالفة، ودعوى الاستقلال بالوجود والفعل والاختيار، وإن كان حمل الأمانة على الكمال والتمام؛ يقضي بحاملها إلى شرف ما يبلغه سواء من المخلوقات، فاختارت هي السلامة كما قيل:

وقائلة ما لي أراك مسجانبًا      أمورًا وفيها لتتجارة مريح  
فقلت لها ما لي بربحك حاجة      ونحن أناس بالسلامة نفرح

وحملها الإنسان، لأنه كان - أي وجد - ظلمًا، حيث إنه وضع الشيء في غير محله بدعواه الوجود لنفسه، مع توابع الوجود من قدرة، وإرادة وفعل، واختيار. . . جهولاً بنفسه، أي حقيقته التي بها هو هو، فإنه ما عرفها ولو عرف نفسه لعرف ربه.

ولو عرف ربّه من غير أن يطرأ عليه حجاب، كما عرفته السموات والأرض؛ ما حصل عليه ضرر ولا لحقه عذاب ولا ألم. فلو فرضنا مستحيلاً، وأنه لم يكن في نوع الإنسان؛ إلا عارف بالحقيقة وبما هو الأمر عليه، ما جاء للإنسان تعب ولا مشقة، ولا كانت منه مخالفة أمر ولا نهى، ولا يقال: إن في نوع الإنسان عارفين بالحقيقة، فلم كان ما كان؟ لأننا نقول المقصود والمراد، بهذا العموم. وأما الفرد النادر فلا حكم له ولا اعتبار.

\* \* \*

### الموقف السادس والستون

قال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: الآية ٤٤].

«شيء» أنكر النكرات، وكلُّ مسبح فهو عالم ناطق، بنطقه مدرك، وعلى هذا فكلُّ ما يطلق عليه اسم موجود، في أي مرتبة من مراتب الوجود كان. سواء كان وجوداً عينياً خارجياً أو ذهنياً خيالياً، أو وجوداً لفظياً أو وجوداً خطياً، وجميع المحسوسات والمعاني... فإنه يوصف بجميع الأوصاف من حياة، وعلم، وقدرة، وإرادة وسمع، وبصر، وكلام... وغير ذلك. لأن هذه الأوصاف والأحوال، تابعة للوجود، فحيثما كان الوجود، كانت هذه الأوصاف لازمة له، لأنه ما صحَّ شيء من الأشياء الاتصاف بالوجود؛ إلا بعد اقتران الوجود العام المفاض على الممكنات، بأحوال ذلك الشيء وانصباغها بالوجود. فوجود كل شيء - أي شيء كان - هو تعين الحق - تعالى - الذي هو الوجود، وظهوره بأحوال ذلك الشيء وصفاته. قال تعالى: ﴿أَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ [البقرة: الآية ١٥٣]، وقال: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: الآية ٥].

أي لا تستعينوا إلا بي. فدلَّ على أنه هو الوجود الحق، وهو الصبر والصلاة، ولكن ظهور آثار صفات الوجود الذي انصفت به الموجودات ونسبت إليه؛ متباين متفاوت، بحسب استعدادات الموجودات وقبولها، لظهور آثار الصفات عنها، فإنه ليس قبول الجماد وهو استعداده كقبول النبات. ولا قبول النبات كقبول الحيوان. ولا قبول الحيوان كقبول الإنسان. ولذا قال إمامنا وشيخنا محيي الدين: «الحروف أمة من الأمم، مخاطبة مكلفة. ولا يكلف إلا من يدرك، ولا يدرك إلا من يعقل ويسمع ويعلم ويتكلم» وقد حصلت لنا حكايات في هذا الباب مع الجمادات.

\* \* \*

## الموقف السابع والستون

قال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ﴾ [يونس: الآية ٦٢] الآية.

جمهور المحققين من أهل الله - تعالى - على أن الولاية مكتسبة، والاكْتِسَابُ افتعال، وهو طلب الشيء بقوة واجتهاد. وعليه فالعمل لأجل تحصيل الولاية، التي معناها القرب من الله - تعالى - برفع الحجب، وإخلاص العبودية إليه، وصدق التوكل عليه، والانحياش، وظاهرًا وباطنًا إليه؛ ليس بعلة قاذحة في العبادة. وفي قوله تعالى: «لا يزال العبد يتقرب إليَّ بالنوافل» الحديث؛ إيماء إلى ما ذكرنا. فإن المتقرب يفعل، أي يطلب القرب، ومن المعلوم ضرورة أن الإخلاص في الأعمال واجب، بإجماع. وأجمع أهل الله - تعالى - أنه لا يصح الإخلاص لأحد إلا بعد موت النفس، وأجمعوا على أن موت النفس لا يكون إلا بعد معرفة حقيقتها التي هي شرط في معرفة ربها، فمن البعيد أن يكون هذا القصد والطلب علة قاذحة في العبادة، لأن ما لا يتوصل إلى الواجب، إلا به؛ فهو واجب. وأما إذا قصد بالعمل الولاية التي معناها ظهور الخوارق والكرامات وانتشار الصيت وإقبال الخلق؛ فهذا لا يشك أحد أنه علة، بل شرك. وعليه يحمل قول من قال: «لا يصل أحد إلى الله، ما دام يشتهي الوصول إليه» وعندني على ما ألقاه الحق - تعالى - إليّ: أن بداية الولاية بمعنى التوفيق لطلبها، موهبة. لأنها حال. والأحوال مواهب، ووسطها اكتساب، لأنه جد واجتهاد، وارتكاب أهواك، ورياضات ومجاهدات، وآخرها - ولا آخر - ونهايتها - ولا نهاية - مواهب. والقرب من الحق - تعالى - قرب معنوي. وليس ذلك؛ إلا برفع حجاب الجهل، وإلا فالحق أقرب إلينا من حبل الوريد، فما بعدنا إلا الجهل. ولا قربنا إلا العلم، وقوله تعالى: «فإذا أحببته كنت سمعه» الحديث. أي أزلت عنه حجاب الجهل، فعرف الأمر على ما هو عليه، وهو ما بيته في آخر الحديث، لا أنه حدث شيء لم يكن. وإنما المراد أنه رفع الحجاب عن المتقرب بالنوافل، أي الطالب القرب من الله - تعالى - فكان ما كان، وهذه المرتبة أول مراتب الولاية.

\* \* \*

## الموقف الثامن والستون

قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ارْقُبْنَا أَنْظِرْ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: الآية ١٤٣] الآية.

قد أكثر الناس الكلام في هذه الآية، من علماء الرسوم والعارفين، أهل الوجود والشهود. والذي ورد به وارد الحق - تعالى - عليّ: أن موسى - عليه السلام - رأى علو مقامه عند ربه، بسماع كلامه وغير ذلك، فحمله ذلك على طلب رؤية خاصة، وهي رؤية تضحل فيها الحجب، إلا حجاباً لا تتصور رؤية الحق بدونه، مع بقاءه - عليه الصلاة والسلام - عند حصول هذه الرؤية على حالته وصحة بنيته، وموسى - عليه السلام - وكل عارف؛ يعلم أن رؤية الحق - تعالى - تلزمها الحجب، إما كثيرة، وإما قليلة، وإما لطيفة، وإما كثيفة. ومن المحال رؤية الحق - تعالى - بلا حجاب، لا في الدنيا ولا في الآخرة. ولكن الرائيين متفاوتون في كثرة الحجب وقتلتها، وكثافتها ولطافتها، فالعقل الأول يرى الحق من وراء حجاب واحد. والنفس الكليّة تراه من خلف حجابين وهكذا. وما رؤية محمد - ﷺ - كرؤية غيره من الأنبياء. ولا رؤية بعض الأنبياء، كرؤية باقيهم، فإنه - تعالى - أخبر أنه رفع بعضهم فوق بعض درجات. وليس ذلك إلا بزيادة العلم به. ولا رؤية الأولياء كرؤية الأنبياء. ولا رؤية بعض الأولياء كرؤية البعض الآخرين، فإن كل راء للحق - تعالى - إنما تكون رؤيته بحسب استعداده، والاستعدادات متباينة متفاوتة، فلا يشبه استعداد استعداداً، وهذا هو الواسع العظيم.

وانظر قصة المرید الذي قيل له: هلا ذهبت تنظر أبا يزيد؟ فقال: لا حاجة لي أن أنظر أبا يزيد، فإني أنظر الحق - تعالى - . ثم اتفق ذهاب هذا المرید إلى أبي يزيد، فلما وقع بصر المرید على أبي يزيد؛ خرّ ميتاً!! فقال أبو يزيد: كان هذا المرید صادقاً في رؤيته الحق - تعالى - ولكن كان يراه على حسب استعداده. فلما وقع بصره عليّ؛ رأى الحق - تعالى - بحسب استعدادي، وبما هو متجلّ به عليّ، فلم يقدر، فمات. فلما سأل من ربه ما سأل؛ أجابه الحق - تعالى - بأنه لا يقدر على الرؤية، حسب سؤاله، لا هو، ولا ما هو أقوى منه شدة، وأشد بنية، كالجبال التي هي صخر فتجلى الحق - تعالى - للجبل ولموسى، فما استقرّ الجبل، ولا ثبت موسى، فتدكدك الجبل، وخرّ موسى صعقاً جسماً وروحاً، وقد ورد في الصحيح عنه - ﷺ - أنه قال: «إن الناس يصعقون يوم القيامة، فأكون أول من يفيق، فإذا أنا بموسى أخذ بقائمة من قوائم العرش، فلا أدري أصعق فأفاق قبلي؟ أم جُوزي بصعقة الطور؟»<sup>(١)</sup>.

(١) رواه البخاري، كتاب الرقاق، باب نفخ الصور، حديث رقم (٦٥١٨).

وصعق القيامة للأرواح، وإنما كان ذلك للجبل والصعق لموسى، لأن استعدادهما لا يقوى على هذه الرؤية المخصوصة التي سألتها موسى - ﷺ - فقوله:

﴿لَنْ تَرِنِّي﴾ [الأعراف: الآية ١٤٣].

بمعنى لا تطيق رؤيتي على الحالة التي سألتها من قلة الحجب ولطافتها وبقائك على حالتك من غير تغيير. فالمنفي هو الرؤية المقيّدة المخصوصة بما ذكر، وأما الرؤية فهي ثابتة حاصلة له - عليه السلام - ولولا حصول الرؤية له؛ ما خرَّ صعقًا، فسؤاله مقبول من جهة حصول الرؤية، وغير مقبول من جهة حصول الصعقة وفساد البنية، وتغيير النظام. وما أمر الحق - تعالى - موسى - عليه السلام - بالنظر إلى الجبل إلا تسليية وإعلامًا بالمعانية. إن عدم الثبات، واضمحلال التركيب، عند هذا التجلي المخصوص ليس خاصًا به، بل هو له، ولمن هو أشد وأقوى بنية، ومن زعم أن موسى - عليه السلام - لم ير الحق - تعالى - وأن الجبل رآه، إذ لا يمكنه إنكار رؤية الجبل له - تعالى - لأن الآية نص في إثباتها للجبل، فقد جعل الجبل أكرم على الله - تعالى - من موسى، وكفى بهذا جهلاً.

وتوبة من موسى - عليه السلام - إنما كانت من سؤاله ما لم يؤذن له فيه، ولا يقوى عليه، ومقامه السامي يقضي أن هذا سوء أدب مع الحق - تعالى - وحسنات الأبرار سيئات المقربين، وإيمانه إنما كان بأنه لا يرقى أحد فوق استعداده في رؤية الحق - تعالى - وأولئته في هذا الإيمان بالنسبة إلى ملته، وأهل شريعته، الذين هو رسولهم.

\* \* \*

### الموقف التاسع والستون

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾ [الحجرات: الآية ١٥] الآية.

ورد الوارد أيام السلوك بهذه الآيات، فعلمت أن المراد من هذا الإلقاء، الحث على المجاهدة والرياضة، فإنه حصر الإيمان «بانما» في المجاهد بماله ونفسه. والمراد من طريق الاعتبار؛ الجهاد الأكبر الذي قال فيه - عليه الصلاة والسلام - لأصحابه الكرام: (رجعتم من الجهاد الأصغر، إلى الجهاد الأكبر)<sup>(١)</sup>.

(١) العجلوني، كشف الخفاء، حديث رقم (١٣٦٠).



أي ابدلوا جهدكم وطاقتكم في طلب معرفته - تعالى - والوصول إليه، مستعينين على ذلك بأموالكم، أي ببذل ما زاد على حاجتكم من أموالكم، في وجوه البرِّ وأنواع الخيرات. لأن السالك إذا كان له مال زائد على ضروراته تعين عليه إخراجه في وجوهه، ولا تغنيه مجاهدة نفسه بغير إخراج المال الزائد في أنواع المجاهدات والرياضات.

قيل لذي النون - رضي الله عنه -: «إِنَّ فَلَآنًا لَهُ مَالٌ كَثِيرٌ، وَلَا يَخْرُجُ مِنْهُ شَيْئًا فِي وَجْهِ الْبِرِّ، وَهُوَ يَصُومُ النَّهَارَ، وَيَقُومُ اللَّيْلَ».

فقال: مسكين، ترك حاله ودخل في حال غيره».

يريد أن السالك إلى الله، أوّل حالاته أن يقول بفاضل ماله هكذا وهكذا في عباد الله - تعالى -.

و«أنفسهم» أي جاهدوا مستعينين بأنفسهم، فإن النفس مطيئة السالك في سيره إلى الله - تعالى - ونعمت المطيئة لمن وفقه الله وهداه رشفه في سبيل الله، أي في طريق الوصول إلى الله - تعالى - ومعرفته. ولولا وجود النفس ما سار سائر إلى حضرة الحقِّ ولا وصل إليها. فهي الحجاب على العبد، وهي موصلة إلى ربِّه، ووسيلته إليه، وأولئك هم الصادقون في محبة الله ومحبة الوصول إلى حضرة قربه، فإذا ظهرت على مدعي محبته - تعالى - والسلوك إليه، علامة الصدق، وهي بذل ماله ونفسه؛ تحقق صدقه في دعواه محبته - تعالى - ومن ادعى ذلك بلسانه، ولم تظهر عليه العلامة؛ فهو إما كذاب، وإما دنيء الهمة، ضعيف العزيمة. وإنما قدّم الجهاد بالمال على الجهاد بالأنفس؛ لأن الإنسان - في الغالب - قد يجود بجهاد نفسه بالصيام والقيام وأنواع الرياضات والمجاهدات، ولا يقدر أن يجود بماله، لما جبل عليه الإنسان من الشحِّ، إذ الشحُّ صفة نفسية للإنسان.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُوقِ شَحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الخشر: الآية

[٩].

وذلك لأن وجوده الذي هو به؛ هو مستعار من غيره، وهو الحق - تعالى - فهو أبداً يحبُّ أن يأخذ ولا يعطي. ﴿أَتَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ بِدَيْعِكُمْ﴾ [الحجرات: الآية ١٦].

الهمزة للاستفهام الإنكاري، ومعناه النهي. والدين من معانيه الجزاء كما في:

﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة: الآية ٤].

فيجب على السالك أن لا يطلب جزاء على سلوكه وأعماله، وإن طلب فإنما يكون طلبه على وجه الذلّة وإظهار الحاجة والافتقار مع تفويض الأمر إليه - تعالى - فيما يريد ويختار، فإن مطلوب الحقّ من عباده؛ ترك الاختيار معه. فأحرى من السالكين كما قيل على طريق الترجمة:

مرادي منك نسيان المراد إذا رمت السبيل إلى الرشاد

فربما طلب السالك شيئاً يراه خيراً له، من غير تفويض؛ فكان فيه هلاكه وشره، فكأنه - تعالى - يقول للسالكين: لا تعلموني بجزائكم، ولا تخبروني بحاجتكم وحالككم؛ فإني عليم بما في السموات والأرض، أعلم كلّ مخلوق وما يصلحه، وما يطلبه لسان استعداده، وما تقتضيه الحكمة في حقه، بحيث لو اطّلع كل سائل عليها لكان راضياً بما أعطيته من خير وشرّ، ونفع وضرر. ولو اطّلع على باطن الحقيقة، والأمر قبل السؤال؛ ما سأل إلا ما أعطاه الحقّ كائناً ما كان، بل لا يعطي الحقّ مخلوقاً شيئاً خيراً أو شراً إلا وهو سائل لذلك بلسان استعداده. وإن خالف لسان نطقه لسان استعداده؛ فإنه قد يكون السائل مستعداً للسؤال باللسان النطقي، ولسان استعداده يسأل ضده.

\* \* \*

### الموقف السبعون

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَءَامَنُوا﴾ [الأعراف: الآية ١٥٣].

ورد الوارد بهذه الآية بعد التي قبلها؛ فعلمت من هذا الإلقاء بشارة الحق - تعالى - للسالكين إذا صدر منهم شيء ممّا نهوا عنه من طلبهم الجزاء وتعيينه، والتحكّم على الحق - تعالى - وعدم تفويض الخيرة إليه، ثم تابوا إلى الله، ورجعوا إليه بما أمرهم من ترك طلب الجزاء، وعدم التحكّم عليه. لأن النهي عن الشيء؛ أمر بضده، على خلاف عند الأصوليين. وآمنوا، أي صدّقوا بأن الله يغفر لهم ما وقع منهم، بحسب وعده الصادق، ورحمته الواسعة، وهذا إيمان خاصّ، ما هو الإيمان الذي يعصم الدماء والأموال، فإنّ ذلك شرط في صحة الأعمال كلها، ومتقدم عليها.

\* \* \*

### الموقف الواحد والسبعون

قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقْتُلُونَكُمْ﴾ [البقرة: الآية ١٩٠].

ورد الوارد بهذه الآية، بعد التي قبلها، فعلمت أن الأمر بجهاد النفس وقتالها؛ هو على وجه مخصوص، وحدٌ محدود، ووقت معين، وهو أن لا يكون إلا في سبيل الله، أي لأجل معرفة الله وإدخال النفس تحت الأوامر الإلهية، والاطمئنان والإذعان لأحكام الربوبية، لا لشيء آخر من غير سبيل الله، كمن يجاهد نفسه بالرياضات الشاقة لأجل طلب جاه عند الملوك، أو لصرف وجوه العامة إليه، أو حصول غنى، أو نحو ذلك من الحظوظ النفسية. وقوله:

﴿الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكَ﴾ [البقرة: الآية ١٩٠].

أي: قاتلوا النفوس التي ما اطمأنت ولا أذعنت، ولا سكنت تحت الأوامر الإلهية، ما دامت على حالتها من عدم الإذعان وإظهار العصيان. فإذا تركت العصيان وألقت السلاح، وصارت تبادر لامتنال الأمر والنهي؛ فتركوها. ولا يجوز - حينئذ - جهادها. كالكافر الحربي إذا أذعن لأداء الجزية؛ يحرم قتاله بعد ذلك. كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة: الآية ٢٩].

وقال تعالى: ﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ [التوبة: الآية ٥].

ولهذا ترى العارفين - رضوان الله عليهم - لما اطمأنت نفوسهم، وسكنت تحت الأمر والنهي، وأذعنت لأداء ما عليها من حق الحق والخلق؛ تركوها من غير جهاد، ووضعوا عنها أصرها والأغلال التي كانوا يحملونها إياها، في وقت جهادهم وبيدائتهم، حتى قال سيد الطائفة الجنيد: «من رأني في بدايتي قال صديق، ومن رأني في نهايتي، قال زنديق».

وصاروا أول خير وإحسان يفعلونه؛ مع أنفسهم، فإنها أقرب إليهم. والأقربون أولى بالمعروف، ثم يتعدون بالإحسان إلى الأقرب فالأقرب. ابدأ بنفسك ثم بمن تعمل، كما هي سيرة كُمل البشر، وهم الرسل والأنبياء - عليهم السلام - وقوله: «ولا تعتدوا» نهى عن قتال النفس على غير الحد المشروع، وعن التجاوز والتفاني في ذلك، كمن يجاهد نفسه بالرهانية، وبأمر نهى الشارع عنها. وفي الخبر: «لا رهانية في الإسلام»<sup>(١)</sup> و«فمن رغب عن سنتي فليس مني»<sup>(٢)</sup>.

(١) العجلوني، كشف الخفاء، حديث رقم (٣١٥٣).

(٢) رواه البخاري: كتاب النكاح، باب الترغيب في النكاح، حديث رقم (٥٠٦٣). ورواه مسلم: كتاب النكاح، باب استحباب النكاح، حديث رقم (١٤٠١).

وكما يفعل بعض المشايخ الجهال بالطريقة والشريعة، يأمرون المرید بالصيام، فإذا كان قرب الغروب؛ أمروه بالفطر حتى لا يكون له حظٌّ في الأكل ولا في الأجر، ففي اتباع السنَّة قولاً وعملاً وحالاً؛ أعظم جهاد للنفس، فلا أشقَّ على النفس وأتعب لها من امتثال الأوامر ظاهرًا وباطنًا، واجتناب النواهي كذلك. ومخالفتها عند طلب الشهوات غير الضرورية.

\* \* \*

## الموقف الثاني والسبعون

قال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّكُمْ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطُونَ﴾ [أُفْضِلْتُ: الآية ٥٤]، وقال: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: الآية ٢٩].

اعلم أن الإحاطة تقتضي تحديد المحاط به من جميع وجوهه وجهاته، والعلم؛ هو إدراك المعلوم على ما هو عليه. فلذا نقول: الحق - تعالى - يعلم ذاته ولا يحيط بها، لأن ذاته - تعالى - غير متناهية، فلو قلنا، إنه يحيط بها؛ لانقلب العلم جهلاً، تعالى الحق عن ذلك. لأنه - حينئذٍ - تعلّق بها، على خلاف ما هي عليه من عدم التناهي. ولا نقص في قولنا: «يعلم ذاته ولا يحيط بها».

بل هو الكمال. فالجهل على الحق - تعالى - محال، لأن الجهل إدراك الشيء على غير ما هي عليه حقيقة ذلك الشيء، وإحاطته بالذات العلية محال، لأن الإحاطة تستلزم التناهي، والتناهي على الحق - تعالى - محال. لا يقال التناهي وعدم التناهي مشعر بإمكان التبعض والتجزئة وذات الحق - تعالى - واحد من كل وجه وحدة حقيقية ليس في مقابلة كثرة لأننا نقول: المراد بعدم التناهي في حق الذات، الوجود الحق؛ عدم تناهي ظهوره بالمظاهر، وتعيينه بالأسماء والصور، التي هي آثار الأسماء، أو هي الأسماء عينها. والظهور والتعيين؛ ممكن من حيث هو. والممكنات التي هي متعلقات العلم والقدرة؛ لا نهاية لها، بإجماع المتكلمين والحكماء وأهل الله - تعالى - . فلو تناهى ظهور الذات، بظهور الأسماء والصفات، بظهور آثارها في الممكنات؛ لتناهت الممكنات، المعلومات المقدورات، وهو محال. ولذا يقال: ذات الحق - تعالى - قابل للوجود والإمكان. فالوجود ثابت للذات، الوجود الحق، من حيث هو. والإمكان؛ من حيث الظهور، والتعيين بالممكنات. وما ذكرناه من عدم إحاطة العلم بالذات، الوجود الحق، المراد به العلم الذي هو شأن من شؤون الذات، ونسبة من نسبتها وصورته ومظهره العقل الأول، وهو الذي يعبر عنه القوم - رضي الله عنهم -

بظاهر العلم، وهو المكنى عنه بقاب قوسين، وهو غاية معراج الرسل غير محمد - ﷺ - وعليهم -، فإن غاية معراجه أو أدنى «فا» وبمعنى «الواو» لأن تعلق هذا العلم، بما تعلق به؛ هو عين وجود المعلوم في الخارج، فلا يتعلق بما لا يتناهى، لأن كل موجود في الخارج متناه. وأما العلم الذاتي الذي هو عين الذات من كل وجه؛ فهو محيط بالذات، لأنه عينها، مع عدم تناهيها. بل لا يقال في الشيء: إنه محيط بنفسه ولا غير محيط. قيل لي ليلة بالمسجد الحرام: الحق - تعالى - ما عرف؛ إلا لكونه عين الضدين. قلت: نعم، هو كذلك. فقيل لي: وكذا هو محيط بذاته مع عدم تناهيها، على ما يليق به. وما عرف الله إلا الله، وهذه المسألة كثر الخوض فيها، وحارت فيها أهل العقول، وأهل الكشف، وبما ذكرنا يحصل الجمع بين قول إمام الحرمين: بالاسترسال الذي أنكره عليه أهل زمانه كافة، وبين قول الفخر الرازي، بحدوث التعلقات لو كان المثكلمون يقولون بالعلم، الذي هو عين الذات، من كل وجه، وهو غيب، وبالعلم الذي هو ظاهر هذا الغيب، وهو عين الموجودات الخارجية، وبه تعينت وفيه ومنه.

\* \* \*

### الموقف الثالث والسبعون

قال - عليه الصلاة والسلام - : «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر».

أخرجه البيهقي، وفي رواية: «رجعتم» خطابًا لأصحابه الكرام - رضوان الله عليهم - وفي رواية: «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الغزوة الكبرى».

يريد - ﷺ - بالجهاد الأصغر؛ جهاد الكفار بالأبيض والأسمر. وبالجهاد الأكبر؛ جهاد النفس بالتركية والتخلية والتحلية، وإنما سُمي - عليه السلام - جهاد الكفار بالأصغر، مع أن فيه إهلاك النفس، وتفويت الحياة الحاضرة رأسًا، إذ الغالب على من انغمس في العدو، ورمى نفسه بينهم؛ الموت، إلا القليل النادر، ولذا ما عرف بالشجاعة وذكر بالإقدام - مع كثرة المقاتلين - إلا القليل - . وإنما سُمي - عليه الصلاة والسلام - جهاد النفس بالأكبر، مع أن الغالب فيه عدم تفويت الحياة الحاضرة بالموت، وإنما فيه تفويت راحة وشهوات، وتهذيب أخلاق، وتبديل أحوال ذميمة، بأخلاق جميلة.

فإنما أن يكون ذلك، لكون جهاد العدو الكافر؛ لا يكون خالصًا مخلصًا من الشوائب المفسدة والحفظ المبعدة؛ إلا بجهاد النفس وتهذيبها وتركيبتها. وإلا فلا

يخلص جهاد المجاهد، بل ولا عمل من الأعمال الصالحة ما دامت النفس حيّة متلطخة بالخبائث، فجهاد النفس أكبر، لكونه شرطاً في صحة جهاد العدو الأكبر. والشرط مقدّم، فهو أكبر من المشروط، لأن قبوله وصحته بوجوده مربوط.

وإنّما أن يكون - عليه الصلاة والسلام - سُمّي جهاد العدو الكافر أصغر، باعتبار مقتحميه الخائضين فيه. فإنه ليس كل من قاتل؛ مجاهداً حقيقة. لأن مصابرة العدو؛ تكون من البرّ والفاجر، بل ومن المنافق والكافر، وانظر جوابه - عليه الصلاة والسلام - للذي قال له: «يا رسول الله!! الرجل يقاتل حمية، والرجل يقاتل ليرى مكانه، والرجل يقاتل ليذكر...»<sup>(١)</sup> الحديث. وهو في صحيح البخاري، فأجاب - عليه الصلاة والسلام - بأن من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا؛ فهو في سبيل الله. فهؤلاء أصناف تلبسوا بالجهاد ظاهراً. وليس المجاهد حقيقة إلا واحداً. فما كل مقاتل للعدو الكافر سعيد، ولا كل مقتول فيه شهيد. وقضية قرمان<sup>(٢)</sup> الواردة في الصحيح؛ أكبر دليل. وأما جهاد النفس الذي سُمّي - ﷺ - أكبر؛ فهو جهاد مخصوص، بقوم مخصوصين، اهدتوا بأنوار الهداية، وسبقت لهم من الحق العناية، فلا يمرض غمرات هذا الجهاد إلا موفق سعيد، يمشي على الأرض حياً وهو شهيد. ففي الحديث إشارة إلى أن جهاد الكفار؛ لا يميز المقتول عند الله - تعالى -، المرضي، من المغضوب عليه الشقي، بخلاف الجهاد الأكبر، فإنه عنوان السعادة، والسبب في حصول الحسنى والزيادة. فلا يتلبس به إلا مؤمن تقي، وصديق صفي، فهو لهذا أكبر.

وإنّما أنه - عليه الصلاة والسلام - سُمّي جهاد الكفار أصغر، لكون جهاد الكفار وقتلهم؛ ليس مقصوداً للشارع بالذات. إذ ليس المقصود من الجهاد إهلاك مخلوقات الله وإعدامهم، وهدم بنيان الرب - تعالى -، وتخريب بلاده. فإنه ضد الحكمة الإلهية. فإن الحق - تعالى - ما خلق شيئاً في السموات والأرض وفي ما بينهما عبثاً. وما خلق الجن والإنس إلا لعبادته، وهم عابدون له، عرف ذلك من عرفه، وجهله من جهله، وإنّما مقصود الشارع؛ دفع شر الكفار وقطع أذاهم عن المسلمين. لأن

(١) رواه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، حديث رقم (٢٨١٠). ورواه مسلم: كتاب الإمارة، باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، حديث رقم (١٩٠٤).

(٢) قال النبي ﷺ: «رأيت قرمان متلفعاً في خميلة من النار - يريد أسود غل يوم خيبر». (رواه ابن أبي عاصم وأبو نعيم في المعرفة عن خالد بن مغيث رضي الله عنه. جامع الأحاديث والحراسيل [٤/٣٨٠]).



شوكة الكفار إذا قويت؛ أضرت بالمسلمين في دينهم ودنياهم، كما قال تعالى:

﴿وَلَوْلَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ هَلَكَتْ صَوَامِعُ﴾ [الحج: الآية ٤٠].

وقال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾ [البقرة: الآية ٢٥١].

وإهلاك المفضول للإبقاء على الفاضل؛ عين العدل والحكمة، كقطع العضو المتآكل، مع عصمته، للإبقاء على البدن كله. فلو فرض أنه لا يلحق المسلمين أذى من الكافرين، ما أبيض قتلهم، فضلاً عن التقرب به إلى الحق - تعالى -. ولذا لا يجوز قتالهم قبل الدعوة إلى الإسلام، ثم إلى الجزية. فإن أطاعوا بالجزية حرم قتالهم. وما ذلك إلا أن السلامة من شرهم وأذاهم صارت محققة. ولذا لا يجوز قتل النساء والصبيان الذين لم يبلغوا الحلم، ولا الرهبان، بخلاف جهاد النفس وتركيتها، فإنه مقصود لذاته. إذ في جهادها تركيتها، وفي تركيتها فلاحها ومعرفة ربها. والمعرفة هي المقصودة بالحب الإلهي في الإيجاد:

﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: الآية ٥٦].

قال ابن عباس: إلا ليعرفون، إذ العبادة فرع عن المعرفة. ولا ريب أن المقصود لذاته؛ أكبر من المقصود لغيره.

\*\*\*

### الموقف الرابع والسبعون

قلت للحق تعالى: لي القدم بالعلم، ولك الحدوث بالظهور والحس. فأنت القديم وأنا القديم. وأنت الحادث القديم وأنا الحادث القديم، فما الذي تميّزت به مني، وانفصلت به عني.

فقال لي: قدمك بي وحدوثي بك، فالقدم ووجوب الوجود؛ لي بالذات، ولك بالغير. والحدوث وجواز الوجود؛ لك بالذات، ولي بالغير. فلذا تميّزت مرتبتي بالربوبية، ومررتك بالعبودية، والمراتب حافظة المنازل، فلا يلتبس عال بسافل.

\*\*\*

### الموقف الخامس والسبعون

قال تعالى: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾﴾ [الرحمن: الآية ١٩، ٢٠].

[الآيات ١٩، ٢٠].

فالبحران الشريعة والحقيقة. والبرزخ بينهما العارف، فلا تبغي الشريعة على الحقيقة، ولا الحقيقة على الشريعة. فهو دائماً بين ضدين ومشاهدة نقيضين، ينفي ويثبت، وينفي عين ما أثبت، لا يستقرُّ به قرار، ولا تطمئن به دار، متحرِّك ساكن، راحل قاطن، فهو كطائر يطير من غصن إلى غصن، والذي طار إليه؛ هو الذي طار عنه.

يشاهد الشريعة بقوله تعالى:

﴿اعْمَلُوا فَسِرِّيَ اللَّهِ عَمَلِكُمْ﴾ [التوبة: الآية ١٠٥].

ويشاهد الحقيقة بقوله:

﴿لَا يَفْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا﴾ [البقرة: الآية ٢٦٤].

ويشاهد الشريعة بقوله:

﴿فَخَذُواهُمْ وَأَقْتَلُوهُمْ﴾ [النساء: الآية ٨٩].

ويشاهد الحقيقة بقوله:

﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ [الأنفال: الآية ١٧].

ويشاهد الشريعة بقوله:

﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: الآية ١٢٨].

ويشاهد الحقيقة بقوله:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ [الفتح: الآية ١٠].

ويشاهد عبوديته بقوله:

﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ [مریم: الآية ٩٣].

ويشاهد ربوبيته بقوله:

﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: الآية ٤٩].

في قراءة الرفع. فلذا العارف بين تارين: نار الشريعة، ونار الحقيقة، بل بين شقتي طاحون، كل واحدة تدفعه إلى الأخرى. فالشريعة تطالبه بالحقيقة وبالشريعة. والحقيقة تطالبه بالشريعة وبالحقيقة. وهذا هو الابتلاء الذي أشار إليه - ﷺ - بقوله: «أشد الناس بلائاً الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل»<sup>(١)</sup>.

\*\*\*

(١) أوردته المتقي الهندي في كنز العمال رقم (٣٢٥٣، ٣٢٥٥، ٦٧٨٣). والزبيدي في إتحاف السادة المتقين (١١٦/٥، ١٢١/٨، ٥٢٣/٩).

## الموقف السادس والسبعون

وَرَدَ وَارِدٌ غَيْبِيٌّ بِالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ بِسُؤَالِ، وَنَصِهِ: الْإِيمَانَ بِالْجَنَّةِ وَالْجَحِيمِ وَالْعَذَابِ الْحَسِيِّ، وَالنَّعِيمِ مِنْ ضَرُورِيَّاتِ الدِّينِ، الْمَعْرُوفَةَ عِنْدَ جَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ، فَمَنْ جَحَدَ ذَلِكَ؛ فَهُوَ كَافِرٌ بِإِجْمَاعٍ. وَمِنْ الْمَعْلُومِ الْبَيِّنِ، الْوَاضِحِ الْمَتَعِينِ؛ أَنَّ الْبِنِيَّةَ الْإِنْسَانِيَّةَ وَالنَّشْأَةَ الْآدَمِيَّةَ مَرْكَبَةٌ مِنْ: صُورَةٍ هِيَ عَظْمٌ وَلَحْمٌ وَحَوَاسٍ ظَاهِرَةٌ وَبَاطِنَةٌ وَأَعْضَاءٌ يَدَانِ، وَرِجْلَانِ، وَعَيْنَانِ، وَأُذُنَانِ، وَلِسَانِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ.

وروح حيوانية شهوانية سفلية، هي محل الشهوات والصفات البهيمية.

وروح قدسية علوية هي العالمة من هذه الصورة، وهي المدركة للخطاب، المقصود به وبالجواب.

فهل تقولون: المعذب هو الأعضاء والحواس؟! كيف والحق تعالى يقول: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السور: الآية ٢٤]، ويقول: ﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ﴾ [فصلت: الآية ٢٠].

والشاهد الصادق يكرم ولا يهان، فكيف يعذب بالنيران.

أم تقولون: المعذب هو الروح البهيمي الحيواني الشهواني. كيف؟! وهو غير مدرك، ولا عالم بالأوامر الشرعية، ولا مقصود بالخطاب؟! ولو كان مقصوداً بالتكليف لكانت الحيوانات العجم داخلة تحت هذه التكاليف التي نحن مكلفون بها. ولا قائل به من علماء المذاهب، إذ الروح الحيواني غاية مبلغه طلب الملائم للطبع، ولا خبر له بما وراء ذلك.

أم تقولون: المعذب هو الروح القدسي العلوي المخاطب المجاوب؟! كيف؟! والحق تعالى يقول: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾ [الحجر: الآية ٢٩]، ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الإسراء: الآية ٨٥].

فكيف يعذب روح الله، وأمر الله، مع هذه الإضافة المؤذنة بأعظم تشريف، وأكبر تكريم؟! أجبوا ماجورين، وأزبلوا حيرة المتحيرين.

فكان الجواب: أن جواب هذا السؤال؛ لا يجري به قلم، وإنما يكون من قلب إلى قلب، ومن فم إلى فم.

## الموقف السابع والسبعون

قال تعالى، حكاية عن يعقوب - عليه السلام - : ﴿يَبْتَغِي لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ﴾ [يوسف: الآية ٦٧] الآيات.

هكذا فليكن تعليم المعلمين وتأديب المؤدبين، أمرهم أولاً باستعمال الأسباب لميل الطبيعة إليها، وإيناس النفوس بها، ثم أمرهم بالتوكل حالة ملابسة السبب، وهذا هو الكمال وإنما عكس بعض مشايخ الصوفية اليوم، حيث إنهم يأمررون تلامذتهم بالتوكل. ثم إذا ثبت قدمهم في مقام التوكل؛ ردوهم إلى الأسباب، لأن أولئك قرييون من النور النبوي، والصفاء الفطري، فعلاجهم بهذا أقرب وأسهل وأسرع في الترقى من تقديم التوكل، فإنه يحتاج إلى تعب شديد، ومعالجة قوية.

والناس في هذا الأمر ثلاثة:

متسبب، صرف نظره مقصور على السبب وقوته وضعفه، فهو أعمى. ومتوكل صرف، معرض عن الأسباب ظاهراً وباطناً، وهو صاحب حال لا يقتدى به، ولا يحتج عليه.

ومتسبب بظاهره، متوكل بباطنه، يده في السبب، وقلبه متعلق بخالق السبب، ظاهر لظاهر، وباطن لباطن، وهذا هو الكامل الناظر بعينين.

واعلم أن الأسباب كلها حجب وأستار دون وجه الحق، وهو الفاعل من خلف أستارها، ما يظن العميان أنه أثر للأسباب وناشيء عنها. وسواء في ذلك الأسباب العادية أو العقلية، أو الشرعية، من الأوامر والنواهي. لأن معنى المأمورات؛ افعل كذا، فيكون سبب دخولك الجنة، ومعنى المنهيات؛ لا تفعل كذا، فيكون سبب دخولك النار، والشرائع - كلها - من لدن آدم إلى محمد - صلوات الله وسلامه عليهم - إنما جاءت باعتبار الأسباب العادية والشرعية، إذ هي مقتضى الحكمة. ومن أسمائه - تعالى - الحكيم، وترك الأسباب مقتضى القدرة، ومن أسمائه - تعالى - القادر. والوقوف مع أحد الاسمين؛ تعطيل للآخر والمعطل هالك، والكمال في اعتبار الاسمين على وجه لا يناقض التوحيد، وإفراد المولى بأنه الفاعل لما يريد. فيعتبر الاسم «الحكيم» بالتلبس ظاهراً بالأسباب الشرعية والعادية، ويعتبر الاسم «القادر» بالتعلق به باطناً، والغيبة عن الأسباب بشهود مسببها ومجريها، واعتقاد عدم تأثيرها في شيء ما إلا بوجوهها الخاصة بها. فإنها من هذا الوجه؛ هي هو، وهذه طريقة الأنبياء

- عليهم الصلاة والسلام - والكمّل من ورثتهم . ولا يلتفت إلى أصحاب الأحوال . فإن أحوالهم حاكمة عليهم ، وقاهرة لهم . ومن العجب أن المواظبة على الأسباب الشرعية ، التي قلنا إنها حجب وأستار ، دون الحق ، على وجه مخصوص ، وطريقة معروفة عند أهلها ؛ تكون سبباً لرفع حجابيئها مع بقاء عينها . فالذي يرفع ؛ حكمها لا عينها . فإن عينها ؛ مأمور بإثباتها . ومن هنا ترى العارفين ، أهل الوجود والشهود ؛ يتلبسون بالأسباب العادية والشرعية كلها ، لا فرق بينهم وبين عوام المؤمنين في ظاهر الأمر ، وبإدء الرأي . ولكن في الباطن ؛ بينهم ما بين السماء والأرض ، والمشرق والمغرب . لأن من كوشف بالفاعل الحقيقي ، الذي تصدر منه الأفعال ، وعرف حقيقة المكلف والمكلف وحكمة التكليف ، والعلة الغائية منه ؛ ليس كالجاهل بذلك :

﴿ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْمَلُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْمَلُونَ ﴾ [الزمر: الآية ٩] ، و﴿ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴾ [الأنعام: الآية ٥٠] ، ﴿ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ ﴾ [الزهد: الآية ١٦] .

وهذا هو السور الذي ضرب بين عوام المؤمنين والعارفين بالله : ﴿ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴾ [الحديد: الآية ١٣] .

فالعارفون تتلبس ظواهرهم بالأوامر والأفعال الشرعية ، ويعلمون أنهم ظروف لإجرائها ، لا فاعلون لها ، فلذا لا يرجون بما ينسب إليهم من الأفعال حصول خير ، ولا دفع شر ، فهم ناظرون به إلى قلوب عاكفة ليس إلا عليه ، قد يسوا من خير غيره ، وأمنوا من شره ، فنالوا بذلك أعظم راحة ، ونعمًا دائمة مستباحة . وقفوا على حقيقة الاسمين الظاهر والباطن ؛ فعرفوا أنه لا ظاهر إلا هو ، ولا باطن إلا هو ، وكل شيء إما ظاهر وإما باطن .

وأما عامة المؤمنين ، وأعني بعامتهم صلحاءهم من العباد والزهاد وعلماء الظاهر ؛ فهم في تعب وعناء ومشقة وضنى لظنهم الذي أراهم : أن أفعالهم المخلوقة فيهم . تجلب لهم نفعًا ، وتدفع عنهم ضرًا . وإذا فاتهم سبب ، حزنوا لغوته ، لتحققهم بفوات مسببه عندهم . يفعلون ما يفعلون ، معتقدين أن لهم وجودًا حادًا مستقلًا ، مباينًا للوجود الحق ، وثانيًا له . وهذا عام في جميع طوائف المؤمنين إلا الطائفة المرحومة بمعرفته - تعالى - . وأن لهم قدرة على الفعل والترك إن كانوا معتزلة ، وأن لهم كسبًا ؛ إن كانوا أشعرية . أو جزءًا اختياريًا ؛ إن كانوا ماتريدية . والكل قلوبهم في أكثّة ، وفي آذانهم وقر ، وعلى أبصارهم غشاوة . ولو نور الله بصائرهم ، وفتح

أسماعهم وأبصارهم، لعلموا أنهم لا وجود لهم، لا قديماً ولا حادثاً. ولتبرؤوا من ادعائهم الوجود، إذ هو النصب الأكبر، والشرك الأعظم، الذي لا يقبل معه عمل إلا بفضل الله - تعالى - ورحمته.

إذا قلت ما أذنبت؛ قالت مجيبة وجودك ذنب، لا يقاس به ذنب فليس لشيء ممّا يقال إنه غير الحق، وجود أصلاً، وإذا انتفى الوجود؛ انتفى كل شيء من الصفات والأحوال والأفعال، فإنها توابع الوجود لازمة له.

\* \* \*

### الموقف الثامن والسبعون

قال تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ [الحديد: الآية ٤].

الخطاب إنما جاء على ما يتخيله أكثر العباد، من أن لهم وجوداً مستقلاً مبيّناً للوجود والحق، ومغايراً له. فمضى الحق - تعالى - مع دعواهم وتركهم على ما تخيلوه، فقال لهم: إن كنتم كما توهمتموه؛ فهو معكم، أينما كنتم، فأحذروه وراقبوه في كل مكان. وأما في نفس الأمر؛ فمسمى الخلق ما لهم مع الحق رتبة المعية، وإنما لهم التبعية، فمسمى الخلق عند من يشبه؛ كالظل بالنسبة إلى ذي الظل. وهو الشاخص، ولا يقال في مسمى الظل: إنه مع الشاخص. وإنما يقال: الظل تابع للشاخص. إذ المعية؛ لا تقال إلا على شيئين مستقلين بالموجودية. والمسمى خلقاً وعالمًا؛ لا وجود له استقلالاً، وإنما له التبعية. وكالصوت والصداء، فهما شيان في الحسن، وشيء واحد في نفس الأمر. وكل ما يقال فيه غير الله - تعالى -، وهو العالم جميعه، أعلاه وأسفله؛ فهو عدم. لو اعتبر مجرداً عن الوجود الحق، لأنه لو كان لغير الله وجود؛ فلا يخلو إما أن يكون وجوده قديماً أو حادثاً. ولا قديم إلا الوجود الحق، بإجماع من أهل الملل والحكماء، فإنهم وإن قالوا بالقدم الزماني؛ فهم مجمعون معنا على أنه لا قديم بالذات، إلا الوجود الحق - تعالى - . ولا جائز أن يكون حادثاً، لأنه لو كان حادثاً؛ لكان إما جوهرًا أو عرضاً، ولا جائز أن يكون جوهرًا. لأن الجوهر لا توصف به الجواهر. والأعراض والوجود وصف لهما. ولا جائز أن يكون عرضاً، لأن العرض لا بد له من مقوم وهو الجوهر، والجوهر معدوم قبل اتصافه بالوجود. والمعدوم لا يكون مقومًا للعرض الموجود. وهذا البرهان للواقفين مع عقولهم. وأما أهل الشهود؛ فقد أغناهم الله عن إقامة البرهان، إذ هذا عندهم من الضرورات. وعليه فلا يجوز السؤال عن العالم هل هو قديم أو حادث،



لأن القدم والحدوث بعد ثبوت الوجود، والعالم ما صحَّ له وجود، ولا يقال في المعدوم: هل هو قديم أو حادث، فإنه سؤال فاسد.

\* \* \*

## الموقف التاسع والسبعون

وَرَدَ فِي الْخَيْرِ: «مَنْ سِرَّتْهُ حَسَنَتُهُ، وَسَاءَتْهُ سَيِّئَتُهُ؛ فَهُوَ الْمُؤْمِنُ».

رواه الترمذي<sup>(١)</sup>. وهذه صيغة حصر، حصر - عليه الصلاة والسلام - الإيمان في الموصوف بها. لأن غيره، إمَّا جاحد مكذَّب، وإمَّا عارف مشاهد مكاشف، صار الغيب عنده شهادة، فلا يطلق عليه اسم المؤمن إلا بالمجاز. فهذا تعريف للمؤمن. فمن كان بهذه المثابة؛ فهو مؤمن، أي مصدق بالغيب من إخبار الشارع بنسبة الأفعال إلى من صدرت عنه من العباد في بادئ الرأي، وإثابتهم وعقوبتهم عليها. وأما غير المؤمن، وقد قدَّمنا أنه يشمل الجاحد والعارف المكاشف، فالعارف وهو الذي كشف الله له عن حقيقة الأمر، فعرف نفسه، فعرف ربه. فإنه لا تسره حسنته ولا تسؤه معصيته، ولو قُدِّرَ عليه قتل ألف نبيٍّ؛ ما تغيَّرَ ولا حزن. الدية على القاتل. ولو بشر بالقبضانية الكبرى؛ ما سرَّه ذلك، ولا تغيَّرَ له. فإنه عارف بأنه ليس له من الأمر شيء، فهو وإن شارك المؤمن في تصديق الشارع فيما أخبر به من المغيبات؛ فقد زاد على مطلق المؤمن، وصار ما كان غيبًا شهادة له. فالعارف لا يرى له حسنة ولا سيئة؛ إلا بالنسبة الشرعية، التي هي لحكم لا يعلمها إلا الله - تعالى -، أو من أطلعه الله - تعالى - من خواص عباده. فالشريعة جامعة للب والقشر، والحقيقة لب فقط.

\* \* \*

## الموقف الثمانون

وَرَدَ فِي الصَّحِيحِ: «لَا هَجْرَةَ بَعْدَ الْفَتْحِ وَلَكِنْ جِهَادٌ وَنِيَّةٌ»<sup>(٢)</sup>.

يريد - عليه الصلاة والسلام - بطريق الإشارة؛ أنه لا يصح ولا يستقيم لمن فتح الله عين بصيرته، وأراه سريان الأحذية بلا سريان، وقيام القيومية على كل ذرة من

(١) سنن الترمذي حديث رقم (٢١٦٥).

(٢) رواه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب لا هجرة بعد الفتح، حديث رقم (٣٠٧٧). ورواه مسلم: كتاب الإمارة، باب المبايعة بعد فتح مكة على الإسلام والجهاد والخير حديث رقم (١٨٦٤/٨٦).

ذرات الوجود، ورؤية الوجود الحق - تعالى - في كل شيء، من غير حلول ولا اتحاد أن يهجر شيئاً من المخلوقات، بأن يحتقره ويزدرية ويجعله كالشيء اللقي. فإن هذا لا يصح من عارف مشاهد، كان ما كان ذلك المخلوق، حيواناً أو غيره وعلى أي دين كان، وعلى أي ملّة ونحلة حصل، فإنها كلها شعائر الله، ومن يعظم شعائر الله؛ فإنها من تقوى القلوب، أي من يعظم مخلوقات الله التي هي شعائره؛ فإن ذلك التعظيم من تقوى أهل القلوب، وهم أهل الشهود.

زُوي أن عيسى - عليه السلام - مرّ عليه خنزير، فقال له: عم صباحاً!! وما قال - تعالى - فإنها من تقوى أهل العقول، ولا من التقوى، ولكن مع هذا الشهود وعدم الهجرة لشيء، والاحتقار له والأعراض عنه، لا بد من الجهاد، والنية، أي المجاهدة والقصد، أي الجمع بين شهود الحقيقة، وإجراء أحكام الشارع، من قتال مخالفين دين الإسلام، حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون، وتغيير المنكر شرعاً، وتحسين ما حسنه الشرع، وتفسيح ما قبّحه حكمة وعدلاً، لأنه - تعالى - قال لهذا العارف المشاهد، على لسان الرسول - ﷺ -: «إذا وجدتنى متلبساً بأحوال أهل الكفر؛ فاضرب عنقي. وإذا رأيتني متلبساً بأحوال أهل العصيان؛ فازجرني، وأقم الحدود علي، مع الشهود والمعرفة».

وهذا أصعب شيء يكابده العارفون.

\*\*\*

## الموقف الواحد والثمانون

ورد في الحديث الصحيح: «ينزل ربنا كل ليلة إلى السماء الدنيا، حين يبقى ثلث الليل الأخير»<sup>(١)</sup> الحديث.

نزوله تعالى؛ كناية عن تجلّيه وظهوره، فإن التجليات كلها تنزلاته - تعالى - من سماء الأحذية الصرفة إلى أرض الكثرة. وسماء الدنيا؛ كناية عن مظهر الصورة الرحمانية التي يظهر بها الكامل، وهو فرد واحد في كل زمان لا يتعدد، وهي الصفة

(١) رواه مسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل والإجابة فيه، حديث رقم (٧٥٨/١٦٨) واللفظ: عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا - حين يبقى ثلث الليل الآخر - فيقول: من يدعوني فأستجيب له ومن يسألني فأعطيه ومن يستغفرني فأغفر له». ورواه البخاري: كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: «رُبُّيُدْرِكُ أَنْ يُسْأَلُوا كَلِمَةَ اللَّهِ» [التنج: الآية ١٥]، حديث رقم (٧٤٩٤).

الجامعة لصفات الجمال كلها، من رحمة ولطف، وستر وحلم، وجود وعطاء، ونحو ذلك. وهذا التجلي في هذا الوقت المخصوص؛ هو للعباد والزهاد، والمتوجهين بالأعمال، ولهذا كني عنه بسماء الدنيا. لأنها قبلة الداعين، وأما العارفون؛ فتجليه لهم دائم لا يختص بزمان ولا مكان. إذ الحق - تعالى - متجلٍ من الأزل، إلى الأبد، لا يزيد تجليه ولا ينقص، ولا يتغير. وهو - تعالى - على ما هو عليه قبل نسبة التجلي إليه.

والاختلاف والتعدد والحدوث المنسوب إلى التجلي؛ إنما هو للمتجلى له بحسب القوابل والاستعدادات، ففي كل آن يحصل للمستعد تجلٍ بحسب استعداده وقابليته، فالماء حقيقة واحدة تختلف صورته باختلاف القوابل، من أنواع النباتات والفواكه والزروع والأواني، وإنما خصَّ هذا التجلي بالثلث الآخر؛ لأنه وقت قيام المجتهدين، وزمان توجه المستغفرين، والتائبين والداعين.

\* \* \*

## الموقف الثاني والثمانون

ورد في الخبر: «مَنْ لَمْ يَشْكُرِ النَّاسَ لَمْ يَشْكُرِ اللَّهَ».

رواه الإمام أحمد والترمذي<sup>(١)</sup>. يريد - عليه الصلاة والسلام - أن الذي لا يشكر الناس حيث رآهم، غيرًا وسويًا، واعتقد وهما وتخيلاً، أن الحق - تعالى - مباين لهم ومنفصل عنهم، وأنه في السماء، أو فوق العرش فقط، لم يشكر الله، حيث إنه ما عرفه. وكيف يشكره مَنْ لم يعرفه؟! لأنه - تعالى - ما عرفه مَنْ عرفه؛ إلا في مراتب التقييد والظهور والتعيين، والناس وجميع المخلوقات والأسباب والوسائط؛ مظاهره وتعييناته ونسبه واعتباراته، فإنها آثار أسمائه وصفاته، بل هي عين أسمائه. إذ ليست الصور المحسوسة المشهودة كائنة ما كانت، روحانية أو مثالية أو جسمانية؛ إلا أسماء الحق - تعالى -، وهي معان اجتمعت، فحصلت منها هيئة اجتماعية، فكانت صورة محسوسة، كما تقول: اجتمعت البرودة واليبوسة؛ فكانت صورة التراب. واجتمعت البرودة والرطوبة؛ فكانت صورة الماء، مثلاً. والعالم كلُّه هكذا، الناس وغيرهم، ومتعلق الخطاب والحدوث والأمر بالكون؛ هو هذه المعاني، لتصير هيئة اجتماعية، فتصير صورة محسوسة. فمن عرف الله والناس هذه المعرفة؛ كان شكره للناس شكراً لله، إذ لا اثنينيَّه في الوجود. ومن هناك؛ كان الفعل الصادر من الناس وجميع

(١) مسند الإمام أحمد، مسند أبي هريرة، حديث رقم (٧٥٢١). وسنن الترمذي: كتاب البر والصلة، باب ما جاء في الشكر لمن أحسن إليك، حديث رقم (١٩٥٥).

المخلوقات؛ بداهة وضرورة. وهو فعل الله - تعالى - شرعاً وعتقاً، فأين الله وأين الناس لمن يعقل؟ أفدي من يعقل عني بنفسني، وأجعله فوق رأسي.

قال إمام العارفين، محيي الدين، عندما تكلم على نسبة الفعل إلى الله وإلى المخلوقات: من الأسباب والوسائط؟! فمن الناس من قال: عندها ولا بد، ومن الناس من قال: بها ولا بد، ونحن وأمثالنا (يعني من المحققين، الذين هم أعلا رتبة في المعرفة من العارفين) نقول: عندها وبها.

وإيضاحه: أن كل شيء له وجهان: وجه إلى الحق، وهو حق من هذا الوجه، وهو وجه الرب الذي لا يفنى، وهو المراد بقوله:

﴿كُلٌّ مِّنْ عَالِيهَا فَاِنَّ ۙ وَبَيْنِي وَبَيْنَهُ رَبِّكَ﴾ [الرحمن: الآيتان ٢٦، ٢٧].

ووجه إلى سببه الذي ظهر عنه، وهو الفاني العدم الباطل. وقد نفى الحق - تعالى - التأثير عنه في هذا الوجه، بقوله:

﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [التحل: الآية ٤٠].

فيذا رأيت العارف يشكر مخلوقاً ويشني عليه ويعظمه ويلحظه؛ فمن هذه الحيثية. فلا تظن أنه يرى الناس وسائر المخلوقات كما تراهم أنت. وأن بينهم وبين الحق - تعالى - بوناً. معاذ الله. ومن هنا صح ما أخبر به تعالى في قوله:

﴿فَأَيُّنَمَا تَوَلَّوْا فَثَمَّ وَجْهَ اللَّهِ﴾ [السبقر: الآية ١١٥]، ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ [الحدديد: الآية ٤]، ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: الآية ١٦].

فاعرف الحق واحذر الغلط والسلام.

\*\*\*

### الموقف الثالث والثمانون

قال تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: الآية ١١].

هذه الآية الكريمة ألفت عليّ بالإلقاء الغيبي مراراً عديدة لا أحصيها. ولا يخفى ما قاله فيها عامة أهل التفسير. ومما ألقى عليّ فيها: أن من المراد بالنعمة هنا؛ نعمة العلم والمعرفة بالله - تعالى -، والعلم بما جاءت به الرسل - عليهم الصلاة والسلام - من المعاملات والأمور المعنوية. ولا شك أن هذه النعمة؛ أعظم النعم. وإطلاق النعمة على غيرها مجاز بالنسبة إليها. والمراد بالتحديث بها؛ إنشاؤها وبثها لمستحقيها

المستعدين لقبولها. إذ ما كلُّ علم يصلح لكل الناس، ولا كلُّ الناس يصلح لكل علم. بل لكل علم أهل، لهم استعداد لقبوله، وهمة والتفات إلى تحصيله. أو يكون المراد إظهار النعمة بما هو أعمُّ من القول والفعل، كما في الخبر: «إن الله، إذا أنعم على عبد نعمة؛ أحبُّ أن يرى أثر نعمته عليه»<sup>(١)</sup>.

فإذا كانت النعمة ممَّا يظهر بالفعل؛ أظهرها بالفعل. وإذا كانت مما يظهر بالقول؛ أظهرها بالقول والتحدث بها، على حدِّ ما قيل في الحمد العرفي: أعمُّ من أن يكون باللسان والجنان والأركان.

ومن بعض نعم الله عليّ: أنني منذ رحمني الله - تعالى - بمعرفة نفسي؛ ما كان الخطاب لي والإلقاء عليّ؛ إلا بالقرآن الكريم العظيم، الذي:

﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾  
[فُصِّلَتْ: الآية ٤٢].

والمناجاة بالقرآن؛ من بشارات الورثة المحمدية. فإن القوم، أرباب هذا الشأن، قالوا: كلُّ من نوجي بلغة نبي؛ فهو وارث ذلك النبي، صاحب تلك اللغة، ومن نوجي بالقرآن كان وارثاً لجميع الأنبياء، وهو المحمدي. لأن القرآن متضمَّن لجميع اللغات، كما أن مقام محمد - ﷺ - متضمَّن لجميع المقامات.

ومنها أني لما بلغت المدينة طيبة، وقفت تجاه الوجه الشريف بعد السلام عليه - ﷺ - وعلى صاحبيه الذين شرفهما الله - تعالى - بمصاحبتهم، حياة وبرزخاً، وقلت: يا رسول الله، عبدك ببابك، يا رسول الله، كليمك بأعتابك، يا رسول الله، نظرة منك تغنيني، يا رسول الله، عطفة منك تكفيني، فسمعتهم - ﷺ - يقول لي: «أنت ولدي ومقبول عندي» بهذه السجعة المباركة. وما عرفت هل المراد ولادة الصلب، أو ولادة القلب؟! والأمل من فضل الله - تعالى - أنهما مرادان معاً فحمدت الله - تعالى -، ثم قلت في ذلك الموقف: اللهم حقِّق هذا السماع برؤية الشخص الشريف، فإنه - ﷺ - ضمن العصمة في الرؤية فقال: «من رأني فقد رأى الحق، فإن الشيطان لا يتمثل بصورتني»<sup>(٢)</sup>.

(١) رواه البيهقي في السنن الكبرى، كتاب صلاة الخوف، باب الرخصة للرجال في لبس الخنز، حديث رقم (٦٠٩٣)، ولفظه: «إن الله يحب إذا أنعم على عبد نعمة أن يرى أثر نعمته عليه».

(٢) رواه البخاري بلفظ: «من رأني فقد رأى الحق فإن الشيطان لا يتكُونُني» (الصحيح، كتاب التعبير، باب من رأى النبي ﷺ في المنام، حديث رقم [٦٩٩٧]). وفي رواية: «من رأني في المنام فسيراني في اليقظة ولا يتمثل الشيطان بي» حديث رقم [٦٩٩٣].

وما ضمن العصمة في سماع الكلام. ثم جلست تجاه القدمين الشريفين، معتمداً على حائط المسجد الشرقي، أذكر الله - تعالى - فصعقت وغبت عن العالم وعن الأصوات المرتفعة في المسجد بالتلاوة والأذكار والأدعية وعن نفسي، فسمعت قائلاً يقول: هذا سيدنا التهامي، فرفعت بصري في حال الغيبة؛ فاجتمع به بصري، وهو خارج من شبك الحديد، من جهة القدمين الشريفين. ثم تقدّم إلى الشباك الآخر، وخرقه إلى جهتي؛ فرأيتَه - ﷺ - فحماً مفخماً بادناً متماسكاً، غير أن شبيه الشريف أكثر. وحمرة وجهه أشدّ، مما ذكره أصحاب الشماثل. فلما دنا منّي؛ رجعت إلى حسي، فحمدت الله تعالى.

ثم جعلت أذكر الله تعالى؛ فصعقت كالأولى، فورد عليّ قوله تعالى: ﴿إِذَا دُعِيتُمْ فَأَدْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا﴾ [الأحزاب: الآية ٥٣].

فلما رجعت إلى حسي؛ حمدت الله - تعالى -، ونظرت في الآية الكريمة؛ فوجدتها مشتملة على أنواع من البشائر، فإنَّ «إِذَا» تفيد التحقيق، فهي في قوة، «قد دعيتم». و«دعيتم» مبني للمجهول، يشمل دعاء الحق تعالى والرسول - ﷺ - والأمر بالدخول بعد الدعوة؛ فيه غاية التكريم والتشريف، وإذا طعمتم؛ إخبار بأن الدعوة للإكرام والإنعام والإطعام. وقوله: «فانتشروا» أمر، بمعنى الإذن في الانتشار بعد الإكرام. وفي الإخبار: بأن الدعوة للإكرام. وبالإذن في الانصراف، بعد حصول الإنعام غاية العناية ونهاية الكرامة.

ثم توجّهت أذكر الله - تعالى -، فصعقت أيضاً، فألقي عليّ قوله تعالى: ﴿أَدْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ءَامِنِينَ﴾ [الحجر: الآية ٤٦]. فلما رجعت إلى حسي؛ حمدت الله - تعالى - على تكرار البشارة.

ثم توجّهت إلى الذكر أيضاً فصعقت؛ فألقي عليّ قوله تعالى: ﴿وَيُنِيرُ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَن لَّهُمْ قَدَمٌ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [يونس: الآية ٢]. فلما رجعت إلى حسي حمدت الله - تعالى - وعلمت أن قدم الصدق هو - ﷺ - وأنه أمرني أن أكون واسطة في إبلاغ هذه البشارة إلى أمته.

ثم زدت متوجّها في الذكر؛ فصعقت أيضاً، فألقي عليّ قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ﴾ [آل عمران: الآية ٧٣]. فلما رجعت إلى حسي؛ حمدت الله - تعالى -، وعلمت أنه إخبار بأن هذه النعم الحاصلة ما هي جزاء علم ولا عمل ولا حال. ولا هي باستحقاق، وإنما هي فضل وامتنان.



ثم زدت متوجهًا في الذكر؛ فصعقت أيضًا، فألقي عليّ قوله تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: الآية ١٠٢]. فلما رجعت إلى حسي حمدت الله - تعالى - على ما في هذه الآية من البشائر والأسرار.

ثم زدت متوجهًا في الذكر؛ فصعقت أيضًا، فألقي عليّ قوله تعالى: ﴿وَيُؤَيِّدُكُمْ ءَايَاتِهِ ۖ فَآيَىٰ ءَايَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ﴾ [غافر: الآية ٨١]. فلما رجعت إلى حسي؛ حمدت الله تعالى وقلت: لا أنكر شيئًا من آيات الله، والعبد معترف بفضل مولاه عليه، ثم قمت إلى محل عزلتي، فدخل عليّ شيخ من أهل الطريق فقال لي: إذا أردت أن تتوجه إلى رسول الله - ﷺ - فاجعل بينك وبينه واسطة من الأكابر مثل عبد القادر الكيلاني، أو محيي الدين الحاتمي، أو الشاذلي، وأمثالهم. فقلت له: حتى أستاذن سيدي ومولاي الذي أنا في أعتابه، فتوجهت أذكر الله - تعالى -؛ فصعقت، فألقي عليّ قوله تعالى: ﴿الَّتِي أُولَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب: الآية ٦]. فلما رجعت إلى حسي حمدت الله - تعالى -، وعندما رجع عندي ذلك الشيخ قلت له: إن سيدي ومولاي، ما أحب أن تكون بيني وبينه واسطة. وأخبرني أنه أولى بي من كل أحد حتى من نفسي. ثم وثم وثم... الخ.

وكان ما كان مما لست أذكره فظن خيرًا ولا تسأل عن الخبر

وأول ما فتح لي في عالم الخير والنور؛ اجتمعت في الواقعة بالخليل - عليه السلام - في المطاف، وكان في مجلس حافل، وهو يحكي قصة تكسير الأصنام. ورأيت في السن الذي كان فيه ذلك الوقت، إذ يقول الله تعالى: ﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذُكُرُهُمْ﴾ [الأنبياء: الآية ٦٠].

فما رأت عيني أجمل منه، كيف ورسول الله - ﷺ - شبه جماله به، فقال: «ورأيت إبراهيم وأنا أشبه ولده». فعلمت أنه يكون لي بعض إرث منه في محبة الخلق، فإنه القائل: ﴿وَأَجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ [الشعراء: الآية ٨٤]. فأجاب الله سؤاله، فاجتمعت على محبته أكثر الملل والفرق. وليس هذا لأحد غيره من سائر الرسل - عليهم السلام -.

## الموقف الرابع والثمانون

كنت مع أهلي في لحاف، وأنا في مشاهدة، فصعقت، فكلمني الحق - تعالى - وقال لي: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا﴾ [طه: الآية ١٤]. الرب المبارك، فحصل لي بعد الرجوع إلى الحسن فرح، وعرفت منه بشارة وأني بشارة!!

\* \* \*

## الموقف الخامس والثمانون

ورد في الصحاح، ولا يبعد أن يكون في الأحاديث المتواترة: «إن هذا القرآن، أنزل على سبعة أحرف، فاقرأوا ما تيسر منه»<sup>(١)</sup>.

قد تكلم الناس على هذا الحديث قديماً وحديثاً، ذكر الإمام السيوطي - رضي الله عنه - منها نحو الأربعين قولاً، ومنها ما لم يبلغه بلا شك، وأكثر الناس عليه كلاماً على طريق أهل العرفان؛ العارف بالله عبد العزيز الدباغ الفاسي، فإنه أبدع وأتى بما لم يسبقه إليه غيره، وكل ما قيل في معنى هذا الحديث؛ فصواب وأصوب، وحق وأحق، فإن الكل من عند الله - تعالى -، ومن تجلياته. إذ كلام الحق - تعالى - وكلام رسوله - ﷺ - بحر زاخر، ما له ساحل، فكل ما فهمه الخلق في كلام الله - تعالى -، وكلام رسوله - ﷺ - الذي هو كلام الله، على لسانه، لأنه: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ (٤)﴾ [النجم: الآيتان ٣، ٤]. هو مراد ومقصود. وإن خالف الحق ظاهراً، فإنه كما قال: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَهَدِي بِهِ كَثِيرًا﴾ [البقرة: الآية ٢٦]. فالضلالة مقصودة. وما يطلق عليه اسم الخطأ مقصود. فالكل عطاء الله.

﴿كَلَّا نُمَدُّ هَتُولَاءِ وَهَتُولَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا (٢٠)﴾ [الإسراء: الآية ٢٠].

ومن المراد لله ولرسوله في الكلام، ما لم يهتدوا إليه ولا بلغوه. والذي ألقاه الحق - تعالى - عليّ من معاني هذا الحديث العظيم الشأن، ومن إشارات المعجوز عن استيفائها بالبيان، أن من المراد بالأحرف: الحقيقية. إذ الأحرف عند الطائفة العلية ثمانية أنواع: «أحرف حقيقية، وأحرف عالية، وأحرف روحانية، وأحرف صورية، وأحرف معنوية، وأحرف خيالية، وأحرف حسية لفظية، وأحرف خطية». والمراد من

(١) رواه الترمذي: كتاب القراءات، باب ما جاء أن القرآن أنزل على سبعة أحرف حديث رقم

٢٩٤٤. ورواه أحمد في المسند حديث رقم (٢٧٩).

الأحرف الحقيقية؛ الأمهات السبعة. والأصول الكلية: «العلم، والإرادة، والقدرة، والكلام، والسمع، والبصر، والحياة التي هي شرط في إثبات الجميع». ولا يصح إثبات شيء بدونها، أخبر - عليه الصلاة والسلام - أن هذا القرآن وهو النظم المعجز المنزل عليه - ﷺ - أنزل مستوليًا ومستعليًا استعلاء دلالة على متعلقات هذه الأحرف التي ذكرناها. وهي أمهات الأسماء والصفات. فكل مدلولاتها ومتعلقاتها يدل عليها القرآن العظيم، وتؤخذ منه. ولذا ورد عن ابن عباس - رضي الله عنهما -، أنه قال: «ما حرك طائر، إلا وجدنا ذلك في كتاب الله تعالى».

وترى العارفين يستخرجون العلوم والأسرار والأخبار بالمغيبات الآتية من القرآن. وجميع العلوم المتداولة؛ مأخوذة من القرآن. ويهدي إليها هداية بيّنة. وجميع الثلاثة والسبعين فرقة يأخذون الأدلة والحجج لمذاهبهم من القرآن. وهذا من جملة وجوه إعجازه، وخروجه عن طوق البشر. كيف لا وهو - تعالى - يقول:

﴿مَا قَرَأْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: الآية ٣٨].

فكل ما يطلق عليه اسم شيء؛ فهو في القرآن العظيم. إما صريحًا وإما إشارة، إما ضمنا وإما التزاما. والشيء أعم من الموجود والمعدوم عند أهل اللغة، ولذا قالوا: إن أنكر النكرات؛ شيء ثم موجود. لأجل هذا الجمع العظيم؛ سُمي بالقرآن، من القرء، وهو الجمع، إذ القرآن الكريم ليس هو إلا ظاهر علم الحق - تعالى - ولا ريب أن علمه - تعالى - محيط بالكليات والجزئيات، فالقرآن محيط بالكليات والجزئيات، فإنه أمر الله المنزل، كما قال تعالى:

﴿ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْنَا﴾ [الطلاق: الآية ٥].

وأمره صفته المحيطة بكل شيء، القائمة على كل شيء. وتختلف وجوه دلالات القرآن على متعلقات الأحرف، باختلاف وجوه قراءته، من زيادة نقص وتقديم وتأخير، ورفع ونصب، وخفض وسكون، فإنها الأحرف الصغار. وكل وجه يتفرع إلى وجوه. منها أصول، ومنها فروع، ومنها ملزومات، ومنها لوازم بيّنة، ومنها غير بيّنة ومنها لوازم اللوازم... وهكذا. والحق - تعالى - بجوده - يفتح على كل واحد ويعطيه مما أحاط به القرآن من مدلولاته ما يستحقه، ويطلبه استعداده، إما هدى وإما ضلالة، إما رشدًا وإما غيًّا. والإحاطة بجميع ما أحاط به القرآن محال، فلذا قال - عليه الصلاة والسلام -: «فاقرأوا ما تبسّر منه».

أي من مدلولاته، والعلوم التي تضمّنها. فهو أمر بالدال، وإرادة المدلول، لأن القرآن كلّه يسر، كما قال:

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ﴾ [القمر: الآية ١٧].

فليس منه يسر وغير يسر، بل تعدد أوجه القراءة تيسير، كما ورد في الحديث: «أقراني جبريل على حرف واحد، فاستزدته فزادني إلى سبعة»<sup>(١)</sup>.

والذي منه يسر وغير يسر؛ هي متعلقات الأحرف السبعة، التي ذكرناها قبل. ولا يتيسر لأحد شيء؛ إلا ما هو مستعد له.

قوله: «ولا تختلفوا» إلى آخر الحديث، أي لا تجعلوا ما يفتح الله به على بعضكم في الفهم فيه خلافاً قادحاً في القرآن، وموجباً للشك فيه، حتى يؤدي ذلك إلى الشك في أصل الدين، ولهذا اختلفت الصحابة - رضوان الله عليهم - وكذا من بعدهم من أهل الفضل والعلم. وما جعلوا ذلك اختلافاً في الدين، ولا كُفِّر بعضهم بعضاً. وما حصل للخلق كلهم من معلوماته - تعالى -، التي هي متعلقات صفات الأمهات الأصول؛ إلا كما قال الخضر لموسى - عليهما السلام -: «ما نقص علمي وعلمك». أي ما تعلق به علمي وعلمك من علم الله (أي معلوماته)؛ «إلا كما نقص هذا العصفور بنقرته من هذا البحر».

فهذا إشارة إلى ما أشار إليه هذا الخبر العظيم الشأن.

\* \* \*

### الموقف السادس والثمانون

قال تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا ① وَالْقَمَرِ إِذَا لِلَّهِ ② وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّهَا ③ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ④ وَالسَّمَاءَ وَمَا بَنَاهَا ⑤ وَالْأَرْضَ وَمَا حَقَّهَا ⑥ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ⑦﴾ [الشمس: الآيات ١ - ٧].

هذه الأشياء المقسم بها: هي كناية عن بعض مراتب تجليته، وتعيين تنزله وتدليه، وهي مراتب كلية. فما أقسم الحق - تعالى - في الحقيقة إلا بذاته، لأن المراتب والتنزلات كلها أمور اعتبارية لا وجود لها إلا في اعتبار المعبر، ما دام معبراً. فكل المراتب والتعيينات والتنزلات من أول مرتبة وتعيين وتنزل، وهو الحقيقة المحمدية، إلى آخر تعيين وتنزل، وهو الصورة الإنسانية؛ إنما هي اعتبار وتعيين وظهور وتنزل، لا وجود لها خارج العقل، كسائر الأمور المصدرية. فهي لا موجودة

(١) رواه النسائي في السنن الكبرى، كتاب فضائل القرآن، باب على كم نزل القرآن، حديث رقم

ولا معدومة. فهي خيالٌ لا حقيقة لها غير الوجود الحق الذي به ظهرت كما قيل:

مراتب بالوجود صارت      حقائق الغيب والعيان  
وليس غير الوجود فيها      بظاهر والجميع فان

فالوجود ليس إلا للذات العلية، وكل ما قيل فيه مرتبة وتعين وسوى وغير؛ فهو اعتبار ونسبة وإضافة لا غير.

﴿وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا﴾ [الشمس: الآية ١].

هو قسم بمرتبة الأحدية، وهو أول المجالي، فهو مجلى ذاتي، ليس للأسماء ولا للصفات ولا لشيء من المكونات فيه ظهور، فهو ذات صرف، مجرد عن الاعتبار الحقيقية والخلقية، وإن كان الجميع موجودًا فيها. ولكن بحكم البطون. فنسبة الواحد إلى ذاته؛ نسبة واحدة، هي عين أحديته، لا واحدته. ونسبته إلى الثاني هي واحدته. فالأحدية؛ هي تجليه - تعالى - لذاته بذاته، إذ لا غير في هذه المرتبة. فإن لفظ الأحد ينفي أن يكون هناك اعتبار غير وسوى، فلا يحتاج في أحديته إلى تعين، يمتاز به عن شيء. إذ لا شيء. فهو الوجود بشرط لا شيء. ولا حظ للمخلوقات من هذه المرتبة؛ إلا الاعتبار والتعقل. لأن هذه المرتبة مرتبة الكنه، لا ينكشف لأحد ولا يدرك بحس ولا عقل. ومن طلب معرفته من هذا الوجه؛ طلب المحال. لأن الذي لا تعين له بوجه من الوجوه؛ لا يعرف وجهه. ووجه الكناية عن هذا التجلي بالشمس وضحاها. أن الشمس تدرك بها الأشياء، ولا تدرك هي، ولا يظهر معها نور من أنوار الكواكب. وكذلك الأحدية، فهي ماحية للأنوار، ماحقة للآثار. فهي مرتبة اللاتقين. فما للخلق من ملك ورسول وولي في هذه المرتبة؛ إلا الإيمان بالغيب، فإنهم لما وصلوا بالكشف والنظر بالبصائر إلى التعين الأول؛ عرفوا أن وراءه شيئًا لا يعرف منه، إلا وجود لا غير. إذ الوجود المجرد عن الظهور بالغير والتعين به؛ لا يعرف ولا ينعت ولا يوصف. لأنه الذات الغنية عن العالمين. وهذه المرتبة في الحق والتحقيق هي حقيقة الحقائق. وإن كانت هذه التسمية أطلقها القوم على الوحدة المطلقة، والحقيقة الكلية. وقد وصل بعض الرهبان والبراهمة وغيرهم من أهل الرياضات والمجاهدات على غير سبيل الرسل - عليهم السلام - إلى العقل الأول، فظنوا أنه هو حقيقة الحقائق، وأنه لا شيء وراءه؛ فخسروا وبأؤوا ورجعوا من حيث جاؤوا.

وقوله: ﴿وَالْقَمَرَ إِذَا لَنَّا﴾ [الشمس: الآية ٢].

هو كناية عن المرتبة الثانية، والتعین الأولي المسمى بالروح الكلي، وينفس الرحمن، وبالوجود الإضافي، وبالحقيقة المحمّدية، وبرزخ البرازخ... وله أسام كثيرة، ويعبر عنه بالوحدة المطلقة، وذلك أن الوجود إذا أخذ بشرط لا شيء فهو الأحديّة. وإذا أخذ بشرط كل شيء فهو الواحدية. وإذا أخذ مطلقاً لا بشرط شيء، ولا بشرط لا شيء؛ فهو الوحدة. فالوحدة منشأ الأحدية والواحدية، لأنها عين الذات من حيث هي، أي المطلق الذي يشمل كونه بشرط لا شيء أو بشرط شيء. والوحدة إذا اعتبرت من حيث هي هي؛ لا تغاير الأحدية، بل هي عينها، والوحدة هنا لا تتعقل في مقابلة كثرة، ولا يتوقف تحقّقها على تصوّر ضدّها. وهذا الوجود الإضافي المشترك بين جميع الموجودات، المتعین بها؛ هو عين الوجود الباطن المجرد عن التعین والظهور، ولا يغايره إلا بالاعتبار، كالتعین والتعدد الحاصل بتعدد المظاهر، وهي كلها أمور عدمية، لا وجود لها إلا بالاعتبار، والحق - تعالى - في هذه المرتبة مرثي للرائين، معروف للعارفين، لأنها مرتبة اسمه - تعالى - الظاهر، وهو محجوب مجهول للغافلين، فهم يرونه ولا يعرفونه. وهذه المرتبة أول ظهور الله - تعالى - من كنز الخفاء ومعرفة القوم - رضوان الله عليهم - وغاية وصولهم إليها، وبها يتغزّلون في أشعارهم، وعنّها يكونون بليلى وسعدى، والبرق والنسيم، والخمر والكاس... وهي الظاهرة في سائر الخلق، وهي أمر الله كما قال:

﴿ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْنَا﴾ [الطلاق: الآية ٥]. وقال: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الإسراء: الآية ٨٥].

أي الروح أمر ربّي، ف «من» بيانية، وهو الذي صدر عن الله بلا واسطة. وهو نور محمد - ﷺ - فما صدر إلا بمشاهدة الأمر العزيز، وهو - أي الأمر العزيز - السبب الثاني، بالإضافة إلى الوجود المطلق. فإن الوجود المطلق هو الله، حيث لا تعين. وقد صدر هذا الأمر المذكور بصورة النور المحمّدي عنه - تعالى -، فهو التعین الأول، لأنه - تعالى - ظهر بعلمه في هذا التعین، من غير تمييز شيء من شيء. فالله سبب ظهور الأمر القديم، في حضرة النور الكريم، وقام النور في تعينه بالأمر القديم. فهو - أي الأمر الكريم - سبب ثان بالإضافة إلى الله. فالنور الأول المذكور؛ هو التعین الثاني، باعتبار قيامه بالأمر، والتعین الثالث باعتبار نزوله في عالم الخلق، فهو ثلاث مراتب، وهو واحد. وكون الأمر ظهر بالنور المحمّدي؛ فهو السبب الأول، باعتبار بالإضافة إلى الوجود المقيد، وهو النور المحمّدي المتعین، في عالم الخلق. ووجه الكناية عن هذه المرتبة والتعین بالقمر؛ هو أن القمر واسطة بين الشمس



والأرض، فهو يستمدُّ النور من الشمس، ويمدُّ الأرض به، وكذا هذا التعيين الأوَّل، فإنه يستمدُّ من الوجود الباطن الأحدي الذاتي، ويمدُّ العالم أعلاه وأسفله، بما يفيضه الحق - تعالى - عليه. فله وجهة إلى الحق، ووجهة إلى الخلق، ولهذا سمي ببرزخ البرازخ، لأن البرزخ جامع بين الطرفين، لا يكون غيرهما ولا عينهما. فمن وجهه الذي للحقِّ هو حق. ومن وجهه الذي للخلق هو خلق. فهو حق وخلق. ولا حق ولا خلق. وهو بالنسبة إلى الوجود الأحدي فقير مستمدُّ قابل. وبالنسبة إلى العالم غني مُمدِّ فاعل. وكذا القمر، من وجهه الذي للشمس مستمد قابل. ومن وجهه الذي للأرض ممد فاعل. والتعينات والظهورات كلها ممكنة حادثة، والمتعين والظاهر قديم واجب. ولهذه المرتبة قدم باعتبار، وحدوث باعتبار آخر.

وقوله: ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰهَا﴾ ﴿٣﴾ [الشمس: الآية ٣].

هو كناية عن المرتبة الواحدية، وهو التعيين الثاني، وهي اعتبار الذات، من حيث انتشار الأسماء والصفات منها، ووحدتها لها مع تكررها بالصفات، فالواحد اسم الذات بهذا الاعتبار، فهي مجلى ظهرت الذات فيه صفة. والصفة ذاتاً. فظهر كل من الأسماء والأوصاف عين الآخر. فهي بهذا الاعتبار حيث ظهرت في شيء من أسمائها أو صفاتها أو مؤثراتها؛ فذلك الشيء عينها وهي عينه. وكلُّ شيء مما ظهر فيه الذات، بحكم الواحدية فهو عين الآخر. وإلى ذلك أشرت في بعض القصائد التوحيدية:

فقل عالم، وقل إله، وقل أنا، وقل أنت، وهو، لست تخشى به رداً.

ووجه الكناية عن هذه المرتبة بالتهار؛ هو أن النهار تظهر فيه وبه الأشياء، ويتميز بعضها من بعض. وكذلك هذه المرتبة، فإن إليها تستند الآثار كلها. فهي المجلية للمرتبة التي قبلها، كما أن النهار مجلٌّ ومظهر للشمس. وأيضاً هذه المرتبة هي عبارة عن علم الحق - تعالى - بذاته، وبجميع أسمائه وصفاته، وبجميع حقائق مكوناته، على التفصيل. وقد كان علمها في المرتبة التي قبلها، وهي الوحدة المطلقة إجمالاً، لا تتميز الذات من الصفات من حقائق المكونات. ولا يتوهم متوهم أن قولنا: «إجمالاً» أن العلم الإجمالي موجب للجهل. كما عليه جمهور المتكلمين. بل هو - تعالى - يعلم الأشياء كما هي، المفضلة تفصيلاً، والمجملة إجمالاً. فلو قيل: العلم المتعلق بالأحادية وبالوحدة علم تفصيلي؛ لزم الكذب والمناقضة، لأن قولنا الأحادية والوحدة ينافي هذا. فالعلم المضاف إلى مرتبة الوحدة يسمى علماً إجمالياً، لاتصاف معلوماته بالإجمال. وأما العلم نفسه؛ فلا يوصف من حيث هو انكشاف

وظهور بالإجمال والتفصيل، لأنها من لوازم الكم. ولا كم، ولا كيف. وقد زلّ هنا عالم كثير، وعالم كبير.

وقوله: ﴿وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَىٰهَا ۗ﴾ [الشمس: الآية ٤].

هو كناية عن الطبيعة الكثيفة، والتعین بالأجسام العنصرية المظلمة الظاهرة في المعدن والنبات، والحيوان والجان والإنسان. لأن العالم الجسماني الطبيعي؛ محل الظهور الإلهي الكمالي، إذ لولا الكثيف؛ ما عرف ولا سمع خبر لللطيف. فظهور الحق - تعالى - بالأجسام؛ أكمل من ظهوره بالأرواح. ولذا قيل: ظهور الحق - تعالى -، بأجهل الناس وأعظمهم انقياداً للأمور الطبيعية والنفسانية؛ أتّم من ظهوره في أعلم الناس، وأعظمهم تحقيقاً بالأمور الروحانية، إذ عالم الشهادة أكمل من عالم الغيب، وعالم الغيب أشرف من عالم الشهادة، فالشرف بقلة الوسائط، والتمام بكثرتها. ووجه الكناية عن هذه المرتبة بالتجلي بالليل؛ هو أن الليل أصل للنهار، وقال تعالى: ﴿وَعَايَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسَلَحُ مِنْهُ النَّهَارُ﴾ [يس: الآية ٣٧].

وكذا الأجسام الطبيعية لكثافتها وحجائبتها سبب وأصل لظهور الأرواح الجزئية، وتعينها من الروح الكل، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾ [الحجر: الآية ٢٩].

فالطبيعة تفعل الصور على الدوام. والروح يفيض الأرواح شمس ونهار، فقوله: ﴿وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَىٰهَا ۗ﴾ [الشمس: الآية ٤].

أي التعين بالأجسام العنصرية الشبيه بالليل، يغشى التعين السابق الشبيه بالنهار، لأنه روح نوراني.

وقوله: ﴿وَالسَّمَاءَ وَمَا بَيْنَهَا ۗ﴾ [الشمس: الآية ٥].

هو كناية عن مرتبة التعين بالأرواح، لأن الأرواح سماء الأشباح، ولها العلو، وهو في الحقيقة ونفس الأمر روح واحد، عدده الصور المنفوخ فيها، كما عدت الطاقات والأبواب، والخروق والأماكن الشمس، وحقيقة الشمس واحدة لا يتعدّد، ولا يتبعّض ولا يتجزأ ولهذا ما ورد في القرآن العزيز، إلا مفرداً. فإذا اعتبر الروح مع الأجسام المدبرة، اسم مفعول؛ تعدّد بتعدد مجازاً لا حقيقة، وكما تسلّم؛ أن كلّ جسم له روح واحد يدبّره مع تعدد أعضاء الجسم وقواه الظاهرة والباطنة، وتباين آثار القوى، وهو في كلّ قوّة الفاعل للأثر المنسوب إلى تلك القوّة؛ كذلك يلزمك أن تسلّم: أن العالم كلّ له روح واحد، يدبره على تعدد أنواعه وأشخاصه من الذرة إلى

العرش. والفعل والتأثير له، في كل ما ينسب إلى العالم من الأفعال والتأثيرات. ووجه الكناية عن هذا التعيين بالسماء؛ هو أن السماء لها العلو والشرف الحسي والمعنوي، وأنها منبع الأنوار، ولها الفاعلية بما فيها من الكواكب والأملاك، وكذلك الأرواح مع الأجسام، وكما أن السماء بما فيها، تدبّر الأرض وما فيها، من معدن ونبات وحيوان، من غير اتصال، ولا امتزاج انتقال؛ كذلك الأرواح تدبّر الأجسام المتعلقة بها من غير حلول ولا اتصال، ولا امتزاج، وأمر الروح لا يدرك إلا بالكشف، ولا يدرك بالعقل أبداً، وكلّ كلام العقلاء فيه من حكيمة ومتكلم خطأ، وقد عزمتم أن أكتب فيه شيئاً، ما علمت أحداً سبقني إليه فصعقت، فألّفتي عليّ قوله تعالى: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً﴾ [الإسراء: الآية ٨٥].

فتأدبت واقتديت بمن قبلي، فإنهم الأدباء مع الله، الناصحون لعباد الله. وكلام القوم فيه؛ إنما هو إيماء وتلويح، وإشارة وتلميح، وما ذلك إلا لبعدها عن أعين الناس وأشكالها، فهو القديم الحادث، الواجب الممكن، الموجود المعلوم، الحامل المحمول، ليس له نداء، ولا مثل، ولا ضد.

وقوله: ﴿وَالْأَرْضُ وَمَا طَحَّهَا﴾ [الشمس: الآية ٦].

هو كناية عن التعيين بالذات الكلية، المنبثقة من العقل الأول، كانبعاث حواء من آدم، وهي المسماة بالروح المحفوظ، وهي الحاوية لتفصيل ما أحمل في العقل الأول من العلوم، فالعقل يدفع ما يفيض عليه إلى النفس، والنفس تدفع إلى ما تحتها، بحسب تقدير العزيز الحكيم، إلى أن يصل إلى العناصر، إلى المعدن، إلى النبات، إلى الحيوان، إلى الإنسان. فالنفس الكلية، إذا أقبلت على الجسم؛ يسمى إقبالها نفساً. والعقل الكلي، إذا أفاض على الجسم؛ يسمى إقباله عقلاً. فالنفس من فيض النفس الكلية والعقول من فيض العقل الكلي، وللنفس وجه إلى العقل الأول، ووجه إلى الطبيعة، لأن الطبيعة لها ثالث رتبة في الإيجاد، ووجه الكناية عن هذه المرتبة والتعيين بالأرض؛ هو أن الأرض لها صفة الانفعال، عن الأمور السماوية، وكذلك النفس لها رتبة الانفعال عن العقل الأول. والأرض محل لما يتكوّن فيها، وكذلك النفس محل لما يتفصل فيها من علوم العقل المجتمعة فيه، فقوله: «طحاها» كناية عن تفصيل العلوم ومدها فيها.

وقوله: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾ [الشمس: الآية ٧].

هو كناية عن مرتبة التعيين بالنفس الجزئية الإنسانية، وهي مخلوقة من نور واجب الوجود لذاته، ولهذا وجد فيها من الكمال جميع ما للحق - تعالى - . ووصفت

بجميع صفاته، ما عدا الوجوب بالذات، وحوث من النقائص جميع ما كان في الوجود، فجمعت صفات الحق والخلق. فحقيقة النفس الروح، وحقيقة الروح الحق - تعالى -، ولذا ورد في الأثر: «من عرف نفسه؛ عرف ربه».

فإذا نظر العارف إلى نفسه؛ وجدها الروح الأعظم، القائم بظهور الذات الإلهية، المحيطة بكل شيء، ومن جملة الأشياء: العرش وما حواه. ولذا قال العارف الكبير، أبو يزيد - رضي الله عنه -: «لو أن العرش وما حواه ألف ألف مرة، في زاوية من زوايا قلب العارف ما أحسن به».

فإذا نزلت الروح إلى عالم الأجسام الطبيعية وأخذت إليها مسخت نفساً. والنفس الغافلة بيت الشيطان. والنفس من حيث هي، لا خبث فيها، فهي طاهرة قدسية، وإنما هي منفذة للخبث بالعبء، فتنزل في كل هيكل على حسب ما يليق به، وتدبره بما هو مكتوب له وعليه من الأزل، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر. ومنها ما هو مطيع للروح، ومنها عاص. فالمطيع يسمى عالم الجبروت وهي التي لا خبث فيها. لأنها بهذا الاعتبار؛ هي الروح التي هي أمر الله، المنفوخ في الأجسام الإنسانية، والممد للأجسام الحيوانية، وهو وجه النفس إلى الملكوت. ووجهها الذي إلى الملك، هي العاصية التي نزلت إلى أسفل سافلين، فقد دُست بدنس أوانيها، كالماء الطاهر، ينزل في الأواني النجسة. فشرع الله - تعالى - الشرائع، وأرسل الرسل؛ لتطهر النفس من خبائثها، وتترقى من رذالتها، فتعود روحاً كما كانت، وأنه لا يتم لها هذا؛ إلا باتباع الرسل قولاً وفعلاً وحالاً، ولا يصح لها هذا أيضاً؛ إلا بجذبة إلهية، وخطفة ربانية، أو بالسلوك على يد شيخ عارف.

والحاصل؛ أن جملة الإنسان: روح وعقل ونفس. فالروح واحد يتعدد بتعدد الأعضاء، فهو واحد كثير، ولا يدبر الجسم. والعقل هو نور الروح، وهو يدبر الجسم بأمر الروح. والنفس؛ هي نور العقل، وهي بمنزلة الخادم للعقل. فإن كمل كملت النفس، وبالعكس. وجملة هذه الثلاث أمر واحد، وهو أمر الله. وقولنا في هذه المراتب: تعين الحق - تعالى - بكذا، لا يفهم منهم الحصر والتقييد. وإنما الحق في كل تعين؛ قابل للحكم عليه بأنه متعين، مع العلم بأنه غير محصور في التعين، وأنه من حيث هو غير متعين حال الحكم عليه بالتعين. فهو مطلق في آن تقييده، مقيد في آن إطلاقه، فهو - تعالى - على ما تقتضيه ذاته من الإطلاق والتعين والتجلي والاستتار، لا يتغير ولا يتحول، ولا يلبس شيئاً فيترك غيره ولا يخلع شيئاً فيأخذ

سواه. بل هو على ما هو عليه، أزلاً وأبداً، وإنما هذه التعينات والتغيرات والتحويلات في الصور، وفي النسب، والإضافات، والاعتبارات؛ إنما هو بحسب ما يتجلى به علينا ويظهر به لنا. وهو في ذاته على ما هو عليه من قبل تجليه وظهوره.

\* \* \*

## الموقف السابع والثمانون

روى مسلم أنه - ﷺ - قال: «إن الله لا ينظر إلى أجسادكم ولا إلى صوركم، وإنما ينظر إلى قلوبكم»<sup>(١)</sup>.

فمن بعض ما دلّ عليه هذا الخبر من المعاني؛ أنه - تعالى -، لا ينظر، بمعنى: لا يبالي، ولا يتوجّه بنظر خاص نظر عناية. فهو - تعالى - يرى ويبصر جميع الأشياء حال عدمها، وحال إيجادها، ولكنه لا ينظر إليها، بمعنى يتوجّه إليها توجّها خاصاً بنظر مخصوص، ورؤية مخصوصة، بخير أو شر؛ إلا إذا أراد ذلك. وهو معنى الحديث الآخر، إن شاء الله. كذا وكذا نظرة في اليوم إلى القلب، وقوله: «إلى أجسادكم» يعني إذا كان الجسد مثلاً في المسجد والقلب في السوق، أو في الضيعة، أو كان الجسد في أحد الأماكن الشريفة، مكة أو المدينة، أو بيت المقدس، والقلب في غيرها من المشرق أو المغرب، فلا ينظر الله - تعالى - إلى الجسد، بمعنى أنه لا يبالي به حتى يتوجّه إليه بالنظر الخاص والرؤية الخاصة، ليفيض عليه من خيراته، وأنواع كرامته وتجلياته، وقوله: «ولا إلى صوركم» يعني لا يبالي بها إذا كانت جميلة كاملة، أو كانت قبيحة ناقصة، فإنه تعالى ما رُتب على ذلك خيراً ولا شراً، ولا ثواباً ولا عقاباً، ولا كرامة ولا إهانة، إذ الإنسان، ما حصل له الشرف على جميع المخلوقات، بحسن شكله وصورته، فإن الصورة في الحائط أو الورق مثله، ولا يكبر جسمه، فإن الفيل أكبر منه. ولا يشجاعته؛ فإن الأسد أشجع منه. ولا بكثرة نكاحه؛ فإن أخس العصافير أكثر سفاداً منه، فما كان له الشرف إلا بإنسانيته، وهي قلبه:

عليك بالنفس فاستكمل فضائلها      فأنت بالقلب لا بالجسم إنساناً

ولذا قال: «وإنما ينظر إلى قلوبكم» لأنها هي الإنسان الحقيقي، وهي محل تجلّي الحق - تعالى -، وهي التي وسعته: بالعلم، والمعرفة، والظهور بالأسماء

(١) في الصحيح عن أبي هريرة، كتاب البر، باب تحريم ظلم المسلم، حديث رقم (٣٢ - ٢٥٦٤).

والصفات، كما قال تعالى<sup>(١)</sup>: «ما وسعني أرضي ولا سمائي، ووسعني قلب عبدي المؤمن».

ولا يسعه - تعالى - إلا علمه، فالقلب؛ هو علم الحق - تعالى -، فافهم وتفطن للرمز المرموز، والسر المكنوز، فمعنى نظر - تعالى - للقلوب: أنها هي التي يبالي بها، ويتوجه بالنظر الخاص إليها: للإسعاد والإكرام بالعلوم وأنواع الكرامة، أو للأشقاء والإبعاد والحجاب وأنواع الإهانة. فلا يقبل الحق - تعالى - الأعمال الصالحة إلا تبعاً للقلوب. ولا يعاقب على الأعمال السيئة إلا مع القلوب. فإن القربات لا تكون قربة إلا مع النيّة «إنما الأعمال بالنيات» وهي القصد، بمعنى حضور القلب المستلزم لحضور الرب. وكذلك السيئات، لا تكون سيئة حقيقة في الدنيا والآخرة إلا مع القلب. ولذا ورد في الصحيح: «رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه»<sup>(٢)</sup>.

يعني رفعت المؤاخذه عليه من جهة الحق - تعالى -، لعدم معيَّة القلب. وإن كانت تسميتها سيئة، والمؤاخذه بها في الدنيا حاصلة، وفي قوله تعالى:

﴿قَالَ اتَّبُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوْفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾﴾ [يوسف: الأيتان ٥٩، ٦٠].

إشارة إلى هذا، أي قال الملك الحق - تعالى - لأخوة يوسف (الجوارح) اتتوني بأخ لكم (بنيامين، القلب) من أبيكم (الروح الكلي الجامع بينكم في النسب) ألا ترون أنني أوفي الكيل (لمن جاءني بمطلوبي منه، فأعطيه حقه، وأتفضل عليه بما لا قيمة له) فإن لم تأتوني (أيها الجوارح) به (بنيامين القلب)، الذي هو مطلوبي ومحل نظري منكم، فلا كيل لكم عندي (ولا تصلون إلى مطلوبكم مني، إذا لم أصل إلى مطلوبي منكم) فمعنى: ﴿فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي﴾ [يوسف: الآية ٦٠].

أي لا تستحقون ولا تستأهلون العلوم والأسرار، حيث ليس لكم استعداد لحملها. وإنما المستعد المتأهل لها بالقوة القلب، وكذلك الآية قبلها. وهي قوله تعالى (الملك):

(١) في الحديث القدسي.

(٢) أورده المتقي الهندي في (كنز العمال ١٠٣٠٧، طبعة التراث الإسلامي).



﴿أَتُونِي يَوْمَ اسْتَخْلَصَهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾﴾  
 قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْمُ ﴿٥٥﴾ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي  
 الْأَرْضِ ﴿٥٦﴾ [يوسف: الآيات ٥٤ - ٥٦].

أي قال الملك (الحق) للجوارح (الموكلين بالسجن) وهو الجسم الطبيعي: اتنوني بيوسف (القلب) استخلصه: (اجعله خالصتي ومحل سرّي وغيبتي)، وارفع عنه الحجاب، واكشف له النقاب، وأخصه برؤيتي، وابسط يده في مملكتي، فلما كلم الملك (الحق) يوسف (القلب) كلام تأنيس وبشارة من غير حرف ولا صوت ولا إشارة؛ قال له: إنك اليوم (حين رفع الحجب وزوال البين، واتحاد العين بالعين) لدينا مكين (ثابت المنزلة متمكن في مرتبتك الرفيعة، أمين على أسرارنا، فعيل بمعنى مفعول) فلما سمع يوسف (القلب) الخطاب، وذاق لذته، وطرب وطباب، وشره وطمع، مثل الكليم، لما سمع قال: اجعلني متصرفاً في أعطياتك، وخليفة على خزائن كنوز النفوس الأرضية، أتصرف فيها بأمرك، وعلى مقتضى إرادتك وحكمتك، إني حفيظ لها من الفساد، أمنعها ممن يختلسها ويغتالها، من شيطان وهوى ودينا، عليم بأحوال العطية والمعطي، فلا أعطي من لا يستحق فأظلم العطية، ولا أمنع من يستحق فأظلمه، ولا أعطيته فوق ما يستحق فأظلم نفسي بتضييع الوزن والعدل، فأجابه الملك الحق ورده من حضرة الملكوتية الربانية، إلى حضرة الملك متصرفاً في النفوس الإنسانية على ما سبقت به القسمة الأزلية، وتعلق العلم القديم فقال، وكذلك مكنا ليوسف القلب الكامل في أرض النفوس<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

### الموقف الثامن والثمانون

قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنْتُمْ عَدَابُ اللَّهِ أَوْ أَنْتُمْ السَّاعَةُ أَعْبَرِ اللَّهُ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الأنعام: الآيتان ٤٠، ٤١].

هذه الآية الكريمة نفي وبرهان في الرد على المشركين، الذين جعلوا لله أنداداً وشركاء في الألوهية، والتماس النفع منهم، عند عاثة المفسرين وعندنا وعند أهل

(١) قال المؤلف رحمه الله (حسب ما ورد في بعض النسخ القديمة): إن هذا الوارد الذي انتهى قد ورد عليه وهو في لوندرة.

طريقنا؟ هي نعمي ورداً على مَنْ جعل الله تعالى شريكاً مطلقاً في الألوهية وفي الوجود والصفات، قل يا محمد لهؤلاء المحجوبين، الذين جعلوا للمخلوقات وجوداً مستقلاً حاداً أو قديماً وجعلوا لها صفات مغايرة لصفات الله - تعالى -، من قدرة وإرادة وغيرهما، فأذاهم ذلك إلى أن قالوا: إنه إذا نزل بنا ما لا يقدر على دفعه المخلوق؛ فإننا ندعو الله إليه، وإذا نزل بنا غير ذلك من مهماتنا ومصالحنا؛ فإننا ندعو غير الله إليه من مخلوقاته، أرايتكم أخبروني: إن أتاكم نوع من أنواع عذاب الله، الخارجة عن طوق المخلوق، كالزلازل والخسف والريح العاصفة، أو أتتكم الساعة، وهي القيامة والحشر للحساب، أغير الله تدعون؟ أي: أكون لكم مدعوً مغاير الله - تعالى - فيه هاتين الحالتين، وفي هذين الوقتين؟ أم تدعون الله الذي تخيّلتموه مبايناً للعالم ومغايراً له، وتسون ما تشركون، أي تسون شرككم، وهو جعلكم للمخلوقات وجوداً مستقلاً مغايراً للوجود الحق؟! فلا شك أنهم يقولون ما هو معتقدهم، من مغايرة وجود الحق لوجود الخلق، إذ الحق - تعالى - عندهم؛ لا يظهر في مظهر، ولا يتعين بتعين. إن كنتم صادقين، «إن» بمعنى «لو» أي لو كنتم صادقين لعلمتم وقلتم: إنكم لا تدعون إلا الله - تعالى - في جميع الأحوال والأوقات. فإن المخلوقات من جن وإنس وملك وغيرهم، مظاهره هو الظاهر لا غير. والصدق مطابقة الخبر للواقع. والكذب ضده، فالصادق؛ هو العارف الذي يقول: المدعو لكل أمر، وفي كل وقت وحال؛ هو الله - تعالى - والمخلوقات مظاهره، من غير حلول ولا اتحاد ولا امتزاج، كما قال:

﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ أَنْتُمْ أَفْقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ﴾ [فاطر: الآية ١٥].

ونحن افتقارنا إلى بعضنا، فافتقارنا ليس إلا إليه، وبعضنا مظاهره وتعييناته لا غير، والكاذب؛ هو الجاهل الذي يقول: المدعو في حال ووقت هو الله. والمدعو في حال ووقت؛ غيره. بل إياه تدعون. يبطل لما تخيّلوه، وإضراب على ما توهموه، وحصر لدعائهم في كل وقت وحال، في الله - تعالى - فيكشف ما تدعون إليه ممّا قلّ أو جل إن شاء. فإنه لا مكره له - تعالى - . ولأن الغالب على مَنْ كانت حالته الجهل بالله؛ عدم إجابة دعائه، لأنه تخيّل الله - تعالى - بعيداً عنه في السماء أو فوق العرش لا غير. فيكون الله - تعالى - بعيداً عن إجابة دعائه. جزاء وفاقاً، لأنه عند ظن عبده به .

\*\*\*

### الموقف التاسع والثمانون

قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: الآية ١٠٧].

اعلم أنه ليس المراد من إرساله رحمة للعالمين. هو إرساله من حيث ظهور جسمه الشريف الطبيعي فقط، وإن قال به جمهور المفسرين وعامتهم، فإنه من هذه الحيثية غير عام الرحمة لجميع العالمين. فإن العالم؛ اسم لما سوى الحق - تعالى -، بل المراد إرساله من حيث حقيقته التي هي حقيقة الحقائق، ومن حيث روحه الذي هو روح الأرواح. فإن حقيقته - ﷺ - هي الرحمة التي وسعت كل شيء، وعمت هذه الرحمة حتى أسماء الحق - تعالى -، من حيث ظهور آثارها ومقتضياتها بوجود هذه الرحمة. وهذه الرحمة؛ هي أول شيء فتق ظلمة العدم، وأول صادر عن الحق - تعالى - بلا واسطة، وهي الوجود المفاض على أعيان المكوّنات، وقد ورد في الخبر: «أول ما خلق الله؛ نور نبيك يا جابر».

ولهذه الحقيقة المحمّدية أسماء كثيرة باعتبار كثرة وجوها واعتباراتها، وأذكر طرفاً منها، ليكون نموذجاً لما لم أذكره، فإن كثيراً من الناس الذين يطالعون كتب القوم - رضوان الله عليهم - حين يرون هذه الأسماء الكثيرة؛ يظنون أنها لمسمّيات متعدّدة، وليس الأمر كذلك؛ وإنما هي مثل: السيف، والصارم، والقضيب، والهندواني، والأبيض، والصقيل، والمحدّد... ونحو ذلك لمسمّى واحد. منها: التعيين الأول للحق - تعالى - . ولذا قيل في حق الحقيقة المحمّدية: إنها الذات مع التعيين الأول، ومنها: القلم الأعلى، ومنها: أمر الله، ومنها: العقل الأول، ومنها: سدرة المنتهى، ومنها: الحد الفاصل، ومنها: مرتبة صورة الحق، والإنسان الكامل بلا تعديد، ومنها: القلب، ومنها: أم الكتاب، ومنها: الكتاب المسطور، ومنها: روح القدس، ومنها: الروح الأعظم، ومنها: التجلي الثاني، ومنها: حقيقة الحقائق، ومنها: العماء، ومنها: الروح الكلّي، ومنها الإنسان الكامل، ومنها: الإمام المبين، ومنها: العرش الذي استوى عليه الرحمن، ومنها: مرآة الحق، ومنها: المادة الأولى، ومنها: المعلم الأول، ومنها: نفّس الرحمن، بفتح الفاء، ومنها: الفيض الأول، ومنها: الدرّة البيضاء ومنها: مرآة الحضرتين، ومنها: البرزخ الجامع، ومنها: واسطة الفيض والمدد، ومنها: حضرة الجمع، ومنها: الوصل، ومنها: مجمع البحرين، ومنها: مرآة الكون، ومنها: مركز الدائرة، ومنها: الوجود الساري، ومنها: نور الأنوار، ومنها: الظل الأول، ومنها: الحياة السارية في كل موجود، ومنها: حضرة الأسماء والصفات، ومنها: الحق المخلوق به كل شيء... إلى غير ذلك مما يطول ذكره.

فأما وجه تسميته بمرتبة الحق، والإنسان الكامل بلا تعديد؛ فلائذ صورة الحق هي صورة علمه بذاته، وصورة العلم صورة نسب علمه، وصورة نسب

علمه عبارة عن تعيّنات وجوده التي هي أحواله من حيث تعددها، وعينه من حيث توخذها.

وأما وجه تسميته بالحدّ الفاصل فلأنه فاصل بين ما تعيّن من الحق وما لم يتعيّن. وهو مجلى لما تعيّن منه. ولا بدّ من هذا الحدّ الفاصل ليبقى الاسم الظاهر وأحكامه على الدوام. إذ لولاه؛ لطلب التفصيل الرجوع إلى الغيب، والإجمال. إذ الأشياء تحن إلى أصولها.

وأما وجه تسميته بسدره المنتهى؛ فلأنه هو البرزخيّة الكبرى، التي ينتهي إليها سير الكمّل وأعمالهم وعلومهم. وهي نهاية المراتب الأسمائية.

وأما وجه تسميته بالقلب، فليّمعان كثيرة، منها: أنه لباب العالم وزينة الموجودات أعاليها وأدانيها. وقلب الشيء؛ خلاصته. ومنها أنه سريع الثقلّب، كما قال: كلمح بالبصر، ومنها: أنه قلب دائرة الوجود ونقطتها. ومنها؛ أنه قلب المحدثات وعكسها، بمعنى أنه نور قديم إلهي، بخلاف الممكنات.

وأما وجه تسميته بالعقل الأول؛ فلأنه أوّل من عقل عن الحق - تعالى - أمره بقوله: «كن» أوجده - تعالى - لا في مادة ولا مدة، عالمًا بذاته، علمه ذاته لا صفة له، فهو تفصيل علم الإجمال الإلهي. وقد ورّد في خبر: «أول ما خلق الله العقل».

وأما وجه تسميته بأمر الله؛ فلأنه الكلمة الإلهيّة الجامعة الشاملة، والكلام صفة المتكلم، وصفته - تعالى - عين ذاته، وهو أمر واحد قال تعالى:

﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَجِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ [الفمّر: الآية ٥٠].

فأفرد وقال: ﴿أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾ [الشورى: الآية ٥٣].

فجمع. فهو أمر واحد وأمور كثيرة. وقال: ﴿وَاللَّيْلُ يَرْجِعُ الْأَمْرُ كُلَّهُ﴾ [هود: الآية ١٢٣].

فتأكيده «بكل» يقضي بتعدده، لأنه لا يؤكّد بها؛ إلا ذو أجزاء. وما ذاك؛ إلا باعتبار المعدودات، لا باعتبار ذاته. وأما كونه كلمح بالبصر؛ فلأنه، أي أمر الله، لا صورة له. وهو الظاهر بكل صورة حسية أو عقلية، أو خيالية، أو مثالية والصور لا بقاء لها أكثر من أن واحد، لأنها أعراض. والعرض لا يبقى زمانين. وهذا هو الخلق الجديد دائماً، الذي الناس في لبس منه.

وأما وجه تسميته بالقلم الأعلى؛ فمن حيث التسطير والتدوين، إذ هو كاتب  
الحضرة الإلهية، وقد ورد في خير: «أول ما خلق الله؛ القلم».

وأما وجه تسميته بالحق المخلوق به كل شيء؛ فلأنه ليس هو إلا ظهور الحق  
وتعيينه، فهو حقٌّ، والظهور والتعيين عدم، فهو خلق. ولما ظهر الحق - تعالى - به؛  
جعل شريطةً وسبباً لوجود كلٍّ موجود بعده، إلى غير نهاية، وفوض الحق إليه أمر  
المملكة كلها، فهو يتصرف فيها بإرادته - تعالى -.

وأما وجه تسميته بحضرة الأسماء والصفات؛ فلأنه - تعالى - لما اقتضى لذاته  
إيجاد العالم؛ اقتضى هذا الاقتضاء المذكور انقسام الذات العلية إلى طالب ومطلوب،  
وحاضر ومحضور، ولا شيء إلا الذات وحدها، وكل أمرين متقابلين؛ لا بد أن يكون  
بينهما أمر ثالث، ليتميز كل منهما عن الآخر، فظهرت حضرة الأسماء والصفات من  
بين هاتين الحضرتين القديمتين، حضرة الطالب والمطلوب، والحاضر والمحضور،  
فوصف بها الطالب باعتبار المطلوب، والمطلوب باعتبار الطالب، فظهر المطلوب  
على صورة الطالب، باعتبار اتصافه بهذه الأوصاف مع تباين الطالب والمطلوب بالنظر  
إلى ذات كلٍّ منهما، وإن كانا ذاتاً واحدة في الحقيقة، فحقيقة الاقتضاء الذاتي؛ هو  
طلب الذات حضورها عندها، بطلب هو عين ذاتها، مثل اقتضائها لأوصافها. وإلا  
كانت أوصافها حادثة، لأنها مطلوبة لها. وأوصافها قديمة أزلية.

وأما وجه تسميته بأمر الكتاب؛ فلأن الوجود مندرج فيها اندراج الحروف في  
الدواة، ولا تسمى الدواة باسم شيء في أسماء الحروف. وكذلك أم الكتاب، لا  
يطلق عليها اسم الوجود ولا العدم، فلا يقال: إنها حق ولا خلق، ولا عين ولا غير،  
لأنها غير محصورة حتى يحكم عليها بحكم، ولكنها ماهية لا تنحصر بعبارة إلا ولها  
ضد تلك العبارة من كل وجه. وهي محل الأشياء، ومصدر الوجود. فالكتاب هو  
الوجود المطلق، وهذه الحقيقة، كالذي تولد الكتاب منها. فليس الكتاب إلا أحد  
وجهي هذه الحقيقة، إذ الوجود أحد وجهيها، والعدم هو الوجه الثاني، فلهذا ما  
قبلت العبارة بشيء، لأنه ما فيها وجه إلا وهي ضده.

وأما وجه تسميته بالكتاب المسطور؛ فلأنه الوجود المطلق على تفاريعه  
وأقسامه، واعتباراته الحقيّة والخلقية، وهو مسطور، أي موجود مشهود.

وأما وجه تسميته بروح القدس؛ فلأنه الروح المقدّس عن النقائص الكونية، فهو  
روح لا كالأرواح، لأنه روح الله كما قال: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾ [الحجر: الآية].

وروح الله ذاته. فالوجود كله قائم بروح الله الذي هو ذاته. فروح الله قديم، وما سواه - تعالى - محدث. فالإنسان مثلاً له روح مخلوق به قامت صورته. ولذلك الروح المخلوق روح إلهي، قام به ذلك الروح، وهو المعبر عنه بروح القدس.

وأما وجه تسميته بالروح الأعظم؛ فإنه روح الأرواح، إذ الأرواح الجزئية لكل صورة جسمية أو روحية أو عقلية، أو خيالية، أو مثالية؛ إنما هي فائضة منه. وتسميتها أرواحاً جزئية؛ مجاز إذ لا جزء، ولا كل، ولا بعض، ولا معدود، إلا بحسب الصور لا غير، كما عدت الأماكن، والأزمان، والأبواب، والطاقات، والخروق للشمس، وهي حقيقة واحدة.

وأما وجه تسميته بالتجلي الثاني؛ فبالنسبة إلى التجلي الأحدي الأول، إذ هذا التجلي الثاني؛ به وفيه ظهرت أعيان الممكنات الثابتة، التي هي شؤون الذات لذاته - تعالى - وهو التعيين الأول بصفة العالمية والقابلية. لأن الأعيان الثابتة معلوماته الأولى الذاتية القابلة للتجلي الشهودي، وللملق بهذا التجلي. تنزل من الحضرة الأحدية إلى الحضرة الواحدية، بالنسب السماوية.

وأما وجه تسميته بحقيقة الحقائق؛ فلأن كل حقيقة إلهية، أو كونية؛ إنما تحققت به، إذ هذه الحقيقة لا تتصف بالحقيّة ولا بالخلقيّة، فهي ذات محض، لا تضاف إلى مرتبة. فلا تقتضي لعدم الإضافة وصفًا، ولا أسماء. ولذا قال إمامنا محيي الدين: «المعلومات ثلاثة: الحق تعالى، والعالم، ومعلوم ثالث، لا يوصف بالوجود، ولا بالعدم، ولا بالحق، ولا بالخلق، ولا بالحدوث، ولا بالقدم، ولا بالوجوب، ولا بالإمكان، فإذا وصف به الحق فهو حق، وإذا وصف به القديم فهو قديم، وإذا وصف به الحادث فهو حادث» وهكذا.

وأما وجه تسميته بالعماء فلأن العما في اللغة السحاب الرقيق، ورد في الخبر: «كان ربنا في عماء، ما فوقه هواء، وما تحته هواء»<sup>(١)</sup>.

يعني لا صفة حق، ولا صفة خلق، على أن «ما» نافية، ويصح أن تكون «ما» موصولة، أي الذي تحته هواء، وفوقه هواء، بمعنى أنه يصلح أن يكون حقًا، وأن يكون خلقًا، فالعماء؛ مقابل للأحدية. ولا يصح أن يكون العماء هو الأحدية، لأن الأحدية حكم الذات في الذات، بمقتضى التعالي. وهو البطون الذاتي الأحدي. والعماء حكم الذات بمقتضى الإطلاق، فلا يفهم منه تعال ولا تدان. فالأحدية صرافة الذات بحكم

(١) رواه الترمذي، كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة هود، حديث رقم (٣١٠٩). ورواه ابن حبان في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب ذكر الإخبار عما كان الله فيه قبل خلقه السموات والأرض.



التجلي، والعماء صرافة الذات بحكم الاستتار. فالعماء هو الممكنات والظاهر فيها هو الحق. والعماء هو الحق، وسمي الحق؛ لأنه عين نفس الرحمن. والنفس مبطنون في المتنفس، بمعنى أنه باطن المتنفس؛ فظهر. فالعماء هو الاسم الظاهر.

وأما وجه تسميته بالنور؛ فلأنه ورد: «أول ما خلق الله نور نبيك يا جابر».

والنور نوران، نور الحق، وهو الغيب المطلق القديم. ونور العالم المحدث، وهو نور محمد - ﷺ - الذي خلقه الله من نوره، وخلق كل شيء منه، فهو كل شيء من حيث الماهية، وكل شيء غيره من حيث الصورة. وورد في بعض الأخبار: «أنا من ربي والمؤمنون مني»<sup>(١)</sup>.

وإنما خص المؤمنين للتشريف. وإلا؛ فكل الخلق منه، مؤمنهم وكافرهم، ولهذا كان الكمل يشهدونه في كل شيء على الدوام، حتى قال المرسي - رضي الله عنه - لو احتجب عني رسول الله - ﷺ - طرفة عين؛ ما عدت نفسي من المسلمين. فالمراد بعدم الاحتجاب؛ دوام شهود سريان حقيقته في العالم كله، لا شخصه الشريف، وإني أيام مجاورتي بالمدينة المشرفة، كنت ليلة في صلاة الوتر، قرب الحجرة الشريفة، فطراً عليّ حال، فسالت دموعي، واشتعلت نار محبة رؤيته - ﷺ - في قلبي، فقال لي في الحين: ألسنت تراني في كل شيء؟! فحمدت الله. ولا يفهم مما ذكرناه حلول ولا تجزئة، ولا جزئية. فإن معنى إيقاد السراج من نور سراج آخر؛ أن الأول أثر في الثاني، فظهر الثاني على صورة الأول. بل الثاني عين الأول، ظهر في فتيلة ثانية من غير انتقال عن الأول. وهذا غاية ما قدر عليه أهل الوجدان في التفهيم، فافهم السر واحذر الغلط، وإذا عرفت؛ فاحمد الله، وإلا؛ آمن به على مراد أهله وذوقهم، فإنهم الفرقة الناجية.

وأما وجه تسميته بمرآة الحق؛ فلأن الحق - تعالى -، رأى نفسه فيها، إذ الحق شاء أن يرى ذاته في صورة كون جامع؛ فظهر بذاته في الحقيقة المحمدية، وقدر الصور كلها فيها، كما هي في علمه فقامت له نفسه في صورة المغايرة، مقام المرأة من غير انفصال ولا تعداد، لأن الصورة في المرأة؛ ليست إلا صورة الناظر فيها، المتوجه عليها، وليست هي صورة الناظر بعينها. فلما نظر الحق إليها؛ ظهر كل ما في الصورة الإلهية في تلك المرأة، التي هي نفس الحق في الحقيقة، والحقيقة المحمدية في الخلق الأول، وحقائق العالم في حضرة التفصيل، فنظر الحق فيها، فرأى نفسه ظاهراً فيها

(١) هذا الحديث لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع.

بجميع معلوماته، من غير حلول ولا اتحاد فخطب معلوماته التي كساها حلة وجوده «بكن» فكانت لأنفسها. وفي الحقيقة؛ ما خاطب إلا نفسه بنفسه.

وأما وجه تسميته بمرآة الكون؛ فلأن الأكوان وأحكامها وأوصافها؛ لم تظهر إلا فيه، وهو مختف بظهورها كما تختفي المرآة بظهور الصور فيها.

وأما وجه تسميته بالظلّ الأول؛ فلأنه هو الظاهر بتعينات الأعيان الممكنة وأحكامها، التي هي معدومات ظهرت بما نسب إليها من الوجود، فستر ظلمة عدمها، النور الظاهر بصورها، وصار ظلّاً لظهور الظل بالنور وعدميته في نفسه. قال تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ﴾ [الفرقان: الآية ٤٥]. أي بسط الوجود على الممكنات.

وأما وجه تسميته بمجمع البحرين؛ فلأنه مجمع بحري الجوب والإمكان، أو باعتبار اجتماع الأسماء الإلهية والحقائق الكونية فيه.

وأما وجه تسميته بالمادة الأولى؛ أي هيولى الكل؛ فلأنه أوّل مخلوق تعيّن في الحضرة الغيبية، وتفصل منه جميع ما في العالم الكبير والصغير، من جليل وحفير. فهي هيولى العالم، أي المادة المتقدمة على الموجودات، التي هي موجودة في كلّ الموجودات، ولا تخلو عنها صورة في العالم، كما تقول الفلاسفة في الهيولى، وهي الجوهر الذي تتركب منه الأجسام عندهم. لأن الله خلق الأشياء، منها ما خلقه من غير سبب متقدم عليه في الإيجاد، وليس إلا المادة الأولى التي ظهرت عن حضرة اللاتقيين، وجعلها سبباً لجميع المخلوقات.

وأما وجه تسميته بظاهر الوجود؛ فلأن الوجود منقسم بالاعتبار إلى ظاهر وباطن. فباطن الوجود؛ هو الغيب المطلق الذي لا يسمّى ولا يوصف. وأما ظاهر الوجود؛ فهو ظهور الوجود الحق بأعيان الممكنات، أعني أحكامها وصفاتها، وهو الوجود الإضافي، أي المضاف إلى الممكنات.

وأما وجه تسميته بالعرش الذي استوى عليه الرحمن؛ فلأنه مظهر لجميع الأسماء من جلال وجمال، فاستوى عليه كما يعلم، لا كما نعلم نحن، ولأن العرش محيط بالعالم، في قول. أو هو جملة العالم، في قول. والمخلوق الأوّل، وهو الحقيقة المحمدية؛ يشبه العرش في وجه الإحاطة. وقد ورد في خبر: «أوّل ما خلق الله؛ العرش»<sup>(١)</sup>.

(١) هذا الخبر لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع.

وأما وجه تسميته بمركز الدائرة؛ فالمراد بالدائرة الأكوان كلها. والمركز هو القطب الذي تدور عليه، كقطب الرحي الذي هو ماسك لها، ولولا استقامته ما استقامت على وزن واحد. فلأنهم نظروا إلى كل خط يخرج من النقطة إلى المحيط. فالنقطة؛ هي محط فخذ البيكار الأول، والمحيط هو محط فخذ البيكار الثاني، وله شعبتان لحمل المداد الذي تكوّن عنه صورة الدائرة. لكنّه لا يدور إلا على الفخذ الأول، الراكز على أمر واحد من غير استدارة ولا مداد فيه، لكنّه يمدّ ما فيه المداد، بالاستقامة على حركته الدورية. فلهذا يخرج كل خط مساويًا لصاحبه الذي قبله والذي بعده، لأن الدائرة كلّها نقط وخطوط متصل بعضها ببعض. فنقطة المركز؛ تقابل كلّ نقطة من نقط الدائرة بأكملها. وكل نقطة من نقط الدائرة؛ هي عين نقطة المركز، باعتبار انفرادها ومقابلتها إياها، فهي محيطة بكلّ نقطة من هذا الوجه؛ وليست هي نقطة من نقط الدائرة، باعتبار استدارتها واتصالها بما قبلها وبما بعدها. فهي في هذا الوجه؛ مغايرة لكل نقطة. فاعتبر ذلك في الحق - تعالى - فالدائرة دائرة الأكوان، واتصال بعضها ببعض. والمركز إشارة إلى سكون الأمر، وهو الحقيقة المحمّدية، تحت القضاء والقدر، وتنفيذ ما أراد الله بعباده.

وأما وجه تسميته بالواصل؛ فلأنه يصل الأشياء الكثيرة بعضها ببعض حتى تتحد. ولأنه الواصل بين البطون والظهور.

وأما وجه تسميته بواسطة الفيض والمدد؛ فلأنه هو الرابط بين الحق والخلق، بمناسبته للطرفين، فله وجهان، هو في أحدهما حق، وفي الآخر خلق.

وأما وجه تسميته بنفس الرحمن؛ فلكونه شبيهاً بالنفس الخارج من الجوف، المختلف بصورة الحروف، مع كونه هواء ساذجاً في ذاته. ونظرًا إلى الغاية التي هي ترويح الأسماء الداخلة تحت الاسم الرحمن عن كربها، وهو كمون الأشياء، وكونها بالقوة، كترويح الإنسان بالنفس. وكذا الحقائق الكونية لانعدام أعيانها. واستهلاك الجميع، أعني النسب والشؤون الإلهية والكونية في الوحدة الذاتية.

وأما وجه تسميته بالفيض الأول؛ فلأن الحق - تعالى - أبرزه من حضرته قبل كلّ شيء وأفاضه على عين كلّ شيء، فظهر كلّ شيء ممتدًا منه بسبب فيضانه عليه. وحملهم على هذه التسمية؛ أنهم رأوا الأجسام بيوتًا مظلمة، فإذا غشيها نور الحقيقة المحمّدية؛ أشرقت وأضاءت بالأنوار المفاضة من هذه الحضرة، التي هي من حضرات الحق تعالى.

وأما وجه تسميته بالدرة البيضاء؛ فلأنه محل تجلّي الحقيقة الإلهية. والتجلي في الشيء الصافي الذي ما خالطه شيء من الأدناس؛ أقوى وأرقى ما يكون. وقد ورد في خبر: «أول ما خلق الله؛ درة بيضاء» الحديث بطوله.

وأما وجه تسميته بمرآة الحضرتين؛ فلأنه محلّ ظهور حضرة الوجوب، بظهور الأسماء والصفات جميعها فيه. ومحلّ ظهور حضرة الإمكان؛ بظهور الممكنات، كلها صورها وأوصافها وأحكامها فيه. فهو مرآة لعين الذات. ولما تعيّن فيها وبها. ونسبة ما تعيّن لما لم يتعين؛ نسبة ما يتناهى إلى ما لا يتناهى.

وأما وجه تسميته بالمعلم الأول؛ فباعتبار أنه أوّل موجود ظهر في الغيب، باعتبار نشأته الباطنة، وهو الروح الكلّ. وأوّل معلم ظهر في الإرشاد، باعتبار نشأته الظاهرة. فعلم الملائكة الأسماء كلها وما علم الأسماء إلا من نفسه، بأن كشف الحق له عن ذاته؛ فوجدها مجموع الأسماء. فالحقيقة المحمدية؛ مجموعة صورة آدم الظاهرة والباطنة. وإني وإن كنت ابن آدم صورةً فلي فيه معنى شاهد بأبوتني<sup>(١)</sup>

وأما وجه تسميته بالإمام المبني؛ فلأنه فضل الموجودات، وبيّن أعيانها بظهوره فيها، كما بيّن الحبر الحروف والكلمات.

وأما وجه تسميته بالروح الكلّ؛ فلأنه مشتق من الريح. وحكمة المناسبة؛ أن الريح ليست له صورة يعرف بها إلا من حيث مروره على الأشياء فيحركها، وكذلك الروح، يهب في مطلع الأحذية إلى مرتبة الأسماء والصفات، فيحمل منها العلوم والأسرار، وينزل إلى عالم العناصر والصور والأعيان المفصلة؛ فيحركها على حسب قوابلها واستعداداتها. وينفذ الروح فيها ذلك؛ على حسب مراد الله - تعالى -، إذ هو أمر الله القائم على جميع الخلق كلمح البصر. والروح يتردّد دائماً بين شعاعه، - أي أثر نوره الصادر عنه، كصدور الشعاع الصادر من قرص الشمس. والمراد بالشعاع الصادر عن الروح؛ العقل والنفس. وسائر القوى الروحانية، - وبين ضيائه، أي نوره الكلّي الذي هو الأصل كقرص الشمس. والمراد به هنا؛ وجود الحق المحيط بالروح الكلّ، فلذلك تقول: الروح له وجهان، وجه إلى أصله وهو الحق، ووجه إلى فرعه وهو الخلق، فيأخذ الأمر من الحق، ويكتبه بقلم العقل، في لوح النفس؛ فتقرأه الأعضاء أحوالاً وأعمالاً، وإنما قبل فيه «كلّي» لأنه قائم على جميع الصور، ومحيط بها، فأهل الله ينظرون بعلمهم فيجدون العالم كلّه أرواحاً مقدّسة، وأسراراً مستترة.

(١) هذا البيت هو لسultan العاشقين عمر بن الفارض من تائته المشهورة ويتكلم فيه بلسان الحقيقة المحمدية. (انظر ديوان ابن الفارض ص ٧٣، طبعة دار الكتب العلمية - بيروت).

وأما وجه تسميته برزخ البرازخ؛ فلأنه لا يغير حقيقة الواجب، ولا الممكن. فهو جامع بين الطرفين، إذ حقيقة البرزخ؛ أنه الحاجز بين الشئيين، لا يكون عين واحد منهما ولا غيرهما، ولا يكون إلا معقولاً. فإذا كان محسوساً؛ فليس ببرزخ، وهو الخيال، وهو الوهم، وهو الذي تصير إليه الأرواح بعد الموت.

فالكلم ثلاث: كلمة جامعة لحروف الفعل والتأثير، التي هي حقائق الوجوب. وكلمة جامعة لحروف الانفعال والتأثر، وهي حقيقة العالم. وكلمة جامعة بينهما، فاعلة منفعة، متأثرة مؤثرة، وهي هذه الحقيقة الكلية.

وأما وجه تسميته بالوجود الساري؛ فلأنه لولا سريان الوجود الحق في الموجودات، بالصورة التي هي منه، وهي الحقيقة المحمّدية؛ ما كان للعالم ظهور، ولا صحّ وجود لموجود، لبعده المناسبة وعدم الارتباط، فما صحّ نسبة الوجود للموجودات؛ إلا بواسطة هذه الحقيقة.

وأما وجه تسميته بالإنسان الكامل؛ فلأن كل إنسان كامل، من حيث صورته الظاهرة والباطنة؛ مظهر له وللوازمه.

وأما وجه تسميته بالخزانة الجامعة؛ فلأنه كناية عن علم الله - تعالى - بأسمائه، وبحقائق العالم. فكل ما خرج من الغيب؛ فمحلّه هذه الخزانة الجامعة.

وأما وجه تسميته بالصورة الرحمانية؛ فلأنها الصورة الظاهر لذاتها، الحاصلة في الاجتماع الأول الأسمائي، فهي صورة الرحمن، لأن مدلوله من له الرحمة العامة. ولا شيء كذلك إلا هذه الصورة. فالرحمن، اسم لهذه الصورة الوجودية من حيث ظهوره لنفسه، كما أن الله - تعالى -، من حيث أنه مشتق، لا من حيث إنه مرتجل؛ اسم لرتبة الألوهية الجامعة للقائق.

ويكفي هذا القدر من ذكر أسماء هذه الحقيقة المحمّدية لمن فهم، فإنها بحر لا ساحل له. ولهذا ورد في الخبر عنه - ﷺ -: «لا يعلم حقيقتي غير ربي»<sup>(١)</sup>.

وقال العارف الكبير<sup>(٢)</sup>: أعجز الخلائق، فلم يدركه منّا سابق، ولا لاحق، يعني العلم بحقيقته.

\*\*\*

(١) هذا الخبر لم أجده فيما لديّ من مصادر ومراجع.

(٢) يقصد عبد السلام بن مشيش في صيغة صلاته على النبي ﷺ التي أنشأها وموضع الاستشهاد ورد في أولها وهو: «اللهم صلّ على من منه انشقت الأسرار وانفلق الأنوار وفيه ارتقت الحقائق وتنزلت علوم آدم فأعجز الخلائق، وله تضاهلت الفهوم فلم يدركه منّا سابق ولا لاحق».

## الموقف التسعون

قال تعالى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: الآية ١٢].

اعلم أنه ما كان جهل؛ إلا بسبب التمايز، ولا كان علم؛ إلا بسبب الاتحاد، فكلما كثر ما به التمايز؛ عظم الجهل رأساً، وليس هذا إلا للحق - تعالى -، فإنه ما علم الأشياء علماً كاملاً، بحيث لا تتصور فيه شائبة جهل؛ إلا مَنْ علمها من ذاته بذاته، لا بصفته ولا من غيره. وليس ذلك إلا هو - تعالى -، فإنه لما علم ذاته؛ علم الأشياء من علمه بذاته، وعلم عين ذاته، أعني باطن العلم لا ظاهر العلم، والحق - تعالى - من حيث الذات الغيب المطلق؛ ليس داخلياً في الأشياء. فلا تطلق عليه الشبئية في مرتبة إطلاقه؛ حتى يحيط به علم غيره أو علمه، أعني ظاهر العلم. فإن حقيقة الشيء هو ما يصح أن يعلم ويخبر عنه والحق - تعالى - من حيث الذات والكنه والإطلاق؛ لا يصح أن يعلم ولا أن يخبر عنه، فإن الذات لا تعلم لإطلاقها. ولو علم المطلق؛ لانقلب حقيقته، وقلب الحقائق محال، فالمطلق إذا علم ليس ذلك العلم علماً بحقيقته؛ وإنما هو علم بوجوهه واعتباراته لا غير. فالحق - تعالى - يعلم ذاته ولا يحيط بها، أعني بالذات الغيب المطلق، وأعني بالعلم ظاهر العلم، فإنه أتى بالاسم «الله» الذي هو اسم لمرتبة الألوهية، أعني «الله» المشتق لا المرتجل، ولا نقص في هذا بل عين الكمال والتنزيه، وأما مرتبة التقييد، التي تعلم ولا تشهد خلاف الذات؛ فهي مرتبة الألوهية، فإنه يعلم ذاته المقيدة بصفات الألوهية ويحيط بها علماً، بمعنى أنه يعلم وجود ذاته المطلقة واعتباراتها لا حقيقتها، وهو في هذه المرتبة داخل في الأشياء التي أحاط بها علمه، وهي المسماة بظاهر الوجود وبالاسمي الكثيرة. وكل ما دخل الوجود؛ فهو متناه، تصح الإحاطة به، وفي هذه المرتبة دخل في الأشياء، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿قُلْ أَيْ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهْدَةً قُلِ اللَّهُ﴾ [الأنعام: الآية ١٩].

فمن عرف هذا الموقف حق المعرفة؛ زالت عنه إشكالات كثيرة، في عدة مسائل، أكثر الناس الخوض فيها، وكذا موقف «ألا إنه بكل شيء محيط» السابق. فالعلم حقيقة واحدة لا تتجزأ ولا تتعدد. وكل معلوم له حقيقة واحدة، فما يعلم من كل معلوم إلا الوجوه والاعتبارات، فتعدد العلم ونسبة الكثرة إليه؛ إنما هو بحسبها لا غير. فإذا تعلق علم زيد مثلاً بعشرين وجهاً لحقيقة من الحقائق، وتعلق علم عمرو بعشرة؛ يقال: علم زيد أكثر من علم عمرو. والحدود الموضوعية للأشياء؛ إنما هي وجوه لها واعتبارات ولوازم، فلا تعلم الحقائق بالحدود فافهم ترشد. والسلام.



## الموقف الواحد والتسعون

قال تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَجِدَةٌ﴾ [القمر: الآية ٥٠].

أمر الله تعالى؛ هو كلمته الكلية، وهو الصورة الرحمانية التي استوى بها على العرش، فهي في العرش واحدة كما قال: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَجِدَةٌ﴾ [القمر: الآية ٥٠].

يعني كلمة واحدة، جامعة لجميع الحروف والكلمات، لأنها السارية في كل حرف وكلمة. ثم لما تنزلت هذه الكلمة إلى الكرسي؛ صارت كلمتين، بمعنى ذات صفتين متقابلتين مزدوجتين، وهما المكني عنهما بالقدمين، أعني الصفتين المتقابلتين: حقٌ وخلق، خبيرٌ وحكم، وظهرت الزوجية، بعد أن كانت الكلمة واحدة في العرش، إذ الكرسي زوج للعرش ومن الكرسي؛ ظهر التعدد والمقابلة في كل الأشياء، حتى في الأسماء الإلهية، قابض وباسط، ومعطي ومانع، ومحبي ومميت... والمسمى واحد، كما كان حسن وقبيح، وطاعة ومعصية، وخير وشر، وصحة وفساد، وحق وباطل. وقيل: الكرسي ليس إلا شيء واحد كلُّه حق، وحسن وخير. فأصل القدمين؛ عبارة عن الأسماء المتضادة المخصوصة بالذات. وأسماء الذات المتضادات؛ لها آثار في المخلوقات. فقد يُرَادُ بالقدمين: هما معاً، الصفات الذاتية المتضادة وآثارها. وقد تخصُّ المتضادات، من أسماء الأفعال، لأن الصفات الذاتية فوق أسماء الأفعال. وقد ورد في خبر، رَدَّه علماء الظاهر ووسموه بالوضع، حيث أنهم ما وجدوا له تأويلًا حتى تقبله عقولهم وقبله السادة العارفون بالله وهو: رأيت ربِّي في صورة شابٍ أمرد له وفرة، وعلى وجهه فراش من ذهب، وفي رجليه نعلان من ذهب<sup>(١)</sup> الحديث.

\*\*\*

## الموقف الثاني والتسعون

قال تعالى: ﴿وَأَذْكُرُ رَبِّكَ إِذَا نَسِيتُ﴾ [الكهف: الآية ٢٤].

الذكر المأمور به ههنا؛ هو ذكر القلب لا ذكر اللسان، فإنه جعله ضدًا للنسيان. والنسيان محله القلب فقط. لأن شرط الضدين؛ اتحاد محلهما. وذكر

(١) أورده المتقي الهندي في كنز العمال (١١٥٢) طبعة التراث الإسلامي. والخطيب البغدادي في تاريخ بغداد (٢١٤/١١) تصوير بيروت. والبيهقي في الأسماء والصفات (٤٤٥) الطبعة الأولى. والمجلوني في كشف الخفاء، حديث رقم (١٤٠٧) طبعة دار الكتب العلمية - بيروت.

اللسان؛ ضدّه الصمت عن الذكر. وذكر القلب المأمور به؛ هو استحضار صورة العلم بالله الذي حصل له، كلما غفل جدّد ذكرها في قلبه. ولا تضرُّ غفلته. فإن العلم له الثبوت، بخلاف الإيمان؛ فإنه قد يزول. فإذا زال الإيمان، الذي هو سبب السعادة؛ خلف السعادة ضدها، وهي الشقاوة. وأمّا العلم؛ فإنه لا يزول ولا تؤثر فيه الغفلات، فإنه لا يلزم العالم الحضور مع علمه في كلِّ نفس. لأنه وإلِّ مشغول بتدبير ما ولّاه الله عليه، فيغفل عن كونه عالمًا بالله تعالى، ولا يخرج ذلك عن نعته بأنه عالم بالله تعالى، مع وجود الضدِّ في المحلِّ من غفلة أو نوم. فإنه لا جهل بعد علم. وأعني بالعلم؛ علم القوم - رضوان الله عليهم - الحاصل من التجليات الربّانية، والإلهامات الروحانية.

وأما العلم الحاصل عن النظر العقلي بالأدلة الفكرية، فمثل هذا لا يسمّى عند القوم علمًا لتطرق الشبه على صاحبه، فينقلب الدليل عنده شبهة، وقد تكون الشبهة عنده دليلًا. وإن وافق العلم؛ فالعلم الحقيقي، باسم العلم، ما لا يقبل صاحبه الشبه ولا يطرأ عليه تغيير، وليس ذلك إلّا علم الأذواق الحاصل بالتجليات.

وليست الغفلات خاصة بالأصاغر، بل تكون حتى للأكابر، فهي عامة في بني آدم حتى الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - ولكن العارفين بالله متفاوتون في زمان الغفلات، بحسب مقاماتهم، وانظر قوله - ﷺ - : «إنه ليغان على قلبي»<sup>(١)</sup> الحديث.

فإنه - ﷺ - كان مكلّفًا بأعباء الرسالة، وخطاب الناس على قدر عقولهم ومراتبهم، وتبليغ الشرائع إليهم، وهذا وإن كان من أعظم القربات، وأجل العبادات؛ فليس هو كخلوته بربه وانقطاعه إليه، ولهذا قيل: الولاية أفضل من الرسالة، يريدون: ولاية الرسل؛ أفضل من رسالته، لا الولاية مطلقًا. لأن ولايته؛ هي وجهه إلى الله تعالى، ولها يقول - ﷺ - : «لي وقت مع الله لا يسعني فيه نبي مرسل ولا ملك مقرب»<sup>(٢)</sup>.

وأما رسالته؛ فهي وجهه إلى الخلق. ولها يقول - ﷺ - : «إنه ليغان على قلبي».

فالمشاهدة ثابتة له - ﷺ - في جميع أحواله، كما قالت عائشة - رضي الله عنها - في وصفه - ﷺ - : «إنه كان يذكر الله في جميع أحيانه. ولكن المشاهدة تختلف

(١) رواه مسلم: كتاب الذكر، باب استحباب الاستغفار والاستكثار منه، حديث رقم (٤١) - (٢٧٠٢). ورواه أحمد في المسند، حديث رقم (١٧٨٦٦). ورواه أبو داود في سننه، كتاب الوتر، باب في الاستغفار، حديث رقم (١٥٦٥).

(٢) العجلوني في كشف الخفاء، حديث رقم (٢١٥٧) طبعة دار الكتب العلمية - بيروت.

أنواعها، والقلب وإن كان أمره عظيمًا وخطره جسيمًا، وكان لا أوسع منه، فكذلك هو لا أضيق منه، أمًا وسعه؛ فإنه وسع الحق تعالى، كما قال تعالى: «ما وسعني أرضي ولا سمائي، ووسعني قلب عبدي المؤمن».

وأما ضيقه؛ فإنه لا يقدر على الجمع بين شيئين في الآن الواحد:

﴿وَقُلْ عَسَىٰ أَنْ يَهْدِيَنَّ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا﴾ [الكهف: الآية ٢٤].

(عسى) من الله؛ واجبة. والمراد: أنه تعالى يرفعه إلى مقام أعلى مما كان فيه، في الوقت، أو ينقله من تدبير هذه النشئة الطبيعية العنصرية، إلى قضاء الحضور مع الله على الدوام، أو إلى نشأة تجامع الحضور مع الله دائمًا، كنشأة الملائكة - عليهم الصلاة والسلام -.

\*\*\*

### الموقف الثالث والتسعون

قال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: الآية ٤٩].

اعلم أن الشئية شيئين: شئية ثبوت، وشئية وجود. فشئية الوجود حادثة، وهي المراد المعنية في قوله تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَقْنَاكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ [مریم: الآية ٩].

أي موجودًا. وشئية الثبوت؛ هي عبارة عن استعداد الممكن، وقبوله للظهور بالوجود الحق، وظهور الوجود الحق به فإنه لولا قبوله؛ ما حصل ما حصل. ألا ترى المحال، لما لم يكن له استعداد ولا قبول للمظهرية ولا للظهور؛ ما كان له وجود؟! وهذا الاستعداد والقبول للممكن؛ قديم غير مجعول، فما تعلق به أثر للقدرة القديمة. كما أن العدم السابق على الوجود؛ ليس من أثر القدرة القديمة. فشئية الثبوت قديمة، وهي المرادة والمخاطبة بقوله:

﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [النحل: الآية ٤٠].

كان المأمور ثابتًا معدومًا فسمع الخطاب فامتثل الأمر بالكون فكان، فما أثبت الحق - تعالى - لنفسه إلا الأمر بالكون. وأمّا الكون؛ فمن الشيء المأمور لنفسه، إذ أمر المعدوم الصرف، الذي لا ثبوت له ولا استعداد للكون، وخطابه بالكون محال لا سيما من الحكيم العليم. فمتعلق الأمر والحدوث والخلق والتكوين؛ إنما هو الصورة وهي الهيئة الاجتماعية الحاصلة من اجتماع الأسماء. فمعنى «كُنْ» اقبل اتصافك

بوجودي وظهوري بك. فتكون مظهرًا لي، لا أنك تكون موجودًا، فالأمر والمأمور والأمر؛ واحد عند التحقق. والتغاير بينهما، اعتباري ليس بشيء، زائد على الهيئة الاجتماعية للأسماء الإلهية، التي تلك العين الثابتة صورتها العلمية، فالتكوين عين المكون اسم مفعول. وعين المكون؛ اسم فاعل. فالحق - تعالى -، إذا توجهت إليها خاصًا لعين من الأعيان الثابتة، التي قلنا إنها صور الأسماء الإلهية للإيجاد، بمعنى المظهرية للوجود، الحق، وتوجهه - تعالى - عينه وعين ما توجه إليه، انصبغ الوجود الحق بأحوال تلك العين الثابتة، وبما لها من الاستعداد للصفات التي تعرض لها حالاً بعد حال، إلى الأبد. فيظهر الوجود الحق منصفًا بصفاتهما. والعين نفسها باقية في العدم والثبوت. وتنصيف تلك العين بالوجود الحق:

﴿صَبَّغَهُ اللَّهُ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْكَ اللَّهُ صَبَّغَهُ﴾ [البقرة: الآية ١٣٨].

يحصل لها الشعور بنفسها، وعندما حصل لها الشعور بنفسها، نظرت في مرآة الوجود الحق، الذي هو نور السموات والأرض، ونور كل شيء؛ فنظرت نفسها في النور، فظنت أن الذي رآته في مرآة الوجود من صورتها؛ شيء آخر، وأنها حصلت على وجود خارجي، غير الوجود العلمي، وليس الأمر كذلك. وإنما الذي رآته وظنته وجودًا خارجيًا؛ هو الوجود الحق الظاهر بأحكامها واستعداداتها. وأما هي؛ فما شمت رائحة الوجود أزلاً وأبدًا. كان الله ولا شيء معه. أي الله موجود ولا شيء معه في الوجود أزلاً وأبدًا، إذ حد الأعيان الثابتة، إذا حدا من حدها؛ هي حقائق الممكنات في العلم الإلهي، ويسميا المتكلمون الماهيات كما يسميها أهل الله أيضًا الاستعدادات والحقائق العلمية، فلو كان لها وجود خارج العلم؛ لانقلبت حقيقتها. وقلب الحقائق محال. فحقيقة كل شيء - أي شيء كان - هي نسبة معلومته في علم الحق - تعالى -، من حيث أن علمه عين ذاته، فافهم الأمر على أصله، وأكتمه إلا عن أهله، المستعدين لقبوله، المتهيين لتحصيله، وإن خالفت ندمت. إذ ما كل ما يعلم يقال، وأنهم يكذبونك، ولا يمكنك إقامة دليل على صدق دعواك، فإن الأمور الوجدانية؛ لا يمكن حدها، ولا إقامة دليل عليها، حتى في الأمور العادية في الخلق، كالفرح والغم، والخوف والخشوع، ونحوها، فلا يمكن توصيلها إلى الغير أبدًا، ولا سبيل لها إلا الذوق، وإذا أخذها المؤمن بحسن ظنه بالمخبر؛ يحصل له فرقان بينه وبين الجاهل بها، ولكن لا مثل ذوقها.

## الموقف الرابع والتسعون

قال تعالى: ﴿وإِنَّا لَمَوْفُوهُم نَصِيْبِهِمْ عِزٌّ مَّنْثُوْبٌ﴾ [هود: الآية ١٠٩].

نصيب كل مخلوق، وهو مقتضى حقيقته واستعداده، الذي لا يزداد عليه ولا ينقص منه، وهو معنى:

﴿أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [طه: الآية ٥٠].

ولكل مخلوق استعداد، هو نصيبه من الحق - تعالى - ولا يشبه استعدادًا آخر من كل وجه أبدًا، وسبب هذا الاختلاف؛ هو الوجه الخاص الذي لكل مخلوق من الحق - تعالى -. فإن لكل مخلوق حتى الذرة اسمًا خاصًا، لا يشاركه فيه غيره من سائر المخلوقات. وهو في الحقيقة؛ حقيقة ذلك المخلوق، إذا ما تميّز عن سائر المخلوقات، الآية: ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: الآية ٢٤٧].

فلا تكرر في الوجود أبدًا. فالاستعداد هو الطالب المجاب، والداعي الذي لا يرد دعاؤه، وهو المراد بقوله: ﴿أَجِيبْ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَاكَ﴾ [البقرة: الآية ١٨٦].

إن كان المراد الإجابة بالمطلوب فـ «أل» في «الداعي» للعهد، وهو الداعي الذي يقبل دعاؤه ولا بد. وليس ذلك إلا الاستعداد. فالاستعداد مجاب، وافقه اللسان أو خالفه، أو لا وافقه ولا خالفه، وهو معنى ما ورد في الصحيح: «كلُّ ميسر لما خلق له»<sup>(١)</sup>.

فلون القار مثلاً، استعداده السواد، وهو نصيبه من الحق - تعالى -. فلا بد أن يسود، سأله بلسانه أو لم يسأله. ولو سأل البياض؛ ما أجيب، على سبيل الفرض، وإلا فهو لا يسأل البياض. فلا يسأل إلا السواد، لأنه حقيقته، ومقتضى ذاته، ولا يمكن للشيء أن يقول: يا رب!! اجعلني غير أنا. فإنه محال. والشقة من الكتان كذلك، نصيبها من الحق - تعالى - البياض، وهو استعدادها وحقيقتها، كما قلنا في القار سواء، أما إجابة الحق - تعالى - لكل داع، إذا قال يا رب!! بقوله: لبيك. أو تعويضه أمرًا آخر ممًا دعا به، كما ورد في الأخبار؛ فما هو مقصود الداعي؟! وكلامنا في مطلوب الداعي بعينه؟! فهو الذي قلنا: لا يحصل إلا بالاستعداد، فدعاء اللسان

(١) رواه البخاري بلفظ: «كلُّ يعمل لما يُيسر له». كتاب القدر، باب جف القلم على علم، حديث

مجردًا عن الاستعداد، لا أثر له في الإجابة بالمطلوب البتة، كيف يكون الدعاء اللاحق، سببًا في القضاء السابق؟! والسبب لا بد أن يكون موجودًا قبل المسبب عنه ضرورة. فما أمر الحق - تعالى - عباده بالدعاء، وجعله الشارع - ﷺ - مع العبادة؛ إلا تعبدًا وإظهارًا للغاغة والحاجة التي هي صفة ذاتية لكل ممكن، فربما غفل الممكن عن صفة ذاته، لعوارض تعرض له؛ فيكون الدعاء مذكرًا له بأصله. قال في الحكم العطائية: «الدعاء كله معلول مدخول، إلا ما كان بنية التعبد والتقرب، فهو مقبول. ونحن نقول: الحق - تعالى -، علم الأشياء أزلًا، على ما تكون عليه أبدًا بشرط، أو سبب، أو أسباب، أو شروط، أو بغير ذلك. وهذا لا يقدح فيما قلنا، إذ السببية الحقيقية؛ إنما هي منه - تعالى -، ويرجع ذلك إلى الاستعداد الذي عليه الأعيان الثابتة، كما ورد: «من القضاء رد القضاء بالدعاء».

وهذه من مقامات الحيرة، أمرنا بالدعاء. فإن دعونا؛ يقول لنا: لم تدعون؟! جفت الأفلام وطويت الصحف، تدعون أو لا تدعون، لا يكون إلا ما سبق، وإن لم ندع؛ توعدنا وتهدنا: ﴿قُلْ مَا يَعْزُبُ عَنِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾ [الفرقان: الآية ٧٧].  
وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: الآية ٦٠]

قيل: المراد بالعبادة هنا؛ الدعاء. ورضي الله تعالى عن الشيخ الأكبر إذ يقول، يشير إلى ما قلناه من الحيرة:

إذا قلت يا الله، قال: لِمَ تدعو؟!      وإن أنا لم أدع؛ يقول: ألا تدعو؟!  
لقد فاز باللذات من كان أخرسًا      وخصص بالراحات من لاله سَمِعُ

وهذه الحالة من سر القدر، الذي لا يطلع عليه إلا النادر الفرد. وأما القدر نفسه؛ فما علمت هل يطلع عليه أحد أو لا؟! وقد سألت الله - تعالى - أن يجمعني بواحد من أكابر العارفين، حتى أسأله عن مسائل. فألقي علي في الحال: أليس العارف مظهرًا وواسطة من جملة الوسائط، التي أوصل بها العلم إلى من شئت؟ فقلت: بلى. فقال: الوسطة ما هي محصورة في العارف، أسألني العلم؛ أعلمك كيف شئت وبمن شئت. وإذا ما علمت؛ فاعرف أنه ليس من نصيبك، ولا لك استعداد لقبوله، ولو أعطيتك - على الفرض - ما قبلته ولرددته، فإنه لا يمنع عن بخل، ولكن علمًا وحكمة. فلست أنا المانع بل أنت، لعدم قبولك واستعدادك.



## الموقف الخامس والتسعون

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ [البقرة: الآية 1٥٨]

المعنى بطريق الإشارة، والمفهوم بحاله للعموم، الصفا؛ بمعنى تصفية النفس، حتى يزول شرُّها وجماعها من الصفات الذميمة، والأخلاق اللثيمة، وهي المسمى بالمجاهدة والريضة. فالمجاهدة بالأفعال الظاهرة، والريضة بالأمور الباطنة، أي ارتياض النفس وتركها للصفات البهيمية المرذولة شرعاً وطبعاً، وهي التي سماها صاحب إحياء علوم الدين، بالمهلكات: كالحسد، والغضب، والرياء، والسمة، والكبر، والبخل... ونحوها. وليس المراد إعدام هذه الصفات ونحوها بالكليّة، بحيث لا يبقى لها أثر، فإنه محال. إذ حقيقة الإنسان؛ معجونة بهذه الصفات، وقلب الحقائق محال، ومن اعتقد محوها رأساً من أهل الرياضات والمجاهدات؛ فقد غلط، وكنا نقول بهذا تقليداً لمن قال به، ولما أطلعنا على حقيقة الأمر؛ رجعنا. إذ لو انعدم الحسد مثلاً؛ ما كان تنافس في الفضائل ومحاسن الخلال. ولو انعدم الغضب؛ ما كان جهاد ولا تغيير منكر. ولو انعدم بذل المال؛ ما كان الذي يقول بما له هكذا وهكذا في عباد الله. وكالكذب في الحرب، ونحو هذا. وإنما المراد؛ تذليل النفس وقمعها على الاسترسال وقهرها، حتى تكون تحت حكم الشرع وإشارة العقل، فإن الخصال المذمومة لها مصارف عيَّنها الشارع لتصرف فيها، ومواطن عيَّنها لها، فما تبقى معطّلة، فما هي مذمومة مطلقاً، وإنما هي مذمومة في موطن وحال، محمودة في موطن وحال. ولما كانت الصفات، تبدل مصارفها، لا هي؛ قال سيدنا في الفتوحات: «باب التوبة، باب ترك التوبة، الرجاء ترك الرجاء، الخوف ترك الخوف» ونحو ذلك. فحمدها وذمها؛ تابع للشرع والعقل. وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بَغْيَرٍ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّكَ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: الآية ٥٠].

فالهوى ميل النفس إلى ما يلائمها. وما كلُّ ما يلائمها مذموم، بل منه مذموم ومحمود، فالمذموم منه؛ هو الذي يكون بغير هدى من الله، أي بغير هداية وتعيين من الشارع. والمحمود؛ هو الذي يكون بهداية الشارع، ودلالته وإشارته. وهي المصارف التي عيَّنها الشارع، فالحسد مثلاً مذموم، وقد عيَّن الشارع مصرفه فقال:

«لا حسد إلا في اثنتين، رجل أعطاه الله ما لا فسَلطه على هلكته في الحق، ورجل آناه الله حكمة فهو يعمل بها ويعلمها الناس».

وكذا الحرص مذموم، وعيّن الشارع مصرفه، وهو الحرص على أفعال الخير، لنلا تفوته، قال - عليه الصلاة والسلام - للذي خاف فوات الجماعة فأسرع: «زادك الله حرصاً ولا تعد»<sup>(١)</sup>.

وكذا الغلظة، والفظاظة، فإنها مذمومة، وعيّن الشارع لها مصرفاً، فقال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: الآية ٧٣].

وكالغضب، فإنه مذموم، وعيّن الشارع مصرفه في الجهاد وتغيير المنكر، كان - ﷺ - لا يغضب لنفسه، فإذا انتهك من محارم الله شيء؛ لم يقم لغضبه شيء. وكالرياء فإنه مذموم، وقد عيّن الشارع مصرفه، وهو مراة الله بأن يعمل ليراه الله، فإنه مشتق من الرؤية ومثل الرياء السمعة، وقس على هذا، وكذا الخصال المحمودة، هي مذمومة في بعض المواطن والأحوال كالصدق في القول مثلاً، فإنه مذموم في بعض المواطن. قال تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ﴾ [الأحزاب: الآية ٨].

شبه الغيبة والنميمة ومدح الإنسان نفسه بقصد الترفع والنصيحة في الملام، فإنها مذمومة. وكذا من يجبه الناس في وجوههم بما يكرهون؛ فإنه مذموم، ولو كان حقاً. وقس على هذا، والشرع؛ هو الميزان، من مسكه في يده؛ لا يظلم ولا يظلم، ووقوف النفس عندما حده الشرع والعقل عسير جداً، إنما يحصل بتدليل النفس وحملها على مكروها حتى تطمئن وتتناقذ وتستسلم من غير منازعة.

وقوله: «والمروءة» بينها وبين المروءة مناسبة في الاشتقاق، إذ المروءة الحجارة البيضاء، والمروءة بياض العرض والاتصاف بالمحامد، يقال: أبيض العرض؛ إذا كان ذا مروءة، والمراد تحلية النفس وتزيينها وتبييضها بمكارم الأخلاق ومحاسن الخلال، وجماعها حسن الخلق، قال - ﷺ - : «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»<sup>(٢)</sup>.

(١) رواه البخاري: كتاب الأذان، باب إذا ركع دون الصف، حديث رقم (٧٨٣).

(٢) رواه مالك في الموطأ، كتاب حسن الخلق، باب ما جاء في حسن الخلق، بلفظ: «بعثت لأتمم حسن الأخلاق». قال ابن عبد البر: هو حديث مدني صحيح متصل من وجوه صحاح عن أبي هريرة وغيره. ورواه أحمد في المسند عن أبي هريرة بلفظ: «إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق». حديث رقم (٨٩٧٤).

وهي التي سمّاها صاحب إحياء علوم الدين «بالمنجيات». وهي أضداد المهلكات.

قوله: «من شعائر الله» أي من دين الله المعروف عند الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - وأتباعهم. فمن حجّ البيت؛ قصد معرفة الله - تعالى -، والقرب منه، لرفع الحجب عن عين بصيرته.

«أو اعتمر» قصد الأجور والدرجات الجنانية، والدخول في زمرة الصالحين أهل السجادة والمحراب، فإنه قال تعالى: ﴿وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَنَّى﴾ [طه: الآية ٧٦].

بعد قوله: ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى﴾ [طه: الآية ٧٥].

والقصد إلى معرفة الله - تعالى - بالكشف والعيان؛ فرض عين، كالقصد إلى الحج، والقصد إلى الجنة، والدرجات؛ كالقصد إلى سنة العمرة، فهي دونه، بل من قدّم الإحرام بالعمرة، قبل الحجّ في أشهر الحج، لزمه هدي، عقوبة له حيث أخر ما هو الأهمّ الأكّد. وكذا إذا قرن بين الحج والعمرة؛ لزمه هدي، عقوبة له، لأن الأفراد أفضل عند بعض الأئمة، وهو إشارة إلى أفراد القصد إلى معرفة الله - تعالى - دون تشريك. وأما المحرم بالعمرة، في غير أشهر الحج؛ فلا هدي عليه. وفيه إشارة إلى أن من كان عاجزاً عن طلب الوصول إلى مقامات العارفين بالله - تعالى - وعلومهم، لعدم استعداده؛ فهو معذور في قصد الأجور والدرجات، كالذي قدّم العمرة في غير أشهر الحج، لعجزه عن مشاق الإحرام، مع طول المدة.

﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ [البقرة: الآية ١٥٨].

أي يجب عليه أن يطوّف ويسعى بين هذين المشعرين، اللذين هما أعظم أركان الطريق، والسلوك إلى الله - تعالى -، بالتخلية والتحلية، فهما أساس الخير للعارف والعابد، وليس المراد - كما هو الظاهر - أنه لا حرج عليه في السعي بينهما؛ بل المراد: أنه يجب عليه هذا الفعل. ولو كان المراد رفع الحرج عن فاعل هذا؛ لقال: فلا جناح عليه أن لا يفعل، وإنما قال: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: الآية ١٥٨] أن يفعل.

وهذه الآية الكريمة؛ ألقبت عليّ مع ما ذكرته فيها بالحرم المكي، أيام المجاهدة، والحال غالب على صاحبه، وكل إناء يرشح بما فيه.

## الموقف السادس والتسعون

قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ أَلْهَيْتُ هُدَىٰ اللَّهِ ﴿آلِ عِمْرَانَ: الآية ٧٣﴾.

أمر الله تعالى رسوله - ﷺ - بالنصح لأمته، وأن يخبر المسترشدين الطالبين الهداية إلى معرفته - تعالى - . والوصول إليها والحصول عليها، بأن الهداية التي لا يشوبها شيء من الزيغ والزلزل والضلال والحيرة، هي هداية الله - تعالى - لا هداية غيره. إذ هذا التركيب في الآية؛ مؤذن بالحصر.

والهدى والدلالة إلى معرفته - تعالى -، إما دلالة حق، وإما دلالة خلق، لا ثالث لهما، فأما هداية الحق؛ فهي الهداية الموصلة للمطلوب من غير ضلال، ولا انحراف، وليست هداية الله - تعالى - إلا فيما جاءت به الرسل - عليهم السلام - من التوحيد والأوامر والنواهي، وقبول ذلك منهم، سواء قبله العقل أو لم يقبله. فإذا عمل المؤمن على ذلك؛ حينئذ يعلمه الله - تعالى - من عنده علماً ويهديه إلى معرفة ما كان قبله تقليداً، قال تعالى: ﴿وَأَتَقُوا اللَّهَ وَيَعْلَمُكُمْ اللَّهُ﴾ [البقرة: الآية ٢٨٢].

وقال في الخضر - عليه السلام -: ﴿إِنَّهُ رَحْمَةٌ مِّنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: الآية ٦٥].

وذلك بالتجليات الذوقية، والإفاضة الربانية. فيعرفه بما أنكرته العقول، ممّا أخبرت به الرسل - عليهم الصلاة والسلام - عن ربها، ووصفته به، ولا أصدق من الحق ولا أدل منه على نفسه.

وأما هداية الخلق؛ فهي هداية العقول، وهي إما أن يكون فيها زيغ أو ضلال وحيرة، وإما أن يكون فيها خروج عن المقصود جملة واحدة. فهي إما مهلكة وإما ناقصة، إذ غاية معرفة العقل التنزيه عن صفات المحدثات، بأنه ليس كذا وليس كذا، وما هي هذه المعرفة المطلوبة ممّا، وإنما المطلوب ممّا معرفة طريقة الرسل - عليهم السلام - بل الواجب تنزيه الحق - تعالى - عن معرفة العقول، فإنها حصرت الإله الحق - تعالى - وحدّته وحجرت عليه، وكل محدود محصور. وكلّ محصور مقهور، كيف؟! وهو - تعالى - القاهر فوق عباده، جلّ أن يدخل تحت حكم عقل وتصوّر خيال، فالذي ظنه العقل تنزيهاً؛ هو غاية التشبيه بالمحدثات. وهذا الإفراط في التنزيه العقلي؛ أورت جهلاً عظيماً لمُتبعيه، وأوقعهم في أبعد ما يتصوّر من البعد عن معرفة الله - تعالى - ومعرفة تجلياته لعباده في الدنيا والآخرة، على أن التنزيه لا يحتاج إليه

المؤمن إلا لردُّ على مُشَبِّهه، إن كان. فإن لم يكن هناك مشبهُ ففيه من سوء الأدب ما فيه. إذ الحق - تعالى - نزيه لنفسه، وإنما ينزّه مَنْ يجوزُ عليه ما نزّه عنه. وهو الحادث، فحيثُ يكونُ للتنزيه طعم، فقال الشيخ الأكبر - رضي الله عنه - .

فمنزّه الحق المبين مجوِّزٌ ما قاله فمرامه تضليل

وإذا فكَّر المنصف في قول المنزّه: الإله الحق؛ ليس بأعمى ليس بأخرس ليس بأصم، ليس بعاجز، ليس بمجبور، علم ما في هذا من البشاعة.

ألم ترَ أن السيف ينقص قدره إذا قيل هذا السيف خير من العصا؟!

فالنفي لا يكون إلا في ممكن الثبوت، فيردُّ عليه النفي فينفيه، وإذا ورد على ما ليس بممكن الثبوت، ولا للردُّ على مَنْ يعتقدُه، كان لغوًا من الكلام، وإن كان صدقًا. وليس فيما أدرك العقل من صفات الإله صفةً ثبوتيةً، بل كلّها في التحقيق صفات تنزيه، تنفي أضدادها. والحق - تعالى - ما نزّه نفسه في كتبه وعلى ألسنة رسله؛ إلا ردًا على معتقد ذلك في الإله الحق. فالإله الذي أرسل الرسل - عليهم السلام - وأمرنا بمعرفته؛ ما هو الإله الذي عرفه العقل بنظره، واكتسابه تلك المعرفة من الدلائل المأخوذة من المحسوسات. فإن علم العقل كلّهُ من الحواس لأن إله الرسل كما أنه ليس كمثله شيء، ولا يشبه شيئًا، ولا يشبهه شيء، هو موصوف بأن له وجهًا ويدًا وبيدين وأيديًا، وعينًا وأعينًا، ويمينًا، وأنه يضحك ويشبش وينزل، ويجيء ويهرول، ويتردّد، وأنه مستوٍ على العرش، وأنه في السماء وفي الأرض، وأنه معنا أينما كنّا... إلى غير ذلك. فهو منعوت بهذه النعوت كلّها، وهي معروفة في لسان العرب المخاطبين بها، ولا يمكن أن يخاطبوا بما لا يعرفون، ولا يفهمون. فهذه النعوت معقولة المعنى، مجهولة النسبة إلى الإله. فالتنزيه الحقيقي هو أن تثبتها له ولا تنفيها عنه، فتقول يهرول ويسعى، ويجيء وينزل، ولا تؤول ولا تشبه، كما قال مالك - رضي الله عنه -: «الاستواء معلوم، والكيف مجهول» وإذا حصّص الحق، وتبين الأمر، وانكشف السرُّ، ظهر أن التجلي الإلهي في أعيان الممكنات، هو الذي أعطى هذه النعوت فلا شاهد ولا مشهود، إلا الله تعالى، قال تعالى: ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾ ﴿٤﴾ [البزج]: الآية. [١٣].

أترى أنه أقسم بغيره؟ لا والله ما أقسم إلا بذاته. ومثال الحق - تعالى -، والله المثل الأعلى، في هذا مثال ملك، كان لا يعرفه أحد من رعاياه لشدة احتجابه،

بحيث لا يمكن أن يصل إليه أحد، ولا يراه من قريب ولا بعيد، ثم أراد رفع الحجاب والتعرف لرعاياه والاتصال بهم، فصار يواجههم ويحادثهم، إلى أن صار يمشي في الأزقة مع الناس، وزاد في التنزل إلى أن صار يحضر الأسواق يبيع ويشترى، كل هذا ليعرفه ويعرفوا حوائجهم إليه من غير واسطة، وهم في كل هذا ينكروه وكلما زاد في التنزل إليهم، والتعرف لهم؛ زادوا جهلاً به، لما يعرفونه من شدة حجابهِ وعزته في سلطانه، وقالوا: لا يمكن أن يكون هذا هو الملك، ولا يصل إلى هذا الحد في التنزل إلى الرعايا والقرب منهم فجاء العقلاء منهم وقالوا: يمكن أن يكون هذا هو الملك، فإن الملك يفعل ما أراد، ولا أحد يحجر عليه ويمتنعه ويرده عن مراده، وهذا الذي فعله من التنزل والتقرب من رعاياه؛ هو من كماله ومحاسن خلاله، لا يتقص ذلك من مرتبته عند العقلاء شيئاً، ممّا هو واجبٌ للملك من الطاعة والاحترام. والعقلاء في المثال؛ هم الرسل - عليهم الصلاة والسلام - فالإله الجامع بين التنزيه والتشبيه؛ هو إله الرسل، الذي أمرنا بمعرفته، ولا يعرف العقل آلهة هكذا، فإنه العقل؛ إله آخر متنزه في الإطلاق، لا يقبل نعتاً من نعوت التشبيه، فإذا آمن العقل بإله الرسل - عليهم الصلاة والسلام - فإمّا تسليمًا وتفويضًا، كما هو مذهب السلف، فإنهم فوّضوا من غير تأويل ولا حيرة ولا منازعة. وإمّا على كره واستسلام، كما هو شأن المتكلمين، ولا يزال العقل، غير المؤيد بنور الإيمان الغالب على نور العقل؛ في اضطراب وحيرة ومنازعة، عن قبول أوصاف إله الرسل. فإن وجد سبيلاً إلى إحالتها إلى ما تعطيه معرفته؛ فعل واستراح، لظنه أن ذلك هو المطلوب. وهيهات هيهات!! ما أبعد المؤولين من معرفة الإله - تعالى -، وإن لم يجد سبيلاً لذلك؛ بقي على اضطرابه وحيرته، فإن رحمه الله بما شاء ممّا يزيل اضطرابه؛ رحمه، وإلا بقي على ذلك حتى يلقي الله - تعالى - وهو الذي نتكلم فيه مع العقل؛ إنما هو الألوهة، وهي مرتبة للذات ما هي عين الذات، كالخلافة والسلطنة للخليفة، والسلطان، وأما الذات؛ فلا كلام فيها للعقل، ولا يصل إليها بآلاته أبداً، ولكن من جهة الفيض الرحماني والتعريف الربّاني؛ تهب على العارفين منها نسمات، لأن الذات لا تعقل، والكلام فيما لا يعقل محال. وكل من رام ذلك؛ رجع خاسئاً وهو حسير.

\* \* \*

### الموقف السابع والتسعون

قال تعالى: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَبِرًا﴾ [النحل: الآية ٣٠].



أي سئل الذين جعلوا أنفسهم وقاية لربهم من نسبة الشرِّ والقبح إليه، وهم العارفون بربهم: ماذا أنزل ربكم؟ أي ما فعل فيكم وفي سائر مخلوقاته؟ وكل واقع؛ فهو نازل من حضرة الجمع، التي هي حضرة من حضراته تعالى كما قال:

﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ ﴿٢١﴾﴾  
[الحجر: الآية ٢١].

قالوا: خيراً: أي فعل وأنزل خيراً، إذ كل واقع مما صورته شراً أو خيراً، ونفعاً أو ضيراً، فهو خير على الحقيقة، وذلك من وجوه شتى، فيما ظاهره شراً كالكفر والبلايا والمحن، فهو خير لمن نزل به، وإن كان شراً بحسب ظاهره وبحسب غير النازل به، إذ الواقع النازل بكل إنسان؛ هو مقتضى حقيقته التي بها؛ هو هو. وهو طالبٌ لذلك النازل به، بلسان استعداده، الذي هو أفصح من لسان مقاله، ولو نزل به ضدُّ ذلك لرذَّه وتأذى به وما قبله. فالاستعداد؛ هو الأصل والأسباب الخارجية تابعة له. وهو أزلي قديم غير مجعول، فالنازل بكل إنسان؛ هو من لوازم عينه الثابتة، وتأثير القدرة تابع للإرادة، والإرادة تابعة للمعلم، وصفات الحق غير داخلية تحت الزمان، ولكن هكذا هو الأمر، والعلم تابع للمعلوم تبعية رتبة، لا تبعية زمان، بمعنى أن تسميته علماً اقتضت تبعيته للمعلوم، أعني ما دام المعلوم في حضرة العلم، الذي هو عين الذات، من كل وجه واعتبار؛ لم يوصف بالوجود الخارجي، وأما بعد الوجود الخارجي، وتعلق العلم، الذي يعبر القوم عنه بظاهر العلم؛ كان المعلوم حينئذٍ تابعاً للمعلم، إذ الوجود الخارجي ظلٌّ وحكاية لهذا العلم، الذي يسمّى بظاهر العلم، كما أن العلم الذاتي حكاية للمعلوم وهو معنى تبعيته، والمعلوم هو ذلك الذي لا يتبدّل ولا يتغيّر ولا يتقلب، إذ لو تغيّر لكان جهلاً تعالى الله عنه، فالنازل بكل إنسان لازمه وحقيقته وليس الواقع النازل بشيء زائد عليه أو خارج عنه، فالظاهر عين الباطن، والغيب عين الشهادة، لا يكون هنا ما ليس هناك، وكلُّ ما هنالك يكون هنا، ولا يقول شيء يا رب لم جعلتني أنا؟ فهلاً جعلتني غيري؟! فإنه غير معقول وبهذا كانت الحجّة البالغة له تعالى على مخلوقاته، ولولا هذا؛ ما كانت له الحجّة، وإليه يشير حديث: «كلُّ ميسر لما خلق له»<sup>(١)</sup>.

(١) رواه البخاري: كتاب القدر، باب جف القلم على علم الله، حديث رقم (٦٥٩٦).

وحدِيث: «إِنَّ الرَّجُلَ لِيَعْمَلَ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ، حَتَّى لَا يَبْقَى بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ إِلَّا شِبْرٌ أَوْ ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ»<sup>(١)</sup> الْحَدِيثُ بِطَوْلِهِ.

فليس في هذا الكتاب إلا الاستعداد الذي عليه ذلك المعلوم. وعمل المستعد للنار بعمل أهل الجنة، والعكس هو استعداد جزئي لذلك العمل، فلا ثمرة له كاستعداد الإنسان لطلب شيء بالدعاء، أو بالسعي فيه، ولا استعداد له لقبول المطلوب، بحيث لو أعطيه لردّه وكرهه أخيراً وحدث: «اعملوا ولا تتكلموا»<sup>(٢)</sup>.

هو كسائر الحكم المودعة في الأسباب، فقد يوافق ذلك الاستعداد، وقد لا.

\* \* \*

### الموقف الثامن والتسعون

قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَعِينًا ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَاتَّخَذْتَهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا نَصُفُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الأنبياء: الآيات ١٦ - ١٨].

أي ما كان فعلنا في خلق السماء والأرض وما بينهما فعل اللاعبين، الذين لا ثمرة في أفعالهم ولا فائدة ترجع من فعلهم، لا لهم ولا لغيرهم، بل ما خلقناهما إلا طبق المصلحة ونهاية الحكمة، فلا ذرة في السماء والأرض إلا وهي ناطقة بملء فيها، شاهدة بما فيها، في الحكم والمصالح التي لا يحيط بها إلا خالقها. ويصخ أيضاً: ما خلقنا ما ذكر لاعبين، أي ما كان فعلنا في ذلك فعل اللاعب، الذي يصور أشخاصاً وأشباحاً لا حقيقة لها، ولا طائل تحتها، مثل اللعبة المسماة بخيال الظل ونحوها، فإنها أشخاص وأشباح تقبل وتدبر، في رأي العين؛ ولا حقيقة لها، فليس خلق السماء والأرض وما بينهما هكذا!! خلافاً للسوفسطائيين القائلين: «العالم خيال لا حقيقة له» وللحسبائية القائلين: «ليس وراء المحسوسات شيء يصح أن يدرك» بل انقول الحق: أن صور العالم وأشباحه؛ وراءها حق، فهي حقة بذلك، وإن كانت في الظاهر خيالات، فهي حق، لا لعب ولا لهو، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الحجر: الآية ٨٥].

(١) رواه البخاري: كتاب القدر، باب في القدر، حديث رقم (٦٥٩٤).

(٢) هذا الحديث لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع.

فهي حقٌ بذلك الحق المخلوقة به، إذ المخلوق بالحق حقٌ، قال إمام العارفين محيي الدين:

إنما الكون خيال وهو حق في الحقيقة  
كل من قال بهذا حاز أسرار الطريقة

ويدخل في قوله: «وما بينهما» جميع أفعال العباد. فهي كلها حقٌ لا لعب فيها ولا عبث. إذ هي أفعاله تعالى. وإذا أطلق العبث على بعض أفعال العباد؛ فالنسبة إلى من صدرت عنه. وإلا فهي بالنسبة إليه - تعالى -، لا تخلو عن حكم. ثم أخبر - تعالى - أنه، وإن خلق السموات والأرض وما بينهما كما ذكر - فليس ذلك بواجب عليه، ولا متحتم لديه، كما تقول البراهمة، والمعتزلة: من وجوب فعل المصلحة عليه - تعالى - بل له أن يفعل كلما أَرَادَهُ، جوَّزته العقول أو أحوالته، فقدرته مطلقة التصرف، نافذة الحكم في كل ما أَرَادَ، ليس عليها تحجير ولا يلحقها عجز، كما قال: ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا﴾ [الأنبياء: الآية ١٧]. أي نخلق خلقًا من أنواع ما أحوالته العقول علينا، وحجرتنا عن قدرتنا.

﴿لَا تَتَّخِذُهُ مِنْ لُدُنَّا﴾ [الأنبياء: الآية ١٧]. أي من جهة قدرتنا، فإنه لا يعجزها شيء أَرَدناه، لكننا ما أَرَدناه كما قال:

﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ [الزمر: الآية

١٤].

فأخبر أن هذا المحال العقلي الذي هو أعظم محال يتصور، هو ممكن تحت قدرته، يفعل له لو أَرَادَهُ، فأدخله تحت «لو» ولا يدخل تحتها إلا ممكن في نفسه. وأما قوله «لم يلد» فهو إخبار بأن هذا ما كان ولا يكون، وما أخبر أنه لا يدخل تحت قدرته، وأنه عاجز عنه لو أَرَادَهُ، وقد قال الحافظ ابن حزم بقولنا هذا، فنسبه الشيخ السنوسي إلى الكفر، وما كان ينبغي له ذلك، وابن حزم قال به على طريقة المتكلمين لا على طريقتنا، ثم ذكر تعالى نوعًا من أنواع المحال العقلي وهو تحصيل الحاصل، فإنه من أجلها. فأخبر أنه يفعله، بل هو فعله في كل آن فرد على الدوام، وعبر بالمضارع استحضارًا لهذه الأعجوبة عند العقل وهو قوله، «بل نقذف» الخ الآية، ف «بل» إضراب عما تخيلته العقول، من استحالة هذا وتحجيره على القدرة الإلهية، «نقذف»: نرمي بالحق النور الوجودي الإضافي الساري في كل موجود، وذلك كناية عن اقتران الوجود الحق، بالعين المراد إيجادها على الباطل العدم، الذي كان وصفًا

لتلك العين. فيدمغه: فيهلكه ويذهبه كما يهلك المصروب في دماغه، كناية عن السرعة، بمعنى يهلك النور الحق العدم الباطل، ولا يبقى له حكمًا في تلك العين، ويصير الحكم للوجود الحق فيصير الوجود الحق وصفًا لها، بعد أن كان العدم الباطل وصفًا لها، فإذا هو: أي العدم المكني عنه بالباطل؛ زاهق، أي ذاهب الحكم، بعد أن كان ثابت الحكم في تلك العين، حيث كان وصفًا لها «فإذا» فجائية، هو زاهق إذ لا يجمع الحق الباطل، كما لا يجمع النور الظلمة. ففي الآية تحصيل الحاصل، إذ العدم معدوم لذاته فإذا هابه؛ تحصيل لما هو حاصل، وفعل لا مفعول له، والعدم قبل اتصاف العين بالوجود؛ كان له وجود في علم الواصف، فإنه ما حكم على العين بالعدل إلا بعد التصور، فللعدم وجود في هذه المرتبة، فصح الرمي عليه، والإزهاق له بما ذكرنا. وكلُّ من زعم أن الله - تعالى - لا يقدر على المسمى محالاً؛ فما عرف الله، بل ما سمَّ لمعرفته رائحة، فهو قادر على إيجاد المحال إذا أراد، ومن المحال العقلي اجتماع الضدين في محل واحد في آن واحد، وذلك موجود في حركة الأفلاك التي هي ضمن الفلك الأعظم محدّد الجهات، فإنها تتحرك عند علماء الهيئة حركة طبيعية من المغرب إلى المشرق، والفلك الأعظم يحركها حركة قسرية من المشرق إلى المغرب فكل فلك له حركتان على هذا: طبيعية، وقسرية في آن واحد، وهذا محسوس في الحيوان كالنملة مثلاً، إذا كانت على شقة الطاحون العليا، وكانت حركتها ضد حركة الطاحون، فإنها تجتمع لها حركتان قسرية واختيارية، وأكثر أمور البرزخ والآخرة؛ مما تحيله العقول، قال تعالى، في حق الشهداء.

﴿أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: الآية ١٦٩].

ونهانا أن نظن أنهم أموات والحس يشاهدهم أمواتاً، ولا شك عنده في ذلك. فالقائل أموات؛ صادق شاهده الحس، والقائل أحياء؛ صادق شاهده الإيمان، بصدق الله - تعالى - في أخباره. فهم أحياء أموات في حالة واحدة ولو لم يجتمع الموت والحياة ما صدقا، وكذا سؤال القبر من هذا المعنى، وكذا الفعل الصادر من العبد بادية الرأي، هو فعل الله - تعالى - وفعل العبد، فالعقل والشرع يثبتان الفعل لله - تعالى - وحده، والحس والشرع يثبتان الفعل للعبد، وكلا الأمرين يصدق القائل بهما، ويجب الإيمان بهما معاً، ونحن ليس كلامنا مع من يقول نسبة الفعل إلى الله؛ غير نسبه إلى العبد. وكذلك يوم القيامة هو على الكافر مقدار خمسين ألف سنة، بنص القرآن. وعلى المؤمن مقدار صلاة ركعتي الفجر بنص الحديث، وخص الركعتين بالفجر؛ لأن الأمر ورد بقصر القراءة فيهما، وكذلك تتجسد الأعمال ووزنها

- وهي أعراض - يوم القيامة. بل الأعراض هي اليوم متجسدة قبل يوم القيامة والناس يشهدونها ولا يعرفونها. ومن الناس من ينكر تجسد الأعراض، حتى في يوم القيامة، ومن الناس من يقول بها هنالك، وينكرها هنا.

\* \* \*

## الموقف التاسع والتسعون

قال تعالى: ﴿وَمَنْ جَاهِدْ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٦﴾

[الغنكيت: الآية ٦].

الجهاد هنا؛ أعم من الجهاد الأصغر، الذي حُدّه عند الفقهاء، فقال مسلم، كافرًا، لإعلاء كلمة الله. ومن الجهاد الأكبر، الذي هو جهاد النفس والهوى بإتيان المأمورات، واجتناب المنهيات، وارتكاب مشاق الرياضات والمجاهدات، الذي قال فيه - ﷺ - لأصحابه: «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر»<sup>(١)</sup>.

أخبر - تعالى - في هذه الآية أن فاعل ما ذكر إنما يفعله لنفسه، أي حقيقته التي بها هو هو، وهي الحقيقة السارية في كل إنسان التي قال فيها - ﷺ -: «من عرف نفسه فقد عرف ربه»<sup>(٢)</sup>.

وهي المسماة بالبرزخ وبالصورة الرحمانية، وبمرتبة الأسماء والصفات، وغير ذلك من الأسماء بحسب ما لها من الوجوه والاعتبارات. فهذه المرتبة هي مرتبة الألوهية وهي الطالبة للعباد بحقيقتها، وهي المقتضية لعبادتهم، وهي الربوبية، الطالبة للمربوبين، وليست هي الذات وإنما هي مرتبة كسائر المراتب والحكم والفعل، والتأثير لها لا للذات، ولا عين لهذه المرتبة ولا لغيرها من المراتب زائدة على الذات، فالألوهية تعلم ولا تشهد، والذات تشهد، ولا يحاط بها ولا تعلم، وأكثر المتكلمين أو كلهم، والعابدين من غير أهل الله العارفين؛ لا يفرقون بين الذات والمرتبة، فإشارة الآية الكريمة: إلى أنه لا يعبد عابد ولا يتقرب متقرب إلا إلى مرتبة الألوهية والربوبية، التي هي منشأ العالم جميعه، المقتضية لإيجاده، ولكل ما يصدر عنه، فإن الألوهية تطلب مألوها وعبادًا، قال تعالى:

﴿كَفَىٰ يَتَفَسِّكُ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: الآية ١٤].

(١) رواه الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد (٤٩٣/١٣) تصوير بيروت.

(٢) أورده العجلوني في كشف الخفاء، حديث رقم (٢٥٣٠) طبعة دار الكتب العلمية - بيروت.

فنفس كل إنسان هي الحسبية عليه، المحصية لأفعاله، وهي غير نفسه المأمورة في مقام الفرق، وهي هي في مقام الجمع وإسقاط الاعتبارات، وأما الذات العلية عينها؛ فهي غنيّة عن العالمين، لا تتعلّق بها عبادة عابد، ولا معرفة عارف، ولا تعطي ولا تمنع، ولا تضرّ ولا تنفع، ولا تطلب مخلوقاً ولا مربوباً، ولا عابداً ولا عارفاً، حتى يعبدها ويتذلّل إليها، فهي غنية حتى عن أسمائها، الطالبة لظهور آثارها بظهور العالم، وهي المسماة بالأحد وبالله، ومن هنا قال مَنْ قال في اسم الله: إنه علم مرتجل، لا صفة ولا مشتقّ من شيء، حيث كان علماً على الذات الذي لا يوصف ولا يعلم، ولا يحد ولا يرسم، وفي الحديث: «ليس وراء الله مرمى»<sup>(١)</sup>.

بمعنى أنه فوق المراتب كلها، وليس فوق المراتب كلها إلا الذات، وهذه الآية تدلّ على هذا فالأمر الإلهي ما ورد إلا بعبادة الصفة للصفة، وهي عبادة المربوب لربه، والمألوه لإلهه كما قال:

﴿وَمَا أُمْرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا﴾ [التوبة: الآية ٢٣١].

وكلّ ما ورد في القرآن في الأمر بالتوحيد والعبادة؛ إنما هو لهذه المرتبة، وهي مرتبة الألوهية لا للذات، وأما مَنْ قال في اسم الله: إنه صفة أو مشتق من كذا أو كذا، فقد جعله لمرتبة الألوهية، ووروده في القرآن يحتمل الوجهين، وقول مَنْ قال لا يجوز التخلّق بالاسم «الله» يريد الأول. وقول مَنْ قال يتخلّق بالاسم «الله» فإنه كسائر الأسماء؛ يريد الثاني. فمن قال من العابدين أصلياً أو أصوم، أو أفعل كذا قياماً بحق الله أو الأحد؛ لم تقبل عبادته، إن قصد الذات الغنية عن العالمين، فإن الذات لا تقبله والأحدية ترمي به. فإنها بحقيقتها تنفي أن يكون معها غيرها من عابد أو عارف، فالذي يعبد الأحد، والله إن كان علماً على الذات لا تصح له عبادة، فهو يعبد في غير معبد، ويعمل في غير معمل، إلا رجلاً من خاصة الخاصة، فإن عبادتهم ذاتية، لأنهم لما تجلّت لهم نفوسهم وعرفوها، رأوا استفادة وجودهم من غيرهم، فأعظتهم رؤية أنفسهم العبادة الذاتية، لا عبادة المرتبة كغيرهم، لأن معرفتهم شهودية، ما هي علمية كغيرهم. وهم الزنادقة الذين قال فيهم الجنيد - رضي الله عنه - لا يكون الصديق صديقاً حتى يشهد فيه مئة صديق، بأنه زنديق. ومن تسلّق على هذا المقام وليس من أهله هلك، ومن قال أصلياً أو أصوم، أو أفعل كذا قياماً بحق الربوبية والعبودية، قبلت عبادته. والسعيد الجامع بينهما، واحذر أن تظن بنا أننا ممن

(١) رواه مالك في الموطأ، كتاب القدر، باب ما جاء في أهل القدر، حديث رقم (٩)، طبعة دار الكتب العلمية - بيروت.



يحرّف الكلم عن مواضعه، وإنما المفهوم من الآية بحاله. ولكن هذه إشارات،  
تظهرها أنوار المعارف والتجليات على القلوب.

\*\*\*

### الموقف المائة

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَكَ اللَّهُ بِدُ أَلَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾

[الفتح: الآية ١٠].

انظر إلى هذا التأكيد في الآية، الرفع لكل تجوُّز ومجاز، فالحق - تعالى - لما أراد الظهور لذاته، من حيث الإطلاق بذاته، من حيث التقييد، والمطلق عين المقيد جعل نوراً بمثابة المرأة، ثم تجلّى في ذلك النور، فانطبعت الصورة الإلهية في ذلك النور انطباع الصور في المرايا: ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾ [النحل: الآية ٦٠].

وصورة الشيء مجموع أوصافه لا عين ذاته، والترتيب حكمي لا زمني فإنه لا زمان هناك، ولكن للتفهم، وسمي الحق - تعالى - هذا النور والمنطبع فيه حقيقة محمدية، وروحاً كلياً ونحو ذلك. فالمتوجه على المرأة هو الحق - تعالى -، والمنطبع في المرأة حقيقة محمدية، وصورة رحمانية، فالمتوجه على المرأة والصورة في المرأة والمرأة شيء واحد، إذ ليس إلا وجود واحد، هو وجود الحق - تعالى -، فليس للمرأة ولا للصورة في المرأة، وجود مغاير للوجود الحق المتوجه على المرأة. فمن كان نظره واعتباره إلى أن هذه الصورة ظهرت به بعد أن لم تكن ظاهرة؛ قال بحدوثها، ومن كان نظره واعتباره إلى أنه ليس هناك غير الوجود المتوجه على المرأة وهو الحق - تعالى -؛ قال بقدمها. فالحقيقة المحمدية هي تعين الحق لنفسه بجميع معلوماته ونسبه الإلهية والكونية، فهي الحق، إذ التعين أمرٌ اعتباري لا عين له، فليس هناك إلا المتعين، قال تعالى: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الإسراء: الآية ٨٥].

هو أمر ربّي الصادر بالأمر وهو «تحن» إذ كلامه عين علمه، وعلمه عين ذاته، فالحق واحد من كل وجه لا يتبعض ولا يتجزأ، ولذا كان الحق - تعالى - في كلامه الكريم، تارة يجعل نفسه نائباً عن محمد - ﷺ - فيقول: ﴿وَلَنَبِّئَنَكُمْ حَتَّى تَعْلَمَ الْمُجْتَهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّادِقِينَ﴾ [مخمد: الآية ٣١].

أي يعلم محمد ويقول: ﴿فَلْيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلْيَعْلَمَنَّ الْكٰذِبِينَ﴾

[التكويت: الآية ٣].

أي يعلم محمد.

وتارة يجعل محمداً نائباً عنه، فيقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: الآية ١٠].

ويقول: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: الآية ٨٠].

ويقول: ﴿وَمَا رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ [الأنفال: الآية ١٧].

وقال تعالى: ﴿رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ﴾ [البينة: الآية ٢].

وورد في الخبر عنه - ﷺ -: «من رأني فقد رأى الله»<sup>(١)</sup>.

يعني رؤية حقيقية - ﷺ - فلا مغايرة إلا بالاعتبارات العدمية، كالإطلاق والتقييد، ومن هنا قال بعض الأكابر: «الوجود الحق - تعالى -، ظهر في الحقيقة المحمدية بذاته، وظهر في سائر المخلوقات بصفاته» يريد أن الحقيقة المحمدية ظهرت بالتجلي الذاتي، موصوفة بجميع صفات الحق - تعالى -، ونسبة الإلهية والكونية، وفوض إليها تدبير كل شيء يوجد بعدها. فهي المتصرفة في معلوماته - تعالى -، حسب إرادته ومشيئته - تعالى -، فتستمد من العلم وتمد الخلق. فما صدر عن الله - تعالى - بغير واسطة؛ إلا هذه الحقيقة. وكل ما عداها حتى العقل الأول؛ إنما كان بواسطتها. وإن كان الحق - تعالى - له الخلق والأمر؛ فهي الظاهرة في الأشياء وهي السارية في الوجود. ومن شاهد سريانها في الموجودات قال: مثل من قال: «لو احتجب عني رسول الله - ﷺ - طرفه عين ما عددت نفسي من المسلمين».

\* \* \*

### الموقف الأول بعد المائة

قال تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ، لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَنَيْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنَ الْإِسْرَاءِ﴾ [البقرة: الآية ١٩٦].

أخبر تعالى في هذه الآية، أنه أسرى بعبده محمد بجسده وروحه؛ ليريه من آيات الآفاق، بعد أن أراه آياته في نفسه، كما قال تعالى:

﴿سَرَّيْهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ﴾ [فصلت: الآية ٥٣].

(١) لم يرد بهذا اللفظ إنما ورد بلفظ: «من رأني فقد رأى الحق فإن الشيطان لا يتكونني» (صحيح البخاري، كتاب التعبير، باب من رأى النبي ﷺ في المنام، حديث رقم ٦٩٩٧).

حتى يتبين لهم أن ما رأوه هو الحق لا غيره، وهذه حالة المرادين المجذوبين، المصطفين، يريهم آيات الأنفس قبل آيات الآفاق، خلاف المرادين. ثم أخبر تعالى: أنه أي محمداً هو السميع البصير، فعيل بمعنى مفعول، أي كل ما أبصره وسمعه محمد في أسرته؛ هو محمد من حيث حقيقته، فإنها هيولى العالم وحقيقة الحقائق، وهو الإنسان الأزلي، وهو الأول والآخر، والظاهر والباطن، وهو بكل شيء عليم كما أن الحق - تعالى - له هذه الصفات. فإن الله تعالى لما أوجد حقيقته، قال له: أعطيتك أسمائي وصفاتي فمن رآك رأي، ومن علمك علمني، ومن جهلك جهلني، غاية من دونك أن يصلوا إلى معرفة نفوسهم منك، وغاية معرفتهم بك العلم بوجودك، لا بكيفيتك وكذلك أنت معي لا تعرفني إلا من حيث الوجود، فحقيقة محمد هي المشهودة لأهل الشهود وهي التي يتغزلون بها، ويتلذذون بحديثها في أسمارهم، وهي المعنوية عندهم بليلي وسلمي، وهي المكنى عنها بالخمير، بالشرب والكاس، والنار والنور والشمس، وبالبرق ونسيم الصبا، والمنازل والرسوم والربا، هي نهاية سير السائرين، وغاية مطلوب العارفين. وبعدما كتبت هذا الموقف؛ خطر في بالي أنه إذا وقف عليه بعض من لم يكشف له سر الحقيقة المحمدية ربما يقول ما قال الحافظ ابن تيمية - رحمه الله تعالى - لما وقف على شفاء عياض: لقد تغالى هذا المغربي، ثم نمت فقبل لي في المنام: زد، وهي نار موسى وعصا موسى، ونفس عيسى، الذي كان يحيي به الموتى ويبرئ الأكمه والأبرص. فلما استيقظت زدتها.

\* \* \*

### الموقف الثاني بعد المائة

قال تعالى مخاطباً رسوله محمداً - ﷺ -: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [القصص: الآية ٥٦]، ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: الآية ٥٢]، ﴿وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمَىٰ عَنِ صَلَاطَتِهِمْ﴾ [الثلث: الآية ٨١].

اعلم أنه لا تناقض بين هاتين الآيتين في نفس الأمر والحقيقة، وإنما يظهر التناقض بينهما ببادئ الرأي، عند من لا يعرف مرتبة محمد - ﷺ - ومن عرف كيف هو - ﷺ - ومن ربه؛ استراح وما اعتاص عليه مثل هذه. وتوضيحها: أنه - ﷺ - كان حريصاً على هداية عباد الله - تعالى -، وإيمانهم وانقيادهم لطريق نجاتهم كما أخبرنا تعالى عنه:

﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ (أي عنادكم) حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ﴾ [التوبة: الآية ١٢٨].

وقال له مشفقاً عليه: ﴿لَعَلَّكَ بَنِيعٌ نَّفْسَكَ (أي قاتلها) أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾﴾  
[الشعراء: الآية ٣].

﴿فَلَعَلَّكَ بَنِيعٌ نَّفْسَكَ عَلَيَّ أَتَثْرِيهِمْ إِنْ لَرُّ يُؤْمِنُوا بِهِذَا الْحَدِيثِ أَسْفًا ﴿٦﴾﴾  
[الكهف: الآية ٦].

وهو - ﷺ - في هذا الحال متخلق بأخلاق ربّه، متحقق بها، فإنه - تعالى - يحب الإيمان والهداية لجميع عباده، كما قال: ﴿وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ [الزمر: الآية ٧].

أي لا يحبه لهم، وإنما يحب لهم الإيمان والهداية: ﴿وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: الآية ٧].

فلا يفهم أنه - ﷺ - أحبّ غير ما أحبّ الله تعالى، أو أراد غير ما أراد، فإن المحبة غير الإرادة، وإذا كان الولي الذي هو قطرة من بحر الذي لا نهاية له، يصل عند نهاية كماله إلى أن تتحد إرادته بإرادة الله تعالى، فلا يريد غير ما تعلقت به الإرادة القديمة، وإن كره ذلك شرعاً أو طبعاً، أو أحبّ ضده شرعاً أو طبعاً، ولهذا يقول للشيء «بسم الله» بمعنى «كن فيكون» وما ذلك إلا لاتحاد إرادته بإرادة الحق - تعالى - . وقالوا: حقيقة الكامل هو الذي لا يمتنع عن قدرته ممكن كما لا يمتنع عن قدرة خالقه محال، خزائن الأمور في حكمه ومفاتيحها بيده، ينزل بقدر ما يشاء. فكيف به - ﷺ - الذي هو البرزخ بين الحق والخلق، له وجه إلى الحق، ووجه إلى الخلق؟ بل هو الوجه الواحد فإنه لا ينقسم، وهو الحق المخلوق به فهو على بصيرة من ربّه فيما يحبّ أو يريد، فهو المنفّذ لمراده - تعالى - في عباده من ضلال وهدى، وكفر وإيمان، من حيث حقيقته. فهو مظهر العلم القديم والإرادة الأزلية، فلا إرادة له إلا إرادة الحق - تعالى - وإرادته - تعالى - تابعة لعلمه، فلا يريد إلا ما علم. والعلم لا يتبدّل ولا يتغيّر، إذ لو جاز عليها ذلك؛ ما كان علماً، وانقلاب الحقائق محال، فمعلومات الحق - تعالى - هي صور أسمائه. ومحال تغير الأسماء. فإنّ ما ثبت للذات من التنزيه؛ هو ثابت للأسماء.

وقوله: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [الفصص: الآية ٥٦].

هو إثبات لما عساه أن يتوهم من وقوع شيء بغير إرادته - تعالى - وقدرته، وقد قال ذلك بعض الفرق الضالة، ونقول نحن: لا يريد رسول الله - ﷺ - إلا ما أراد الله

- تعالى -، ولا يحبُّ إلا ما أحبه الله - تعالى -، وهو الوساطة بين الحق والخلق، ولا شيء إلا وهو به منوط، ولولا الوساطة لذهب - كما قيل - الموسوط، فهو مظهر مرتبة الصفات التي لها الفعل والتأثير.

وقوله: ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [الأنعام: الآية ١١٧].

أي هو - تعالى - أعلم العالمين من رسول وملك، وولي؛ بالمهتدين، أي الذين لهم استعداد الهداية وطلبها، من حيث حقائقهم، ولهم قبولها، إذ الحقائق العلمية بمثابة الشخوص. والأعيان الظاهرة ظلالها، وما كان في الشاخص من عوج، أو استقامة، أو طول أو قصر، أو رقة، أو غلظ، مثلاً يظهر في ظلّه ولا بدّ، فغيره - تعالى - إذا أطلعه الله - تعالى - على الاستعدادات، وهي الأعيان الثابتة في العلم؛ فهذا الغير كان ما كان، ما علمها إلا من علمه - تعالى - وهو - تعالى - علمها حيث لا تعين لها، لا في العلم ولا في العين، ولكن لها صلاحية التعيين في العلم والعين.

﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: الآية ٥٢].

صراط الله، وهو صراط النجاة، ففي الآية إثبات لما قلنا: من نيابته - ﷺ - في الهداية وغيرها، وخلافته الكبرى، وأنه الهادي من يشاء بهداية الله - تعالى -. إذ حصول الهداية لكل مهتد، إما بواسطة العقول أو واسطة الرسل - عليهم الصلاة والسلام - وكلاهما بواسطته - ﷺ - فإنه النور الأصلي، الذي منه كل نور، وحقيقة كل حقيقة، فقوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: الآية ٥٦].

من حيث إنك غير وسوى، وإنك رسول مخلوق، كما هو رأي المحجوبين، وفي نظرهم وهو نظر إبليس حيث قال لرسول الله - ﷺ - إسمك الهادي، وليس لك من الهداية شيء، واسمه هو الأبعد المضلّ وليس له في الضلالة شيء، وذلك لجهله - عدو الله - بحقيقة محمد كما جهل حقيقة أبيه آدم.

وقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: الآية ٥٢].

صراط الله من حيث حقيقتك. فإنك التعيين الأول، والمظهر الكامل، والخليفة المفوض، فأثبت له ما نفاه عنه، لأن محمداً - ﷺ - ليس له وجود مع الحق - تعالى -، وإنما هو ظهور الحق - تعالى - لنفسه بنفسه، فهو كناية عن علم الحق - تعالى - بنفسه. فهاتان الآيتان مرتبتان في المعنى، وإن تباعدتا في رسم المصحف الكريم،

ومساقها: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [الفصص: الآية ٥٦]، ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: الآية ٥٢].

كما قال: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ [الأنفال: الآية ١٧].

نفى الرمي عن محمد، ثم أثبت الرمي لمحمد، ثم أثبت الرمي الذي أثبته لمحمد إلى الله - تعالى - فكانت قوة الكلام أن الرامي هو الله - تعالى -، وهو المدعو بمحمد - ﷺ - عند أهل الحجاب. وهنا نفى الهداية عن محمد، ثم أثبت الهداية لمحمد، ثم أثبت الهداية التي أثبتها لمحمد، إلى الله - تعالى - فكانت قوة الكلام: الهادي هو الله - تعالى - وهو المدعو بمحمد - ﷺ - ولا يفهم عنّا إلا أهل طريقتنا، إذ لا يفهم عنك إلا من أشرق فيه ما أشرق فيك. وتقول العامة: لا يفهم كلام الأخرس إلا أمه.

\* \* \*

### الموقف الثالث بعد المائة

قال تعالى: ﴿اللَّهُ نُورٌ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبْرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَلَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النور: الآية ٣٥].

أخبر - تعالى - في هذه الآية الكريمة: أن الله، الاسم الجامع لجميع الأسماء، من حيث الاسم، النور نور السموات والأرض أي وجودها وقيومها ومظهرها. إذ بالنور ظهر ما كان في ظلمة العدم مستورا. فلولا ما أدرك شيء، ولا تميّز شاخص من فيه، فالنور سبب ظهور الكائنات، التي من جعلتها الأرض والسموات كما هو في الحسن إذا كانت ظلمة الليل تكوّن الأشياء كأنها معدومة بالنسبة إلى المبصرين، فإذا ظهر النور ظهرت الأشياء وتميّز بعضها من بعض حتى قال بعض الحكماء في الألوان، إنها معدومة في الظلمة، والضوء شرط في وجودها، وإنما خصّ السموات والأرض بالذكر؛ لأن السموات محل الروحانيات، والأرض محل الجسمانيات، والكل مستنير بنور واحد، لا يتجزأ، ولا يتبعّض، ولا ينقسم. ولما كان النور المحض لا يدرك، كما أن الظلمة المحضة لا تدرك؛ تجلّى النور على الظلمة،



فأدركت الظلمة بالنور، وأدرك النور بالظلمة. وهو معنى قول القوم: الحق - تعالى - ظهر بالمخلوقات، وظهرت المخلوقات به. قال الشيخ الأكبر:

فلولاه ولولانا لما كان الذي كانا

خلق بلا حق لا يوجد، وحق بلا خلق لا يظهر، وليعلم أن الحق - تعالى - في ظهوره لذاته بذاته، غير متوقف على المخلوقات، فإنه من حيث الذات غني عن العالمين، وهو غني حتى عن أسمائه، من حيث الذات يتسمى لمن؟ ويوصف لمن؟ وليس إلا الذات الأحدثية الغنية، ولكن في ظهوره بأسمائه وصفاته، بظهور آثارها؛ هو مفتقر إلى المخلوقات، قال الشيخ الأكبر:

الكل مفتقر م - الكل مستغني

يعني الحق والخلق، ولا نقص في افتقار الأسماء إلى مظاهرها بل هو عين الكمال الأسمائي الصفاتي، إذ افتقار المؤثر من حيث اسمه مؤثر، إلى الأثر، من حيث هو أثر عين الكمال لأجل امتياز الأسماء بعضها عن بعض، فإنه لا تميز لها إلا بآثارها. والأسماء من الوجه الذي يلي الذات؛ هي غنية عن العالمين، أيضاً، فإنها من ذلك الوجه عين الذات، ولهذا كان كل اسم يوصف ويسمى بجميع الأسماء كالذات، وقد رأيت في بعض المشاهد: رفع لي سجل عظيم منشور ومكتوب في سطر منه الاسم. ثم يتعت بجميع الأسماء بعده في ذلك السطر إلى آخر الأسماء. ثم سطر آخر فيه اسم آخر منعت كذلك بجميع الأسماء إلى آخرها، وهكذا إلى تمام التسعة والتسعين، وأما الأسماء في الوجه الذي يلي العالم فهي مفتقرة إلى العالم، بمعنى طالبة لآثارها، وكل طالب مفتقر إلى مطلوبه، فالسموات والأرض وجميع الكائنات التي نورها الاسم النور، هي ظلال الأسماء والصفات، والذي ظهر عليه هذا الظل هي الأعيان الثابتة في الحضرة العلمية، إذ لا بد للظل من شيء يظهر عليه كالأرض والماء مثلاً فالنور يظهر الظل، والشاخص يرسمه، فالشاخص؛ هو مرتبة الأسماء والصفات. والنور هو الوجود الفاض على الممكنات، ثم أخبر - تعالى - من يسأل ويقول: هل هذه هي الإنارة الحاصلة للأرض والسموات وجميع الكائنات مباشرة أو بواسطة، وهل باتصال أو اتحاد أو امتزاج، بما ضربه في المثل بالمشكاة والزجاجة والمصباح، بأن الإنارة من غير اتحاد ولا امتزاج ولا اتصال، وأن هذه الإنارة بواسطة الحقيقة المحمدية، التي هي التعيين الأول وبرزخ البرازخ ومظهر الذات ومجلى النور، الذي هو نور الأنوار وهي المكنى عنها بالزجاجة. وأما المشكاة فهي

جميع الكائنات ما عدا الحقيقة المحمّدية فإنّ النور دائماً سرى من الزجاجية وبواسطتها، فالمصباح هو النور الوجودي الإضافي ظهرت به السموات والأرض، والزجاجية هي الحقيقة المحمّدية، والمشكاة هي جميع الكائنات كما قلنا، ثم أخبر - تعالى -، أن هذه الزجاجية التي هي الواسطة في وصول النور إلى المشكاة في لطافتها، وبساطتها، وصفانها، واستعدادها لقبول النور وإفاضته على المشكاة، الاستعداد التام الذي لا مزيد عليه، حتى قيل: إنها هو كما قال الصاحب بن عباد:

رقّ الزجاج ورقت الخمر فتشابهها فتشاكل الأمر  
فكأنما خمر ولا قدح وكأنما قدح ولا خمر

كأنها كوكب دُرّي يوقد، أي يستمدُّ هذا المصباح، وهو النور الوجودي الإضافي، من شجرة أي من أصل منبع، مباركة ثابتة البركة والزيادة لا ينفد مددها، لا شرقية ولا غربية، أي هذه الشجرة التي يستمدُّ منها المصباح لا يقال شرقية من الشروق والإنارة، ولا غربية من الغروب والظلمة، فإنها كنه الذات التي لا يحكم عليها شيء، لأنها لا تعقل، والحكم على ما لا تعقل محال، فهي لا شرقية ولا غربية، لا وجوب ولا إمكان، ولا حق ولا خلق، ولا حدوث ولا قدم، ولا وجود ولا عدم، فهي ماهية لا تظهر بشيء إلا ولها ضده يكاد يقرب، ولم يكن زيتها ما تمدُّ به المصباح المتقدم الذكر يضيء، يظهر لذاته بذاته من غير اقتران بشيء، الاقتران المعنوي، ولو لم تسمه نار كناية عن المظاهر التي يقترن بها المكاني عنه بالزيت، الذي هو حقيقة المصباح، والمصباح لا يظهر ضوءه إلا بمماسة النار، فالنار لا تضيء ولا تظهر من غير شيء يثيرها فيكون ممداً لها، والشيء لا يظهر من غير مماسة النار.

﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾ [الثور: الآية ٣٥].

أي النور المضاف إلى السموات والأرض، هو عين النور المطلق الذي لا يقيد بالسموات والأرض، فعلى؛ بمعنى نحن، يهدي الله بتعريفه وتجليه، لمن يشاء من عباده لنوره المطلق غير المضاف إلى الشيء، ويضرب الله الأمثال للناس لبيِّن لهم الأمر، فإنه بكلِّ شيءٍ عليم، فيعرف كيف يضرب وأما الناس فقد قال لهم: فلا تضربوا الله الأمثال، فحجر عليهم لجهلهم، لأنهم لا يعلمون كيف يضربون الأمثال، والتحجير إنما هو في الاسم الله الجامع، وأما غيره من الأسماء فلا تحجير، والله أعلم وأحكم.

### الموقف الرابع بعد المائة

قال الحق تعالى لبعض عبده: «قل للجاهلين لم لا تتعلمون؟ وقل للعالمين: لم لا تعملون؟ وقل للعاملين: لم لا تخلصون؟ وقل للمخلصين: لم لا تتخلصون، فتعرفون أنكم لستم بفاعلين من حيث صوركم وخلقكم».

﴿وَمَا رَمَيْتَ﴾ [الأنفال: الآية ١٧].

لما أنتم فاعلون من حيث وجودكم وحفكم.

﴿إِذْ رَمَيْتَ﴾ [الأنفال: الآية ١٧].

فسبحان من يعبد نفسه في أعيان خلقه.

﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ رَحِيمٌ﴾ [الأنفال: الآية ١٧]، ﴿فَتَلَوْتُمُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾

[التوبة: الآية ١٤].

\* \* \*

### الموقف الخامس بعد المائة

قال تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُمْ﴾ [المائدة: الآية ٥٤].

اعلم أن محبة الحق - تعالى - لمخلوقاته على أنواع، نوع قبل خلقهم، ونوع بعد خلقهم، وهي على نوعين، نوع للخاصة. ونوع لخاصة الخاصة، أما النوع الأول من المحبة؛ فهو عام في جميع المخلوقات على اختلاف أجناسها وأنواعها وأشخاصها، وهو قوله في الخبر المشهور عند القوم: «كنت كنتاً مخفياً، فأحببت أن أعرف؛ فخلقت خلقاً وتعرفت إليهم فعرفوني بي».

وهذه المحبة هي السبب الأول لوجود العالم، قال:

﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [٥٦] ﴿الذَّارِيَاتِ﴾ [الذَّارِيَاتِ: الآية ٥٦].

أي ليعرفون، وهذه المحبة المذكورة؛ هي الميل إلى الظهور بالأسماء والصفات، وهو ذاتي ما تخلله اسم ولا صفة، إذ لا ظهور للأسماء في هذا الاعتبار. ثم سرى هذا الميل ومحبة الظهور في جميع الأسماء الإلهية فطلبت الظهور بظهور آثارها وقد كانت مستجئة في الذات، مستهلكة في الأحدية، ثم لما خلقهم عرفوه كما أراد، لأن خلاف الإرادة محال، وعرفه كل نوع من المخلوقات، على قدر ما أعطاهم من معرفته ما استعدوا له من ذلك، فأما الملائكة فكل ملك نوع بانفراده، له مقام ومرتبة كسائر أنواع المخلوقات ومراتبها، لا ينزل عنها ولا يتعداها. ولهم قبول زيادة

العلم بالله - تعالى - . فإنها - لا شك - قد ازدادت علماً بما علمهم آدم - عليه السلام - ، من الأسماء كما أخبرنا - تعالى - بذلك في كتابه ، وأما الجماد والحيوان من غير الإنسان فمعرفة فطرية لا تزيد ولا تنقص ، فكلُّ له مقام معلوم لا يتعداه في المعرفة ، وأما الإنسان فله معرفة فطرية متجددة وتجدها إنما هو بالنسبة لظاهرة ، أعني نفسه وعقله ، وإلا فالعلوم كلها مركوزة في حقيقته ، تظهر آناً بعد آناً بإرادته - تعالى - ، لأن الحقيقة الإنسانية موجودة في الجميع ، وكل إنسان ، بما هو إنسان ، قابل لرتبة الإنسان الكامل ، ولكنهم متفاوتون في ظهور آثار الإنسانية .

وأما النوع الأول من نوعي المحبة الخاصة فهي محبته - تعالى - لبعض خواص عباده ، كقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَّابِينَ ﴾ [البقرة: الآية ٢٢٢] .

المتطهرين ، الصابرين ، الشاكرين ، المتوكلين .

﴿ الَّذِينَ يُفْتَلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا ﴾ [الصف: الآية ٤] .

إلى غير ذلك من أنواع المحبوبين الذين اتصفوا بصفات خاصة ، أوجبت لهم محبة خاصة من الحق - تعالى - ، ولكنها محبة على الحجاب وشهود البعد . وهذه المحبة هي المنفية عن أقوام مخصوصين كقوله : ﴿ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ [آل عمران: الآية ٥٧] ، ﴿ لَا يُحِبُّ الْكٰفِرِينَ ﴾ [آل عمران: الآية ٣٢] . إلا المحبة الأولى .

أما النوع الثاني من نوعي المحبة الخاصة ؛ فهي المحبة المشار إليها بقوله تعالى<sup>(١)</sup> : « لا يزال العبد يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحبته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره . . . » .

الحديث بطوله . أي كشف له أن هوية الحق - تعالى - هي حقيقة قواه الظاهرة والباطنة ، وهذا النوع من المحبة على كشف من المحبوب ، وثمرته ظاهرة في الدنيا ، لأجل ما يحصل له من المشاهدة والرؤية ، على التخيل . أو في الأشياء وإدراك العلوم الذوقية بأنواع التحف .

وأما النوع الذي قبل هذا من المحبة ؛ فهو على الحجاب ، باعتبار شهود صاحبه للغيرية والإثنية ، ولا تظهر ثمرته إلا في الآخرة . ولذا قال في الحكم العطائية : « خرج العباد والزهاد من الدنيا وقلوبهم مشحونة بالأغيار » .

\* \* \*

(١) في الحديث القدسي الذي سبق تخريجه .

## الموقف السادس بعد المائة

قال تعالى: ﴿وَنُزِّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء]:

[الآية ٨٢].

اعلم أن العلل والأمراض يراد بها علل القلوب، وعلل النفوس، وعلل الأجسام، والعلل التي القرآن شفاؤها؛ ما هي علل النفوس، إذ تلك العلل أطباؤها المشايخ أهل التربية، العارفون بالله - تعالى -، إذ معرفة علل النفوس وطبها؛ ركن من أركان المعرفة بالله - تعالى -، وعلل الأجسام أطباؤها العارفون بعلوم الطبيعة وإن ورد الاستشفاء بالقرآن من علل الأجسام فما هو المراد هنا منها، وإنما مرادنا علل القلوب وأمراضها، وهي العقائد الباطلة، والنحل الزائغة، فهي التي القرآن شفاؤها، وما هو شفاء إلا للمؤمن خاصة، وهو الذي سلم الأمر إلى ربه وإلى رسله - عليهم الصلاة والسلام - وانقاد ظاهراً وباطناً ما اضطرب، ولا نازع الشرع بعقله فيما وصف به - تعالى - نفسه من صفات المخلوقين، أو وصفته به رسله - عليهم الصلاة والسلام - فما رد ولا أول، ولا شبه التشبيه المعروف عند العامة، بل فوض الأمر إلى الله وإلى رسله - عليهم الصلاة والسلام - وقال: «لا أعرف بالله تعالى من نفسه، ولا أعرف به من المخلوقين من رسله».

وحينئذ كان القرآن له شفاء ورحمة. لأنه لما عمل على هذا؛ اجتمع له نوران: نور عقله القابل، ونور إيمانه الكاشف، فكان نوراً على نور، وانقشعت عنه غياهب الجهالات إذ لا ظلمة مع نور كاشف، وحدث من اجتماع هذين النورين نور ثالث، لا هو عينهما ولا غيرهما كالبرزخ الحاجز بين الشيتين، لا هو عينهما ولا غيرهما، إذ يحدث عند التركيب ما لم يكن لكل واحد من المركبين بانفراده، فجمع بين الشرع والعقل، بل وجد ما كان يتوهمه؛ خلافاً وفاقاً، ووجد العقل لبناً والشرع زبدة، ذلك اللين منزّه ومشبه. لا تنزيه مطلق كتزويه المتعقّلة، ولا تشبيه مطلق كتشبيه المشبهة، فتشبيهه عين تنزيهه، كشف الله - تعالى - له عن حقيقة الأمر فعرف محل التنزيه من محل التشبيه، فأنزل الأشياء منازلها وأورد النصوص الواردة مواردنا وحينئذ صار إطلاق اسم المؤمن عليه مجازاً، إذ المؤمن هو المصدق تقليداً، وهذا قد ارتفع عن مرتبة التقليد، فهو يشاهد الأمر عياناً. صار الغيب عن غيره شهادة له شهادة ضرورية، وانظر قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى]: الآية

[١١].

فهاتان الآيتان جمعتا التنزيه والتشبيه، فإن قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: الآية ١١].

تنزيه على زيادة الكاف، كما هو رأي جمهور المتكلمين صريح في نفي الشبيه والمثل، وقوله: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: الآية ١١].

تشبيه صريح لأن تعريف الجزئين يفيد حصر الخبر، وقصره على المبتدأ، فهو في قوة لا سميع ولا بصير إلا هو، وكل سميع وبصير هو. ويصح تركيب قياس من الشكل الأول فتقول: كلُّ حي سميع بصير، السميع البصير هو الله لا غيره، فتكون النتيجة: كلُّ حي هو الله لا غيره. أما صدق الأولى فبالضرورة، وأما صدق الثانية فبالكتاب العزيز، بل قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: الآية ١١].

بانفراده يعطي التنزيه والتشبيه، على أن الكاف كاف الصفة، كما هو رأي العارفين بالله تعالى. فإن الكلام المعجز يجلب عن الزيادة ولا يصار إلى الزيادة، إلا عند التعذر، ولا تعذر هنا عند العارفين. فمعنى إشارة الآية الكريمة إلى هذا؛ إثبات المثل له تعالى: وهو التشبيه ونفي المماثلة عن هذا المثل وهو التنزيه، فإنه إذا كان لا مثل لمثله، كان نفي المثل عنه - تعالى -؛ أولى وأحق، وليعلم أن الحق - تعالى - من حيث اسمه الباطن واسمه الأول، لا كلام فيه لعقل، ولا خبر عنه لرسول. ولكن من حيث اسمه الظاهر واسمه الآخر أمكن للعقول الاستدلال عليه، وللرسل أن تخبر عنه، لأنه لما ظهر باسمه الظاهر فأوجد العالم على صورته، أي صورة علمه، وعلمه عين ذاته، والعلم عين المعلوم، ثم أوجد الإنسان على صورة العالم، وجعله نسخة مختصرة من العالم، حينئذ أمكن الكلام فيه، فالمماثلة إنما هي بين الصورة الأولى التي هي صورة الحق - تعالى - وبين الصورة الثانية التي هي صورة الإنسان الكامل، فيكون المعنى: ليس مثل مثله شيء، فالمثل المنزه هو الإنسان الكامل، أثبت له المثلية ونفى عنه أن يكون له مثل، إذ هو الأصل في إيجاد العالم ولو تأخرت صورته، فالعالم كله بجميع أجزائه العرش وما حوى؛ يماثل الإنسان، والإنسان بمختصره يماثل العالم كله. فالعالم بمجموعه مثل، والإنسان بمفرده مثل، فأنت ترى هذه الآية كيف نُزّهت، لأن تنزيه المماثل اسم فاعل، تنزيه للمماثل اسم مفعول، وشبهت بإثبات المماثل، فالمؤمن الذي يكون القرآن له شفاء ورحمة؛ يكون القرآن كله له محكمًا، ليس فيه متشابه:

﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: الآية ٨٢].



فما في القرآن اختلاف، بل هو:

﴿الرَّ كِتَبٌ أُتِمَّتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾﴾ [هود: الآية ١].

وأما قوله: ﴿وَأَخْرَجْنَا مُتَشَابِهَاتٍ﴾ [آل عمران: الآية ٧].

فإنما ذلك في حق مَنْ ينصر عقله، ويرجحه على الكتاب والسنة، فإن الله ما أرسل رسوله إلا ليعلموا عباده ويعرفوهم بربهم، فطالب الحق بفكره وعقله؛ ليس القرآن شفاء له، فإذا سمع آية أو خبرًا يفهم من ظاهرهما تشبيهاً، يقول: أورت هذا الخبر، أو هذه الآية شبهة عندي، حيث خالف عقله، فمثل هذا لا يكون القرآن شفاءه، بل يزيد في علمه، وهو من الظالمين الذين يزيدهم القرآن خسارًا، إذ الظلم وضع الأشياء في غير مواضعها التي تستحقها، ومَنْ قال في حقه:

﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا﴾ [البقرة: الآية ٢٦].

ومن الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه حتى يؤولوه ويردوه إلى عقولهم، وقد عمت هذه البلوى، فلا تجد اليوم فقيهاً إلا على هذا المذهب، وقد نصحتك والله الموعد.

\* \* \*

### الموقف السابع بعد المائة

قال تعالى: ﴿مَنْ أَهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾

[الإسراء: الآية ١٥].

اعلم أن مَنْ حصلت له الهداية؛ اهتدى ووصل إلى مقصوده. فإنما اهتدى ووصل إلى نفسه لا إلى غيره، وَمَنْ ضلَّ بأن لم يصل إلى مقصوده ولا اهتدى إليه؛ فإنما يضلُّ على نفسه، أي عن نفسه، «فعلى» بمعنى «عن» وذلك لأن نفس الإنسان وروحه هي كل شيء يصحُّ أن يعلم، وتقصد معرفته، من حقِّ وخلق، وجوهر وعرض، وحادث وقديم، فإذا طلب الإنسان الهداية إلى شيء ليعرفه، ووصل إليه وعرفه؛ فذلك الشيء نفسه وروحه، فهي التي تصوّرت له بصورة ذلك الشيء المطلوب المهتدي إليه، إذ الإنسان متى صفت روحه ونفسه، وتزكّت باتباع الكتاب والسنة ظاهراً وباطناً، واستعملت الرياضة والمجاهدة وأراد أن يعلم شيئاً من الأشياء؛ تصوّرت له روحه بصورة ذلك الشيء المطلوب على حسب ما هو، وعلى حسب ما يريد الله - تعالى - من تعريفه، فروح الإنسان خالية من كل شيء، لا نقش فيها، لأنها

أمر الله - تعالى - الواحد الذي هو كلمح البصر، والمعلومات في العقل بالقوة، فإذا امتزج العقل بالروح امتزاجاً معنوياً؛ ظهرت العلوم في النفس وتصوّرت بها، حتى الحق - تعالى -، وما يستحقه من نعوت الكمال، فكل ذلك إنما هو للنفس والروح، فهي التي تصورت بمسمى الحق - تعالى - واجب الوجود حتى علم وعرف بجميع ما يجب له من الكمالات، وطالب الحق - تعالى -، إذا اهتدى ووصل؛ يجد الطالب عين المطلوب. وإليه يشير خبر: «من عرف نفسه عرف ربّه».

فالفتح الذي يذكره القوم - رضوان الله عليهم - هو أن يكشف - تعالى - للعبد أنه هو من غير حلول ولا اتحاد. وأن الربَّ ربَّ والعبد عبدٌ، لا يصير الربُّ عبداً ولا العبد رباً، فإن قلب الحقائق محال، وجميع الأوامر والنواهي الشرعية؛ إنما هي موضوعة لرفع الحجاب عن العبيد، حتى يصلوا إلى ربهم وصول علم، برفع النسب والاعتبارات الحسيّة والعقلية، إذ هي كلها - عند التحقق - نسب لا عين لها في الوجود الحق، ولكن الآفة الطارئة على الأبصار صيرته يرى الواحد اثنين، فسبحان مقلب الأبصار والبصائر.

\* \* \*

### الموقف الثامن بعد المائة

قال تعالى: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ [الحديد: الآية ٣].

اعلم أن الأولية والآخريّة بالنسبة إلى الممكنات هي نسبة وإضافة، فالأول أول بالنسبة إلى ما بعده، والآخر آخر بالنسبة إلى ما قبله، وقد يكون الممكن أولاً وآخرًا بنسبتين مختلفين، وأما أولية الحق - تعالى -، فهي عبارة عن نفي البداية عن وجوده - تعالى - وهي ثابتة له - تعالى - أولاً كسائر أسمائه، لا باعتبار موجود، إذ لو كانت أوليته ونحوها بالنسبة إلى الممكنات؛ لكانت الممكنات ثانية له. وليس الأمر على هذا. أو أول باعتبار أن كل ما سواه منه ابتداءه. وآخرته هي عبارة عن رجوع الأمور كلها إليه، كما قال: ﴿إِلَّا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾ [الشورى: الآية ٥٣]، ﴿وإِلَيْهِ يَرْجِعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ﴾ [هود: الآية ١٢٣].

وليس الشأن في أوليته وآخرته بهذا المعنى، وإنما الشأن في أوليته التي تجامع آخريته، فأخريته التي تجامع أوليته، إذ هذه هي الخصيصة بالألوهية وهي التي عرف الإله بها، وهي الجمع بين الضدين. وليس المراد أنها عين تجمع

الضدين، بل هي عين الضدين تظهر بهما معاً، فهو أوّل من حيث ما هو آخر، وآخر من حيث ما هو أوّل، والعين واحدة لا من نسبتين، بل من نسبة واحدة، وأنه - تعالى - مع كل شيء، لا يتقدم عن شيء ولا يتأخر عن شيء، ولا يتجزأ، ولا يتبعّض، فنسبة الذات إلى الموجودات العينية والعلمية؛ نسبة واحدة، ليس للموجودات تقدم ولا تأخر بالنسبة إليها، فأخريته عين أوليته، أو لا أوليته ولا أخريته، والحصر المستفاد من تعريف الجزئين؛ يفيد أنه لا أوّل إلا هو، ولا آخر إلا هو، فكلُّ أوّل وآخر هو، ولا آخر، إذ الممكنات لا نهاية لها، فهي متجددة لا إلى آخر، وهذا هو الذي حيرّ العقول وما قبلته، وكذا الظاهر والباطن، فهو ظاهر من حيث ما هو باطن، وباطن من حيث ما هو ظاهر من جهة واحدة، فظهوره عين بطونه، وبطونه عين ظهوره، من حيث الجمع الذاتي، ولكلُّ واحد منهما أحكام وخصوصيات، من حيث الفرق الصفاتي، هذه الجملة لقنيتها الحق في النوم فألحقها، فالاسم الباطن؛ هو النفس الرحماني، والاسم الظاهر هو العماء. والنفس عين العماء، ولكن تبدلت صورته التي هي أمر اعتباري، والعماء عين العالم، فالباطن عين الظاهر، والظاهر عين الباطن، والآية مصرّحة بهذا كما قدّمنا، فلا ظاهر إلا هو، ولا باطن إلا هو، فكل باطن وظاهر هو، فهو الشاهد والمشهود والشهادة، ولا نقول: ظاهر بأسمائه، باطن بذاته، كما يقول الفقيه، لأن الأسماء أمور معنوية يستحيل ظهورها دون الذات المسماة بها، فهو الظاهر بالذات، الباطن بالذات، الظاهر للأبصار والبصائر، الباطن عن الأبصار والبصائر، فأين الله وأين العالم؟! فما ثمّ إلا الله المسمّى بالعالم، فهو الظاهر في عين العالم، والعالم مظهر له. وكل ظاهر في مظهر؛ فقد انضم الظاهر إلى المظهر من غير حلول ولا اتحاد ولا امتزاج وكيف يتحد الوجود بالعدم؟ أم كيف يحل الحدوث في القدم؟ وقد كان الحق باطنًا فأظهر نفسه بالعالم، فصار ظاهرًا لأن العالم صورته. وهذا معنى قولهم: عَلِمَ نَفْسَهُ، فعلم العالم من علمه بنفسه، إذ ليس العالم بشيء زائد عليه - تعالى -، قال الشيخ الأكبر رضي الله عنه:

نحن المظاهر والمعبود ظاهرننا      ومظهر الكون عين الكون فاعتبروا  
ولست أعبدّه إلا بصورته      فهو الإله الذي في طيه البشر  
وقال أيضًا:

فلا تفرّ ولا تركن إلى طلب      فكل شيء تراه ذلك الله

وقال أيضًا:

فما ثمَّ إلا الله والكون حادث      وما ثمَّ إلا الكون والله ظاهر  
وما العلم إلا الجهل بالله فاعتصم      بقولي فإني عن قريب أسافر

فظهر الحق - تعالى - بذاته مسمًى بأسماء العالم، متصفًا بصفاته، هو حجابُه وبطونه، ولو ظهر بأسمائه وصفاته؛ ما كان للعالم عين ولا اسم، فهو كالواحد ينشئ الأعداد إلى غير نهاية، بذاته دون اسمه، إذ ليس العدد إلا الواحد المنتقل في مراتب الأعداد، متسميًا بأسماء المراتب كالاثنين والثلاثة، إلى ما لا يتناهى، ولو ظهر باسمه وقيل: واحد؛ لبطل العدد، فمن تجلَّى الحق - تعالى - عليه باسمه الظاهر، رأى الحق - تعالى - في كل شيء من ذرات العالم علوي وسفلي، وما زهد في شيء، ولا طلب الاحتجاب عن شيء، وهذا هو الذي يرى الوحدة في الكثرة، والكثرة في الوحدة، يعني أنه يرى الواحد الحقيقي كثيرًا بنسبه وأسمائه واعتباراته، ويرى الكثير واحدًا باعتبار رجوع الكثرة إلى العين الواحدة وحدة حقيقية، وكذا الجاهل يرى الحق - تعالى - لأنه عين كل ما يرى، ولكن لا يعرفه. فهو يكلم الحق - تعالى - ويكلمه، وهو معه في كل حركة وسكون، وهو جاهل به، فالفارق بينهما العلم والجهل، لا غير. وحيث كان الأمر كما قلنا وقاله كل عارف بالله، فأين الحجاب؟ وليس إلا الحق - تعالى -! فهو لا يحتجب عنه شيء ولا يحجبه شيء، ولا يصح أن يقبل الحجاب ولا أن يكون غيره محجوبًا عنه فإنه لا غير، وما ورد من ذكر الحجب النورية والظلمانية وعدّها بسبعين وسبعمئة وبسبعين ألفًا، وقول جبريل بيني وبينه سبعون حجابًا لو وصلت إلى أذناها لا احترقت، وأنه لولا الحجب لأحترقت سبحات وجهه ما أدركه بصره في خلقه، فقد قال شيخنا محيي الدين - رضي الله عنه -: حقيقة سبحات الوجه هي دلائل ذاتية، إذا ظهرت نسبيًا لا أعيانًا، فتبين أنه عين تلك الأعيان أعني الوجه فزال الجهل الذي كانت ثمرته: أن العالم ما هو عين الوجه، فبقي العالم على صورته، ثم تذهب السبحات. بل أثبتته وأبانت عن الحق ما هو. انتهى.

أقول: ما ذكره سيدنا ظاهر في حق من يمكن أن يكون عليه حجاب، فتحرقه السبحات فيزول، فيقال: كان في حجاب ثم احترق وزال، وأما في حق من لا يصح في حقه حجاب، دون شهوده، كالملك؛ فغير ظاهر، لأن معرفة النبي والملك بالله - تعالى - ضرورية فطرية، لا يقال إنهم كانوا في حجاب ثم احترق وزال، وعندني أن الحجب في حق النبي والملك؛ إنما هي مظاهر هيبية وجلال

وعظمة، بحيث لا تمكن مشاهدتها لخصوصية ذاتية لها، فهي تفني مشاهدتها وتمحقة وتسحقه. وأما غير الملك؛ فما حجابُه إلا الجهل، لظهوره الظهور الذي لا يتصور مثله ظهور، وقربه القرب الذي لا يماثله قرب، واتصافه بصفات المحدثات، وتسميه بأسمائها، فجهل لذلك وانحجب واستتر، والجهل لا عين له، فإنه عدم العلم، كما قال تعالى:

﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا﴾ [الأنعام: الآية ٤٥].

أي مجهولاً، لأنه لو كان المراد: أن الحجاب عليه ساتر يستره؛ ما كان المستور حجاباً، ولكان الساتر أولى باسم الحجاب، فليس الحجاب المستور إلا الجهل لا غير، وأما الاسم الباطن؛ فالتجلي فيه ممنوع جملة واحدة، ما تجلي فيه لأحد سواه، قيل لي في الواقعة يوم تقيدي لهذا الموقف، «لو كان الحق متجلياً لأحد من خلقه، لتجلى للعلماء» فعرفت أن المراد بالتجلي، التجلي الممنوع، وهو التجلي من حيث الاسم الباطن، وأن المراد بالعلماء؛ العلماء بالله - تعالى -، الذين هم أعلى من العارفين.

\*\*\*

### الموقف التاسع بعد المائة

قال تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْبَصَرُ﴾ [الأنعام: الآية ١٠٣].

وورد في الأثر، أنه - ﷺ - سئل، هل رأيت ربك؟ فقال: «نوراني أراه»<sup>(١)</sup>. وورد أنه قال لسائل آخر، «نعم رأيت».

والتحقيق عندنا، أنه رآه يقظة ليلة الإسراء، وما زاغ بصره وما طغى، وجوابه للسائل في الرؤية الأولى، إما لكونه - ﷺ - عرف منه أنه لا يعرف إلا رؤية الذات البحت مجرداً عن المظاهر، ولا يعرف هذا السائل أمر التجلي؛ فكان هذا الجواب الساذج أولى به، وإما أن يكون السائل لا يعرف إلا الرؤية المعتادة عند العامة، التي تمنع أنوار الأشعة الرائي من تحقيق ما رأى، فوزى له - ﷺ - بأن الحق - تعالى - اسمه النور. وأمر النور في منع تحقيق الرؤية مشهور. وما قال: ما رأيت، لأن هذا

(١) رواه مسلم: كتاب الإيمان، باب في قوله عليه الصلاة والسلام: «رأيت نوراً»، حديث رقم

السائل لا يعرف أن مَنْ رأى الحق؛ إنما يراه ببصر الحق، لا ببصره المقيد، فإنه قال: «فإذا أحببته؛ كنت سمعه وبصره» الحديث.

﴿وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: الآية ١٠٣].

ومن لطفه تعالى أنه أخبر: أن هويته هي بصر العبد وجميع قواه. ومع ذلك لا يقدر أن يميّز بين بصره وبصر الحق - تعالى -، فمحمد - ﷺ - رأى ربّه يقيناً في مظهر، وهو التعيّن الأوّل، وهو الخاص بمحمد - ﷺ - لا يشاركه فيه غيره من رسول ومملك، والرؤية في غير تعيّن محال، وهذه الرؤية التي حصلت لمحمد - ﷺ - من غير سؤال هي التي سألها موسى - ﷺ - فمنعها على حسب سؤاله لا مطلقاً، وما حصلت له حتى صعق. ثم أفاق فما أطاقها، مع بقاء هيكله على حالته، وهو معنى قوله: ﴿لَنْ تَرِنِّي﴾ [الأعراف: الآية ١٤٣].

أي لا تطبق رؤيتي، مع بقائك على حالتك، حسب سؤالك. وأطاقها محمد - ﷺ - لما خصّه الله - تعالى - به من القوة روحاً وجسماً، وأنه صاحب إرادتي، وسائر الرسل - عليهم الصلاة والسلام - متهاهم قاب قوسين، وهو ظاهر العلم وظاهر الوجود، والرؤية الحاصلة لمحمد ولموسى - عليهما الصلاة والسلام - هي غير المشاهدة الحاصلة لكل عارف بالله - تعالى -، من نبيّ ووليّ وإن تفاوتت مراتبهم في المشاهدة. وسواء كانت المشاهدة حال الغيبة عن العالم أو في العالم. والمحققون من العارفين لا يقولون: إنهم يرون الحق - تعالى - حالة شهودهم، بل يقولون: إنهم ما رأوه قطعاً، وإنما يرون صورهم ومراتبهم واستعداداتهم في الوجود الحق - تعالى - فلا يشبهه الشاهد ممّا إلّا نفسه. لأن المشاهدة على قدر ما يعلمه منه، وإن كان العلم خلاف الشهود والرؤية. فكل مشهود معلوم ما شهد منه. وما كل معلوم مشهود، فما يلزم من شهود الشيء؛ العلم بحده وحقيقته وإلّا فما علمه؟ ولذا كان علمنا بالله شعوراً فقط. والشعور علم إجمالي يعطي أن ثمّ شعوراً به، ولكن لا يعلم ما هو. كما إذا رأيت صندوقاً مقلّلاً، فحركته فوجدته ثقيلاً، تعلم أن فيه شيئاً، ولكن لا تعلم ما هو؟ وإنما يقول المحقق: إنه ما رأى الحق في مشاهدته، لأن الصور دائماً تتنوع على الرائي. والحق - تعالى - عين واحدة لا يتنوع، مع أن المحقق يعلم أنه ما رأى الصور إلّا في مرآة الوجود الحق - تعالى -، فهو يرى، ولهذا يشير إمامنا وقُدوتنا محيي الدين:

قلوب العارفين لها ذهاب      إذا هي شاهدت من لا تراه  
وذا من أعجب الأشياء فينا      نراه وما نراه إذ نراه



على أنه في حال الغيبة عن العالم. في المشاهدة، يقال: إنهم رأوه. ولكن مَنْ الرائي وَمَنْ المرئي؟! فإنها فناء محض، فالرائي هو المرئي إذا، فعلى كل حال؛ ما رأوه. وإنما يرى الراؤون صورهم ونفوسهم ومنزلتهم، فكلُّ مشاهد للحق - تعالى - أو الخلق، وكل عالم بالحق أو بالخلق؛ إنما يشاهد ويعلم من كل مشاهد ومعلوم قدر استعداده ومنزلته، ولكن في الوجود الحق - تعالى -، وما رأى ما رأى إلا فيه، فإن قال: رأيت الحق صدق على طريقة التوسع، وإن قال ما رأيته صدق. فإنه - تعالى - غير متعین حال تعينه من حيث الذات. وغير مقيد حال تقيده. وفي قوله، فمن أبصر؛ فلسفه. وَمَنْ عمي؛ فعليها، تصريح بما ذكرنا، يعني: أن مَنْ أبصر الحق عند نفسه وفي زعمه؛ فإنما أبصر نفسه، بمعنى استعداده ومرتبته، وَمَنْ عمي فلم يبصر؛ فإنما عمي عن نفسه. «فعلى» بمعنى «عن ذلك» أن كل من رأى شيئاً يقظة أو مناماً؛ إنما يراه على قدر استعداده فنفسه رأى. فما أبصر مبصر الحق من حيث هو، لأن المقيد لا يبصر إلا مقيداً، ولا يبصر المطلق عن القيود أبداً، فروية الوجود الحق - تعالى - مجرداً عن المظاهر والقيود؛ محال في الدنيا وفي الآخرة، لرسول ولملك ولأشرف مخلوق وأقربه محمد - ﷺ - ولذا يقول إمامنا محيي الدين:

ولم يبده من شمس الوجود ونورها      على عالم الأرواح شيء سوى القرص  
وليست تنال الذات في غير مظهر      ولو هلك الإنسان من شدة الحرص

يريد أن الشمس يدرك قرصها، ولكن لا يحاط بها ولا تنضبط كقيمتها ولا يعلم ما هي عليه. وكذا الوجود الحق يشهد بالصور والمظاهر؛ لأنها لا تشهد إلا فيه وبه. ولكن لا يُعلم ولا يحاط به ولا ينضبط. فما شهد حقيقة، إذ نسبة ما أدرك منه إلى ما لا يدرك؛ نسبة المتناهي إلى غير المتناهي وقال بعضهم:

كالشمس يمنعك اجتلاؤك نورها      فإذا اكتستت برفيق غيم أمكنا

فمشبه ظهور الوجود بالشمس. فالشمس إذا كانت عارية من السحاب؛ لا تدرك. وكذا النور الوجودي، إذا كان مجرداً عن المظاهر. فإذا كسا الشمس سحاب رقيق؛ أمكن شهودها بحسب إدراك الرائي لا بحسب ما هي عليه. وكذا الوجود النوري. قال شيخنا محيي الدين:

الشمس تدركنا والشمس ندركها      نعم ومنها إلينا العطف والمدد  
وإننا لنراها وهي ظاهرة      مثل التجلي ولم يظفر به أحد  
النور يمنعنا من أن نكيّفها      فكيف من لا له كيف فيتحده

فالوجود الحق؛ مرآة تظهر صورة المتجلى له فيها بقدر استعداده، فتظهر أحواله وأحكامه، كما أن الوجود يظهر في مرآيا الأعيان بحسب استعدادها وقابليتها لظهور أحكامه وأوصافه. والصورة دائماً حائلة بين الرائي والمرآة، فغير ممكن أن يبصر أحد المبصر الصورة والمرآة في آن واحد، كما ذلك هو في الشاهد، فلا يبصر أحد الوجود الحق من غير صورة؛ إلا إذا فني عن القيود كلها. وحينئذ يكون الرائي والمرئي هو الحق، فما أبصر غيره، إذ الغيرية منتفية حال الفناء. فلو فرض أن الرائي ما ظهرت له صورته ولا صورة غيره؛ ربما كان يراه، وهذا لا يكون البتة، فمحمد - ﷺ - الذي هو أحب وأشرف وأقرب من كل مخلوق؛ ما رآه في مرتبة أو أدنى إلا في مرتبة التقييد، فكيف يطمع غيره فيما لا مطمع فيه؟ وما نزل وحي ولا أخذت شريعة إلا من مرتبة التقييد. وقد ورد في الخبر: «المؤمن مرآة المؤمن»<sup>(١)</sup>.

أي المؤمن الذي هو الحق مرآة المؤمن الذي هو الولي وبالعكس. وإنما خص المؤمن. وإن كانت مرآة الحق عامة لشرفه، ولأنه هو الذي تنكشف له هذه المرآة لا غيره، وقال إمامنا محيي الدين: «هو مرآتك وأنت مرآته».

يعني هو مرآتك في رؤيتك نفسك، وأنتك الوجودية العينية ورؤية غيرك كذلك. ومرآتك في شهودك عينك الثابتة العلمية الغيبية، إذا كوشفت بها وكنت من خاصة الخاصة، وأنت باعتبار وجودك العيني مرآته - تعالى - في رؤية أسمائه التي هي ذاته مأخوذة ببعض النسب والاعتبارات، وليست النسب غير الذات، فتارة هو المرآة والعبد الرائي، وتارة العبد المرآة وهو الرائي والمرئي، فالتبس الأمر، واختلط الشأن، فلم يتميَّز الرائي من المرئي من المرآة فأيهما حق وأيهما خلق؟ فإن الناظر نفسه في المرآة وهو الوجود الحق، إذ كل راء لا يرى الحق إلا بما فيه من الحق، والصورة في المرآة إنما ظهرت من المتوجه على المرآة، وهو الوجود الحق، والمرآة هي الوجود الحق:

رقّ الزجاج ورقت الخمر      فتشابهها فتشاكل الأمر  
فكأنما خمر ولا قدح      وكأنما قدح ولا خمر

البيتان نسبهما الشيخ الأكبر إلى الحسن بن هانيء، ونسبهما ابن خلكان إلى الصاحب بن عباد، انتهى بخطه.

(١) رواه أبو داود: كتاب الأدب، باب في النصيحة، حديث رقم (٤٩١٨).

حار العارفون وحق لهم أن يحتاروا وأرادوا أن يجعلوه عين العالم؛ فما صفا لهم ذلك، لنزاهته وقدهه. وأرادوا أن يجعلوه غير العالم؛ فما صخ لهم ذلك، لأن العالم ليس بشيء زائد على نسب علمية مع اعتبار العلم عين الذات، فالعارف في حجاب. والجاهل في حجاب، وإن اختلفت الحجب والعالم في حجاب، والرائي في حجاب، والمشاهد في حجاب، والمكلم في حجاب، وكل ما أشعر بالإثنيّة؛ فهو حجاب. وإنما الشأن في العينية، وهي لا تجماع الشعور بقيد من قيود الغيرية.

ومن غريب الاتفاق أن إمامنا محيي الدين - رضي الله عنه -، ذكر - عندما تكلم على الطبيعة - أنه رأى أمه مكشوفة العورة فسترها، قال: فلذلك سترت. وما أظهرت ما كنت أضمرت، أو نحو هذا الكلام، يريد أنه عبّر عن الأم بالطبيعة، وأنا عبد الله رأيت أثناء كتابتي لهذا الموقف في المنام أبانا آدم - عليه السلام - أخرج من قبره عرياناً فسترته بكساء، وكان عندي، فعرفت أن الذي فيه؛ هو الأب الحقيقي الذي منه خرجنا وعنه درجنا. فلذلك رمزت ولوّحت، وسترته وما أوضحت. وفي آخر هذه الرؤيا بشارة وأي بشارة، والحمد لله رب العالمين.

\* \* \*

## الموقف العاشر بعد المائة

قال تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: الآية ١١٤].

اعلم أن رسولنا محمداً - ﷺ - ملكه الله تعالى كل فضيلة، وزينه بكل خصلة جميلة، وما أمره بطلب الزيادة من شيء؛ إلا العلم لعظم شرفه. ولشرفه على سائر الأسماء والصفات؛ جعله بعض سادات القوم إمام الأئمة، واعترض على الشيخ الأكبر حيث جعل الاسم الحي إمام الأئمة، ولهذا كان علم الحق - تعالى - عين ذاته، إذ المعول عليه هو العلم، فلو كان غير ذاته - تعالى -؛ لكان المعول عليه غير الذات. وهذا لا يقوله عاقل. وليس المراد بالعلم المأمور بطلب الزيادة منه، علم الشرائع والأحكام، من واجب ومباح وحرام؛ فإن هذا النوع من العلم كان - ﷺ - يكره الزيادة منه، ويقول لأصحابه الكرام: «اتركوني ما تركتكم»<sup>(١)</sup>.

(١) رواه الترمذي: كتاب العلم، باب في الانتباه عما نهى عنه رسول الله ﷺ، حديث رقم

أي لا تسألوني عن الحلال والحرام، وعن الواجب هل مكرر أم لا؟ كما في حديث الحج: «حتى أخبركم، إذا نزل به وحي».

وقال - ﷺ -: «ومن أظلم ممن سأل عن شيء فحرم من أجل سؤاله؟» أو كما قال.

وإنما المراد بالعلم، الأمور بطلب الزيادة منه؛ هو علم التجليات الربانية وعلم الأسماء والصفات الإلهية، وهو العلم الذي لا تزال ثمرته ملازمة لصاحبه في الدنيا والآخرة في جميع مواطن القيامة، وفي الخلود، في الجنة أبد الآباد، وأما غيره في سائر العلوم؛ فإنما يحتاج إليه في الدنيا، دار التكليف والاحتياج والفاقة، وليعلم أن العلم حقيقة معنوية بسيطة، لا توصف بالزيادة والنقص، والقلة والكثرة، إلا من حيث المعلومات المنكشفة بها. فحينئذ تتعدد بتعدد المعلومات. كما أن كل معلوم حقيقة واحدة لا تتعدد ولا تنجزأ ولا تتبعض، ولكن كل وحدة لها كثرة بحسب وجوهها واعتباراتها، قليلة أو كثيرة، فيها تلحق العلم القلة والكثرة والزيادة والنقص. مثلاً الحقيقة، يكون لها مائة وجه واعتبار. علم منها زيد عشرين وجهًا، وعلم عمر خمسين، وعلم بكر ثمانين... فعلم زيد أنقص من علم عمرو، وعلم بكر أكثر منهما، وعلم عمرو أكثر من علم زيد وأنقص من علم بكر، وكل من زعم أنه علم شيئًا وانتهى علمه فيه؛ فذلك دليل على أنه ما علم ذلك. ولا يعلم المعلوم إلا العلم وأما العالم؛ فإنما يدركه بواسطة العلم. فلهذا كان العلم حجابًا بين العالم والمعلوم، فلا تقل: إنك أدركت شيئًا قديمًا أو حديثًا، وإنما أدركت العلم، وكل الأشياء تدرك بالعلم، والعلم يعلم بنفسه، وقد ذكرنا في غير ما موقف من هذه المواقف: أن الوجود ليس إلا للحق، وكذا توابع الوجود: من علم وقدرة وإرادة وسمع وبصر، وكلام وحياة... فما لا وجود له؛ لا شيء له، وقد ذكرنا أن علم الحق - تعالى - عين ذاته، فافهم واعرف، وارفع الستارة ولا تقف، فإن العرائس من ورائها. أفدي من ذاق كلامنا. أفدي من إذا لم يذقه سلمه إلينا، ومن ذاق ما ذقنا؛ عرف الفرق بين العلم والوهم، وليس الوهم إلا الخيال الذي هو محتد العالم كله، أعني معرفة الفرق بالمعنى الذي رمزنا عليه، وأومأنا إليه، لا بالمعنى الذي قاله علماء الرسوم: في أنه عند استواء الطرفين يكون شكًا. فإذا كان أحد الطرفين راجحًا والآخر مرجوحًا؛ كان الراجح ظنًا والمرجوح وهمًا، ولهذا يقول: كل ما يحسبه علماء الرسوم علمًا؛ فهو وهم، وهذا العلم؛ هو الذي يقول القوم فيه إنه حجاب، فإن الحق - تعالى - إذا تجلّى باسمه الظاهر، يكون هذا العلم حجابًا.

رأيت في الواقعة سفينة، فسألت عن اسمها؟! فقيل: اسمها جالب اليواقيت، إلى أجواف الخبائث، فعرفت أن السفينة؛ هي العلم المنحني من بحار الجهالات، وأمواج الأهواء، وريح الضلالات. وجلبه لليواقيت؛ هو ما ينكشف به من نفاس المعلومات، والحقائق المبهمات. وأجواف الخبائث؛ هي النفوس الطبيعية، فإن الخبث ضد الطيب، والأرواح طيبة كما قال:

﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ [فاطر: الآية ١٠].

والنفوس ما هي مثل الأرواح، فهي بالنسبة إلى الأرواح خبث، وبواسطة الأرواح تتكشف المعلومات للنفوس.

\* \* \*

### الموقف الحادي عشر بعد المائة

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُوهُمْ كَسْرَابٍ بِقَيْعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فَوْقَنَّهُ حِسَابَهُ﴾ [التور: الآية ٣٩].

أي مثل الذين كفروا وسترُوا علمهم ومعرفتهم بربهم، مثل أعمالهم كسراب بقية، أي هم وأعمالهم في التمثيل؛ كالسراب الذي يدركه المدرك بالقاع، فيتوهم بحسب إدراكه أنه أدرك شيئاً، يحسبه الظمآن ماء، حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً، هذا وجه الشبه. يعني أن المتعطش إلى ماء الحياة الأبدية والقرب من الله - تعالى - إذا رأى الذين كفروا ورأى أعمالهم في اجتهادهم وملازمتهم للطاعات، وإقبالهم على أنواع القربات، والمسارة إلى نوافل الخيرات؛ يحسبهم أنهم عند أنفسهم لهم وجود وأنهم فاعلون، تاركون، متقربون، وأنهم يرجون بذلك حصول نفع، أو دفع ضرر، فيعظم ظمأ المتعطش إلى ماء الحياة والقرب من الحق - تعالى -، فإذا وصل الظمآن إلى ظاهر أحوالهم وإليهم، وتجاوز عن معرفة ما ظهر إلى ما بطن، لم يجدهم في أنفسهم ولا في أعمالهم شيئاً مغايراً للحق - تعالى -، وهكذا هو التجلي الإلهي في الصور، يكون بصورة حاجة المتجلي له، كما تجلى لموسى - عليه الصلاة والسلام - بالنار، لأنه كان يطلبها، فهذا المتعطش إلى السعادة الأبدية؛ يحسب أن ما عليه الذين كفروا في ظواهرهم من الأعمال، هو الماء الذي من شرب منه؛ لم يظماً أبداً، فلما وصله؛ لم يجد من تلك الصور العاملة العابدة في بادئ الرأي، ولا من الصور المفعولة المتعبد بها، إلا الله - تعالى - متصوراً بصور العابدين، وبصور عباداتهم،

ومتجلبًا بها فكان الله - تعالى - العابد بتلك الصور، وهي كالألات، وهو المعبود بها. وهذا معنى وجد الله عنده، أو يكون المعنى: أن الطالب لماء القرب منه - تعالى - يتوهمه بعيدًا منه كما يرى العطشان السراب من بعد، فيطلبه ويلقى في طلبه مشقة وتعبًا، فإذا جاءه بمعنى انكشف عن الطالب حجابهِ وأميط عن المطلوب نقابه؛ وجد مطلوبه عنده ومقصوده بعد ما فارقه من أول قدم كما قيل:

ومن عجب أنني أحسن إليهم وأسأل شوقًا عنهم وهم معي  
وتبكيهم عيني وهم في سوادها ويشكو النوى قلبي وهم بين أضلعي

فوقاه حسابه، أي أعطاه عطاء تامًا فوق ما كان يؤمله ويحسبه، ويعده من الكرامة، وحسن المقامة، فإنه - تعالى - عند ظن عبده به، كما أخبر - تعالى - بذلك عن نفسه.

\* \* \*

### الموقف الثاني عشر بعد المائة

قال الحق - تعالى - لبعض عبده: أنزعم محبتي؟ وإن كانت؛ فما هي إلا نتيجة عن محبتي لك. فأنت أحببت موجودًا، وأنا أحببتك معدومًا، ثم قال له: وتزعم أنك تطلب القرب مني، والانتعاش إلي؟ وأنا أشدُّ طلبًا لك منك، طلبتك لحضوري من غير واسطة يوم ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: الآية ١٧٢] وكنت روحًا، ثم نسيت؛ فطلبتك بإرسال الرسل بعد أن صرت جسمًا. كلُّ هذا محبة فيك لك، لا لي، ثم قال له: أرايت لو كنت في أشد ما يكون من الجوع والعطش والتعب، ودعوتك لي، فتعرضت لك الجنة، بحورها وقصورها وأنهارها وثمارها وغلمانها وولدائها، بعد أن أعلمتك أنك لا تجد عندي شيئًا من ذلك، ماذا كنت فاعلاً؟ فقال له: أعوذ بك منك.

\* \* \*

### الموقف الثالث عشر بعد المائة

قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِمْ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: الآية ١٨٠].

من البين المعروف عند أهل اللغة والعقل: أن الاسم؛ ما عيّن المسمى وميّزه عن غيره، وهو عند أصحاب الكشف والشهود: كل ما ظهر في الوجود، وامتاز في



الغيب على اختلاف أنواع الظهور والامتياز، وهو في التحقيق: التجلي المظهر لعين الممكن، الثابتة في العلم والحق - تعالى - ما ميّزته هذه الأسماء، التي يقال إنها حسنى، إذ قد شاركتها في التسمية بها المحدثات. فإنه يقال في غيره - تعالى -: إنه حي متكلم قادر عليم إلى آخر الأسماء الحسنى. وسمى - تعالى - نفسه ونعتها في كتبه، وعلى السنة رسله؛ بأسماء المحدثات ونعوتها، التي يقول فيها المتكلمون إنها ليست أسماء ولا نعوتاً له - تعالى -، ويؤولونها. ومن جملة الأسماء الحسنى: «الظاهر» وهو - تعالى -، ما ظهر لنا في العموم؛ حتى نعرفه ونميّزه بهذا الاسم، فأين التمييز بهذه الأسماء الحسنى المحصورة في التسعة والتسعين؟ فما بقي إلا أن كل ما يقال فيه، غير الله وسوى الله؛ هو مسمى باسم خاص، ومنعوت بنعت خاص، لا يشاركه فيه غيره من المحدثات. فهو تمييز محدث عن محدث. والله - تعالى - له جميع الأسماء والنعوت التي يقال فيها حسنى، والتي يقال فيها غير حسنى، وتكون كلها حسنى؛ إذا نسبت إليه - تعالى - فالحسنى صفة كاشفة لا مخصصة. فما كان تميزه - تعالى -؛ إلا بجمع الأسماء جميعها والنعوت كلها، وغيره ليس له ذلك. ومع هذا؛ فلا يسمى ولا يطلق عليه؛ إلا ما أطلقه على نفسه من أسماء المحدثات ونعوتها. أو أطلقته عليه رسله - عليهم الصلاة والسلام - الذين هم أعرف به كما أنه لا يسمى غيره - تعالى - إلا باسمه الخاص به، الموضوع له، فما كل حق يقال. فهو - تعالى - عين كل مسمى بكل اسم، وعين كل منعوت بكل نعت، وبهذا تميّز. فهو عين الكل وليس الكل عينه، فما تميّز - تعالى - عن شيء، ولكن الأشياء تميّز بعضها عن بعض. وتميّز الأسماء بعضها عن بعض، والذات جامعة للكل. يشير إلى هذا قوله تعالى:

﴿يَكَايِبُ النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ﴾ [فاطر: الآية ١٥].

أثبت - تعالى - الافتقار إليه لا إلى غيره، ونحن نجد افتقار المحدثات بعضها إلى بعض ضرورة، فدل ذلك على أن كل منتقر إليه هو الله لا غيره.

﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ [الأعراف: الآية ١٨٠].

أي اتركوا وباعدوا الذين يلحدون، أي يميلون عن الأسماء، التي يقال إنها غير حسنى، إلى الأسماء التي يقال إنها حسنى، ويخصونه بها دون غيرها، ممّا ورد من الأسماء والنعوت، التي أطلقها الحق - تعالى - على نفسه، أو أطلقته رسله - عليهم الصلاة والسلام - والمراد بالمحليدين هنا الذين يؤولون ما ورد في الكتاب والسنة، ولا

يؤمنون به، على مراد الله - تعالى -، ومراد رسله - عليهم الصلاة والسلام - فهم يلحدون في أسمائه، ويميلون عن أسماء التشبيه التي هي تجليته - تعالى - باسمه الظاهر، إلى أسماء التنزيه التي هي تجليته باسمه الباطن، فلا يشهدونه ويعرفونه؛ إلا في التنزيه، وما هو تنزيه عند المحقق، ولهذا يتعوذون منه - تعالى - في القيامة، حين يقول لهم: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ﴾ [التازعات: الآية ٢٤].

فلو لم يحدوا، ووقفوا في نقطة الاعتدال، كما هو الأمر عند السادات العارفين بالله - تعالى - تنزيه وتشبيه، ما أنكروه في تشبيهه ولا تنزيه، عرفوه في جميع التجليات، الظهور والبطون، سيجزون ما كانوا يعملون، ومن أشد جزائهم وأشده عليهم؛ انحجابهم عن معرفته - تعالى - في الصور الشهادية الدنياوية، وفي الصور الأخراوية، في القيامة في ذلك الموقف الحافل الهائل.

\* \* \*

### الموقف الرابع عشر بعد المائة

قال تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْتَهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ [هود: الآية ١٠١].

وقال: ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: الآية ١١٧].

ونحوها من الآيات التي تثبت ظلم النفس لنفسها، فإن صاحب النفس ليس مغايرًا لنفسه حتى يكون هناك ظالم ومظلوم، يعني أن الواقع بهم، مما لا يلائم طباعهم، مما يُظنُّ أنهم غير أهل له ولا مستحقينه، وأنه - تعالى - ظلمهم بذلك. فما هو الأمر كما ظُنُّ، بل إن كان ذلك ظلمًا على سبيل الفرض؛ فما هو منه - تعالى -، وإنما ذلك من أنفسهم وأعيانهم الثابتة، فإنها طلبت ذلك باستعدادها، فليس لله - تعالى - إلا إعطاء الوجود لما طلبوه باستعدادهم، وبهذا كانت الحجة البالغة له - تعالى - عليهم، وليس بين قوله: ﴿فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾ [الأنعام: الآية ١٤٩].

وقوله: ﴿فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْنَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام: الآية ١٤٩].

تناف كما يُتوهم، حتى يقولوا: لم لم تنشأ هدايتنا جميعًا؟ فإنه ما انتفت مشيئته هداية الجميع؛ إلا لانتفاء تعلق العلم القديم بذلك، إذ العلم يتبع المعلوم، ويتعلق به على ما هو عليه، فإنه صفة انكشاف، وحكاية للمعلوم ما هو صفة تأثير، والمعلوم هو أن منكم مهتديًا ومنكم ضالًّا، فانتفت مشيئته هداية جميعكم، لانتفاء تعلق العلم بهداية جميعكم، وانتفى تعلق العلم بهداية جميعكم، لكونكم مختلفين في الاستعداد

فمنكم مستعد للهدى، ومنكم مستعد للضلالة، والاستعداد؛ لا علة له، فإنه من سرّ القدر، وإلى هذا المنحى يشير قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: الآية ١١].

أي أنه تعالى، لا يغيّر حال قوم أو أحد، وينقلهم من حالة إلى حالة أدنى أو أعلى، في الظاهر، حتى يغيروا ذلك بأنفسهم، بمعنى يطلبون باستعدادهم، في الباطن، من الحق - تعالى - إيجاد تلك الحالة المنتقل إليها، وهو معنى التغيير، فليس للحق - تعالى - إلا إعطاء الوجود لتلك الحالة المنتقل إليها، بطلبهم الاستعدادي، وإرادتهم لذلك. وهكذا على الدوام في جميع الأحوال، في جميع المخلوقات، فما حكم عليهم غير أنفسهم.

\* \* \*

### الموقف الخامس عشر بعد المائة

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الرعد: الآية ٢٨].

الواو، واو الحال، والحال قيدٌ في صاحبها احترازًا، من الذين يذكرون الله ولا تطمئن قلوبهم بذكره وهم الظالمون العاصون. يجري ذكره - تعالى - على ألسنتهم من غير حضور ولا تعظيم له - تعالى - . قال تعالى، في بعض الأخبار الإلهية لبعض أنبيائه: «قل للظالمين لا يذكروني، فإنهم إن ذكروني؛ ذكرتهم باللعن».

أو كما قال، فقوله: ﴿وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الرعد: الآية ٢٨].

هو وصف لمن أناب على إرادة كل من اتصف بهذا الوصف، وهو الرجوع من الخلق إلى النفس، ومن النفس إلى الحق - تعالى - وهو إيمان خاص، أي آمنوا وصدقوا بأنه - تعالى - يذكركم إذا ذكروه، لقوله تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: الآية ١٥٢]. ولقوله: «إذا ذكرني في نفسه، ذكرته في نفسي»<sup>(١)</sup> الحديث بطوله.

فهؤلاء تطمئن قلوبهم، وتأنس وتسكن من ألم الاشتياق وحرقة الحب، وقلقهم بذكر الله إياهم، لا بذكرهم إياه، ثم نبّه تعالى: أنه لا يحق الاطمئنان، وينبغي السكون والإيناس؛ إلا بذكر الله - تعالى - لعبده. فإنه المنقبة العظمى والمرتبة الزلغى كما قال تعالى: ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [الغنكبوت: الآية ٤٥].

(١) رواه البخاري: كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وَيُعَذِّبُكُمُ اللَّهُ نَفْسَكُمْ﴾ [آل عمران: الآية ٢٨] حديث رقم (٧٤٠٥).

أي ذكر الله تعالى عبده؛ أكبر وأعظم من ذكر العبد ربّه في صلاته وسائر تقرباته، من حيث أن ذلك أصحُّ دليل على القرب والقبول.

\* \* \*

### الموقف السادس عشر بعد المائة

ورد في بعض الأخبار: «ادعوني باللسنة لم تعصوني بها».

اعلم أن لسان العبد وسمعه وبصره وسائر قواه الظاهرة والباطنة؛ هي في نفس الأمر هويّة الحق تعالى، كما قال تعالى: «كنت سمعه وبصره ولسانه» الحديث بطوله.

سواء شعر العبد بذلك أو لم يشعر، فإذا كان العبد غير شاعر بذلك؛ فإنه ينسب للسان والسمع والبصر وسائر القوى إليه، فينسب جميع الأفعال إلى نفسه. فإذا حصل للعبد كشف وشعور؛ نسب الأفعال كلّها، الصادرة عن القوى في بادئ الرأي، التي هي هويّة الحق في نفس الأمر، إلى الحق - تعالى -، لا إلى نفسه، وحينئذ يكون داعياً باللسان الذي ما عصى الله به. وهذا اللسان هو الحق - تعالى -، ما هو اللسان الذي يعصي به العبد ولا يتصوّر ذلك، فإن العبد لا يعصي؛ إلا إذا كان في غير هذا المشهد، وهو الفرق الأول.

ولا يمكن أن يكون الأمر في الخير للعموم، فإن العموم غير معصومين. ولا أن يكون لخصوص المعصومين؛ وهم الأنبياء، فإنه تحصيل للحاصل. ويصحُّ أن يكون ما ذكرناه في معنى هذا الخبر مراداً في الخبر الوارد، أوحى الله إلى موسى - ﷺ - اذكرني بلسان لم تعصني به. والمعصية من موسى - عليه السلام - محال. فيكون أمره بالإحسان إلى أهل هذا المقام بالخصوص، فيشكرونه، فيكونون شاكرين ذاكرين له - تعالى - به، لعلمهم بالحقائق ومصادر الأمور. يعني بمعنى كن سبباً في ذكرني بلسان غيرك. فمن يذكّرني بي. وإن كان له معنى آخر ذكره إمام العارفين شيخنا محي الدين، فإنه لا ينافي أن يكون هذا المعنى مراداً أيضاً. وكذا يصلح أن يحمل على هذا المعنى، ما ورد في صحيح البخاري وغيره: «من وافق تأمينه تأمين الملائكة: غفر له ما تقدم من ذنبه»<sup>(١)</sup>.

(١) كتاب الأذان: باب جهر الإمام بالتأمين، حديث رقم (٧٨٠). ورواه مسلم: كتاب الصلاة، باب التسميع والتحميد، حديث رقم (٧٢ - ٤١٠).

فإنه ليس المراد من موافقة الملائكة إلا التبرؤ من نسبة الأقوال والأفعال لغيره - تعالى -، لا الموافقة في الزمان، فإنها لا أثر لها، سواء كان مشهد المشاهد أن العبد فاعل بالله - تعالى -، وهو الشهود الحاصل من قرب النواقل؛ أو كان مشهده أنه - تعالى - فاعل بالعبد، وهو الشهود الحاصل من قرب الفرائض.

\* \* \*

### الموقف السابع عشر بعد المائة

قال تعالى: ﴿فِعْرَازِكَ لَأَعُوذَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخَلَّصِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [ص: الآيات ٨٢، ٨٣].

اعلم أن الغي هو الضلال عن المقصود، والإغواء هو الإضلال عن المقصود، والمطلوب منه، وبنو آدم في تعرّض إبليس لهم، ونفوذ ضرره فيهم؛ على أقسام: منهم من يتعرّض له فينفذ ضرره فيه ظاهراً وباطناً، وهم عامة بني آدم، سواء منهم المؤمن وغير المؤمن. ومنه من يتعرّض له ظاهراً وباطناً فينفذ فيه ضرره ظاهراً لا باطناً، وهم الكمّل من الأولياء ورثة الأنبياء فإنهم يقبلون ما يأتيهم به من الشر إلى الخير فيربحون بتعرّضه، فيجد لذلك غيظاً وحسرة، وهذا أشد ما يلاقي إبليس من أولياء الله، حيث رجع سهمه عليه، وعاد وبال فعله إليه. ومنهم من يتعرّض له ظاهراً لا باطناً، لعلمه بأن تعرّضه لهم في بواطنهم لا ينفذ لعصمتهم، وهم الأنبياء - صلوات الله وسلامه عليهم - ولذا استثناهم بقوله: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخَلَّصِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [الحجر: الآية ٤٠].

قرئ باسم الفاعل واسم المفعول. وثمرة هذا الاستثناء - وإن حصلت لبعض الكمّل غير الأنبياء - فذلك من بركة متابعتهم الأنبياء، وألا فالمقصود بالقصد الأول هم الأنبياء، وعدم تعرّضه لهم في بواطنهم؛ بمعنى أنه لا يزّن لهم المعصية، ويحسن لهم المخالفة من حيث لا يعرفونه، ويعدّهم ويمثيهم كما يفعل مع غير الأنبياء، لا عدم التعرّض مطلقاً، فإن تعرّضه لهم ظاهراً وارد في الكتب الإلهية، والأخبار النبوية، من غير أن يؤثر ذلك في مقاماتهم العلية، وأحوالهم البهية. وحقيقة المعصية؛ هي فعل محرم وقع عن قصد إليه، والنزلة ليست بمعصية ممن صدرت منه، وإن كانت صورتها صورة معصية، وكل ما ورد من الظواهر في الكتب المنزلة والإخبارات النبوية، مما يعطي ظاهره نسبة الأنبياء إلى المعصية؛ فليس هو من المعصية حقيقته في شيء، وإنما ذلك بحسب مقاماتهم السامية، وبحسب ما عرفوه؛ هم دون غيرهم من

جلال الربوبية، فإن قيل: فلم أطلق الحق عليهم المعصية؟! قلنا: يصح أن يكون خطابه لهم بذلك، لكونهم لما صدر منهم ما صورته غير طاعة؛ نسياناً. كما في قصة آدم - عليه السلام - ونحوها، أو يكون الحق - تعالى - أمرهم في بواطنهم بما يخالف الظاهر، كما في قصة يوسف وإخوته، وقصة خضر موسى - عليهم السلام - ونحو ذلك. أو يكون ما صدر منهم خلاف الأولى، والأفضل. أو بوجه من الوجوه التي لا يؤاخذ بها غيرهم، مثل كذبات الخليل، وقتل موسى القبطي، ونحو ذلك، استعظموا ذلك وحدثوا أنفسهم أنهم أذنبوا بباديء الرأي منهم فخاطبهم الحق حسب حديثهم أنفسهم، فإن الوحي غالباً يتبع حديث نفوس الأنبياء أو يكون الحق - تعالى - أطلق عليهم اسم المعصية؛ بحسب كون ذلك الأمر غير طاعة في الظاهر، وقربة لا غير، كيف لا؟ والحق - تعالى - شهد لآم - عليه السلام - بالنسيان فقال: ﴿فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً﴾ [طه: الآية ١١٥].

أي قصدًا للمعصية. والإجماع، على أن الناسي غير عاصٍ، ولا مؤاخذ فيما بينه وبين الله تعالى. ومع هذا قال تعالى: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ﴾ [طه: الآية ١٢١].

فللسيد أن يقول لأعز عبيده ما شاء، وليس للعبيد أن يقولوا مثل ذلك القول، فإن قيل: قد أخبر تعالى في كتبه، وأخبر رسله الصادقين أن الأنبياء كانوا يكونون ويتضرعون ويتوبون ويعترفون ويستغفرون ممّا صدر منهم... قلنا: إنما ذلك لكمال معرفتهم بقدر الربوبية، وما يجب لها من الإعظام والإجلال. فهم يشاهدون حسناتهم سيئات، إذا نسبوا لها ما تستحقه الألوهية، فكيف إذا ظهر منهم ما صورته غير صورة طاعة؟! ولأنهم سمعوا قوله تعالى: ﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ﴾ [محمد: الآية ٧].

أي إن تنصروا الله على أنفسكم، فتنسبوا للتقصير فيما يجب عليها من حقوق الربوبية، وأنها ما قدرت الربوبية قدرها، ولا وقتها حقها، فلا تعتذروا عنها ولا تنتصروا لها ولا تجادلوا عنها، ينصركم عليها ويجعلها في قبضتكم، وتحت أسر قهركم، فتنصرفوا فيها بحكم الشرع والعقل، ولأن مطمح نظرهم - صلوات الله وسلامه عليهم - إطلاق الألوهية من حيث أنها لا تقيد عليها، ولا حصر لها، ولا ميزان ولا ضبط، فلهذا لا يأمن مكر الله نبي ولا ولي، فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون، وإنما لهم حسن الظن به - تعالى -، ولو كانت لهم معاص وذنوب، كما يقوله كثير من المتكلمين والمفسرين والمؤرخين، الذين ما عرفوا الله - تعالى - ولا



استحيوا منه ولا راقبوه في أعز عبيده عنده، لذكروها يوم القيامة في ذلك الموقف الهائل، يوم تبلى السرائر، فما ذكر إبراهيم إلا قوله هي أختي، وقوله، فعله كبيرهم، وقوله، إني سقيم، وذكر نوع دعوته على قومه وذكر موسى قتله القبطي، وذكر آدم أكله من الشجرة نسياناً، فيالله وللمسلمين، فهل هذه معاص وذنوب بالنسبة إلى غيرهم - صلوات الله وسلامه عليهم - فنسبة قرناء الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - إلى الأنبياء، من حيث بواطنهم، أعني ما عدا حواسهم الظاهرة والباطنة.

في المثل: قاطع الطريق إذا رأى رجلاً شاكياً السلاح كامل العدة حذراً، فطناً، يقظاً، تبدو عليه سمت الفتك والشجاعة؛ فهو يلاحظه ويماشيه من بعيد، لعلمه أنه لا قدرة له عليه ولا سلطان. فما لقرناء الأنبياء من حيث قلوبهم تسلط، وبالجملة فمقام النبوة أسمى من أن يعبر عنه بعبارة، أو يدرك لغير أهله بذوق، أو بإشارة أو ينال بغير الاختصاص الإلهي أو يجادل، أو يستشرف عليه مستشرف أو يتطاول، فبدايته غاية أعلى مقامات الأولياء، ونهاية الصديقين الأصفياء. والنبوة مهموزة وغير مهموزة من النبأ أو النبوة، وما رفعة هذا المقام الراسخ السامي الشامخ بالإنباء عن المغيبات، وظهور الآيات وخوارق العادات، فإن هذا وقد يكون لغير أهل مقام النبوة، وما انقطع ولا ينقطع إلى يوم القيامة، وإنما دفعته باختصاص أهله بالعبودية المحضة، التي لا يشوبها ربوبية بوجه ولا حال، فكما أن الربوبية كاملة في معناها من كل وجه وحال، لا يشوبها نقص، فعبودية الأنبياء كاملة في معناها لا يشوبها نقص، فالأنبياء هم العبيد الخالص، وهذه العبودية الخاصة بالأنبياء، هي التي سد بابها، وختم بمحمد - صلى الله عليه وعلى إخوانه وآله وسلم - وانقطع الأنصاف بها، والتطع لنيلها. وسد باب العبودية المحض؛ هو الذي قطع قلوب العارفين والصديقين، لأنهم علموا أنه بقدر تمحيض العبودية؛ تكون منزلة العبد عند حضرة الربوبية، فهما حضرتان متقابلتان، كما قال - ﷺ - لأبي طالب، لما قال له: «يا ابن أخي ما أرى ربك إلا مطيعاً لك» «وأنت يا عمي. لو أطعته لأطاعك».

وبعدما ورد عليّ هذا الوارد، وعزمت على تقييده؛ رأيت في المنام أنني أتكلم مع الناس في مقام النبوة، فمن جملة ما قلت لهم: إن أجسام الأنبياء حيث أرواحهم، وأرواح غير الأنبياء حيث أجسامهم. إن أجسام الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - محكوم لها بحكم الأرواح في الطهارة والصفاء، وكمال الطاعة والمعرفة، وعدم التدنس بأحكام الطبيعة المظلمة، وإن لابسها ظاهراً فهي لاحقة بالأرواح، لغلبة حكم أرواح الأنبياء على أجسامهم، فهي مغلوبة لها، والحكم للغالب، كحال أهل الجنة في

الجنة ولهذا لما رأى بعض أهل الكشف أهل الجنة، ورأى الحكم لأرواحهم قال: «لا حشر إلا للأرواح دون الأجسام» وأرواح غير الأنبياء؛ حيث أجسامهم، أي أرواح غير الأنبياء - وإن كان أصلها الطهارة والصفاء، وكمال الطاعة والمعرفة - فهي محكوم لها بحكم الأجسام، لكون أرواحهم مقهورة لأنفسهم، وللأمور الطبيعية الظلمانية، ومغلوبة لها، فهي تجري على مقتضى الأجسام. والعجب كل العجب من بعض العلماء، حيث تجرؤوا على مقام النبوة، ونسبوا إليه ما نزه الله عنه بعض أكابر الأولياء، فضلاً عن الأنبياء، وما تأدّبوا بأدب عباد الله - تعالى - الأدباء، بل بأدب إبليس، فإنه تأدّب معهم حيث قال: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخَلَّصِينَ﴾ [الحجر: الآية ٤٠].

لعلمه أنه لا سلطان له عليهم. أمّا أنه أدرك ذلك من فطرته، أو بعد سماع قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الحجر: الآية ٤٢].

\* \* \*

### الموقف الثامن عشر بعد المائة

قال تعالى: ﴿قَتَلَ أَوْلَادَهُمْ جَحْتِكُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ ءَابَاءَهُمْ﴾ [الزخرف: الآية ٢٤].

اعلم أن الهدى أنواع، كما أن الضلال أنواع، والموصوفون بالهدى والضلال أنواع: فمهتد، وأهدى، وأعظم هدى، وضال، وأضل، وأعظم ضلالاً. فالمهتدي هو الذي حصل على الهداية بالدليل العقلي والبرهان. والأهدى هو الذي حصل على الهداية بتصديق الرسول والإيمان، والأعظم هدى هو الذي حصلت له الهداية بالكشف والعيان.

والضال هو الذي شبه الحق بمخلوقاته تشبيهاً مطلقاً أو نزهة تنزيهاً مطلقاً. وما اهتدى إلى الجمع بينهما بمعرفة مرتبة كل واحد منهما، والأضل هو الذي صور إلهه بصورة محسوسة، كعابد الشمس والنار والأحجار والملائكة والجن، ونحو ذلك، كما قال تعالى:

﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ﴾ [الأحقاف: الآية ٥].

والأعظم ضلالاً هو المعطل للخالق - تعالى -، كالدهريّة والطباعية، على مقتضى أقوالهم، وإلا فلا معطل في المعنى. وكل مرتبة من مراتب الهدى؛ هي

ضلال بالنسبة إلى ما هي أعلى منها فهدى العقل؛ ضلال بالنسبة إلى هدى المؤمن؛ بما جاءت به الرسل، وهدى المؤمن بالرسل؛ ضلال بالنسبة إلى هدى أهل الشهود والعيان. فإن المؤمن - وإن عظم إيمانه - لا بد أن تنازعه نفسه وتطلب تكييف ما آمن به أو تشبيهه أحياناً. ويجد لذلك دغدغة في نفسه، ولا يطمئن الاطمئنان الكامل إلا بالشهود، كما أن كل مرتبة من مراتب الضلال هي هدى بالنسبة إلى ما هي أشد منها، فضلال العقلاء هداية بالنسبة إلى ضلال من عبد صورة من الصور من نار وشمس ونحوهما. وضلال عابدي الشمس ونحوها هدى بالنسبة إلى ضلال المعطل. ولهذا قال: ﴿قَالَ أَوْلَوْ جَنَّاتِكُمْ بَأَهْدَىٰ مِنَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ ءَابَاءَكُمْ﴾ [الزخرف: الآية ٢٤].

والذي وجدوا عليه آباءهم؛ هو عبادة الصور من الأوثان والأصنام، والذي هو أهدى منه؛ تصديق الرسول فيما جاء به عن الله - تعالى - . فما وجدوا عليه آباءهم؛ هدى بالنسبة إلى ضلال المعطل، كما قال تعالى في الآية الأخرى:

﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ لَئِن لَّمْ يَروا الْعَذَابَ مِنَ سَبِيلِكَ﴾ [الفرقان: الآية ٤٢].

فالكل مجتمعون في الضلال، بمعنى الحيرة في طلب الحق - تعالى - ، كما ورد في الخير: «وأن المالأ الأعلى ليطالبونه كما تطلبونه».

فما انفك مخلوق أي مخلوق كان، حتى المخلوق الأول عن الضلال، بمعنى الحيرة في الذات العلية، ولكن الضالين متفاوتون في الضلال. وقال تعالى في الآية الأخرى: ﴿قَرَّبَكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: الآية ٨٤].

وفي كل نوع من أنواع الضلال والهدى؛ أشخاص لا تكاد تنحصر إلا للمخلوق - تعالى - ، فناقص، وكامل، وأكمل، في النوعين، وما بين ذلك، فالكل مهتد من وجه، والكل ضال من وجه.

\* \* \*

### الموقف التاسع عشر بعد المائة

قال تعالى: ﴿بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [ق: الآية ١٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَجِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ [القمر: الآية ٥٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ﴾ [القمر: الآية ٤٩] في قراءة من رفع ﴿كُلُّ﴾ [البقرة: الآية ٦٠]،

وقال تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لَكَلَّمْتُ رَبِّي لَنفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ نَنْفِدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ ﴿١١٩﴾ [الكهف: الآية ١٠٩].

وورد في الخبر عنه - ﷺ - أنه قال: «أنا من نور ربي، والمؤمنون من نوري»<sup>(١)</sup>، وورد: «أول ما خلق الله نور نبيك، يا جابر»<sup>(٢)</sup>.

اعلم أن الحق - تعالى -، قد أشهدني معاني هذه الآيات والأخبار، في مشهد أقدس ذاتي من وجهه، قدسي صفاتي من وجهه، بمثال ضربه لي:

شهدت نورًا شبه المنارة ممتدًا إلى عنان السماء، وفي مقابلته شمعة، شبه المنارة ممتدة إلى عنان السماء. ومنارة النور متسلطة على الشمعة ومنقضة عليها، وطالبة لها، وعند وصول النور بشدته وقوته؛ تنطفئ الشمعة. فإذا جازت قوة النور وسورته؛ انتقلت الشمعة من أثر النور. ثم يندفع النور بقوته وتنطفئ الشمعة. ثم تتقد من أثره وبقيته... وهكذا على الدوام. وكنت أعلم حين ذلك الشهود؛ أن الشمعة مثال الحقيقة المحمدية المسماة بحضرة الإمكان، وبهيولى العالم، وغير ذلك. فهي تقبل الإضاءة والانطفاء والإيجاد والإعدام. وأن منارة النور باعتبار قوتها وسورتها مثال الأحدية، وباعتبار آخر: هي (أي الشمعة) مثال مرتبة الألوهية. فالأحدية بمقتضى حقيقتها تطلب نفي ما يشفعها وإعدامه، حتى تصح الأحدية الحقيقية، وتتفي الغيرية المجازية. فهي تعدم نور الشمعة بظهورها، فلا يبقى غير، والألوهية، التي هي مرتبة الأسماء، تطلب ظهور آثارها؛ فتتقد الشمعة، لأن الألوهية هي استتار الذات الأحدية، بظهورها بصورة الغير. فالألوهية مرتبة الذات الأحدية، ليس لها رتبة العينية، ولا رتبة الغيرية. والمخلوقات دائمًا بين هذين المقتضيين مقتضى الأحدية ومقتضى الألوهية، فهي دائمًا بين إيجاد وإعدام، وهذا معنى الخلق الجديد، الذي الناس في لبس منه. وورود النور بقوته على الشمعة، وإطفاؤها، ثم انقادها، ثم عوده كذلك، ليس له زمان، ولا يظهر له ترتيب إلا في التعقل، والأزمان هذا هو زمان هذا، كلمعان البرق، زمان لمعانه؛ زمان انصبغ الهواء به. وزمان انصبغ الهواء به؛ زمان انكشاف الأشياء به. وزمان انكشاف الأشياء به؛ زمان تعلق الإدراك البصري ووقوعه عليها، ولا ترتيب بين هذه الأمور في الحس وإنما يدرك بترتيبها بالعقل. فهكذا هو الأمر الإلهي وهو معنى: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَجِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ ﴿٥١﴾ [القمر: الآية ٥٠].

(١) لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع.

(٢) أورده العجلوني في كشف الخفاء، حديث رقم ٨٢٦، طبعة دار الكتب العلمية - بيروت.

وأمره صفته، وصفته عين ذاته. ثم إن النور الذي يوجد في الشمعة باتقادها، وينعدم بانطفائها؛ هو عين النور المتوجّه عليها بالإيقاد والإطفاء، ما هو غيره، إذ حقيقة النورية فيهما واحدة. وإنما تعدّد بحسب المظهر والتعّين. كما يوجد مصباح من مصباح في الحس، فالمصباح الثاني عين الأول، ظهر في فتيلة أخرى لا غيره، فهو يوجد نفسه في مظهر، ويعدم نفسه في مظهر، وهذا معنى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ﴾ [الفر: الآية ٤٩].

ثم إن هذا الاشتعال المتعاقب على الدوام؛ هو كلمات الله التي لا تتقد، فانظر إلى هذا التعريف، والمثال المنيف: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: الآية ٤٣].

فالأمثال لا تضرب إلا للناس، إي الذين فيهم صفة الإنسانية لا لمطلق الحيوان. وما يعقل تلك الأمثلة ويعرفها أنها ليست مقصودة لذاتها، وإنما هي سلايم يرقى بها إلى المقصود، حتى يصير المعقول محسوساً؛ إلا العالمون بالعلم الحقيقي، فيعبرون من ظاهرها إلى باطنها، وهم العلماء على الحقيقة، الذين عرفوا: أن العلم والعالم والمعلوم عين واحدة. تعددت أسماؤها لتعدّد نسبتها، لا العلماء الذين يقولون: العالم حقيقة، والمعلوم حقيقة أخرى غيرها، والعلم حقيقة أخرى تغاير العالم والمعلوم!! وما هو هذا علم، ولكنه وهم. قيل لي في واقعة من الوقائع: «مطلب علم التصوف هو ما لا يقف التحقيق عند مسألة من مسائله، بمعنى أن الطالب لمسألة من مسائله، إذا حققها؛ يجعله ذلك التحقق مستعداً لما وراءها، فإذا تحقّق بما استعدّ له، ممّا وراء تلك المسألة؛ استعد كذلك، وهكذا فلا نهاية لمسائل التصوف ومطالبه، دون الذات البحت الغيب المطلق، وهنالك منتهى العبارات، ومنقطع الإشارات، وبحر الظلمات. ثم بعد انقضاء هذا المشهد ألقى الحق - تعالى - إليّ قوله تعالى: ﴿وَسَقَنَهُمْ رَبُّهُمْ سَرَابًا طَهُورًا﴾ [الإنسان: الآية ٢١].

يعني أن الحق - تعالى -، لما أدخل من أدخل جنة معرفته، سقاها شراب العلم والكشف عن الحقائق، طهوراً من قَدْر التلبس والشكوك، صافياً من دنس الأفكار، غير مكدر بأوساخ الطبيعة.

\*\*\*

## الموقف العشرون بعد المائة

قال تعالى: ﴿فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ [الشعراء: الآية ٣٢].

اعلم أن قول الحكماء وبعض المتكلمين، انقلاب الحقائق محال، والأعيان لا تنقلب، ونحو ذلك من عباراتهم، يريدون: أن الجماد لا ينقلب حيوانًا مثلًا، لكون الجماد له حقيقة بها هو هو، تغاير حقيقة الحيوان التي بها هو هو، لا يصح. وكذا تقسيمهم العالم إلى جواهر وأعراض، وزاد الحكماء المجردات لا يصح. إذ من المعلوم أن حقيقة الشيء ما به هو هو، وكل شيء في العالم أجناسه وأنواعه وأشخاصه؛ إنما هو هو بحقيقة واحدة لا تتعدد، ولا تتجزأ ولا تتبعض، وهذه الحقيقة مع وحدتها؛ هي المقومة لجميع أجناس العالم وأنواعه وأشخاصه وجزئياته، والعالم قائم بها، ولا يصح انقلاب الواحد بالوحدة الحقيقية، لأنه لو انقلب، انقلب إلى غيره، ولا غير. أو ينقلب إلى لا شيء، وذلك لا يعقل. فلو كان لكل فرد من أفراد العالم حقيقة تخصه، وهو مركب من الحقيقة التي تخصه، والعرض؛ لما صح انقلاب العصا ثعبانًا مبيّنًا، ولا نحو ذلك من معجزات الرسل - عليهم الصلاة والسلام - كانقلاب النار بردًا وسلامًا. ولا صح قول الحكماء بالشكل الغريب، فثبت أن العرش وما حوى، مما قسموه إلى جواهر وأعراض، ومجردات؛ كالأعراض، وحقيقته التي بها هو هو، واحدة. وهي المقومة له، وهي لا تدرك على حدتها بشيء من الحواس. فوجودها في الخارج؛ هو وجود الصورة، ولا هي داخله في العالم ولا خارجه عنه. وإن هذه الحقيقة تلبس أعراضًا وتخلعها، وتلبس أعراضًا، وهكذا على الدوام، كما لبست الأعراض التي تخص العصا ثم خلعتها، ولبست الأعراض التي تخص الثعبان ثم خلعتها، وهكذا. وهي في حد ذاتها لا تتبدل ولا تتغير عن حقيقتها. فهي هي في كل حال، وهي حقيقة النار التي صارت بردًا وسلامًا. فالنار تحرق بصورتها لا بحقيقتها، قبلت تلك الحقيقة الباردة، الذي هو عرض، كما قبلت الحرارة والإحراق الذي هو عرض. فالحرارة لا تنقلب برودة، ولكن الحقيقة التي قامت بها الحرارة، لما انعدمت الحرارة؛ قبلت قيام البرودة بها، وهكذا في جميع الأعراض. فالعالم واحد بحقيقته التي بها هو هو، مختلف بأعراضه. ولا يمكن حمل قولهم «انقلاب الحقائق محال» على الأعيان الثابتة، التي هي حقائق الأشياء في العلم، فإنها ما خرجت عن العلم إلى العين؛ حتى يتصور فيها الانقلاب ولا أنهم أرادوا بالحقائق أحكام الاستعدادات، التي ظهرت بها هذه الحقيقة الكلية المشتركة بين أفراد العالم جميعه، فإن هذا ليس من علومهم العقلية وكذا قولهم بالاستحالة أعني قولهم: استحالة الماء هواء، والهواء نازًا، ونحو ذلك؛ لا يصح، بل هو من نمط ما ذكرنا، من خلع الحقيقة الكلية عرضًا ولبسها آخر مثله، أو ضده على الدوام، فإذا عرفت



هذا؛ عرفت ما يزهّدك في علوم العقلاء من الحكماء والمتكلمين، ويرغبك في علم العلماء بالله - تعالى -، وهذه المسألة، وما شاكلها؛ من الأوليات الضروريات عند القوم - رضوان الله عليهم - وقد خطر لي إن كان في العمر سعة تأليف كتاب أجمع فيه ما وصل إليه علمي من غلطات الحكماء والمتكلمين، اسميه «الإعلام بأغاليط الأعلام» إن شاء الله تعالى.

\* \* \*

### الموقف الواحد والعشرون بعد المائة

ورد في صحيح البخاري وغيره عنه - ﷺ -: «إذا حكم الحاكم فاجتهد، ثم أصاب؛ فله أجران، وإذا حكم الحاكم فاجتهد، ثم أخطأ؛ فله أجر واحد»<sup>(١)</sup>.

ففي الحديث تقديم وتأخير، إذ الحكم مؤخر عن الاجتهاد، قد اختلف الأصوليون في المراد من هذا الحديث الشريف، كما هو منقول في كتب الأصول. والذي ورد به الوارد الإلهي: أن المجتهد إذا أصاب ما هو الحكم عند الله تعالى في النازلة، ووافق ما في نفس الأمر؛ كان له أجران، أجر الاجتهاد وأجر الإصابة. وإن أخطأ ما هو الحكم عند الله تعالى، وما وافقها في نفس الأمر؛ كان له أجر واحد، وهو أجر الاجتهاد. فليست الإصابة إلا في الباطن، وهي موافقة ما عند الله - تعالى - في النازلة. وليس الخطأ إلا في الباطن، وهو عدم الموافقة لما هو الحكم عند الله - تعالى - في النازلة. وأما في الظاهر؛ فالكل مصيب، لأن الشارع قرّر حكم كل مجتهد، ولو كان خطأ المجتهد في الظاهر ما قرّره الشارع. ولما جعله ديناً مشروعاً يتدين به المجتهد ومن قلّده، ولما كان له أجر، بل يكون عليه وزر، فكل مجتهد مصيب في الظاهر، حيث إنه بذل وسعه وأدّى ما كُلف به، في طلب الحكم الحق في النازلة. وأما في الباطن؛ فالمصيب واحد لا بعينه من المختلفين. وعلى ما قرّرنا؛ يمكن الجمع بين أقوال الأصوليين، إن لم ينقل عنهم ما يدفع هذا الجمع. وقد أنكر الأستاذ أبو إسحق القول: بأن كل مجتهد مصيب، فقال: القول بأن كل مجتهد مصيب؛ أوّله سفسطة وآخره زندقة، وقوله - ﷺ - «إذا حكم الحاكم فاجتهد الخ أعم في الحاكم المجتهد في الفروع الشرعيّة، أو الأصول العقلية الاعتقادية، إذ لا فرق بينهما عند العارفين بالله - تعالى -، أهل الكشف والوجود، فإن كل واحد من

(١) البخاري: كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب، رقم (٧٣٥٢). ورواه مسلم: كتاب الأفضية، باب بيان أجر الحاكم إذا اجتهد، حديث رقم (١٥ - ١٧١٦).

المجتهدين في الفروع والأصول، فَعَلَّ مَا كُتِبَ بِهِ، وبِذَل وَسَعَهُ؛ فوصل إلى ما أذاه إليه اجتهاده: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَّا آتَتْهَا﴾ [الطلاق: الآية ٧] و﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: الآية ٢٨٦].

وقد أنكر عامة أهل السنة والمعتزلة، غير أهل الكشف القول: بأن كل مجتهد في الأصول الاعتقادية مصيب. ونسبوه إلى الكفر، وقرّره العارفون بالله، وهو الحق، وقالوا: المجتهد في العقليات، إذا وقى النظر حقه، وأخطأ؛ فهو معذور، يريدون المجتهد نفسه لا من قلده. ووافق العارفين بالله تعالى أبو الحسين البصري والجاحظ من المعتزلة.

\* \* \*

### الموقف الثاني والعشرون بعد المائة

قال تعالى: ﴿وَرَبِّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص: الآية ٦٨].

ما كان لهم الخيرة، المختار عند التحقق؛ من اجتمع له العلم والإرادة والقدرة، وليس ذلك إلا الحق - تعالى -، فهو المختار، «عالم» بمعنى أنه مريد قادر، لا بمعنى الاختيار المعروف، وهو التردد بين الأمرين، ثم وقوع الاختيار على أحدهما، فإن أحديّة المشيئة؛ تمنع من اتصاف الحق - تعالى - بالاختيار بهذا المعنى. ثم أخبر تعالى بنفي الخيرة، اسم في الاختيار عن كل ما سواه، بمعنى أنه لا يصح ولا يستقيم ولا يكون لهم ذلك: لأن عطف الاختيار على الخلق مشعر بأن الذي يخلق هو الذي يختار، وليس ذلك إلا الحق - تعالى -، فإنه الذي له الخلق والأمر. ومن لا يخلق؛ لا يصح له الاختيار: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ﴾ [التحل: الآية ١٧].

والاختيار المنفي عما سوى الحق هو الاختيار الثابت للحق - تعالى -، لا الاختيار الذي هو ضد الجبر، ولا أنهم مجبورون على الاختيار. ويحتمل أن يكون المراد نفي الخيرة عنهم، من حيث مصلحتهم، أي ما كان يثبت لهم من جهة مصلحتهم أن يختاروا، فإنهم العجز الجاهلون بالمصالح، فقد يختارون ما فيه هلاكهم من حيث لا يشعرون: ﴿وَعَسَى أَنْ تَجِبُوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ﴾ [البقرة: الآية ٢١٦].

وأقل ما فيه من الشرّ سوء الأدب بعد التفويض، ومشاركة الحق - تعالى - بالاختيار، الذي هو خصيص به. فكان اللازم المتمعين على الناصح لنفسه؛ أن لا

يختار شيئاً، وإن ظهرت له خيرته في الأمور الدينية غير المتعينة، والدنياوية. بل يفوض الخيرية إلى العالم بالأشياء ويعواقبها فلا يسأل من الله - تعالى - إلا ما يعلمه الله خيراً ومصالحةً. ولذا قال بعض العارفين: «الفقير ليس له إلى الله حاجة».

يعني على التعيين، لجهله بما هو خير له، وقال بعضهم: «كلُّ داعٍ غير مفوض فهو مستدرج» هذا لسان الظاهر والعموم، وأما لسان التحقيق والخصوص؛ فهو أن الأعيان الثابتة، التي هي صور الأسماء الإلهية؛ هي المختارة، بمعنى الطالبة، لما يفعله الحق - تعالى - بها. فلا تطلب غيره بل لا تقبله، فاختياره - تعالى - لا يكون إلا لما اختارته وطلبته باستعدادها. فالربُّ المضاف إلى المخاطب، وهو السيد الكامل - ﷺ - هو الربُّ الجامع، يخلق ما يشاء. ولا يشاء إلا ما علم. وما علم إلا ما اختارته الأعيان الثابتة. وما اختارت إلا ما هو في حقيقتها واستعدادها، بحيث لا تقبل غيره أن لو فعل بها ولا يفعل. فإن الحق - تعالى - حكيم يضع كلَّ شيء موضعه اللائق به، ويختار ما اختارته، ومحال أن يختار غير ما اختارته. ما كان لهم الخيرة من حيث أعيانهم الظاهرة المحسوسة، فإنها جاهلة محجوبة عن استعدادها وعمّا هي طالبة له، على مقتضى حقيقتها. ولا يخلق - تعالى - إلا ما يشاء ويختار. ولا يشاء ويختار إلا ما علم. وما علم إلا ما هو المعلوم عليه في حقيقته ومقتضاه باستعداده. والمعلوم لا يتبدّل ولا يتغير عن حقيقته، إذ لو تبدّل وتغيّر لانقلب علمه - تعالى - جهلاً، وذلك محال. فليس للخالق - تعالى - إلا الخلق، وهو إعطاء الوجود للأحوال التي طلبتها الأعيان الثابتة باستعدادها، أي عين كانت. فما حكم عليها إلا بها، ولا أثر لما يسمى مشيئة واختياراً؛ إلا من حيث أنه - تعالى - غير مُكْرَه ولا ملجأ، بمعنى أنه لا يفعل شيئاً وهو كاره له غير مرید، ولا مختار. فلا اختيار، لأن سبق العلم بالفعل والترك ينافيه. ولا إضرار ولا جبر، لأن الفعل بالإرادة ينافيه. فالاختيار محال، والجبر بمعنى الإكراه من الغير محال، ولعل خفاشاً لا يقدر بصره على إدراك شمس الحقيقة، يقول: إنك نقيت عنه - تعالى - ما أثبتته لنفسه من المشيئة والاختيار ووافق على ذلك التقسيم العقلي عند العقلاء، فإنهم قَسَمُوا الفاعل إلى فاعل بالاختيار، وهو الذي يتأتى منه الفعل والترك، وليس ذلك إلا الحق - تعالى -، وإلى فاعل يتأتى منه الفعل دون الترك، ولا يتوقف على وجود شرط ولا انتفاء مانع، وهو الفاعل بالعلّة. وإلى فاعل يتأتى منه الفعل دون الترك، ويتوقف على وجود شرط وانتفاء مانع، وهو الفاعل بالطبع، فأقول: مَنْ تغلغل في الحقائق، واستظهر ظواهر الطرائق، علم أن الأعيان الثابتة التي قلنا: إنها الطالبة من

الحق باستعدادها ما يفعله بها، هي صور الأسماء الإلهية. والأسماء الإلهية صور الذات العلية ومراتب تجلياتها، إذ الأسماء معان لا قيام لها بنفسها، ويكفي هذا النزر القدر لمن يتبصر:

﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ [التور: الآية ٤٠].

\* \* \*

### الموقف الثالث والعشرون بعد المائة

قال تعالى: ﴿فَلْيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلْيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ [العنكبوت: الآية ٣].

وقال تعالى: ﴿وَلَنَسَبِلُونَكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّادِقِينَ﴾ [محمد: الآية ٣١].

وقال تعالى: ﴿لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى﴾ [الكهف: الآية ١٢].

ونحو ذلك مما يُشعر بحدوث العلم وتجذده. فاعلم أن الوصول إلى فهم هذا يحتاج إلى إسهاب. فلذلك نقول: إن الحق - تعالى -، في هويته ذاته الغيب المطلق، وباعتبار الذات البحث لا يحكم عليه شيء، لا بوصف ولا اسم، لا علم ولا غيره، لأن ذلك يقتضي التعيين. ومهما نعقل له علم جاءت الكثرة إلى عالم ومعلوم وعلم، وكانت النسب الإلهية والكونية قبل تعقل تعلق علمه بذاته؛ مستهلكة مندرجة في الذات، لا تميز لها عن الذات ولا عن بعضها، إذ هو مقتضى الأحديّة الحقيقية، فلما مالت الذات إلى الظهور والتعيين، بميل هو عين ذاتها، لا بتخلل صفة تعلق علمها، الذي هو عين ذاتها بذاتها. وهذا العلم هو أول التعينات، والتنزل من الغيب المطلق، فتميزت الحقائق الإلهية والكونية تميز المفصل في المجمال. ولهذا نقول: علم الحق - تعالى - في هذه الحضرة إجمالي، ولا محذور فيه، لأن المعلومات حينئذ جملة واحدة. وبهذا يسمى هذا التعيين بأحدية الجمع، فالعلم المضاف إليها يسمى علماً إجمالياً. فلو قيل: العلم المتعلق بهذه الحضرة، أعني حضرة الوحدة، علم تفصيلي للزم الكذب. والعلم لا يوصف بالتفصيل والإجمال، لأنهما من لوازم الكم وعوارضه، فصار هذا العلم النفسي الإجمالي، الذي هو عين الذات للذات، ولما هو مستهلك ومندمج فيها من الحقائق المعلومة، بمثابة مرآة ارتسم فيها ما قابلها: ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾ [النحل: الآية ٦٠].

ويسمى هذا العلم والتعيين؛ بنفس الرحمن وبباطن العلم، ويتعلق بما لا يتناهى، لأنه عين الذات الذي لا يتناهى، وهو تابع للمعلوم رتبة لا ترتيباً، إذ الذات، من وجه تسميتها معلومة متقدمة على نفسها، من وجه تسميتها عالمة، وليس هناك استرسال كما قال إمام الحرمين ولا حدوث تعلق، كما قال الفخر الرازي، وإنما هو تأخر ذاتي لا زمني، وربما عبّر عن هذا التأخير بالحدوث. ثم أن هذه المرأة العلمية الذاتية قابلها العدم، لأنه ليس في مقابلة الوجود شيء إلا العدم، فارتسم في المرأة العلمية في العدم، فصار العدم بما ارتسم فيه بمثابة مرآة ثانية، وهذه المرأة العلمية غير الذاتية الثانية، تسمى بالحضرة العمائية، ويظاهر العلم، ولها أسماء كثيرة، وهذا العلم لا يتعلق بما لا يتناهى لأن تعلقه بالمعلومات هو نفس وجودها فيه، الوجود العيني، وكل ما دخل الوجود؛ فهو متناه. والمعلومات تابعة لهذا العلم، لأنها حكاية عنه، وظل له، فالعلم تابع للمعلومات في ثبوتها العدمي. والمعلومات تابعة للعلم في وجودها العيني، من غير تعدد للعلم ولا حدوث تعلق، فأما العلم الذاتي الإجمالي؛ فالذات هي العالمة من وجه، وهي المعلومة من وجه. وهي العلم من وجه. فأما كونها عالمة؛ فهو أن الانكشاف حاصل لها، لا لشيء زائد عليها. وأما كونها معلومة؛ فلأنها مع ما هو مستهلك فيها من الحقائق؛ منكشفة لذاتها، وأما كونها علماً؛ فلأن الانكشاف حصل بها لا بشيء زائد عليها، ومن المعلوم: أن حقيقة كل شيء أي ما يصح أن يعلم؛ هي نسبة معلومته في علم الحق - تعالى - من كون علمه عين ذاته، فذاته أعطته العلم بمعلوماته، التي هي عين ذاته في مرتبة التعيين، والعلم الأول، فعلمه بذاته هو عين علمه بمعلوماته من العالم، فليس علمه بذاته مغايراً لعلمه بالعالم، إذ ليس إلا هو - تعالى -. فلو قلنا: المعلوم تابع للعلم في هذه المرتبة؛ لزم تقدم العلم على الذات رتبة وفيه ما لا يخفى. فإن قلت: الحق أخذ معلوماته عن وجود؛ صدقت. لأن جميع معلوماته هي شؤون ذاته، ونسبه الذاتية. وإن قلت: الحق أخذ معلوماته عن عدم؛ صدقت. لأن معلوماته قبل تعقل تعلق العلم الذاتي؛ كانت معدومة في العلم والعين، ولها صلاحية التعيين في العلم والعين، بمعنى أنها مستعدة لأن تظهر لها صور متعددة، وقد قال إمام العارفين قدوتنا محيي الدين: «إن معلومات الحق - تعالى - أعطته العلم من نفسها» واعترض هذا القول العارف الكبير عبد الكريم الجيلي بما نصّه «لما رأى الإمام محيي الدين الحق، حكم للمعلومات بما اقتضته من نفسها؛ ظن أن علم الحق مستفاد من اقتضاء المعلومات. وفاته أنها إنما اقتضت ما علمها عليه بالعلم الأصلي الكلي النفسي، قبل خلقها وإيجادها، فإنها ما

تعيّنت في العلم الإلهي إلا بما علمها، لا بما اقتضته ذواتها، ثم اقتضت ذواتها بعد في نفسها أمورًا هي عين ما علمها عليه أولاً، فحكم لها ثانيًا بما اقتضته، وما حكم لها إلا بما علمها عليه. اهـ.

وليس لمثلي أن يتتبع سهو الأكابر، فإن كنت أيها الناظر ممن يعرف الحق عرفت أهله لا محالة. وإن كنت مقلدًا فليس كلامي معك. وفي حقيقة الأمر؛ لا اختلاف بين الشيخين عند من يعلم.

وفي أثناء كتابتي بهذا الموقف؛ ألقى عليّ في الواقعة قوله تعالى: ﴿فَمَا هُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ ﴿٦٦﴾ [الانشقاق: الآيات ٢٠، ٢١].

وألهمت أن الوارد يثير إليّ توبيخ من لا يصدق بكلام الإمام محيي الدين. وإن كلامه من عنده - تعالى -، كما قال في الفتوحات: «ما وضعت كلمة إلا بإلقاء روحاني في قلب كياني» أو كما قال، فيجب الانقياد لكلامه، والخضوع لمعارفه؛ فإنه الوارث الكامل - رضي الله عنه -.

\* \* \*

### الموقف الرابع والعشرون بعد المائة

قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ...﴾ إلى أن قال تعالى: ﴿... لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُغْبًا﴾ [الكهف: الآيات ١٨ - ٩]

اعلم أن قصة هؤلاء الفتية وكراماتهم الظاهرة، وخوارقهم الباهرة، كانت عند الأمم السابقة، والأجيال الخالية، من أعجب الأحاديث، تناقلها الإخباريون وعنونها المحدثون، فلما سأل اليهود عنها رسول الله - ﷺ - سؤالا استعظام واستكبار لكراماتهم، الدالة على عظيم رتبهم عند الحق - تعالى -، في زعم السائلين، وغيرهم من الناظرين إلى ظواهر الأمور؛ قصّ الله - تعالى - على رسوله - ﷺ - قصّتهم، وشرح ظاهرًا وباطنًا حالتهم، وبيّن له مقامهم ومرتبهم فقال: «أَمْ حَسِبْتَ» هو استفهام بمعنى النهي، أي لا تحسب كحسابهم، ولا تعجب كتعجبهم، فإنهم ظنوا أن هؤلاء الفتية كانوا من أعجب آياتنا وأغرب ما في قدرتنا، لظنهم أن خوارق العادات، أكرم ما تكرم به أهل كرامتنا، لمن ظهرت له أو فيه. ثم أخبره أنهم آمنوا بوجود ربهم



ووحدانيته، وأنه زادهم هدى بالثبات والطمأنينة، وليعلم أن إيمان هؤلاء الفتية إنما كان بنور عقلي، واستدلال نظري، فإنهم ما كانوا تحت رسالة رسول، والإيمان العقلي وإن جلت رتبته، وعظمت منته بالنسبة إلى عدمه، فصاحبه ضالٌّ عند ذوي الشريعة، أعمى لدى صاحب البصيرة، إذ العقل بمجرد قاصر عما يجب لله - تعالى - من إطلاق التجلي في المظاهر، عاجز عن تنزيهه - تعالى - عن الدخول تحت تحكيمات العقول وتقيدها له - تعالى -، فإن للعقل حدًا يقف عنده من حيث هو عقل، ونهاية لا يتعداها، وإنما شرف العقل وكماله، هو قبوله لما تأتي به الرسل - عليهم السلام - من ربهم - ولما يفيضه - تعالى - على اتباع الرسل بواسطة ملك الإلهام وغيره. ولا حدٌ ولا نهاية للعقل يقف عندها من هذا الوجه، والرسول إذا أطلع على ما يخالف ما عنده من الحق؛ نفر وفرُّ باطنًا، ولو ثبت ظاهرًا أو فرُّ ظاهرًا أو باطنًا، كما فعل موسى - عليه السلام - مع كونه جازمًا لحقيقة ما فعله الخضر - عليه السلام - لإعلام الله إياه بأنه أعلم منه، ومع ذلك ما قبله وما فارقه وهو فرار في المعنى، وفي الصحيح<sup>(١)</sup>؛ كانت الثالثة من موسى عمداً وأخبره الخضر أول ما لقيه؛ أنه لا يستطيع معه صبرًا، ومن لم يستطع الصبر فرُّ، فأخبر الحق - تعالى - رسوله - ﷺ - في أثناء قصتهم بحالتهم الباطنة، وأنه لو اطلع على ما في بواطنهم، ممَّا يقضي إليه الإيمان العقلي عند مشاهدتهم لفرَّ منهم، وتباعد عنهم، لما ذكرنا ولمليء منهم رعبًا، فإنهم مع هذه الكرامات العظيمة والخوارق الجسيمة المعروفة من أخبارهم؛ ما كانوا في رتبة الأكملية، ولا بالمنزلة الزلفي لدى الحق. وهذا أدلُّ دليل على أن الكرامات - وإن جلت - ما هي على الأكملية والأقربية دلالات، ولا هي مخصوصة بذوي العنايةات، فليس كل من ثبت تخصيصه كمل تخليصه. ولا كل من حصلت له الكرامة كملت له الاستقامة. وحينئذٍ فليس فراره - ﷺ - إلا من نقصهم بالنسبة لمقامه السامي، لما عنده من العلم بالله - تعالى -، ممَّا هم على خلافه، ولا متلاً رعبًا من الحق - تعالى - لسبب اطلاعه على بواطنهم إلا من كونه - تعالى - يعطي الكرامات وخوارق العادات لمن ليس بذلك. ومطلق العارف؛ يزيده الاطلاع على قصة هؤلاء الفتية اضطرابًا، ويملاً قلبه رعبًا، وظاهره وباطنه مهابة، بل يفتت كبده ويحرق قلبه، وليس المراد فراره ورعبه من عظم خلقتهم وتشويبهما، ونحو ذلك مما قاله جمهور المفسرين، فإنه بعيد جدًا. وهذا المفتوح عليه المكاشف يشاهد

(١) رواه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَا بَلَغًا جَمَعَ بَيْنَهُمَا نِسَاءَ خُوتُهُمَا﴾ [الكهف: الآية ٦١]. حديث رقم (٤٧٢٦).

أنواعاً من المخلوقات العظيمة التي لا توصف، يشاهد من الملائكة أنواعاً منهم: جسم واحد وله عدة رؤوس، وكل رأس له عدة أسنة، وكل لسان له لغة، ولا يهوله ذلك ولا يروعه، فكيف بمحمد - ﷺ - الذي آراه الله الآيات الكبرى، وما زاغ بصره وما طغى؟! ومشاهدة أصحاب الكهف دون الآيات الكبرى بيقين. والله أعلم وأحكم.

وقد كان سأل بعض من يعزُّ عليَّ عن الآية<sup>(١)</sup> فما كشفت له؛ إلى أن وَرَدَ عليَّ في الواقعة قوله تعالى: ﴿وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَحْلِفِينَ فِيهِ﴾ [المحيد: الآية ٧]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْكَرُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ [الأنبياء: الآية ٩٠].

فامتثلت الأمر، وعلمت أن السائل مستحق لما سأل عنه، والله يرزقنا حسن الأدب معه، ومع مخلوقاته بمنه وفضله.

\* \* \*

### الموقف الخامس والعشرون بعد المائة

قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعِثَ مَا فِي الْقُبُورِ﴾ [١٠] وَحُصِّلَ مَا فِي الْقُدُورِ ﴿١١﴾ [العاديات: الآيات ٩، ١٠].

القبور هي الأجسام الآدمية، فإنها قبور الأرواح، إذ كل من ستر شيئاً فهو قبر له، ومنه قبر السيف غمده، وبعثتها هو إخراج ما فيها وإظهاره بعد الموت، أعم من حالة البرزخ، وحالة البعث والنشور. وذلك بتمييز ما فيها من الأفعال الخيرية والشرية عن الأجسام، وعن بعضها بعضاً، فإن لكل عضو فعلاً خاصاً: من يد، ورجل، ولسان، وسمع، وبصر، وفرج، وبطن... ولكل فعل من أفعال هذه الأعضاء صورة خاصة، يتصوّر بها في البرزخ وفي يوم القيامة، فيتصور فعل الأذن أنكأ يصب في الأذن، ويتصور فعل البطن نهرًا من دم يسبح فيه. وكلما أراد أن يخرج القم حجراً فيلقمه فيه، ويتصور فعل الفرج تنوراً يتوقّد نازاً ويتصور فعل اللسان كلوبًا يحزحز به شدة إلى قفاه، والكنز يتصور بصورة شجاع أقرع، له زيبتان يأخذ بلهزميته يقول: أنا كنزك... كما ورد في الصحاح. ونحو هذا. وهذه الأفعال كانت في الحياة الدنيا أعراضاً قائمة بالأجسام العاملة وأوصافاً لها، وهي بعينها تصير بعد الموت أجساداً

(١) هو الصوفي العلامة الشيخ محمد الخاني النقشبدي.

برزخية مثالية ينتعم بها العامل أو يتعذب، قال تعالى: ﴿وَلَا تُحْزَنُوا إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [يس: الآية ٥٤].

وقال تعالى: ﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ﴾ [الأنعام: الآية ١٣٩].

ففي الحياة كانت الأفعال وصفًا للفاعل وعرضًا قائمًا به. وبعد الموت تستخرج هذه الأوصاف، وتتميز عن العامل، وتصير أجسادًا ذات صور، كما تتصور المعاني صورًا في الرؤيا، كالعلم في صورة اللبن، والدين في صورة الثوب... وبعد البعث تصير هذه الصور المثالية أجسامًا محسوسة، لأن الحقائق تظهر في كل موطن بحسب ذلك الموطن. فلا تظهر المعاني متجسدة متصورة بصورة في الموطن الدنيوي إلا في الرؤيا. أو لصاحب كشف. ويختص برؤيتها النائم والمكاشف دون الحاضرين معه، وكذا الأعمال الصالحة والسيئة في البرزخ، وهي بعينها تظهر بعد البعث في موطن الآخرة أجسامًا محسوسة، يدركها كل مدرك، لا يختص بها صاحبها. فهي حينئذٍ صور وقصور ومشتهيات:

﴿وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ﴾ [الغاديات: الآية ١٠].

ميز. ومنه تحصيل المعدن، وهو تمييز الذهب أو الفضة من التراب. والصدور هي القلوب مجازًا، وفيه مجاز آخر بحث عنه. وما في القلوب؛ هي النيات والمقاصد. فرب عامل يقول بلسانه: أعمل لله - تعالى -، وقصده وثبته غيره - تعالى -، ذلك: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ بَيَاضًا﴾ [الطارق: الآية ٩].

يميز خبثها بالتصفية، كما تبيض الفضة بالنار. فلا يقبل قول ولا عمل إلا بنية صالحة وقصد صحيح: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى»<sup>(١)</sup>.

فلا تقبل حيلة ولا تروج بهرجة في ذلك الموطن، قال البخاري - رضي الله عنه - في الصحيح، باب ترك الحيل، وساق الحديث المتقدم النص، الصريح في إبطال الحيل على الله - تعالى -، وأنها لا تنفع في الدار الآخرة. والعجب كل العجب من الفقيه الذي يقول بسقوط فرض الزكاة عنه إذا وهب ماله لزوجته - قرب الحول - فرازا من الزكاة، ويتوهم أن هذا ينفعه يوم القيامة، بالله وبالمسلمين!! أيخادع مؤمن ربّه؟ ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم؟ لا والله، لا يصدر هذا إلا ممن يقول: إنه يعلم إذا جهرنا، ولا يعلم إذا أسررنا، فأنزل تعالى: ﴿أَلَا جِنَّةٌ يَسْتَعْتُونَ شِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [هود: الآية ٥].

(١) رواه البخاري: كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي، حديث رقم (١).

نعم إن هذه الحيل تسقط عقوبة الدنيا ومطالبة السلطان، الذي لا يعلم إلا الظواهر ولا يحكم إلا عليها، فأما السلطان الأكبر، الذي يعلم السرّ وأخفى، ويحكم على البواطن والظواهر، فهيهات هيهات أن تسقط مطالبته بالحيلة والمخادعة!! ولو كان هذا المتحيل على الله - تعالى - عمل ما عمل، على اعتقاد الحرمة والمعصية؛ لكان خيراً له وأولى به، فإنه ترجى له التوبة والاستغفار. إذ في اعتقاد حرمة الشيء مع فعله، على أنه حرام؛ خيرٌ عظيم وأجر كبير، وأني أنزه الإمامين أبا حنيفة والشافعي - رضي الله عنهما - أن يقولوا بإسقاط مطالبة الحق - تعالى - في الآخرة بالحيلة. هذا بعيد عن أئمة الهدى. بل أتيقن أنهما ما قالا إلا بإسقاط مطالبة حكام الدنيا فقط، ولهذا قال المحققون من الشافعية كالغزالي - رضي الله عنه - إن الشافعي يحرم استعمال الحيل في الأحكام. وقد رأيت في الرؤيا: أني أتذكر مع جماعة في الفقه والفقهاء، وما أحدثوا واستنبطوا من الحيل، في التوصل إلى الأغراض، وشهوات القلوب المراض، فقال واحد من الجماعة: هذه أقوال أهل الكشف العارفين بحقائق الأشياء، المطلعين على بواطن الأحكام، ليس فيها شيء من هذه الحيل، وهذا مشارق الأنوار، (يعني كتاباً كان بين أيدينا)<sup>(١)</sup> ليس فيه شيء من هذا، فقلت أنا: وهذه سنة النبي المختار، ليس فيها شيء من هذا. وهذا كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؛ ليس فيه شيء من هذا، فقال بعض الجماعة: ليس في العلوم علم أبعد من الله؛ من فقه هؤلاء المتحيلين على الله - تعالى -، الذي يعلم سرهم ونجواهم.

\* \* \*

### الموقف السادس والعشرون بعد المائة

روى مسلم في صحيحه<sup>(٢)</sup>، أنه - ﷺ - قال: «إنه ليغان على قلبي، فاستغفر الله تعالى في كل يوم مائة مرة»، وفي طريق «في اليوم أكثر من سبعين مرة» وفي رواية «حتى استغفر الله».

(١) لعله كتاب (مشارق أنوار القلوب ومفاتيح أسرار العيوب) لعبد الرحمن بن محمد الأنصاري المعروف بابن الدباغ، وهو في العشق الصوفي وأحوال العاشقين طبعه وحققه المستشرق الألماني ريتز وعن هذه الطبعة، أعادت نشره دار بيروت وصادر.

(٢) كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب استحباب الاستغفار والاستكثار منه، حديث رقم (٤١ - ٢٧٠٢).

وقد تكلم الناس على هذا الحديث في القديم والحديث، من علماء الشريعة وعلماء الحقيقة، وكل واحد أنفق بحسب وسعه وماله، وأنبأ عن استعداده وحاله، وقال العارف الكبير سيدي أبو الحسن الشاذلي - رضي الله عنه - سألت رسول الله - ﷺ - عن هذا الحديث، فقال لي: يا مبارك!! هو غين أنوار، لا غين أغيار، ولم يزد شيئاً. وأنا أشرح بعض ما دلّت عليه هذه الجملة، التي هي من جوامع الكلم، ولباب الحكم. وأنا استيفاء ما دلّت عليه على الكمال والتمام؛ فلا تسعه مجلدة ولا مجلدتان. فأقول:

الغين؛ يطلق على الرين، وعلى ما يغشى القلب من الشهوات، وعلى التغطية. والمراد هنا المعنى الأخير، أخبر - ﷺ - أن أنوار القرب، الموجبة للفناء بالمشاهدة والمحقق كانت تغطي قلبه الشريف تغطية لائقة ومناسبة لمقام النبوة، بحيث لا يخلُ بأقلّ القليل، ممّا يطلبه الحق أو الخلق. والمراد بالقلب هنا العقل. فإنه المدبّر للمملكة الإنسانية، وبه يكون القيام بحقوق الخلق والحق. فإذا غطّي عليه لم يبق هنالك شعور بغيره، لا من نفسه ولا من غيره، ولا إدراك لرسالة ولا لمرسل إليهم، فإنه في هذه الحالة تنتفي الغيرية، وتزول الإثنيّة، فيتحدّ المطلق بالمقيد. فإذا رجع - ﷺ - من هذه التغطية، الموجبة لعدم شهود العبوديّة؛ يستغفر الله - تعالى - . أي يطلب منه الستر والحيلولة عن ذلك، لأن هذه الحالة ربويّة محضّة، لا تشهد فيها عبودية، وهي الوقت الذي قال فيه - ﷺ - لي: «وقت» مع الله تعالى؛ لا يسعني فيه نبيّ مرسل، ولا ملك مقرب»<sup>(١)</sup>.

يعني لا يتسع لمعرفتي رسول ولا ملك، لأنه حالتنذ ذات محض مطلق عن القيود الخلقية، والانحصارات البشرية، لا يشار إليه بالنظر إلى تلك الحالة باسم، ولا وصف، ولا رسم، وفي رواية: «لا يسعني غير ربي».

وهذا كان له - ﷺ - في بداية أمره. فكان يطلب الستر عن ذلك، لأنه - ﷺ - علم الحكمة في إيجاد هذا الموجود، وأنه - تعالى - ما أوجده في صورة المغايرة الاعتبارية إلا ليعرفه فيعبده، لأنه - تعالى - لا يعبد نفسه من حيث هو هو، من غير مغايرة اعتبارية، ولأنه - تعالى - أحبّ أن يرى ذاته في صورة غير، لأن رؤيته نفسه في نفسه؛ ما هي مثل رؤيته نفسه في غير، ولا غير إلا بالاعتبار الذي هو عدم في

(١) العجلوني: كشف الخفاء، حديث رقم (٢١٥٧).

نفسه، وعرف - ﷺ - أن الدار دار محنة وتكاليف، لا تصلح لهذه الأحوال، ولا للظهور بأوصاف الربوبية لا قولاً ولا فعلاً، لضيقها وللتحجير الواقع فيها، ولما يقتضيه الجسم الطبيعي من الحصر والتقييد. ومقتضيات الطبيعة؛ بخلاف الآخرة، فإنها لسعتها ورفع التحجير فيها وعدم الحصر والتقييد الطبيعي، لأنه نشء آخر يكون التظاهر فيها بأوصاف الربوبية، ودوام الرؤية له - تعالى -، والمشاهدة والمحقق، فلكمالها - ﷺ - بالعلم الذي ما ناله مخلوق غيره أحب أن يعطي كل موطن حقه، ويتظاهر فيه بما يقتضيه. فالكمال والشرف في هذه الدار. إنما هو الدؤوب على القيام بوظائف العبودية، وأداء ما يجب للربوبية، فإنه - تعالى - ما خلق الجن والإنس إلا ليعبده، بعد معرفتهم به - تعالى -، لا سيما الرسل - عليهم الصلاة والسلام - فإنهم زيادة على ما كُلفوا به في خاصتهم؛ مكلفون بأداء الرسالة، وتبليغ الأمانة إلى أممهم ومداومة ملاحظتهم بإرشادهم إلى مصالح دينهم ودنياهم. فليس الكمال إلا بشهود ربوبية وعبودية في آن واحد، حق وخلق، من غير تخلل فتور، غائب حاضر، لا الجمع يحجب عن الفرق، ولا الفرق يحجب عن الجمع، شرب فازداد صحواً، وغاب فازداد حضوراً، كائن بائن، قال إمام العارفين شيخنا محيي الدين:

فليس الكمال سوى كونه	فمن فاته ليس بالكمال
ويا قائلاً بالفناء اتشد	وحوصل من السنبل الحاصل
ولا تتبع النفس أغراضها	ولا تمزج الحق بالباطل

يريد ليس الكمال سوى شهود خلق قائم بحق، لا فناء حرف، فإن الاستهلاك في الحق، بالمشاهدة والفناء، والمحقق؛ عدم حرف لا شعور فيه بعبودية أصلاً، فهو تضييع للوقت، الذي لو اشتغل فيه الفاني بالأعمال الصالحة والمجاهدة لزادت مشاهدته ورؤيته للحق - تعالى - في الدار الآخرة، التي هي محل الرؤية وموطن المشاهدة والتظاهر بأوصاف الربوبية، ورفع التكاليف والخدمة. ولهذا أنف الأكابر من المتحققين بالوراثة المحمدية من هذه الأحوال، التي تحول بينهم وبين شهود العبودية، ومن التظاهر بصفات الربوبية، وطلبوا الترقى عن ذلك بدوام شهود العبودية، والافتقار والمعجز، الذي يرجع إليه كل ممكن، عند نظره إلى أصله ومرتبته الإمكانية، وإذا أنف الكمل من الورثة التابعين، من هذا فكيف بالأنبياء؟! فكيف بسيد الأنبياء وأكملهم - ﷺ - وعلى إخوانه وآله؟! فعلم مما قدمناه: أن زمان الفناء بالمشاهدة عن المخلوقات؛ زمان ترك عبودية يفوت مقامات عظيمة من مقامات الأدب. بل مقامات الآخرة في الرؤية والمشاهدة الخالصة عن كل شوب، وأن الدنيا سجن المؤمن، سجنه



فيها الملك الحق - تعالى - . ومن طلب الملك يأتيه في السجن، حتى يراه ويشهده؛ فقد أساء الأدب، بخلاف الآخرة فإنها دار الملك لا سجنه .

والحاصل: أن الكمال الذي هو مقام النبوة، هو الاعتدال، وهو القسطاس المستقيم، الذي أمر الحق - تعالى - عباده بالوزن به، فمتى غلب النور، الذي هو الحق، على الظلمة التي هي الخلق؛ زال الاعتدال، فزال الكمال، وذلك غير لائق بمنصب النبوة الأسمى، فاستغفاره - ﷺ - إنما كان خورقاً من غلبة النور على الظلمة، فطلب البقاء على الاعتدال دائماً، ليؤدي كل ذي حق حقه. فإن الظلمة الطبيعية لها شرف عظيم لأداء العبودية عند شهودها.

\* \* \*

### الموقف السابع والعشرون بعد المائة

قال تعالى خطاباً لعائشة وحفصة - رضي الله عنهما -: ﴿وَإِنْ تَطَهَّرْتَ عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَانُ وَجِبْرِيلُ وَصَلِيحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَكُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾ [التخريم: الآية ٤].

قال إمام العارفين شيخنا محيي الدين ما معناه: لغيت بعض العارفين فقلت له: إن الله - تعالى - يقول: ﴿وَاللَّهُ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الفتح: الآية ٤].

والجنود لا يحتاج إليها إلا لمقابلة عدو عظيم، ومن هو هذا العدو العظيم؟ المضاد له - تعالى -، حتى يحتاج لمقابلته بجنود السموات والأرض؟ قال: فقال لي: ألا أدلك على أعجب من هذا؟ ثم تلا: ﴿وَإِنْ تَطَهَّرْتَ عَلَيْهِ﴾ [التخريم: الآية ٤].

قال: فازددت إعجاباً، وما عرفت السر الذي كانت به هذه القوة لعائشة وحفصة، حتى خاطبهما الحق بهذا الخطاب المبين، لعظيم قوتيهما، فسألت الله - تعالى - فكشفه فكشفه. اهـ.

وما كشف الشيخ - رضي الله عنه - هذا السر؛ ولما وقفت على كلام الشيخ هذا تعلقت همتي بكشفه؛ فكشفه الحق - تعالى - لي مناماً، فأخبرني أن هذه القوة الحاصلة للمرأتين إنما كانت للمشابهة بحضرة الانفعال، وهي الحضرة الإمكانية وزادا على ذلك: بكونيهما مظهرين كاملين للحقيقة الفعلية الوجودية، لكمالهما الإنساني، فجمعاً بين حضرتي الفعل والانفعال، فجنس المرأة، لما كان محلاً للتكوين كان أقرب إلى المكوّن. وإن حضرة الانفعال لها شرف عظيم، وفضل فخيم، وقدر جسيم، من حيث أن حضرة الفعل والوجوب والتأثير؛ إنما ظهرت بها وتعيّنت

بسببها، فلو كانت هذه الحضرة غير قابلة للانفعال والتأثير؛ ما حصل تأثير أصلاً، ولا كان لحضرة الفعل والوجوب ظهور، ألا ترى العدم المطلق، وهو المستحيل، حيث ما كان قابلاً للانفعال والتأثر ما حصل فيه تأثير، ولا كان لحضرة الفعل والوجوب بها ظهور؟! فهذه الحضرة الانفعالية، التي هي مظهر للحضرة الفعلية، الجامعة لجميع الأسماء والصفات، على الإجمال والتفصيل؛ لا تقابلها إلا الحضرة الجامعة للأسماء والصفات على الإجمال والتفصيل، وهي الاسم الجامع «الله» وحضرة التفصيل، وهي جبريل وصالح المؤمنين، والملائكة جميعهم، ولا تكشف هذا السرّ لرسول الله - ﷺ - . قال: «حُبِّبَ إِلَيَّ مِنْ دُنْيَاكُمْ ثَلَاثٌ: النِّسَاءُ...»<sup>(١)</sup>.

يعني حبّبهن الله إليّ بكشف هذا السرّ الذي فيهن. وما قال أحببت، فيكون حبّه لهن كسائر الناس من أهل الحبّ الطبيعي والميل الشهواني، وقال سيدنا محيي الدين: كنت أبغض الناس للنساء، مدة ثماني عشرة سنة. والآن أنا أشدُّ الناس حبّاً لهن. وما ذلك إلا لانكشاف هذا السر له - رضي الله عنه - .

\* \* \*

## الموقف الثامن والعشرون بعد المائة

قال تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: الآية ١٥٢].

وقال تعالى فيما روى عنه رسول الله - ﷺ - في الصحيح: «أنا عند ظن عبدي بي، وأنا مع عبدي إذا ذكرني. فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم»<sup>(٢)</sup>.

اعلم أن الحق - تعالى - له الأولوية الحقيقية والآخرة الحقيقية، وإن كنا نسميها إضافة، لأنه - تعالى - لا يوصف بالحوادث. فكلُّ ما وصف به - تعالى - فهو قديم بالنسبة إليه - تعالى -، وإن كان حادثاً بالنسبة إلينا، وهذه المسألة مسألة خلاف بين أهل السنة والمعتزلة. والحق: أن جميع أسماء الله - تعالى -؛ لها وجهان ونسبتان، كما ذكرنا. وأما أولوية غيره - تعالى - وآخريته؛ فهي نسبيته. بمعنى ما وصف هذا المخلوق بالأول؛ إلا بالنسبة لما بعده. ولا وصف بالآخر؛ إلا بالنسبة لما قبله.

(١) رواه الحاكم في المستدرک (٢/١٦٠). ورواه أحمد في المسند عن أنس بن مالك بلفظ: «حُبِّبَ إِلَيَّ مِنْ الدُّنْيَا النِّسَاءُ وَالطَّيِّبُ وَجَعَلَ قِرَّةَ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ»، حديث رقم (١٢٣٠١).

(٢) هذا الحديث سبق تخريجه.

فالحق أول، من حيث ما هو آخر. وآخر، من حيث ما هو أول، فأخريته عين أوليته، وأوليته عين أخريته. ومع هذا فقد يعطي الحق - تعالى - وصف الأول باعتبار تعين، ويعطي حكم الآخر باعتبار تعين آخر، إذا كان أحد التعيينين شرطاً أو سبباً، والآخر مشروطاً أو مسبباً، فلا بد حينئذ في وصف التعين إذا كان شرطاً أو مسبباً بالأولية. ومن وصف التعين إذا كان مشروطاً أو مسبباً بالآخريّة، ضرورة تقدّم الشرط والسبب، على المشروط والمسبب، كما في هذه الآية والخبر ونحوهما. فذكره تعالى لهم، من حيث التعين الكلّي؛ مسبب ومشروط بذكرهم له، بالتعينات الجزئية السببية والشرطية، في ذكره لهم. وأما ذكره لهم - تعالى -، وذكرهم له في المرتبة العلمية فليس هنالك تقديم ولا تأخير، ولا أولية ولا أخريّة، ولا سبب ولا شرط. لأن المعلومات في الحضرة العلميّة؛ عين الذات الأحديّة بالوحدة الحقيقية، والأولية والآخريّة. إنما هي في هذه المرتبة، التي يقال فيها وجود عيني؛ فهو - تعالى - يذكر عبده بالثناء عليه، إمّا باسم كلّي أو نوعي أو جزئي، على حسب العناية بالعبد الذاكر.

قلت مرة: يا رب!! إني أعلم أنك تذكرني بخيرك الصادق، فهل تذكرني باسم وثناء عام أو خاص؟! فغيّبني، وألقي عليّ قوله: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَاهُ﴾ [الإسراء: الآية ١٠٦].

فلما رجعت إلى الحسن حمدته - تعالى -، وعلمت أنه يذكرني باسم عام جامع لأنواع من الثناء، لأن القرآن؛ الجمع. فإذا تفصل؛ صار فرقاناً.

وكنت ليلة أذكر الله، وبقربي كلب لا يزال ينبح الليل كله. فقلت له في نفسي: يا كلب أنت أغلق صاحبك بابك دونك، وأنا أغلقت حضرة مولاي دوني. فألقي علي في الحال: «لا تقل هذا واحمد الله - تعالى - على أن دعوناك لمجالستنا والخلوة بنا، أما علمت أنني جليس من ذكرني؟!» على أنه - تعالى -، الذاكر والمذكور في مرتبة الجمع. وأنه الشرط والمشروط، والمسبب والسبب، ولذا قال بعض سادات القوم - رضي الله عنهم - الذكر حجاب، يعني: ما دام الذاكر يشهد نفسه ذاكرًا، والحق - تعالى - مذكورًا له؛ فهو محجوب، فإذا أراد الله رحمته أزال الحجاب عنه، فأشهبه أن الحق - تعالى - هو الذاكر والمذكور والذكر، ولذا قال - تعالى -: «وأنا مع عبدي إذا ذكرني».

أي: ما دام يشهد أنه ذاكر لي، وأنا مذكور له؛ فأنا معه، أي غيره، إذ المعية تقتضي الغيرية والمصاحبة على مقتضى اللسان العمومي، لا على لسان القوم

الخصوصي. وإذا كان الحق - تعالى - مع عبده الذاكر، بحسب شهوده فهو - تعالى - يفعل معه ما يفعله المصاحب مع صاحبه من الرفق واللطف والرعاية. فلو انتفت المعية في شهود الذاكر، وثبتت في شهوده العينية، الثابتة في نفس الأمر، علمت أو جهلت؛ لفعل - تعالى - له ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، وأفاد مفهوم هذا الخبر: أن من لم يذكر الله - تعالى - لا تكون معية الحق له، كمعيته مع الذاكر من اللطف والرعاية، ولا يتوهم متوهم في أخبار الحق - تعالى - أنه يذكر عبده، بذكر عبده له - تعالى -، كما في الآية والخبر. وأنه يجيب كما ورد في خبر: «قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين. نصفها لي ونصفها لعبدي»<sup>(١)</sup>.

فإذا قال العبد: الحمد لله. يقول الله - تعالى -: حمدني عبدي، الحديث بطوله، وهو في الصحيح؛ أنه كان غير ذاك لعبده، أو غير مجيب لعبده المصلي، ثم ذكر، وأجاب، فإن الكلام الحقيقي؛ هو الكلام النفسي الأزلي. فذكر الله تعالى لعبده، إذا ذكره؛ هو كنزول القرآن. والقرآن كلام الله حقيقة. وقال - تعالى - في حقه: ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُخْبَرٌ﴾ [الشعراء: الآية ٥].

أي حادث النزول، لا حادث الذات، كما يقال: حدث الليلة عندنا ضيف، حدثت ضيفته، لا ذاته، فذكر الله عبده؛ قديم بذاته عنده - تعالى - وحدث عندنا بإظهاره. فالكلام حقيقة واحدة. والمتجلى من كونه متكلمًا واحدًا، والمتجلى له مختلف مقيد بالزمان والمكان. فظاهر كلامه هو باطن علمه، فالمكونات كلها كلام الله - تعالى - في مرتبة الظهور. وهي معلوماته في مرتبة الباطن، ونسبة الكلام إليه - تعالى -، مجهولة كسائر نسبه - تعالى -، ولا مشاركة بين كلامه - تعالى - وكلام غيره إلا في شيء واحد، وهو إيصال ما في نفس المتكلم إلى المخاطب فقط. وقوله - تعالى -: «ذكرته في ملاء خير منهم» احتج به شيخنا محيي الدين، على تفضيل الملائكة على البشر، وقال: أخبره النبي - ﷺ - بهذا في الرؤيا. والمعول عليه عندي - إن كان لي عند - ما قاله شيخنا في كتاب «ما لا يعول عليه» الكشف الذي يعطي تفضيل البشر مطلقًا أو الملك مطلقًا لا يعول عليه، يريد للملك فضل من وجه واعتبار، وللنفس فضل من وجه واعتبار.

\* \* \*

(١) رواه مسلم: كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة، حديث رقم (٣٨ - ٣٩٥).

## الموقف التاسع والعشرون بعد المائة

قال تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ [إبراهيم: الآية ٣٤].

أي أعطاكم كل ما سألتموه. «فمن» للبيان لا للتبعيض، والمراد سؤال الاستعداد، سواء كان سؤال الاستعداد قبل إيجادكم العيني، كما هو في خلق السموات والأرض، وما عطف عليهما من العطايا المتقدمة في الآية، فإنها كلها مخلوقة لمصلحة الإنسان، الذي سيوجد لطلبه لها باستعداده قبل إيجادها، أو كان سؤال الاستعداد، بعد إيجادكم العيني، كسائر الأشياء التي تطلبها الاستعدادات الإنسانية، في الدنيا والبرزخ والآخرة، مع تباين الاستعدادات التباين الذي لا يدخل تحت الحصر، فسؤال الاستعداد - أي استعداد - كان مقبولاً مجاباً ولا بد، سواء قارن سؤال اللسان أم لا، وسؤال اللسان، إذا لم يوافق الاستعداد مردود ولا بد، لكن إذا كان قصد السائل التبعّد بسؤاله، وإظهار الفاقة، كما هو الحكمة في مشروعية الدعاء؛ يجاب بالحسنات وتكفير السيئات، لا بعين ما سأل. والاستعداد المذكور؛ هو ما تقتضيه الحقائق، أي حقيقة كانت، اقتضاء ذاتياً ولزوماً بيئياً، فإن كل حقيقة؛ لها ذاتيات ولوازم، وتلك اللوازم لها لوازم. وهكذا كالسلسلة إلى ما لا نهاية له. والاستعدادات كلية وجزئية، فالكلية هي ذاتيات الحقائق، وهي غير مجعولة، والاستعدادات الجزئية مجعولة، ووصف الحق - تعالى - بأنه خلاق على الدوام إنما هو في الاستعدادات الجزئية، التي هي لوازم الحقائق، بحيث لا يتصور بعد الاطلاع على الحقائق انفكاك تلك الحقيقة، عمّا هي مستعدة له. كاستعداد الجوهر وسؤاله للعرض، لأن يقوم به. وسؤال العرض باستعداده للجوهر لأن يتقوم به، فكل ما حصل في العالم، أي شيء كان، ممّا يطلق عليه اسم شيء، فمن اقتضاء استعدادات الحقائق له. ولذا قال العارف، حجة الإسلام الغزالي - رضي الله عنه - في كتاب التوحيد ما معناه، «إن الله - عزّ وجلّ - لو خلق الخلق كلهم على عقل أعقلهم، وعلم أعلمهم، وأفاض عليهم في الحكمة ما لا منتهى لوضعه، ثم كشف لهم عن عواقب الأمور وعرفهم دقائق اللطف، وخفايا العقوبات، وأمرهم أن يدبروا الملك والملوك بما أعطوا من العلوم والحكم؛ لما اقتضى تدبيرهم أن يزداد فيما دبر الله به الخلق في الدنيا والآخرة جناح بعوضة ولا أن ينقص منه جناح بعوضة، ولا أن يدفع مرض أو نقص، أو فقر أو شر، عمّن يلي به، ولا أن يزال صحّة أو كمال أو غنى أو نفع عمّن أنعم عليه، فكل ما قسم الله بين عباده من رزق وأجل، وسرورة وحزن، وعجز

وقدرة، وإيمان وكفر، وطاعة ومعصية، فكله عدل محض لا جور فيه، وحق صرف لا ظلم فيه، بل هو على ما ينبغي وكما ينبغي، وبالقدر الذي ينبغي... إلى آخر ما قال في المسألة، يعني أنه - تعالى - ما أعطى ولا منع إلا بالعلم والحكمة، وذلك أنه أعطى كل مستعد ما استعد له، ومنع ما ليس بمستعد من غير استعداده، وهو اقتضاء الحقائق لما اقتضته من كل ما حصل لها ممَّا يلائم صورها، أو لا يلائم. فإنه إذا ما لائم صورها يلائم حقائقها، وقد ورد في الخبر: «إن من عبادي من لا يصلحه إلا الفقر. ولو أغنيته لأفسدته. وإن من عبادي من لا يصلحه إلا الغنى ولو أفقرته لأفسدته»<sup>(١)</sup>.

وبالاستعدادات غير المجعولة، المقتضية لكل ما أعطاهما الحق - تعالى -، كانت الحجة البالغة لله - تعالى - على مخلوقاته، فليس لمخلوق أن يقول بلسانه: يا رب لم جعلتني كذا؟ واستعداده الذي هو المقتضى الذاتي يطلبه، وإذا أمطنا الحجاب، ورفعنا النقاب؛ قلنا: ليس المقتضى إلا الأسماء الإلهية. فإن الحقائق الإمكانية صورها. وإذا زدناه أماطة ورفعنا قلنا: ليس المقتضى إلا الذات العلية. فإن الأسماء صورها ومراتب ظهوراتها. فافهم؛ وإذا فهمت فافتكم؛ فإنه بحر سرِّ القدر، والخوض فيه خطر؛ ولهذا قال أنصح النصحاء، وأفصح الفصحاء: «إذا ذكر القدر فامسكوا»<sup>(٢)</sup>.

الخطاب للضعفاء، الذين لا يحسنون السباحة. فربما تزندقوا وصاروا إلى الإباحة، أسأل الله - تعالى - العافية والسلامة لي ولإخواني، فإنه لا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون.

\* \* \*

### الموقف الثلاثون بعد المائة

قال تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِيَّةِ ۗ وَإِنَّا بِرُؤْسِكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزَعٌ قَاسِمٌ يَأْتِيهِ﴾ [الأعراف: الآية ١٩٩، ٢٠٠].

ورد في الخبر: أنه - ﷺ - سئل، عن معنى الآية، فقال: حتى أسأل جبريل. فسأل جبريل - عليه السلام - فقال: حتى أسأل رب العزة، فرجع جبريل فقال: يا محمد، إن الله يأمرك أن تصل من قطعك، وتعطي من حرمك، وتعفو عمن ظلمك، ولذا ورد أنه - ﷺ - قال: «أدبني ربي فأحسن تأديبي».

(١) رواه ابن أبي الدنيا في كتاب الأولياء، ١، الطبعة الأولى بمصر.

(٢) رواه السيوطي في الدر المنثور، ٣/٣٥، طبعة دار الفكر بيروت.



خَرَجَ السَّمْعَانِي . يريد هذه الآية وأمثالها . وأما ما تشير إليه الآية بطريق الاعتبار؛ فهو أنه - تعالى - أمر رسوله ﷺ - وكلُّ مَنْ قَوِيَ فِي مُتَابَعَتِهِ ، واقتفى أثره من كَمَلْ أُمَّتِهِ فَإِنَّ أَمْرَ اللَّهِ - تعالى - له أَمْرٌ لَأُمَّتِهِ ، ممن يناسبه ذلك الأمر إلا ما ثبت اختصاصه به دون أحد من أُمَّتِهِ . فأمره - تعالى - في حق نفسه : بالأخذ بالعفو ، أي بالزائد من العفو ، بمعنى الزيادة والكثرة ، فيأخذ نفسه بالزائد على ما يحصل به الأجزاء وتسقط به المطالبة ، وهو الأكمل والأحسن والأفضل ، فلا ينحط إلى رتبة الحسن دون الأحسن ، ولا إلى الكامل دون الأكمل ، ولا إلى الفاضل دون الأفضل ، بل أمره - ﷺ - بمعالي الأمور وعزائم الأحكام ، كما أمر أن يدفع بالتي هي أحسن ، ويجادل بالتي هي أحسن ، وأمر هو - ﷺ - والكاملون من أُمَّتِهِ باتباع أحسن ما أنزل إليهم من ربهم قال تعالى : ﴿ وَأَتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ [الزمر : الآية ٥٥] .

والأمر بالشئ، نهى عن ضده، فلا ينحطوا إلى الرخص، التي هي مراتب الضعفاء فيحصلون على الأجزاء، دون الأفضليَّة والأكمليَّة .

والأمر بالمعروف تصريح بما يفهم من قوله : «أخذ العفو» .

فإنه حيث أمر في نفسه بالأكمل الأفضل ، يفهم منه : أن الأمر لغيره ؛ لا يكون كذلك ، بل أمره لغيره ؛ يكون بالعرف ، بمعنى ما هو حسن شرعاً و عرفاً ، يحصل به الأجزاء ، وينتهي به الذم ، وتسقط المطالبة . فلا يأمره بما يشق عليهم ممَّا تمتنع منه نفوس العامة ، وهذا للضعفاء ذوي الهمم المدنيَّة ، الراضين بالأدون . وقد ثبت في غير ما خبر : أنه - ﷺ - كان يأمر عامة الناس بالأسهل والأهون ، ويقول بعثت بالحنيفيَّة السميحة السهلة . ويأخذ نفسه بالأفضل الأشق . فقد قام حتى تورمت قدماءه . وقال لغيره : «قم ونم» وشدَّ الحجر على بطنه من الجوع ، وأذن لغيره في الأذخار . وكان يواصل وينهي غيره عن الوصال .

و«أعرض عن الجاهلين» أمر له - ﷺ - ولمن اقتفى أثره ، في الأخذ بالعزائم وركوب المشاق في طلب الأفضل والأكمل ، بالأعراض عن الجاهلين ، من الأناسي الذين يعدلونهم في طريقهم ، فيقولون مثلاً : أرفق بنفسك ، قد شددت ، قد أفرطت . . . والأعراض عنهم أن يولَّوهم عرض وجوههم فلا يواجهوهم لا بفعل ، ولا بقول ، ولا بجدال ، ولا غيره . وهذا شائع مشاهد ، فكلُّ مَنْ اتبع سنة رسول الله - ﷺ - واقتفى أثره في أحواله كالسادة الصوفية ، كثر عاذله ، وعدم عاذره . بل تقام عليه

القيامة بكلّ معتبة وملامة، ومن ذاق ثمرات تلك الطريق، وأنس بذلك الفريق؛ لا يرده رادٌ ولا يصرفه صارفٌ.

﴿وَأَمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ﴾ [الأعراف: الآية ٢٠٠].

الخطاب له - ﷺ - والمراد؛ من اقتفى أثره من كمل اتباعه لعصمته - ﷺ - من نزع الشيطان. أي إذا أحسستم بوسوسة الشيطان وإفساده طريقكم بتزيينه لكم اتباع الرخص، والنزول من الرتب العلية إلى ما دونها من الرتب الدنية، ووجدتم في الهمة فتورًا، وفي العزم تردداً.

﴿فَأَسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ [الأعراف: الآية ٢٠٠].

تحصن بالله من نزغه وإفساده، وصمّم على طريقك المثلى، ولا تستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير، وأعلى. والله - تعالى - بفضله كافيك شره، وحاميك ضره.

\*\*\*

### الموقف الواحد والثلاثون بعد المائة

قال تعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا اللَّهَ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: الآية ١٧٥].

الخوف نوعان خوف من الله - تعالى -، وهو خوف الإجلال والتعظيم والهيبة كما قيل، كأنما الطير منه فوق رؤوسهم. لا خوف ظلم، ولكن خوف إجلال، وهو خوف العارفين الموحدين بالتوحيد الحقيقي على مراتبهم في رسول ونبي وملك وولي. وهو المأمور به في الآية. فهو توحيد خاص لأن من عرفه - تعالى -؛ عرف أنه لا يخاف إلا هو - تعالى - إذ كل شيء في الدنيا والآخرة إنما هو تجلٍ من تجلياته وظهور من ظهوراته، فهم لا يخافون إلا الله، ولا يتقون إلا الله، واتقواهم الله؛ إنما هو بالله - تعالى - لا بشيء آخر. وهذه الوقاية هي النافعة لا غيرها، إذ لا يتقى شيء إلا بنفسه كالسيف من الحديد والسنان، والنصل والسكين، لا تتقى إلا بالدروع من الحديد، كما قال - تعالى - في عدة آيات، اتقوا الله، أي لا غيره من سائر مخلوقاته، وقال في معرض المدح: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَئِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: الآية ٢٠١].

أي الذين اتقوا الله بالله. ولهذه النكته حذف المتقى منه والمتمقى به في الآية، بمعنى الذين كانوا بهذه الصفة، إذا أحسوا بخاطر شيطاني، مرّ بهم مرور الطيف، والسارق المختلس، تذكروا. إذ من المحال أن يوسوس لذاكر حاضر حالة حضوره،

أي استحضروا الحق - تعالى -، الذي هم متقون منه وبه، كما قال - ﷺ - أعوذ بك منك، وفي المحسوس: كلُّ مَنْ أَحْسَ بعدُوَّ استحضر عدته وسلاحه الذي يَنْقِي به ذلك العدو.

﴿فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: الآية ٢٠١].

مشاهدون للحق الذي منه وبه اتقاؤهم، فأنحاشوا إليه، وتركلوا عليه، فغيبتهم تلك المشاهدة عن الشيطان وكيده، فانقلب خاسئاً نادماً حيث قصد خسارتهم. فربحوا بسببه استحضارهم وأنحاشهم إليه - تعالى -.

والنوع الثاني خوف من مخلوقات الله - تعالى -، كالخوف من أعداء الإنس والجن، ومن جهنم وما فيها من الحيات والعقارب والأشياء المؤلمة، ومن الذنوب والمعاصي ونحو ذلك من المخلوقات، وهذا الخوف ليس فيه هيبة ولا إجلال، إذ ليس في الخوف من العقرب والحية ونحو ذلك إجلال، وهذا هو خوف عامة المؤمنين من العباد والزهاد والصالحين، الذين ما انتشع عن بصائرهم حجاب الغيرية، فلا زالت قلوبهم مشحونة بالأغيار، فهم يخافون غير الله من كل شيء، جعله الحق - تعالى - مظهرًا للضرِّ والشرِّ صورة، ويتقون ما يخافون بمخلوقات مثلها فيتقون الأعداء بالحصون والسلاح. ويتقون جهنم وحياتها وآلامها بالنوبة والطاعات والأعمال الصالحات، التي هي عندهم. أفعالهم صادرة منهم. فهم يصومون ويصلُّون ويحججون ويتصدقون بأنفسهم لا برئهم، وهذه الوقاية غير نافعة، والاتكال عليها غرر محض وخسران بين:

﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: الآية ١٧٥].

أي إذا كنتم في مقام الفرق الأول، وكثافة الحجاب؛ مؤمنين إيمان العامة، تشهدون حقًا وخلقًا. مباينًا للحق - تعالى -، قائمًا بوجود حادث غير وجود الحق - تعالى - القديم؛ فيلزكم حينئذ لتصحیح إيمانكم العامي، الخوف منِّي دون الخلق؛ فإن الخلق لا يضر ولا ينفع، فلا يخاف ولا يرحى. ومفهومه: إذا لم تكونوا مؤمنين، بل كنتم معانين مشاهدين، وحينئذ لا يصحُّ عليكم إطلاق المؤمنين فيما عايينتموه إلا بالمجاز، من حيث أن الإيمان تصديق الغير، وأنتم جاوزتم هذه الرتبة إلى المعانئة، ومشاهدة سريان الوجود الحق في كل موجود، يخاف أم لا، من غير حلول ولا اتحاد، فخافوهم، أي خافون فيهم، فإنهم مظاهر أسمائي، وتعينات تجلِّياتي، إذ لكل مخلوق وجه هو مؤثر بذلك الوجه الإلهي لا بصورته

المحسوسة، فلذا يقول المحقق، الذي هو فوق العارف: المسببات تتكوّن عند الأسباب، وبالأسباب، فإذا رأيت عارفاً بالله يخاف ملكاً، أو ظالماً، أو سبعاً، أو حيّة؛ فليس خوفه من صورته المخلوقة المقدرة العدميّة، وإنما خوفه ممّا هي مظهر وصورة له، وهي أسماء الضرّ والانتقام والقهر، فبين خوف العمّة وخوف العارفين؛ فرق ما بين الأعمى والبصير.

\* \* \*

## الموقف الثاني والثلاثون بعد المائة

قال تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ [الخدید: الآیة ٤].

اعلم أن «الهُوَ» في أصل الوضع اللساني كناية عن غائب، يمكن أن يصير شهادة يوماً ما في حال ما، وأمّا هنا فهو كناية عن البطون الذاتي، الذي يستحيل أن يصير شهادة لمخلوق ما، وفي حال ما دنيا وآخرة. فهو الغيب المطلق، الذي لا يشار إليه بإشارة. إذ كلُّ مشار إليه ذو جهة. ولا يعبر عنه بعبارة تقبّده أو تميّزه، أو تحصره. ومع هذا فكلُّ مشار إليه هو. وكلُّ معبر عنه هو. فهو الغيب الشهادة. والمعنى في أصل الوضع اللساني؛ تطلق على مصاحبة شيتين مستقلّين بالوجودية، كزيد مع عمرو، ولا تطلق على الجوهر والعرض، إذ العرض لا استقلال له بالوجودية، لأن قيامه بالجوهر؛ صفة نفسية له، فحدّه، ما لو وجد؛ لكان في موضوع. فلا يقال زيد مع البياض ولا مع الحركة. كذا، لا يقال: علم زيد معه. والمعنى هنا معية وجود مع عدم، فالوجود ليس إلا الله - تعالى -، أصدق كلمة قالها الشاعر<sup>(١)</sup>:

أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللَّهَ بَاطِلٌ

والباطل عدم. وإن كان ما سوى الحقّ يوصف بالوجود فهو مجاز. فإنه وجود خيالي. فليس الوجود الحقيقي. إلا له - تعالى -، وكل ما سواه يصح نفي الوجود عنه، كما هو حقيقة النسب المجازية. فلولا معية الحق - تعالى - بذاته، التي هي عين وجود؛ ما صحّ نسبة مخلوق إلى الوجود، ولا وقع عليه إدراك حسي ولا خيالي، ولا عقلي. فمعيته تعالى؛ هي الحافظة على الموجودات نسبة الوجود، بل هي عين وجوداتها. وهذه المعية عامة لكل موجود من جليل وحقير، وكبير وصغير، فهي

(١) هو لبيد بن ربيعة العامري وانظر شرح شواهد المعنى للسيوطي ص ١٥٠ و ١٥٣ و ١٥٤ طبعة

القيوميّة التي قام بها كل شيء، وهي محض الوجود الذي به كل شيء موجود، فمعينته إبدأ بذاته وهي المعبر عنها بالهويّة السارية من غير سريان ولا حلول، ولا اتحاد، ولا امتزاج، ولا انحلال، لأن هذه المذكورات تقال على وجودين، كما هو عند العموم. وليس عندنا إلا وجود واحد قديم منزّه عن قيام الحوادث به وقيامه بالحوادث، ومن قال معيّته - تعالى - بعلمه، كما هو الرأي المشهور عند الجمهور؛ فإن أرادوا بذلك تنزيه الذات عن معيّة المخلوقات، فمعلوم أن ما ثبت في النزاهة للذات؛ هو ثابت للصفات. وإن أرادوا أن الذات حقيقة أحدية لا تتجزأ ولا تتبعّض، والموجودات متعددة؛ فكذلك العلم حقيقة واحدة لا يتجزأ ولا يتبعّض. والذي يزعم العلم، مع جهله بما به يعلم؛ فهو بالمعلوم أجهل، وإذا سمعت من عارف، أو رأيت في كلامه؛ أن معيّته - تعالى - بالعلم؛ فلا يعنون العلم الذي يعنيه المتكلمون، وإنما يعنون شيئاً آخر، فيبهمون الأمر على المخالف المشغب. قال شيخ العارفين محيي الدين: القول بأن معيته - تعالى - مع كل شيء، بالعلم أقرب إلى الأدب، والقول بأن معيته بالذات؛ أقرب إلى التحقيق. يريد بالأدب عند المحجوب وعلى زعمه، أو أعمّ من حيث أنه ليس كل حقّ يقال، ولا كل ما يعلم يقال، وهذه المعيّة. هي مثل قوله:

﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [سبأ: الآية ٤٧].

وقوله: ﴿وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ﴾ [البُرُوج: الآية ٢٠].

وقوله: ﴿فَأَيْنَمَا تُولَؤُوا فَتَمَّ وَجْهَ اللَّهِ﴾ [البقرة: الآية ١١٥].

أي ذاته. إذ الوجه عبارة عن الذات، ولفظ الآية؛ يؤكد ما قلنا ويرفع احتمال غيره كما في قولك: جاء زيد نفسه، وجهه، عينه. وله - تعالى - معيّة خاصّة بخاصّة العامة، وهي معيّة الإمداد بمكارم الأوصاف وجميل الأخلاق، كقوله تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ [التحل: الآية ١٢٨].

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [البقرة: الآية ١٥٣].

وقوله - ﷻ -: «إن الله مع القاضي ما لم يجره». أو كمال قال.

ونحو ذلك مما ورد في الأخبار الإلهية والنبويّة، وما هي إلا ظهور بعض كمالات الوجود في البعض دون البعض، وله - تعالى - أيضاً معيّة خاصّة بخاصّة الخاصة، وهي للرسل والأنبياء ومن كان من ورثتهم - صلى الله عليهم أجمعين - وليست إلا غلبة أحكام الوجود والوجوب والقدم، على أحكام الإمكان، من حدوث

وعدم، كقوله - تعالى - لموسى وهارون: ﴿إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ [طه: الآية ٤٦].

أي أسمع بكما وأرى بكما، لأن معيَّتي غلبت عليكما. فإنما أنا لا أنتما؛ إلا من حيث الصورة فقط. وهذا المقام معروف عند القوم - رضوان الله عليهم - بقرب الفرائض، فهو ظهور الرب وبطون العبد، وصاحب هذا المقام إذا نودي بيا فلان؛ يقول الحق نيابة عنه: لبيك. وهو أعلى من قرب النوافل. فإن صاحب هذا المقام، إذا نادى مناد وقال: يا الله، يقول هذا العبد: لبيك، نيابة عن الحق - تعالى - ومعية الحق - تعالى - مع كل شيء ثابتة. وليس معه تعالى شيء، لأن معيَّته ثابتة بالنص، ومعية كل شيء معه ضمناً. إذ من كان معك فأنت معه. ومع هذا لا نقول: إنا معه، فإنه ما ورد.

\* \* \*

### الموقف الثالث والثلاثون بعد المائة

ورد في الصحيح، أنه - ﷺ - قال: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده. فإن لم يستطع فبلسانه. فإن لم يستطع فبقلبه، وهو أضعف الإيمان»<sup>(١)</sup>.

اعلم أن التغيير باليد؛ هو للسلطان والحكام، الذين جعل لهم ذلك. والتغيير باللسان هو للعلماء، الذين عرفوا بالعلم والتظاهر به بين العوام. والتغيير بالقلب؛ هو لعامة المؤمنين العارفين بالمنكر. وهو أن يكره بقلبه هذا الفعل أو القول المنكر في الدين. فإن هذا من إيمانه بما جاء به محمد - ﷺ -، وأما من لم يكن في هذه الطوائف الثلاثة، وهو المشاهد للفاعل الحقيقي؛ فإنه لا يلزمه ذلك. إذ في تغيير الحكام باليد، والعلماء باللسان؛ فائدة تعود على العموم، وعلى المتلبس بالمنكر، وأما التغيير بالقلب فلا فائدة فيه؛ إلا للمؤمن العامي، لتصحيح إيمانه، باعتقاد حرمة المنكر، حتى لا تميل إليه نفسه. حيث إن عدم التغيير بالقلب؛ ما هدم ركناً من الشريعة، ولا أباح محرماً. قال إمام العارفين محيي الدين، عندما تكلم على سر العدد: «إن كان الإنسان يحارب هوى نفسه؛ فليغلب الزوج على الفرد (يعني يغلب

(١) ورواه مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان كون التهي عن المنكر من الإيمان، حديث رقم (٧٨-٤٩).

ورواه أحمد في المسند عن أبي سعيد الخدري، حديث رقم (١١١٥٦). ورواه الترمذي في سنته،

كتاب الفتن، باب ما جاء في تغيير المنكر باليد أو باللسان أو بالقلب، حديث رقم (٢١٧٢).



شهود رب وعبد، على الفرد، الذي هو شهود رب فقط (وإن كان يحارب هوى غيره؛ فيغلب حكم الفرد، على حكم الزوج) يعني شهود رب فقط إظهارًا للتوحيد وقال بعض العارفين: من نظر للعصاة بنظر الشريعة مقتهم، ومن نظر إليهم بعين الحقيقة عذرهم، فإن من حصل على التوحيد الخاص وعلم قوله تعالى:

﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصفات: الآية ٩٦].

وقوله: ﴿لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا﴾ [البقرة: الآية ٢٦٤].

وقوله: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ [الأنفال: الآية ١٧].

وقوله: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الإنسان: الآية ٣٠].

وقوله: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: الآية ٥٤].

وقوله: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ [النساء: الآية ٧٨].

وغير ذلك مما يدل على انفراد الحق - تعالى - بالفعل، علم ذوق وشهود، لا تخييل ولا تخمين، علم أن المخلوقات ظروف لما يخلقه الله - تعالى - فيها من الأفعال والأقوال والنيات ليس لها من الأمر شيء. وإن كانت مخاطبة مكلفة مأمورة. وحينئذ لا يغار الله ولا لنفسه؛ إلا أن يكون من ذوي السلطنة والحكم، أو من العلماء المتظاهرين بالعلم عند العوام، أو من عامة المؤمنين، فيغير اتباعًا وامتنالاً لأمر الشارع، لما علمه المشرع من المصلحة في ذلك، فإن لم يكن واحدًا من الثلاثة؛ فتغييره إثبات للشركة في الفعل ونفي للتوحيد، فإن التوحيد يمنع من تغيير القلب، فإنه إنكار الفعل على الفاعل. وما ثم من يغير عليه لأحدية العين الفاعلة لجميع الأفعال المنسوبة إلى العالم. فلو كان هناك فاعل غير الحق - تعالى -؛ لم يكن توحيدًا، إذ موجب التغيير بالقلب؛ إنما هو الفعل. ولا فاعل إلا الله - تعالى -، وهذه المسألة من أشكال المسائل عند القوم - رضوان الله عليهم - ولكن العارف الأديب؛ يعرف المواطن والأحوال، وما يستحقه كل، فيوفي كل موطن ووقت ما يقتضيه.

\*\*\*

### الموقف الرابع والثلاثون بعد المائة

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُمُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ [١٥] ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿١٦﴾ [الفرقان:

الآيتان ٤٥، ٤٦].

للحق - تعالى - ثلاثة ظلال: الظل الأول؛ هو الوجود الإضافي المسمّى بنفس الرحمن، والتعین الأول، والوحدة المطلقة، والحقيقة المحمّدية، وهو ظل مجمل غير مفصل، والظل الثاني؛ هو المسمّى بالتعین الثاني، وبمرتبة الواحدية والإنسان الكامل؛ وهذا الظلّ مفصلٌ تفصيلاً معنوياً علمياً. والظل الثالث؛ هو العالم كلّ ملكه وملكوته، المسمّى بالصور الخارجية والأعيان المفصّلة وبالوجود الخارجي. فهي ثلاثة ظلال في مقام الفرق، وظلّ واحد في مقام الجمع. بل ولا ظلّ أصلاً بالنسبة إلى الوجود كما قيل:

مراتب بالوجود صارت      حقائق الغيب والعيان  
وليس غير الوجود فيها      بظاهر، والجميع فان

فالظلّ الأول ظل الذات. والظل الثاني ظلّ الأسماء والصفات، باعتبار الذات. والظلّ الثالث ظلّ الصفات والأسماء لا باعتبار الذات، فافهم أو سلّم. وامتداد الظلّ هو تعيينه وتميزه تمييز المقيد عن المطلق. وليس للمقيد حقيقة مغايرة للمطلق، والامتياز والتعین، أمور عدمية في الخارج كسائر النسب، ولو شاء لجعله ساكنًا باطنًا في الذات، غير متميّز عنها التميز النسبي لا الحقيقي، إذ ليس الظلّ وجود مغاير لوجود ما امتدّ عنه، والقضية الشرطية لا تقتضي الوقوع ولا الإمكان، كما قال تعالى:

﴿وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: الآية ٢٩].

ومحال أن يقول الملك إنني إله، وقال: ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَأَصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ [الزمر: الآية ٤].

أي لتبشّاه، وقال: ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَأَتَّخِذْتَهُ مِنْ دُونِنَا إِنْ كُنَّا فَعَلِينَ﴾ [الأنبياء: الآية ١٧].

وكل هذا محال. فلا تتعلّق به مشيئته - تعالى -، إذ لا يشاء إلا ما علم قبوله للإيجاد، وما علم - تعالى - للمحال قبول إيجاده فلا يشاءه، فلا تتعلّق به قدرته، لأن اسمه - تعالى - الحكيم، فيعطي كلّ مستعد استعداد، وليس للمحال استعداد قبول الوجود، لا عجزاً؛ فإنه على كل شيء قدير، فلا يقال: إنه عاجز عن المحال، فالمراد من قوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلْنَاهُمْ سَاكِنِينَ﴾ [الفرقان: الآية ٤٥].

نفى الإيجاب الذاتي، والعلية التي قالت بها طائفة من العقلاء، وإثبات الاختيار المعروف عند العموم، فلا يمكن أن لا يمدّ الظل بأن يقيه باطنًا ساكنًا في

العدم والعلم. بل لا يكون إلا مدّه وإيجاده. لا لكون الذات العلية علّة، كما قالت الحكماء، ولا لسبق العلم، كما قالت الأشاعرة، لأن العلم صفة انكشاف ما هو صفة اقتضاء، ولكن لاقتضاء الأسماء والصفات الإلهية ظهورها بآثارها. وهو المسمّى بالكمال الأسماوي. لأن للوجود الحق كمالين: كمال ذاتي، وهو في هذا الكمال غني عن العالمين، وعن أسمائه وصفاته أيضًا. وكمال أسمائي، وهو المقتضي لظهور الأسماء والصفات بآثارها. فالمقتضي هي الأسماء والصفات المؤثرة لا غير.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ [الفرقان: الآية ٤٥].

علامة منصوبة لمعرفة أحوال هذا الظلّ المذكور. فإن الدليل قد يراؤ به العلامة المنصوبة لمعرفة المدلول، ولهذا يسمى الدخان دليلًا على النار. فكما أنه في الحسن، لولا نور الشمس ما ظهرت للشخوص ظلال، فكذلك هذا الظل، لولا الذات من حيث اسمه - تعالى - النور ما ظهر لهذا الظلّ عين، وكما أنه في الحسن، لولا الشاخص الذي يرسم الظلّ ما ظهر للظلّ عين، فكذلك هنا. لولا مرتبة الصفات والأسماء ما ظهر هذا الظل، وكما أنه في الحسن لا بدّ من محلّ يمتد عليه الظل كالأرض والماء، فكذلك هذا الظل. لولا الأعيان الثابتة في العلم والعدم ما ظهر هذا الظل، وكما أنه في الحسن. قرب غروب الشمس تظهر للشخوص ظلال ممتدة لا نهاية لها، فكذلك هذا الظلّ لا نهاية لامتداده، بحسب ما يمتدّ عنه، من أحوال كلّ عين من الأعيان. وقس على ما ذكرت ما لم أذكر:

﴿ثُمَّ قَبَضْتَهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾ [الفرقان: الآية ٤٦].

قبضه: هو ما يلحق كلّ عين عند نهاية أمدها المقدر لها من عدم صورتها، فقبض الظل، هو رجوعه إلى ما امتد عنه، فيصير إلى العلم بعد العين، أعني صورته، وأما حقيقته وجوهره فلا يلحقها عدم أصلًا بعد الوجود، وهذا القبض هو معنى قوله: ﴿وَالَيْهِ رُجِعُ الْأُمُورُ كُلُّهُ﴾ [هود: الآية ١٢٣].

وقوله: ﴿إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الغنكوت: الآية ٥٧].

وقوله: ﴿أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾ [الشورى: الآية ٥٣].

وقوله: ﴿وَالَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾ [الغنكوت: الآية ٢١]. ونحو ذلك.

ويصُخُّ ثم قبضناه، أي الظل، بعد أن مددناه، قبضاً دفعياً في نظر بعض المخلوقين، كالأرواح، ومن شاء الله، أي جعلناه غير مشهود لهم، مستقلاً من أول فطرتهم. وقبضناه قبضاً تدريجياً لا بعد حال، كما هو حال بني آدم. فإن الظل إنما ينقبض في شهودهم بعد امتداده شيئاً فشيئاً، وهو الانسلاخ من التعيينات الخيالية العدمية، إلى أن لا يبقى من الظل شيء في شهودهم. فيبقى السرُّ الإلهي، وهو الذي يشهد الله من كلِّ مشاهد. فما يشهد الله إلا الله، ولا يعرف الله إلا الله.

\*\*\*

### الموقف الخامس والثلاثون بعد المائة

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْعَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ ظَهْرَهُ وَبَاطِنَهُ﴾ [لقمان: الآية ٢٠].

اعلم أن نعم الله - تعالى - على عباده عامة وخاصّة، وخاصّة بالخاصّة، فهي أنواع ثلاثة دنيوية محضة، وأخراوية محضة، وممتزجة. فالدنيوية هي قوله: سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ من ملك وفلك وريح وسحاب ومعدن ونبات وحيوان. فالعرش وما حوى ساع فيما يتنعم به الإنسان في دنياه. هي قوله:

﴿وَأَسْعَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ ظَهْرَهُ﴾ [لقمان: الآية ٢٠].

أي جعل نعمه عليكم سابغة، وافرة ظاهرة، بإرسال الرسل وإنزال الوحي الجبرائيلي بالشرائع والأحكام، التي هي وظائف الأعضاء والقوى الظاهرة وحليتها الموجبة للسعادة الدائمة والنعيم الأبدي بالتمتع بالجنان وبما فيها من القصور العالية، والحدور الغالية، وكل ما تشتهي النفس وتلذ الأعين، ظاهر لظاهر، وهذه النعمة خاصة باتباع الرسل - عليهم الصلاة والسلام - وهي أخراوية محضة، وعليه؛ فالآية صريحة في أنه - تعالى - لا يجب عليه إرسال الرسل ولا الصّالِح، والأصلح كما قالت المعتزلة، بل هو متفضّل بذلك، إذ لو وجب عليه شيء من ذلك ما أمتنّ به ولا تمدّح به - تعالى -، لأن أداء الواجب؛ لا امتنان ولا تمدّح به.

﴿وَبَاطِنَهُ﴾ [لقمان: الآية ٢٠].

فهذه هي النعمة الممتزجة بالدنيا والآخرة، وهي بإرسال رسل الإلهام بالعلوم الدنية، والمعارف الكشفيّة، والحقائق الغيبية، إلى قلوب ورثة الأنبياء، وهم العلماء العارِفون المتحقّقون بالافتداء بالأنبياء، - صلوات الله وسلامه عليهم - في أفعالهم

وأحوالهم، فتتحلّى بها أرواحكم، وقلوبكم، ونفوسكم، كما تزينت ظواهركم بالوظائف الشرعية الظاهرة، وهذه العلوم والمعارف توجب السعادة الروحية والقلبية، ودوام التلذذ بشهود الجمال الحقيقي والتمتع بشهود التجليات المتنوعة باطن لباطن، وهذه النعمة في الدنيا والآخرة لمن أنعم الله عليهم بها، فهي نعمة خاصة بخواص عباد الله، وقد جعل الله - تعالى - بين ظاهر الإنسان وباطنه اتصالاً معنوياً غيبياً، فإذا قامت الأعضاء الظاهرة بما كُلفت به من الطاعات على وجهها المشروع، وتحلّت بالأعمال الصالحات انعكس من تلك الأعمال نور إلى القوى الباطنة، فتقوت أنوار الباطن، وإذا قامت القوى الباطنة بوظائفها من المراقبة والحضور والآداب المطلوبة منها؛ انعكس من ذلك نور إلى الأعضاء الظاهرة فاستحلّت ظواهر الطاعات، واستلانت مشقّة العبادات، ودأبت على نوافل الخيرات، فصار كلُّ واحد منهما للآخر سنداً، وعضداً ممدداً.

\* \* \*

### الموقف السادس والثلاثون بعد المائة

رُوي في صحيح البخاري ومسلم - رضي الله عنهما - في حديث جبريل المشهور، أنه سأل رسول الله - ﷺ - عن الإسلام والإيمان والإحسان، فقال: ما الإحسان؟ فأجابته - عليه السلام -: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه. فإن لم تكن تراه؛ فإنه يراك».

فاعلم أن الإحسان مقام جليل. ولذا تكرّر في القرآن ذكره، والثناء على المتّصف به، كقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: الآية ١٩٥]، و﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا لِحُسْنِي﴾ [يونس: الآية ٢٦]. ونحو ذلك، وهو مشتمل على مقامات، وخصّ - ﷺ - هذين المقامين، لأنهما أساس لما بعدهما من المقامات، فقوله - ﷺ - أن تعبد الله... إلى آخره، يريد وجوب إيقاع العبادة على النحو المذكور بعد، كوجوب الإسلام والإيمان، فيجب السعي في تحصيل مقام الإحسان بتحصيل أسبابه، وتحصيله غير بعيد لمن أراد الله - تعالى - به خيراً، وذلك واجب بإجماع العارفين بالله - تعالى -، بل والفقهاء، من حيث أنهم مجمعون على وجوب النيّة. وهي القصد إلى العبادة، ولا شك أن العابد لا يعبد من لا يعرفه، ولو بوجه، وإذا عرفه استحضره على حسب معرفته. وذلك ضرب من الإحسان. ومقام الإحسان أشرف وأعلى من مقام الإيمان إلا من حيث التقدّم، فالإيمان أشرف، ومقام الإيمان أعلى وأشرف من مقام الإسلام،

على القول بتباينهما، فالإحسان باطن الإيمان ولُبُّه، والإيمان باطن الإسلام ولُبُّه، فالإحسان لبُّ الألب. وكما أن الإسلام لا يغني عن الإيمان، ولا يوجب السعادة؛ فكذلك الإيمان من غير إحسان، لا يوجب السعادة، أعني السعادة الخالصة. وقوله «كأنك»: «كأن» هنا هي للتحقيق كما هو الأمر عليه في نفسه، وكما ذاقه من ذاقه من أهل الكشف والعرفان. فهي هنا كما هي في قول الشاعر يرثي هاشمًا جدَّ النبي - ﷺ - (١):

فَأَصْبَحَ بَطْنُ مَكَّةَ مُفْشِعِرًا      كَأَنَّ الْأَرْضَ لَيْسَ بِهَا هِشَامُ  
ويصحُّ أن يكون جواب السائل. ثم بقوله: «أن تعبد الله كأنك تراه».  
وقوله: «فإن لم تكن تراه فإنه يراك».

زيادة منه - ﷺ - لبيان أن بعد هذه المرتبة ثلاث مراتب، أو قل إحدى مشاهدات الشهود: الأول؛ هو الذي وقع السؤال عنه، والجواب الثاني؛ أن يشهد العابد الحق - تعالى - جميع قواه التي يفعل بها، ويقول الثالث: أن يشهد العابد الحق - تعالى - فاعلاً به، فلا خروج لصاحب مقام الإحسان عن هذه الثلاث المشاهدات، الأولى، تعليم وتدرج، والثانية والثالثة هما حقيقة الأمر. فقوله: «اتراه» أصله ترى به. حذف الجار؛ فاتصل الضمير بالفعل، كما في قوله: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْتَهُ مَنَازِلَ﴾ [يس: الآية ٣٩].

أي قَدَّرْنَا لَهُ، وقوله: ﴿تَبْعُونَهَا عَوْجًا﴾ [آل عمران: الآية ٩٩].

أي عنها عوجًا. وهو أن يشهد العابد نفسه حال العبادة. بل وفي غيرها من سائر الأفعال والإدراكات، أنه بالله. بمعنى أنه يشهد الحق - تعالى - قدرته وسمعه وبصره، وجميع قواه وأعضائه الظاهرة والباطنة، فلا يرى فعلاً له ولا لغيره ولا إدراك إلاً بالله. فيكون العبد ظاهرًا، والحق باطنًا. وهذا المقام هو المسمى عند القوم - رضوان الله عليهم - بقرب النوافل، وهو ثابت ذوقًا ووجدانًا. ودليله من السنة، قوله - ﷺ - فيما يرويه عن ربه. وهو في الصحاح: «ما تقرب إليَّ عبدي بشيء أحب إليَّ

(١) المعروف أن هذا البيت للحارث بن خالد المخزومي في رثاء هشام بن المغيرة وهو من شواهد معني اللبيب الشاهد رقم ٣٤٣ ج ١ ص ٢١٠ ط دمشق تحقيق د. مازن مبارك. وانظر شرح شواهد المعني للسيوطي ص ٥١٥ الشاهد ٣٠٣ وح رقم ١ منه ط دمشق عام ١٩٦٦ وحاشية الأمير ١/١٦٣.



من أداء ما افترضته عليه. ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ولسانه الذي ينطق به... إلى آخر الحديث.

فذكر قوى العبد الباطنة، وأعضاءه الظاهرة. وصاحب هذا المقام ما تخلص بعد، ففيه بقية نفس هي الفاعلة بالحق - تعالى - والسمعية به، والبصيرة به، إلى آخر القوى والأعضاء، إذ لولا شهود نفسه ما جاء الضمير في قوله: سمعه، بصره، لسانه، فإن الضمير؛ لا يعود على لا شيء. قوله: «فإن لم تكن تراه فإنه يراك» هو تعريف للمقام الثالث من مقامات الإحسان، أي إن لم تكن لك نفس، ولم تبق فيك بقية، ولا لك مغايرة للوجود الحق، ولم تكن لك حقيقة ترى به كما في المقام الأول؛ فإنه يراك، أي يرى بك. حذف الجار، واتصل الضمير كما تقدم. وفي هذا المقام يشهد العابد نفسه وقواه الباطنة وأعضاءه الظاهرة، آلة الحق. والحق - تعالى - المصروف لها، المؤثر بها، فيسمع بسمع العبد، ويبصر ببصره، ويتكلم بلسانه، إلى آخر الإدراكات. فيكون الحق - تعالى - ظاهرًا، والعبد باطنًا. وهذا يسمّى بقرب الفرائض. ودليل هذا المقام بعد الذوق والوجدان، قوله تعالى: ﴿فَأَجْرُهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ﴾ [التوبة: الآية 6].

وما سمع هذا الأحد الكلام في ظاهر الأمر، إلا من صورة محمد - ﷺ - فالتكلم الله، بلسان محمد. وقوله: ﴿قَتَلُوهُمْ يَعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ [التوبة: الآية 14].

فالمعذب الله بأيدي الصحابة - رضي الله عنهم - وفي الصحيح: إن الله قال على لسان عبده: «سمع الله لمن حمده».

وقد أخبر الوارد: أن هذا المعنى لهذا الحديث. ما تقدم لأحد كتابته. والله أعلم.

\*\*\*

## الموقف السابع والثلاثون بعد المائة

قال تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ [الحديد: الآية 4].

الخطاب عام لكل مخلوق، ومعيته - تعالى - مع مخلوقاته ليست كمعية المخلوقات بعضها مع بعض، تعالى الله عن ذلك، وإنما هي معية وجوده الذي لا

يتعدّد ولا يتجزأ ولا يتبعّض، ولا ينفصل، ولا يتصل، المفاض على كل مخلوق من العرش إلى الذرة. فمثال هذه المعية - والله المثل الأعلى - كما ترى الصورة في المرأة، فالذات المتوجهة على المرأة؛ هي الحافظة الممدّدة بالبقاء، والوجود للصورة في المرأة، وليست الذات على الحقيقة غير الصورة في المرأة، وإن كانت غيراً بحسب الوهم، فله - تعالى - المعية كما قال، ولنا التبعية لا المعية، إذ الصورة في المرأة تابعة للذات المتوجهة على المرأة ولهذا تنعدم بمجرد الأعراض عن المرأة، فهو معنا إذ لا يمكن أن نكون ولا هو، ولسنا معه إذ كان ولا نحن، وما خاطبنا - تعالى - بأنه معنا إلا لكونه ثبت لنا عندنا وجود مغاير للوجود الحق، بحسب حسنا وعقلنا، لا في نفس الأمر، ولو خاطبنا - تعالى - بما هو الأمر عليه في نفسه لخاطبنا بغير هذا الخطاب. وأكثر ما ترد الخطابات الإلهية في الكتب المنزلة على السنة الرسل - عليهم الصلاة والسلام - بما تقرّر في عقول العامة وغلب على أوهامهم، إذ ليس في نفس الأمر والحقيقة إلا الوجود الظاهر بأحوال الممكنات، وهو المقوم لتلك الأحوال بمعينته، التي هي عين وجوده، الذي هو عين ذاته، وهي تابعة له تبعية العرض للجوهر. والله المثل الأعلى؛ فهو - تعالى - مع كل شيء لأنه وجود كل شيء، وحقيقته، وبه كان ذلك الشيء هو هو، وليس معه شيء. إذ ليس لشيء وجود غير وجوده - تعالى - على حسب ما هو الأمر عليه.

وأما بحسب الوضع اللساني، وبحسب اعتقاد من يعتقد أن لكل شيء وجوداً حادثاً به، ثبوته وحصوله وتحققه، غير الوجود الحق القديم، فمن كان معك فأنت معه لا محالة. وليس الأمر هكذا عندنا. فمعينته هي رحمته - تعالى - بكل شيء حيث يقول: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: الآية ١٥٦].

وما وسع كل شيء إلا الوجود والعلم اللذان هما عين الذات، ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً، وهي وجهه أينما نتولى، حيث يقول:

﴿فَأَيْنَمَا تُولُوا فَتَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ [البقرة: الآية ١١٥].

ووجه كل شيء ذاته. وهي قبوميته على كل شيء حيث يقول:

﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ﴾ [الزّعد: الآية ٣٣].

وهي علمه بكل شيء حيث يقول:

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [النساء: الآية ٣٢].

وهي حفظه لكل شيء حيث يقول:

﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيفٌ﴾ [هود: الآية ٥٧].

وهي شهادته على كل شيء، حيث يقول:

﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المجادلة: الآية ٦].

وهي إحاطته بكل شيء، حيث يقول:

﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا﴾ [النساء: الآية ١٢٦].

وهي قدرته على كل شيء، حيث يقول:

﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقَدِّرًا﴾ [الكهف: الآية ٤٥].

وهي خالقيته لكل شيء حيث يقول:

﴿اللَّهُ خَلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الرعد: الآية ١٦].

وهي وكالته على كل شيء، حيث يقول:

﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الأنعام: الآية ١٠٢].

وهي إقائته على كل شيء حيث يقول:

﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيمًا﴾ [النساء: الآية ٨٥].

وهي حسابه على كل شيء حيث يقول:

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾ [النساء: الآية ٨٦].

فمعنيته إذا بذاته الجامعة لصفاته، لا بصفة العلم، على المعنى الذي يعرفه علماء الرسم. ولو قالت به ألف فرقة. ولما كانت معية الحق - تعالى - لنا، بالمعنى الذي ذكرناه، وهو معنى وحدة الوجود، وأنه لا وجود إلا وجوده - تعالى -، ولا صفات إلا صفاته - تعالى -؛ كان الوجود المنسوب إلى المخلوق مجازاً، هو وجوده - تعالى - كما قال: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: الآية ١٧].

وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح:

الآية ١٠].

وكان العلم المنسوب إلى المخلوق علمه - تعالى - كما قال:

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: الآية ٢١٦].

وكانت الأفعال والقدر المنسوبة إلى المخلوق أفعاله - تعالى - كما قال:

﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصفوات: الآية ٩٦].

أي خلقكم وخلق أعمالكم وقال:

﴿لَا يَفْعَلُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا﴾ [البقرة: الآية ٢٦٤].

وكانت المشيئة المنسوبة إلى المخلوق مشيئته - تعالى - كما قال:

﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الإنسان: الآية ٣٠].

وكان السمع المنسوب إلى المخلوق والبصر سمعه - تعالى - وبصره كما قال:

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: الآية ١١].

إذ مفاد الآية يقتضي الحصر. أي كلُّ سميع بصير هو، وكان الحكم

المنسوب إلى الخلق حكمه - تعالى - كما قال: ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [الأنعام: الآية ٥٧].

فهو - تعالى - مع مخلوقاته بالوجود، وتوابع الوجود. وقد ورد في خبر: «كان الله ولا شيء معه»<sup>(١)</sup>.

أي كانت صفات الألوهية التي بها سمي إلهاً ثابتة له أولاً، حيث لا شيء معه من المخلوقين المألوهين، موصوف بالوجود وإن كانوا موصوفين بالثبوت. ولما كانت هذه العبارة يوهم ظاهرها: أنه صار معه - تعالى - بعد إيجاد المخلوقات شيء أدرج الراوي: «وهو الآن على ما عليه كان» دفعا لهذا التوهم، بمعنى أن معية شيء له - تعالى -، متتفية أولاً وأبداً، قبل نسبة الموجدية لشيء وبعدها، والذي حمل الراوي على هذا؛ هو فهمه أن «كان» ناقصة، والأصوب أنها تامة، وأنها للوجود، كما هي عند سيبويه. بمعنى الله وجود ولا شيء معه له وجود غير وجوده - تعالى - أولاً وأبداً، إذ المعية تقال على شيئين، كل واحد منهما له وجود غير وجود الآخر، وهذا الخبر تداوله أئمة القوم - رضوان الله عليهم - وقال الحفاظ: إنه غير ثابت في شيء

(١) أورده العجلوني في كشف الخفاء، حديث رقم (٢٠٠٩) طبعة دار الكتب العلمية - بيروت.

من كتب الحديث. والذي في صحيح البخاري: «كان الله، ولم يكن شيء غيره، وكان عرشه على الماء»<sup>(١)</sup>.

ولا يتوهم أن «كان» الأولى والثانية في هذا الخبر بمعنى واحد لأن «كان» يكون معناها بحسب مدخولها. «فكان» الأولى بمعنى الوجود أزلاً لا راحة للزمان فيها. فهي للوجود. و«كان» الثانية؛ بمعنى الكون بعد العدم، إذ العرش حادث مسبوق بالعدم، فهي للزمان، فمن علم المعية على ما قلنا علماً ذوقياً حالياً كان السيد الكامل. ومن علمها علماً خيالياً كان العالم الفاضل. ومن آمن وسلم كان المؤمن العاقل. ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

\* \* \*

### الموقف الثامن والثلاثون بعد المائة

قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُلَهِكُمُ ءَامُولُكُمْ وَلَا ءَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [المنافقون: الآية ٩].

امتنال النهي عن المنهي عنه يحصل بفعل الضد. إذا لا تكليف إلا بفعل، يقال: لها بالشيء، أحبه ورضي به. ولها عنه: أعرض. والمأمور في ضمن النهي صنفان من الناس: مؤمن محض، ومؤمن مجازاً، أو بالنظر إلى الأصل أو بالنظر إلى بعض ما وجب الإيمان به دون بعض، أي لا تنظروا إلى أموالكم وأولادكم نظراً يشغلكم عن ذكر الله، فتلهاوا وتعرضوا أو تنسوا. بل انظروا إليهم نظراً يكون ذكر الله - تعالى -.

فالمؤمن المحض منهى من مقام إيمانه. وهو أن ينظر إلى أمواله وأولاده وجميع ما أنعم الله به عليه، بذكر الله، بحمده وشكره. وأنه - تعالى - متفضل مثنان فيما أعطى، وأن أحداً لا يستحق على الله - تعالى - شيئاً مما أنعم.

والمؤمن مجازاً؛ منهى من مقام معرفته ومشاهدته، مأمور بأن يرى أمواله وأولاده وجميع ما أنعم الله به عليه، تجليات من تجليات الحق - تعالى - عليه، وظهورات من ظهوراته - تعالى - لديه، فيشاهد المنعم في النعمة، فهو لا يرى إلا الحق - تعالى -، ولا يلتذ إلا بالحق، فالأول يرى النعمة. والثاني يرى المنعم. أو

(١) كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في قول الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَدْعُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُمْ﴾ [الروم: الآية ٢٧]... حديث رقم (٣١٩١).

قل: الأول يرى الأثر، والثاني يرى المؤثر، أو قل: الأول يرى الاسم، والثاني يرى المسمى، أو قل: الأول، يذكره ذكر القلب واللسان، والثاني يذكره ذكر السر، فالأول النعمة في حقه شهوة طبيعية، والثاني النعمة في حقه لذة روحانية، فلا يلتذ إلا بالله، ولا يحب إلا الله في كل ما تجلّى له وظهر، وصاحب هذا الشهود لا يزهّد في شيء موجود، وكيف يزهّد في شيء يشهد فيه محبوبه، وطهارة القلب، إنما هي بالمراقبة والحضور، فالنعم واللذات كلها، إذا لم تحل بين القلب وبين مراقبته وحضوره مع الله - تعالى - لا تضر، والقلب باق على أصل طهارته، إذ المقصود من القلب حاضر، وحينئذ لا يبالي بالشهوات كانت ما كانت، بل ولو من حرام إذا كان معتقداً لحرمتها، فإنها لا تحجبه من حيث هي.

\* \* \*

### الموقف التاسع والثلاثون بعد المائة

قال تعالى: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: الآية ٦].

أل، في الصراط للعهد. والمعهود هو صراط الله الذي يُهدي إليه محمد - ﷺ - ويدعو إليه كما قال تعالى:

﴿وَأِنَّكَ لَنَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: الآية ٥٢].

صراط الله، وقال: ﴿وَأَنْ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام: الآية ١٥٣].

وقال: ﴿وَأِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [المؤمنون: الآية ٧٣].

وهو صراط ربّ هود - عليه السلام - حيث يقول: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [هود: الآية ٥٦].

وهو صراط ربّ جميع الأنبياء - عليهم السلام - ومن تبعهم من المنعم عليهم من الصالحين والصدّيقين والشهداء، كما قال:

﴿فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ﴾ [النساء: الآية ٦٩].

وهذا هو الصراط الذي أمرنا بطلب الهداية إليه في كل صلاة، وأما ما عدا صراط النبيين ومن تبعهم فتلك سبل، وهي سبل المغضوب عليهم والضالين. ولا يقال فيها: صراط، ولذا قال تعالى: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: الآية ٧].



وما قال: صراط المغضوب عليهم. وهي من وجه صراط الله من حيث جمعية الاسم الله، ولكنها غير مستقيمة، إذ جميع المخلوقات، إنما مشيها على سبل الأسماء الإلهية، وهي في قبضتها كما قال: ﴿مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِأَصْبِعِهَا﴾ [غورد: الآية ٥٦].

وصراط الله المستقيم هو الذي جاءت الكتب والرسول - عليهم السلام -، أمرة باتباعه والمشي عليه، ونهاية عن اتباع السبل والمشي عليها، قال:

﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السَّبِيلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: الآية ١٥٣].

ثبت في صحيح البخاري عن ابن مسعود - رضي الله عنه - أنه قال: «خط لنا رسول الله - ﷺ - يوماً خطاً، ثم خط خطوطاً صغاراً عن يمين الخط وشماله فقال: هذا صراط الله، وهذه سبل «على كل واحد منها شيطان يدعو إليه». غالباً، في صراطي ضمير المتكلم، وهو الله - تعالى -، فالصراط المستقيم مظهر الاسم الجامع، وهو الله، والسبل مظاهر جزئيات الأسماء الإلهية. فكل سبيل هو سبيل الله، من حيث الحقيقة. وإن تعددت وتكثرت كثرة لا يحيط بها إلا هو - تعالى -، لأنه ليس في نفس الأمر إلا أسماؤه - تعالى -، هي الداعية للخلق، وهي سبله المضلّة، كما قال: ﴿يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ﴾ [الزهد: الآية ٢٧].

وقال حكاية عن رسوله موسى - ﷺ -: ﴿إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ﴾ [الأعراف: الآية ١٥٥].

وهي مظاهر المضلّ وجزئياته، كما أن صراط الله، الذي هو الصراط المستقيم؛ هو مظهر أسمائه الجمالية، اسمه الهادي، وجزئياته والكل راجع إلى الاسم «الله» وإنما خص صراط المنعم عليهم بتسميته بصراط الله، تشریفاً لهم بالنسبة إلى الاسم الجامع، ولأن غايته الوصول إلى الرحمة المحضة، واسمه الرحمن، مثل الاسم «الله» من حيث أن كلاً منهما له الأسماء الحسنی، وعلى هذا؛ فكل كافر عاصي مخالف ماش على غير طريق الله المستقيم، من حيث الأمر الشرعي التكليفي الوضعي، فهو مطيع موافق، ماش على صراط الله من حيث الأمر الإرادي. فما في نفس الأمر إلا مطيع غير أن من كان محتده وربّه المتوجّه عليه أولاً من أسماء الجمال والهدى؛ كان خيراً سعيداً بالذات، وإن عرضت له عوارض في طريقه ضدّ السعادة والخير. فإنها تزول. والنهائية لا تكون إلا عين البداية،

ولا بدّ، وما بالذات لا يزول، والعوارض أحوال تحول، والعكس بالعكس، ما يبدل القول لديه، وما هو بظلام للعبيد.

\* \* \*

### الموقف الأربعون بعد المائة

قال تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِنُخْرِجَكَ وَيُشْعِبُوا الَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرِيْنًا أَوْ لَتَعُوْدُنَّ فِي مِلَّتِكَ﴾ [الأعراف: الآية ٨٨].

قبل لي في الواقعة: ليس المراد من حكاية هذا الكلام عن الذين كفروا بشعيب - عليه السلام - وعن شعيب أنه - عليه السلام - كان معتقداً لعقيدتهم، متبعاً لمثلهم قبل نبوته، ثم خالفهم بعد النبوة، حاشاً وكلاً؛ فإن الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - مهتدون إلى الحق من أول نشأتهم، مفطورون على محبة الحق وبغض الباطل، ففي أول حصول التمييز لهم، وإدراك الضروريات التي يدركها جميع بني آدم تحصل لهم علوم التوحيد، والمعرفة بالله ضرورة كسائر الضروريات، ولا ينكر حصول العلوم الضرورية إلا من فاتته علوم التجليات. فما ذاقها ولا سلك طريقها، فليس علمهم - عليهم السلام - بالله - تعالى - من طريق قظر عقلي، ولا ببرهان خفي ولا جلي. وما ورد عنهم ممّا يوهم الاستدلال العقلي، كقول إبراهيم - عليه السلام -: هذا ربي، هذا أكبر، ونحو ذلك. فالمراد منه غير الاستدلال المعروف. والمقصود منه شيء آخر، عرفه العارفون بأحوال الأنبياء - عليهم السلام - وإنما المراد من حكاية ما حكاها الله - تعالى - أن قومه - عليه السلام - لما رأوه نشأ بين أظهرهم مدة طويلة، غير مظهر لملة ولا داع إلى عقيدة، إلى أن جاء الأمر الإلهي بالإظهار والدعوة، فتوهموا أنه كان مثلهم، فخاطبوه والذين آمنوا معه، بما خاطبوهم. وقوله:

﴿إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ﴾ [الأعراف: الآية ٨٩] الخ الآية.

هو جواب منه - عليه السلام - عنه وعن أتباعه، حيث كان خطاب الكفار متوجهاً إليه وإلى أتباعه، وتوهموه كأتباعه، كان في ملتهم ثم خالفهم إلى غيرها، فأجابهم حسب توهمهم، وأدخل نفسه مع أتباعه في الجواب، وكذا قوله - تعالى - في الآية الأخرى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوْدُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ [إبراهيم: الآية ١٣].

أي قال الذين كفروا من كل ملة، لرسولهم ولمن اتبعه هذه المقالة، متوهمين أن الرسول كان قبل الرسالة متبعاً لمثلهم، كأتباعه الذين آمنوا معه. وأوحى الله - تعالى -

إلى كل رسول: ﴿لَتَهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿١٣﴾ وَلَسَكُنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ﴿١٤﴾ [إبراهيم: الآيات ١٣، ١٤].

إذ لم يكن رسولان لأمة واحدة في وقت واحد غير موسى وهارون. فضلاً عن جماعة. وقوله: ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا﴾ [الأعراف: الآية ٨٩].

أي لا يصح ولا يستقيم لنا. وهذا من جملة إدخال شعيب - عليه السلام - نفسه مع أتباعه المؤمنين تغليبا لهم، وأتباعه يجوز عليهم العود في الكفر بعد إظهار الإيمان، إذ الردة ممكنة في غير المعصومين، وأما المعصومون، إذا صدر منهم شبه هذا الاستثناء؛ فليس هو منهم، كما هو من غيرهم ولكنهم - عليهم الصلاة والسلام - تارة يغلب عليهم شهود مرتبة التقييد، وتارة يغلب عليهم شهود مرتبة الإطلاق. فإذا غلب شهود الإطلاق؛ خافوا أو انقبضوا واضطربوا، وقالوا: ما أدري ما يفعل بي ولا بكم، وقالوا: ﴿وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ يَوْمَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الأنعام: الآية ٨٠].

وقالوا: ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا﴾ [الأعراف: الآية ٨٩]. وقالوا: نفسي نفسي لا أسألك غيرها، ونحو هذا. وإذا غلب عليهم شهود التقييد؛ انبسطوا واستبشروا وبشروا وقالوا: فلان من أهل الجنة وفلان من أهل النار، وتحكموا في العالم. فما كان خوفهم - عليهم الصلاة والسلام - من مرتبة الرحمن، ولا من مرتبة الرب، بحيث تحكم عليه العقول بأحكامها. وإنما كان خوفهم من الله، أعني مرتبة الغيب المطلق، المسماة «بالله» التي لا يدركها عقل ولا يصح عليها حكم، ولذا قال شعيب: ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الأعراف: الآية ٨٩].

ولسعة علمه لا يمكن أن يضبط ويحصر ويقيد فيحكم عليه بنفي أن إثبات، ومن غلبة شهود الإطلاق كان - ﴿﴾ - يثب في الدرع يوم بدر ويقول: «اللهم إن تهلك هذه العصابة لن تعبد بعد اليوم»<sup>(١)</sup>. بعد ما وعده الله - تعالى - بإحدى الطائفتين. كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ﴾ [الأنفال: الآية ٧].

(١) رواه مسلم: كتاب الجهاد والسير، باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر وإباحة الغنائم، حديث رقم (٥٨ - ١٧٦٣). ورواه أحمد في المسند عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، حديث رقم (٢٢٢).

وأبو بكر - رضي الله عنه - يقول: يا رسول الله كفاك مناشدتك ربك، فإن الله منجزك ما وعدك<sup>(١)</sup>. وكان الغالب على الصديق - رضي الله عنه - ذلك الوقت شهود مرتبة التقييد. فكان بين شهوديهما ما بين مرتبتهما. أعني مرتبة النبوة والصدقية. ورؤي أن الصديق بكى يوماً خوفاً من الله - تعالى - فقيل له: أتشك في بشارة رسول الله - ﷺ - لك بالجنة؟ فقال: لا. ولكن خشيت أن يكون ذلك موقوفاً على شرط لم أعلمه. وهذا لشهود سعة علمه - تعالى -.

\*\*\*

### الموقف الواحد والأربعون بعد المائة

قال تعالى: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يَخَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرْ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبْ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: الآية ٢٨٤].

أخبر تعالى أن كل ما في السموات وما في الأرض من عالم المعاني إلى عالم الأجسام، إذ السماء كلُّ ما علا حساً أو معنى، وما بين ذلك من عالم الأرواح وعالم المثال وعالم الأجسام الطبيعية؛ ظهورات وتعيينات. وهو - تعالى - الظاهر المتعين بجمیع ذلك. واللام للاختصاص الحقيقي، فلا ظاهر ولا متعين بها سواه، فهي شؤونه التي يتقلب بها وفيها، كما قال تعالى: ﴿كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: الآية ٢٩].

أي كلُّ آن لا يتجزأ ولا ينقسم إلى ماضٍ ومستقبل؛ هو - تعالى - ظاهر بشأنٍ ومتعين بحال.

﴿وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ﴾ [البقرة: الآية ٢٨٤].

أي تظهروا ما في أنفسكم من نسبة الربوبية والحقية، إذ لكل مخلوق نسبتان: حقيقةً وخلقية، فتتعلقون بنسبة الربوبية المحضة، والوحدة المطلقة؛ فتصيرون إلى الإلحاد والزندقة، وتمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، فتتركون الشرائع وما جاءت به الرسل من الأمر والنهي، وتلغون حكمة الله - تعالى - في التكليف والأحكام الوضعية، وتعطلون اسمه تعالى «الحكيم» بل وإمام الأسماء «العليم».

(١) ولفظه حسب رواية مسلم: «يا نبي الله كفاك مناشدتك ربك فإنه سينجز لك ما وعدك» (صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر... حديث رقم ٥٨ - ١٧٦٣).

## ﴿أَوْ تَخْفَوْهُ﴾ [البقرة: الآية ٢٨٤].

أي تخفوا ما في أنفسكم من نسبة الربوبية والحقية، وتتعلقون بما فيكم من نسبة العبودية والخلقية فتقيمون الأحكام الشرعية، وتقفون عند الحدود الوضعية، فتحلون ما أحلت الشرائع وتحرمون ما حرمت، غير أن منكم مع هذا من يعتقد أنه يخلق أفعاله الاختيارية أو أن له قدرة وكسباً في الفعل، أو أن له جزءاً اختيارياً، أو أن له قدرة تؤثر في صفة الفعل، لا في الفعل نفسه، أو أنه مجبور على الفعل أو نحو ذلك.

## ﴿يُحَاسِبُكُمْ بِهٖ اللَّهُ﴾ [البقرة: الآية ٢٨٤].

أي يحاسب الذين أبدوا ما في أنفسهم. والذين أخفوه. والحساب هنا أعم من قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسِبُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [١٨] وَنَقَلْتُ إِلَىٰ أَهْلِيهِ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ [الانشقاق: الآيات ٨، ٩]. ومن قوله - ﷺ -: «مَنْ حَوسَبَ عَذْبًا»<sup>(١)</sup>.

فيغفر لمن يشاء من الطوائف التي أخفت ما في أنفسها، ويعذب من يشاء من الطوائف التي أبدت ما في أنفسها من الربوبية، وهم الزنادقة، وهم على فرق كثيرة. وأما الطائفة الثالثة، وهي مفهومة من تقسيم الآية، إذ كل متقابلين؛ لا بد أن يكون بينهما أمر ثالث جامع بينهما، لا هو عينهما، ولا غيرهما. ومن قوله تعالى:

## ﴿وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً﴾ [الواقعة: الآية ٧].

فهم السابقون المقربون، والطائفة التي أخفت هم المصلون. والطائفة التي أبدت هم السكيتون، الذين لا قسمة لهم في الخير. وهذه الطائفة جمعت بين الأمرين ونظرت بعينين، وطارفت بجناحين، فأبدت وأخفت، أبدت ما فيها من النسبة الربوبية الحقية في بواطنها، فبرأت من نسبة الوجود والأفعال إليها من حيث صورها، ونسبت الوجود وتوابع الوجود إلى باريها، فأعطت القوس باريها، ونادى منادي الفناء على صورها: ﴿هَلْ يُحِشُّ بِمَنْ مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ [مریم: الآية ٩٨]

فلم يبق وجود وفعل إلا لحقهم الفاعل الحق في بواطنهم، وأخفوا ما فيهم من نسبة الربوبية والحقية فيما بينهم وبين الخلق، فالتزموا أوصاف العبودية، وقاموا بتكاليف الربوبية، قاموا حتى تورمت أقدامهم. وصاموا حتى لزقت بطونهم بظهورهم

(١) رواه مسلم بلفظ: «مَنْ حَوسَبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذْبًا»، كتاب الجنة، باب إثبات الحساب، حديث رقم (٧٩ - ٢٨٧٦) ورواه البخاري: كتاب التفسير، باب: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسِبُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [١٨]

[الانشقاق: الآية ٨] حديث رقم (٤٩٣٩).

وشدوا عليها الحجارة من الجوع. وبكوا حتى خضبت دموعهم لحاهم. عضوا على الشرائع بالنواجذ، وأعطوا كل ذي حق حقه من الشريعة والحقيقة. فمن رأى ظواهرهم قال: قدرية، ومن رأى بواطنهم قال: جبرية، ومن سمع كلامهم قال: أشعرية، ما تريد، فهذه الطائفة لا توقف لحساب، ولا تكلف لسؤال ولا جواب.

\* \* \*

### الموقف الثاني والأربعون بعد المائة

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ (٧) [المُلْك: الآية ١٢].

أخبر تعالى مؤكداً لخبره ووعد الصادق، ومن أصدق من الله قبلاً، ومبشراً لعباده الذين يخشون ويخافون ربهم، أي حضرة الربوبية الجامعة للأسماء التي يُربُّ تعالى - بها عباده، لا أن كل واحد منهم يخشى ربه الخاص به فإن أحداً لا يخشى ربه الخاص به، فإنه عند ربه مرضي، وهو راض عنه في الدنيا، ولذا كان كل حزب بما لديهم فرحون في الدنيا فقط، وكذا قوله:

﴿كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾ [الأنعام: الآية ١٠٨].

وإنما كانت خشيتهم لأسماء الربوبية، أي الحضرة الجامعة، شعروا أو لم يشعروا.

وقال: ﴿بِالْغَيْبِ﴾ [البقرة: الآية ٣].

أي يخافون ربهم مع اعتقادهم غيبته عنهم، ومبايئته لهم، لا يدركونه بشيء من مدركاتهم الظاهرة والباطنة، وهذه مرتبة عامة المؤمنين. أعني علماء الظاهر قاطبة والمتكلمين في التوحيد العقلي، فهم يؤمنون ويخشون رباً غائباً عنهم، بعيداً منهم، وليس حضوره مع عباده وقربه منهم ومعيته إلا بعلمه وقدرته دون ذاته عندهم، - تعالى - عما يصفون، ولهذا كانت مرتبة هذه الفرقة من المؤمنين دون غيرها، فبشَّروهم - تعالى - بأنه يغفر لهم ذنوبهم يوم القيامة، أي يسترها عن غيرهم من أهل المحشر، ولكن لا يسترها عنهم، بل لا بد لهم من العرض والتقرير بذنوبهم، كما ورد في الصحيح، أنه لما قال - ﷺ -: «من حوسب عذبه» قالت عائشة: يا رسول الله، أليس يقول الله - تعالى -: ﴿فَسَوْفَ يَحَاسِبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ (٨) وَيَقْلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ [الانشقاق: الآيات ٨، ٩].



فقال: يا عائشة، ذلك العرض. وإلا فمن نوقش الحساب يهلك<sup>(١)</sup>، وصفة العرض كما ورد: هو أنه - تعالى - يلقي كنفه، أي ستره، على عبده المؤمن حتى لا يراه ملك مقرب، ولا نبي مرسل، فيقرره بذنوبه فلا يسعه إلا الإقرار، فيقول له الحق - تعالى -: «قد سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم»<sup>(٢)</sup> الحديث.

وكما بشر - تعالى - هذه الفرقة من المؤمنين بأنه يغفر لهم ذنوبهم، بشرهم بأنه يعطيهم أجراً كبيراً، أي جزاء عظيمًا بالنسبة إليهم، من حور وغللمان، وقصور ولذات، ونعم متنوعة محسوسة، وسمى ما أعطاهم أجراً أي جزاء لأعمالهم، لأنهم كانوا يعملون لذلك، والجزاء من جنس العمل، وهذه الطائفة؛ هي المعنوية بقوله:

﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [هود: الآية ١١].

وبقوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [فاطر: الآية ٧].

وأما الذين يخشون ربهم لا بالغيب، ولكن بحضوره معهم، وهم الطائفة الثانية، أهل مقام الإحسان، الذي عرفه - ﷺ - بقوله: «أن تعبد الله كأنك تراه».

فهم يخشون ربهم على حضوره معهم، ويعبدونه على أنه مناج لهم، وهم يناجونه، وأنه في قلبهم، وبينهم وبين القبلة، ونحو هذا مما ورد في التعليم النبوي، وهم مع هذا يرونه غيراً لهم ومنفصلاً عنهم، وهذه الطائفة أعلا من الأولى درجة، وأقرب إلى الله - تعالى - منزلة، وهم المعنويون بقوله:

﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: الآية ٤].

وبقوله: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمُ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [سبأ: الآية ٤].

وبقوله: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الحج: الآية ٥٠].

(١) سبق تخريجه.

(٢) رواه البخاري: كتاب المظالم، باب قول الله تعالى: «أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ» [مرد: الآية ١٨] حديث رقم (٢٤٤١).

وبين مغفرة هذه الطائفة، والطائفة الأولى: بون. وإن اشتركا في اللفظ.

أما مغفرة الطائفة الأولى فقد سبق بيانها. وأما مغفرة الطائفة الثانية فهي أن يستر ذنوبهم عن أهل المحشر وعنهم، بحيث لا تبقى لذنوبهم صورة أصلاً، بل تبدل سيئاتهم حسنات، كما قال:

﴿فَأُولَئِكَ يَبْدِلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ [الفرقان: الآية ٧٠].

كما أن ما أمتن به على الطائفة الأولى غير ما أمتن به على الطائفة الثانية، فسمى ما تفضل به على الأولى أجزاء، أي جزاء لأعمالهم، لأنهم كانوا مستغرقين في نسبة أفعالهم لنفوسهم، وإن كانوا يعتقدون أن الله خالقها وسمى ما تفضل به على الثانية رزقاً كريماً، والرزق ما ينتفع به أعم من الرزق الحسي والمعنوي بالمشاهدة والعلوم والمعارف، وهذه الطائفة وإن كانت مثل الأولى في نسبة أفعالهم إليهم، ورؤية نفوسهم موجودة فاعلة: فهي من جهة حضورها مع الحق - تعالى - وتخيُّله، رقيباً مناجياً كأنها تراه؛ أشرف من الذين يخشونه غائباً عنهم.

وإلى الطائفة الأولى الإشارة بقوله: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ [النساء: الآية ١٢٤].

وإلى الطائفة الثانية الإشارة بقوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا وَمَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [النساء: الآية ١٢٥].

بدخوله حضرة الإحسان، وهي أن تعبد الله كأنك تراه.

وقوله: ﴿وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النساء: الآية ١٢٥].

إشارة إلى الطائفة الثالثة التي هي أعلا الطوائف. أي بعد أن دخل حضرة الإحسان؛ ارتقى إلى حضرة الشهود والعيان، وهي ملة إبراهيم، أي طريقته المشار إليها بقوله: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا﴾ [الأنعام: الآية ٧٩]. (أي ظهر بهما وبكل ما فيهما).

﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: الآية ٧٩].

فلا أرى غير وجهه - تعالى - في كل وجهة، إذ رؤية الغير شرك.

وإلى الطائفتين الأولى والثانية الإشارة أيضًا بقوله:

﴿وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ﴿١٣٩﴾ [الضافات: الآية ١٣٩].

وإلى الطائفة الثالثة الإشارة بقوله:

﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ﴾ ﴿١٤٠﴾ [الضافات: الآية ١٤٠].

فلا جزاء لهم غير مولاهم ومحبوهم الذي تولاهم، فغابوا به عنهم، ولا مغفرة لهم إلا ستر نفوسهم عنهم، بحيث لم يشهدوا لها أثرًا. فهم لا موجودون ولا معدومون، ولا ثابتون ولا منفيون، ولا فاعلون ولا غير فاعلين، فليسوا بمطيعين ولا عاصين، فلا مغفرة ولا أجر، بل هم كما قال: ﴿هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ﴾ [آل عمران: الآية ١٦٣].

فيهم ترفع الدرجات، وبهم تغفر الذنوب، وتعطى الأجور، وتدبر الأرزاق دنیا وأخرى، فعلم من هذا: أن الطوائف الناجية ثلاث، وإن تفاوتت في النجاة: طائفة خشيت ربًا غائبًا. وطائفة خشيت ربًا حاضرًا، وطائفة لم تتقيد بغيبة ولا حضور، ولا بطون ولا ظهور، بل كانت برزخًا جامعًا.

\* \* \*

### الموقف الثالث والأربعون بعد المائة

قال تعالى: ﴿فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُنْحَىٰ الْمَوْقِفِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ﴿٥٠﴾ [الرؤم: الآية ٥٠].

المخاطب رسول الله - ﷺ - ونحن المرادون. أمر - تعالى - أن لا يصدق كل مدع ولا يتبع كل ناعق، ولكن ينظر إلى وجود أثر الرحمة وعدمه، فتصدق الدعوى أو تكذب. فمن ادعى أن الحق - تعالى - اختصه برحمة من عنده، وجعله من أهل حضرته؛ ينظر في دعواه. فإن ظهر عليه أثر الرحمة وهو أدرار العلوم الربانية الوهيية، والأسرار العرفانية الغيبية، كما قال في الخضر - رضي الله عنه -:

﴿ءَأَيُّتُهُ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: الآية ٦٥].

وقال نوح - عليه السلام -: ﴿وَاللَّيْلِ لِرَحْمَةٍ مِّنْ عِنْدِيهِ فَعَمِيَّتْ عَلَيْكَ﴾ [مؤود:

الآية ٢٨].

فذلك الصادق في دعواه فليتب منه ناداه فإنه على بيته من ربه. وتلاه شاهد منه. ومن لم يظهر عليه أثر الرحمة الاختصاصية، وكان بعد دعوى رحمة الحق - تعالى -

إياه كما هو قبلها؛ فهو مفتر كذاب. كيف يحيي الأرض بعد موتها؟! أي حالة كونه - تعالى - يحيي أرض أي نفس من رحمة الرحمة، الاختصاصية بالعلم الإلهي، من غير واسطة معلم مشهود، ويعد أن كانت أرض نفسه ميتة بالجهل. فحياة أرض النفوس ليست إلا بالعلم الرباني، قال استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم. ولا يحييهم إلا العلم، وقال أومن كان ميتا بالجهل فأحييناه بالعلم، وهو النور الذي يمشي به في الناس، فحياته نفس، جعل النور له كمن مثله في الظلمات وهي ظلمات الجهالات. فما أحييناه ولا جعلنا له نوراً، وأفرد - تعالى - النور وجمع الظلمة؛ لأن النور الذي هو العلم يهدي إلى صراط المستقيم، وهو واحد، صراط المنعم عليهم، أهل السعادة. والظلمة التي هي الجهل؛ متعددة، لأنها تهدي إلى سبل الغواية. كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: الآية ١٥٣]. ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَمَجْحَى الْمَوْتَى﴾ [الرؤم: الآية ٥٠].

الإشارة إلى من ظهر عليه أثر رحمة الله الاختصاصية، وأحياء الله - تعالى - بالعلم الرباني، لمحبي بالعلم الموتى بالجهل، بما حصل له من الرحمة التي ظهر عليه أثرها. وهو على كل شيء قدير، بقدرة الله - تعالى - لاتحاد إرادته بإرادة الحق - تعالى - فهو يفعل ما يريد ويريد ما يعلم. فأما ما لا يعلمه فلا يريد. وهو الإنسان الحقيقي الخليفة.

\* \* \*

### الموقف الرابع والأربعون بعد المائة

قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: الآية ٣١].

أطلع الحق - تعالى - آدم - عليه السلام - على الأعيان الثابتة التي هي حقائق الأشياء الخارجية، فالأعيان الخارجية بمثابة الظلال لهذه الأعيان الثابتة. واطلاعه عليها كان في الموطن الثاني من مواطن العالم المسمى بظاهر العلم والوجود. فعرف من اطلاعه على الأعيان الثابتة؛ الأسماء، أي أسماء الحق - تعالى - المتوجهة على إيجاد الأعيان الخارجية، إذ كل عين لها اسم يخصها. والعارف يعرف الاسم الإلهي بأثره. فيكون الاسم كالروح، والأثر بمثابة الصورة. وهذه المعرفة دون معرفة آدم - عليه السلام - كما أن معرفة آدم - عليه السلام - دون معرفة محمد - ﷺ - فيبينهما فرقان. إذ محمد - ﷺ - عرف الأسماء في موطنها الأول، وهو المسمى بباطن العلم

والوجود، حيث تسمى شؤوننا، ثم نزل إلى الموطن الثاني الذي تسمى فيه أعياناً ثابتة واستعدادات، ثم عرفها في موطنها الثالث حيث تسمى أعياناً خارجية. فمحمد - ﷺ - عرف الأصل، ثم تدلّى إلى الفرع، بخلاف آدم - عليه السلام - فإنه عرف الفرع؛ ثم ترقى إلى الأصل. فبين المعرفتين من الشرف ما بين الأصل والفرع، شأن بين من يستدلّ به، وبين من يستدلّ عليه. وتعليم الحق - تعالى - الأسماء لآدم - عليه السلام - ما كان بدراسة ولا إنزال وحي ولا إرسال ملك، وإنما حصل له ذلك، بأن كشف لآدم - عليه السلام - عن إنسانيته التي هي حقيقته، فوجدها مجموع الأسماء الإلهية والكونية في مقام الفرق. وإلا فالجميع أسماء إلهية. فما الكون جميعه إلا أسماؤه - تعالى -. وإنما كانت حقيقة آدم بهذه المنزلة؛ لكونه برزخاً جامعاً بين الوجود والإمكان، فهو البرزخ الجامع بين الطرفين المتقابلين، فعندما عرف آدم حقيقته قال للملائكة: إنكم أدعيتم الكمال وقتلتم نحن نسبح بحمدك ونقدس لك. فأنبؤوني بأسماء هؤلاء، أي خبروني بالأسماء الإلهية التي توجّهت على إيجاد هؤلاء الأعيان الخارجية المشار إليها، فالتفتوا إلى الحق - تعالى - التفات عجز وافتقار، وإنابة واضطرار: ﴿قَالُوا سُبْحٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾ [البقرة: الآية ٣٢].

فأمر الحق - تعالى - آدم - عليه السلام - أن يعلمهم تلك الأسماء.

﴿قَالَ يٰٓأٰدَمُ بٰسْمِئِلهِمْ﴾ [البقرة: الآية ٣٣].

ليظهر فضل آدم - عليه السلام - عليهم - عليهم السلام - فضل الأستاذ على التلميذ. فلما أعلمهم آدم - عليه السلام - بأسمائهم؛ عرفوا حينئذ أن هناك أسماء كثيرة ما عرفوها، ولا نزهاوا الحق - تعالى - ولا سبّحوها بها، ولما علمهم ما علمهم من أسماء الأعيان الخارجية والمعاني؛ ما أخذوها كلها ذوقاً، ولكن أخذوا بعضها علماً ذوقياً، وبعضها علماً فقط، فإن الاسم الرزاق مثلاً يعطي الأرزاق الحسية والمعنوية، وهم ما ذاقوا إلا الرزق المعنوي بالعلوم والأسرار، وما ذاقوا الأرزاق الحسية، فإنهم لا يأكلون ولا يشربون. وكالاسم الثواب والستار والغفار، فإنهم إنما علموها علماً مجرداً عن الذوق، لأنهم ما ذاقوا المخالفة والمعصية، إذ لا يعصون الله ما أمرهم، فهم معصومون، فلم يذوقوا التوبة منها، والمغفرة لها، والستر عنها وكذا الاسم الخافض والرافع، فإنهم ما ذاقوا الخفض عن مقاماتهم ولا الرفع عليها، إذ لا ترقى للملك ولا نزول عن مقامه، الذي خلق فيه أول خلقه، قال - تعالى - حكاية عنهم ومصدقاً لهم: ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُمْ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ [الصافات: الآية

وأما المرتبة فقد ينزل الملك من مرتبة عليا إلى مرتبة أدنى، ومن هذا خوفهم في قوله: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: الآية ٥٠].

ومثل هذا كثير، وأما آدم وبنوه؛ فقد أخذوا الأسماء علماً ذوقياً حالياً ففازوا بالطريقين. وظهرت فيهم الأسماء الجمالية والجلالية بالوجهين، لخلقهم باليدين، وليس من ذاق كمن علم علماً مجرداً، فإن بين من علم أن الطعام يشبع الجائع، والماء يروي الظمآن، وما جاع ولا أكل ولا ظمىء ولا روي، وبين من جاع وشبع وعطش وروي فرقاناً عظيماً.

\* \* \*

### الموقف الخامس والأربعون بعد المائة

قال تعالى: ﴿لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ﴾ [الأنبياء: الآية ٢٣].

أي لا يسأل أحد الحق - تعالى - عما يفعله به، ويوجده له، عند النظر إلى الحقائق وبواطن الأمور، سواء العالم بالحقائق والجاهل بها، أما العالم بالحقائق فإنه علم أن الحق - تعالى - ما فعل به إلا ما اقتضاه استعداده. فما حكم الحق - تعالى - على أحد ولا فعل به إلا ما طلبه استعداد ذلك المحكوم عليه، المفعول به، من الحق - تعالى - أن يحكم عليه، ويفعل به، فما حكم الحق عليه، وإنما هو الذي حكم على نفسه، ولهذا لما قالت الأشقياء عند معاينة العذاب:

﴿يَلْتَلِتْنَا نُرْدُّ وَلَا نَكْذِبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام: الآية ٢٧].

أكذبهم الحق - تعالى - فقال، ولو ردوا؛ لعادوا لما نهوا عنه، وأنهم لكاذبون في دعواهم: أنهم لا يكذبون بآيات الله، وأنهم يؤمنون، لأنه لا يمكنهم، ثانياً فعل غير ما فعلوا أولاً، لأنه مقتضى استعداداتهم التي هي حقائقهم. وقلب الحقائق محال. فالبرودة مثلاً لا تنقلب حرارة أبداً، وإنما البارد يقبل أن يصير حاراً، وكذا الجاهل بالحقائق، فإن سؤاله غير متوجه إلى الحق - تعالى - في نفس الأمر، وإنما سؤاله متوجه إلى من فعل به ما لا يلائمه. فظلمه في زعمه، وليس ذلك هو الحق - تعالى - عن الظلم. وإنما السائل هو الذي ظلم نفسه إن كان ما فعل به ظلم كما قال تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [النحل: الآية ٢٣٣]. وقال: ﴿وَمَا ظَلَمْتَهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ [هود: الآية ١٠١].



قال الله تعالى: ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظَلْمًا لِلْعِبَادِ﴾ [غافر: الآية ٣١].

وإرادة مجردة عن سؤال الاستعدادات، لأنه لا غرض له في ضرر أحد، ولا في تعذيبه، ما يفعل الله بعدابكم إن شكرتم وأمنتم، وإنما حقائق العباد طلبت بلسان استعدادها إيجاد ما هو مقتضاها فأعطى الحق - تعالى - الوجود لذلك المطلوب لا غيره، إذ الحق - تعالى - جواد لا يبخل. فكلُّ ما طلبته الاستعدادات أعطاه إياه، وقوله: «ما يريد» أبلغ في النفس من قوله «لا يظلم» فإنه إذا انتفت الإرادة انتفى الفعل بالأولى والأخرى.

﴿وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: الآية ٢٣].

عمَّا فعلوه من الكفر والعصيان والمخالفة للأوامر الشرعية، والأوضاع الحكمية، حيث إنهم ما خالفوا إلا جهلاً وعناداً وكفراً، ولو علموا استعداداتهم وما هي مقتضية له ما شقوا. فإنهم حينئذ عملوا ما عملوا ممَّا ظاهره مخالفة وعصيان بالأمر الإرادي عن كشف، فإن الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - ومن شاء الله من كمل الورثة أن يطلعه على مقتضى استعداده قبل أن يقع ما وقع منه، لا يسألهم الحق - تعالى - عما فعل بهم، وخلق فيهم، للكشف الحاصل. ولهذا كان ما يكون منهم لا يعدُّ مخالفة في نفس الأمر، ولا يعاقبون عليه في الآخرة، وإن عدُّ مخالفة في ظاهر الشرع الحكيم، وكان لهم أن يعتذروا ويحتجوا بالقدر، كما ورد في الصحيح: قال موسى لأدم - عليهما السلام -: أنت الذي أخرجتنا من الجنة بخطيئتك، فقال آدم: أنت موسى الذي اصطفاك الله برسالته وبكلامه تلومني على أمر قدَّره الله عليّ قبل أن يخلقني<sup>(١)</sup>؟ وإلى هذا يشير العارف الكبير عبد الكريم الجيلي بقوله:

وما ذاك إلا أنه قبل وقوعه      يخبر قلبي بالذي هو واقع  
فنأتي الذي نأتيه والقلب ناظر      لمثبته في اللوح والجفن داعم  
فإن كنت في حكم الشريعة عاصياً      فإني في حكم الحقيقة طائع

وأما المحجوبون فليس لهم أن يعتذروا ويحتجوا بالقدر، فإنه ما حصل لهم علم بما تقتضيه حقائقهم في الشر والكفر والعصيان، وهذه المسألة في مبادئ سرِّ القدر،

(١) رواه البخاري بلفظ: «احتج آدم وموسى، فقال له موسى: أنت آدم الذي أخرجتك خطيئتك من الجنة؟ فقال له آدم: أنت موسى الذي اصطفاك الله برسالاته وبكلامه ثم تلومني على أمر قدَّره عليّ قبل أن أخلق؟» فقال رسول الله ﷺ: «فحج آدم موسى» مرتين. كتاب أحاديث الأنبياء باب وفاة موسى حديث رقم (٣٤٠٩).

وقد نهى الشارع عن الخوض فيه مخافة على الضعفاء، فإن الخوض فيه يصير بصاحبه إلى الإلحاد ورفض الشرائع. نعوذ بالله من درك الشقاء، وسوء القضاء، آمين.

\* \* \*

### الموقف السادس والأربعون بعد المائة

قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ [مریم: الآية ٤٠].

من أسمائه - تعالى - الوارث. وهو الذي ترجع إليه الأملاك، بعد فناء الملاك، وميراثه - تعالى - للأرض ومن عليها؛ هو يرفع نسبته الملكية التي كانت للمخلوقات، وهي الانتفاعات، وأما الأعيان؛ فهي ملك خالقها - تعالى -، لا ملك لمخلوق عليها، فلا تملك إلا الانتفاعات، ولا يباع ولا يشتري إلا هي، لا الأعيان. ولهذا منع الشارع من بيع الأعيان إذا عدت من الانتفاعات المقصودة منها. ومنع من بيع جميع الأعيان التي لا ينتفع بها في شيء من أنواع الانتفاعات المباحة:

﴿وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ [مریم: الآية ٤٠].

وذلك يوم قوله - تعالى -: ﴿لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾ [غافر: الآية ١٦].

وذكر ثلاثة أسماء الله، وهو الاسم الجامع، وهو الوارث في الحقيقة لا الواحد ولا القهار، إذ أسماء الألوهية والربوبية تختفي باختفاء آثارها. وهم المألوهون والمربوبون، لأن بزوال المألوه تختفي نسبة الإلهية، وبزوال المربوب تختفي نسبة الربوبية، فلا رب ولا مربوب، ولا إله ولا مألوه، تقديراً كما هو الأمر قبل إيجاد العالم. والواحد وهو من أسماء الذات، وذلك يفيد غناه عن العالمين، إذ ذلك مقتضى الذات العلية، والقهار وهو من أسماء الصفات، وذلك يفيد إعدام العالم وفناءه؛ فإنه ما أفناه إلا بتوجهه عليه بأسماء الجلال كالقهار ونحوه، ثم تتجلى أسماء الرحمة والجمال، وتطلب ظهور آثارها فيعيد العالم، لا إله إلا هو العزيز الحكيم.

\* \* \*

### الموقف السابع والأربعون بعد المائة

قال تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: الآية ١١٠].

يرجو، يحب. فإنه لا يرجو إلا محباً، ولا يرجو إلا محبوباً.

لقاء ربّه، رؤيته ومشاهدته ومكالمته ومسامرته في الدنيا قبل الآخرة.  
فليعمل عملاً صالحاً، من قولهم: صلحت الثمرة إذا سلمت من العاهات  
والآفات.

والعمل الصالح هو الذي لا شائبة فيه غير محض العبودية الذاتية، العبودية  
الذاتية الإلهية، فإن الإلهية من حيث هي هي أهل لأن تبعده، والمألوهية من حيث  
هي هي أهل لأن تعبد، فإذا كانت العبودية على مقتضى المرتبتين الألوهية،  
والعبودية، كانت مقبولة. وإن كانت على مقتضى العوارض والأغراض كانت مردودة  
على صاحبها.

ولا يشرك بعبادة ربه أحداً، من أعظم الأحاد النفس فلا يجعل لها في العبادة  
نصيباً، كنيل ثواب، أو دفع عقاب، أو حصول درجة في الدنيا والآخرة، أو نيل  
ولاية، أو اكتساب حال من الأحوال السنيّة، فهذه كلها وما يشبهها تشريك في  
العبادة، مانعة من القبول عند المحققين، ومانعة من لقاء الربّ على الوجه المحبوب  
المراد، وأمّا اللقاء على كل حال؛ فهو حاصل لكل أحد، لمن يرجو ولمن لا يرجو،  
ولكن إذا لم يحصل الشعور به، والمعرفة له، فماذا عسى يتفجع اللقاء؟ كمن له مطلب  
مهّم عند شخص وهو لا يعرف عينه، فبقي متعطشاً يطلبه، وذلك الشخص بحيث  
يراوجه ويغاديه كل يوم، فماذا يتفجع ذلك؟

ومن الشرك الذي يشير إليه النهي في الآية؛ إدخال النفس في العمل ورؤية أن  
لها دخلاً فيه. بوجه من الوجوه المؤثرة. فعلى العامل أن يرى أنه مفعول به لا فاعل،  
وأه محرك لا متحرك، وأنه يقام به ويقعد ويركع به ويسجد. فإن قلت: فأين العبد  
وعمله؟! قلت: ألا يكفي وجود اسم العبد ونسبة الفعل العدمية التي أثبتها الشرع  
إليه؟! حسبه شرفاً أن يكون مفعولاً به، وأنه ظرف لما يخلقه الله فيه، فالمفعول به  
والمفعول فيه وهو المسمى ظرفاً، وهو الإنسان، وكل مخلوق نسب إليه فعل،  
والمفعول المطلق؛ هو الفعل المنسوب إلى الإنسان، فإنه لا وجود له في الخارج  
أصلاً، وإنما هو أمر عقليّ لأنه مصدر وهكذا جميع المصادر، والمفعول له، وهو  
المفعول لأجله؛ هو الحقيقة المحمدية كما ورد: «لولاك ما خلقت الأفلاك»<sup>(١)</sup>.

ويصح أيضاً ولا يشرك بعبادة ربّه، وإلهه الطالب لعبادته المتولي لتربيته الأحد  
الذي هو اسم الذات من حيث هو غني عن العالمين، فإن الأحد لا يربّ أحداً، ولا

(١) العجلوني: كشف الخفاء، حديث رقم (٢١٢١) طبعة دار الكتب العلمية - بيروت.

يطلب منه عبادة، وإن توجّه إليه عابد بعبادته مجرداً عن رتبة الربوبية والألوهية، رمى به، وما قبله، بل يسحقه ويمحقه فإنه مقتضى الأحدية.

\* \* \*

### الموقف الثامن والأربعون بعد المائة

قال تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ [البقرة: الآية

. [٢٥٥]

الإحاطة هنا ليست على أصلها من اكتناف الشيء من جميع جهاته ووجوهه، وإنما المراد بالإحاطة مطلق الإدراك، وكلُّ مَنْ أدرك معلوماً، وزعم أنه أدركه على وجه الإحاطة وما بقي له منه شيء غير ما أدرك؛ فما أدركه. فإن من المعلومات ما لا يحاط به إلا لذاته - تعالى - التي هي حقيقة كلِّ معلوم وأسمائه، وهي لا تنتهي، وقوله تعالى:

﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: الآية ٣١].

المراد أسماء مرتبة الألوهية المتوجهة على العالم، أعني كليّاتها، وأمّا جزئياتها؛ فإنها أيضاً لا يحاط بها، وقد قال السيد الكامل (عليه السلام): «أسألك بكل اسم هو لك، أنزلته في كتابك، أو علمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك»<sup>(١)</sup>. وأمّا قول بعض العارفين - وقد سُئِلَ أيحيط العارفون بالحق - تعالى - «إذا حوَّطهم به أحاطوا» فمعناه؛ أنه إذا أعلمهم أنه لا يحاط به؛ فقد حوَّطهم، إذ العلم إدراك الشيء على ما هو عليه. فإذا كان لك مما لا يحاط به؛ فقط أحاط به من بعض وجوهه، وقال: «من علمه» وما قال: «من معلوماته» لأن معلومات الحق - تعالى - عين علمه، وعلمه عين ذاته، علم ذاته - تعالى -، فعلم العالم من علمه بذاته، فليس علمه بالعالم شيئاً آخر غير علمه بذاته، فالعالم والعلم والمعلوم حقيقة واحدة، تعددت بالاعتبار. والعالم الذي يظهر لنا متعددًا هو حقيقة واحدة، وروحه واحد، وهو مدبّر لجمعيه، كجسد الإنسان الواحد، تعددت أعضاؤه وجوارحه وقواه، وروحه المدبّر له واحد. فمن نظر إلى العالم رآه شيئاً واحداً متصلاً كجسد الإنسان، وإنما قال بشيء بالنسبة إلينا، فإنه قد يكشف لنا بعض تلك الحقيقة؛ فتعلم ما كشف منها، ويستمر البعض؛ فيبقى مجهولاً لنا: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: الآية ٨٥].

(١) رواه الطبراني في المعجم الكبير (١٠/٢١٠) طبعة العراق.

وأما بالنسبة إليه - تعالى - فالكل شيء واحد وكل شيء تعلق به علمنا، أو إدراك من مداركنا إنما هو الحق - تعالى - لا غيره. وعلمنا هو علمه - تعالى -، لِمَا نسب إلينا تقيّد ببعض الأشياء دون بعضها، كما أننا باقون في العلم، ما خرجنا من علمه - تعالى - من حيث حقائقنا وأعياننا فيه، نعلم وما خرجنا من العلم، والناس يظنون أنهم في هذا الموطن الذي يسمونه وجودًا خارجيًا؛ خرجوا من حضرة العلم الإلهي إلى شيء آخر، وموطن غير العلم، وهم غالطون، بل ما زالوا في حضرة العلم. وما خرجوا منه، ولا يخرجون أبدًا. وإنما الظاهر في هذا الموطن الذي توهموه وجودًا لهم خارج العلم؛ هو الوجود الحق - تعالى -، متلبسًا بأحكام استعداداتهم، التي هي حقائقهم، ومن صفة نفسها؛ أن لا تخرج من العلم، ولا تصير إلى هذا الأمر الذي يقال فيه وجود خارجي أبدًا. والأحكام إنما هي نسب وإضافات لا وجود لها إلا في العقل. وهي إعدام في الخارج عند أولي الأبصار، فما سمي العالم الأمثل: التجريد، عند علماء البيان، جرّد الحق - تعالى - من نفسه لنفسه في نفسه أشياء وقدرها في نفسه تقديرًا، وهي عين الحق - تعالى - في الحقيقة، وغيره في الحكم والمعاملة، فالعالم هو ذلك التجريد والتقدير المجرد في النفس المقدر فيها. فأين العالم؟ وما هو العالم؟ فانظر ماذا ترى؟ فما ترى عين ذي عين سوى عدم، فصحّ أن الوجود المدرك الله هو الأوّل، والآخر، والظاهر، والباطن، لا شيء غيره، من كلّ ما يقال فيه: أول، أو آخر، أو ظاهر، أو باطن. وقد محق - تعالى - بهذه الآية الأغيار كلها:

ورفض السوى فرض علينا لأننا      بملّة محو الشرك والشك قد دنا  
ولكنه كيف السبيل لرفضه      ورفضه المرفوض نحن وما كنا

\*\*\*

### الموقف التاسع والأربعون بعد المائة

قال تعالى: ﴿قَوْلٍ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [البقرة: الآية ١٤٤].

أي وجه وجهك الخاص بك، وهو الذي قال - تعالى - فيه: ﴿وَبَقِيَ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ [الرحمن: الآية ٢٧].

وهو سرّك الذي قامت به روحك، كما قام جسدك بروحك، فإنه هو المراد من الإنسان المقصود بالأمر، فإن الله لا ينظر إلى صوركم وإنما ينظر إلى قلوبكم، وهو وجوه الحق - تعالى - التي لكم، ومنسوبة إليكم، وهي التي وسعت الحق منكم، وما

وسعته الأرض ولا السموات، فما أمرنا الحق - تعالى - أن نستقبل إلا بهذه الوجوه. ولا ننظر ولا نسمع إلا بها. فمن توجهه بجسمه الظاهر مجرداً بين هذا الوجه فما توجهه، ومن نظر يبصره مجرداً عن هذا الوجه فما أبصر، كما قال:

﴿وَتَرْنَهُمْ يُنْظَرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: الآية ١٩٨].

وما ذلك إلا أن نظرهم كان بأبصارهم، لا بوجوههم الخاصة وأسرارهم، ومن سمع بسمعه مجرداً عن هذا الوجه فما سمع، كما قال:

﴿وَهُمْ مَا أَكَّانُ لَا يُسْمَعُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: الآية ١٧٩].

ومن توجهه بقلبه اللحمية الصنوبرية فما فقه ولا عقل، كما قال:

﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: الآية ١٧٩].

فمن نظر بعينه المقيّدة لا يرى إلا الأشياء المقيّدة، وهي الأجسام والألوان والسطوح. ومن نظر بعين روحه الباطنة، رأى الأشياء الباطنة من الأرواح وعالم المثال المطلق والجن، وكلها أكوان وحجب. ومن نظر بوجهه - وهو سرّه - رأى وجوه الحق - تعالى - التي له في كل شيء، فإنه لا يرى الله إلا الله. ولا يعرف الله إلا الله. وهذه الأعين الثلاثة هي عين واحدة، اختلفت باختلاف مدركاتها، يا للحيرة ويا للعجب!! لا يفرق الناظر بين نظره بجسمه وروحه وسرّه، وهو وجهه الخاص؛ إلا بمدركاته. ولهذا الوجه قال تعالى: «يا ابن آدم مرضت فلم تعدني، وجعت فلم تطعمني، وظمئت فلم تسقني»<sup>(١)</sup>.

ولهذا الوجه قال - تعالى - «كنت سمعه وبصره»<sup>(٢)</sup> إلى آخر القوي. ولهذا الوجه قال: ﴿وَقَصَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: الآية ٢٣].

فإنه هو الذي عبد في كل مخلوق، عبد في نار، وشمس، ونجم، وحيوان، وجن، وملك... الخ. فملاحظة هذا الوجه؛ لازمة في كل عبادة وعادة، فإذا توجه إلى القبلة للصلاة يرى أن المتوجه حق، والمتوجه إليه حق. وإذا تصدق يرى أن المعطي حق، والمعطى حق، كما قال تعالى:

﴿الَّذِينَ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ﴾ [التوبة:

الآية ١٠٤].

(١) حديث قدسي رواه أحمد في المسند حديث رقم (٩٢٦٤).

(٢) يشير إلى الحديث القدسي: «وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل». سبق تخريجه.



وفي الصحيح أن الصدقة أول ما تقع في يد الرحمن<sup>(١)</sup>. وإذا تلا القرآن رأى أن المتكلم حق، والمتكلم به حق، وإذا استمع القرآن رأى أن الكلام حق والسامع حق، وإذا نظر إلى شيء رأى أن الناظر حق والمنظور إليه حق، فإنه يرى الله بالله، واحذر أن تعتقد حلولاً أو اتحاداً أو سرياناً أو تولدًا - تعالى - الله عن ذلك كله، وأنا بريء من ذلك كله. وإنما هو كما قال الشيخ الأكبر - رضي الله عنه -:

تركنا البحار الزاخرات وراءنا فمن أين تدري الناس أين توجّهنا؟!

وقوله: «المسجد الحرام» هو وإن ورد في المسجد المحسوس؛ فيؤخذ منه أن المسجد هو الحضرة الجامعة لأسماء، حضرة الألوهية، فهي محل السجود، سجود القلوب لا سجود الأجسام، قيل لبعضهم: أيسجد القلب؟ قال: ولا يرفع أبدًا (الحرام) عن أن يدخله قلب لم يتجرّد من محيط النفس ومحيط الأكران، وحيثما كنتم فولوا وجوهكم، أي حيثما كنتم في عاداتكم وعباداتكم؛ شاهدوه في كل مأكول ومشروب ومنكوح، وعلى أنه الشاهد والمشهود، كما قال: أقسم بالشاهد والمشهود، وما أقسم إلا بنفسه لا بغيره.

\*\*\*

### الموقف الخمسون بعد المائة

قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبْرَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [الدخان: الآيات ٣، ٤].

الضمير في قوله: ﴿أَنْزَلْنَاهُ﴾ [الدخان: الآية ٣] عائذ على الكتاب المبين، وهو القرآن العظيم مثل قوله: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴿١﴾﴾ [القدر: الآية ١]. فالليلة المباركة هي ليلة القدر، ولبركتها نزل القرآن فيها، وهي التي يفرق فيها كل أمر حكيم، محكوم مبين بجميع لوازمه، ولواحقه، محدود بمكانه، مؤقت بزمانه، كما قال:

﴿نَزَّلُ الْمَلَائِكَةَ وَالرُّوحَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾﴾ [القدر: الآية ٤].

أي من كل ما يقع في العالم العلوي والسفلي، في تلك السنة، يظهره الله - تعالى - للموكلين بإنفاذه. وهذا من بركة تلك الليلة. فإن الأمور التي تقع في السنة

(١) عن ابن عباس قال: «ما نقصت صدقة من مال قط وما مدّ عبد يده بصدقة إلا ألقيت في يد الله قبل أن تقع في يد السائل ولا فتح عبد ياب مسألة له عنها غنى إلا فتح الله عليه باب فقر». رواه الهيثمي في مجمع الزوائد، كتاب الجنائز، باب فضل الصدقة.

في العالم العلوي والسفلي؛ لا يحصيها إلا خالقها، وهي كلها تترتب وتبين في تلك الليلة. وهذه الليلة متمتجة، لا ضوء محض، ولا ظلمة خالصة. كنت أنظر إلى ظل شخص فأراه متميزاً وليس هناك نور زائد كما يتوهمه أكثر الناس، وذلك في الخامس والعشرين من شعبان، فلا تختص برمضان، كما قال بعض العلماء، وبعض الناس تنكشف لهم أنوار في وسط السماء، أو في جوانبها، أو أنوار تشبه السرج؛ فيظنون أن ذلك علامة ليلة القدر وليس الأمر كذلك. وإنما علامة ليلة القدر ما رواه مسلم في الصحيح: «إن الشمس تطلع صبيحتها ولا نور لها».

وقد شاهدت ذلك، فكانت الشمس كالترس النحاسي لا شعاع لها. ولو كانت فيها كتابة لأمكنني قراءتها من غير كلفة. وقائم هذه الليلة يحصل له ما وعد الله به، ولو لم تنكشف له، والناس يرغبون في معرفتها ويطلبونها لأجل إجابة الدعاء فيها. وكان الأولى أن يطلبوها لما وعد الله - تعالى - به قائمها على لسان رسوله - ﷺ - . ففي الصحيح: «مَنْ قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً؛ غفر له ما تقدم من ذنبه»<sup>(١)</sup>.

وأما الدعاء؛ فلا يمكن الداعي أن يدعو تلك الليلة؛ إلا بما سبقت القسمة الأزلية بحصوله، وكان يطلبه بلسان استعداده، فهو مجبور على هذا، وقالت عائشة - رضي الله عنها - يا رسول الله، إذا رأيت ليلة القدر ما أقول؟! فقال: قولي: «اللهم إنك عفوف تحب العفو؛ فاعف عني»<sup>(٢)</sup>.

وظاهر أمر النبي - ﷺ - بمراقبتها وطلبها إنما هو لإقامتها، طلباً لما وعد الله من مغفرة الذنوب، في حق عامة أهل الإيمان والعباد، لا في حق الخواص الذين لا يريدون إلا وجهه، فلا يطلبون غيره.

\* \* \*

## الموقف الواحد والخمسون بعد المائة

قال تعالى، حاكياً قول موسى للخضر - عليهما السلام -: ﴿هَلْ أَتَيْتَكَ عَلَيَّ أَنْ تَعْلَمَ مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا﴾ [الكهف: الآية ٦٦].

اعلم أن المرید، لا ينتفع بعلوم الشيخ وأحواله إلا إذا انقاد له الانقياد التام، ووقف عند أمره ونهيه، مع اعتقاد الأفضلية والأكملية. ولا يغني أحدهما عن الآخر،

(١) رواه البخاري: كتاب الإيمان، باب قيام ليلة القدر من الإيمان، حديث رقم (٣٥). ورواه مسلم: كتاب صلاة المسافرين... باب الترغيب في قيام رمضان، حديث رقم (١٧٦ - ٧٦٠).

(٢) رواه أحمد في المسند عن السيدة عائشة رضي الله عنها، حديث رقم (٢٥٤٣٨).

كحال بعض الناس، يعتقد في الشيخ غاية الكمال، ويظنُّ أن ذلك يكفيهِ في نبيل غرضه وحصول مطلبه، وهو غير ممثل ولا فاعل لما يأمره الشيخ به أو ينهيه عنه. فهذا موسى - عليه السلام - مع جلالة قدره، وفخامة أمره طلب لقاء الخضر - عليه السلام - وسأل السبيل إلى لقياه وتجنُّم مشاق ومتاعب في سفره، كما قال:

﴿لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا﴾ [الكهف: الآية ٦٢].

ومع هذا كله، لما لم يمثل نهياً واحداً، وهو قوله:

﴿فَلَا تَسْتَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحَدِّثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ [الكهف: الآية ٧٠].

ما انتفع بعلم الخضر - عليه السلام - مع يقين موسى - عليه السلام - الجازم، أن الخضر أعلم منه، بشهادة الله - عليه السلام - لقوله تعالى، عندما قال موسى - عليه السلام - لا أعلم أحداً أعلم مني، بلى عبدنا الخضر، وما خصَّ علماً دون علم، بل عمم، وكان موسى - عليه السلام - أولاً ما علم أن استعداده لا يقبل شيئاً من علوم الخضر - عليه السلام - وأما الخضر - عليه السلام - فإنه علم ذلك أول وهلة فقال:

﴿إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ [الكهف: الآية ٦٧].

وهذا من شواهد علمية الخضر - عليه السلام - فليُنظر العاقل إلى أدب هذين السيدين. قال موسى - عليه السلام -:

﴿هَلْ أَتَيْتُكَ عَلَىٰ أَنْ تَعْلَمَ مِنِّي مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا﴾ [الكهف: الآية ٦٦].

أي هل أتيتك في اتباعك لتعلم منك، ففي هذه الكلمات من حلاوة الأدب ما يذوقها كل سليم الذوق، وقال الخضر - عليه السلام -:

﴿قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْتَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحَدِّثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ [الكهف: الآية ٧٠].

[الكهف: الآية ٧٠].

وما قال، فلا تسألني، وسكت. فيبقى موسى - عليه السلام - حيران متعطشاً؛ بل وعده أنه يحدث له ذكراً، أي علماً بالحكمة فيما فعل، أو ذكراً؛ بمعنى تذكراً، فإنه قيل: إن الخضر أعدَّ لموسى - عليهما السلام - ألف مسألة مما كان وقع مثله لموسى - عليه السلام - فلم يصبر، حتى قال رسول الله - ﷺ -: «وددنا أن موسى صبر حتى يقص الله علينا من أمرهما»<sup>(١)</sup> أو كما قال. فإن خرق السفينة يشبه إلقاء أم موسى موسى في البحر، إذ كلُّ من الفعلين ظاهره الهلاك، وقتل الغلام كقتل القبطي. وإقامة الجدار

(١) رواه البخاري: كتاب التفسير، باب قوله: «فلما جاوزا قال لفتاه آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا». حديث رقم (٤٧٢٧).

بغير أجر كالسقي لبنات شعيب من غير أجر. ثم بعد الفعلة الثالثة من الخضر؛ تبين لموسى - عليهما السلام - أنه ليس فيه قابلية لحمل شيء من علوم الخضر - عليه السلام - فطلب الفراق بسؤاله، ثالثاً كما ورد في الصحيح، كانت الأولى من موسى نسياناً، والثانية شرطاً، والثالثة عمدًا، وعندما أزمع الفراق، ووقفنا للوداع، قال الخضر لموسى - عليه السلام - أنت على علم علمك الله لا ينبغي لي أن أعلمه، وأنا على علم علمني الله لا ينبغي لك أن تعلمه، يريد أنت على علم الرسالة، وملاحظة الأسباب في الأفعال والتروك والحكم بالشاهد واليمين، والإقرار والإنكار، ونحو ذلك من الوقوف مع ظواهر الأشياء، مأمور بسياسة بني إسرائيل، والتنزل لعقولهم، فلا ينبغي لي أن أعلمه، بمعنى لا فائدة لي في العلم به، إذ العلم المتعلق بالأكوان إنما يراد للعمل به، وأنا مأمور بالحكم بخلافه، وهو الحكم بالكشف وملاحظة الأمور والأسباب الغائبة، وبما يرد على القلب من الخواطر الربانية التي لا تخطيء، فلا ينبغي لك أن تعلمه لأنك مأمور بالحكم بخلافه، وهذا الاختلاف بينهما إنما هو في العلوم المتعلقة بالأكوان، وأما العلم بالذات العلية، والصفات الإلهية؛ فكلٌّ منهما على غاية الكمال، كما يليق بمقام النبوة. وبمقام الولاية العظمى مقام القرية، وهو للأفراد، والخضر - عليه السلام - منهم، فإن الخضر غير نبي بلا شك عندي، وكما هو عند المحققين من علماء الباطن والظاهر، وعلى ما قدمناه، فأكملية الشيخ في العلم المطلوب منه، المقصود لأجله، لا تغني عن المرید شيئاً، إذا لم يكن ممثلاً لأوامر الشيخ، مجتنباً لنواهيه:

وما ينفع الأصل من هاشم إذا كانت النفس من باهله

وإنما تنفع أكملية الشيخ من حيث الدلالة الموصلة إلى المقصود. وإلا فالشيخ لا يعطي المرید إلا ما أعطاه له استعداده، واستعداده منطوقه وفي أعماله، كالطبيب الماهر، إذا حضر المريض وأمره بأدوية، فلم يستعملها المريض؛ فما عسى أن تغني عنه مهارة الطبيب؟ وعدم امتثال المريض؛ دليل على أن الله - تعالى - ما أراد شفاءه من علته، فإن الله إذا أراد أمراً هيناً له أسبابه وإنما وجب على المرید طلب الأكمل الأفضل من المشايخ، خشية أن يلقى قياده بيد جاهل بالطريق الموصل إلى المقصود، فيكون ذلك عوناً على هلاكه.

\* \* \*

### الموقف الثاني والخمسون بعد المائة

قال تعالى: ﴿وَلَنْ نَسْتَبِيْعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ الْإِنْسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَبِيْعُوا كُلَّ الْمَيْلِ﴾ [النساء: الآية ١٢٩].

كلُّ مَنْ طلب منه العدل بين أمرين متضادين، بحيث يكون إرضاء أحدهما إغضاباً للآخر، وإدخال السرور على أحدهما تحزيناً للآخر، إذا كانا عليّ طرفي النقيض فلا يرضي أحدهما، إلّا إغضاب الآخر. ولا يسرُّ أحدهما، إلّا تحزين الآخر، ولا تحصل عبارة أحدهما إلّا بتخريب الآخر. ويقدر القرب من أحدهما، ببعد من الآخر، طلباً لا محيص عنه، ولا مهرب منه، فذاتك الأمران نساء في حقّه، بمعنى زوجين متقابلين، كالنفس، والروح، والدنيا، والآخرة، فإنك إذا أعطيت النفس أغراضها، واتبعت شهواتها، ومكثتها من مراداتها الطبيعية؛ أرضيتها وأغضبت الروح. فإنّ الأمور الطبيعية، والشهوات النفسانية، تضرُّ بالروح وتسود وجهها، وتكسف شمسها، وتمنع عنها وصول المعارف، وتحجب عنها الأنوار والأسرار. فإذا أرضيت الروح باستعمال الأمور الروحانية والفروق عن أحوال الطبيعة الجسمانية؛ أغضبت النفس. كيف؟ وهي مركب الروح، عليها يدرك مطالبه، وينال رغائبه، وأن كلُّ ما يقوى الروح يضعف النفس، وبالعكس. وكذلك الدنيا والآخرة، كلما التفت إلى إحداها أعرضت عن الأخرى، وكلما سعيت في عمارة أحدهما أخربت الأخرى، ولن تستطيع إرضاء الجميع أبداً، كما أخبر الله - تعالى - ولو بذلت جهدك، وأنفدت ما عندك، فإن جمع التقيضين محال، فعلمنا الحكيم - تعالى - الخلاص من هذا المشكل، والدواء لهذا الداء المعضل، وهو أن لا نميل كلُّ الميل، بأننا وإن ملنا بقلوبنا إلى أحدهما فلا نميل في ظواهرنا، بترك حقوق ما ملنا عنه رأساً، ونعرض عن مطالبه ونتركه هملاً، إذ نحن مأمورون بالإبقاء على كلِّ واحد منهما، والرفق بهما، فلا غنى لنا عن أحدهما، وقد كان - ﷺ - يعدل في القسمة بين نسائه، ويقول: «اللهم هذا قسمي فيما أملك، فلا تؤاخذني بما تملك ولا أملك»<sup>(١)</sup>.

يعني القلب. ومراد الحق - تعالى - منّا، وأمره لنا، بإرضاء الروح والنفس وعمارة الدنيا والآخرة على الحكمة التي جاءت بها الرسل - عليهم السلام - والحد الذي حدوه لنا، كلُّ واحد بحسبه وما يقتضيه حاله:

﴿وَرُبُّدُّ الدِّينِ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ يَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا﴾ [النساء: الآية

[٢٧].

فالميل المضر بالدنيا والآخرة، أو بالنفس أو بالروح كله من اتباع الشهوات، واستغواء الشيطان، وتزيينه ليس من الدين في شيء، وإذا سمعت أو رأيت في كتاب

(١) رواه أبو داود في سننه، كتاب النكاح، باب القسم بين النساء، حديث رقم (٢١٣٣).

حكايات القوم - رضوان الله عليهم - وما فعلوه بأنفسهم من الأضرار، وما صنعوه بديناهم من التخريب؛ فإنما ذلك كله ليحصلوا على عدم الميل المضر بأرواحهم وأجرامهم، ويكونوا على الحكم المشروع، والقسطاس الموضوع، فإن كل شيء تميل إليه النفس الميل الكلي، وتطلب التمتع به على الكمال والتمام، جاء الشرع بذمه وتقبيحه والتنفير عنه، مع أن النفس لا تتركه كله، فذلك محال، لأنه لا بقاء لها بدونه رأساً، فيحصل الصلح على ترك طلب النفس الكل، وإبقاء البعض لها:

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: الآية ٥٠].

فالقوم متبعون حكمة الشارع فيما فعلوا، وانظر أحوالهم في نهاياتهم عندما زموا أنفسهم بزمام الشرع والعقل، كيف تجدهم يأكلون أطيب الطعام، ويلبسون الأثواب ويركبون قاره الدواب، ويقولون: ابدأ بنفسك ثم بمن تعول، والأقربون أولى بالمعروف، ونحو هذا، ويعمرون في الدنيا كل واحد على ما اقتضاه حاله، وهذه سنة الأنبياء - عليهم السلام - والكمثل من الورثة، وقال - ﷺ -: «أما أنا؛ فأصوم وأفطر وأقوم وأنا، وأتى النساء، ومن رغب عن سنتي فليس مني»<sup>(١)</sup> خرَّجه أصحاب الصحيح.

\* \* \*

### الموقف الثالث والخمسون بعد المائة

قال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمِئِذٍ لَمَحْجُورُونَ﴾ [المطففين: الآية

[١٥].

اليوم هو يوم القيامة، وأوله يوم الموت، فإن من مات؛ فقد قامت قيامته، كما ورد في الخبر، إذ من يوم الموت؛ يكون في نعيم أو عذاب برزخي خيالي، إلى يوم البعث، يصير العذاب والنعيم حسياً كحال الدنيا، وربهم الذي حجبوا عنه هو ربهم الخاص الذي تولاهم في الحضرة الجامعة لأسماء الربوبية، وهو الذي زين لهم أعمالهم الكفرية، كما قال:

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ رَبَّنَا لَهُمْ أَعْمَالُهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الشمّل:

الآية ٤].

(١) رواه البخاري: كتاب النكاح، باب الترغيب في النكاح، حديث رقم (٥٠٦٣). ورواه مسلم: كتاب النكاح، باب استحباب النكاح حديث رقم (٥ - ١٤٠١).



زَيْنَ لَهُمْ مِنْ حَيْثُ الْأَسْمِ الْخَاصِّ بِهِمْ، كَمَا أَنَّهُ قَبَّحَ وَكَرَّهَ ذَلِكَ لِآخِرِينَ، مِنْ حَيْثُ الْأَسْمِ الْخَاصِّ بِهِمْ، قَالَ: ﴿وَلَيْكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْآيَمِينَ وَزَيَّنَّ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾ [السُّجُرَاتُ: الْآيَةُ ١٧].

وقال: ﴿كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾ [الأنعام: الآية ١٠٨].

وقال: ﴿كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: الآية ١٢٢].

وهو الذي جعلهم فرحين بما لديهم، كما قال: ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [المؤمنون: الآية ٥٣].

وهو الذي زين لهم حب الشهوات كما قال: ﴿زَيَّنَّا لِلنَّاسِ حُبَّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ﴾ [آل عمران: الآية ١٤].

وهو مشهود لهم في الدنيا، غير متحجب عنهم، وإن لم يشعروا، وهم راضون عنه، وهو راض عنهم، وما قالوا في الآخرة عند ذوق العذاب:

﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنَّا ظَلِمْنَا﴾ ﴿١٧٧﴾ [المؤمنون: الآية ١٠٧].

ولا قالوا: ﴿بَلَّغْنَا نَرْدًا وَلَا تَكُذِّبُ رَيْبًا﴾ [الأنعام: الآية ٢٧].

ولا نادوا: ﴿تَبَكُّوكَ لِيَقُضَ عَلَيْنَا رَيْبُكَ﴾ [الزخرف: الآية ١٧٧].

ولا تأوهوا ولا تضرعوا إلا من انحجاب ربهم عنهم، فإن العذاب - وإن تنوعت مظاهره - فمرجه إلى الحجاب، والنعيم - وإن تنوعت مظاهره - فمرجه إلى الشهود والرؤية، ولو لم ينحجب عنهم في الآخرة، وبقي مشهودًا لهم ما أحشوا بعذاب، ولا تألموا بنار، وكانوا كما كانوا في الدنيا فرحين، مستبشرين، فكهين، يضحكون من أهل السعادة، يسخرون منهم، يتغامزون، كما قال:

﴿إِنَّ الَّذِينَ أُجِرُوا مِنْ الدِّينِ ءَامَنُوا بِصَحْوَةٍ﴾ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ [المطففين: الآيتان ٢٩، ٣٠].

الآية، قال: ﴿وَسَخِرُونَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [البقرة: الآية ٢١٢].

وهذا كله منهم، رضى بكفرهم ومخالفتهم في الدنيا، التي تصوّرت لهم في الآخرة، بصور نار وحيئات ومقامع من حديد، وغير ذلك من أنواع العذاب، فإنها ليست إلا أعمالهم، فكُلَّمَا تَخَيَّلُوا فِعْلًا مِنْ أَعْمَالِهِمُ الْكُفْرِيَّةِ؛ تصوّرت لهم ذلك الفعل

بصورة جعلها الله لهم من أنواع العذاب، فأحسوا بالعذاب، هذا في البرزخ. فإن الحكمة الإلهية جعلت التخيل فيه مقدماً على الإحساس، فلا يحسُ بالشيء إلا بعد تخيله. وفي الآخرة؛ التخيل والإحساس متلازمان، لا ينفك أحدهما عن الآخر، فما تعذبوا: إلا بتخيلات أعمالهم الكفرية التي عملوها في الدنيا: ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [التحل: الآية ٣٤].

فيتصور الزنا يتشور من نار، وأكل الربا ينهر من دم، والكذب بكلوب... ونحو هذا. والكفر والمخالفة عند أهل السعادة في الدنيا بمثابة النار والحيات والمقامع التي للأشقياء في الآخرة، وذلك لأن ربهم الهادي ونحوه من أسماء الجمال والسعادة؛ كره إليهم الكفر والفسوق والعصيان، فهو مشهودهم، وإن لم يشعروا به، وليس ربهم المضلُّ، ونحوه من أسماء الجلال، ولذلك ترى المؤمن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه، كما يكره أن يقذف في النار، كما ورد في الصحيح، بخلاف الكافر، فإنه مستلذ بكفره مستحله، وأن المؤمن يرى ذنوبه كجبل يخاف أن يقع عليه، فهو دائماً متعذب بخوف وقوعه، وانتظار العذاب عذاب، ومن أهل السعادة من يستهين الموت في جنب معصية ربه، وقلع عينه وقطع يده، كلُّ هذا لأن ربهم ما زئن لهم الكفر والمخالفات، كما زئن ربُّ الأشقياء أعمالهم الكفرية لهم، فإذا نفذ الوعيد، وأخذ الغضب الإلهي حذوه، وتمت كلمة ربك:

﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [غورد: الآية ١١٩].

تجلى لهم ربهم الذي كان منحجبا عنهم. فزالت الآلام بشهوده وحصلت اللذات، وتوالت الأفراح، كما كانوا في الدنيا، فرحين بشهوده، ملتذذين بما يدعوهم إليه، متحجيين به مع بقاء جهنم على حالها، ودوام أهوالها، وأنكالتها، ولو دعوا إلى الجنة ونعيمها لهربوا وتأذوا، وقالوا النعيم ما نحن فيه لا غيره، كما كانوا يقولون:

﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ﴾ [المطففين: الآية ٣٢].

وكما كانوا في الدنيا يهربون من أحوال أهل السعادة وأعمالهم، وحينئذ يصدق عليهم، ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه من الكفر وأعماله، لما وجدوا من اللذة والراحة والفرح على أحد محتملات، الآية، والتلذذ بالآلام مشهود عياناً، فقد رأينا بعض أهل الله - تعالى -، ممن أخذوا عن عقولهم بمشاهدة مولاهم في بلايا ومحن، تشُّ لها

الحجارة، وهم في غاية السرور والبسط والمزح وعدم الاكتراث بما حلّ بهم، ولا يطلبون زوال ذلك، بل لا يحبون زواله. وراودناهم على التطب فامتنعوا، وما ذلك إلا لغيبتهم عن الآلام بمشاهدة ربهم ومحبتهم، وقد ورد في الأخبار، أن أهل الجنة إذا رأوا ربهم - تعالى -؛ غابوا عن الجنة ونعيمها جميعه من حور وقصور وغلمان ومستلذات، فليس للنعيم صورة مخصوصة، وإنما هو بحسب المتنعمين واختلاف طبائعهم وأمزجتهم، فقد يكون النعيم عند قوم عذاباً عند آخرين وبالعكس. وهذا أمر موجود في الدنيا. وهذه الآية ني أهل النار، الذين هم أهلها. لا الذين دخلوها بذنوب أصابوها، فإن هؤلاء يخرجون منها بالشفاعات، التي آخرها حثيات الرحمن، وقد ورد في الخبر: أنهم يموتون في النار إماتة مده بقائهم فيها حتى لا يحسوا بالآلها: ﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ﴾ [المطففين: الآية ١٦].

﴿ثُمَّ﴾ تفيد الترتيب. فما أحسوا بالجحيم وما فيها من الآلام إلا بعد الحجاب.

\*\*\*

### الموقف الرابع والخمسون بعد المائة

قال تعالى: ﴿لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصَرَ بِهِ، وَأَسْمَعُ﴾ [الكهف:

الآية ٢٦].

لا غيب في حق الحق - تعالى -، بل الكل شهادة في حقه، وإنما انقسمت الأشياء إلى غيب وشهادة بالنسبة إلينا، فالخير في الآية محذوف، تقديره: غيب السموات والأرض؛ «شهادة» أبصر به وأسمع؛ أي ما أبصر الحق - تعالى - وما أسمع، إذ كلُّ بصر بصره، وكل سمع سمعه، فما أبصر مبصر إلا ببصره، ولا سمع سميع إلا بسمعه، وهو السميع بسمعه والبصير ببصره، فلا سمع ولا سميع إلا هو، ولا بصر ولا بصير إلا هو، فكيف يتصور في حقه غيب، تعالى عن ذلك، ويصح أن يكون الأمر على بابه، والخطاب له - ﷻ - والمراد نحن أمرنا الحق - تعالى -؛ أن نعمل على الحصول والوصول إلى مرتبة: بي يسمع وبني يبصر، إلى آخر القوى، وليس المراد أمره - ﷻ - أن يبصر بالحق - تعالى - ويسمع به؛ فإنه قد حصل له ذلك لا محالة، بل الحق يبصر به - ﷻ - ويسمع به، كما هي المرتبة العليا. فإن صاحب المرتبة الأولى؛ فيه بقیة، وذلك نقص بالنسبة لمقام النبوة الأسمى.

\*\*\*

## الموقف الخامس والخمسون بعد المائة

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجِدَّوْا وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ [النساء: الآية ١].

لفظ الناس يعُمُّ الجن والإنس، والمؤمن والكافر. والتقوى هنا على نوعين: تقوى له، وتقوى به، أمر الحق - تعالى - الناس: أن يجعلوا نفوسهم وقاية لربهم في موطن وحال، وأن يجعلوه - تعالى - وقاية لهم في موطن وحال، وذلك أن حضرة الربوبية مشتملة على أسماء جمال وخير، وملانمة لمن توجهت إليه. وعلى أسماء جلال وشر، وعدم ملانمة بالنسبة إلى من توجهت عليه. فأمرنا أن ينسبوا لربهم كل طاعة وإيمان وخير، وبذلك يكون هو وقايتهم وهم متقون به، كما قال: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النساء: الآية ٧٩].

وكما قال: ﴿فَارَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا﴾ [الكهف: الآية ٨٢].

نسب إرادة فعل الخير إلى الرب، وأن ينسبوا لأنفسهم كل كفر ومعصية وفعل شر، فيكون وقاية له كما قال: ﴿وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ﴾ [النساء: الآية ٧٩].

وقال: ﴿فَأَرَادْتُ أَنْ أُعِيبَهَا﴾ [الكهف: الآية ٧٩].

إذا كان ظاهر الفعل شراً، ولو كان باطنه خيراً، وبذلك يكونون عبيداً أدياء، وإن كان في نفس الأمر كما قال: ﴿قُلْ كُلُّ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ [النساء: الآية ٧٨]، ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصفافات: الآية ٩٦]، ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجِدَّوْا﴾ [النساء: الآية ١].

حقيقة واحدة هي الحقيقة المحمدية المسماة بالعقل الأول وبالقلم الأعلى، فالمخلوقات كلها منها، إلى غير نهاية، فهي الأصل والمنبع، فهي ذرات العالم، والعالم جمعية الحروف المستخرجة منها، سواء المخلوقات الروحانية والجسمانية الطبيعية والعنصرية.

﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [النساء: الآية ١].

الواو لا تفيد ترتيباً. فإن خلق الزوجة مقدم، وهي النفس الكلية المسماة باللوح المحفوظ، خلقها منه، كما خلق حواء من آدم - عليه السلام - يقول الشيخ محيي

الدين - رضي الله عنه - «النفس خطيرةٌ من خطرات العقل الأول، وهي محل تفصيل ما أجمل في العقل الأول من العلوم»:

﴿وَبَتَّ مِنْهَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنَسَاءً﴾ [النساء: الآية ١].

فرَّق ونشر في العالم العلوي والسفلي منهما من النفس الواحدة وزوجها رجالاً كثيراً، وأرواحاً كثيرة فاعلة، ونساء، نفوساً جسمانية طبيعية منفعة، لما كانت الأرواح فاعلة سماًها رجالاً؛ فهي آباؤنا العلويات، ولما كانت النفوس الجسمانية منفعة؛ سماًها نساء، فهي أمهاتنا السفليات، فكل روح أب، وكل جسم أم. ولما كان الروح الذي هو الأب، لا يتعين من الروح الكلّي الذي هو النفس الواحدة إلا بعد تسوية الجسم، الذي هو الأم، وتعديله كما قال:

﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾ [الجعر: الآية ٢٩].

صح أن يقال الجسم والد للروح وإليه يشير الحلاج - رضي الله عنه - بقوله:

ولدي أمي أباهما      إن ذا من أعجبات  
وأبي طفل صغير      في حجور المرضعات

\*\*\*

### الموقف السادس والخمسون بعد المائة

قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمِهِ﴾ [الجاثية: الآية

[٢٣].

الهوى ميل النفس إلى ما يضرها أو يهلكها رأساً، في الاصطلاح. وأما بحسب الوضع؛ فهو أعم. قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ﴾ [القصص: الآية ٥٠].

وهو وصف للنفس وهي موصوفة به، وحيث كان الهوى صفة قاهرة، أمرها نافذ، وحكمها مطاع؛ تنوسيت النفس الموصوفة به، وصار الذكر والحكم له.

﴿اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ﴾ [الجاثية: الآية ٢٣].

أي جعل ما يجب على الإنسان ويلزمه في حق إلهه وخالفه من الطاعة وكمال الانقياد، وامثال الأوامر لهواه. وجعل ما يجب أن يقابل به الهوى من العصيان وعدم الانقياد والنفور عن سماع الأمر لإلهه. فعكس القضية، فعظمت الرزية، فعلى نظم الآية؛ يكون المفعولان من باب «كسا» وعلى ما قيل من القلب يكون المفعولان من

باب «ظن» إذ يقال: الهوى إنهم، من حيث أنه مطاع نافذ الأمر في الإنسان، ولذا قيل: ما عبد شيء من دون الله - تعالى - أعظم من الهوى. وهو الثائر على الروح في مملكته الإنسانية، فيفسدها عليه دائماً فالهوى كالهواء، فراغ. من اتبع الهوى؛ حصل على الهواء وأضله الله على علم. والضالين؛ العالم، عند العقلاء شيء بعيد. وأما من غير العالم فغير بعيد، بل هو كثير كما قال:

﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَاءِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: الآية ١١٩].

وهذا السياق إنما يؤتى به في الأمور المستبعدة. أي أخبرني عمّن عصى مولاه، وأطاع هواه، فاتخذ إلهه هواه، وأضله الله على علم، أليس هذا بشيء غريب؟ وأمر عجيب؟ وذلك لأن العلم، الذي هو وصف للعالم، كما هو عند الجمهور غير موجب للسعادة، ولا منقذ من الغواية، وإنما العلم الموجب للسعادة قطعاً؛ هو العلم الذاتي، الذي يجد العالم به لذاته لا صفته، فافهم. وهو العلم الذي جمع الأشياء كلها فاتحدت به، وتمايزت بتعينات عدمية، فبحسب ما يحصل من الاتحاد، بزوال الأمور الخارجية عن الحقيقة بين الشئيين؛ يكون العلم قوة وضعفاً، قلة وكثرة، فما دام العالم يعلم بعلم، هو صفة له عنده فعلمه غير موجب لسعادته. فإذا عرف أن علمه عين ذاته العالمة ذوقاً؛ فحينئذ يكون علمه موجباً لسعادته. والناس كلهم إنما يعلمون بهذا العلم، لأنه حقيقة واحدة غير متعددة، وحيث جهلوه؛ ما نفعهم ذلك:

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: الآية ٢١٦].

فافهم أو سلم، فلا يفنك حفظ رأس المال إن لم تريح وتغنم.

\* \* \*

## الموقف السابع والخمسون بعد المائة

قال تعالى: ﴿وَقَالَ أَرَأَيْتُمْ فِيهَا﴾<sup>(١)</sup> [هود: الآية ٤١] الآيات.

قال نوح - العقل الذي هو وزير الروح، ومدبر مملكته الإنسانية، لما خاف هلاك مملكة الخليفة، عند مافار تثور الهوى بالافساد، وإيقاع الاختلاف في المملكة،

(١) ٤١/١١ - ٤٣ هود وبقية الآيات كما يلي: ﴿يَسْمِعُ اللَّهُ نَجْوَاهُمْ وَأُمَّرُهَا وَمُرْسَلَهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٤١) وَهِيَ تَقْرَى بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَتَادِي تَوْجُ أَنْتُمْ وَكَانَتْ فِي مَعَزِلٍ يَبْتِئُ أَرْكَبُ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَتَأْتِيَ إِلَىٰ جِبَلٍ يَعْصِمُكَ مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَجَعًا وَمَالٌ بَيْنَهُمَا التَّوَجُّ فَكَانَ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٤٣﴾.



لمن أطاعه واتبعه -: اركبوا فيها، في سفينة الروح الجامعة بين الشريعة والحقيقة. فإنها المنجية من كل هلاك، فاستمسكوا بها، وليس ركوبها إلا طاعتها واتباعها فيما تدعو إليه: ﴿يَسِّرْ اللَّهُ مَجْرِبَهَا وَمُرسِنَهَا﴾ [هُود: الآية ٤١].

فبدايتها من الله، ونهايتها إلى الله، وهي فيما بين ذلك مع الله، إن ربي لغفور كثير الاستتار، يظهر في ملابس الأكوان، فيسمى بأسمائها، ويحكم عليه بأحكامها، كظهوره بصورة السفينة، فقيل: إنها منجية، وهو المنجي لا السفينة، كما أنه المغرق المهلك بصورة الماء لا الماء، فركبها وسارت:

﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾ [هُود: الآية ٤٢].

هي أمواج الأكوان، تجري من كون إلى كون، من عالم إلى عالم، ومن موطن إلى موطن. وشبه الأمواج بالجبال لأن خروج النفس والجوارح عن الأكوان والمألوفات أثقل عليها من حمل الجبال، ونادى نوح العقل ابنه الهوى، سمأه ابناً شفقة عليه ورحمة، وكان الهوى في معزل عن الروح والعقل، فإنه ضد الروح المنازع له الثائر لطلب أخذ المملكة من يده، المفسد عليه صلاح زوجه:

﴿أَزْكَبَ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ﴾ [هُود: الآية ٤٢].

أطع الروح وانقد له، وكن معه، ولا تكن مع الساترين الجاحدين، فضل الروح وشرفه وسعادته، وسعادة من كان معه، قال الهوى:

﴿سَأَوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾ [هُود: الآية ٤٣].

سأتلق بكون من الأكوان العظيمة ينجيني من الهلاك، وأحصل على النجاة كما يقول الفيلسوف: «أسلك من عالم العناصر إلى عالم العقول والطبيعة» فذلك عنده النجاة وبه يحصل السعادة، فيرحل من كون إلى كون، كحمار الرحي، يدور، والذي رحل إليه هو الذي رحل عنه، فقال نوح العقل لكامل معرفته ونفوذ بصيرته:

﴿لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ﴾ [هُود: الآية ٤٣].

لا ينجى من غرق الأكوان، وطوفان الأغيار، كون من الأكوان، وإن علا وعظم، فإن الكون كله ممكن، فقير عاجز، فلا يعصم كون من كون:

ووصف العجز عم الكون طراً  
فحذق أعين الإيمان وانظر  
فمفتقر بمفتقر ينادي  
تري الأكوان توزن بالنفاد

فلا نجاة لمن تعلق بالغير والسوى، وإنما تحصل النجاة والسعادة لمن تعلق بالله - تعالى -، وانحاش إليه، وأفرد التوجه إليه، والتوكل عليه، فرحل من الأكوان إلى مكنونها: ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ﴾ [هود: الآية ٤٣].

فخرج الروح بمن أطاعه وتعلق به إلى حضرة الصفات، وبحبوحة الذات، فنجوا وسعدوا سعادة الأبد، وبقي الهوى ومن أطاعه في شرك العناصر وأسر الأغيار: ﴿فَكَاتَ مِنَ الْمُعْرِفِينَ﴾ [هود: الآية ٤٣].

\* \* \*

### الموقف الثامن والخمسون بعد المائة

قال تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا﴾<sup>(١)</sup> [النساء: الآية ٥].

هذه الآيات تأديب وتعريف وإرشاد للمرشدين، اعلم: أن السفينة عند العامة؛ من يبذر الأموال ويضيعها، ولا يحسن التصرف بها، فلا يضع الأموال مواضعها المستحقة لها. وعند الخاصة السفية من يبذر الأسرار الإلهية، والمعارف الربانية، فيضيعها في غير مواضعها، ولا يستودعها أهلها فيضيعها، فإن من العلوم التوحيدية ما لا يجوز إفشاؤه مطلقاً، بل هو سرٌّ بين الله وبين عبده إلى الموت. والمال مالان: مال تميل إليه النفوس ويميلها، وهو المال المحسوس، مال العامة وبه قوام النفوس، فلا بقاء لها بدونه، ومال تميل إليه الأرواح ويميلها إليه، وهو المال المعنوي، مال الخاصة: ﴿الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا﴾ [النساء: الآية ٥].

أي قواماً، وحياء لأرواحكم، إذ لا بقاء للروح، ولا حياة إلا بالعلم الرباني، أما السالك المبتدئ فلا أضرب عليه ولا أسرع بالهلاك إليه من إفشاء ما منحه الله - تعالى -، من أسرار التوحيد مطلقاً، لأهله ولغير أهله إلا لشيخه، وما زال المشايخ يحذرون من هذا كل الحذر، وذلك لأن السالك إذا فتح الله - تعالى - عليه بشيء من أسرار التوحيد، يرى الناس في عماية تانهين عن طريق الحق، فيشفق عليهم، ويرحمهم ويريد لهم الخير؛ فيحمله ذلك على كشف بعض أسرار الألوهية، وفي ذلك

(١) ٥/٤ - النساء، وبقية الآيات ما يلي: ﴿وَأَنْزَلْنَاهُمْ فِيهَا وَأَكْفُفْنَاهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا ۝ وَابْتَلُوا الْيَتِيمَ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ۖ . . . الخ﴾.

هلاكه وحتفه، فإذا كان السالك مَمَّن حنكته التجارب، وهذبته العلوم؛ قال كما قال الأول:

قد كان ما كان مما لست أذكره      فظن خيرًا ولا تسأل عن الخبر  
قال بعض الكاملين في قوله - تعالى -:

﴿إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ [لقمان: الآية ١٩].

هو المرید يتكلم بالحقائق قبل إدراكه. أو أن الكلام والنهي الوارد في الآية؛ هو للمشايخ الذين لهم أتباع ومريدون، ربّما وضعوا الأسرار في غير مواضعها، وأذاعوها لغير أهلها، مع الإذن في إذاعتها لأهلها، إذ في إذاعة أسرار الربوبية لغير أهلها ضرران: ضرر راجع إلى المذيع، وضرر راجع إلى المذاع له. فالمذيع ربّما رُمي بالكفر والزندقة، وربما أفضى الأمر إلى قتله، وربّما وصل الشرُّ إلى أصحابه ومَن ينتسب إليه. والمذاع إليه ربّما افتتن أو حار أو فهم الأمر على غير وجهه، فضلًّا، وكتب القوم مشحونة بدم هذا، والنهي عنه، وقد شاهدنا في زماننا من المریدين مَن سمع بعض أسرار الألوهية وبعض الحقائق من مشايخهم؛ فصاروا يتكلّمون بها في المجالس العامة، وظهرت منهم أمورٌ فظيعة من الجسارة والقباحة والتهجم على الجناب الأعلى الإلهي، والتكلم بكلمات ما عرفوا لها أصلًا، ولا ذاقوا لها طعمًا، بل نظن - والعلم عند الله - أن مشايخهم إنما تلقّفوها من الكتب أو من غيرهم، وما ذاقوا لها طعمًا، ولا عرفوا لها حقيقة، إذ لو عرفوا حقيقتها لصانوها وشحّوا بها، كما شحّوا بالذهب، وأمور الدنيا التي عرفوا حقيقتها. ورضي الله عن سيدنا العارف الكبير أحمد الرفاعي، حيث يقول:

ومستخير عن سرِّ ليلي رددته      بعمياء من ليلي بغير يقين  
يقولون حدّثنا فأنت أمينها      وما أنا إن حدّثتهم بأمين

نعوذ بالله من الخيانة، فإن المناق إذا أوّمن خان، والمؤمن إذا أوّمن أدى، والقوم - رضوان الله تعالى عليهم - ما ألفوا في الحقائق، وأذاعوا أسرار التوحيد، وكشفوا بعض أسرار الربوبية؛ إلا لأصحابهم ومن سلك طريقهم مَمَّن عرفوا فيه الأهلية والثبات على الكتاب والسنة، وما ألفوها للعامة الهمج الرعاع، ولا تكلموا بها في المجالس العامة كما هو الآن، يتكلم المشايخ الجهال بالكلمة من الحقيقة، يتبجح بها فيتلقفها منه مَن هم أجهل منه، ويطيرونها كلّ مطار بغير علم، فضلوا وأضلوا. فقصد المؤلفون في الحقائق نفع أهل طريقهم، لا مَن يتضرّر بها ويمرق من الدين

مروق السهم من الرمية، قد سبق الفرث والدم، فإنهم أهل نصيحة لعباد الله، يحبون الخير لهم، قد علموا أن الاستعدادات متفاوتة وأن الأفهام مختلفة، فكان مقصودهم النفع؛ فعرض الضرر من غير قصد منهم:

﴿وَأَرْزُقُوهُمْ فِيهَا﴾ [النساء: الآية ٥].

أي ذوقوهم من حلاوتها، وأسقوهم من رحيقها.

«وَأَكْسُوهُمْ» من حللها المعنوية وأثوابها العلية، ولباس التقوى ذلك خير، ليستاقوا إلى الخروح من الحجر والتصرف والانتفاع بتلك الأموال من غير واسطة فيها، أي في المدة التي هم فيها تحت نظرهم، وفي حجوركم.

﴿وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّرْفُوعًا﴾ [النساء: الآية ٥].

خاطبوهم بما هو قريب لأفهامهم، لا يحير عقولهم، ولا يدخل عليهم شبهًا في عقائدهم، وكونوا ربانيين، علموا الناس بصغار العلم قبل كباره، وذلك بالإشارات والتلويحات، وضرب الأمثال حتى تأنس عقولهم، ولا تكافحهم بصريح الحقيفة فيهاكوا.

﴿وَابْتَلُوا الْيَتِيمَ﴾ [النساء: الآية ٦].

اليتيم هو من عرف من أستاذه بالفراسة النورانية، الاستعداد والقبالية؛ وأنه يكون منه رجل فيما يأتي، من قولهم درة يتيمة، أي ثمينة لها بال وقيمة، وكل من أدر له أبوه العقل الكلي كنزًا في استعداده، مخبأ تحت جدار جسمه فهم يتيم، أعني فاضل بالنسبة إلى من دونه، ولهذا أطلق الحق - تعالى - على رسوله - ﷺ - اليتيم، لأنه أعظم مدخر له، وكنزه أشرف كنز مدخر، أي اختبروهم مرة بعد مرة بالإشارات وقرائن الأحوال لتعرفوا ما ازدادوه من الأحوال الشريفة.

﴿حَقًّا إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ﴾ [النساء: الآية ٦].

أي أوان أن يحصل من نكاحهم نتيجة وتوجد ثمرة، بمعنى خرج ما كان فيهم بالقوة والاستعداد، إلى الفعل والظهور، وصلحوا لأن ينكحوا وصاروا قابلين للبذر فيهم، فالشيخ له رتبة الفاعلية، والمريد له رتبة القابلية والمفعولية، فالشيخ رجل، والمريد زوجة.

﴿فَإِنْ عَاسَمْتُمْ بِتَمِيمٍ رُشْدًا﴾ [النساء: الآية ٦].

أبصرتم بفراستكم النورانية رشدهم وبلوغهم أشدهم، وأنهم قدروا على استخراج كنزهم، بأن صاروا يقبلون الأسرار التوحيدية ويتلقونها بنفوس زكية طاهرة، وقلوب مطمئنة ثابتة على الأمر والنهي الشرعي، واتباع الكتاب والسنة، لا بقلوب زائغة، ونفوس ضالّة، فتتبع ما تشابه منه أو تؤؤله على غير المراد فتحرفه من بعد مواضعه.

﴿فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾ [النساء: الآية ٦].

الأسرار التوحيدية، والمعارف الإلهية، ولا يجوز لكم حينئذ أن تمسكوا عنهم شيئاً ينفعهم، ويكون زيادة في أحوالهم إلا ما لا إذن فيه مطلقاً.

\*\*\*

## الموقف التاسع والخمسون بعد المائة

ورد في الحديث: «أهل القرآن أهل الله».

رواه الحاكم في المستدرک والنسائي، وابن ماجه، وفي بعض الروايات: «حملة القرآن أهل الله».

المراد بأهل القرآن أهل التوحيد الخاص، أصحاب تجريد التوحيد، ومقام التفريد، والأهل في اللغة الأقارب، وأهل الله هنا القريبون منه القرب المعنوي، المقربون عنده، وهم أنصار الله الملبثون دعوته، المستجيبون إلى طاعته، وهو مقام النبوة والولاية الكمالية، والقائمون به هم الداعون إلى معرفة الله - تعالى - وتوحيده على طريق الصوفية، أهل الحقيقة والسلوك إلى الأحوال من الفناء والبقاء، والسكر والصحو ونحوها، وقطع عقبات النفوس وطبّ المقامات إلى الذروة العليا، والوصول إلى الوحدة الذاتية، وهو القرآن الكريم العظيم. وهؤلاء الحملة حاملون أحوال رسول الله - ﷺ - ومقابلهم أهل الفرقان فهم أهل رسول الله - ﷺ - الداعون إلى إقامة الشرائع الظاهرة، والسلوك على سبيل السنة المطهرة، التي هي أقوال رسول الله - ﷺ - وأفعاله ظاهراً، والمشي على طريق أصحاب المعاملات، وهذه مرتبة الرسالة والقائمون بها هم المجتهدون مطلقاً، أصحاب المذاهب. والمرجّحون من أتباعهم. فإذا دخل رسول الله - ﷺ - حضرة الذات دخل حملة القرآن أهل الله من ورائه، ودخل حملة السنة أهل رسول الله - ﷺ - من ورائهم، بالتبعية له - ﷺ - حيث إنهم ما دخولها بأنفسهم. وإذا دخل رسول الله - ﷺ - من ورائهم، لا بالتبعية، لأنهم دخولها بأنفسهم وذاقوها، فالفرق بينهما الذوق وعدمه، فأهل الله كانت لهم

حضرة الذات والصفات ذوقًا، وأهل رسول الله - ﷺ - كانت لهم حضرة الذات علمًا لا ذوقًا، وحضرة الصفات ذوقًا. ولا شك أن الذوق أشرف من العلم بغير ذوق، ولا يفهم من هذا أن مَنْ كان من حملة القرآن أهل الله، لا يكون من حملة الفرقان أهل رسول الله - ﷺ - وبالعكس، كلاً وحاشا. فإن كلاً منهما من عند الله قال:

﴿نَزَلَ الْفُرْقَانُ﴾ [الفرقان: الآية ١]. كما قال: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا﴾ [يوسف: الآية ٢].

فإن حامل القرآن إذا لم يكن من حملة الفرقان كان زنديقًا ملحدًا مارقًا من الدين. فكيف يكون أهل الله، وكذا حامل الفرقان إذا لم يكن من حملة القرآن كان فاسقًا فاجرًا عاصيًا، فلا فرق بينهما إلا ما ذكرنا، وكان الأمر هكذا في الصدر الأول، فلما طال الأمد وبعد زمن النبوة والخلافة، وانتشرت الأهواء صار الأمر أمرين، - والحزب الواحد حزبين، وضرب بينهما بسور، فتسمى أهل القرآن بأهل الحقيقة والصوفية والفقراء، وتسمى أهل الفرقان بأهل الشريعة والعلماء والفقهاء، فتباينوا إلا من رحم ربك.

\* \* \*

### الموقف الستون بعد المائة

قال تعالى، حاكيًا قول إبراهيم لابنه - عليهما السلام -: ﴿إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَارِ آيَةً أَبْجَحُّكَ فَأَنْظِرْ مَاذَا تَرَى﴾ [الصفافات: الآية ١٠٢].

هذا تعليم من إبراهيم لابنه - عليهما السلام - وتسلية له لما أراد به من الذبح، وإرشاد له أن لا ييأس من الفرج، بأن هذا الموطن الدنيوي ليس هو موطن الانتباه الحقيقي. ولا هو موطن رؤية الحقائق على الوجه الأكمل وعلى ما هي عليه، وإنما موطن الانتباه ورؤية الحقائق على ما هي عليه؛ الدار الآخرة. وإن ما تراه من صور هذا العالم خيال، لأنك في مقام: «الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا»<sup>(١)</sup>.

فكما أن الذي رأيته أنا في الرؤيا خيال له تعبير، أي عبور من ظاهره إلى باطنه؛ فكذلك ما تراه أنت خيال له تعبير، عبور من ظاهره إلى باطنه، فكلنا رأى خيالاً في منام، غير أنني أنا رأيت ما رأيت في الخيال المتصل، وأنت ترى ما ترى في الخيال المنفصل، وحقيقة الخيال واحدة. كل هذا من إبراهيم ليزهد ابنه - عليهما السلام - في حب الحياة، وكان الخليل - عليه السلام - عالمًا بأن الرؤيا لها تعبير غالبًا. ولكن

(١) العجلوني: كشف الخفاء، حديث رقم (٢٧٩٤) طبعة دار الكتب العلمية - بيروت.



لما كانت رؤياه فيها الأمر بذبح الولد؛ تأدّب وفوّض تعبير رؤياه إلى مولاه وقال: إن كان لرؤياي تعبير فإله أولى به، وإن لم يكن لها تعبير فأنا منقذ أمر ربّي. فجمع أسباب إنفاذ الأمر. وما بقي إلا الفعل فعبر له ربه رؤياه بذبح عظيم. وبذلك مدحه الله بقوله: ﴿وَأَبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ (التنجيم: الآية ٣٧).

أي عمد إلى ذبح ولده وقطعة كبده لرؤيا رآها. قرأت عين أم إبراهيم، كما قال الأعرابي لما سمع: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: الآية ١٢٥].

فانظر ماذا ترى فإنك لا ترى إلا حقًا ظاهرًا، بشهادة قوله: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: الآية ٣].

أي لا غيره. فإن رأيت غيره فهو خيال زائل، ووهم باطل، فأتهم نفسك، وحدق بصرك، فإن الممكنات إما حقائق، وهي الأعيان الثابتة في العلم لا توجد إلا خارجًا، وإما أعراض لا تبقى زمانين. فهي تمرُّ كمرِّ السحاب، فما ترى إلا حقًا ظاهرًا متلبسًا بخيال ساتر، وذلك لأن الأسماء الإلهية تظهر متلبسة بأحكام الاستعدادات، أعني حقائق الممكنات، وهي لا تظهر أبدًا، وإنما تظهر الأسماء بظهور الذات متحجبة بالأسماء، والأسماء متحجبة بأحكام الممكنات، فالمحجوب لا يرى إلا أحكام الممكنات، والذي أعلى منه يخرق حجاب الممكنات، ويصل إلى الصفات. والأعلى المحقق يخرق حجاب الممكنات والصفات، ويصل إلى الذات فيسمي الحق - تعالى - نفسه: الظاهر الباطن، بهذا فهو الظاهر، لأن الأسماء نسب، فهي إعدام. وإنما المقوم لها الذات، فالظاهر الذات، والباطن الأسماء، وهو الباطن؛ لأن الأحديّة الذاتية لا تجامع الكثرة الأسمائية، فالباطن الذات والظاهر الأسماء.

\* \* \*

### الموقف الواحد والستون بعد المائة

قال تعالى: ﴿فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ﴾ [البقرة: الآية ١١٩٨].

هي إرشاد وتعريف، وأمر وتكليف، لمن حجَّ الذات العلية من السالكين المرودين. ووقف بعرفات الوحدة الذاتية، حضرة القرآن العظيم، إذا أفاض ورجع منها إلى حضرة الصفات وموطن الفرقان والتكليف، أن يذكر الله - تعالى - بأمره ونهيه الذي هو أفضل من ذكر اللسان، قائمًا عندما حدّه وشرعه المشعر الحرام محمد - ﷺ - إذ كلُّ مأمور بتعظيمه من قبل إلى الحق - تعالى - فهو مشعر، كما قال:

﴿وَمَنْ يُعْظِمِ شَعْبَكَ اللَّهُ﴾ [الحج: الآية ٣٢] الآية.

ولأنه - ﷺ - من حيث حقيقته، محلُّ الشعور والمعرفة، فليس لولي ولا نبي يأتي بعده - ﷺ - كعيسى - عليه السلام - أن يتعدى شرع محمد - ﷺ - أو يبذل أو يغير شيئاً منه. فغاية الولي الكامل العظيم المنزلة في منازل القرب والولاية أن يعرفه الحق - تعالى - ما جهل الناس من شرع محمد - ﷺ - فيخبره بأن هذا الحكم من شرع محمد، وغلط فيه النقلة، فلم يعملوا به. وهذا الحكم ليس من شرع محمد، وغلط فيه النقلة فأدخلوه فيه. ليس غير هذا. فسلسلة الشرع المحمدي لا تنفك عن رغبة سالك، ولا واصل، ولا عالم بالله، ولا جاهل، فليحذر المؤمن المشفق على دينه من الزنادقة الملحدة، الذين يقولون إنهم وصلوا إلى عين الحقيقة، واستغنوا عن محمد - ﷺ - أو عن العمل بشرعه الحرام، عن<sup>(١)</sup> كل مخلوق الوصول إلى معرفة حقيقته، كما هي، فلم تعلم ولن تعلم أبداً.

﴿وَأذْكُرُوهُ كَمَا هَدَيْتَكُمْ﴾ [البقرة: الآية ١٩٨].

أي اذكروا محمداً بتعظيم وتوقير، واعرفوا له قدر وساطته لأجل هدايتكم إلى الله - تعالى -، وإلى معرفته، وإرشادكم إلى الصراط المستقيم، كما قال: ﴿وَإِنَّكَ لَنَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: الآية ٥٢]. صراط الله، فهو - ﷺ - الممدد لكل نبي وولي من لدن خلق العالم إلى غير نهاية، عرف ذلك من عرفه، وجهله من جهله، فإذا قال الولي، قال لي الحق - تعالى - كذا وكذا؛ فليس ذلك إلا بواسطة روحانيته - ﷺ - والأكابر لا يجهلون ذلك، ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ﴾ [البقرة: الآية ١٩٨] قبل التفاته إليكم التفات عناية بالإمداد والإرشاد؛ ﴿لِمَنْ أَلْهَكَّا لَيْن﴾ [البقرة: الآية ١٩٨] الحائرين الجائرين عن صوب الصواب، ومعرفة المدخل والباب، ولا يصح عود الضمير المتصل «قبل» إلى الله - تعالى -، ولا إلى غير إلا بتكلف.

﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾ [البقرة: الآية ١٩٩].

هو تأكيد وتفصيل للأمر السابق، أي إذا وقفتم عندما شرعه محمد - ﷺ - ظاهراً وباطناً ففقوا حيث وقف الناس، وأفوضوا من حيث أفاضوا، فأقيموا معهم واجبات الشرع العينية، وواظبوا معهم على سنن الجماعات، ولا تخالفوهم في إقامة

(١) هكذا وردت في الأصل ولعل الصواب (على) بدل (عن) وتكون العبارة: على كل مخلوق الوصول إلى معرفة حقيقته ﷺ كما هي رغم أنها لم تُعلم ولن تُعلم أبداً. مصداقاً لما ورد في الأثر عنه ﷺ: «لا يعرف حقيقي غير ربي».

شعيرة من شعائر الدين، ولا تقولوا نحن الحمس أهل الحرم، وأصحاب الشرف، لا يلزمنا ما يلزم الناس، فإن هذا القول هو الضلال البعيد، والخسران الممين.

﴿وَأَسْتَغْفِرُوا اللَّهَ﴾ [البقرة: الآية ١٩٩].

اطلبوا منه الستر على أحوالكم التي تفضل عليكم بها، وخصكم بمزيتها، فإن الظهور يقطع الظهور، إلا لكامل متمكن واحد الوقت، وفي الخبر: «لا يستويان مؤمن يُشار إليه، ومؤمن لا يشار إليه»<sup>(١)</sup>.

فكما أن الرسول مأمور بإظهار حاله ونشر دعوته والتحذي بالمعجزة فالولي بضده مأمور بستر حاله، وإخفاء مواهب الله له، إلا لإخوانه أهل طريقته، فإن أظهره الله - تعالى - رغماً عليه فذلك أن الله - تعالى - لا اختيار له فيه، ولو خير لاختار الإخفاء.

\* \* \*

### الموقف الثاني والستون بعد المائة

قال تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَجِدَةٌ كَلَّحٌ بِالْبَصْرِ﴾ [الفجر: الآية ٥٠].

أمره - تعالى - هو أول صادر بلا واسطة، فهو قديم وهو عبارة عن التوجه والإرادة الكلية، فهو كلمته الكلية، وهو الحقيقة المحمدية المسماة بالروح الكلي، وبغيره من الأسماء. ولا تعرف المخلوقات جميعها من هذا الأمر سوى وجوده لا غير، فلا يعرف ما هو عليه إلا الله - تعالى - كما أنه هو لا يعرف من الحق - تعالى - سوى وجوده. ومن رآه رأى الحق - تعالى -، ومن عرفه عرف الحق - تعالى -.. وهو الحجاب الأعظم الذي لا يرتفع عن وجه الحق - تعالى - لا دنيا ولا آخرة، وهو الإزار، وهو الرداء، كما ورد في الصحيح. وليس بين القوم وبين إذ ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن، أخبر - تعالى - أن أمره الذي هو صورة علمه بالمعلومات إنما كان بكلمة واحدة، وهي «كن» من غير حرف ولا صوت، وإنما هو كلام نفسي، «فكن» عبارة عن التوجه الإرادي كما يتوجه أحدنا، ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾ [التحل: الآية ٦٠] على المرأة فتنتطبع صورته في المرأة بمجرد التوجه، فقام هذا التوجه مقام قوله لصورته، كوني مطيعة، وذلك كلام من غير حرف ولا صوت، ولا يستحيل شرعاً أن يكون بكلام لائق بجلالته ونزاهته، كلمح بالبصر، تشبيه في السرعة وعدم المعالجة والمزاولة. فإذا كان أمره الذي هو صورة علمه، وهو

(١) هذا الخبر لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع.

محتوي على جميع المعلومات إجمالاً وتفصيلاً، من عالم الأرواح، وعالم المثال، وعالم الأجسام، دنيا، وبرزخاً، وآخرة، جواهر وأعراضاً، صدر عنه كلمح بالبصر، فكيف بغيره من المخلوقات الجزئية. وما هي إلا كما قال: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [التحل: الآية ٤٠]. بل أمر الله يقول للشيء: ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾ [التحل: الآية ٤٠] كما قال، «إنما أمره» أي أمر الحق - تعالى - المتكلم عنه، إذا أراد شيئاً أن يقول له: ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾ [التحل: الآية ٤٠] به تعالى.

\*\*\*

### الموقف الثالث والستون بعد المائة

قال تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ﴾ [الأعراف: الآية ٢٠٥].

أي استشعر وتذكر معرفة ربك في شعورك بنفسك، وتذكر لها، بمعنى اعرف ربك في ضمن معرفتك نفسك. فإن معرفة الرب والنفس، كاللازم والملزوم، أو قل كالظل والشاخص. أو قل كالصورة في المرآة والمتوجه على المرآة. وإلى هذا يشير خبر: «من عرف نفسه عرف ربه».

وهذا الخبر - وإن أنكره الحفاظ وقالوا: إنه من كلام أبي بكر الرازي - فقد تداوله القوم - رضوان الله عليهم - في كتبهم، وبنوا عليه كثيراً من الحقائق فلعله صح عندهم كشفاً، بل قد صح عندنا شهوداً ووقوعاً. وأما رواية ووروداً عن رسول الله - ﷺ - فلا، ومعرفة الرب بمعرفة النفس أعلى وأشرف من معرفته بالعقل والعلم، وأعلى منهما؛ معرفته بالنفس مع الشرع. ومعرفته - تعالى - بالنفس هي التي قطع الصوفية رقابهم في طلبها، وضربوا إليها أكباد الإبل تضرعاً وخفية. إذا حصلت لك معرفة ربك بمعرفة نفسك، فعرفت من أنت وما نسبتك، وأنت الكنز المخبأ تحت جدار الجسم فلتكن حالتك دائماً مع هذه المعرفة: التضرع والخوف. ولا تقل: عرفت ووصلت فحسب، فإن المعرفة الحقيقية، من لوازمها الخوف والتضرع والإشفاق والانزعاج. فمن زادت معرفته زاد خوفه، كما قال السيد الكامل - ﷺ -: «أنا أعلمكم بالله وأشدكم له خشية»<sup>(١)</sup>.

(١) قال في المقاصد: قال شيخنا: صحيح، وقد ترجم البخاري في صحيحه بقوله ﷺ: «أنا أعلمكم بالله». كشف الخفاء للعجلوني ١/ ١٨٢ حديث رقم (٦٠٧). ورواية البخاري هي: «إن أتقاكم وأعلمكم بالله أنا». صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب قول النبي ﷺ: «أنا أعلمكم بالله» حديث رقم (٢٠).

وورد في الخبر: «إن الخليل - عليه السلام - كان يسمع لصدره أزيزاً كأزيز  
المرجل عند شدة الغليان، من الخوف» والملائكة الكرام يخافون ربهم من فوقهم وهم  
من خشيته مشفقون. فهذه حالة الرسل والأنبياء، وكمل الأولياء - عليهم الصلاة  
والسلام - كلما أمتهم ازداد خوفهم. فلا يأمن إلا جاهل، أو صاحب معرفة وهمية  
خيالية، أو صاحب حال ناقص، كيف؟ وهو - تعالى - يقول:

﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: الآية ٩٩]. فعمّ وما

خصّ:

﴿وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ [الأعراف: الآية ٢٠٥].

أي وفوق الأسرار. فليكن تضرعك وخوفك وسطاً من غير إفراط ولا تفريط.  
فإنه كلا طرفي قصد الأمور ذميم، فالأفضل الاعتدال في كل الأمور، كما قالوا:  
الخوف والرجاء كجناحي طائر. فمهما مال أحدهما سقط الطائر بالغدو والآصال.  
فليكن تضرعك وخوفك دائمين ما دمت متقلّباً بين الغدو والآصال، بمعنى ما دمت  
حيّاً مكتنفاً بالصباح والمساء، فإنه لا خلاص من التكليف بما يجب للربوبية على  
العبودية إلا بالخروج من الغدو والآصال، وليس ذلك إلا بالموت الاضطراري  
الطبيعي.

\* \* \*

### الموقف الرابع والستون بعد المائة

قال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا  
إِذَا مَا اتَّقَوْا وَءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَءَامَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَءَامَنُوا وَأَلَّهُ يَجِبُ  
الْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة: الآية ٩٣].

اعلم أن للإيمان - بحسب هذه الآية ثلاث مراتب، كما أن للتقوى هنا ثلاث  
مراتب.

فالمرتبة الأولى: الإيمان بالأشياء الغائبة عنا زماناً ومكاناً، مثل الإيمان بيوم  
القيامة والجنة والنار والدجال ويأجوج ومأجوج... ونحو هذا. فهذه المرتبة في  
الإيمان لا تنكرها العقول الإنكار الكلي، وتهرب من التصديق بها، فلربما جعلتها في  
حيز الإمكان، فقبلتها النفوس.

المرتبة الثانية: الإيمان بالأشياء الحاضرة معنا زماناً ومكاناً، كالإيمان مثلاً بنزول  
جبريل - عليه السلام - على رسول الله - ﷺ - ونحن جالسون معه إلى جنبه، وهما

يتكلمان ويتحاوران، ونحن لا نسمع ولا نرى، وكالإيمان بالملائكة الذين يتعاقبون فينا بالليل والنهار، وكالملائكة الحفظة الذين هم ملازمون لنا دائماً... ونحو ذلك، فهذه المرتبة تنكرها العقول وتشمئز منها النفوس، كيف تكون أجسام متكلمة سمعية بصيرة حاضرة معنا بين أيدينا، ولا حائل بيننا وبينها، ولا نبصرها ولا ندركها ولا نحس بها؟! فهذه المرتبة؛ الإيمان بها أعلى مما قبلها، لكون العقول تنكرها وتستبعدها، ومن هنا أنكرت الحكماء الملائكة والجن، وأنكرت المعتزلة الجن، وقالوا: إذا اجتمعت شرائط الإبصار الثمانية لا بد من الإبصار.

المرتبة الثالثة: الإيمان بما يجمع الضدين من جهة واحدة، لا من جهتين مختلفتين، فيكون عينهما كالحق - تعالى - فإنه الأول، الآخر، الظاهر، الباطن، الغيب الشهادة، الشاهد المشهود، ونحو ذلك، ككونه معنا أينما كنا. وأينما تولينا، فنم وجهه. فهذه المرتبة؛ الإيمان بها أعلى وأشرف من المرتبتين قبلها. فالإيمان بها صعب جداً على العقول، حتى على المؤمنين بالمرتبتين الأوليين، فكيف بغيرهما؟ ولهذا ترى علماءنا، علماء الظاهر من المتكلمين وغيرهم، لا تظمنن قلوبهم إلى الإيمان بهذه المرتبة حتى يؤؤلوا فتقبلها عقولهم.

وأما مراتب التقوى فالأولى: أن يجعل نفسه وقاية للحق - تعالى -، فينسب كل صادر منه من خير وشر إلى نفسه، فيفرح بطاعته ويحزن لمعصيته، وهو المعنى بقوله - ﷺ -: «المؤمن من سرته طاعته وسأته معصيته».

وهذه مرتبة العباد والزهاد، الذين خرجوا من الدنيا وقلوبهم مشحونة بالأغيار. فما برحوا من الشرك الخفي، فإنهم يرضون عن نفوسهم ويشيئونها إذا صدرت منهم الطاعة. ويغضبون عليها ويعاقبونها إذا صدرت منهم المعصية، وما ذلك إلا لشهودهم صدور أفعالهم من نفوسهم.

المرتبة الثانية: أن يجعل الحق - تعالى - وقاية لنفسه في الخير والشر، فينسب الكل إلى الله - تعالى - يقول:

﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٧٨].

﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ﴾ [النساء: الآية ٧٩].

[٧٩]، ﴿وَاللَّهُ خَلْقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصفات: الآية ٩٦].

وهذه مرتبة علماء الظاهر أصحاب التوحيد العقلي.



المرتبة الثالثة: أن يجعل نفسه وقاية للمحق - تعالى - في الشر، فينسب لنفسه أدباً وتفتياً لا فعلاً، قال السيد الكامل معلم الأدب - عليه السلام -: «والخير بيدك، والشر ليس إليك»<sup>(١)</sup>.

وقال تعالى: ﴿بِيَدِكَ الْخَيْرُ﴾ [آل عمران: الآية ٢٦].

ولم يقول «والشر» تأديباً لنا وتعليماً، ويجعل الحق - تعالى - وقايته في الخير، فينسب الخير إليه - تعالى - حقيقة وإيجاداً، ولذا قال الخليل - عليه السلام -:

﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء: الآية ٨٠].

فجمع بين النسبتين، نسبة المرض لنفسه، ونسبة الشفاء إلى الله - تعالى -، وقد برقت للمعتزلة بارقة من هذا الأدب، وما عاودتهم فضّلوا، قالوا بنسبة الخير إلى الله - تعالى - فأحسنوا، وقالوا بنسبة الشر إلى العبد خلقاً وإيجاداً فأساؤوا. هكذا نقله المتكلمون عنهم. والله أعلم بحقيقة الحال. فإن الظنّ بهم أنهم لا يصلون إلى هذا الحد، فينسبون الخلق للعبيد المخلوقين. وهذه المرتبة الثالثة مرتبة السادة العارفين، الذين خصّهم الله - تعالى - باكتساب الآداب، وهم الذين اتقوا وأحسنوا بدخول مرتبة الإحسان، فحصلوا على محبته - تعالى - للمحسنين:

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: الآية ١٩٥].

وهي المرتبة الثانية، من مراتب محبة الله - تعالى - لعباده، وجاوزوها إلى المرتبة الثالثة من مراتب المحبة، وهي مرتبة: «إذا أحببته كنت سمعه وبصره».

\* \* \*

### الموقف الخامس والستون بعد المائة

قال تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: الآية ٢٣].

أكثر الناس الكلام في التوكل. وأسدها أنه ثقة القلب، وحصول الطمأنينة بوصول القسمة الأزلية للعبد، بحركة أو سكون، من خير وشر ونفع وضر، ديناً ودنياً وآخر، قليلاً أو كثيراً، مؤقتاً محدوداً بزمانه ومكانه، وليس هذا إلا من مقام الإيمان بأنه - تعالى - لا يخلف وعده في قوله:

﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: الآية ٦].

(١) رواه مسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه، حديث رقم

ونحو ذلك. وأما العقل مجرداً عن الإيمان فإنه لا يعطي التوكل، بل يجوز أن الله يرزق عبده وأن لا يرزقه، من حيث أنه - تعالى - لا يجب عليه شيء لأحد. فليس التوكل إلا الثقة والطمأنينة، لا ترك الأسباب، مع الشك والاضطراب، فليس هذا من التوكل المطلوب في شيء، ولو كان ترك السبب والحركة توكلًا للزم إذا وضع الخبز بين يدي هذا المتوكل أن لا يتناوله ويرفعه إلى فيه، فإن هذا سبب وحركة لوصول الخبز إلى بطنه، وإذا وضع الخبز في فيه يلزمه أن لا يمضغه ولا يحرك لساناً ولا غيره، فإنها كلها أسباب لوصول الرزق إلى البطن، وما اعتنى القوم - رضي الله عنهم - بمقام التوكل وعدوه من رؤوس المقامات، وتكلفوا ترك الأسباب إلا ليحصلوا على الثقة وعدم الاضطراب عند فقد الأسباب. وهذه هي الثمرة والنتيجة لما تكلفوه، إذ المقامات لا فائدة في أعيانها وإنما الفائدة في ثمراتها. فإذا حصلوا على الثمرة؛ رجعوا إلى استعمال الأسباب العادية والحركات المعهودة لحصول ما يطلبون كسائر الناس. فطلبوا وأجملوا في الطلب، فإذا لم يحصل المطلوب قالوا: «لو شاء الله لكان» فلا يقول بترك الأسباب إلا صاحب حال أو جاهل بالطريق وبالسنة، فتارك السبب مع التمكن منه مأزور بترك الحكمة وتعطيل صفة من صفاته - تعالى - . فمن نظر إلى باطن العارف وجده جيباً لا يتحرك، ثابتاً لا يتدكدك، ليس له نظر إلى الأسباب ولا عبرة له بها. ومن نظر إلى ظاهره رآه كالطائر من غصن إلى غصن، ومن شجرة إلى شجرة. فهذا سيد العارفين وإمام المتوكلين - ﷺ - جئد الأجناد وظاهر بين درعين، وحفر الخندق، وأذخر قوت سنة، وتداوى واحتجم، واكتوى، وما ترك شيئاً إلا فعله، قال تعالى:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: الآية ٢٠]. ليبعوا ويشترؤا وقال:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَدُرِيَّةً﴾ [الزهد: الآية ٣٨].

إلا من أقامه الحق - تعالى - في مقام التجريد، وعسر عليه الأسباب، بحيث أنه لا يجد إليها سبيلاً، ولو سعى. فهذا كامل، ولو ترك الأسباب. وكذلك الزهد يتصوره عوام أهل الطريق على غير وجهه، وإنما هو صرف القلب عن الرغبة فيما سواه - تعالى - وفيما سوى ما يقرب إليه لا غير، فإن ما يزهده فيه، إما أن يكون من نصيب الزاهد وقسمته، أو لا. فإذا كان من قسمته تناوله أحب أم كره، ولا يندفع

عنه، ولو استعان بأهل الأرض والسماء. وأما أن لا يكون مقسوماً له، فزهد في ماذا؟! أيزهد في قسمة غيره؟ فما قُدِّرَ لفكيك أن يمضغاه؛ لا بدُّ أن يمضغاه. وعندما ورد الوارد بهذا الموقف ترددت في تقييده وقلت في نفسي: لا كبيرَ فائدة فيه لإخواني. وبعد زمان يسير حضرت لي أكلةً في غير زمانها ومكانها، كنت عزمت وجزمت قبل ذلك أنني لا أكلها، وحين حضرت حصل لي يقين بأنها من رزقي، بقرائن أحوال دلت على ذلك. فقلت: صدق الله وكذبت، وقيدت هذا الموقف، وعلمت أن هذا تأديب، فليعرف العبد العاجز الجاهل منزلته ويفوض أمره إلى مَنْ يخلق، ما يشاء ويختار، ويترك التدبير معه والاختيار.

\* \* \*

### الموقف السادس والستون بعد المائة

قال تعالى: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة: الآيتان ٢٢،

. [٢٣]

وجوه ناصرة ناعمة مسرورة منبسطة، تلوح عليها شواهد الفرح، فإنه لما كان الوجه هو العضو الذي يقابل به الإنسان الأشياء، جعله الحق - تعالى - بيدع حكمته، ووسيع رحمته، مثل المرأة تظهر فيه الأحوال القلبية والأمور الوجدانية المعنوية، التي لا يمكن لصاحبها أن يعبر عنها بعبارة تصورها لغيره بل هو لا يتصورها، فإن الفرح والحزن، والقبض واليسط، والحياء والوقاحة، والحب والبغض، ونحوها من الأمور التي لا تصورها العقول، جعلها الحق - تعالى - تظهر في مرآة الوجه؛ فيحكى الوجه ويخبر عنها، من غير سؤال ولا حرف، ولا صوت. والنعيم واللذة والفرح - وإن تعددت مظاهرها - فمرجعها إلى زوال الحجاب، ورفع النقاب، ولذلك عقب - تعالى - بقوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة: الآية ٢٣].

أي أنها كانت ناصرة ناعمة مسرورة بنظرها إلى ربها. برفع الحجاب بينه وبينها، فتمتعت برؤياه، وشميم رؤاه. ونظرها إلى ربها لا يكون إلا من وراء مظهر صوري، أو معنوي، دنيا وأخرى، فإن الرؤية بغير مظهر محال:

كالشمس يمنعك اجتلاؤك نورها فإذا اكتستت برقيق غيم أمكننا

يعني: لا بدُّ في الرؤية من حجاب. والحجاب أمرٌ معنوي لا عين له قائمة، وإنما هو معنى قائم بالصور الجسمية أو الجسمانية أو المعنوية. فليس المراد من

رفع الحجاب رفع أعيان الصور، بل رفع المعنى القائم بها، فإنه الحجاب. فإذا ارتفعت الحجابية من الأعيان؛ صارت كلها مرايا لرؤية وجه الحق - تعالى - فيها وهي على حالها، ما تغتير منها شيء في الظاهر. فكما كانت الحجابية قائمة بها، تصير المرآة قائمة بها، فيرى الحق في كل ما يرى. كما أنه كان يحجبه عن الحق كل ما يرى، فسبحان الحكيم القهار، فليعرف الطالب من الله - تعالى - رفع الحجاب ما يطلب. فإنه إنما يطلب رفع المعنى الحجاب، لا رفع الأعيان، حتى لا يكون جاهلاً بما يطلب، فإن الأعيان لا ترتفع. ولو ارتفعت ما كانت رؤية لأنها مرايا رؤية الوجه. والإنسان لا يرى وجهه بغير مرآة ونحوها أبداً، وإن عينك ونفستك من أعم الحجب، ولا تعرف ربك إلا بها، حين تزول حجابيتها وتصير مرآة، فلو ارتفعت من ذا الذي يرى؟! فإذا كنت في حجاب فليس الحجاب ما ترى، وإنما الحجاب ما لا ترى، فإذا زال الحجاب فليست المرآة ما ترى؛ إنما المرآة ما لا ترى. ومع هذا لا بد من الصورة في حالة الحجاب وحالة الرؤية، فإن قلت: سمي الحجاب: القائم بالمحجوب؛ صح لك ذلك. وإن قلت: الحجاب لا قائماً بالمحجوب ولا بالمحجوب عنه؛ صح لك ذلك، وقال: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة: الآية ٢٣].

أي ربها المضاف إليها إضافة اختصاصية، لا رب غيرها. فإن أحداً لا ينظر إلا ربّه، دنيا وآخرة، ولا يعرف إلا ربّه، فإن دائرة مرآة الربوبية واسعة، فلا يأخذ أحد منها إلا ما يخص صورته، فلا يرى إلا استعداده أي حقيقته، وهو ربّه، ولذلك يعبر بعضهم عن هذا المعنى: بأن أحداً لا يرى إلا نفسه. فافهم واعرف.

والرؤية البصرية في الآخرة تابعة للعلم. فكل من كان علمه في الدنيا أتم، كانت رؤيته في الآخرة أوسع، وأوسع المرايا مرآة السيد الكامل - ﷺ - كما أن المشاهدة في الدنيا تابعة للعلم، فلا يشاهد المشاهد في الحق - تعالى - إلا صورة علمه، سواء كانت المشاهدة في مرآة نفسه أو في مرآة غيره، وأكثر من هذا البيان؛ ما أظنه يوجد في كتاب، والقوم - رضي الله عنهم - ما فرّقوا بين الرؤية والمشاهدة، كما هو مقتضى الوضع اللغوي، إلى أن جاء الشيخ محيي الدين - رضي الله عنه - ففرّق بينهما تفرقة اصطلاحية له، فقال: المشاهدة لا بد أن يتقدّمها علم بالمشهود، بخلاف الرؤية، فلا يشترط أن يتقدّمها علم بالمرئي. فكل مشاهدة رؤية ولا ينعكس. يريد أن المنظور إليه، إذا لم يتقدّم للنّاظر علم به، فإن هذا يسمى رؤية لا مشاهدة، ولا يقع في هذا إقرار ولا إنكار. وأمّا إذا تقدم للنّاظر علم بالمنظور؛ فإنه يُسمى مشاهدة

ورؤية، ويقع فيها الإقرار والإنكار، ولذا وقع الإنكار من أهل المحشر، لأنه تقدم لهم علم بربهم، وهي العقائد التي كانت لهم في الدنيا، فلو لم يتقدم لهم علم به ما أنكروه، فكانت رؤية. مثلاً إذا حضر عندك إنسان ما كنت تعرفه ولا تبلغك شيء من أوصافه وأحواله، وقيل لك، هذا فلان، فلا يتصور منك إنكار له ولا إقرار به، فتكون هذه رؤية لا مشاهدة. وإذا كان إنسان آخر كنت تسمع باسمه وتبلغك أخباره وأوصافه وأحواله، حين تصوّرت في خيالك صورة له من سماع أوصافه وأحواله، ثم حضر عندك وقيل لك: هذا فلان الذي كنت تسمع بأوصافه وتبلغك أخباره ومناقبه، فإنك إذا وجدته على الصورة التي تصوّرتها أقررت به، وإن وجدته على خلافها أنكرته، فهذه رؤية ومشاهدة. وانظر فإن رسول الله - ﷺ - سُمي ما يقع من التجلي في الآخرة رؤية، وهو أيضاً مشاهدة، كما علم مما مرّ، ومحصل هذه التفرقة؛ إنما يكون بالنسبة إلى المتجلي له. فإن كان ممن علم الحق - تعالى - في معتقد، وصوره بصورة، واعتقد أنه لا يتجلي - تعالى - بغير تلك الصورة التي اعتقدها؛ فهذا إذا تجلّى له الحق - تعالى - بغير تلك الصورة؛ أنكروه، وإذا تجلّى له بتلك الصورة أقرّ به، فهذه الحالة تسمى عند الشيخ - رضي الله عنه - مشاهدة، ويقع فيها الإقرار والإنكار، ويشترط فيها تقدم علم بالمشهود. وأما إذا كان المتجلي له، ممن عرف الحق - تعالى - بالإطلاق فهو لا يحكم عليه بصورة خاصة، فهو لهذا لا ينكر الحق - تعالى - في أي صورة تجلّى له. فهذه الحالة تسمى رؤية ولا يكون فيها إقرار ولا إنكار، ولا يشترط فيها تقدم علم خاص بالمتجلي، فكل مشاهدة رؤية، إذ ليس المتجلي إلا الحق - تعالى - في حال الإقرار به والإنكار له، وما كل رؤية مشاهدة، إذ المشاهدة يقع فيها إقرار وإنكار، لشرط تقدم علم بالمشهود، قال بعض العارفين: الحق يشهده كل أحد، ولا يراه إلا القليل.

\* \* \*

### الموقف السابع والستون بعد المائة

قال تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ﴾ [الأعراف: الآية ٢٠٤].

لأنفسكم أو قرأه غيركم لكم، وهذه هي النكتة في بنائه للمجهول:

﴿فَاسْتَمِعُوا لَهُمْ وَأَصْبِحُوا﴾ [الأعراف: الآية ٢٠٤].

على أنكم تستمعونه من الله، فالكلام كلام الله، والمتكلم به الله، وعلى أن سامعه هو الله، فإنه المتكلم والسامع من كل أحد، عرف أو جهل، فإذا كان

المستمع هو القارىء؛ يكون كمن تحدثه نفسه وهو يستمع حديثها. فسامع القرآن بهذه الطريقة يأتمر لأوامره، وينزجر لزوجره، ويتعظ بمواعظه، ويتيقظ لإشاراته، وحينئذ تكون رحمة هذا المستمع محققة واجبة الحصول، لأن «العلل» من الله واجبة، كما قال العلماء، وأما إذا سمعه بغير هذه الطريقة فلا يكون داخلًا تحت هذا الوعد الكريم، فلا تكون رحمة محققة، وإذا كان القارىء غير المستمع، فربما كان لا يسمع منه إلا نعماته وتمطيظه، وحسن صوته فلا يدرك المعاني فضلاً عما وراءها، وإذا كان هو القارىء، فربما كان ممن قال فيه رسول الله - ﷺ -: «رَبِّ قَارِئٍ وَالْقُرْآنِ يَلْعَنُهُ».

يقول لعنة الله على الظالمين، على الفاسقين، على الكاذبين، وهو منهم فمن أراد الحصول على الكنوز فليكسر الأقفال يظفر بما وراءها.

\*\*\*

### الموقف الثامن والستون بعد المائة

قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَأَسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: الآية ٦٤].

ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم بارتكاب المنهيات الشرعية، وترك المأموريات الإلهية، جاؤوك، أي جاؤوا إلى طريقتك وسنتك حينًا كنت أو ميتًا، عازمين على ترك ما كانوا عليه من المخالفات، تائبين، مجيء انقياد واتباع لك، في الأقوال والأفعال والأحوال؛ فأثمر لهم ذلك كشفًا عن بصائرهم، فنظروا الأشياء كما هي، وعرفوا الحقائق على ما هي عليه، فاستغفروا الله إذ حصلوا على هذا الكشف، فقد استتروا بالله، أي صار غفرًا لهم، والغفر الستر، وتبدلت نسبتها إليهم بنسبتها إليه - تعالى -، كما هو الأمر في الواقع، لأنهم عرفوا أن ما كان منهم إنما هو مقتضى استعداداتهم واستعداداتهم العلية، فاستتروا واستغفروا بالذات، فدخلوا كما تدخل تحت الشخصيات الظلال، حيث رجع الاقتضاء والفعل للذات، فليس القضاء والحكم إلا ما اقتضته لذاتها الذات، وحكمت به.

﴿وَأَسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ﴾ [النساء: الآية ٦٤].

حينًا وميتًا، طلب الستر لهم بالوصول إلى هذه الدرجة العليا، وذلك بإمداده وإرشاده - ﷺ - حينًا وميتًا لوجدوا الله توابًا كثير الرجوع من الغضب إلى الرضى،



ومن النعمة إلى الرحمة، فينسخ ما شاء بما شاء، ويمحو ما يشاء ويثبت ما يشاء، فيسمى ما كان سئاه معصية شرعية؛ طاعة إرادية أمرية، ويبدل السيئة بالحسنة:

﴿ فَأُولَٰئِكَ يُدِدُّ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ﴾ [الفرقان: الآية ٧٠].

وسبب هذا هو الحصول على ما ذكرنا، فإن الواصل إلى تلك المرتبة لا يشقى، والتبديل إنما يقع على الصورة والحكم، فالسيئة الكبيرة تبدل حسنة كبيرة والسيئة الصغيرة تبدل حسنة صغيرة، وقد ورد في الخبر، أن صاحب هذا المقام يقول: «يا رب إن لي سيئات، ما لي لا أراها ههنا».

﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ [الحديد: الآية

[٢١].

\*\*\*

### الموقف التاسع والستون بعد المائة

قال تعالى: ﴿ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ ﴾

[النساء: الآية ٧٩] التي هي الله حقيقة. فالكل من الله.

فلا غيرية، ولا سوائية، وإنما غاير بينهما: ليعلمنا الأدب القولي، الذي يدركه العام والخاص، والجاهل والعالم، لا الأدب الاعتقادي، فإنه لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا، لا علينا، إذ كل ما كتبه في اللوح؛ إنما هو ما علمه منّا، وذلك مقتضى استعداداتنا التي هي نفوسنا. فلذلك كان لنا لا علينا، هو مولانا المنفرد بالخلق والإيجاد، للخير والشر، والنفع والضّر، فهو الله في مرتبته العلية الإلهية، الظاهر بالنفس، في مرتبته النفسية، وهو هو. فالنفس ما هي شريرة ولا خبيثة، بل نزيهة طاهرة. وإنما هي منفذة الخبث بحسب القضاء الأزلي والحكم الإلهي بالجسم، فلا يمد الإنسان بالخير والشر إلا نفسه التي ليست مغايرة للحق - تعالى - إلا بالاسم والحكم، لا بالحقيقة. فلا يمد شيء شيئاً غيره، وإنما المدد صادر من باطن الشيء إلى ظاهره، خيراً وشرّاً، وظاهر الشيء صورته الخارجية، وباطنه هو صورته الأسمائية، فلا يلومن أحد إلا نفسه، ما دام جاهلاً بحقيقة الحال، فإذا علم؛ وجد ما ظنه غير ملائم لنفسه؛ ملائماً ومطلوباً لها، بل لا تقبل غير ما حصل لها.

\*\*\*

## الموقف السبعون بعد المائة

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الغنكبوت: الآية ٤٢].

الحق - تعالى -، تارة يكلم عباده من مرتبة الفرق والفرقان، وتارة يكلمهم من مرتبة الجمع والقرآن.

فمن الأول قوله: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ﴾ [النحل: الآية ١٧]، ﴿هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكَ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الرؤم: الآية ٤٠]، ﴿فَبِعَمَلِ الْقَادِرُونَ﴾ [المُرسلات: الآية ٢٣]، ﴿أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: الآية ١٤]، ﴿اعْمَلُوا فَسِيرَىٰ لِلَّهِ عَمَلِكُمْ... بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الثورة: الآية ١٠٥]. «تفعلون تكسبون، أقيموا الصلاة، آتوا الزكاة، لا تفربوا الفواحش، لا تقتلوا النفس». ونحو ذلك، فإن الأمر الناهي لا يأمر نفسه ولا ينهاها.

وفي الثاني قوله: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ [الأنفال: الآية ١٧]، ﴿يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ [الثورة: الآية ١٤]، ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: الآية ١٠]، ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الغنكبوت: الآية ٤٢].

هو غير الله، إذ لا غير له - تعالى -، فما تدعون من دونه من شيء، أنبتون الله بما لا يعلم في السموات ولا في الأرض، له وجوداً وهو الغير والسوا، فما تدعون من الأصنام، والشركاء، والأرباب والوسائط والأسباب، كل ذلك هو الله. فما دعوتهم في دعائكم أيهم إلا الله سبحانه وتعالى عما يشركون، في اعتقاد غيرية شيء له - تعالى - في الأرض أو في السماء.

\*\*\*

## الموقف الواحد والسبعون بعد المائة

قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ﴾ [القدر: الآية ٥٤].

التقوى جنس تحته أنواع وأصناف، والمتقون هنا هم الذين اتقوا حقيقة التقوى، فـ «أل» في المتقين للكمال، جعلوا وجوده - تعالى - سترًا لهم، مرقوا حجب الأكوام والأسماء والمراتب، إلى أن وصلوا إلى عين حقيقتهم، فكانوا متقين بها، وكانت لهم مجتًا من دون كل متقي.

في جنّات، ستور غابوا بين ورائها، فكانت دونهم، وهي أستار الأكوان والأسماء، فهم العرائس المخدّرات، ضنائن الله من خلقه، لا يراهم إلا محرم من حيث ظواهرهم. وأما من حيث بواطنهم فلا يراهم إلا الله، فإنهم لا يبدون من زينتهم، التي هي الخصوصيات الإلهية، والكرامات العلمية العرفانية إلا ما ظهر منها، وهم الذين دعاهم ربهم إلى دخول جنّته، وهي ذاته، لسابق عنايته بقوله القديم:

﴿كُنَّا بِنهَا النَّفْسِ الْمُطْمِئِنَّةِ ﴿٢٧﴾ أَرْجِعْ إِلَى رَبِّكَ رَاضِيَةً مَرْضِيَةً ﴿٢٨﴾ فَأَدْخِلْ فِي عِبَادِي ﴿٢٩﴾ وَأَدْخِلْ جَنِّي ﴿٣٠﴾﴾ [الفجر: الآيات ٢٧ - ٣٠].  
﴿وَمَهْرٍ﴾ [القمر: الآية ٥٤].

سعة وإطلاق وقضاء لا حد ولا قيد ولا حصر، ما حدّتهم حدود الأكوان، ولا قيّدتهم قيود الأسماء والصفات، ولا حصرتهم المراتب، جاوزوا القضاء والقدر، فلم يكونوا تحت حكمه، بل القضاء والقدر تحت حكمهم.

﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾ [القمر: الآية ٥٥].

الإضافة بيانية في المقعد الذي هو الصدق، بمعنى الحق الثابت، وهي كناية عن القرب الذي لا يتصوّر قرب بعده، كقوله زيدٌ منّي معقد القابلة. وكل قرب قبله فليس بمقعد صدق، أي ليس بمحل الحق الثابت، إذ يجوز الانتقال عنه؛ إلا هذا، فإنه محلّ قعود وثبوت لا حركة منه، فإنه الغاية القصوى للطالبين، وهو الموطن الأعلى محل الحقائق، حيث لا موطن ولا محل، بل شيء واحد لا مغايرة ولا ممايزة، فمن وصل إلى هذا فقد وصل مقعد الصدق:

﴿عِنْدَ مَلِكٍ مُّقَدِّرٍ﴾ [القمر: الآية ٥٥].

والعنديّة في حق هؤلاء المتقدمين مجاز، بل لهم العينية لا العنديّة، آه آه، ولولا لجام الشرع قلت ما لم يقل:

ولكن لجام الشرع أحكم حكمة لذلك تراني حاتمًا ومموها

بأية لفظة تناسب حكمتي، ومن لم يصل إلى هذا، الذي نقول عنه بنفسه، فمن المحال أن يوصله إليه غيره، فإن المخبر - ولو بالغ في الإيضاح والبيان غاية ما يمكن - لا يزيد السامع الجاهل رأسًا إلا حيرة وإبهامًا، لأن الألفاظ وضعت للمعاني المتواضع عليها بين المتكلّم والمخاطب. فيتكلّم المتكلّم بما في نفسه؛ فيعرفه مخاطبه، والمعاني ليست بمحصورة، بخلاف الألفاظ؛ فإنها محصورة متناهية

في كل لغة، فإذا كان المعنى، ممّا لم يوضع له لفظ يدل عليه؛ فيحتاج المتكلم في إفهام مخاطبه ما في نفسه؛ إلى أن ينظر في الألفاظ المعروفة للمخاطب، ما يقارب أو يناسب بالمجاز أو الاستعارة أو الكناية أو نحو ذلك، فيعبر له به عن مراده. وربّما يكون المخاطب لا يلتفت ذهنه إلى ذلك المعنى المراد المعبر عنه بالمجاز ونحوه، أو يكون لذلك المعنى، لفظ عند المتكلم يدل عليه، ولكن المخاطب لا علم له بذلك، فيكون مثل العربي مع العجمي، فيبقى ذلك المعنى كنزاً مظلمساً أو كنزاً ضاع مفتاحه، والباب مردوم. ولكن في الأخبار فوائد على كل حال. فربّما يكون السالك قارب الوصول إليه فيشم رائحته، بسبب ما وصله من الخير، فيجد في الطلب. وربّما وصله فيتيقن أنه هو الذي كان سمع خبره. وربّما أفاد الإخبار السامع تشوقاً، فانبعث همته. فإنّ النفوس مجبولة على حبّ التشبه بأهل الكمال، فيما كان كمالاً عندها.

\* \* \*

### الموقف الثاني والسبعون بعد المائة

قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ أُمَّتِكَ رَيْكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا﴾ [الأنعام: الآية

[١٥٨].

ورود في الأخبار الصحيحة أن ذلك اليوم هو يوم طلوع الشمس من مغربها، فاعلم أن هناك شمساً حقيقة، وشمساً مجازاً، وكلاهما بطلوعه من مغربه يغلق باب التوبة، ولا ينفع نفساً إيمانها. فأما الشمس مجازاً فهو الكوكب النهاري، الذي هو معدن الأنوار الحسيّة وطلوعه من مغربه وما يتبع ذلك مشهور عند الجمهور. وأمّا الشمس حقيقة وهي أصل الأنوار الحسيّة والمعنوية، كما قال: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [التور: الآية ٣٥].

فطلوعه من مغربه هو انكشافه وإشراقه من محل غرويه وانحجابه واستتاره، وهي النفس، فإنها حجاب شمس الحقيقة ومغربها، وطلوعها من مغربها الذي هو النفس معرفتها منها: «من عرف نفسه عرف ربه».

فصار المغرب مطلعاً ومشرقاً، وهذه الآية أعظم من كل آية، ولا مغيب لشمس الحقيقة بعد طلوعها من مغربها، فإن مغربها هو الذي كان يحجبها ويسترها، وقد صار هو مشرقها ومطلعها. فلا مغيب لها أبداً، كما قيل:

إن شمس النهار تغرب بالليل وشمس القلوب ليست تغيب

وحينئذٍ يغلق باب التوبة المعروفة، عن هذا الذي طلعت عليه الشمس من مغربها، لأن التوبة رجوع، والذي طلعت عليه شمس الحقيقة من مغربها؛ إلى من يرجع؟ فإنه انكشفت له المعية الإلهية، والإحاطة الربانية، فلم يكن له من يرجع إليه، فقد انمحقت الأغيار، واتحدت الأنوار، فلم يبق إلا الله الواحد القهار، له الحكم وإليه ترجعون، فهذا قد رجع في الدنيا قبل الآخرة، وقامت قيامته، بل تلزمه التوبة من التوبة المعروفة عند العموم، فإنها قد صارت بالنسبة لصاحب هذا المقام خطأ وذنباً وجهلاً، إذ حسنات الأبرار سيئات المقربين، ولا ينفعه إيمانه حينئذٍ، فإن نفع الإيمان حالة الحجاب قبل الشهود والعيان، وطلوع الشمس التي لا يحتاج معها برهان، فإذا صار الغيب شهادة، والخير معاناة؛ لا ينفع نفساً إيمانها، وإنما ينفعها شهودها وعيانها، فتبدل أحوالها ونياتها ومقاصدها، التي كانت لها حالة إيمانها، إلى أحوال ونيات ومقاصد غيرها. أعني تتغير أحوالها الباطنة، وأما الظاهرة فلا يتغير منه ولا قلامة ظفر، بل يبقى على أحواله الظاهرة المرضية شرعاً، وعلى طريقته الممدوحة عرفاً وطبعاً، وعلى حرفته المباحة المناسبة لحاله ومقامه، عند أمثاله. هذه حالة العارفين بعد فتح باب المعرفة لهم، وطلوع الشمس لهم من مغربها. وغير هذا تصنع. ولأن يلقي العبد ربّه بجميع الذنوب سوى الشرك، أهون من أن يلقاه بذرة من التصنع للخلق.

\* \* \*

### الموقف الثالث والسبعون بعد المائة

قال تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [مخشد: الآية ١٩].

أمر تعالى نبيه - ﷺ - بالعلم في معرفة ألوهيته. ونحن مأمورون بأمره اتباعاً له، والعلم على أصح الحدود، كما قال المتكلمون؛ صفة ينكشف بها المعلوم، على ما هو عليه، انكشافاً لا يحتمل النقيض. أو حصول صورة الشيء في النفس، على ما قالت الحكماء. وعلى كل؛ فالحاصل من النظر الفكري في حق الإله - تعالى - ما هو علم. فإن من المعلوم تواتراً أن أكابر المتكلمين في التوحيد بالنظر العقلي يعتقد أحدهم المسألة في جانب الإله عشر سنين مثلاً أو عشرين. ثم يبدو له بطلانها، بل يعيش أحدهم مدة عمره على عقد في جانب الألوهية. وقبل موته بيسير يبدو له خلافه فيرجع عنه. وما يدريه أن جميع ما عقده في جانب الإله كذلك؟! فلو كان الحاصل لهم علماً ما كان احتمال هذا. وحيث كانت إدراكاتهم في الجانب الإلهي تحتمل

النقض والتشكيك؛ اختلفت مقالاتهم، ولعن بعضهم بعضاً وكفّر خطأ بعضهم. فالإله الذي عرفه الأشعري غير الإله الذي عرفه المعتزلي، غير الإله الذي عرفه الظاهري، غير الإله الذي عرفه الحكيم الفيلسوفي. وعليه؛ فما زعموه علماً بالله ليس بعلم، بل هو تخيّل وتوهم؛ فالحاصل لهم إدراك، ومن أفراد التوهم والتخيّل، فالعلم بالله إذاً فيما جاءت به الرسل والأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - لهذا ما اختلفوا في إلههم، ولا لعن بعضهم بعضاً، ولا خطأ. بل علمهم بالله واحد وأمرهم جميع. كما قال: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: الآية ١٣].

فالدين هو توحيد الإله. وإقامته هو الإخبار عنه بما أخبرهم به - تعالى - عن نفسه، ممّا تحتمله البشرية من نعوته وأسمائه. فالإله الذي عرفته الأنبياء والرسل وأتباعهم، غير الإله الذي عرفته جميع الطوائف النازرة بعقولها، وموازين أفكارها إسلامية وغيرها، فإن إله الرسل والأنبياء - عليهم السلام - مع أنه ليس كمثل شيء، يجيء وينزل، ويهرول ويسعى، ويضحك ويشبش، وله قدم ووجه، وجنب وعين، وأعين ويدان وأيدي، ويجوع ويمرض. وهذا الإله لا تعرفه جميع الطوائف، ولا تصدق بوجوده، بل تكفّر ما جاءت به الرسل من نعوته إن كانت كافرة، وتؤوّل له إن كانت مسلمة، حتى ترتضيه وتقبله عقولها، فإذا جاء ربّ الأشعري إلى المعتزلي أو الظاهري، أو الحكيم وقال لهم: أنا ربكم. قالوا: نعوذ بالله منك، لست أنت ربنا!! وهذا مكاننا حتى يأتينا ربنا، فإذا جاءنا ربنا عرفناه، وهكذا كل طائفة إذا جاءها ربّ الأخرى تعوذت منه وأنكرته، وذلك لأن أرباب أصحاب العقول مقيدة محدودة محصورة تحت أحكام العقول، فلا تعطيهما العقول السراح ولا تطلقها من قيودها، حتى تضحك أو تهرول أو تجوع أو تتحول من صورة إلى صورة، ونحو ذلك بخلاف ربّ الرسل والأنبياء ومن تبعهم فإنه مطلق لا قيد، ولا حصر، ولا حد، يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، إن الحكم إلا لله، فيتجلّى كيف شاء بما شاء لمن شاء، وله أن يفعل جميع ما منعه منه العقول، ممّا نعتته به أنبيأؤه ورسله، مع أنه ليس كمثل شيء؛ فإنهم ما نعتوه إلا بعلم وأذن منه. وربّ الأنبياء والرسل ومن تبعهم؛ لا ينكره أحد منهم، إذا قال لهم: أنا ربكم، بل لا ينكرون أرباب الطوائف كلها، فإنهم عرفوا الربّ المطلق، الذي يحكم ولا يُحكم عليه، فمن نظر بعين الإنصاف ورمى التقليد أو التعصب والاعتساف، عرف الحق فعرف أهله:



﴿أَرْيَا بَئِذٍ مُّتَّفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [يُوسُف: الآية ٣٩].

فمن أراد معرفة إله الرسل والأنبياء ومن تبعهم - عليهم الصلاة والسلام - فليتبع سنتهم، ويقف عند حدودهم التي حدوها، ويقنطري بهم ظاهرًا وباطنًا، ويستعمل الأسباب التي وضعها كَمُلِّ العارفين، الداعين عباد الله - تعالى - إلى معرفته على طريقة الأنبياء، فليواظب عليها فإنه لا سبيل إلى معرفة الله المعرفة المطلوبة منَّا إلا بهذه الطريق لا بغيرها من الطرق العقلية أو الرياضية، على غير طريق الرسل وسنتهم. اللهم إني قد بلغت النصيحة فأنا لكم ناصح أمين وما أسألكم عليه من أجر، أنا النذير العريان، ولا خير بعد عيان.

\*\*\*

### الموقف الرابع والسبعون بعد المائة

قال تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ لَتُنْفُونَ﴾ (٥٢) وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ﴿[النحل:

الآيات ٥٢، ٥٣].

نفي وإنكار على مَنْ يَتَّقِي ويخاف غير الله، ويرى نعمة الله من غيره - تعالى - فيرجو، وإذا مسَّه الضر، جأ إلى الله كما يجأ للبعيد من الغائب عنه، فإذا كشف الضرَّ عنه أشرك به، ونسب الكشف إلى غيره - تعالى - . وفي الآية حذف من الأوائل؛ لدلالة الأواخر، وحذف من الأواخر؛ لدلالة الأوائل، فهي في التقدير:

﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ لَتُنْفُونَ﴾ [النحل: الآية ٥٢].

وما بكم من خير وشرٍّ فمن الله، أفغير الله ترونه منعمًا فترجونه:

﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل: الآية ٥٣].

أنكر عليهم - تعالى - جهالتهم وكشف لهم ضلالتهم، أن يَتَّقُوا ويخافوا مخلوقًا، مع اعتقادهم أنه غير الله، فإن غير الله لا يملك ضرًّا فلا يَتَّقَى، مع أنهم في نفس الأمر ما اتقوا إلا الله. ولكن التبس عليهم الأمر، إذ لا غير أصلًا لوحدة الحقيقة، والغيران أمران وجوديان، لا اشتراك بينهما في صفة النفس، وهذا شيء لا وجود له في مشرب التحقيق، فالأغيار أوهام وتخيلات، لأن الوهم من حقيقته أن ينزل النسب والاعتبارات والإضافات التي لا وجود لها، منزلة الحقائق المعقولة والمحسوسة، فجهلوا جهالتين، جهالتهم بالله وعدم معرفته، وجهالة اتقاء الغير مع اعتقادهم أنه

غير، ولو عرفوا لانتقوا الله في مظاهر أسمائه الانتقامية، وهي مقدراته، ومصوّراته، ومكوناته، التي جعلها محال لأن يخلق الضرر عندها وبها:

﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [التحل: الآية ٥٣].

كما اتقيتم غيره - تعالى - مخافة ضرره بأوهامكم العاطلة، كذلك رأيتم نعمه عليكم من غيره فرجوتموه طمعاً في نعمه، وتوهمتم أن النعمة الواصلة إليكم بواسطة مظاهره - تعالى - هي من غيره. كلاً وحاشا:

﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [التحل: الآية ٥٣].

لا من غيره، إذ غيره - تعالى - لا يعطي ولا يمنع، ولا يضر ولا ينفع، ثم إذا مسكم الضرر، حيث ما نفعكم اتقاء من اتقيتموه فأوصل إليكم ضرره وشره، على اعتقادكم. أو خاب رجاؤكم فيمن رجوتموه فما وصلتكم منه نعمة؛ جأرتكم إلى الله بالتضرع والدعاء جوار الجهلاء ودعوتموه يرفع أصواتكم دعوة الجفلاء، لأنكم توهمتم بعده منكم، وانفصاله عنكم، وهو أقرب إليكم من جلسائكم، ومن حبل ويريدكم. بل أقرب إليكم من أنفسكم، فإذا أجاب دعاءكم وكشف الضرر عنكم. مع هذه الجهالات والآداب السيئة والأوهام الباطلة؛ إذا فريق منكم بريهم يشركون، فينسبون ما حصل من كشف ضرر، ورفع شر، وجلب نعمة، وأفضال ورحمة، إلى الأسباب المعهودة، والوسائط المشهودة، ونسيتم الله - تعالى - مسبب الأسباب، وخالق الوسائط، فحجب الأسباب أعظم بليّة، وأكبر رزيّة، على أهل الحجاب، ولا تتوهم إذا رأيت عارفاً خاف، أو رجاً مخلوقاً، أو اعتبر الأسباب في ظاهره أنه مثل المحجوب في هذا، هيهات!! فالعارف إنما يخاف الله في مظهره، ويرجو الله منها، إذ هو - تعالى - وضع الوسائط والأسباب وأمر بمراعاتها حكمة وعدلاً، فشارك العارف حكم لا حقيقة، إذ هو متحقق بالوحدة الحقيقية فهو موحد، خالص التوحيد، لا غير بالذات عنده. فمراعاته للأسباب، علامة كماله، ورسوخ قدمه في المعرفة بربه، والأدب معه تعالى.

\* \* \*

### الموقف الخامس والسبعون بعد المائة

قال تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ [الناس: الآية ١] السورة.

الربُّ اسم للمرتبة الجامعة للأسماء، المتعلقة بالحق والخلق، والمختصة بالخلق، فالمتعلقة بالحق والخلق كالعليم والسميع والبصير، فإن علمه يتعلّق بذاته

وبمخلوقاته. وكذا سمعه وبصره ونحو ذلك، والأسماء المختصة بالخلق هي أسماء الأفعال كالخالق والمصور وأمثالهما فإنها لا تعلق لها بالحق - تعالى - . والربُّ والمربوب أمران متلازمان، تلازم المتضايقين والمنتسبين، فلا ينفك أحدهما عن الآخر، ربُّ بلا مربوب لا يكون، ومربوب بلا ربُّ لا يوجد، والناس يعنم الجن والإنس، والناقص والكامل. والمراد هنا الناس الكاملون، فهو لفظ عام أريد به خاص، كما في قوله: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ﴾ [آل عمران: الآية ١٧٣].

والقاتل واحد، فـ ﴿النَّاسُ﴾ هنا كلمات الله التامات، التي يحق الله بها الحق، ويبطل الساطل، كما قال: ﴿وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ﴾ [الأنفال: الآية ٧] ﴿لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ﴾ [الأنفال: الآية ٨]. وكثيراً ما كان - ﷺ - يتعوذ بهم، كقوله: «أعوذ بكلمات الله التامة، من كلِّ شيطان وهامة»<sup>(١)</sup>. وقوله: «أعوذ بكلمات الله التامات»<sup>(٢)</sup>. وإنما خصهم بهذه الإضافة، وإن كان - تعالى - ربهم ورب غيرهم، زيادة تشريف وإعظام لهم:

﴿مَلِكِ النَّاسِ﴾ [الناس: الآية ٢].

الملك اسم للمرتبة التي تحتها أسماء الأفعال فقط، وهذا هو الفرق بين مرتبة الربوبية والملكية، فإن الربوبية - كما قدمنا - جامعة للأسماء المشتركة بين الحق والخلق، والمختصة بالخلق، والملكية مختصة بالأسماء المختصة بالخلق، كالقادر والمريد والمعطي والمانع والضار والوهاب ونحوها، فهو قادر على الممكنات لا على نفسه، ومريد لها، وقس على هذا جميع أسماء الأفعال. فالملك لا يكون بغير مملكة يتصرف فيها، فالملكية تحت الربوبية، كما أن الربوبية تحت الرحمانية، كما أن الرحمانية تحت الواحدية، كما أن الواحدية تحت الأحدية، والناس هنا المراد بهم بعض ما شمله لفظ الناس وهم الجن، فهو عام أريد به خاصٌ أيضاً، وإنما خصهم بالإضافة هنا؛ لأن الجن لهم قدرة التطور في الصور والتشكُّل بالأشكال المختلفة، والاعتدال على الأفعال العظيمة، والنفوذ في الأجسام ومنهم شياطين ومردة، فربما يتوهم أن الحكم الرباني والاعتدال الإلهي غير نافذ فيهم. فأخبر - تعالى - أنهم مع هذه الصفات المتقدمة؛ من جملة المملكة التي يتصرف فيها الملك الحق، وأنهم في

(١) رواه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب ١١، حديث رقم (٣٣٧١).

(٢) رواه مسلم: كتاب الذكر والدعاء، باب التعوذ من شر الفتن وغيرها، حديث رقم (٥٤).

قبضته وتحت قهر تصرفه. (إِلَهُ النَّاسِ) الإله اسم للمرتبة الجامعة لجميع الأسماء ذاتية وصفاتية، وفعليّة جلالية، وجمالية وكمالية، وهذه المرتبة فوق المراتب كلها، من حيث أنها مرتبة إعطاء كل ذي حق حقه، من الحق والخلق، فلها الحيطة والشمول على كل مظهر حقيقي وخالقي، فهي الجامعة للضدين يظهر فيها القديم بصورة الحادث، كما في قوله - ﷺ -: «رأيت ربي في صورة شاب أمرد له وفرة، على وجهه فراش من ذهب، وفي رجله نعلان»<sup>(١)</sup> الحديث.

ويظهر الحادث فيها بصورة القديم، كما في قوله - ﷺ -: «إن الله خلق آدم على صورته أو صورة الرحمن»<sup>(٢)</sup>.

روايتان، والناس هنا؛ المراد بهم ما يعمله لفظة الناس من الجن والإنس، فهو تعميم بعد تخصيص، فانظر كيف ذكر مرتبتين من المراتب الخاصة، وذكر لكل واحدة ما يناسبها في لفظة الناس، ثم ذكر المرتبة العامة وذكر ما يناسبها وهو عموم الناس، وإن القرآن يجلّ عن تكرار لفظة لغير زيادة معنى.

﴿مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ﴾ [الناس: الآية ٤].

«أل» في الوسواس للجنس، فإن للشيطان وسوسة، وللنفس وللشك وللظن وللوهم وسوسة، وللهوى وسوسة، كما قال:

﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَاءِهِمْ﴾ [الأنعام: الآية ١١٩].

وقال: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ [يوسف: الآية ٥٣].

وقال: ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾ [الأنعام: الآية ١١٦].

إلى غير ذلك. فهذه كلها أمرنا - تعالى - بالاستعاذة منها. فإذا حضر النور الحق، وجاء العلم الصدق؛ خنست وبطل أثرها وتأخرت، فانظر إلى الوهم كيف يخنس عند النتيجة، بعد المساعدة على المقدمات. وما أمرنا - تعالى - بالاستعاذة من شر الوسواس، على أننا نجعل الوسواس مقابلاً له مقابلة الضد، فيكون بمثابة الشريك في المملكة؛ وإنما أمرنا أن نستعيذ به منه، فإنه المنفرد بالضر والنفع - تعالى -. نستعيذ بأسمائه الجمالية، من أسمائه الجلالية، كما قال السيد الكامل معلم الخير: «أعوذ بك منك».

(١) العجلوني: كشف الخفاء، حديث رقم (١٤٠٧).

(٢) سبق تخريجه.

فليس الوسواس إلا مظهر المضل، ونحوه، وأنه - تعالى - نهانا أن نخاف غيره، من غير ما آية وحديث، وحيث كانت هذه الأشياء المعبر عنها بالوسواس، من الأسباب التي جعلها الحكيم العليم وسائط لوصول الشر والضلال، والشرائع جاءت باعتبار الوسائط ومراعاتها ظاهراً، مع اعتقاد أنه لا مؤثر إلا هو - تعالى - حذرنا من الاعتزاز بها، والركون إليها.

قال بعض الأكابر، في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ [فاطر: الآية

.٦٦]

وإن طائفة لما سمعوا هذه الآية فهموا منها عداوة الشيطان فقط، فاستعدوا لعداوته بالحذر منه، والاشتغال بمراقبته، وسد أبواب هجومه، والتيقظ لمكانته؛ ففاتهم بذلك خير عظيم. وطائفة فهموا منها الشيطان لكم عدو وأنا لكم صديق، فتعلقوا به - تعالى -، وانحاشوا إليه واشتغلوا بمراقبته؛ فكفاهم شر العدو وحصلوا على خير عظيم، فالطائفة الأولى؛ العباد والزهاد، والثانية؛ العارفون بالله:

﴿الَّذِي يُوسِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾ [الناس: الآية ٥].

صفة لجنس الوسواس.

﴿وَمِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ [مؤد: الآية ١١٩].

بيان للناس الموسوس في صدورهم وهم الجن والإنس، وأن للجن وهماً ونفثاً وظئاً وشكاً، كما لابن آدم، وما أضل أول ضال، الحارث، إلا نفسه ووهمه، ولو كان له شيطان يوسوسه لدار أو تسلسل، وذلك محال.

\* \* \*

## الموقف السادس والسبعون بعد المائة

قال تعالى: ﴿وَهُوَ الْخَلْقُ الْعَلِيمُ﴾ [يس: الآية ٨١].

الخالق؛ الكثير الخلق. والخلق قد يكون تقديرًا مجردًا في النفس، وقد يكون مع إيجاد في المدارك الحسية فيكون خلقًا بعد خلق، كما قال الشاعر:

ولأنت تعزى ما خلقت وبعض القوم يخلق ثم لا يعزى

يريد: أنت توجد ما خلقت وقدّرت خارجًا للحس، وبعض القوم يهّم ويخلق، ويقدر في نفسه. ولا يوجد خارجًا ما خلق وقدّر. فالحق - تعالى - خلق على الدوام، يوجد الأعراض التي هي صور فإنها كلها أعراض سيّالة، كما يقول

الحكماء في الزمان، وكما تقول الأشاعرة، العرض لا يبقى زمانين، فإنها لو بقيت لاستغنت عن الحق - تعالى - وتعطلت أسماء الأفعال، وتعطيل الأسماء محال، وليس للحق - تعالى - في هذا الخلق إلا إعطاء الوجود لما تقتضيه حقائق الأشياء من الأحوال والأحكام، وإلا فهي ثابتة في العلم كأعيانها، فما يكون من الحق لها إلا الإيجاد، وهذا معنى قول سيدنا محيي الدين: «الأشياء ما استفادت إلا الوجود» وانقسام الخلق إلى تقدير في النفس من غير إيجاد، وإلى تقدير مع إيجاد؛ إنما هو بحسب المدارك والمشاعر الإنسانية، وأما بحسب ما هو الأمر عليه فليس إلا الوجود الحق، يظهر بتقاديره وتصاويره، التي يقدرها ويصورها لنفسه في نفسه، ويظهر متعينا بها، كالتجريد عند علماء البديع. قيل لي في الواقعة: إن محمد بن قايده الأواني، كان لا يقول بالخلق الجديد، وكتب في ذلك رسالة سماها «الرشمة في بقاء النسخة» هكذا قيل لي. ومعنى هذا أن ابن قايده فهم أو سمع: أن من الناس من يقول بالخلق الجديد، في كل ما يقال فيه صورة ممكنة، وليس الأمر كذلك، وإنما الخلق الجديد خاص بالصور المحسوسة، وأما الصور العقلية والخيالية والروحانية فهي باقية أبدية لا يلحقها زوال، فليس فيها خلق جديد، وهذه الصور هي النسخة الحقيقية، المنتسخة من الصورة الرحمانية، المرادة بقوله: «إن الله خلق آدم على صورته».

فهي باقية بقاء النسخة المنتسخ منها، دون الصورة المحسوسة، وهذا هو مراد القائلين بالخلق الجديد، وحينئذ فلا خلاف بين ابن قايده وغيره من العارفين، وبعد هذه الواقعة، وقفت على كلام للقطب على وفا - رضي الله عنه - في المعنى ففرحت به، قال: إذا كان وصف النقيض بالنقيض بديهياً الاستحالة، والوجود ذات الموجود؛ فعدم الموجود محال، وكذلك لو جعلت الوجود زائداً على ذات الموجود، لأنه ليس موجوداً إلا بالوجود، فلو انعدم لقام به العدم، وإنما الحدوث والزوال نسب عدمية، الأول ظهور في الإدراك المقيّد بعد بطون عنه، والثاني عكسه. والباطن الظاهر ثابت في الحاليتين، وهكذا ببعض صورته دون بعض، وبطونه بصورة منها، وظهوره بأخرى، كالماء يصير هواءً وعكسه، والغذاء بخاراً وعكسه تحليلاً وكوناً، فاللوازم والأمور الوجودية لا تبديل لها. بخلاف الحادثة. اهـ.

﴿الْعَلِيمُ﴾ [البقرة: الآية ٣٢].

الكامل العلم، بما يخلق ويوجد. فإن العلم تابع للمعلوم في مرتبة التعيين الأول، لأن المعلومات في هذه المرتبة غير متميزة عن الذات. ولا شك أن العلم



متأخر عن الذات بالمرتبة، ضرورة تقدم الذات على صفتها. وإن كان علمه - تعالى - عين ذاته، ولكن تسميته علمًا يقتضي تبعيته، ويطلق عليه في هذه المرتبة «علم فعلي» من حيث أنه مبدأ تحقيق المعلوم. وأمّا في مرتبة التعيين الثاني فالمعلوم تابع للعلم، لأن المعلوم متميز عن الذات لنفسه في هذه المرتبة، ويطلق عليه «علم انفعالي» من حيث أنه مبدأ انكشاف المعلوم عينًا قائمًا متميزًا. والانكشاف فرع التحقق، إذ لا ينكشف إلا متحققًا في نفسه، والعلم واحد في المرتبتين، والتعدد نسبي.

\* \* \*

### الموقف السابع والسبعون بعد المائة

قال تعالى: ﴿قَالَمَا مِنْ أَعْطَىٰ وَأَنْفَىٰ ۝ وَصَدَقَ بِالْحَسَنَىٰ ۝﴾ [الليل: الآيتان ٥،

. [٦]

أعطى نفسه وسلّمها لمشتريها بعقد:

﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ﴾ [التوبة: الآية ١١١].

فاستعملها فيما أمره به مشتريها، وحاد بها عما نهاه عنه مالكها، وانقى بنفسه كلّ مكروه، وليس ذلك إلا بتصرفها فيما أراد مالكها ويرضاه، لا فيما يريده البائع ويهواه.

﴿وَصَدَقَ بِالْحَسَنَىٰ ۝﴾ [الليل: الآية ٦].

هي الطريقة المثلى، طريقة الأنبياء وورثتهم - عليهم الصلاة والسلام - والمراد تصديقهم فيما وهبهم الحق - تعالى - بفضله ومثته من النبوة والولاية، وما يتبع ذلك ويلزمه من المعارف والعلوم التي جاؤوا بها. وأخبروا عنها خارجة عن أطوار العقول والأفكار، لا تصل إليها الأقيسة والأنظار.

﴿فَسَنِّيَرُوا لِلسَّيْرِ ۝﴾ [الليل: الآية ٧].

ونستعمله في الأسباب الموصلة إلى النجاة، والمعرفة بالله - تعالى -، على طريق الأنبياء والأولياء، التي توصل إلى المشاهدة والمكاملة، لا على طريق العقلاء، التي تقتضي البعد منه - تعالى -، وتنزيهه عمّا أثبتته تعالى لنفسه على السنة رسله - عليهم الصلاة والسلام - وإنما سماها يسرى، لأنها تؤؤلّ بسالكها إلى الأصل، ورجوع الأشياء إلى أصولها أسهل وأقرب، ولذلك قبل الرجوع إلى الأصل. يكون بأدنى سبب. وقيل: الرجوع إلى الأصل أصل وهي فطرة الله التي فطر الناس عليها،

وهذه النفس التي يعطيها المؤمن ويتقرب بها هي وهم، وما يعطيه الحق له على ذلك حق، فانظر إلى هذا الفضل العظيم: «وَأَمَّا مَنْ يَخَلْ بِنَفْسِهِ، فَلَمْ يَسْلَمْهَا لِمَشْتَرِيهَا، وَلَمْ يَسْتَعْمَلْهَا فِيمَا أَمَرَ بِهِ الْمَشْتَرِي، وَلَا نَهَاها عَمَّا عَنْهُ نَهَى. «وَأَسْتَفْنَى» عَنِ الثَّمَنِ، وَرَضِيَ بِالْمَثْمَنِ، وَرَجَعَ فِي بَيْعِهِ بَعْدَ عَقْدِهِ. «وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى» طَرِيقَةَ الْأَنْبِيَاءِ وَوَرِثَتِهِمْ - عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - مِمَّا أَخْبَرُوا بِهِ عَنِ اللَّهِ - تَعَالَى - وَمِمَّا وَهَبَهُمْ وَعَلَّمَهُمْ مِنْ لَدُنْهِ، مِنَ الْعُلُومِ وَقَالَ مَا قَالَ الْمَكْذُوبُونَ:

﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَفْضَلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: الآية ٢٤]، ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ يَهْدِيكُمْ فِي سَبِيلِهِ إِنَّكُمْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَنَا عَمَّا كَانَتْ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ [إبراهيم: الآية ٢٥]، ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾ (٤١) ﴿إِنْ كَادَ لَيُضِلَّنَا عَنْ الْهَيْبَتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ [الفرقان: الآيتان ٤١، ٤٢].

ونحو هذا. وإنما كانت هذه الطريقة عسرى، لأنها ضد الفطرة ونقيض الأصل، إذ كل مولود يولد على الفطرة، وهي طريقة النبوة والولاية، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، وأبواه الهوى والشيطان. وإنما سَمَّاهما أبوان لطاعته إياهما. وقبول إشارتهما كالأبوين اللذين هما أنصح من كل ناصح لولدهما فالتيسير عام في الخير والشر، وليس هو إلا إعطاء الوجود لما تقتضيه الأعيان الثابتة، والحقائق الإمكانية، باستعداداتها في الخير والشر.

قيل لي في الواقعة: مَنْ استراح تعب. فقلت: وَمَنْ تعب استراح. وذلك أن الحق - تعالى - خلق الإنسان وجعله ينتقل في المنازل والأطوار، ولا يستقرُّ به قرار إلا في دار القرار، إما في جنة أو نار، وأعظم مواطنه موطنان، موطن الدنيا وموطن الآخرة، فموطن الدنيا موطن تكليف وتعب، وضيق وعمل، وحجاب وحجر. وموطن الآخرة موطن تشريف وراحة، وإطلاق ومشاهدة وجزاء. فمن استراح في الدنيا بإعطائه نفسه منها، واتباع مرادها وهواها، فلم يعط الموطن حقه، ولم يراقب حكمة الحكيم - تعالى -، ولا بذل له من نفسه ما استحقه؛ تعب في الآخرة، لأنها موطن جزاء واجتناء ثمرات ما غرس في الدنيا من الأعمال. وَمَنْ تعب في الدنيا وأعطى الموطن حقه بالقيام بوظائف التكليف، والعمل بما رسم المشرع؛ استراح في الآخرة.

﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾﴾ [الزلزلة: الآيات ٧، ٨].

وليس الخير في الدنيا إلا ما أمر به الشارع، ولا الشر فيها إلا ما نهى عنه.

\* \* \*

### الموقف الثامن والسبعون بعد المائة

قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا﴾ [الأحزاب: الآية ٧٢]. الآية.

الأمانة هي الخلافة، كما قال: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: الآية ٣٠].

وهو آدم - عليه الصلاة والسلام - أو معناها التحقق بجميع الأسماء الإلهية، فهو الإله في صورة آدمية، من غير حلول ولا اتحاد، ولا امتزاج، فأنا بريء من ذلك كله، وعرضها على السموات والأرض والجبال؛ ليس لحملها بالفعل لأنها لا استعداد لها لحمل الخلافة، والحمل يغير استعداد محال، ويتعالى الحكيم العليم عن ذلك، ولكن ليظهر فضل الإنسان وشرفه، حيث أبت السموات والأرض والجبال من حملها، وأشفقن منها، مع عظم السموات والأرض والجبال، ومع كونها أكبر من خلق الناس، كما قال: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر: الآية ٥٧]، ﴿فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا﴾ [الأحزاب: الآية ٧٢].

وأشفقن منها؛ لعلمها أن حاملها لا بد أن يظهر بالأضداد، ويوصف بالأنداد، ويشارك الحق - تعالى - في المملكة، إذ الخليفة ملك صغير، فيكون حامل الأمانة بمعنى الخلافة رباً صغيراً، فخافت من قبول هذا الأمر، والأمر أن تكون على خطر، فاخترت السلامة، وأعرضت عن الريح حذر الملامة وأنشد لسان حالها:

وقائلة ما لي أراك مجانباً أموراً وفيها لتجارة مريح  
فقلت لها ما لي بريحك حاجة ونحن أناس بالسلامة نفرح

﴿وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ﴾ [الأحزاب: الآية ٧٢].

الكامل بالفعل، لا مطلق المسمى إنساناً، إذ مسمى الإنسان: منه ما هو إنسان بالفعل والحقيقة، ومنه ما هو إنسان حيوان، إنسان بالقوة والصورة فقط.

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا ظُلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: الآية ٧٢].

كثير الظلم لنفسه وهذا مدح له، لأنه من المصطفين المختارين، كما قال «تَمَّ أَوْزُنُنَا الْكِتَابِ» كتاب الوجود، الكتاب المسطور، الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه، لا ظالم نفسه. فبين الظالم لنفسه، والظالم نفسه فرق، الأول ممدوح، والثاني مذموم، وهو المعني بقوله: ﴿كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [البقرة: الآية ٥٧]، ﴿ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ [آل عمران: الآية ١١٧]، ونحوه: ﴿جَهْلُوا﴾ [الأحزاب: الآية ٧٢].

كثير الجهل بنفسه وبربه لمعرفته بالأسماء الإلهية، التي تتوارد عليه وتتعاقب على الدوام، فكلما كانت الدولة لاسم؛ كانت الغلبة والحكم له، واستتر باقي الأسماء تحت استتار النجوم عند طلوع الشمس مع وجودها في السماء، فتختلف عليه صورته لاختلاف الأسماء الإلهية، فإنها التي تشكل فيعرف في حال جهله. ويجهل في حال معرفته. وإن كان يعرف أنه هو هو، كما يقول الإنسان: إني أنكرت نفسي، وكذا جهله بربه، لكثرة التجليات الإلهية إذ لا يتكرر تجلُّ أبد الأبدین ولا يشبه تجلُّ تجلُّاً أبداً، فجهل العارفين هو حيرتهم، بحيث لا يصحُّ لهم ولا يمكنهم الحكم على المتجلِّي بحكم، وهذا الجهل؛ بمعنى الحيرة، وعدم الضبط؛ هو الذي سأل السيد الكامل - عليه السلام - الزيادة منه، فقال: «اللهم زدني فيك تحييراً».

لا حيرة الحجاب، فكلما زاد العلم بالله - تعالى - زادت الحيرة والجهل، بالمعنى الذي ذكرناه، وقد قال إمام العارفين محيي الدين الحاتمي - رضي الله عنه -: أن من أولياء الله من أزال الله عنه الحيرة فيه، وأنا عبد الله، ما فهمت هذا ولا عرفته كيف يكون؟! والذي عليه أهل الله، بحسب ما وصل إلينا، أن من ادعى المعرفة بالله ولم يحتر؛ فذلك دليل جهله. قال سيدنا محيي الدين في الفتوحات:

الله يعلم أنني لست أعلمه	وكيف يعلم من بالعلم نجهله!؟
إنني علمت وجوداً لا يقيد	نعتٌ بحق ولا خلق يفصله
علمي به حيرتي فيه فليس لنا	دليل حق على علم نحصله

\*\*\*

### الموقف التاسع والسبعون بعد المائة

قال تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: الآية ٥].

خبر بمعنى الأمر، فهو تعليم لنا وأمر لنا، أن ندعوه بهذا الدعاء. فليس المراد الإخبار بذلك فحسب، فلا نمرُّ بالآية مروراً الحاكي لكلام الله - تعالى - عن غير قصد

الدعاء، بالحصول على ذلك، بل نقصد الإنشاء والطلب. كما أن جملة الحمد، أول السورة؛ خبرية لفظاً، إنشائية معنى. وإلا فلا يسمى القائل: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ [الفاتحة: الآية ٢] حامداً.

والعبادة لغة؛ الخضوع والانقياد والوقوف عند الأمر والنهي. قال فرعون وملؤه: ﴿أَنْتُمْ لِسُرِّيِّنَ وَمِثْلِكَ وَقَوْمُهُمَا لَنَا عِدُونَ﴾ [المؤمنون: الآية ٤٧].

فأمر العبد المؤمن بسؤال ربه أن يجعله مشاهداً له في كل مظهر يحصل منه له تذلل وخضوع وانقياد، بحيث تكون عبادته بمعنى تذلل وخضوعه وانقياده للظاهر تعالى بذلك المظهر الخلقى، أي مظهر كان. ولهذه النكتة جيء بالمعمول مقدماً لإفادة الحصر، فإننا أمرنا أن نشهد الحق - تعالى - في كل مظهر، ونعامله بحسب ذلك الظهور، كما أمر - تعالى - . وليس ذلك برياء. فإن الرياء لا يكون إلا مع رؤية الغير، وأما رؤية الحق - تعالى - وشهوده في ظهوراته وتعييناته فلا رياء ولا سمعة.

والحاصل أننا أمرنا بطلب الخلاص من الشرك، وإفراد الخضوع والانقياد لله - تعالى -، ولا يكون ذلك إلا برؤية وجه الحق في كل شيء. ووجهه ذاته المتعينة ببعض الأسماء، فالتذلل والخضوع والانقياد لشيء، ليس هو الحق في شهود الخاضع المتذلل؛ شرك، فالعارف، خضوعه وتذلل وانقياده لا يكون إلا لذلك الوجه الظاهر المتعين، كما قال: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة: الآية ٥].

بمعنى توحيد الطاعة وتخليص الانقياد، ولا يكون إلا بهذا الشهود. فإنه لا بد لكل مخلوق من الخضوع والانقياد لمخلوق آخر، فعلمنا - تعالى - الخلاص من الشرك. وبمثل ما تقدم أمرنا في الاستعانة، فنشهد الحق - تعالى - في كل شيء، نستعين به في الأسباب والوسائط، وسواء في ذلك ما أمرنا بالاستعانة به، أو أبيض لنا كقوله: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ [البقرة: الآية ٤٥].

أو غيرها من إنس وجن، ومملك وحيوان وجماد، إذ لا بد لكل إنسان من الخضوع، لمن تكون حاجته عنده من المخلوقات، ومن الاستعانة بالمخلوقات، فإذا رحمه الله - تعالى -، بمعرفته وشهود وجهه. في كل شيء تخلص من الشرك. فكان لا يعبد إلا الله، ولا يستعين إلا به.

﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ﴾ [النائدة: الآية ٥٤]. ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [البقرة: الآية ١٠٥]. والسلام.

\* \* \*

### الموقف الثمانون بعد المائة

قال تعالى: ﴿يَتَّيْنَهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ (٢٧) ﴿أَنْجِيْ إِلَى رَبِّكَ رَاضِيَةً مُّرْضِيَةً﴾ (٢٨) ﴿فَأَدْخَلِي فِي عَبْدِي﴾ (٢٩) ﴿وَأَدْخَلِي جَنِّي﴾ (٣٠) [الفجر: الآيات ٢٧ - ٣٠].

اعلم أن النفس لا يناديها ربها بهذا النداء، ويصفها بكونها مطمئنة راضية مرضية، ويأمرها أمر إباحة وإذن وتشريف بالدخول في جملة عباده المضافين له، المخصوصين به، وهم الذين عرفوا نسبتهم من العبودية والربوبية، فعلموا أن مسئى العبد إنما هو عبارة عن ظهور الرب، متعينًا بأحوال العبد، فالحقيقة رب والصورة عبد، فكان العبد ربًا في صورة عبد، يعبد نفسه في صورة العبيد، وبالدخول في جنته بمعنى ستره من الاجتنان، وهي ذاته التي يستجن بها. من وصل إليها بقطع حجب الأكوان والأسماء الإلهية، وذلك عبارة عن الحصول والوصول إلى فناء التعيينات الخلقية الخيالية التي لا عين لها إلا في المدارك الحسية، ولولا هذه المدارك ما كان إلا الوجود المجرد المحض، وحينئذ تتفتى هوية الخلق حكمًا لا عينًا، حيث ليست الحق، بخلاف هوية الحق إذا لبست الخلق؛ فإنها ثابتة على نزاهتها، لا يلحقها تغيير على كل حال؛ إلا بعد مجاوزة العلم اليقين إلى حق اليقين، بالذوق الصحيح، والكشف الصريح، بشيئين:

أحدهما: أن الحق - تعالى - فاعل مختار، يفعل بعلم وحكمة ما ينبغي كما ينبغي بالقدر الذي ينبغي، في الوقت الذي ينبغي، بحيث أن لا يكون في الإمكان أبدع وأحكم من ذلك الفعل من جميع الوجوه والاعتبارات، وبحيث لو اطلع العبد على تلك الحكم والمصالح لما اختار سوى ذلك الفعل. وحينئذ يحصل على مقام الرضى عن الله، فيكون مطمئنًا ثابتًا ساكنًا تحت مجاري الأقدار.

ثانيهما: أن يدوق كشفًا، أن الحق - تعالى - هو الفاعل المنفرد بفعل كل ما يصدر من كل مخلوق إلى آخر مخلوق كان، ذلك المخلوق المنسوب إليه ذلك الفعل سببًا أو شرطًا أو مانعًا، وإنما الحق - تعالى - يتنزل من مرتبة إطلاقه مع إطلاقه حينئذ، إلى صورة الشرط أو السبب أو المانع، فيفعل ما يفعل بتلك الصورة، مع غناه



عن تلك الصورة، لو أراد الفعل بدونها. ولكن الاختيار والحكمة هكذا، فينسب الفعل في بادئ الرأي إلى الصورة، وليس الفعل إلا له - تعالى - وحده لا شريك له. وحينئذ يكون عند ربّه مرضياً، لأنه لا فعل له حتى يخرج عن كونه عند ربّه مرضياً، إذ الرضى والمحبة من الحق - تعالى - لمخلوقاته هي الأصل، وبها أوجدتهم، فهي السبب الأول في الإيجاد، فمن علم أن لا وجود له ولا فعل فهو على الأصل من الرضى والمحبة، جعلنا الله وإخواننا ممن شمله خطاب هذه الآية، بمنه وكرمه آمين.

\* \* \*

### الموقف الواحد والثمانون بعد المائة

قال تعالى: ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ [يونس: الآية

[١٨٣]

أخبر - تعالى - مؤكداً إخباره «بأن واللام» حيث كان الإخبار متوجّهاً إلى الشاكين في دعواه، والقاطعين بصحتها، فليس الإخبار متوجّهاً إلى المؤمنين إلا في ضمن غيرهم. فإن المؤمن متحقق بكذب هذه الدعوة، بل علوه، ودعواه الربوبية والألوهية إنما كان في أرض النفوس، عالم الطبيعة، وكل نفس لها هذه الدعوة، غير أن فرعون تجرأ على إظهارها، وغيره ما تجرأ. وليس في المراتب الحاكمة أعلى من الألوهية، إذ الإله هو الغني عن كل ما سواه، المفتقر إليه كل ما عداه. فله الضرر والنفع، والعطاء والمنع، والخفض والرفع، فليست دعوى فرعون وعلوه في سماء الأرواح حيث يكون الناطق القائل حقاً، فإن الأرواح لا تنطق إلا بالحق، فالحق هو القائل إذا، كأبي يزيد وأمثاله - رضي الله عنهم - فإن القائل منهم: أنا الله هو الحق - تعالى - الظاهر بصورهم، الناطق بألسنتهم، كما ورد في الصحيح، أن الله قال على لسان عبده: «سمع الله لمن حمده».

فتكون صورة المحقق القائل أنا الله، كصورة شجرة موسى - عليه السلام - حيث يقول تعالى: ﴿قَلَمًا أَتَتْهَا نُورِي مِنْ شَطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبْرَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَمْوِسَّ إِنْ أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [التقصص: الآية ٣٠].

وقد ذمّ - تعالى - من يتكبر في الأرض بغير الحق؛ إلا من يتكبر بالحق. فإن المتكبر حينئذ الحق - تعالى -، والكبرياء له - تعالى -، وهؤلاء لا عقوبة عليهم في الدنيا، فإنهم يمنعون أنفسهم بحالهم الصادق من تصرف الخلق فيهم، ولا في

الآخرة. وأما مَنْ قال: إنَّه الله بنفسه وحضور عقله، كفرعون والدجال وأمثالهما؛ فليس الناطق منهم الحق، ولذا نفذت فيهم العقوبة فعوقب فرعون بالغرق، وسيعاقب الدجال بالقتل، وكذا كلُّ مَنْ قالها من غير أن يكون الناطق الحق، وإن برقت لهم بارقة فهي برق خَلْب، إذ الأحوال تحول، والعوارض تزول، فتطلب الصفة موصوفها، ويبقى المدَّعي عارياً منها، فَيُنْفَذ فيه حكم الله - تعالى - وتتناوله سيوف الشريعة، كما نالت الحسين بن منصور الحلاج - رضي الله عنه - فإنه قتل بفتوى أهل الشريعة، وأهل الحقيقة. حتى مشايخه، لأنه التبس عليهم حاله، وما تحققت عندهم غلبة سكره، وهو من أولياء الله - تعالى - بلا شك، وإنه لمن المسرفين المتجاوزين الحدود التي جاءت بها الشرائع، فما كلُّ حق يقال، إلا ما أذن فيه الشارع في دعوى الربوبية، حيث يقول: ﴿مَا عَلَّمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ [الفصص: الآية ٣٨].

ثم نقض علمه بالظن وقال، وإني لأظنه، يعني موسى، من الكاذبين، وكل عبد له نسبة إلى العبودية ونسبة إلى الربوبية، وهي أحقُّ نسبته، ولكنه مأمور بسترها في هذه الدار، التي هي دار الحصر والحجر، فلا يدَّعيها عاقل يتصرف بعقله وينطق بنفسه، كيف وهو يرى نفسه ذوقاً تحت القهر الإلهي، والتصريف الرباني، لا يقدر أن يمتنع عن قرصة يرغوث، وإبرة بعوض:

﴿وَإِنْ يَسْتَلْتَهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبِ  
وَالْمَطْلُوبِ﴾ [الحج: الآية ٧٣].

وهذا الغوث الجامع الخليفة الذي جعل الله له التصرف في العوالم كلها أرضية وسمائية، يرى نفسه مثل الشيء الملقى في الحفارة والذلة والعجز.

\* \* \*

## الموقف الثاني والثمانون بعد المائة

قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: الآية ٣٤].

الإحصاء، بمعنى العد والحساب، وبمعنى العلم.

فعلى الأول؛ لا تطبقوا عدّها، فإنها لا غاية لها، لأن نعمة الإمداد لإبقاء الإيجاد؛ أبدية لكل موجود، وكلُّ موجود منعم عليه بإبقاء وجوده، وأول نعمة على المخلوق إعطاء الوجود هذا في العموم، وأما في الخصوص فهي نعمة الإيمان فهذه

النعمة لها لوازم، ولولائم لوازم، وتوابع ومقتضيات، لا نهاية لها، بل هي نعم متوالية أبد الأبدين، ودهر الدهارين.

وعلى الثاني لا تعلمونها، فإن الحق - تعالى - لطيف. ومن لطفه يظهر النعمة في صورة النعمة، وبالعكس، فتلتبس النعمة بالنعمة، ولا يفرق بينهما إلا صاحب بصيرة نافذة وكشف صحيح، فكم لله من نعمة ورحمة، في طي المكروهات النفسية الطبيعية على السعيد، فإنه يشقى الشقاء الصوري في الدنيا بالبلايا والأتعاب بالتكاليف، والأمر والنهي، والضيق والمحصر، كما يكون للشقي في السعادة الصورية في الدنيا، من الفرح والبسط، والسعة والراحة، لأن الدنيا دار مزج لا دار تخلص، حتى إنه يلتبس فيها السعيد في الآخرة بالشقي فيها، فإذا حصلوا في الدار الآخرة؛ حصل التمييز وزال المزج، ففي الصحيح: «إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس وهو من أهل النار»<sup>(١)</sup>.

الحديث بطوله، وهو مشهور. وذلك لكون الدنيا خيالاً، وإن كنا نقول: إن الكائن فيها محسوس لغلظ حجابنا، من حيث أن الحقائق تظهر فيها بغير ما هي عليه في نفس الأمر غالباً، وبما هي عليه نادراً. فلذا يحتاج ما يظهر فيها إلى تعبير، كالذي يظهر في الرؤيا، أي عبور من الظاهر إلى الباطن، فلا يكتفي بما ظهر في الصورة عن باطن الحقيقة.

\* \* \*

### الموقف الثالث والثمانون بعد المائة

قال تعالى: ﴿قَلْنَا يَنْأُرُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَيَّ إِبرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء: الآية

.[٦٩]

النار نار الطبيعة ومقتضيات النفس الحيوانية، وهي مأمورة بأن تكون برداً وسلاماً على إبراهيم، وإبراهيم ما هو شخص جزئي حقيقة، بل هو شخص كلي، فإن لكل حقيقة كلية شخصاً كلياً، كأدم للحقيقة الكلية الإنسانية ونحوه، ولذا قال تعالى: ﴿إِنَّ إِبرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ [التحل: الآية ١٢٠].

(١) رواه البخاري: كتاب المغازي، باب غزوة خيبر، رقم (٣٩٦٦). ورواه مسلم: كتاب الإيمان، باب غلظ تحريم قتل الإنسان نفسه، حديث رقم (١٧٩ - ١١٢).

فإبراهيم؛ مجموع من اتبع ملته، فهو أصل وأب لكل من اتبع ملته، وهو تجريد التوحيد وإفراد الوجهة لرب العالمين، كما أن آدم أصل وأب لكل إنسان، وهو من كان حيواناً ناطقاً، ومحمد - ﷺ - أب وأصل لإبراهيم وآدم، فيما كانا فيه أبوين. فكل من اتبع ملّة إبراهيم فهو إبراهيم، والنار مأمورة بأن تكون برداً وسلاماً على إبراهيم، وملّة إبراهيم، هي قوله:

﴿يَقَوْمِ إِنِّي بُرِيٌّ وَمَا تَشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: الآية ٧٨]، ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: الآية ٧٩].

وقوله: ﴿وَأَعْتَرِلَكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [مریم: الآية ٤٨].

وقد أمر الحق - تعالى - باتباع ملّة إبراهيم، قال: ﴿فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: الآية ٩٥].

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النساء: الآية ١٢٥].

فلم يجعل للحق - تعالى - شريكاً في الوجود، وتوابع الوجود. وكل من أثبت لغيره - تعالى - وجوداً حادثاً، أو قديماً مغايراً للحق؛ فما هو ممن اتبع ملّة إبراهيم، فما هو إبراهيم، فليست النار مأمورة بأن تكون برداً وسلاماً عليه. بل هو ممن رغب عن ملّة إبراهيم، وخسر نفسه، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ [البقرة: الآية ١٣٠].

\* \* \*

## الموقف الرابع والثمانون بعد المائة

قال تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: الآية ٢٣].

يعني لو تميز للعلم الذاتي، الذي هو العلم الفعلي، وهو علم حضرة الله، أوّل التعينات؛ خير من حقائقهم، التي هم عليها واستعداداتهم، التي لا يجرون إلا إليها، وهي الحاصلة بالفيض الأقدس؛ لأسمعهم - خلق فيهم، ولهم - سماع الهداية. وهو ما يحصل بالفيض المقدّس. ولو على سبيل فرض المحال، وهو غير واقع. وإنما

هذا إخبار بأن شرهم إنما جاءهم من استعدادهم. وإنه لا يقبل إلا ما أعطاه تعالى ممّا طلبه بلسان استعداده، فلا يسمعهم ولا يخلق فيهم هداية ورشادًا، لأنه خلاف المعلوم، ولو أسمعهم ما قبلوا من حيث أن استعدادهم بالضد من ذلك، وإنما كان الأمر هكذا؛ لأن العلم تابع للمعلوم، وهو وإن كان تابعًا للمعلوم، يقال فيه «علم فعلي» إذ المعلوم ما تحقّق إلّا به، فلا يخلق إلّا ما أراد، ولا يريد إلّا ما علم. والمعلوم لا يتغيّر، وبهذا كانت الحجّة له - تعالى - على مخلوقاته. فمن وجد خيرًا فليحمد الله، فإنه الخالق لذلك، وهو أهل لأن يحمد على كل حال، ومن وجد شرًا؛ فلا يلوّمن إلّا نفسه كما ورد في الصحيح، يعني نفسه التي هي حقيقة واستعداده، فاستعداد كل أحد؛ هو الذي يكون عليه، وهو الذي ييسره الله - تعالى - إليه، وإليه أشار - ﷺ - كما ورد في الصحيح: «كلّ ميسر لما خلق له».

فلا يعطي - تعالى - أحدًا شيئًا إلّا ما أعطاه استعداده، ولا يمنعه إلّا ما امتنع منه استعداده. إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر، فلو أسمعهم وأعطاهم خلاف استعدادهم، فرضًا وتقديرًا لتولّوا وهم معرضون عنه، هاربون منه، لأنه ضد حقيقتهم وقلب لها، وانقلاب الحقائق محال، فانظر ما أجلي هذه الآية، لمن علمه الله - تعالى - الحقائق، وانظر ماذا صار فيها من الخبط عند علماء الظاهر، لانحجابهم بعقولهم ومعقولهم. منهم، من قال إنها (أعني «لو») للدلالة على انتفاء الأول، لانتفاء الثاني ومنهم من قال: إنها لدلالة العدم على العدم، كما في قوله، لو لم يخف الله لم يعصه. لا للدلالة على انتفاء الثاني، بسبب انتفاء الأول، ومنهم من قال: إنها تفيد الاستلزام. فأما انتفاء الشيء لانتفاء غيره فلا يفيد مساق الآية، إذ لو أفاد ذلك للزم التناقض. فإن قوله:

﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ﴾ [الأنفال: الآية ٢٣].

يقضي نفي الخير، أي ما علم منهم خيرًا ولا أسمعهم، وقوله: (وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ) يقضي حصول الخير أي: أسمعهم، وأنهم ما تولّوا، وعدم التولي خير من الخيرات، إلى غير ذلك من الأقوال.

\* \* \*

### الموقف الخامس والثمانون بعد المائة

قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [النساء: الآية ١٠٠].

الهجرة إلى الله قلبية وهي الأساس الأول، والأمر الذي عليه المعول، وهي بحصول الزاجر الإلهي، والعزوف عما كان عليه من المخالفات للأوامر الإلهية، والهجرة إلى رسوله هي المقصد الثاني للدلالة، وتعريف سلوك طرق المطلوب، وهي هجرة جسمانية، وكما كانت الهجرة لرسول الله - ﷺ - واجبة قبل الفتح، فتح مكة، فهي اليوم باقية لورثة أحواله وأسراره، الدالين على الله - تعالى -، الداعين إلى معرفته، ﴿ثُمَّ يَدْرِكُهُ الْمَوْتُ﴾ قبل اجتماعه بالرسول، أو وارثه، أو قبل حصوله على المطلوب الذي هاجر لأجله، ﴿فَقَدْ وَقَعَ﴾، ثبت ﴿أَجْرُهُ﴾، جزاؤه ﴿عَلَى اللَّهِ﴾، أوجبته - تعالى - على نفسه تفضلاً وامتناناً، وإن الله لذو فضل على العالمين، فيبعث المهاجر لمعرفة الله - تعالى -، والقرب منه في عداد العارفين بالله، وفي مقاماتهم العلية، فكم ترى في الآخرة ممن لم يحصل على معرفة الله في الدنيا، وقد حشر في زمرة العارفين بالله - تعالى -، ونال منزلتهم؟! وكذلك طالب حفظ كتاب الله، وطالب العلم لوجه الله، يبعثان في عداد الحفاظ والعلماء، وفي مقاماتهم. بل هؤلاء أكمل نعيماً، فإنهم لا يسألون عما حصل لهم في الآخرة من الإنعام، بخلاف من حصل لهم في الدنيا، فإنهم يسألون عن ذلك النعيم، والهجرة إلى الرسول أو وارثه؛ واجبة على الأعيان، إلا إذا سبقت للعبد عناية أزلية، وكان بين المرادين، ورحمه الله - تعالى - بجذبة رحمانية، وخطفة ربانية، فعرف نفسه فعرف ربه فتسقط عنه الهجرة، كما ورد في الصحيح: «لا هجرة بعد الفتح»<sup>(١)</sup>.

لأن العبد إذا رقاها الحق صار حقاً، فليس عليه هجرة لطلب الدليل، ولذا قال القوم - رضوان الله عليهم -: ليس للشيخ على المرید بعد الفتح إلا مرتبة الصحبة والأخوة والمشاورة، لا غير. وأما الهجرة إلى الله فالفتح بدونها مستحيل.

\* \* \*

### الموقف السادس والثمانون بعد المائة

قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: الآية ١٦٩].

(١) هذا الحديث سبق تخريجه.



الخطاب له - ﷺ - والمقصود كلُّ مَنْ بلغه الكلام القديم، والقرآن الكريم، فإنه - ﷺ - لم يكن بالذي يظن موت الشهداء في سبيل الله، نهى تعالى بهذه الآية عن ظنُّ المقتولين في سبيل الله أنهم أموات. والمقتولون في سبيل الله أعمُّ من المقتولين بسيف الكفار، أعداء الدين، القتل الطبيعي الاضطراري، ومن المقتولين بصواعق المجاهدات والرياضات القتل الاختياري، من حيث أن كليهما تحلل تركيبه وفسد نظامه الطبيعي عينًا حسًا في الأول، حكمًا كشفًا في الثاني. وفي الآية دليل على التكليف بالمحال العقلي والعادي، والجمع بين الضدين. وقد جوَّز الأشعري التكليف بالمحال، ومنعه المعتزلي، فإن الحس والعقل لا يصح عندهما حياة المقتول في سبيل الله، ولا يدركان ذلك. وسماه تعالى مقتولاً تصديقًا لإدراك الحس، مع النهي عن حسابان موته إيمانًا، فأنت منهي عن ظن موت المقتول في سبيل الله، وفي ضمن ذلك؛ الأمر بالعلم بحياته إيمانًا وكشفًا، كما أنك مأمور بالحكم بموته حسًا وشرعًا، بإجراء أحكام الأموات عليه؛ كالميراث وترويج الزوجة ونحو ذلك، ولذا قال في الآية الأخرى:

﴿وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: الآية ١٥٤].

أي لا يخطر لكم شعور بحياتهم من جهة الحس والعقل، والشعور أوَّل مراتب وصول الإدراك للنفس، ولكن يحصل لكم العلم بحياتهم من جهة الإيمان والكشف، وليس حياة المقتولين في سبيل الله حياة مجازية، كما قال بعض المفسرين، ولا أن المراد بحياتهم حياة أرواحهم، كما قال آخرون؛ إذ لا خصوصية لأرواحهم، فإن الأرواح كلها حيَّة بالذات، فإن الذي نسميه في الواجب القديم حياة، هو الذي نسميه في الممكن الحادث روحًا، فالروح لا تموت، كما أن الذي نسميه في الحادث الممكن نطقًا، هو الذي نسميه في القديم الواجب كلامًا، وإنما حياتهم الخاصة بهم، أنهم عند ربهم، أي حياتهم حياة ربهم لا حياة أخرى، كما هو الأمر عند غيرهم، برزقون، فرزقهم، عندئذٍ ربهم، كما قال لهم: ﴿فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ﴾ [المنكوت: الآية ١٧]. وقال لغيرهم: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقٌ كَثِيرٌ﴾ [الذاريات: الآية ٢٢].

فاعرف قدر مَنْ رزقه عند الله، ومَنْ رزقه عند السماء، فلا تظن العنديَّة هنا كالعندية المعروفة، بل هي كما في قوله: ﴿إِنَّمَا أَعْلَمُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ [الأحقاف: الآية

وعلمه عينه، فهي كناية عن رفع التعيينات الوهمية، والحجب الخلقية، ونفي الغيرية، والحصول على العينية، وقد ورد في الخبر الصحيح: «يغفر للشهيد عند أول قطرة من دمه»<sup>(١)</sup>.

بمعنى يستتر عنه الوجود المجازي والحياة الفانية، ويحصل على الوجود الحقيقي والحياة الباقية. وشهيد المعترك وشهيد المحبة في ذلك سواء، بخلاف غيرهم من الأموات، فإنهم وإن كانت أرواحهم حية، فليسوا عند ربهم، لأنهم ما رفع عنهم حجاب الغيرية بعد، وإن رفعت عنهم بعض الحجب كوشفوا ببعض المغيبات كالجنة والنار وما أشبه ذلك.

\* \* \*

### الموقف السابع والثمانون بعد المائة

ورد في الخبر الرباني، قال الله - تعالى -: «ما وسعني أرضي ولا سمائي، ووسعني قلب عبدي المؤمن الهين الورع».

هذا الخبر طعن فيه حفاظ الحديث وقالوا: لا أصل له. ومع هذا فسادات القوم ومحققوهم - رضوان الله عليهم - ذكروه في كتبهم، وجعلوه أصلاً لكثير من مسائل مواجيدهم، فأقول، بآء المتكلم في قوله «ما وسعني» كناية عن الذات المطلق، وهو الشيء الذي تستند إليه الأسماء والصفات، نفى تعالى عن الأرض وسعهما إياه، أي إطاقتهما. فهما لا يطبقان التجلي بجميع الأسماء الإلهية، وأخبر أن عبده المؤمن وسعه، وأطاق تجليه بجميع الأسماء بل أطاق، تجليه المطلق. والمراد بالمؤمن المؤمن الكامل، «فأل» فيه؛ للكمال وليس إلا الإنسان الحقيقي، فهو الذي وسع الحق لحصوله على رتبة الإطلاق عن الصفات والنعوت، وأعني بالإطلاق هو أن لا يكون مغلوباً لاسم، ولا مقهوراً تحت حكم صفة، بل له الظهور بجميع الأسماء، في الآن الواحد، كما هو ثابت لمن هو مظهره، لأنه عين الكل، والكل هو، قيل لأبي يزيد: كيف أصبحت؟ فقال: كيف سؤال عن الصفة، وأنا لا صفة لي؟ فلا مساء لي ولا صباح. وهذا الذي ذكرناه في معنى هذا الحديث الرباني؛ هو أن القلب الذي وسع الحق، هو قلب مخصوص، لا مطلق القلب المؤمن، هو الذي ورد به الوارد علينا وأعطاه لنا كشفاً، وإن قال الإمامان الكبيران

(١) لم أجده بهذا اللفظ إنما روى مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص: «يغفر للشهيد كل ذنب، إلا الدين». كتاب الإمارة، باب من قتل في سبيل الله، حديث رقم (١٩ - ١٨٨٦).

قدوة العارفين محيي الدين الحاتمي، وعبد الكريم الجيلي - رضي الله عنهما - بخلافه بادية الرأي، ولنذكر كلامهما.

قال سيد المحققين محيي الدين، في آخر الفصص المحمدي من الفصوص «إله المعتقدات؛ تأخذه الحدود وهو الإله الذي وسعه قلب عبده، فإن الإله المطلق؛ لا يسعه شيء، لأنه عين الأشياء، وعين نفسه. والشئ لا يقال فيه يسع نفسه». اهـ، يريد أن من ربط قلبه، واعتقد في إلهه أنه كذا ولا يكون كذا؛ فالله محدود محصور، لأن الاعتقاد مأخوذ من العقد والربط، فكما أن المعتقد مربوط باعتقاده؛ فكذلك المعتقد فيه مربوط بحسب اعتقاد المعتقد، وهذا حال عامة المخلوقات، لأنهم ما عرفوا من الإله إلا ما تجلّى لهم به من الأسماء. وما تجلّى بجميع الأسماء إلا للخليفة من بني آدم، وهو الذي حمل الأمانة التي ما حملتها السموات والأرض، وهو الذي وسع الحق - تعالى - قلبه، قوله وهو الذي وسعه قلب عبده، يعني إله المعتقدات، هو الذي ورد في الخبر: «ما وسعني أرضي ولا سمائي» الخ.

وهذا مشكل، فإنه لو كان الإله المذكور في الخبر هو إله المعتقدات المحصور المحدود؛ لوسعته الأرض والسماء، فإنهما لهما عقيدة، بحسب التجلّي الحاصل لهما، كسائر المخلوقات، ولكان يقال في قلب المنزه فقط، أو المشبه فقط، وفي كل من لم يحصل له التجلّي بجميع الأسماء الإلهية، ولم يصل إلى الإطلاق الذاتي؛ أنه وسع الحق.

وقوله: مع أن من لم يصل إلى مرتبة الكمال لم يسع إلا بعض أسماء الإله الحق. وقوله: فإن الإله المطلق لا يسعه شيء، لأنه عين الأشياء وعين نفسه، والشئ لا يقال فيه أنه يسع نفسه.

جوابه: أنه لما كان قلب العارف الكامل المحقق الواصل، يصير عين ما عرفه، وعين ما حقّقه، مع بقاء التمييز، إله ومألوه، ربّ وعبده، جاء في الخبر التعبير بالوسع مع هذا، فقد قال - رضي الله عنه - في الباب الثالث والستين وثلاثمائة، عند الكلام على القطب السابع: «حال هذا القطب العظمة، بحيث أنه يرى أن العالم لا يسعه، لأن ذوقه كونه وسع الحق قلبه، وقد ورد في الخبر: «أن الحق يقول: ما وسعني أرضي ولا سمائي، ووسعني قلب عبدي المؤمن، وما كلُّ قلب يسع الحق» اهـ.

فهذا تصريح منه: بأنه إنما يسع الحق بعض القلوب، وهي قلوب الكمّل، الذين لهم مطلق من الاعتقاد والربط، فلا يحكمون عليه بحكم، ولا ينكرونه في أي شيء تجلّى وهو الذي قدمناه عن واردنا.

وقال الشيخ عبد الكريم الجيلي، في «لوامع البرق الموهن» في معنى: «ما وسعني أرضي ولا سمائي ووسعني قلب عبدي المؤمن».

الباب الثامن، في ذكر مجلّي الكمال المطلق للوجود الحق في القلب، قال رسول الله - ﷺ - حاكياً عن ربّه ما وسعني الخ: «اختلفت العلماء في هذا الوسع. فالجمهور أنه وسع الإيمان والعلم. والمحققون ذهبوا إلى أنه وسع حقيقي من غير حلول ولا تكييف، فقد علمت أيّدك الله بالفهم؛ أن العبد المؤمن بالله لا بدّ له من العلم بأن إلهه موجود، واجب الوجود لذاته، غير مستند إلى غيره، وله من الكمال ما تقتضيه الصفات الإلهية، كما أخبر عن نفسه وأخبر عنه الصادق المصدّق، واقتضاه العقل بالدليل للواجب بالذات، ولا شك أن هذا العلم موجود لك في قلبك، إذ لا خلاف: أن معلوم هذا العلم متصور في علمك، ثم إنه ليس له ثان، فيكون الموجود في علمك مغايراً للواجب هذا محال. فتعيّن: أن الموجود في علمك؛ هو عين الواجب بالذات، بأسمائه وصفاته، وهو بعينه الموجود في علم غيرك، ولا يطعن ذلك في أحديته اهـ».

ومع هذا فإن قوله: الكمال المطلق الموجود الحق من القلب يميل إلى قولنا. فإن أكثر القلوب ليس عندها الكمال المطلق، الذي هو للحق في نفس الأمر، وإنما عندها الكمال المقيّد بما اعتقدته كمالاً لا غير، وكذا قوله أوّل الكتاب: «فهذا كتاب أذكر فيه بعض الحضرات القدسيّة التي اتسعت لها القلوب المحمدية، حيث التحقت به في المكانة الصديقية بعروجها في أثره، مستمسكة بما علمته من خبرة وخبرة» فهذا التصريح، بأنه ما وسع الحق إلا القلوب المحمدية، لا جميع القلوب. وعند كتابة هذا المحل، ورد الوارد بالتعريف الإلهي، مبيّناً لمراد هذين الإمامين، في قولهما بعموم الوسع لجميع قلوب المؤمنين، والحمد لله ربّ العالمين.

\* \* \*

### الموقف الثامن والثمانون بعد المائة

قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا آيَاتِنَا لِلْغَائِبِينَ﴾ [الإسراء: الآية ١٢].

الليل كناية عن النفس العنصرية الظلمانية. والنهار كناية عن الروح العلوية النورانية، «آيتين» علامتين على الموجد - تعالى - وكمال اقتداره، وإطلاقه عن ظهوراته وتعييناته، ولو تقيّد بمظهر، وتعين لما ظهر وتعيّن بالضدين، كالليل والنهار، والنفس والروح، مع تباينهما، والتغاير الذي بينهما وصفًا، إذ العالم كلّه ظهوره وتعيينه، وما عرف الحق إلا بظهوره على الضدين، وتعيّنه بالنقيضين، والنفس والروح ثابتان لكل إنسان:

﴿فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء: الآية ١٢].

هاتان آيتان أيضًا دالتان على أنه - تعالى - يفعل بالإرادة والاختيار، فليس هو علّة يكون منه الفعل دون الترك؛ بل له الإيجاد والإعدام، بتبديل الأوصاف، فإنه يرحم بعض عباده، فيمحو آية ليّهم وهي أنفسهم الظلمانية الشهوانية السفلية، ومحوها بزوال حكمها، فلا يبقى لها حكم عليهم بظلمانيتها لتبدّل أوصافها بغلبة النور الروحي على ظلمتها، وإشراقه على عالمها، وإن بقيت عينها، لأن الضرر ليس في عينها، وإنما هو في صفاتها، ويجعل آية نهارهم مبصرة، وهي روحهم العلوية القدسية، وجعلها مبصرة، هو بزوال قذى النفس الظلمانية، الذي كان يمنع ما في قوتها من الأبصار، فخرج إلى الفعل بعدما كان بالقوة، لأن الأبصار وجميع الكمالات ذاتي للأرواح، ولكن الموانع النفسية الظلمانية تمنع من ظهور كمالات الأرواح، ما دام الحكم والغلبة للنفس على البدن.

﴿لَتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الإسراء: الآية ١٢].

اللام؛ لام العاقبة، إذ عاقبة من محبت آية ليّله، وجعلت آية نهاره مبصرة؛ أنه لا يتبغى فضلًا من الله إلا بفضلّه، لا يشيء منه، لأنه عرف كيف هو الأمر باطنًا، فهو يتبغى فضل الله بفضل الله، فإنه علم أنه ليس له من الأمر شيء.

\* \* \*

### الموقف التاسع والثمانون بعد المائة

قال تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ [التحل: الآية ١٢٧] الآية.

أمرٌ أولًا، تعريف وتعليم ثانيًا، والخطاب له - ﷺ - والمراد نحن، أمره - تعالى - بالصبر، ثم أخبره بصيغة الحصر، وأعلمه أن الصبر المحمود المرضي المطلوب من العبد؛ هو الذي يكون بالله فتعمل في تحصيله، وتقرب إليّ بالتواضع حتى أحببك فيني إذا أحببتك صرت بي تسمع، وبني تبصر، وبني تفعل وهكذا، في جميع قواك وأفعالك

لا بنفسك. وبين الصبر بالله والصبر بالنفس فرقان، فمن كان صبره بالله فهو، وإن تألم ظاهره، واشتكت أعضاؤه وجوارحه، ودمعت عيناه؛ فمحمل ذلك منه النفس الحيوانية، وهو في باطنه ناعم البال قرير العين، مستنير الباطن لأنه واثق بحسن تدبير الله - تعالى - له، متحقق بأن ما ورد عليه وأصابه؛ لم يكن ليخطئه. وأنه لا بد من نزوله به، لأنه من مقتضى استعداده، وأن استعداده هو الطالب له بلسان حاله، موثق بأنه - تعالى - حكيم لا يفعل إلا ما ينبغي، كما ينبغي، وبالقدر الذي ينبغي، في الوقت الذي ينبغي، بل يكون الحق - تعالى - هو الحامل لما أنزله عمّن يكون صبره به - تعالى -، وأما من كان صبره بنفسه؛ فإنه وإن تجلد وحبس نفسه ظاهراً لما نزل به وأصابه؛ فهو كسيف البال، مظلم الأرجاء، متألم الباطن، متهم لربه فيما أنزله به، مجوز لما ورد عليه ونزل به، أنه يمكن أن لا يكون. وهذا ليس هو الصبر المرضي المحمود المطلوب من العبد؛ بل هذا مقاومة للأمر الإلهي، وتشجع على الله كما روي أن علياً - عليه السلام - أن في مرضه، فقيل له: أنتن وأنت علي، فقال: أما على الله فلا أتشجع. والآلام الطبيعية المحسوسة ليس في وسع الإنسان رفعها، بخلاف الآلام النفسية، فإن في وسعه رفعها. والصبر من المقامات، التي لا يفارقها العبد إلى الممات وهو عام على الخير والشر؛ إذ الكل ابتلاء وفتنة وتمحيص، قال تعالى: ﴿وَتَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: الآية ٣٥].

وقوله: ﴿لِيَبْلُوهُمْ أَهْمَ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف: الآية ٧].

فالصبر على الخير هو الثبات فيه على الحد المشروع، وإشارة العقول. ومن هذا الصبر على المعارف الإلهية، والأسرار الربانية، بعدم إذاعتها لغير أهلها، وقليل فاعله، وأما الصبر على الشر؛ فهو المعروف عند الجمهور، ولا يتبادر إلى الأفهام عند ذكر الصبر مطلقاً غيره، وقد عد الإمام محيي الدين القول بدخول الصبر في النعم جهلاً، ومن نظر في حد الصبر، وأنه حبس النفس على ما تكره، وذاق ما تكابده النفس من الشدة، في كتف ما يهبه الله - تعالى - للعبد من العلوم والأسرار، وكشف الحقائق حتى قال بعض العارفين: تسعة أعشار السرّ تقول لصاحبه بخ بخ، وفي بوحه هلاكه وحتفه؛ قال بدخول الصبر في النعم ولا بد، وهذه أمور ذوقية. فكل واحد إنما يعبر عن ذوقه، ويحكي حاله، وهذه عادة القوم جميعهم - رضوان الله عليهم - فلهذا لا يخطئ بعضهم بعضاً إلا في النادر، والكلام على الصبر طويل الذيل.



## الموقف التسعون بعد المائة

قال تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى الْأَرْبَابِكِ . . .﴾ .

إلى قوله: ﴿يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ﴾ [المطففين: الآيات ٢٢ - ٢٨].

موضوع الآية، بحسب ما يعطيه ظاهر اللفظ بحاله، وفيها إشارة إلى شيء آخر، فأقول: أخبر الله - تعالى - مبشراً ومؤكدًا لإخباره الصادق، ووعدته الحق «بأن واللام» حيث كان الأبرار بين الخوف والرجاء، أن الأبرار، وهم أصحاب تجلّي الأفعال والصفات الذين ما فارقوا الكثرة بعد، ولا فازوا باستهلاك الكثرة في الوحدة، ولا تجلّت لهم الوحدة في الكثرة، لهم في الآخرة كيت وكيت من الإكرام والإنعام، وأنهم يسقون من رحيق . . . من للبيان؟ لأن المشروبات أربعة: اللبن والعسل والماء والخمر، وهي علوم الوهب لمن شربها، تتصوّر العلوم بصور هذه المشروبات الأربعة، كما ورد في الصحيح أنه - ﷺ - رأى أنه شرب لبنًا وناول فضله عمر - رضي الله عنه - فقالوا: ما أولته يا رسول الله؟! قال: العلم<sup>(١)</sup>. وشرب الخمر؛ علم مخصوص بالأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - في الدار الدنيا، فلا يسقى غيرهم منه. وذلك لما خصهم الله - تعالى - به من القوة على حمله وإطاعتهم له، فلا يخلون بشيء من الأوامر والنواهي الشرعية الظاهرة، ولو سقى غيرهم من هذا العلم؛ ما أطاق حمله، ولا خصّ بالأحكام الظاهرة، وفي الدار الآخرة يكون للأولياء السقي منهم، كما أخبر - تعالى - . وإن القوم - رضوان الله عليهم - يشبهون ما يحصل لهم من التجليات الثمرة للعلوم والأسرار بالخمر، وذلك لمناسبات بينهما في بعض الأمور، وإلا فالحقيقة مبينة للحقيقة كل المبينة، منها أن العلم الحاصل بالتجلّي له سلطان وغلبة على علوم العقل والوهم، فلا يبقى لهما حكم مع العلم الحاصل بالتجلّي، فإنه بمثابة الضروريات، وغيره بمثابة النظريات. وغلبة الخمر المحسوس على العقل والوهم محسوسة، ومنها ما يحصل لصاحب التجلّي من اللذة والابتهاج والطرب، وهذا محسوس في الخمر المحسوس. ومنها أن لذة التجلّي تكون للقلوب والأوصال والعروق، وهكذا الخمر المحسوس . . . إلى غير ذلك من المناسبات، وهي كثيرة،

(١) رواه البخاري في صحيحه عن عبد الله بن عمر ولفظه: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «بينما أنا نائم أتيت بقدح لبن فشربت منه حتى إني لأرى الرئي يجري، ثم أعطيت فضله عمر. قالوا: فما أولته يا رسول الله؟ قال: العلم». كتاب التعبير، باب إذا أعطى فضله غيره في النوم.

والأبرار إنما يسقون الرحيق من كؤوس الأسماء والصفات، بخلاف المقربين من عباد الله، فإنهم يشربون بلا كأس، بمعنى أن لهم عين الذات، فلم تقيدهم الأسماء والصفات، ولذا وصف - تعالى - سقي الأبرار بأنه مختوم، بمعنى محدود، لتقيدهم وانحجابهم بالصفات والأسماء، ختامه مسك، مدح لهذا الشراب وأن ثقله مسك، وهو أطيب الطيب، كناية عن سمو هذا الشراب وعظمة شأنه، مع أن آخر الشراب عادة بخلاف هذا، ثم أخبر - تعالى - عن المقربين، وهم السابقون السابقون، أهل تجلي الذات الجامع المطلق فقال: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُعْرِضُونَ﴾ [المطففين: الآية ٢٨].

عينًا منصوب على المدح، ولذا فصل عما قبله، وتوحيده وتنكيهه لتفخيم والتعظيم، بمعنى أن المقربين يشربون العين الذات الجامع، أخبر أولاً عن الأبرار أنهم يسقون من بعض أسمائهم، ولذا قال: «يَشْرَبُ بِهَا» ولم يقل يشرب منها، لأن العين بمعنى الذات، هي الشاربة، من وجه محو آثار الغيرية، حكماً. وهي المشروبة من وجه بقاء التمييز عينًا. ولهذه النكتة جاءت الباء صلة، وهذه الآية مثل قوله في سورة الإنسان: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾ [الإنسان: الآية ٥، ٦].

أخبر أيضًا أن شراب الأبرار من كأس، فشرابهم محصور محدود بالكأس، وهو إما صورة حسية أو معنوية أو علمية، وأخبر أن المقربين، وهم المعينون بعباد الله، أي الذات المسماة بالله، الغني عن العالمين، وعن الأسماء والصفات، فالله في هذه الآية، ومثلها علّم على الذات، لا على المرتبة. فهم يشربون عينًا مطلقًا، لا باعتبار صورة أسمائية أو صفاتية، وذلك لإطلاقهم، فهم غير مقيدین باسم أو صفة، بل لهم جميع الأسماء والصفات.

\* \* \*

## الموقف الواحد والتسعون بعد المائة

قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: الآية ١١].

إن كان «الكاف» بمعنى مثل؛ فقد تقدم الكلام على ذلك في هذه الموافف، وإن كانت «الكاف» صلة؛ فالآية لنفي المثلية له - تعالى - من حيث ألوهيته. فالضمير المضاف إلى مثل، يعود على الاسم الله المتقدم الذكر، وهو هنا اسم للمرتبة، التي

هي الألوهية، التي هي صفة الذات العلية، الغيب البحت. فنفي المماثلة إنما هو عن المرتبة. فهي التي لا مثل لها فلا إله إلا الله. والله في الكلمة المشرفة كلمة التوحيد، علم على الذات العلية، لا صفة. إذ لو كان صفة ما أفادت الكلمة المشرفة توحيداً. وهي تفيد التوحيد إجمالاً. فالألوهية لا مثل لها، ولها ضد، وهو المألوه العابد، والمنفي في الآية هو «المثل» بسكون المثلة، لأن المشارك في الحقيقة، كزيد وعمرو؛ فهما مثلان، لاشتراكهما في الحقيقة الإنسانية. وإن كانا غيرين، إذ زيد غير عمر وضرورة، وأما «المثل» بفتح الميم فلم تنفخ الآية. ولا هو منفي، لأنه لا يشارك في الحقيقة، وإنما هو مظهر يظهر به، وتعين يتعين به، ولذا ورد في الخبر: «إن الله خلق آدم على صورته».

وفي رواية صححها ابن النجار: «على صورة الرحمن» فأدم تعين الرحمن، والرحمن تعين الله، والله تعين الهو. فالتعين «مثل» بفتح التاء؛ لا «مثل» قال الله:

﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [النحل: الآية ٦٠].

فعلمة المثل العزة والحكمة، وأما الذات فلا مثل لها ولا ضد، إذ لا غير لها، فلا مثل ولا خلاف، فإنها عين المثل والضدين والنقيضين والخلافين، فلولاها ما تصوّر شيء من هذه الأشياء، ولا وقعت عليه عبارة معبر، ولا أدراك مدرك، ومع هذا فلا يحكم على الذات بحكم، لأن كل حكم إنما يتقوم بها، ولأنها لا تصوّر. والحكم فرع التصوّر، وقولي: «لا يحكم عليها» منفي أيضاً، فإنه حكم ولكن لضرورة التفهيم. وكما أنها لا تعلم، لأنها لا تتصوّر، وأول مراتب العلم التصوّر؛ فهي لا تجهل، لأن الجهل لا يرد إلا على ما يرد عليه العلم، كما هو شأن الضدين، ولكنها توهم وتخيّل.

\* \* \*

## الموقف الثاني والتسعون بعد المائة

قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾

[النحل: الآية ٩٨] الخ الآية.

أي إذا قرأت القرآن، ثم نزلت إلى قراءة الفرقان فاستعد، لأن حضرة القرآن حضرة الجمع، والوجود حضرة الذات، الجامعة الأحدية، وهو حال شهود حق بلا خلق، وهو المعروف عند ساداتنا - رضوان الله عليهم - بوحدة الشهود. وهذه الحضرة

لا شيطان فيها، ثم بعد قراءة القرآن، رجعت إلى قراءة الفرقان، مقام شهود خلق قائم بحق، وهو المعروف عند السادة بوحدة الوجود، حضرة الصفات والكثرة الاعتبارية، فحينئذ يلزمك بعد قراءة القرآن والرجوع إلى الفرقان، ملاحظة الحكم الإلهية، ومراعاة الأسباب والوسائط، حسب أمر الشارع بذلك. فتتقي ما أمرك بأتقائه، وتسلط حيثما سلك بك. فإنه جعل للخير أسباباً وللشر أسباباً، ومن جعلتها الشيطان الرجيم، فإنه مظهر الإضلال والإغواء، فاستعد بالله وتحصن منه به تعالى، ثم أخبر تعالى أن الشيطان ليس له سلطان وغلبة بقوته الذاتية، على الذين آمنوا وصدقوا بأن لا ضار ولا نافع ولا هادي ولا مضل؛ إلا هو تعالى، وأنه الخالق للشر والخير، المنفرد بإيجاد كل شيء وحده لا شريك له، فالآية مشيرة إلى أن المستعاذ به هو المستعاذ منه. ولذا قال السيد الكامل - رحمته - في الخبر الذي أخرجه أصحاب السنن الأربعة: «بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء»<sup>(١)</sup>.

أي استعيذ بسم الله، فذكر المستعاذ به وما ذكر المستعاذ منه، إشارة إلى أنه هو، فيستعاذ بأسماء الرحمة والجمال من أسماء القهر والجلال، فذكر الله اسم الجامع لا يستعاذ به، ويستعاذ منه، ثم زاد الإشارة إيضاحاً بقوله: «الذي لا يضر مع اسمه» الضار شيء مما ينسب إليه الضرر من شيطان ومن كل ما ذرأ وبرأ في الأرض وفي السماء، فلا تأثير لمخلوق في ضرر مخلوق أصلاً، وعلى ربهم يتوكلون، جعلوه وكيلهم حسب أمره لهم بقوله:

﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا﴾ [المائدة: الآية ٢٣].

فجعلوه القائم منهم بجميع مهماتهم، واستكفوا به فكفاهم، ثم أخبر - تعالى - على طريق المحصر: أن الشيطان إنما قوته وسلطانه بتسليط الله وإقداره على الذين يتولونه. توليتهم إياه؛ بمعنى اشتغالهم به اشتغال الولي بولييه، والصاحب بصاحبه، إما محبة ورضى بما يلقى، كالكافر الصريح، أو خوفاً من شره، كحال المحجوبين من العباد والزهاد، الذين هم دائماً يترصدونه خوفاً منه، والذين هم به مشركون، أي جعلوا الشيطان شريكاً له - تعالى -، في إيصال الضرر والشر، ولولا هذا لما خافوه كل الخوف. فإنه - تعالى - يقول:

﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُواكُمْ إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: الآية ١٧٥].

(١) رواه أحمد في المستند حديث رقم (٤٧٦).

فلهذا أسلمهم الله إلى الشيطان، وجعل له سلطاناً وغلبة عليهم، ولذا ورد في الخبر: «مَنْ خَافَ مِنْ شَيْءٍ سَلَطَ عَلَيْهِ»<sup>(١)</sup>.

أي جعل الله - تعالى - له سلطة وغلبة عليه، لأن مَنْ خَافَ مخلوقاً فقد أدخل نفسه تحت حكمه، وجعله ملحوظاً له، فيعاقبه الله - تعالى - على ذلك بتسليط ذلك المخوف عليه.

\* \* \*

### الموقف الثالث والتسعون بعد المائة

قال تعالى: ﴿وَعَرَّضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرَضًا ۖ﴾ [الكهف: الآيات ١٠٠، ١٠١] الآية.

تهديد ووعيد. وجهنم كل أحد بحسب حاله ومقامه، إذ هي مأخوذة من البعد. فمنهم مَنْ جَهَنَّمَهُ الحجاب، ومنهم مَنْ جَهَنَّمَهُ العذاب مع الحجاب. والكفر جلبي وخفي، وقد ورد في صحيح البخاري: «كفر دون كفر».

وهو مطلق الستر، ولذا سُمِّيَ الزراع كافرًا، فالكفر الجلبي هو ستر ما جاءت به الرسل - عليهم الصلاة والسلام - وجعله. وهو المعروف. والكفر الخفي، الذي هو أخفى من ديبب النمل؛ ستر الوجود الحق الواجب القديم، الذي قامت به السموات والأرض وما بينهما، ونسبته للحوادث، بمعنى أن لها وجودًا مغايرًا للوجود الحق، ﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنِ ذِكْرِي﴾ [الكهف: الآية ١٠١].

أي كانت أعينهم محجوبة مغطاة عن رؤيتي، فلا يروني ولا يتذكرون وجودي مع ما يرونه من صور المخلوقات وأشكالها وألوانها، ولا قبلها ولا بعدها. وكذا ﴿وَكَاوُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ [الكهف: الآية ١٠١].

أي لا يقدرون أن يسمعوا مني ما يسمعون في ظاهر المخلوقات، مع أنني المتكلم من خلف جدار كل صورة، انظر إلى موسى - عليه السلام - سمع النداء من الشجرة، وعرف أنه كلام الله، مع أن الشجرة في جهة له، والحق - تعالى - ليس في جهة، والذي جعلهم لا يرون الحق في مظاهره وتعيناته، وكانت أعينهم في غطاء عن ذكره، أي عن تذكره عند شهود المظاهر، وكذا جعلهم لا يستطيعون أن يسمعوا كلامه - تعالى - هو وقوفهم مع التنزيه العقلي المحض غير الممزوج بالتشبيه الشرعي، وما

(١) هذا الخبر لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع.

علموا أنه تعالى منزّه مقدّس عن الحلول والاتحاد والامتزاج، عند ظهوره بالمظاهر من اسمه - تعالى -، يحس بكل حس، ويشعر به كل مشعر، من القوى المدركة الظاهرة والباطنة، فيرى بحاسة الرؤية، ويسمع بحاسة السمع، ويلمس بحاسة اللمس، من حيث أن الظاهر عين المظهر، قال إمام العارفين محيي الدين:

إن قلت إن الحق عنك منزّه فطريق شرعك أنه ملموس  
ومنزّه أيضاً بشرعك فاعتبر في الحالتين فعقلك المبخوس

فيوصف تعالى بأوصاف المحدثات، ويحكم عليه بأحكامها، وبين ذلك ما ورد في الحديث الربّاني في صحيح مسلم: «مرضت فلم تعدني، واستطعمتك فلم تطعمني» الحديث بطوله.

وقال تعالى: ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: الآية ١٠].

بعد قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ [الفتح: الآية ١٠].

ويسمى بجميع أسماء المحدثات، كما قال تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ [الأنفال: الآية ١٧].

وقال أبو سعيد الخراز: ما عرف الحق - تعالى - إلا بجمعه بين الضدين، ثم تلا: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ [الحديد: الآية ٣].

وهو المسمّى أبو سعيد الخراز، فكلّ ما ورد في الكتاب والسنة من المشابهات فمحلّه مرتبة الظهور والتعین بالمظاهر، من اسمه - تعالى - الظاهر، وكلّ ما ورد في الكتاب والسنة من التنزيه فمحلّه مرتبة التجرّد عن المظاهر من اسمه تعالى، الباطن. ما عرف هذا مع اعتقاد التنزيه في التشبيه، فإن الحق الذي لا يمترى فيه إلا محجوب بعقله.

\*\*\*

### الموقف الرابع والتسعون بعد المائة

قال تعالى: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرِينَ﴾ [سبأ: الآية

[١٣].

أمر تعالى آل داود، بأن تكون أعمالهم كلّها شكراً. وآل داود المأمورون هنا، المقصود منهم الأنبياء خاصة، فهو عامّ أريد به الخصوص، كما قال زكريا - عليه السلام -: ﴿بِرَبِّي وَرِثٌ مِّنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾ [مریم: الآية ٦].



المراد بآل يعقوب: الأنبياء خاصة، لأن المطلوب لذكريا ميراث النبوة لا المال: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرِينَ﴾ [سبأ: الآية ١٣].

يعني والكثير غير مشكور، هذا في عباد الذات، لا في عباد الأسماء، فإنهم غير مرادين هنا، لأن الضمير في قوله: عبادي؛ ضمير الذات، الجامع لجميع المراتب، فالعباد المضافون بين كامل وأكمل، فالأكملون هم القليل الشكور، ولا يكون العبد شكورًا بصيغة المبالغة، حتى تكون أعماله كلها شكرًا، ويصرف جميع ما أنعم الله عليه لما خلق لأجله، وأما من كان تارة وتارة فلا. وهذا القليل هم الأنبياء والرسول وورثتهم الكمل - عليهم الصلاة والسلام - والأكملون هم الكثير، القليلو الشكر، وهم العارفون الذين ما وصلوا رتبة الأكمليّة، فالأكمل لا يقع منه شيء من الأعمال نافلة، بل جميع أعماله فرائض، لأنه إنما يعمل ما يعمل شكرًا، وشكر المنعم واجب شرعًا، عند السني. وعقلًا عند المعتزلي، ولا يخلو إنسان أي إنسان في وقت من الأوقات، ليلاً ونهارًا، من نعمة أقلها دوام الإمداد، لبقاء الإيجاد، فإن الوجود الذي للإنسان بمثابة الجوهر، والإمداد بمثابة العرض. ولا بقاء للجوهر بدون تجدد الأعراس عليه، فإن خلو الجوهر عن العرض محال، ولهذا لما قام - ﷺ - حتى تورمت قدماه، وقيل له: أتفعل هذا يا رسول الله وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: «أفلا أكون عبدًا شكورًا؟!» فنواقل الأكمليين صورة وحكمًا وشرعيًا نوافل، وأما بحسب ما عندهم فهي فرائض. هذا حال الأنبياء والورثة الأكمليين، لأنهم لا يعملون إلا الأفضل الأحسن، وقد سمعوا قوله تعالى في الحديث القدسي: «ما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي من أداء ما افترضته عليه».

وقد افترض - تعالى - على عباده الشكر، فهم وإن كان الحق - تعالى - هو الذي يتصرف بهم في مشاهداتهم، التي لا تحصى؛ فلا يعيبيهم عن عبوديتهم، التي بها شرفهم، وأما غيرهم من الكاملين فقد يكون لهم هذا الحضور والشهود، وقد لا يكون، بل يكون غيره فافهم.

\*\*\*

### الموقف الخامس والتسعون بعد المائة

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتْنِهِ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَنْبِغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ﴾ [الكهف: الآية ٦٠] الآيات.

في هذه القصة عدة مسائل تتعلق بالشيخ والتلميذ، منها أن الشيخ ولو بلغ ما بلغ من العلم عند نفسه وعند أتباعه، وسمع بمن هو أعلم منه، فينبغي له أن يرحل إليه ليزداد علمًا، ويستفيد حكمة، فهذا موسى - ﷺ - الحائز لكلمات النبوة والرسالة، لما أخبره الحق - تعالى - بأن الخضر - عليه السلام - أعلم منه، سأل السبيل إلى لقيه فجعل الله له الحوت آية، وقال له: إذا فقدت الحوت فارجع فإنك ستلقاه، والقصة في صحيح البخاري، ومنها: أن الشيخ لا يردُّ من جاءه بطلب علم، ولو عرف عدم استعداده لما طلب، فإن الخضر - عليه السلام - عرف عدم صبر موسى - عليه السلام - أول ما لقيه، فقال: ﴿إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ [الكهف: الآية ٦٧].

ومع هذا ما ردّه. ومنها أن للشيخ أن يشترط على الطالب شروطًا ويأخذ عليه عهدًا، بحسب ما يراه من المصلحة، ولهذا قال الخضر لموسى - عليهما السلام -:

﴿فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ﴾ [الكهف: الآية ٧٠].

يعني فعلاً ظهر لك منه مخالفتي الحق. ومنها: أن للشيخ أن يأخذ العهد على من علم أنه ينقض العهد، فإن الخضر قال لموسى:

﴿إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ [الكهف: الآية ٦٧]. وبعده أخذ عليه العهد، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ﴾ [الأعراف: الآية ١٧٢] الآية. ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ﴾ [الأعراف: الآية ١٠٢] الآية.

ومنها: أن للشيخ إذا رأى الطالب أخلَّ بشيء مما اشترطه عليه أن يذكره الشرط والعهد، فإذا اعتذر التلميذ قبل عذره أولاً وثانياً؛ فإن الخضر قبل عذر موسى - عليهما السلام - لما اعتذر بالنسيان، وقبل عذره ثانياً. ومنها: أن للشيخ أن لا يطرد الطالب إذا عاد إلى الإخلال بالشرط ثانياً، وإن لم يذكر عذراً، إذا رأى منه انكساراً. فإن موسى - عليه السلام - اعتذر أولاً بالنسيان. وثانياً لم يذكر عذراً ولكنه اشترط على نفسه فقبله الخضر - عليه السلام - ومنها: أن للشيخ أن يفارق الطالب إذا أخلَّ بالشرط ثالثاً. فلذا قال الخضر في الثالثة: ﴿هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾ [الكهف: الآية ٧٨].

ومنها: أنه يلزم التلميذ الصبر والثبات، وعدم تزلزل العقد في الشيخ إذا رأى من الشيخ قولاً أو فعلاً خالف فيه الحق والأمر الشرعي، فإن رسول الله - ﷺ - قال، كما في صحيح البخاري: «ووددنا أن يكون موسى صبر حتى يقص الله علينا من

أمرهما» ومنها: أن التلميذ إذا ساء ظنه بالشيخ فالأولى له أن يفارقه، وبقاؤه معه بعد تزلزل عقيدته فيه نفاق وضرر محض. فلهذا قال - ﷺ -: كانت الثالثة عمداً، يعني المسألة الثالثة من موسى. ومنها: أن للشيخ إذا عزم على فراق التلميذ، لإنكار التلميذ على الشيخ، أن يبين للتلميذ وجه ما أنكره من الشيخ في قول أو فعل، ولهذا قال الخضر لموسى - عليهما السلام -: ﴿سَأْنَيْتَكَ بِأَوَّلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف: الآية ٧٨].

وأما إذا صبر المرید حينما يرى من الشيخ ما يجهل وجه صوابه، وما تغیر عقده في الشيخ؛ فإن الله - تعالى - سيرحمه بكشف حجاب جهله، فيعلم وجه ما كان صدر من الشيخ من قول أو فعل، ويظهر له صوابه، ويجده الحق الذي لا محيد عنه. ومنها: أنه يجب على التلميذ أن لا يقول للشيخ: «لَمْ؟» ولا «كَيْف؟» في كل ما يصدر من الشيخ من أمر أو فعل أو ترك، ولهذا قال الخضر لموسى - عليه السلام -: فلا تسألني عن شيء، فعلته لم فعلته؟ ولا عن شيء تركته لم تركته؟ ولكن قل له: وجه أنا جاهل به. ومنها: أن لمن أخذ علماً من غير طريقه المعتادة بين الناس، أن يبين مأخذه بشرط الاضطرار إلى البيان، ولذا قال الخضر - عليه السلام - وما فعلته عن أمري، بل عن أمر ربّاني ورد على كيائي، وأما إذا لم يضطر للبيان فليس له أن يبين طريق أخذه، وكيفية تلقيه، وإنما عليه بيان العلم الذي ورد عليه فقط إذا أمر بالبيان. ومنها: أن الطالب، ما دام لا يجد في طلبه نصباً، ولا يحس في سفره تعباً فهو مطلوب محمول مراد، فإذا أحس بشيء من ذلك بعد فقد تبدلت حالته. فإن رسول الله - ﷺ - قال وهو في الصحيح: «لم يجد موسى النصب حتى جاوز المكان الذي أمر به»<sup>(١)</sup>.

ومنها: أن العالم الربّاني، إذا أنكر عليه متشرع، ليس من أهل طريقه لا يشغل نفسه به، ولا بردوده، بل يستقل بواجب وقته في ظاهره، وباطنه، ولا يلتفت إليه. وإن كان ولا بد فليقل كما قال الخضر لموسى - عليهما السلام -: أنت على علم علمك الله، وأنا على علم علمنيه الله، ومنها: أن للمتشرع الصادق المخلص المحتسب، أن ينكر على الصوفي ما ينكره ظاهر الشرع، ولكن في الأشياء المجمع عليها، لا في الخلافات، مع اعتقاد كمال الصوفي في الباطن، فإن موسى أنكر على الخضر - عليهما الصلاة والسلام - ما خالف ظاهر الشرع. ولا شك أنه كان يعتقد

(١) رواه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده حديث رقم (٣٢٧٨).

أكملتته وأعلميته ضرورة، لأن الله - تعالى - أخبره أن الخضر أعلم منه، إذ المتشرع طريقه أخضر، فله أن ينكر على الصوفي. والصوفي طريقه أعم؛ فليس له أن ينكر على المتشرع. إلى غير هذا من العلوم التي تشير إليها هذه القصة.

\* \* \*

## الموقف السادس والتسعون بعد المائة

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: الآية ٢٠].

شيء بمعنى مشييء، مراد فعل بمعنى مفعول، فهو تعالى يقدر على كل ما يريد فعله كما قال تعالى: ﴿فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود: الآية ١٠٧].

وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [المخج: الآية ١٤].

ولا يريد إلا ما يعلم قبوله وانفعاله، ويعلم المعلوم على ما هو عليه في حقيقته، من القبول وعدمه، والمحال غير قابل للانفعال. وعليه فقول القائل: هل يقدر الله - تعالى - على المحال؟ سؤال فاسد، وإن كان ولا بد فليقل: هل يريد الحق - تعالى - فعل المحال، أو لا؟ فحينئذ فالعقلاء مجتمعون على أن الحق - تعالى - حكيم. وإرادة فعل ما لا يقبل الفعل، فلا ينفع عبث. تعالى الحق الحكيم عن ذلك. فإن تعلق القدرة بالمقدور؛ متأخر بالذات، عن تعلق الإرادة به، كما أن تعلق الإرادة بالمراد المشييء؛ متأخر بالذات عن تعلق العلم به، كما أن تعلق العلم به متأخر بالذات عنه، إذ العلم تابع للمعلوم. فهذه التعلقات مترتبة ترتباً ذاتياً عقلياً لا زمانياً، لأن صفات الحق - تعالى - لا تدخل تحت الزمان. فلو أراد فعل ما لا يدخل تحت قدرته كان جاهلاً عابثاً ظاهر العجز، تعالى العليم الحكيم القادر عن ذلك، ولو فعل ما لا يريد كان مجبوراً مقهوراً، تعالى الفاعل المختار عن ذلك.

لسان آخر: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: الآية ٢٠].

الشيء ما يصح أن يعلم ويخبر عنه فهو أعم العام وأنكر التكرات، كما هو عند أرباب اللسان. فلا يستحيل عليه - تعالى - فعل شيء من المستحيلات العقلية والعادية. قال القطب علي وفا - رضي الله عنه -: «استقرأ أهل الاستقراء الكتابي فلم يجدوا في الكتاب المحمدي أنه قال «لو» مقرونة بالإرادة أو الإشاء الربانية أو الإلهية أو البرهانية؛ إلا وجوابها واقع لا محالة، كقوله لو أراد الله أن يتخذ ولداً لاصطفى ممّا يخلق ما يشاء، فهذه ولادة معنوية حكيمية واقعة، وكقوله: ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَآتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا﴾ [الأنبياء: الآية ٢١٧].

أي على وجه حكيم. وهو واقع، كالضحك والبشاشة وكقوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا﴾ [الأنعام: الآية ١٠٧].

وذلك واقع في الحقيقة: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ [الأنعام: الآية ١١٢]. وهو كذلك في الحقيقة. وكقوله: ﴿وَلَوْ كُنَّا جَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ﴾ [الزخرف: الآية ٦٠]. وهو واقع لا محالة، عند عود الأمر إلى بدايته. اهـ.

\*\*\*

### الموقف السابع والتسعون بعد المائة

قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: الآية ٤٥].

في الآية إشارة لبيان سلوك طريق المعرفة، أمر تعالى المؤمنين بالتقوى، وهو المعبر عنه عند القوم بمقام التوبة، الذي هو الأساس لسلوك الطريق، والمفتاح للوصول لمقام التحقيق، فمن أعطيه أعطي الوصول، ومن حرمه حرم الوصول، كما قال بعض السادة «ما حرّموا الوصول إلا بتضييع الأصول» ثم قال:

﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ [المائدة: الآية ٤٥].

أي بعد إحكام مقام التوبة بشرائطه؛ اطلبوا الوسيلة، وهو الشيخ الكامل بالنسبة، العارف بالطريق، وبالعلل العائقة، والأمراض المانعة، في الوصول إلى العلم بالله - تعالى - الحاذق الخبير بالمعالجة والأمزجة والأدوية، وما يوافق منها، وقد انعقد إجماع أهل الله - تعالى -: أنه لا بد من الوسيلة، وهو الشيخ في طريق العلم بالله - تعالى -، ولا تغني عنه الكتب، وذلك عند ورود الواردات، وبيوارق التجليات والواقعات، ليبين للمريد المقبول من المردود، والصحيح من السقيم، وأما بداية السلوك فيكتفي بالكتب المصنفة في المعاملة والمجاهدة المطلقة.

﴿وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ﴾ [المائدة: الآية ٤٥].

أمر بالجهد بعد الظفر بالشيخ، وهو جهاد خاص يكون بحسب أمر الشيخ وما يرسمه للمريد، فإن المجاهدة بغير شيخ لا يعزّل عليها، إلا في النادر. فليس هو جهاد واحد على طريق واحد، لأن الاستعدادات مختلفة، والأمزجة متباينة، فلربما يكون الأمر النافع لزيد مضرًا بعمرو وبالعكس.

\*\*\*

## الموقف الثامن والتسعون بعد المائة

ورد في صحيح البخاري وغيره: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَبْسُطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ وَيَنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ (أَي عَمْرِهِ) فَلْيَبْسُطْ رَحْمَةً»<sup>(١)</sup>.

ووردت أحاديث كثيرة في الباب، كُلُّهَا تَرْجِعُ إِلَى أَنَّ فِعْلَ الْبِرِّ يَزِيدُ فِي الرِّزْقِ وَالْعَمْرِ، هَذَا مَعَ قَوْلِهِ تَعَالَى:

﴿فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: الآية ٣٤].

ومع قوله - ﷺ - كما هو في الصحيحين، في أثناء الحديث الطويل:

«وَيَوْمَ الْمَلِكِ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ فَيَكْتُبُ رِزْقَهُ وَأَجَلَهُ وَعَمَلَهُ وَشَقِيَّ أُمِّ سَعِيدٍ»<sup>(٢)</sup>.

يعني فلا يزداد ولا ينقص من ذلك، وقد سألتني بعض إخواني كشف هذا الإشكال، حيث ما أقنعه ما قال شراح الحديث فتوجهت إلى الله - تعالى - في كشفه، فغيبني تعالى عن العالم وعن نفسي، وألقى عليَّ قوله:

﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الاسراء: الآية ٨٢].

وألقى عليَّ ما نسمع، فهذا التعارض الباطل المدفوع وارد في القرآن، قال تعالى: ﴿وَمَا يُعْمَرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَضُ مِن عُمْرِهِ﴾ [فاطر: الآية ١١] الآية.

وقال: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: الآية ٣٤]. والقرآن لا اختلاف فيه ولا تعارض لأنه من عند الله:

﴿وَلَوْ كَانَ مِن عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: الآية ٨٢]. فمن كان القرآن شفاء له يبين له - تعالى - الوجه المراد، فانعدم الاختلاف عنده، ومن جعل الله له القرآن خساراً أعمى الله عنه الوجه المراد فزاده القرآن خساراً:

﴿فِي قُلُوبِهِمْ قَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة: الآية ١٠].

(١) البخاري: كتاب الأدب، باب من بسط له في الرزق بصلة الرحم حديث رقم (٥٩٨٦). ورواه مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب صلة الرحم حديث رقم (٢١ - ٢٥٥٦).  
(٢) ورواه أحمد في المسند حديث رقم (٣٩٣٣).



لظن الاختلاف في القرآن. وكذلك هذه الأحاديث، فإن من الأمور ما له سبب واحد لا يكون غيره، ومنها ما له أسباب كثيرة متعددة، كما قال القائل:

«تعددت الأسباب والموت واحد»<sup>(١)</sup>

فمن سبق القضاء الأزلي، ولا يكون القضاء إلا تابعاً للمقضى، لطلبه ذلك القضاء باستعداده، ونفذ الحكم الإلهي بشفائه من أمراض القلوب ودواء العقول، وهي المذاهب الباطلة والآراء الفاسدة، فلا سبب لشفائه إلا القرآن:

﴿قُلْ إِنَّ أَلْهَدِي هُدَى اللَّهِ﴾ [آل عمران: الآية ٧٣].

أي لا هداية إلا هداية الله، ولا هداية لغيره إلا بالمجاز، ومن لم يسبق القضاء الأزلي والحكم الإلهي بشفائه؛ زاده القرآن خساراً، وكذا أعمال البر التي ورد في الأحاديث أنها تزيد في العمر والرزق، المراد: إذا سبق القضاء والحكم بزيادة عمر إنسان، على أعمار أمثاله، في الصفات والزمان والمكان، وبزيادة رزقه على أشباهه، في التكسب ومعاطاة أسباب الرزق فلا سبب لذلك إلا ما ذكر في الأحاديث، ومرجعها كلها إلى معنى واحد، وهو عمل البر، وأما إذا لم يسبق القضاء والحكم الإلهي، بزيادة عمر غيره ورزقه فلا تكون سبباً له هو في ذلك، إذ الشيء قد يكون سبباً، وقد لا، لأن ذلك راجع للاستعداد، والاستعدادات متباينة متخالفة، فالاستعداد هو السبب الأول، والقضاء مترتب عليه، وهما غيب، والأسباب المشهودة لواحق مترتبة عليه، والأشياء في عالم الغيب، الذي هو العلم الذاتي ليس فيها سبب ومسبب عنه، ولا تقدم ولا تأخر، ولا ترتيب، وذلك لوسع هذا العلم، وإنما كانت الأسباب والمسببات، والتقدم والتأخر، والترتيب كتقدم العلة على المعلول، والشرط على المشروط، والسبب على المسبب في هذا العالم لضيقه، وهو عالم الشهادة المسمى بعالم الحكمة، وعالم الأسباب، فلا يوجد فيه موجود إلا عن سبب غالباً. ولا يبقى ويثبت إلا بسبب، ولا يزول ويمحى إلا بسبب، وهذا هو لوح المحو والإثبات، كما قال تعالى: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُنْثِقُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ [الرعد: الآية ٣٩].

(١) هذا عجز بيت وصدوره:

من لم يمت بالسيف مات بغيره

الذي لا محو فيه ولا إثبات، فيمحو ما يشاء ويزيله بسبب، كإزالة الأمراض بالأدوية النافعة، ويثبت ما يشاء بسبب، وهي الأسباب المثبتة للأشياء بعد إيجادها، وهي لا تحصر كثرة، وأما اللوح المحفوظ من المحو والإثبات، الذي هو مظهر العلم الذاتي؛ فهو العلم الغيبي، ليس فيه شيء مما ذكر في لوح المحو والإثبات، وإنما لم يفضل - ﷺ - هذا التفصيل؛ لأن هذا الكلام خرج منه - ﷺ - مخرج الترغيب والتنويه بعمل البر، والتعريف بعلو مكانته، أي هو بحيث أنه يكون سبباً لزيادة الرزق والأجل إذا سبق القضاء بزيادة ذلك، على أمثاله، لا مطلقاً، وإذا لم يسبق القضاء بزيادة في ذلك فلا جرم أن له أجراً جزئياً وثواباً جميلاً، وعبر عنه - ﷺ - بقوله: «مَنْ أَحَبَّ» اعتباراً لما جعله الشارع للإنسان من الكسب والاختيار، إذ هو فاعل مختار في ظاهر الأمر وبادئ الرأي، وإلا فالأمر كما ذكرنا، وريك العليم الحكيم.

\* \* \*

### الموقف التاسع والتسعون بعد المائة

حصل لي أيام التوجه قبض واستبعاد للطريق، لجهلي بنفسي، واعتقادي البعد من ربي. فغيبني الحق - تعالى - من نفسي، وألقى علي قوله:

﴿وَالْمَلَكُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ [الشورى: الآية ٥].

وقوله: ﴿لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الحشر: الآية ٢٤].

وقوله: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ [الأعراف: الآية ١٨٠].

وقوله: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ [يونس: الآية ٦٧].

أخبرني تعالى في الآيتين الأولىين أن الملائكة - مع كثرتهم التي لا يحصيها إلا خالقهم - يسبحونه ويذكرونه، فلا تتوهم أنك تذكره وحدك فتتدلل بعبادتك وذكرك، فتريد أن يفعل بك ما تريد، لا ما يريد، وفي الوقت الذي يريد، لا في الوقت الذي تريد، فاعرف قدرك وتأدب، فإن العبد يفعل ما يليق بالعبودية، والرب يفعل ما يليق بالربوبية، وأخبرني في الآية الثالثة، أن لله أسماء كثيرة لا يحصيها إلا هو، أسماء

تنزيه وتشبيهه، وأسماء ذات، وأسماء صفات، وأسماء أفعال، وكلها حسنى، فادعوه بها، أي أعرّفوه في كل اسم تجلّى لكم به، وادعوه، لأنه المتجلّى بأسمائه، وهي مراتب ظهوراته وتجلياته، ومن جملتها اسمه القابض، فهو - تعالى - يريد أن يتعرّف لعباده في أسمائه فيعرفونه في كل اسم تجلّى به، على أي عبد شاء من عباده، فمن عرف الحق - تعالى - في بعض تجلياته، في أسمائه دون بعض؛ فما عرفه في مرتبة إطلاقه، وإنما عرفه مقيداً تعالى عن التقييد:

﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ [الأعراف: الآية ١٨٠].

اتركوا وباعدوا الذين يميلون إلى بعض أسمائه دون بعض كالمنزّهه، فإنّ ميلهم إلى التنزيه فقط، وكالمشبهه فإن ميلهم إلى التشبيه فقط، فكل واحد منهما إنما يعرف الحق فيما مال إليه من أسماء تنزيه أو أسماء تشبيه، ويجهله إذا تجلّى في غير ما مال إليه. وكلاهما جاهل به تعالى، معطل لغير ما مال إليه من الأسماء، وممن خلقنا أمة وهم الرسل - عليهم الصلاة والسلام - فكلّ رسول أمة، لأن حقيقة كلّ رسول مجموع أمته التابعين له، يهدون بالحق هم وورثتهم، بمعنى يدعون الناس ويهدونهم إلى شهود الحق - تعالى - في جميع أسمائه، فإنها مظاهر ذاته، سواء كانت أسماء تنزيه أو أسماء تشبيه، فلا يجهلون في شيء من ظهوراته مع اعتقاد:

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: الآية ١١].

وهو - تعالى - قد عرفهم أنه الظاهر في كل شيء من الأسماء وآثارها، فلا يجهلون في شيء أبداً، وأخبر تعالى في الآية الرابعة، أن القبض والبسط بمثابة الليل والنهار، فالقبض شبيه بالليل لما فيه من الانكماش والانقباض وسكون النفس بالقهر، الذي نزل عليها وتحققها بعجزها عن دفع ما نزل بها، فهي لا تمرح ولا تدعي ولا تسترسل في الأماني والطلب، فلاحظ للنفس في القبض أصلاً، فلماذا كان الإنسان وقت القبض أقرب إلى السلامة وتوفية الربوبية حقها، والأدب معها منه في وقت البسط، وأمّا البسط فهو شبيه بالنهار، لما فيه من نشاط النفس وتسريحها بعدم حصول قاهر لها، واسترسالها في الأماني والدعاوى الباطلة، ولهذا كان وقت البسط أقرب إلى العطب من وقت القبض، قال بعض السادة: «لا يقوم بحق الأدب في البسط إلا القليل».

## الموقف المائتان بعد المائة

روى مسلم في صحيحه وغيره: «إن الحق - تعالى - يتجلى لأهل المحشر في أدنى صورة من التي رأوه فيها، فيقول لهم: أنا ربكم، فيقولون: نعوذ بالله منك، هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا عرفناه، ثم يتحول لهم في صورة أدنى من الصورة التي كانوا رأوه فيها، فيقول لهم: أنا ربكم، فيقولون: نعم. أنت ربنا»<sup>(١)</sup> الحديث بطوله.

اعلم أن الناس في تحوُّل الحق - تعالى - في الصور ثلاث فرق، فرقة تنكره في الدنيا والآخرة، وتزوُّل الأحاديث الواردة في التحول في الصور إلى أمور تليق بعقولهم وهم علماء الظاهر، وفرقة تنكره في الدنيا وتقره في الآخرة، تفويضًا، على مراد رسول الله - ﷺ - وعلى ما يليق بجلاله - تعالى - من غير تأويل، وهم عامة السلف الصالح، وفرقة تقره في الدنيا والآخرة من غير حلول ولا اتحاد ولا امتزاج، ولا تولد، مع اعتقاد: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: الآية ١١].

وهم العارفون بالله - تعالى -، أهل التجلي والشهود في الدنيا. فإن كنت سالك طريقهم؛ فأى صورة أشهدك الله - تعالى - نفسه بها أو عندها أو فيها؛ فهي صورة تحول لك الحق - تعالى - فيها من غير حلول ولا اتحاد، وأي صورة لم يشهدك الحق - تعالى - فيها من غير حلول ولا اتحاد، وأي صورة لم يشهدك الحق - تعالى - نفسه بها أو عندها أو فيها فهي صورة احتجب الحق - تعالى - عنك بها. ولقد رأيت سائلاً في الجامع، كلما وقف على إنسان يسأله يقول: لا تقصد إلا الله، فقلت: هذا السائل، إما أن يكون من أهل هذا الشأن، وإما أن يكون الحق - تعالى - أجرى على لسانه هذه الحكمة العظيمة، فيلزم السائل سواء سائل الدنيا أو سائل العلم أن لا يسأل إلا الله، من كل صورة مسؤولة، فإنه لا يعطي السائل مطلوبه إلا هو تعالى، فلا يسأل إلا الله - تعالى - ولا يأخذ إلا منه تعالى. يروى أن عارقاً كان يسأل، فأعطاه عارف شيئاً وقال: خذه لا لك، فقال السائل: آخذه لا منك، والتحوُّل الوارد في الحديث هو لأهل الحشر الخاص والعام منهم، فينكره العوامُّ أولاً، لأن كل واحد منهم ما

(١) صحيح مسلم: كتاب الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية حديث رقم (٣٠٢ - ١٨٣). ورواه البخاري: كتاب التوحيد، باب: «وجه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة» حديث رقم (٧٤٣٧).

عرف إلهه إلا مقيدًا بالصورة التي اعتقده عليها حسية أو معنوية، ويعرفه الخواص العارفون به في الدنيا لأنهم عرفوا إلهًا مطلقًا مجردًا عن جميع القيود والحدود، فلا يجهلونه في شيء من تجلياته، عرفهم ذلك ذوقًا اختصهم به، فاقطعهم عن الخلط بسببه:

لا يعرف الشوق إلا من يكابده      ولا الصبابة إلا من يعانيتها  
من ذاق طعم شراب القوم يدرية      ومن دراه غدا بالنفوس يشريه  
والتحوّل في الصور في الدنيا والآخرة إنما هو في نظر الناظر. وإلا فجلّ الحق - تعالى - أن يتحوّل أو يتغيّر أو يتبدّل أو تحدث له صفة لم يكن عليها.

\*\*\*

### الموقف الأول بعد المائتين

قال تعالى: ﴿أَيُّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ إِلَهَةً أُخْرَى﴾ [الأنعام: الآية ١٩].  
الآية.

الاستفهام إنكاري، معناه النهي. أي لا تشهدوا صورة عبادت. إنها عبادت مع الله، أي صورة كانت حسية أو معنوية، إذ المعية في اللسان المتواضع عليه تقتضي وجودين، وليس الوجود إلا واحدًا، وقد قضى أن لا نعبد إلا إياه، فلا يمكن أن يعبد معه سواه، ولا يلزم من تعدد الصور تعدد الحقيقة، فإن الحقيقة الإنسانية واحدة بإجماع العقلاء. وصورها لا تحصى كثرة، فإن السمع والبصر والشم واليد والرجل، كلّها صورها، قل لا أشهد ما شهدتموه من تعدد الإلهية. وإنما أشهد إلهًا واحدًا تعددت مظاهره، والعين واحدة كالأسماء المتعددة للمسمى الواحد، فهل ذلك قادح في وحدة المسمى؟ ولهذا قال: ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ﴾ [الأنعام: الآية ١٩].

أي المعبود في كل صورة هو إله واحد عينًا، وحقيقة ووجودًا، فليس هنالك آلهة مع الله، كما قال تعالى في آية النمل: ﴿أَيُّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ إِلَهَةً أُخْرَى﴾ [النمل: الآية ٦٠].

أي لا إله مع الله، فهو إله واحد تعددت تعيناته ومظاهره، بل هم قوم يعدلون عن شهود الوحدة الحقيقية، إلى الكثرة المجازية الاعتبارية، فالعارف يرى جميع الصور المعبودة وغير المعبودة، ليس لها وجود مع الله، وإنما وجودها هو وجود الله الواحد العين، والحقيقة والصور ظهوراته وتعيناته، والظهور والتعین والتعدد اعتبارات عقلية لا وجودية خارجية، ولكن الحجاب صيرها كما يراها المحجوب. وهذا

التوحيد الذي قَدَّمناه هو الذي أمر الله - تعالى - به عباده، وجاءت به الرسل - عليهم الصلاة والسلام -، فإنه - تعالى - أمر بتوحيد حقيقة ألوهيته، فإنها واحدة، وجد الموحد أو عدم، وما أمر بتوحيد الصورة والتعئونات، فإنها أعداد اعتبارية، وإنما أمر بشهود وحدته في ألوهته، وسريان هويته في مظاهره المتعددة، وتعئناته المتكثرة، وحينئذ يكون هو الذي وحَّد نفسه بنفسه، فيصحُّ قوله: لا إله إلا الله، بمعنى نفي تعدُّد الإله في ألوهته، وإن تعدُّت مظاهره. ولا وجود إلا وجود الله.

\* \* \*

### الموقف الثاني بعد المائتين

قال تعالى في تعديد صفات السيد الكامل - ﷺ -: ﴿وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾ [الأحزاب: الآية ٤٦].

اعلم أن الإنارة لازمة للسراج. وكما يصحُّ أن يكون منيرًا صفة كاشفة يصحُّ أن يكون بمعنى جعل الغير منيرًا، فإنه ورد متعديًا ولازمًا، فهو - ﷺ - السراج المنير لكل سراج، أي يجعله سراجًا منيرًا، وكما أن السراج المحسوس، إذا أسرجت منه سرجٌ كثيرة، فلا شك أن ذلك السراج الواحد كان متضمنًا لتلك السرج الكثيرة كلها، فكانت فيه بالقوة، ثم خرجت إلى الحس، وانفصلت عنه في الوهم، فهي هو في الحقيقة والعلم، وهي غيره في الوهم والحكم؛ فكذا الحقيقة المحمّدية هي المنيرة لكل سراج منير حسًا ومعنى، من نبيٍّ ووليٍّ، ومملك وشمس، وقمر ونجم. فإنها المظهر الأول والحقيقة الكلية الجامعة، والسراج المنيرة كلُّها فيها بالقوة وتظهر بالفعل آتًا بعد أن، أعني تظهر هي متعئنة بتعئِن خاصٍّ، متميِّزة بتميِّز. فالسراج المنيرة غيرها بحسب التعيين والتمييز الاعتياديين، وهي عينها، بحسب الحقيقة والعين، كالرجل الواحد برز في الملابس المتعددة المختلفة، فهو هو من حيث الحقيقة في كل لبسة، وهو غيره بحسب اختلاف الملابس وتعددتها.

\* \* \*

### الموقف الثالث بعد المائتين

قال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: الآية ٢] الخ...  
الفاتحة.

انظر إلى هذا الجود العظيم والعناية الكبرى بهذا العبد الكريم على ربِّه فإنه تعالى أولاً أمره بحمده وعلمه كيفية الحمد، فقال: قل:



﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: الآية ٢].

بالجملة الاسمية المفيدة الدوام والاستمرار، و«بأل» العهدية التي معهودها حمد الحق - تعالى - نفسه بنفسه في أزله، وقال «الله» باللام المفيدة، أن الحمد صادر منه تعالى، راجع إليه، فهو الحامد وهو المحمود، وهو معنى ما ورد في الخبر الصحيح: «وليه يرجع عواقب الشاء».

وما قال «بالله» لأن الباء لا تفيد هذا، ولهذا قال بعضهم: «اللاميون أفضل من البائين» وبعدهما خلق تعالى هذا القول في العبد. قال تعالى: «حمدني عبدي».

أمر وعلم وخلق، ونسب ذلك للعبد فهذا هو الفضل المبين، إذا أراد أن يظهر فضله عليك خلق ونسب إليك، ثم علمه تعالى كيف يشي عليه، فقال: قل:

﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [الفاتحة: الآية ١].

وبعدما خلق ذلك في العبد قال: «أثنى علي عبدي».

ثم علمه كيف يمجده، فقال: قل: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة:

الآية ٤].

وبعد أن خلق هذا القول في العبد قال تعالى: «مجّدي عبدي».

ثم لما حصل الحمد والثناء والتمجيد من العبد حصل على كمال الأدب، فأطلق تعالى لسانه بعد، بالسؤال والطلب، فعلمه تعالى كيف يسأل وماذا يسأل، فقال له، قل: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة: الآية ٥].

أي اجعلني لا أعبد ولا أخضع وأتذلل إلا لك، لأن العبادة لغة؛ الخضوع مطلقاً، والإنسان لو ارتفعت منزلته، وعظمت مكانته فلا بد أن يتذلل ويتعبد لبعض المخلوقات، التي يراها أعلى منه، والتعبد والتذلل لغير الله - تعالى - شرك، فأمر الحق - تعالى - عبده أن يسأله شهوده في كل مظهر، عبده؛ بمعنى تذلل وخضع له، فيكون تعبه حينئذ للمظاهر تعالى، لا للمظهر، فيتخلص من الشرك، بل يحصل على غاية الكمال في الأدب، فإنه أعطى الظاهر تعالى حقه والمظهر مستحقه، وقام بحق الشريعة والحقيقة، ووفى المراتب ما تطلبه، ثم قال له، قل:

﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: الآية ٥].

أي اجعلني لا أستعين إلا بك. لأن المخلوق ولو بلغ من الاقتدار والعظمة؛ فلا بد أن يستعين بغيره من إنس أو جن أو ملك أو اسم إلهي، فإذا لم يشهد وجه

الحق - تعالى -، فيما استعان به كان مشركًا، فأمر الحق عبده أن يسأله شهوده في كل شيء استعان به حسيًا أو معنويًا، وحينئذ يتخلص من الشرك. فإذا خلق تعالى هذا القول بالسؤال في العبد، قال تعالى: «هذا بيني وبين عبدي، ولعبي ما سأل».

يعني ما تقدّم وما يأتي، ثم بعد التفصيل أمره بإجمال السؤال الجامع لأسباب السعادة، فقال: قل: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: الآية ٦].

صراط الله الربّ الموصل إلى رضوانه تعالى ودار سعادته، ثم زاده بيانًا فقال:

﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: الآية ٧].

وهم: محمّد وإخوانه من المسلمين والنبیین - صلوات الله عليه وسلامه وعليهم أجمعين - وأتباعهم من الصديقين والشهداء والصالحين، أترى بعد أن أمره بسؤاله، وعلمه كيفية السؤال، وآداب المناجاة، ووعده بإجابة سؤاله يرده صفر اليدين؟ كلاً فإنه تعالى أكرم من أن يرده خائبًا، ولو لم يأمره بالسؤال، ولا وعده بالإجابة، كيف وقد أمر وعلم ووعده، والحمد لله رب العالمين.

\*\*\*

### الموقف الرابع بعد المائتين

قال تعالى: ﴿كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾

[المائدة: الآية ٣٢] الآية.

اعلم أن لكل إنسان نفسين: نفس مدبرة، وهي النفس الروحانية الربانية العلوية، ونفس مدبرة (اسم مفعول) وهي النفس الطبيعية العنصرية السفلية الحيوانية، وحقيقتها كيفية تعرض بين النفس الروحانية الكلية وبين الجسم، فهي مثلاً كالصورة في المرآة عند المقابلة، بواسطتها يصل تدبير النفس الروحانية للجسم، وباختلاف القوايل التجلي النفس المقبول تعددت النفوس، وتميّزت وصح الإطلاق على المقبول الواحد بالتعدد، فمن قال: زوال الصورة الحاصلة في المرآة مثلاً هو الموت، قال: الموت أمر وجودي. ومن قال: عدم التجلي هو الموت. قال: الموت أمر عدمي، أي عدم الحياة. فتقابل الموت والحياة؛ إمّا تقابل عدم وملكه، وإمّا تقابل تضاد، عند بعض سادات القوم. ولما كانت النفس واحدة للعالم جميعه، والقوايل تقبل بحسب استعداداتها من ذلك التجلي كان: ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًا﴾ [المائدة: الآية ٣٢].

أي من كان سبباً في إبطال تصرف النفس الكلية في الجسم «بغير نفس» أي بغير إذن شرعي. وإنما وقع النص على النفس والفساد في الأرض لأنه الغالب:

﴿فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: الآية ٣٢].

ودخل في الناس جميعاً نفس القاتل، فكان قاتل نفسه؛ بمعنى كان عليه وزر من قتل جميع الناس، وقتل نفسه. وذلك لوحدة النفس الكلية. وهذا معنى قوله في سورة البقرة:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ...﴾ إلى أن قال: ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقُولُونَ أَنْفُسَكُمْ...﴾ [البقرة: الآيتان ٨٤، ٨٥].

وما قتلوا أنفسهم في الحس، وإنما قتلوا أعداءهم بالظلم والحمية الجاهلية، ولشرف الإنسان خصه الحق - تعالى - بهذا، وإلا فالقياس أن يكون هذا الحكم عاماً في كل من كان سبباً في منع تجلي النفس على جسم من الأجسام، بغير إذن شرعي، من جماد ونبات وحيوان وإنسان، إذ لكل منها نفس تليق به، تظهر آثار النفس المدبرة فيه بحسب استعداده «ومن أحيائها» أي كان سبباً في إبقاء وصول تجلي النفس على الجسم الإنساني، بمعنى دفع الهلاك المتوجه على إنسان، بحيث أنه لولا هو في بادئ الرأي لهلك ذلك الإنسان، كإطعامه في مسغبة، وسقيه عند عدم الماء، وتخليصه من حيوان مفترس أو دفع ظالم يريد قتله، فكأنما أحياى الناس جميعاً، فيكون له أجر من أحيى جميع الناس، لما تقدم من وحدة النفس.

\*\*\*

### الموقف الخامس بعد المائتين

قال تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ﴿١﴾ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ بِعَمَلِكَ وَبَهْدِكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿٢﴾﴾ [الفتح: الآيتان ١، ٢].

هذا الفتح فتح الولاية لا فتح الرسالة، فإن فتح الرسالة متعلق بالأوامر والنواهي الوضعية المتعلقة بمصالح الخلق، والنظر إلى ما ينفعهم في معادهم ومعاشهم، بحسب أزمانهم وأحوالهم، وارتباط الأسباب بعضهم ببعض، وترتب الأشياء على شرائطها. فهو خدمة التجلي بصدده ومعارضته نقيضه. والنظر إلى الأمر الشرعي دون الإرادي، وفتح الولاية ليس كذلك، فهو فتح مطلق، لا تعلق له إلا بحقائق الأشياء

ومبادئها ونهايتها، ولا تعلق له فيما بين ذلك، وليس فيه أسباب ولا شروط موانع ولا أوضاع شرعية ولا حكمية، بل هو سكون تحت الأمر الإرادي ومساعدة التجليات إلى أن تنقضي دولها، لا معارضة ولا منازعة ولا مناقضة. وهذا دون النبوة والرسالة والوراثة الكاملة، التي هي مقام الدعوة إلى الله - تعالى - .

«لِيُغْفِرَ لَكَ» ليستر عنك، ولك ومن أجلك، اللُّهُ ما تقدّم قبل هذا الفتح وما تأخر عنه من ذنبك، أي ذنب أمتك. وإنما نسبت ذنوب أمته إليه - ﷺ - لأن حقيقة كل رسول هي مجموع حقائق أمته، فهو الكل، وهم أشخاص ذلك الكل، فكيف به - ﷺ - الذي هو كل هذا الكل وعنصر العناصر، والجنس الأعلى، وجوهر الجوهر، وحقيقة الحقائق، وروح العالم كله ومحركه، وقد ورد: «إذا دخلت الشوكة في رجل أحدكم أجد ألمها»<sup>(١)</sup>.

﴿وَيَتَذَكَّرُ لَكُمْ﴾ [يوسف: الآية ٦].

بهذا الفتح المبين والكشف اليقين فتقر عينك وتطمئن نفسك إذ كان - ﷺ - كثير الاهتمام بأئمة الدعوة، فضلاً عن أمة الإجابة، ولذا أشفق تعالى منه، وقال له: ﴿لَعَلَّكَ بِنِعْمِ اللَّهِ آتِياً إِتْمِناً يَكُونُ أَنتَ مُؤْمِنًا﴾ [الشعراء: الآية ٣]. وقال: ﴿فَلَا تَذَهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ﴾ [فاطر: الآية ٨]. وهذا في حق أمة الدعوة، وقال في حق أمة الإجابة:

﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ﴾ [التوبة: الآية ١٢٨].

فأراحه الله بهذا الفتح المبين.

واعلم أن مآل من أذنب منهم المغفرة والوصول إلى السعادة المطلوبة، والغاية المرغوبة، وإن حصل لبعضهم تخلص وتهذيب، فهو غير قادح في المغفرة لهم، بالنسبة لما يحصل لغيرهم، بتلك المعاصي نفسها، ويصح أن يكون هذا الفتح أعم وأوسع، بأن يكون المراد اطلاع الحق - تعالى - رسوله - ﷺ - والرسول كلهم نوابه وخلفاؤه من أول رسول إلى آخر رسول، ولهذا قال - ﷺ - فيما أخرجه الحاكم والبيهقي: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق».

يعني الشرائع، فهو الآتي بها أولاً بمظاهر روحانية، وهم الرسل، وهو المتمم لها آخرًا بظهوره، بصورته العنصرية - ﷺ - فإنه كما روى أبو نعيم في الحلية، كان

(١) لم أجده بهذا اللفظ وورد بألفاظ أخرى.

نبياً وآدم بين الماء والطين، ومن هذا الفتح المبين الذي امتن الحق - تعالى - به على رسوله - ﷺ - حصل لورثته الكَمَلُ نصيب، فتكلموا بشمول الرحمة وعموم السعادة، لكل من دخل النار، كمظهر الصفة العلمية: محيي الدين الحاتمي، وعبد الكريم الجيلي، والقطب علي وفا، وأضرابهم - رضي الله عنهم - ولا يظن أن القول بعموم الرحمة اختص به أهل الكشف، فيكون قولهم خرقاً للإجماع؛ بل لا إجماع في هذه المسألة كما ستراه، قال شرف الدين المناوي، قال الحافظ شيخ الإسلام ابن تيمية: إنه قد جاء في بعض الآثار، ما يدلُّ على خلاص الكلِّ آخرًا، وإن النار تفتنى ويزول عذابها، نقل ذلك عن ابن عمر، وابن مسعود، وأبي هريرة، وأبي سعيد وغيرهم، وأخرج عبد بن حميد بإسنادين، رجالهما ثقة: «لو لبث أهل النار في النار كعدد رمل عالج لكان لهم على ذلك يوم يخرجون فيه».

وتداوله أئمة غير مقابلين له بالإنكار، قال (أعني ابن تيمية): وإنما أرادوا جنس أهل النار، الذين هم أهلها، أما قوم أصيبوا بذنوبهم؛ فقد علموهم أنهم لا يلبثون قدر رمل عالج ولا قريبًا منه، ولفظ «أهل» يختص بمن عدا المؤمنين، كما يشير إليه عدة أحاديث ولا يناقضه، خالدين فيها، وما هم منها بمخرجين، بل ما أخبر به الحق هو الحق الذي لا يقع خلافه، ولكن إذا انقضى أجلها، وفنيت كما تفتنى الدنيا لم تبق نار فلم يبق عذاب، وورد في عدة طرق عن ابن عمر - رضي الله عنهما -: «ليأتينَّ على جهنم يوم تصفَّق فيه أبوابها، ليس فيها أحد».

وذلك بعدما يلبثون فيها أحقابًا، وجاء نحوه عن ابن مسعود - رضي الله عنه - وأخرج عبد بن حميد عن الثقة: «جهنم أسرع الدارين عمرًا وأسرعهما خرابًا».

وأخرج ابن مردويه عن جابر رفعه في قوله تعالى:

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُّوا فِي النَّارِ﴾ [هود: الآية ١٠٦] الآية.

قال رسول الله - ﷺ -: «إن شاء الله أن يُخرج أناسًا من الذين شقوا من النار فيدخلهم الجنة؛ فعل» . اهـ.

فأين الإجماع؟! فما ظنُّ الإجماع، إلا من جهل الخلاف والنزاع. وقد ذكر ابن القيم هذه الأحاديث، وصحَّح طرقها، ورد طعن الطاعن فيها، وهو من أئمة الحنابلة مشهور بالعلم والدين.

﴿وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ [الفتح: الآية ٢٢].

يوصلك، فهي هداية توصيل وكشف وفتح مبين، حتى تعلم نهاية أمتك. وتشاهد ما لهم؛ فتجده صراطاً مستقيماً، واستقامة هذا الصراط هو كونه ترجع نهيبته إلى بدايته، فإن استقامة كل شيء بحسب المقصود المراد منه، فاستقامة الدائرة المرادة هي كونها يتصل آخرها بأولها، على أول نقطة، فلو مشت خطأ من غير استدارة ما كانت مستقيمة، فلو كان هذا الصراط خطأ لوصل إلى العدم، لأنه خرج من الوجود، فاستقامته عوده إلى ما منه ابتداء، عود آخر الدائرة إلى بدايتها، وبذلك استقامتها.

\* \* \*

### الموقف السادس بعد المائتين

قال تعالى: ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾ [غافر: الآية ٣١]، وقال: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: الآية ٤٦]، وقال: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: الآية ٤٩]، وقال: ﴿وَمَا ظَلَمْنَهُمْ وَلَكِن مَّ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾ [هود: الآية ١٠١]، وقال: ﴿وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [البقرة: الآية ٥٧]. ونحو هذا...

اعلم أنَّ الظلم ورد بمعنى النقص، يقال: ظلمت الثمرة إذا نقصت، ومنه قوله تعالى: ﴿كَلْنَا الْجَنَّتَيْنِ ءَأَنْتَ أَكْلَهُمَا وَلَمْ نَظْلِمِ بَيْنَهُمَا شَيْئًا﴾ [الكهف: الآية ٣٣].

وورد بمعنى وضع الأشياء غير مواضعها، التي تستحقها بالحكمة والعلم ومجاورة الحد، وكلا المعنيين منفي عنه تعالى، مستحيل عليه. فإنه إنما يتصرف عطاء ومنعاً، ضراً ونفعاً، بالعلم والحكمة والعدل، لأنه العليم الحكيم المقسط، يبدئ الميزان يخفض ويرفع، فلا يمنع من يستحق الكلّ بعض ما يستحق، ولا يعطي من يستحق البعض أكثر ممّا يستحق، دنيا وأخرى حساً ومعنى تعالى عن ذلك. فعصاً: ومنعه، وضراً ونفعه، تبع للاستحقاق والاستعداد، والاستعدادات الكلية هي حقائق الأشياء. فلو ظلم أحداً ونقصه ممّا يستحقه باستعداده لكان نقصه من حقيقته التي هو بها هو، وذلك محال غير معقول، ولو زاد أحداً فوق ما يستحقه باستعداده لكانت زائدة على حقيقته التي بها هو هو، وهو محال أيضاً، هذا حكم الاستعداد الكلي. وأمّ الاستعداد الجزئي فليس له هذا، ولا هو موجب لحصول ما يطلب، مثلاً: ترى في خدمة الملك رجلاً عاقلاً عالماً سائساً مستجمعاً للكمالات عندك. ويكون عند الملك في مرتبة، ترى أنت أنه مستعدّ لأعلى منها، ومستحقّ لأكبر منها وتقول: إن الملك قصر به عن استعداده واستحقاقه، وليس الأمر كما ظننت، فإنّ هذا الاستعداد جزئي لا أثر له. فالاستعداد الكلي غير معلول ولا مجعول، بخلاف الاستعداد الجزئي فإنه



معلول مجعول، فلا تظن أن الحق - تعالى - العليم الحكيم يمنع أحدًا مما يطلبه باستعداده الكلي الذاتي، وليس هذا إلا من اقتضاء الأسماء الإلهية، التي هذه الأعيان الثابتة صور لها، فما يقتضيه الاسم، الذي هو حقيقة هذا المخلوق، هو استعداده، وكيف يتوهم متوهم أنه - تعالى - ينقص أحدًا من استحقاق استعداده، أو يزيد فوق استحقاق استعداده، وهو - تعالى - له ثلاث نسخ غيبية والرابعة شهادته، النسخة الأولى؛ هي موطن كون العالم شؤونًا ذاتية له - تعالى - وهو التعيين الأول. والنسخة الثانية هي موطن كون العالم أعيانًا ثابتة، وهو التعيين الثاني. والنسخة الثالثة موطن كون العالم مكتوبًا مسطورًا في اللوح المحفوظ. والنسخة الرابعة موطن كون العالم أعيانًا خارجية شهادية. فما كان في النسخة الأولى وهو العلم الذاتي المحيط المتعلق بما لا يتناهى فلا يصل إليه علم أحد، إلا أن يكون محمدًا - ﷺ - وعلى آله. فإنه صاحب أو أدنى، أعني باطن الوجود والعلم، وأما ما كان في النسخة الثانية فإنه يصل إليه الرسل - عليهم الصلاة والسلام - وبعض الكمّل من الورثة المحمديين، كالأقطاب والأفراد، فإن التعيين الثاني الذي هو قاب قوسين منتهى عروجهم ومسراهم، وأما ما كان في النسخة الثالثة وهي اللوح المحفوظ فيصل الله كثيرًا من الأولياء، وهو مقصود على ما قبل يوم القيامة، وبعد يوم القيامة ليس فيه علم ذلك، ومع كون علوم اللوح محصورة فقد قال مظهر الصفة العلمية الإلهية محيي الدين الحاتمي - رضي الله عنه - «لم يحط أحد من الأولياء بعلوم اللوح المحفوظ». وأما النسخة الرابعة فهي هذه المشهودة المحسوسة. فمحال أن يكون شيء في النسخ الثلاث الغيبية ولا يظهر في النسخة الرابعة. ومحال أن لا يكون هناك شيء في النسخ الثلاث، ويكون ويظهر هنا في النسخة الرابعة. قال بعض الأكابر: خوف العامة من سوء الخاتمة، وخوف الخاصة من سوء السابقة، ونظر العارفين إلى السابقة مختلف. فمنهم من نظره إلى ما خطه القلم في اللوح المحفوظ، ومنهم من نظره إلى عينه الثابتة، ومنهم من نظره إلى مقتضى استعداده، وهو أعلامهم، فاحفظ هذا الموقف، فإنه يريحك من أتعاب كثيرة تفضي بك إلى الجهل وسوء الأدب، وتهمة الحق - تعالى -، ويحط عنك أنفلاً عظيمة.

يحكي عن الإمام أبي الحسن الشاذلي - رضي الله عنه - أنه قال: صحبني إنسان وكان كلاً عليّ، فباسطته يوماً فانبسط، فقلت له: ما تريد مني؟ وما حاجتك عندي؟ فقال لي: يا سيدي، سمعت أنك تعلم علم الكيمياء فجتتكت لتعلمني، فقلت له: صدقت وصدق من أخبرك، ولكن أرى ذاتك لا تحتل هذا العلم، فقال: بلى أحتمله، فقلت له: إني نظرت إلى الخلق فوجدتهم قسمين، أعداء وأصدقاء، فتعلقت

بأصدقائي لِينْفَعُونِي؛ فوجدتهم لا يقدرُونَ أن يَنْفَعُونِي بشيءٍ لَمْ يَقْدِرْهُ اللهُ لِي، فَصَرَفْتُ نَظْرِي عَنْهُمْ، ثُمَّ نَعَلْتُ بِأَعْدَائِي حَذْرًا مِنْ شَرِّهِمْ؛ فوجدتهم لا يقدرُونَ على ضَرْبِي بشيءٍ لَمْ يَقْدِرْهُ اللهُ - تعالى - فَصَرَفْتُ نَظْرِي عَنْهُمْ، وَتَعَلَّمتُ بِاللَّهِ - تعالى -، فَقَالَ لِي: إِنَّكَ لَا تَصِلُ إِلَى حَقِيقَةِ هَذَا الْأَمْرِ حَتَّى تَيَأسَ مَنًّا، إِنَّا لَا نَعطِيكَ إِلَّا مَا قَدَرْنَا لَكَ فِي الْأَزَلِ، كَمَا يَنْسَبُ مِنْ أَصْدِقَائِكَ وَأَعْدَائِكَ. فَهَذِهِ هِيَ الْكِيمِيَاءُ الَّتِي أَعْرَفَهَا، خذْهَا أَوْدِعْهَا.

\*\*\*

### الموقف السابع بعد المائتين

قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر: الآية ١٥].

خاطب - تعالى - الناس، ويدخل معهم سائر العالم بالأحرى، أخبرهم - تعالى - أنهم الفقراء إلى الله، أي الطالبون منه ما أنتم محتاجون إليه، راغبون فيه، في كل نفس وحال، حال إمكانكم وعدمكم، وفي حال اتصافكم بالوجود. فتطلبون منه حالة الإمكان والعدم إعطاء الوجود لكم. وبعده طلبكم استمرار الوجود، وما به بقاء الوجود عليكم. فالاسم «الله» في صدر الآية؛ اسم للمرتبة التي له - تعالى - كمرتبة الخلافة للخليفة والقضاء للقاضي، فهو صفة مشتق، لا اسم الذات، لأن الذي تفتقر إليه الممكنات، وتطلب حوائجها منه؛ إنما هو المرتبة المسماة بالألوهية، مرتبة الصفات والأسماء، التي تنسب وتُسند إليها جميعًا الآثار، فهي مرتبطة بالممكنات، والممكنات مرتبطة بها ارتباط فاعل بفاعل، ومؤثر. فالطلب من الجهتين، والارتباط في الحَيْثِيَّين، ففي الآية حذف الواو مع معطوفها للعلم به عند العلماء بالله - تعالى -، والنكتة في هذا الحذف أنه - تعالى - عبّر بالفقر في حق الناس، فعلمنا الأدب القولي، كما هو واقع في آيات كثيرة، ولذلك فسرنا نحن الفقر بالطلب، حتى لا ينفر السامع لذلك في حقه - تعالى -، وإن كان من هو أعلم وأفضل وأكثر أدبًا عبّر بالافتقار في الجهتين، حيث يقول في الفصوص:

فالكل مفتقر ما الكلُّ مستغني هذا هو الحق قد قلناه فلا تكني

فالكل بالكل مربوط وليس له عنه انفصال، خذوا ما قلته عني

غير أن بين الطالبين والافتقارين بونًا بعيدًا، فلذا أوردت الآية بصيغة الحصر، أي أنتم الفقراء، الفقر الحقيقي، لا الأسماء التي تطلبكم لتفعل وتؤثر فيكم، لأن معنى

الطلب مرتبة الألوهية للناس وغيرهم؛ إنما هو لتظهر آثار الأسماء بظهور مؤثراتها، فإن ظهور الأثر مستلزم ظهور المؤثر ضرورة، وإنما كانت المرتبة طالبة للعالم؛ لأن للحق - تعالى - كمالين: كمال ذاتي وكمال أسمائي. فالكمال الأسمائي موقف ظهوره على ظهور الأسماء بظهور آثارها، فإن محيي ومميت، وقادر ومعطي، وخالق ومصور، من غير ظهور آثارها قوة وصلاحية لا فعلاً، فهي تطلب الخروج من القوة والصلاحية إلى الفعل، وليس الارتباط بين الأسماء والعالم والطلب المذكور موقوفاً على وجود العالم، كما قد يتوهم. بل الناس والعالم جميعه مفتقر إلى الله، أعني مرتبة أسماء الألوهية وجوداً وتقديراً، حال العدم وبعده أولاً وأبداً، ولهذا؛ كانت أسماؤه - تعالى - قديمة أزليّة:

﴿وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر: الآية ١٥].

لفظة «هو» تأكيد، لأن الله هنا اسم الذات، لا باعتبار مرتبة، فهو اسم جامد غير مشتق، أي الذات الذي هو الغيب المطلق، غني عن الناس وعن جميع العوالم، وعن الأسماء وعن الوصف، بالغنى والحمد، ولكن لضرورة التفهيم وصف لا بالأصالة. وهذا هو الكمال الذاتي والغنى المطلق، وهو - تعالى - في هذا الكمال الذاتي؛ يشاهد جميع كمالاته الأسمائية شهوداً علمياً غيبياً جمعياً، فهي كمالات مستهلكة في الذات غير متميزة عنها، يشهدها شهود مفصل في مجمل، كشهود النخيل الكثير والثمار والأغصان في النواة الواحدة:

﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾ [النحل: الآية ٦٠].

لفظة «الله» في صدر الآية مثل لفظة الإله في الكلمة المشرفة، كلمة الشهادة، ولفظة «الله» في عجز الآية مثل لفظة الله الواقعة بعد أداة الاستثناء، فأين ما ذكرناه من التباين بين لفظتي «الله» في الآية، فما ذكره المتكلمون في كلمة الشهادة، في الكلية والجزئية وغير ذلك، فما أبرد الحقائق على أكباد القلوب المنورة وما أذها!!

\* \* \*

### الموقف الثامن بعد المائتين

قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا يَلْسَانًا قَوْمِهِ. لِئَبْيِتَ هُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [إبراهيم: الآية ٤].

كُلٌّ مَنْ حَمَلَ أَمْرًا لِيُوصِلَهُ إِلَى غَيْرِهِ فَهُوَ رَسُولٌ، لُغَةً، فَالرَّسُولُ فِي الْآيَةِ، مِنْ بَابِ الْإِشَارَةِ؛ أَعْمٌ مِنَ الرَّسُولِ الَّذِي يُوحَى إِلَيْهِ بِشَرَعٍ مُسْتَقِلٍّ وَأَحْكَامٍ جَدِيدَةٍ، كَنُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى وَمُحَمَّدٍ - عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - وَمِنَ الرَّسُولِ الَّذِي يُوحَى إِلَيْهِ بِاتِّبَاعِ شَرِيعَةٍ مِّنْ قَبْلِهِ، وَيُبَيِّنُ لَهُ بِالْوَحْيِ، مَا هُوَ مِنْ تِلْكَ الشَّرِيعَةِ، وَخَالَفَهُ النَّاسَ وَتَرَكَوهُ، وَمَا لَيْسَ مِنْهَا وَأَدْخَلَهُ النَّاسَ فِيهَا، وَيُؤْمَرُ بِدَعَاءِ النَّاسِ إِلَى تِلْكَ الشَّرِيعَةِ وَالْعَمَلِ بِهَا، وَإِنْ كَانَ يُوحَى إِلَيْهِ بِأُمُورٍ تَخْصُهُ فِي نَفْسِهِ لَا يُؤْمَرُ بِالدَّعَاءِ إِلَيْهَا، وَهُوَ فِي الْعَرَفِ: «النَّبِيُّ» كَجَمِيعِ أَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ الَّذِينَ بَيْنَ مُوسَى وَعِيسَى - عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - فَإِنَّهُمْ كَلَّمَهُمْ مُتَعَبِّدُونَ بِأَحْكَامِ التَّوْرَةِ، مَأْمُورُونَ بِاتِّبَاعِهَا وَالْعَمَلِ بِهَا وَالدَّعَاءِ إِلَيْهَا، وَلَيْسَ وَاحِدٌ مِنْهُمْ بِمُسْتَقِلٍّ، وَمَنْ ادَّعَى أَنْ وَاحِدًا مِنْهُمْ بَدَّلَ شَيْئًا مِنْ أَحْكَامِ التَّوْرَةِ إِلَى عِيسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - فَعَلِيهِ الْبَيْئَةُ، وَيَسْمُونَ رَسُولًا «لُغَةً» كَمَا قَالَ تَعَالَى:

﴿وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا مِّثْلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾﴾ [يَس: الآيَة

. [١٣]

أجمع المفسرون على أنهم رسل عيسى - عليه السلام - وقال:

﴿وَقَوْمٌ نُّوحٌ لَّمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ﴾ [الفرقان: الآيَة ٣٧].

ونوح - عليه الصلاة والسلام - هو أول الرسل إلى أهل الأرض، كما في صحيح البخاري، في حديث الشفاعة، فالمكذّبون رسل نوح. ومن الرسول الذي يلهم. وسميائه إلهامًا تأديبًا مع مقام النبوة، وإلا فما يحصل للأولياء كذلك هو وحي، لكن من غير واسطة ملك مشهود، وبواسطة ملك غير مشهود، وهو الوارث المحمّدي، الذي يؤمر بدعوة الناس إلى معرفة الله - تعالى - وتوحيده التوحيد الذي جاءت به الرسل - عليهم الصلاة والسلام - لا التوحيد العقلي، وإلى اتباع محمد - ﷺ - في أقواله وأفعاله وأحواله، وهو المعني بقوله:

﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ [يوسف: الآيَة

. [١٠٨]

أي التابع لي على طريق مخصوص، يدعو إلى الله على بصيرة، كدعائه - ﷺ - لا يدعو الناس على عماية وجهل، فما أرسل الله - تعالى - رسولاً مستقلاً، أو نبياً أو ولياً إلا بلسان قومه، ولسان قومه هو استعدادهم الذي يفهمون عنه ما يكلمهم به، إذ المقصود من الكلام والخطاب إفهام المخاطب، ولا يكون الفهم إلا بالاستعداد، ولو

خاطب أحداً منهم بغير لسانه، الذي هو استعداده ما فهم عنه ما يقول، وبطلت فائدة الخطاب. وأما اللسان، الذي يكون سماعه بالأذن فقط فغير كاف في المقصود من الخطاب وهو الفهم، ولذا قال تعالى:

﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دَعَاءَكُمْ﴾ [فاطر: الآية ١٤].

وقال تعالى: ﴿وَتَوَيْبًا أذُنٌ وَعَيْبَةٌ﴾ [الحاقة: الآية ١٢].

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ [الأنعام: الآية ٣٦].

وقال تعالى: ﴿وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: الآية ١٧٩].

وقال: ﴿وَلَا تَسْمَعُ أَلْصَمُ الدُّعَاءَ﴾ [الثلث: الآية ٨٠].

وما كان صممهم من جهة آذانهم، وإنما كان صممهم من جهة استعدادهم وعدم قبولهم وفهمهم لما يدعوهم إليه.

وقوم كلِّ رسولٍ أنواع ثلاثة، عامّة، وخاصّة، وخاصة الخاصة، فلو خاطب الرسول العامّة بلسان الخاصة، الذي هو غير لسانهم لأفسدهم ونفّرهم. ولو خاطب الخاصّة بلسان خاصّة الخاصة، الذي هو غير لسانهم لأفسدهم وأدخل عليهم ضرراً عظيماً وشراً كثيراً، إذ كل نوع لا يفهم؛ إلا الخطاب الذي يكون بلسانه، وهو استعداده، ولا يفهم إلا منه الفهم المقصود من الخطاب، وهذا على سبيل الفرض، وإلا فلا يكلم رسول - أي رسول - أحداً من قومه بغير لسانه أبداً، وإنما يكلم كل واحد بلسانه الذي هو مستعد لفهمه وقبوله، إذ لا يرسل الله - تعالى - رسولاً إلا بالعلم والحكمة. فإذا رأيت من يدعي الأمر الإلهي بدعوة الناس إلى الله وهو على غير ما ذكرناه؛ فاعلم أنه كاذب أو ملبس عليه، فإن الحكيم العليم يزرع كلّ بذر في الأرض القابلة لإنباته. فما كل أرض تقبل كل بذر:

وهل ينبت الخطيئُ إلا وشيخُه وتغرس إلا في منابتها النخل

ولذا قال رسول الله - ﷺ -: «إنا معشر الأنبياء، أمرنا أن نكلّم الناس على قدر عقولهم»<sup>(١)</sup>.

أي استعدادهم، وفي حديث آخر: «ما كلّم أحد قوماً بحديث لم تبلغه عقولهم إلا كان فتنه عليهم»<sup>(٢)</sup>.

(١) العقيلي (الضعفاء ٤/٤٠٥)، طبعة دار الكتب العلمية.

(٢) لم أجده حسب ما لدي من مصادر ومراجع.

وفي صحيح البخاري عن علي - عليه السلام -: «حدثوا الناس بما يفهمون، أتحبون أن يكذب الله ورسوله؟»<sup>(١)</sup>.

فلسان العامة الذي يرسل به الرسول إليهم، فيكلمهم به، يفهمون عنه هو الأمر بالواجبات والنهي عن المحرمات، وما هو من هذا القبيل، ممّا تظهر الحكمة فيه لأكثر العقول العامية. ولسان الخاصة الذي يرسل به الرسول إليهم، فيكلمهم به، يفهمون عنه هو ما تقدم، مع الأمر بتصفية الأعمال من الشوائب، كالعجب والرياء والسمعة، واجتناب المهلكات، كالحسد والبخل والجبن، وطول الأمل وحب الدنيا، وتحلية القلب بالمنجيات كالصبر والرضى، وتقصير الأمل والسخاء ونحو ذلك. ولسان خاصة الخاصة، الذي يرسل به الرسول إليهم فيكلمهم به هو ما تقدم، مع كشف الحقائق الوجدانية لهم، على حسب مراتبهم في الاستعداد، فيبدي لهم من العلوم التي يجدها أهل الله - تعالى - بالوحي الإلهامي، من فوق طور العقل، أعني: أنه لا يصل إليها العقل بفطرته وآلاته، التي من عاداته اقتناص العلوم بها، وإنما يدركها بالوهب المجرد عن الآلات، لا أنه لا يدركها بوجه ولا حال، فإن المدرك لكل ما تطيقه القوة البشرية هو العقل، لكن إما بآلات في مرتبته، وذلك للعقلاء وهم حكماء ومتكلمون وفقهاء، وإما بالفيض والوهب في مرتبته، وذلك للرسول والأنبياء والأولياء، فإنهم لا يأخذون علومهم من المحسوسات، ولا من النظر والقياسات، وإنما هو منزل روحاني على قلب كياني «يُبَيِّنُ لَهُمْ» أي ليظهر لهم، ما هو مستجن في صورهم وكامن فيهم من الاستعداد، وأنه لا يرقى أحد فوق استعداده، فمن كان استعداده في مرتبة العامة فقط؛ فلا يمكن أن يرقى إلى مرتبة الخاصة، ومن كان استعداده في مرتبة الخاصة فقط؛ فلا يمكن أن يرقى إلى مرتبة خاصة الخاصة، ولو استعان بأهل السموات والأرضين، وإن كان الإنسان يظن أنه مستعد لكل مرتبة من مراتب الكمال، فإذا جاءهم الرسول تبينت لهم مراتبهم، وإن كان كل رسول يعلم مراتب الناس في الاستعداد كشفاً أو فراسة أو بما شاء الله، فيجب عليه مع هذا: أن لا يكشف الناس بذلك صراحة، ولكن إن كان فبالإشارة ولسان الحال، ومن الورثة المحمديين المتحققين بوراثته قوله - ﷺ -: «أعطيت جوامع الكلم».

من يكلم الأنواع الثلاثة من قومه بالكلمة الواحدة في المجلس الواحد، فيأخذ كل نوع استعداده من تلك الكلمة الواحدة.

(١) العجلوني، كشف الخفاء حديث رقم (٦٠٧). ولفظه كما في جامع الأحاديث والمراسيل (٤/ ٢١٠): «حدثوا الناس بما يعرفون أتريدون أن يكذب الله ورسوله؟ عن علي مرفوعاً وهو في البخاري موقوف».



﴿فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ﴾ [إبراهيم: الآية ٤].

أي بعد إرسال الرسول بلسان قومه وتبيينه لهم اختلافهم في الاستعداد؛ «يضلُّ الله من يشاء» أي يحير من يشاء، وليست الحيرة هنا بهذا المعنى إلا للتوعين الأولين، فإنهم لا يهتدون ولا يعرفون ما أقعدهم عن مراتب الكمال، وما سبب نقصهم.

﴿وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [يونس: الآية ٢٥].

لذلك، ولا يشاء إلا ما علم، وما علم إلا ما هو المعلوم عليه في مرتبة استعداده ومقتضى حقيقته.

«وَهُوَ الْعَزِيزُ» المنيع أن تدرك وجوهه الخاصة في مخلوقاته، التي هي منشأ التفاوت والاختلاف في الاستعداد.

«الْحَكِيمُ» فيما يعطي ويمنع، فإنه يضع كل شيء موضعه، الذي يستحقه باستعداده.

\*\*\*

### الموقف التاسع بعد المائتين

قال تعالى: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ [النساء: الآية ١٦٤].

وقال: ﴿بَلِّغْ الرُّسُلَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُمْ مَّنْ كَلَّمَ اللَّهُ﴾ [البقرة: الآية ٢٥٣].

وقال: ﴿وَقَدَرْنَا أَنْ يَتَّخِذَهُمْ﴾ [الصفات: الآية ١٠٤].

وقال: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ﴾ [البقرة: الآية ٣٤].

ونحو ذلك مما يثبت الكلام له - تعالى -.

فاعلم أنه مضى عصر الصحابة والتابعين - رضوان الله عليهم - وهم مجمعون على أنه تعالى متكلم، وأن القرآن، وهو ما بين دفتي المصحف كلام الله - تعالى -، كسائر الكتب المنزلة، من غير خوض في شيء وراء ذلك، فما قالوا: متكلم بذاته، ولا بصفة وجودية زائدة على ذاته، ولا أن معنى متكلم: خالق الكلام فيمن يتكلم من المخلوقات، ولا أن كلامه نسبة من النسب، ولا فرقوا بين التلاوة والتملؤ، والقراءة والمقروء، والكتابة والمكتوب، ثم لما كان أوائل القرن الثالث نبغت المعتزلة فقالت: هو - تعالى - متكلم، بمعنى خالق الكلام فيمن يريد به التكلم، بما يريد من الكلام،

فموسى عندهم سمع كلام الشجرة، بما خلقه الله فيها من الكلام، ولم يسمع كلام الله - تعالى - ولم يثبتوا لله - تعالى - كلاماً، ولا غيره، ممّا أثبتته الصفاتيون من الأشاعرة وغيرهم. إلا أبا هاشم؛ فإنه أثبت لله - تعالى - أحوالاً خمسة. وقالوا: ما ينشأ عن الصفات من الآثار عندكم هو للذات من غير زائد عليها. وقالوا: القرآن، وهو ما بين دفتي المصحف، الذي نتلوه بالسنتنا، ونحفظه في صدورنا، مخلوق حادث كسائر المحدثات. ثم جاء الأشعري إمام السنّة والجماعة فقال: كلامه - تعالى - هو المعنى النفسي القائم بذاته تعالى. والقرآن، وهو ما بين دفتي المصحف كلام الله غير مخلوق، فأبدع قولاً ثالثاً. فإن السلف الصالح كانوا على إثبات القدم والأزليّة، لما بين دفتي المصحف من القرآن، دون التعرّض لصفة أخرى وراء ذلك، مع عدم التعرّض لِكُنْه ذلك، وكانت المعتزلة على إثبات الخلقية للقرآن، وهو ما بين دفتي المصحف، دون التعرّض لأمر آخر، ثم كثر اللغط وارتفعت الأصوات بالخلاف بين فرق الأمة المحمدية، إلى أن فسق بعضها بعضاً، ولعن بعضها بعضاً، إلى هلم جرأ، فإذا سمعت هذا فأقول، غير مقلّد ولا متقيّد، وإنما أقول ما فهمني الله - تعالى - في كتابه وستة رسوله - ﷺ - بالتفهيم الرباني:

خذ ما تراه ودع شيئاً سمعت به في طلعة الشمس ما يغنيك عن زحل

إن سلفنا الصالح - رضوان الله تعالى عليهم - كالإمام أحمد وأمثاله، ما تحمّلوا أنواع الأذى وضروب المحن، وصبروا على السجن والتغريب والهوان، ولم يتفوّهوا بالقول بخلق القرآن إلا لما ثبت عندهم من نصوص الكتاب والسنة وإجماع الصحابة والتابعين: أن القرآن، وهو ما بين دفتي المصحف محكوم له بجميع أحكام من أضيف ونسب إليه، وهو الله - تعالى -، من القدم والأزلية، والتقدّيس والتنزيه عن أوصاف المحدثات، كما هو ذلك للمعنى النفسي القائم بالذات العليّة حكماً إلهياً شرعياً، لا لمناسبة بين المعنى النفسي القائم بالذات وبين ما نقرؤه ونحفظه ونكتبه، ولا مشابهة بينهما ولا مماثلة، ولا لحلول ولا لدلالة من الدلالات، كما قيل، فكما أنه تعالى لا يسأل عما يفعل؛ لا يسأل عما يحكم:

﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [الأنعام: الآية ٥٧]، ﴿لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ﴾ [الرعد: الآية

[٤١].

وسلفنا الصالح - رضوان الله عليهم - هم أهل الآراء الصائبة والعقول المنوّرة، بالطاعات واجتناب المنهيات، وبالزهد في الدنيا، لا يمكن أن يخفى عنهم ما ورد في

حق القرآن، وهو ما بين دفتي المصحف من الإنزال والتنزيل والإيتاء ونحو ذلك، وأنه إنزال مخلوق إلى مخلوق، وإيتاء محدث إلى محدث، ولكن الحكم الشرعي والأمر الإلهي شرك بين ما بين دفتي المصحف، وبين المعنى النفسي في الحكم بالتنزيه والتقديس. ألا ترى الأحاديث القدسية الربانية؟! فإنها كلام الله - تعالى - بلا ريب، إذ هي رواية رسول الله - ﷺ - عن ربه، بلا واسطة ملك بل من الوجه الخاص، وحيث لم يحكم لها الشارع بحكم الكلام النفسي لم يكن لها هذا الحكم، كيف؟! وهو - تعالى - يقول: ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنْ رَبِّهِمْ تُحَدِّثُ إِلَّا أَسْتَمِعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنبياء: الآية ٢].

وقال: ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنْ رَبِّهِمْ تُحَدِّثُ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾ [الشعراء: الآية ٥].

كما أنه لا يعزب عن قلوبهم المنورة - رضوان الله عليهم - أنّ الكلام المنسوب إليه تعالى معنى من المعاني، كالعلم ونحوه، وانتقال المعاني عن محالها محال في الحادث، فكيف بالقديم تعالى؟ فلا ينتقل كلام أحد إلى أحد، ولا علم أحد إلى أحد، بعينه وذاته، وإنما يخلق الله - تعالى - عند السامع والمتعلم معنى آخر، يكون مثلاً كالظل لما عند المتكلم والعالم. فهذه الظلال التي للكلام القديم هي مدلولاته. وكما أن العلم صفة العالم، والصفة لا تفارق موصوفها؛ كذلك الكلام صفة المتكلم لا يفارقه، وكما أن الخارج إلى العقل والخيال والحس هي ظلال المعلومات؛ كذلك الخارج هي مدلولات الكلام لا عينه، فلا قديم إلا الكلام النفسي. وما حكّم الشارع بقدمه، كالقرآن الكريم، وسائر الكتب المنزلة، فلأمر استأثر به الشارع، وكما أن حقائق المعلومات في العلم أزلاً وأبداً؛ كذلك حقائق الكلمات المدلولات في الكلام أزلاً وأبداً. فإذا أراد تعالى إظهار معلوم أظهره بالكلام القديم. فالعلم قديم، والمعلومات منها قديم وحادث. والكلام قديم، والمدلولات منها قديم وحادث، وكما أن المعلومات في العلم، ليس لها تقديم ولا تأخير ولا ترتيب، فإذا ظهرت إلى الوجود العيني أو العقلي أو اللفظي أو الرسمي؛ حصل فيها تقديم وتأخير وترتيب؛ فكذلك مدلولات الكلام القديم، ليس لها في الكلام النفسي تقديم ولا تأخير ولا ترتيب، كلامه النفسي يدل على مدلولاته، التي لا نهاية لها في آن واحد، فإذا ظهرت بالكلام القديم إلى الوجود حصل لها ذلك، فالكلام القديم تخصيصٌ مراد بمراد تخصيصاً بيانياً كسفيًا، كما أن الإرادة تخصيص معلوم بمعلوم تخصيصاً تمييزياً، فليس الكلام إلا ترجمة عن

الإرادة والعلم، أعني عند إظهار المعلوم المراد، وإلا فالكلام حقيقة قديمة كسائر الحقائق الإلهية، فليس كلامه عن سكوت، بل لم يزل متكلمًا، ولا يزال. فلا يشغله شيء عن شيء. فكما أن علمه - تعالى - يتعلق بمعلوماته في الآن الواحد؛ كذلك كلامه يدل على مدلولاته، التي هي معلوماته في الآن الواحد. وما ورد من كون بعض الأمور الحادثة سببًا في كلامه، كقوله: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكَرُكُمْ﴾ [البقرة: الآية ١٥٢].

وكقوله: «من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير من ملئه».

وكقوله: «إذا قال العبد: الحمد لله رب العالمين، يقول الله: حمدني عبدي» الحديث.

فإنما هذا إخبار بأنه يظهر ذكره لعبده؛ عند ذكر العبد، إظهار إيجاد. فإن إيجاد كل شيء من أعيان ومعان؛ إنما هو بالكلام، كما قال:

﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ﴾ [التحل: الآية ٤٠]. الآية.

وإلا فالكلام النفسي - كما قدمنا - ليس فيه ترتيب وتقديم، وتأخير وسبب وشرط، وإنما جاء الشرط والمشروط والسبب والمسبب في الإيجاد العيني الخارجي.

## وصل

زعمت الأشاعرة أن موسى - عليه الصلاة والسلام - سمع الكلام النفسي القائم بالذات العلية. فما أدري؟ كيف تصوّروا هذا؟! والكلام النفسي عندهم حقيقة واحدة لا تتعدّد ولا تتجزأ؟ فلو سمع موسى المعنى النفسي للزم أنه سمع ما لا بداية له ولا نهاية. وقد روى النسائي في سننه أنه تعالى قال لموسى: «إنما كلمتك بقوة عشرة آلاف لسان».

كما زعمت أن الكلام النفسي يتنوع إلى أمر ونهي، ووعد ووعيد، وخبر واستخبار، إلى غير ذلك من أنواع الكلام الحادث. وما تفتطت أن التنوع إنما هو للكلمة الصادرة عن المصدر الواحد، وهو الكلام الأزلي الأبدي، فإنه واحد مطلق قديم، والكلمات مقيدة بالزمان والمكان، متعددة متكررة متنوعة إلى: معان من أمر ونهي ونحو ذلك، وإلى أعيان وأعراض ونحو ذلك، ولا يقدر تعدّد هذه الأنواع

وحدوثها في وحدة المبدأ والمصدر لها، وقدمه الذي هو الكلام النفسي، كما لا يقدح تعدد متعلقات الصفات كلها، وحدوثها في وحدة الصفات، وقدمها. فكلامه تعالى - واحد، وكلماته كثيرة كما قال:

﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لَكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفَذَ الْبَحْرُ﴾ [الكهف: الآية ١٠٩] الآية.

وكلماته منها التامة والناقصة بالنسبة إليها، وكلامه - تعالى - لا نقص فيه، كسائر ما ينسب إليه - تعالى -، فليس الكلام النفسي إلا مبدأ لإيصال مراد المتكلم إلى المخاطب. فكيفما وصل سمي كلاماً، كما هو لغة، ولهذا كان من ضروب الوحي أن يخلق الله - تعالى - في قلب الموحى إليه علماً ضرورياً بإدراك ما شاء الله - تعالى - إدراكه، في الكلام النفسي من غير اختصاص بجهة، ولا أذن. وهذه الحالة هي حالة الوحي بغير واسطة الملك، وهي التي أشار إليها - ﷺ - بقوله، لما سئل كيف يأتيك الوحي؟! كما في صحيح البخاري، فقال: «أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس، وهو أشد علي، فيفصم عني وقد وعيت ما قال».

والمراد من صلصلة الجرس الأزمة، وهو الشدة والدهش والهول والصعق والغيبة عن كل شيء حتى عن نفسه، وهذا الضرب هو المشار إليه أيضاً بقوله:

﴿وَمَا كَانَ لِشَيْءٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا﴾ [الشورى: الآية ٥١].

ومن أولياء الأمة المحمدية من يذوق تنزيل القرآن العظيم إلى اليوم، فإذا أراد الله - تعالى - إنزال شيء من القرآن على الولي يجد ما أنزل عليه عنده منظوماً، كما هو، من غير أن يسمع صوتاً، أو يرى واسطة، ولا شيئاً من الكيفيات، ولا يكون لهم هذا إلا حال صعقتهم وغيبتهم عن العالم وعن أنفسهم، وقد رأينا من أصحاب هذا الحال والحمد لله، ويتكرر عليهم إنزال الآية بحسب ما يريد الله منهم، وهم حالة هذا التنزيل معصومون، إذ كلام الله - تعالى - ما تنزلت به الشياطين، وما ينبغي لهم وما يستطيعون. زُوي عن أبي يزيد - رضي الله عنه - أنه قال متمذحاً: «ما مث حتى استظهرت القرآن» يريد بهذا «التنزيل».

### تدقيق

ليس الكلام إلا إظهار المعلوم، وليس المعلوم إلا عين العلم، وليس العلم إلا عين الذات العالمية، فليس الكلام إلا ظهور الذات، فهي الظاهرة بكلامها، فكلامها

وجودها، وكلماتها موجوداتها، لأن الأسماء مرآتي الذات، بها تظهر وفيها تنظر، فالمتجلى قديم، والمتجلى به له وجهان، وجه إلى المتجلى فهو قديم أزلي، ووجه إلى المتجلى له، فهو حادث كالمتجلى به، ولا حلول في هذا، وإنما هو كتجلى المعاني في الحروف والألفاظ، قال تعالى: ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ﴾ [هود: الآية ١٤].

أي القرآن المنزل على محمد - ﷺ - نزل ملتبساً بعلم الله، وعلم الله عين ذاته، وقال: ﴿أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَكِ يَشْهَدُونَ﴾ [النساء: الآية ١٦٦].  
وقال: ﴿وَلْيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ [الحج: الآية ٥٤].

والذين أوتوا العلم، بأن القرآن كلامه تعالى، وأن تجلّيه وظهوره بذاته كلماته، هم الملائكة، فإنه قال: ﴿وَالْمَلَكُ يَشْهَدُونَ﴾ [النساء: الآية ١٦٦].  
أي يشهدون هذا التجلي، وكذا الأنبياء والرسل والأولياء المحمديون - عليهم الصلاة والسلام - قال في العلم في قوله: ﴿أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ [التحلل: الآية ٢٧].  
للعهد وهو العلم الناشئ عن التجليات، وهو علم الذوق لا مطلق العلم، فإنه ليس كل علم ولا كل عالم يحصل له هذا:

لَيْسَ هَذَا بِعَشْكَ قَاذِرْجِي

تدقيق الكلام نسبة، ولا تحقق لنسبة إلا بالمتتسبين، فهي عينهما. فكن عين القائل «كن» وعين المقول له «ليكون» فافهم.

### نقض وصل

كل كلام هو كلام الله فلا كلام لغيره - تعالى -، إذ الكلام من توابع الوجود، فما لا وجود له إلا بالمجاز، فلا كلام له إلا بالمجاز، ولا وجود إلا له - تعالى -، فلا كلام إلا كلامه - تعالى -، كما أنه لا سميع إلا هو - تعالى -، فهو المتكلم السميع كلامه.

تنبية:

الكتب والصحف المنزلة على الرسل - ما عدا القرآن الكريم - إنما أنزلت عليهم معاني مجردة، وهم عبّروا عنها بلغاتهم، كالعبرانية والسريانية وغيرهما. فلذا قبلت



الكتب الإلهية التحريف، ما عدا القرآن العظيم، حيث إن ترجمتها كانت من الرسل - عليهم الصلاة والسلام - والترجمة تقبل التحريف، بخلاف المعنى، فإنه لا يمكن تحريفه، وأما القرآن الكريم، فإن الله - تعالى - أوجده في قلب جبريل وسمعه منظوماً عربياً معجزاً، كما هو عندنا، قال تعالى:

﴿نَزَّلَ بِهِ الرُّوحَ الْأَمِينُ﴾ [الشُّعْرَاءُ: الآية ١٩٣].

إلى قوله: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ [الشُّعْرَاءُ: الآية ١٩٥].

فالباء باء الملابس، وقال: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا﴾ [الأحقاف:

الآية ١٢].

وقال: ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ [طه: الآية ١١٣].

وحيث كان ناظمه الله - تعالى -، ولم يترجمه عن الحق مخلوق؛ كان محفوظاً من التحريف. ذكر الأسيوطي - رضي الله عنه - في الخصائص: أنه حضر مجلس المأمون بن الرشيد في خلافته يهودي فتكلم فأعرب عن بلاغة وبيان، وذلاقة لسان، وقوة جنان، فأعجب به المأمون فعرض عليه الإسلام فامتنع، وبعد برهة من الزمان حضر اليهودي مجلس المأمون لمصلحة، فرآه المأمون مسلماً فسأله عن سبب إسلامه، فقال له: إنك لما عرضت عليّ الإسلام حصل عندي اضطراب، فعمدت إلى التوراة فكتبت منه عدة نسخ فبدلت وغيّرت، وقدمت وأخرت، وذهبت بها إلى مدارس اليهود فتساقطوا عليها واشتروها، ثم عمدت إلى الإنجيل فكتبت منه عدة نسخ وفعلت بها ما فعلت بالتوراة، وذهبت بها إلى البيعة، فتساقط النصارى عليها واشتروها، ثم عمدت إلى القرآن فكتبت منه عدة نسخ وفعلت بها ما فعلت بالتوراة والإنجيل وذهبت بها إلى الكتبيين؛ فكل من رأى نسخة منها ضربني بها وقال: «ما هذا بقرآن» فعرفت الدين الحق فأسلمت.

### فائدة

ما من رسول ولا نبي ولا ولي إلا ويكلمه الحق - تعالى - بما شاء كيفما شاء، تارة بغير واسطة وتارة بواسطة مشهودة وغير مشهودة، فإذا كلمهم بغير واسطة أو بواسطة غير مشهودة سمعوه بقلوبهم، وإذا كلمهم بواسطة مشهودة سمعوه بأذانهم وقلوبهم، لأن الكلام النفسي محل سماعه القلوب والأذهان،

واللفظي محل سماعه الآذان، ويعلمون كلام الحق علمًا ضروريًا كسائر الضروريات التي لا يطرقتها ريب ولا تردّد بعلامات، جعلها لهم في معرفة تجلياته وسماع كلامه، يقول الشاذلي - رضي الله عنه -: وهب لنا مشاهدة تصحبها مكالمة، ويقول محيي الدين الحاتمي - رضي الله عنه -: إذا كلمك لم يشهدك، وإذا أشهدك لم يكلمك، فالشاذلي طلب دوام المشاهدة في الصور، بحيث لا يرى إلا الله، ولا يكلم إلا الله، ولا يكون إلا مع الله، في جميع ما يكون منه، كما رُوِيَ عن الجنيد - رضي الله عنه - أنه قال: لي ثلاثون سنة أتكلم مع الله، والناس يظنون أنني أتكلم معهم، والحاتمي: كلامه في المشاهدة التي هي غيبة محض وفناء صرف، فلا تكون فيها مكالمة، لأن المقصود من الكلام الإفادة، والفاني الغائب لا يسمع ولا يحس ولا يفهم، فمكالمته عبث، ويتعالى الحكيم عن العبث، فالمشاهدة بهذا المعنى لا مكالمة فيها، وإنما اختص موسى من بين الرسل والأنبياء على جميعهم الصلاة والسلام، بالكليم لذوق اختص به، كما قال إمام العارفين محيي الدين - رضي الله عنه - ولعل فقيهاً قحاً يقف على هذه الكلمات فيقول: هذه كفرٌ وردةٌ وزندقة ومروق من الدين، فإن الفقهاء أهل الفتاوى أجمعوا على أن من ادعى رؤية الله أو سماع كلامه فهو مرتدّ مباح الدم، فالله يغفر لي ولهذا الفقيه وللفقهاء أصحاب الفتاوى.

### فائدة

كل كلام ينسب لموجود، فذلك الكلام بحسب مرتبة ذلك الموجود، فإذا كان الموجود مطلقاً كان كلامه مطلقاً، لا يتقيّد بقيد ولا يحكم عليه بحكم، كوجوده، وليس إلا الحق - تعالى -، وإذا كان الموجود مقيداً ببعض القيود دون بعض، أو مقيداً بجميع ما يدرك من القيود فكلامه كذلك. فالكلام المنسوب إلى الحيوانات، التي لها صوت وليس لها مخارج الحروف، والتي لا صوت لها كالتملة، وإلى الجمادات كالشجرة والحجارة... الخ ليس هو ككلام الآدمي أصالة، كما لا يسمعه السامع بحروف وأصوات، فإنها ليست لها آلات ذلك، ولهذا لما سرت الروح في عجل السامري خار، وما تكلم كالإنسان ولا كغيره من سائر الحيوان، لأن المراتب حاكمة، فلا يظهر الروح فيها إلا بحسبها، وإن الله قادر على إخراج الثمر من الحجر، ولكن بعد جعل الحجر شجرًا، وإنما تكلم النبي أو الولي بكلامها الذي هو لمرتبتها الحيوانية أو الجمادية، فيخلق الله - تعالى - في قلب النبي أو أذنه أو أذن من شاء من عباده مرادها بكلامها، فيسمعه بحرف وصوت أو بغير صوت ولا حرف، وإن

تخصيص السماع بالأذن أمر عادي، وإلا فكل قوّة يمكن أن يكون لها ما لغيرها من سائر القوى، والأشياء كلّها متكلمة وكلامها بحسب مراتبها، وإنما خرق العادة في المكاشفة للنبي والوليّ بسماع كلامها بالقلب أو الأذن، الذي ليس هو من جنس كلامنا.

### تمة

مما غلط فيه المتكلمون قولهم بعد إثبات الصفات الثبوتية والسلبية، التي أثبتوها لله تعالى: «ويستحيل عليه تعالى أضدادها»، مع أن الأمر ليس كذلك، فإن صفات الله - تعالى - لا ضدّ لها، لأن الضدين إنما يتواردان حيث لا يخلو المحل عن أحدهما، وإنما ذلك في الحوادث القابل للكمال والنقص، وأما الحق تعالى فإن ذاته لا تقبل النقص، فصفات الكمال الثابتة له لا ضدّ لها، فعلمه تعالى لا ضدّ له، وكذا قدرته وإرادته وكلامه وسمعه وبصره، ونحوها.

### تكميل

الصوفية الذين هم سادات طوائف المسلمين، لا ينفون الصفات التي أثبتتها الأشاعرة كما نفاها المعتزلة والحكماء، ولا يثبتونها كما أثبتها الأشاعرة، فإن قول الأشاعرة في صفات المعاني إنها موجودة في نفسها، زائدة قائمة بالذات، بحيث لو كشف لنا رأينا قيامها بالذات... يلزم منه استكمال الذات بالزائد، ولولا ذلك الزائد لكانت ناقصة. وهو تعالى كامل الذات، فمحال استكمالها بالزائد، فإن فيه نقص الذات، والنقص محال، فالاستكمال بالزائد محال، وقولهم (أعني الأشاعرة، في الصفات): لا عين ولا غير، وتفسيرهم الغيرين بما يصح الانفكاك بينهما كلام لا روح له، خال عن التحقيق، ولا تسمي الصوفية ما ينسب إليه - تعالى - من الكلام وغيره بالصفات إلا على سبيل المجازاة والتّنزّل في مقام التفهيم والتعليم، وإنما تسمي ذلك بالأسماء، فإنه - تعالى - ما أطلق في كتبه، ولا على السنة رسله - عليهم الصلاة والسلام - لفظة الصفة ولا النعت، وإنما ورد الاسم، قال تعالى: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ﴾ [الأعلى: الآية 1].

وقال: ﴿لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [طه: الآية 8].

بل نزه نفسه عن الصفة فقال: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾

[الصفات: الآية 180].

وتسميتها أيضًا بالنسب، لأن النسب أمور معقولة، لا موجودة ولا معدومة، فكل ما ينسب إليه تعالى يقولون فيه نسبه، كالعلم وغيره، فهي عندهم لا موجودة خارجًا، ولا معدومة عقلاً.

\* \* \*

### الموقف العاشر بعد المائتين

قال تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [محمّد: الآية ١٩].

متعلق الأمر بالعلم إنما هو المرتبة الألوهية، فإنها كالخلافة للخليفة، فهي التي تعلم ولا تشهد من كل وجه. والعلم المأمور به، العلم الزائد على ما في الفطرة، لأن الأمر بتحصيل الحاصل محال. إذ ما جهلها أحد من كل وجه، وقال تعالى:

﴿وَيَعِزُّكُمْ اللَّهُ نَفْسَكُمْ﴾ [آل عمران: الآية ٢٨].

متعلق النهي والتحذير، إنما هو الذات. فإنها التي لا تعلم ولكن تشهد، فإذا علمت فلا تقل إنك شهدت. فما كل معلوم يشهد، وإذا شهدت فلا تقل إنك علمت، إذ العلم يقتضي الإحاطة، والإحاطة محال، فالعلم محال، وكل حقيقة، العلم بها غير الجهل بها، إلا هذه، فإن الجهل بها عين العلم بها، فهي النكرة التي لا تتعرف، والمعرفة التي لا تتخلف، إنما تنكر لو كان هناك شيء سواها ولا يكون. وإنما تعرف لو عرف مبدأها ومنتهاها ولا يكون. يا للحيرة العمياء، والداهية الدهياء، والمهلكة الفبحاء!! الصفات هي المدركة لأنها الظاهرة بآثارها، فليس المدرك المشهود إلا الصفات لا الذات، بل الذات هي المدركة المشهودة لا الصفات، إذ الذات هي المقومة للصفات. عندما أراد العقل أن يطير في هذا الفضاء الواسع المظلم، قيل له: الزم مكانك واعرف مقامك، فإنه لا رسم ثمة ولا أثر، ولا حديث ولا خبر، فعصى وطار فما وجد أثرًا ولا عين، ولا من ولا إلى ولا أين، فرجع مكسور الجناحين، مكفوف العينين، بخفي حنين، فقيل له: قد قيل لك من قبل:

﴿وَعِزُّكُمْ اللَّهُ نَفْسَكُمْ وَاللَّهُ زُؤُفٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران: الآية ٣٠].

فما حذرنا إلا رافة ورحمة بك، فعصيت وأبيت، وزعمت وتمنيت، فارجع إلى طريق غير طريقك، واصحب فريقًا غير فريقك، فما كل بيضاء شحمة، ولا كل سوداء تمرة.

\* \* \*

## الموقف الحادي عشر بعد المائتين

قال تعالى: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: الآية

[٩٩].

الأمّن من مكر الله كبيرة، كاليأس من رحمته، وكلّما اتسع نطاق معرفة العارف اشتدّ خوفه، فالخوف من الله - تعالى - من لازم المعرفة، وبقدرها، كما ورد: «أنا أعرفكم بالله وأشدكم له خشية».

خرّجه الشيخان، وخرّج عبد الرزاق: «إني لأرجو أن أكون أتفاكم بالله وأعلمكم

به».

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: الآية ٢٨].

أي العلماء بالله، لا مطلق العلماء، إذ ما كلُّ عالم يخشى، ولا كلُّ علم يورث الخشية، وهو من المقامات الملازمة المستصحبة إلى جواز الصراط، وإن اختلفت عليه الأسماء، فسمي عند أهل البدايات خوفاً، والمتوسطين قبضاً، وأهل النهايات هيبة وإجلالاً، فإن النبي أو الولي - وإن أطلعه الله على حاله ونهايته في اللوح المحفوظ، أو على عينه الثابتة - فإنه لا يطلع على ما وراء ذلك وفوقه، ولا على ما استأثر الله به، كما قال السيد الكامل، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، وفي الصحيح، في حديث الشفاعة تقول الرسل يومئذ في الموقف، نفسي نفسي، وكل شيء يمنحه الله - تعالى - أوليائه يجوز أن يكون باطنه شراً واستدراجاً ومكراً، كالأحوال والمقامات، والمكاشفات وخوارق العادات، إلا العلم. فإنه أفضل ما منح الله به أوليائه، إذ لا يمكن أن يكون حباله للمكر والاستدراج، أعني علم العلماء بالله - تعالى -، لأنه يشهدك إمكانك وافتقارك في كل نفس إلى الله - تعالى -، وذلك وعبوديتك، ولو غفلت أو نسيت أو نمت رجعت في ذلك إلى أصل صحيح لا يمكن أن يتبدّل أو يتغير أو يتقلب، فإن انقلاب العلم جهلاً محال.

دخلت مرة خلوة. فعندما دخلتها؛ انكسرت نفسي وضاق عليّ الأرجاء وفقدت قلبي، وإذا المعرفة نكرة، والأنس وحشة، والمطايبة مشاغبة، والمسامرة منكرة، فكان نهاري ليلاً، وليلي وبيلاً، ومكن الشيطان بالتمريح والتخليط، وأني قريبة أردتها أبعدت بها، فلم يبق معي من أنواع الصلّات إلا الصلاة، وفي أثناء هذا الابتلاء رأيت رسول الله - ﷺ - في المنام، دخلت عليه بيتاً كان - ﷺ - جالساً فيه مع جماعة، فبنفس ما رأني أخذ بطرفي مسبحة كانت في يده، ورفعها إليّ

وقال: «والدعاء» فعرفت أنه يريد أني مشتغل بالذكر والدعاء فأشدته:

أتضحك بالدعاء وتزدريه      وما يدريك ما فعل الدعاء  
سهام الليل لا تخطى ولكن      لها أمد وللأمد اتقضاء

فسر - ﷺ - بإنشاد البيتين. والتفت إلى الحاضرين معه يمدحني لهم، ففهمت من إشارته - ﷺ - بالدعاء؛ أن الخطب جسيم، والأمر عظيم، فكان بعد ذلك شغلي الدعاء والتضرع وكشف الرأس، فكنت أدعو بقوله - ﷺ -: «اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك، لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك»<sup>(١)</sup>.

وبقوله - ﷺ -: «اللهم أنت ربي، لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك علي، وأبوء بذنبي فاغفر لي، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت»<sup>(٢)</sup>.

وبقوله - ﷺ -: «يا حي يا قيوم، برحمتك أستغيث، أصلح لي شأني كله، ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين»<sup>(٣)</sup>.

وكانت ترد عليّ الواردات في الوقائع، مشيرة وأمرة بالصبر.

ورأيت في المنام جارية بارعة الجمال، فلما أفقت تميّيت أني سألتها عن اسمها ولمن هي؟ فلما عاودت النوم رجعت إليّ فسألتها لمن هي؟ فقالت لك، وعن اسمها، فقالت: الناجية، فتفاءلت بالنجاة من هذه المحنة، وطالت هذه الأيام فكانت كأنها أعوام:

أرى ساعة الهجران يوماً ويومه      يخيل لي شهراً وشهراً عاماً  
بعدهما كنت أقول:

أرضى طوال الليالي إن خلوت بهم      وقد أديرت أباريق وأقداح  
إلى أن تنفس صبح الفرج فانجاب الضيق والحرج فقلت:

فما أحلى الأمان بعيد خوف      وما أحلى الوصال بعيد هجر  
وما أحلى التذاني بعد بعد      وما أحلى اليسار بعيد فقر

(١) رواه أحمد في المسند عن عائشة رضي الله عنها حديث رقم (٢٥٧١١).

(٢) رواه أحمد في المسند عن أبي بريدة، حديث رقم (٢٣٠٧٧).

(٣) رواه الترمذي في سننه، كتاب الدعوات، باب ٩٢ حديث رقم ٣٥٢٤.



الخ الأبيات، وفي آخر أيام هذه الخلوة بشرت، فورد علي أولاً في الواقعة قوله تعالى:

﴿قَدْ رَزَى نَقْلَبٌ وَجْهَكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾ [البقرة: الآية ١٤٤].

ثم بعده قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: الآية ٣٠].

ثم بعده قوله تعالى: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ [البقرة: الآية ٤٥].  
والحمد لله رب العالمين.

\*\*\*

### الموقف الثاني عشر بعد المائتين

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: الآية ٣٠] الآية بطولها.

كل كلام وقفنا عليه لمتكلم علي هذه الآية، إنما يجعل قول الملائكة هذا قدحاً في آدم وبنيه، والذي ورد به علينا الوارد الإلهي غير هذا. وهو أنهم - عليهم الصلاة والسلام - علموا أن نوع الخليفة، لا الخليفة يقع من بعضهم ما ذكره من الفساد وسفك الدماء، وأما الخليفة آدم ومن ورث الخلافة من بنيه فمحال أن يقولوا فيه ذلك، بعد أن أعلمهم الحق - تعالى - بقوله:

﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: الآية ٣٠].

فإنه لا يخفى عن عاقل أن الملك لا يجعل خليفة إلا من علم أنه على غاية من الكمال والطاعة، وعلم الحق - تعالى - لا يتخلف، فقولهم:

﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا﴾ [البقرة: الآية ٣٠].

استفهام واستعلام، لما جهلوه من الحكمة في جعل الخلافة في جنس بني آدم، وبعضهم - على ما ذكره - دون جنس الملك. وهم على ما ذكره، فقالوا مستفهمين عن الحكمة، في كون الخليفة من الجنس الذي منه مؤمن وكافر، ومطيع وعاص، وعالم وجاهل، دون الجنس الذي هو خير محض كله، ونور صرف وطاعة لا تشوبها معصية، وكان اختلاج في عقولهم الميل إلى أن الحكمة تقتضي أن يكون الخليفة من

الجنس الملكي، غيرة على الجناب الإلهي في قصدهم، فأعلمهم الحق - تعالى - بجهلهم فيما مالت إليه عقولهم، قبل ظهور وجه الحكمة، بقوله:

﴿وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة: الآية ٣٣].

وأزال جهلهم فيما استعلموه، ويثن لهم أن الحكمة تقتضي كون الخليفة من جنس الآدمي لا الملك، فإنه الكون الجامع للحقائق الإلهية والكونية، المختص بالصور الرحمانية، وأقام لهم البرهان بتعليمه الأسماء التي جهلتها الملائكة، فما سبحوا الحق - تعالى - بها، ولا نزهوه، ولكون نشأة الملك لا تقتضيها، لا غير. وأما آدم وبنوه الخلفاء فنشأتهم تقتضي تعلق الأسماء كلها بها، لخلقها باليدين، وجمعها للصورتين، الصورة الإلهية من حيث الباطن، والصورة الكونية من حيث الظاهر، وليست هذه الجمعية لجنس الملك، فلماذا كان الخليفة الأول آدم، ومن ورث الخلافة من بنيه يظهر بجميع الأسماء الكونية والإلهية. فليس قولهم:

﴿أَجْمَعُ فِيهَا﴾ [البقرة: الآية ٣٠] الخ.

استفهاماً إنكارياً. فإنه لو كان كذلك لكان هنا بمعنى النهي، وهو إنما يكون ممن يجوز له أن ينهي من يجوز نهييه، وهذا محال أن يتصور من الملائكة للحق - تعالى -، وهم الأدياء الأمناء، الأتقياء الأبرياء، كيف؟ والحق - تعالى - يقول في حقهم: ﴿وَمَنْ عِنْدُكُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ (١٩) ﴿يَسْتَحْسِرُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَقْرَءُونَ﴾ (٢٠) [الأنبياء: الآيات ١٩، ٢٠].

ويقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَحْسِرُونَ وَلَكِنْ يُسْجُدُونَ﴾ (٢١) [الأعراف: الآية ٢٠٦].

فانظر إلى هذه العندية، وشرفها، وما يقتضيه نظم هاتين الآيتين من التشريف والتعظيم، إن كنت من أهل الذوق العربي الظاهري. فأحرى إذا كنت من أهل الظاهري والباطني.

ويقول: ﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ (١٩) ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ (٢٠) [النحل: الآيات ٤٩، ٥٠].

ويقول: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَ اللَّهِ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ﴾ (٢١) ﴿لَا يَسْتَفْتُونَكَ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ (٢٧) [الأنبياء: الآيات ٢٦، ٢٧].

ويقول: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [الشحرىم: الآية

[١٦].

ويقول: ﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ۝ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ۝﴾ [غبنس: الآيتان ١٥، ١٦].

إلى غير ذلك. فبعد تركية الله - تعالى - لهم، وتبرئتهم من كل عيب ونقص، ووصفهم بكل كمال يسوغ أن تحمل الآية على ضد ذلك، إلا أن يكون المراد بالملائكة، على ما نقله الشعراني عن الخواص - رضي الله عنهما - ملائكة الأرض، وهم غير معصومين، فحينئذ يسهل الخطب. ولكن الجمهور من أهل الظاهر والباطن على خلاف هذا، والله أعلم.

\* \* \*

### الموقف الثالث عشر بعد المائتين

قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: الآية ٢١٦].

ذكر - تعالى - ذلك في مواضع من القرآن، أثبت - تعالى - العلم له ونفاه عن غيره، أعني من أثبت نفسه غيراً!

﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: الآية ١٢٢].

فهو - تعالى - العالم لا غيره، يعلم علماً مطلقاً عام التعلق بكل ما يصح أن يعلم، في مرتبة تجرده عنكم، وهي مرتبة «الله» ويعلم علماً مقيداً بكم ومنكم، في مرتبة تقيده وتعيته بكم، وهذه مرتبة العلم المذكور في قوله تعالى: «حتى تعلم، ولن تعلم، ويعلم، وأنتم لا تعلمون» من حيث غيريتكم وسوائيتكم. فلا علم لكم قديم ولا حادث. وكما أن الله يعلم وأنتم لا تعلمون؛ فكذلك فالله يريد وأنتم لا تريدون، والله يقدر وأنتم لا تقدرون، والله يتكلم وأنتم لا تتكلمون، والله يبصر وأنتم لا تبصرون، والله يسمع وأنتم لا تسمعون،... الخ. لأن هذه كلها توابع الوجود، وحيث لم يكن الوجود من أنفسكم وذواتكم لم يكن لكم شيء من توابعه، فإذا توهمتم، وتخيلتم، أن شيئاً من ذلك لكم فهو خيال باطل، وإنما ذلك لوجودكم، الذي «أنتم» وأنتم ومن جهل ما منه يعلم؛ فكيف يصح أن يعلم؟ أو يسمى عالماً؟ فالجواب على الطالب: أن يطلب معرفة ما به يعلم، ثم يطلب أن يعلم ما يعلم، فمن كشف عنه الغطاء عرف نفسه، فعرف ذلك، ومن بقي في حجابيه بقي جاهلاً، مركباً جهله بنفسه، وجهله بجهله بها، وهذا على سبيل

التحديث بالمألف، وإلا فكما أنه لا يعلم؛ كذلك لا يجهل، لأن الجهل والعلم إنما يتواردان على محل قابل.

\* \* \*

### الموقف الرابع عشر بعد المائتين

قال تعالى: ﴿طه﴾ (١) مَا أُنزِلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴿٢﴾ إِلَّا نَذْكِرَةً لِمَن يَخْشَى ﴿٣﴾ [طه: الآيات ١ - ٣].

هذا نداء من الحق - تعالى - لحبيبه محمد - ﷺ - وإشفاق عليه وإخبار له، وبشارة بأنه تعالى ما أنزل عليه القرآن، أي ما تجلّى عليه وكشف له، وأنزل عليه القرآن إنزال كشف، وهي حضرة الجمع والوحدة المطلقة ليشقى، كان - ﷺ - إذا نزل من شهادة حضرة القرآن، والجمع إلى حضرة الفرقان والتعبد؛ رأى أن ذلك الشهود، أعني شهود القرآن، نقص في مقامه، وهو مقام رسالته - ﷺ - فحل بواسطته قادح في كمال عبوديته، فكان يحب ستر ذلك عنه - ﷺ - وهو معنى ما ورد في صحيح مسلم وغيره: «إنه ليغان على قلبي فأستغفر الله في اليوم مائة مرة».

فهو غين أنوار، كما قال العارف، لا غين أغيار، فأخبره الحق - تعالى -: أنه لا يشقى بهذا، بمعنى أنه لا ينقصه شيئاً من مقام رسالته ومرتبة وساطته، وخدمته وعبوديته.

وجه آخر: خاطبه تعالى بهذا، حيث كان الغالب على ظاهره - ﷺ - شهود الفرقان، وهو مقام الرسالة، فكان يتعب ويشقى بغلبة هذا الشهود، فإنه يقتضي من العبودية الوفاء بحق الربوبية والوفاء بما تقتضيه الربوبية من العبودية على الكمال محال، حتى من الرسل - عليهم الصلاة والسلام - فلذلك كان - ﷺ - يقوم حتى تورمت قدماء، وجاع حتى شد الحجر على بطنه:

﴿إِلَّا نَذْكِرَةً لِمَن يَخْشَى﴾ (٣) [طه: الآية ٣].

أي ما أنزلنا عليك القرآن، أو على غيرك نزول كشف. وهي حضرة الجمع؛ إلا تذكرة لروحك، بما تقدم لها من العلم والكشف، ثم نسبت تلك الحضرة بنزولها إلى حضرة الفرقان، فغلبت خشيتها على أمنها وضيقتها على سعتها، إذ بمشاهدة حضرة القرآن يخف الحرج، ويحصل الفرج، والراحة والسعة طبعاً باطنياً، وإن أعطى شهود الفرقان ضد ذلك ظاهر شرعاً، فإن حضرة القرآن حضرة الذات، وهي ظلمة محضة لا

نور فيها أصلاً. والأكمل اعتدال الشهودين، وهو المراد بالخطاب بهذه الآية ونحوها، وهو مقام الرسل والورثة الكمل - صلى الله عليهم أجمعين - ومن لم تغلب عليه الخشية لا ينزل عليه القرآن، ولا تتجلى له تلك الحضرة، فلا يكون من أهل الشهود والعيان، فمقام الرسالة إنما هو من حضرة الفرقان، ربّ وعبد، عابد ومعبود، قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ ﴿١٦﴾ [الفرقان: الآية ٤١].

فعلّ تعالى نزول الفرقان بالندارة، وهي مقام الرسالة. وحضرة القرآن هي شهود «كان الله ولا شيء معه» وهو الآن «على ما عليه كان» وقوله:

﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْتُهُ بِقَدْرِ﴾ ﴿٤٩﴾ [القدر: الآية ٤٩].

على قراءة رفع «كل».

\* \* \*

### الموقف الخامس عشر بعد المائتين

قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ ﴿٤٣﴾ [الغنكبوت: الآية ٤٣].

اعلم أن الحق - تعالى - يضرب الأمثال بأفعاله، كما يضربها بأقواله، لأن المقصود من المثل التوصيل إلى الإفهام، حتى يصير المعقول مثل المحسوس. ومن جملة الأمثال المضروبة بالأفعال، خلق الحروف الرقمية، فإن في أرقامها من الأسرار ما لا يحيط بها إلا العليم الحكيم، ومن جملتها لام ألف، ففيها إشارات خفية، وأسرار ورموز كثيرة، واعتبار.

منها أن تركيب هذين الحرفين لام وألف، كتركيب الوجود الحق مع صور الخلق؛ فهما حرفان باعتبار، وحرف واحد باعتبار، كما أن صور الخلق هي شيء واحد باعتبار، وشيخان باعتبار.

ومنها أنه لا يدري أي الشعبين الألف، وأيهما اللام، فإن قلت اللام هو الشعب الأول صدقت، وإن قلت الألف هو الشعب الأول صدقت، وإن قلت بالحيرة صدقت، كما أنك إن قلت، الوجود الحق هو الظاهر والخلق الباطن صدقت، وإن عكست صدقت، وإن قلت بالحيرة صدقت.

ومنها: أن الحق والخلق اسمان، والمسّمى بهما واحد، وهو الذات الظاهرة بهما. كذلك قولنا: لام ألف اسمان، والمسّمى بهما واحد، لأنهما علامتان على حرف واحد.

ومنها: أنها لا تظهر صورة هذا الحرف المسّمى لام ألف بأحد الحرفين دون الآخر، كذلك لا يظهر كل واحد من الوجود الحق أو الخلق بدون الآخر، فإن حقًا بلا خلق لا يظهر، وخلقًا بلا حق لا يوجد.

ومنها: أن شعبي لام ألف يجتمعان ويفترقان، فكذلك الحق والخلق يجتمعان في الذات الحقيقية الكلية، ويفترقان في المرتبة، فمرتبة الإله الخالق غير مرتبة العبد المخلوق.

ومنها: أن الراقم تارة يبتدىء الرقم من الشعب الأول في الصورة، وتارة يبتدىء من الشعب الثاني في الصورة، فكذلك معرفة الحق والخلق، تارة تتقدم معرفة الخلق على الحق، وهي طريق «من عرف نفسه عرف ربه» طريقة السالكين، وتارة تتقدم معرفة الحق على الخلق، وهي طريقة الاجتباء والجذب طريقة المرادين.

ومنها: أن الإدراك العامي لا يدرك إلا حرف «لا» وهو المسّمى، وهما شيئان في نفس الأمر، لام وألف، فكذلك الإدراك العامي لا يدرك إلا اسم الخلق، وهما شيئان في نفس الأمر، حق وخلق.

ومنها: أن اللام والألف لما امتزجا وتركبا بصورة خفيا معًا، وكذلك الوجود الحق، لما تركب مع الخلق تركيبًا معنويًا خفي في نظر المحجوبين، فإنهم لا يرون إلا خلقًا. كما أن الخلق خفي في نظر أرباب وحدة الشهود فلا يرون إلا حقًا، فقد خفي الحق والخلق معًا، لكن من جهتين.

ومنها: أنه إذا اختلط شعبتا لام ألف، ولم يبق لصورة «لا» وجود في نظر الناظر؛ زال معنى «لا»: وكذلك العابد والمعبود، والرّب والمربوب، إذا حصل الفناء، وهو الأتحاد عند القوم - رضوان الله عليهم - زالا معًا؛ إذ بزوال العابد يزول المعبود، وبزوال المربوب يزول الرّب، كما هو الشأن في كل متضايفين يزول أحدهما بزوال الآخر، فيزولان معًا، وعلى هذا قيس واعتبر.



### الموقف السادس عشر بعد المائتين

ورد في صحيح البخاري وغيره عنه - ﷺ - الآيتان من آخر سورة البقرة، مَنْ قَرَأَهُمَا فِي لَيْلَةٍ كَفَّتَاهُ .

يعني عن قيام تلك الليلة، والتهجد فيها. وإنما كانت لهما هذه الفضيلة العظمى والمزية الكبرى لأنه ورد في صحيح البخاري وغيره أيضًا: «ينزل ربنا كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر، فيقول: هل من داعٍ فاستجب له؟ هل من تائب فأقبله؟ هل من مستغفر فأغفر له؟».

إلى طلوع الفجر، وهاتان الآيتان؟ جامعتان لهذه الأشياء الثلاثة: التوبة، في قوله: ﴿سَوْعِنَا وَأَطَعْنَا﴾ [البقرة: الآية ٢٨٥].

والاستغفار في قوله: ﴿عُفِّرَانَكَ رَبَّنَا﴾ [البقرة: الآية ٢٨٥].

والدعاء في قوله: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا﴾ [البقرة: الآية ٢٨٦].

إلى آخر السورة.

\* \* \*

### الموقف السابع عشر بعد المائتين

قال تعالى: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَحْسِرْ ۝٢ إِن كُنتَ مِنَ الشَّاكِرِينَ ۝٣﴾ [الكوثر: الآيات ١ - ٣].

صدر هذه السورة بشارة، وآخرها بشارة. وأكد الحق - تعالى - فيها تبشيريه وإخباره. وما بينهما أمر بشكر هاتين البشارتين، والنعمتين الجسميتين، وبين كيفية شكرهما. فقال له: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ﴾ [الكوثر: الآية ٢]، أي كن مصلبًا لربك لاحقًا به لاحقًا معنويًا وقريبًا منه. كذلك وليس اللحاق به تعالى والقرب منه إلا بالتحقيق بأسمائه وصفاته، بعد التخلُّق والتعلُّق بها، والإعراض عن كل شيء. فإن المصلِّي لا ينظر إلا إلى السابق، ولا همّة له إلا في اللحاق به.

﴿وَأَحْسِرْ﴾ [الكوثر: الآية ٢] شاحح على ذلك وتقدّم على غيرك بعزم قوي وهمة عالية، ونافس كل منافس.

وصدرها بشارة بإعطاء الخير الكثير، ومنه الكوثر، نهر الجنة المعروف. وعجزها بشارة بدفع كل شرٍّ جليلٍ وحقيق، والتأمين من كل مخوف، يقول تعالى

لحبيبه محمد - ﷺ - إن المسمى كافرًا بك، ومنافقًا معك، وشائنًا لك، كله هو. وهو عبارة عن الحقيقة الغيبية السارية في كل موجود، من حيث أن الموجودات كلها مظاهر أسماء مرتبة تلك الحقيقة، وهي الألوهية، فما كان من مظاهر تلك الأسماء مظهر جمال وخير؛ فهو محبٌ لك - ﷺ - وما كان منها مظهر جلال وشقاوة فهو شائنٌ لك من حيث المظهرية، لعدم المجانسة لك والمناسبة. ولكنه أبت بالنسبة إليك، بمعنى أنه لا أثر له فيك. ولا له قدرة على إيصال الضرر إليك، وما ورد منه أنه - ﷺ - سَجَرَ. وكان يخيل إليه أنه فعل الشيء وما فعله، وكان الشيطان يعترضه - ﷺ - بشعلة نار، وكان يشدُّ عليه في الصلاة ليقطع صلاته عليه... ونحو ذلك، ممَّا في الأخبار الصحيحة؛ فإنما هي عوارض زائلة، غير قادمة في البشارة بالتأمين، وحكمة عروض هذه العوارض وأمثالها بيان أنه - ﷺ - من حيث صورته العنصرية البشرية من جملة البشر. ولكنه تعالى أكرمه، ومن كل مكروه عصمه، كما أنه من كل مخلوق آمنه. فلفظة «هو» على حسب هذه الإشارة خبر، لا ضمير فصل، والأبتر نعت له من هذه الجهة فقط. وأن الثانية ليست لتأكيد الإخبار بأن شائنك هو، فإن هذا معلوم عنده - ﷺ - لا يعتربه تردُّد فيه ولا إنكار له. وإنما هي لتأكيد المبشِّر به، وهو أن شائيه لا أثر له فيه، ولا يصل إليه منه شرٌّ كما يصل إلى غيره.

\* \* \*

### الموقف الثامن عشر بعد المائتين

قال تعالى: ﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾

[يوسف: الآية ٩٠].

أخبر - تعالى - أن من وصل إلى المرتبة الوسطى من مراتب التقوى، وحصل عليها بأن صار يتقي بالحق - تعالى - في كل فعل وترك، وورد وصدور، بمعنى أنه تعالى هو وقاية هذا المتقي، فلم ينسب لنفسه شيئاً ممَّا يصدر عنه، من طاعة ومعصية، وحسن وقبيح، لا على طريق التجربة، ولا على طريق الكسبية، لأنه شاهد الفاعل الحقيقي، والمصدر الكلِّي، فشاهد نفسه من حيث مخلوقيته كسائر الجمادات، فكما لا ينسب العقلاء إلى الجماد فعلاً أو تركاً إلا على جهة المجاز، فكذلك هو في شهوده هذا. وأمَّا النسبة التي أثبتها الشارع في قوله: أفعَل أو اترك، أو فعلت أو تركت، فهو لا ينفيها، بل يسلمها مع الجهل بحكمتها. ومع هذا الشهود، وهذه

المعرفة الحاصلين لهذا المتقي فإنه يصبر على أداء المأمورات الشرعية، وترك المنهيات الوضعية، فلا يتعدى الحدود الشرعية، بل لا يقربها؛ لأنه من حيث هذا الشهود، صار من الصنف المخاطبين بقوله تعالى: ﴿فَلَا تَقْرُبُوهَا﴾ [البقرة: الآية ١٨٧].

يعني الحدود الشرعية؛ كما أن قوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ [البقرة: الآية ٢٢٩].

يعني الحدود الشرعية، خطاب لصنف آخر. فالصنف الأول يعاقبون على مقارنة الحدود، والصنف الثاني لا يعاقبون على المقاربة، وإنما يعاقبون على اعتداء الحدود ومجاوزتها؛ لأن كل من غلّت رتبته، وأزلت منزلته يعاقب على ما لا يعاقب عليه من هو أسفل مرتبة وأبعد منزلة، كما هو في الشاهد في خاصة الملك ورعاياه. بل صاحب هذه المرتبة، إن كان من الصابرين؛ فهو أشد حذرًا وخوفًا وتوقيًا وقيامًا بالأمر والنهي الشرعيين، من الذي ليس له هذا الشهود من العباد والزهاد عناية من الحق - تعالى - به. وهذا المقام والشهود وسط، وفوقه مقامات كما قيل:

وهذا مقام في الوصول وفوقه مقامات أقوام على قدرهم قدرتي

وبعد الوصول إلى هذا المقام تميّز السعداء من الأشقياء، فمن اتقى وصبر؛ كما قال: إنه من يتقى ويصبر على أداء الأوامر واجتناب النواهي؛ فقد صار من المحسنين:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [التوبة: الآية ١٢٠].

وما على المحسنين من سبيل، فضلًا منه تعالى ومثمه، وأما من يتقى ولا يصبر على أداء الأوامر واجتناب النواهي، ويتعدى الحدود الشرعية فهو من الأشقياء المحرومين، والزنادقة الملحدين المعنيين بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا﴾ [فصلت: الآية ٤٠].

وهو ممن أضله الله على علم، من حيث علمهم بمرتبة الأتقياء بالله - تعالى - وعلى جهل، من حيث جهلهم بحكمة الحكيم العليم تعالى فيما شرّعه من الأمر والنهي، وفيما رتبته من الحدود والزواجر، عرفوا شيئًا وفاتهم أشياء، فتخيلوا وظنوا أن الأوضاع الشرعية: خاصة بمن لم يصل إلى مقامهم، فقيل لهم: ﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ

الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرَدْتُمْ كُفْرًا ﴿٢٣﴾ [أُفْضِلْتُ: الآية ٢٣]، «نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الْخَوْفِ بَعْدَ الْخَوْفِ»<sup>(١)</sup>.

وَأَمَّا مَنْ جَاوَزَ هَذِهِ الْمُرْتَبَةَ وَعَلَاهَا فَقَدْ جَاوَزَ الضَّرَاطَ وَتَخَلَّصَ فَلَا رَجُوعَ لَهُ، وَلِذَا قَالَ الْعَارِفُ: «مَا رَجَعَ مِنْ رَجَعَ إِلَّا مِنَ الطَّرِيقِ، وَلَوْ وَصَلُوا مَا رَجَعُوا».

\* \* \*

### الموقف التاسع عشر بعد المائتين

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُمِبَهَا لِلَّذِينَ يَنْقُونَ﴾ [الأعراف: الآية ١٥٦].

اعلم أن الرحمة ذاتية وصفاتية، وكلٌّ منها عاثةٌ وخاصّةٌ، فالذاتيتان؛ هما المذكورتان في البسملة في قوله: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة: الآية ١].

والصفاتيتان هما المذكورتان في الفاتحة في قوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [١] الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ [٢] [الفاتحة: الآيات ٢، ٣].

فاسم الرحمة في قوله: ﴿وَرَحْمَتِي﴾ [الأعراف: الآية ١٥٦] أعمُّ مِنَ الرحمة الرحمانية، والرحمة الرحيمية، فاسم الرحمة يتناولهما لفظاً، أعني الرحمة الذاتية العامة، والرحمة الذاتية الخاصة، ولذا أُضيف لفظة الرحمة إلى الضمير، الذي هو كناية عن الذات، الذي تضاف الأشياء إليه، ولا يضاف هو إلى شيء، وهو غيب الغيب وحقيقة الحقائق، وتسمى الرحمة الذاتية «بالامتنانية الحيّة»؛ لأنها عبارة عن التجلّي الذاتي الأقدس، الذي كانت به الاستعدادات الكلية للأشياء، لقبول التجلّي، فهي الوجود من حيث انبساطه على الحقائق العلمية، والأعيان الشهودية، وهذه الرحمة واحدة بالذات، متعدّدة بتعدّد النسب والاعتبارات، والتعدّد عين المتعدّد، وعموم هذه الرحمة شمل كلِّ شيء، حتى الغضب والآلام والعذاب ونحو ذلك، ممّا يتخيّل أنه منافٍ لها؛ لأن الكلّ تجلّي من تجليات هذه الرحمة العامة، التي وسعت كل شيء، فإنه - تعالى - أطلق، ولفظ الشيء يعمُّ كلُّ ما يصحُّ أن يعلم ويخبر عنه لغة، فهذه الرحمة إيجاد كل موجود. ولا يقال في هذه الرحمة: إنها تسع الحق - تعالى -

(١) أي من النقصان بعد الزيادة، انظر لسان العرب: «حور» و«كور».

أو لا تسع، لأننا قدمنا أنها عين الوجود، والوجود عين الذات، والشيء لا يسع نفسه ولا يضيق عنها، ومن هذا قوله: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: الآية ٧].

فرحمته هنا عين ذاته كعلمه، ولسبغة هذه الرحمة وشمولها وسعت أسماءه تعالى، بظهور آثارها، بظهور الكائنات، وأما الرحمة الذاتية الخاصة فهي الرحمة الرحيمية المقيدة بالمتقين وبالمحسنين؛ كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِمَّنِ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: الآية ٥٦].

وهي التي أوجبها نفسه على نفسه في قوله: ﴿كُنَّ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: الآية ١٢].

وبما قررناه تعلم أن الضمير المتصل في قوله: ﴿فَسَأَلْتُنَّهَا﴾ [الأعراف: الآية ١٥٦] عائد على الرحمة الخاصة الذاتية، المفهومة من لفظة الرحمة، المضافة إلى الياء، التي هي كناية عن الذات، على الرحمة الذاتية العاقبة، التي وسعت كل شيء، فهذا المساق يشبه التوزيع. ولولا أن الأمر على ما ذكرناه لتناقض صدر الآية مع عجزها؛ إذ السعة تقتضي الإطلاق. وقوله: ﴿فَسَأَلْتُنَّهَا﴾ [الأعراف: الآية ١٥٦] الخ، نص في التقييد، والتناقض محال. ﴿لِلَّذِينَ يَنْقُورُونَ﴾ [الأعراف: الآية ١٥٦] أي يطلبون التقية والستر به تعالى بأن يصير الحق - تعالى - تقيهم ووقايتهم من كل شيء. وذلك بالدخول في جنّة الذات، المشار إليه بقوله: ﴿يَأْتِيهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ [الفجر: الآية ٢٧]. إلى قوله: ﴿وَأَدْخُلِي جَنَّتِي﴾ [الفجر: الآية ٣٠].

وأما الرحمة الرحمانية الصفاتية العامة، فهي الرحمة التي أخرجها الحق - تعالى - إلى أهل الدنيا، فيها يتراحمون ويتواصلون حتى تضع الدابة حافرها على ولدها ولا تضره؛ كما ورد في الخبر: «إن لله مائة رحمة أخرج منها إلى الدنيا رحمة واحدة»<sup>(١)</sup>، الحديث.

والماية هي أسماؤه - تعالى -، وأما الرحمة الرحيمية، الخاصة الصفاتية؛ فهي التي يرحم بها تعالى من يشاء من عباده، وهي التي تتوقف على المشيئة الربانية؛ كما قال:

(١) رواه مسلم: كتاب التوبة، باب في سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه، حديث رقم (١٩) - (٢٧٥٢). ورواه غيره.

﴿وَاللَّهُ يَخْتَصِرُ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ﴾ [البقرة: الآية ١٠٥]، ونحو ذلك. وهي التي يتخلق بها المتخلقون، ويتحقق بها المحققون، من رسول ونبي وولي كامل، وهي التي وصف الحق - تعالى - بها محمداً - ﷺ - في قوله:

﴿يَالْمُؤْمِنِينَ رَوْفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: الآية ١٢٨].

\* \* \*

## الموقف العشرون بعد المائتين

قال تعالى: ﴿وَلَيْنَ صَبْرَتْ لَهُمْ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ﴾ [النحل: الآية ١٢٦] الآية.

تسلية من الحق - تعالى - لعباده الصابرين على ما أصابهم، بأنه هو عوض وخلف لهم مما فقدوه، مما يلائم طباعهم؛ إذ الصبر حيس النفس على ما تكره، ولا تكره النفوس إلا ما لا يلائمها حاضراً، ولو علمت أنه خير لها في الآجل؛ فلا بد للنفوس من التألم النفساني الطبيعي، ولا تقدر على دفعه إلا إذا طرقتها حال غالب قاهر يغنيها عما به تتألم، كما يغنيها عما به تتلذذ، ولكون التألم النفساني الطبيعي لا يقدر الإنسان على دفعه، بكبت الأكابر وتأوهت، وأنت واستغاثت، وسألت رفع الآلام، بخلاف التألم الروحاني فإن الإنسان يقدر على دفعه، ولهذا ترى الأكابر مبتهجة في بوطنها، مسرورة راضية واثقة بحسن اختيار الله تعالى لها، مطمئنة عند نزول الآلام والموجعات بها، وليس هناك شيء غير ملائم بالذات، ولا شرٌّ بالذات، وإنما ذلك بالنسبة إلى القوابل والاستعدادات الجسمانية. وأما الحقائق الغيبية؛ فكل شيء نزل بها، فهو ملائم لها، بل لا ينزل بها غير ما هي طالبة له بلسان حالها، فأخبر - تعالى - الصابرين على فقد الملائم كالصحة والغناء، والعز والأمن، والمال والولد، إنه هو - تعالى - خير لهم مما فقدوه، إذا عرفوا أنه هو تعالى وجودهم الملازم وبيدهم<sup>(١)</sup> اللازم، وما فقدوه من الأشياء الملازمة إنما هو أمور وهمية خيالية، وقال تعالى: ﴿أَلَهُوَ﴾ [النحل: الآية ١٢٦] والهوى؛ هو الحقيقة الذي لا يدري ولا يعرف، ولا يسمى ولا يوصف، وهو غيب كل شهادة، وحقيقة كل حق، لا يزول ولا يحول، ولا يذهب ولا يتغير، فليس المراد بالهوى ضمير الغائب المقابل للمتكلم والمخاطب، وما قال تعالى، «لأننا» لأن «لأننا» متعين بالحضور، وكل متعين متقيد من حيث ذلك التعيين، و«خير» أصله أخير، فهو يدل على المشاركة والمفاضلة، ولا

(١) البُد: النصيب من كل شيء. والبد: العوض. (المعجم الوسيط، مادة البد).



مشاركة ولا مفاضلة، ولكنه تعالى يخاطب عباده بالمعروف، ويماشيهم على النهج المألوف، وإلا فأني مشاركة بين الوجود والعدم، وأني مفاضلة بين الحقيقة والوهم، فمن وجد الله لم يفقد شيئاً، ومن فقد الله لم يجد شيئاً، وفي المناجاة العطاءية: «ماذا وجد من فقدك؟ وما الذي فقد من وجدك؟!»

\* \* \*

## الموقف الواحد والعشرون بعد المائتين

قال تعالى: ﴿أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾ [الشورى: الآية ٥٣].

وقال: ﴿وإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ﴾ [هود: الآية ١٢٣].

وقال: ﴿وإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يونس: الآية ٥٦].

وقال: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ [الأنعام: الآية ٦٠]. ونحو هذا.

اعلم أن مصير الأمور كلها إلى الله، ورجوعها إليه، ورجوع المخلوقات إليه تعالى إنما يكون بعد القيامة. والقيامة إنما تكون بعد فناء المخلوقات، ومن مات فقد قامت قيامته على لسان رسول الله - ﷺ -، والموت موتان: موت اضطراري عام، وموت اختياري خاص، وهو المأمور به: «موتوا قبل أن تموتوا»<sup>(١)</sup>. على لسان رسول الله - ﷺ - فمن مات اختياراً؛ فقد قامت قيامته وصارت الأمور عنده إلى الله، فرجعت أمراً واحداً ورجع إلى الله؛ فرأى الله بالله.

«وأنتكم لن تروا ربكم حتى تموتوا»<sup>(٢)</sup>، على لسان رسول الله - ﷺ - خُرْجِه الطبراني، وذلك لفناء المخلوقات، في شهود هذا الميِّت المبعوث. فما بقي عنده إلا أمر واحد، أي وجود واحد، وما من شيء يكون بعد الموت للعموم إلا وفي هذه الدار نموذج منه للخصوص، قلّ أو جلّ، وصيرورة الأمور كلها إلى الله - تعالى -، إذا اعتبرت من جهة صورها إنما يكون ذلك حكماً لا عيناً، فيرى من مات وقامت قيامته الكثير واحداً لوحده الحقيقية، والواحد كثيراً لكثرة النسبية الاعتبارية، والأعيان التي هي الجواهر لا تنعدم أبداً، والخلق الجديد دائماً دنيا

(١) علي القاري في الأسرار المرفوعة (٣٦٣) طبعة مؤسسة الرسالة والعجلوني في كشف الخفاء حديث رقم (٢٦٦٨) طبعة دار الكتب العلمية.

(٢) رواه أحمد في المسند حديث رقم (٢٢٨٣١). ورواه غيره.

وآخرة، إنما هو في الصور، التي هي أعراض، وكل شيء سوى الوجود الذي هو أمر الله؛ فهو عرض.

\* \* \*

### الموقف الثاني والعشرون بعد المائتين

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ (١٧) [محمد: الآية ١٧].

الذين اهتدوا بالإيمان وعمل الصالحات زادهم هدى بكشف ما آمنوا به، وإظهار أسرار ما عملوا من الطاعات؛ كما قال: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ [البقرة: الآية ١٨٩]، ﴿وَيَعْلَمُكُمْ اللَّهُ﴾ [البقرة: الآية ٢٨٢].

وفي الخبر: «من عمل بما علم وزنه الله علم ما لا يعلم»<sup>(١)</sup>.

فالذين يعلمهم الله إياه، إذا عملوا بما علموا هو كشف سر ما عملوا به، فليس على المكلف إلا الإيمان، والعمل بالوارد من التكليف فعلاً وتركاً، والوقوف عند الحدود، مع اعتقاد حقيقة ذلك كله جزماً، وعدم التعرض للكيفيات والتأويلات، والحق - تعالى - يكشف للمؤمن العامل عن بواطن الأمور وحقائق الأشياء، فيرفعه من مرتبة الإيمان الذي هو تصديق المخبر فيما أخبر به، وهو علم اليقين، إلى عين اليقين، وحق اليقين، فيصير ما كان إيماناً مشاهدة وحياناً، وهذه هي زيادة الهدى، وهي المعبر عنها بزيادة الإيمان، في غير ما آية وحديث، من باب تسمية المسبب باسم السبب، حيث كان الإيمان الذي هو قول وعمل واعتقاد سبباً في زيادة اليقين والحصول على عينه وحقه، كما أن الكفر وعدم الأعمال الصالحة سبب في زيادة الضلال والحصول على الطبع والرزين؛ كما قال:

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ﴾ [الثورة: الآية ١٢٥].

وقال: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة: الآية ١٠].

وقال: ﴿بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ [المطففين: الآية ١٤]. ونحو ذلك.

(١) رواه السيوطي في الدر المنثور في التفسير بالمأثور (٣٧٢/١) طبعة دار الفكر العربي، والقرطبي في التفسير (٣٦٤/١٣) طبعة دار الكتب المصرية.

واليقين مرتبة لا يقبل صاحبها الزيادة في مشهوده، وإن قبل زيادة الظهور والكشف، والفرق بين هذه الثلاثة، هو أن علم اليقين يحتاج في إثباته إلى دليل، ويقبل التشكيك، وعين اليقين يحتاج إلى دليل ولا يقبل التشكيك، وحق اليقين لا يحتاج إلى دليل ولا يقبل التشكيك، وجميع علوم الأدواق - وهي العلوم الحاصلة بالتجليات لمن شاء الله تعالى من عباده - من القسم الثالث؛ فزيادة الهدى إذا، ليست زيادة أشياء يؤمن بها، وإنما هي زيادة فيما يؤمن به، أي زيادة كشف معلوم الأولياء ليست بزيادة على ما جاء به محمد - ﷺ - إذ لا يؤتون بأمر ولا نهى جديد ولا حظر ولا وجوب، وإنما يكشف الحق لهم عن أسرار ما جاء به محمد - ﷺ - وحقائقه وبواطنه وحكمه، فإن لكل ظاهر باطنًا، فظاهره ملكه، وباطنه ملكوته، قال تعالى:

﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾﴾  
[الأنعام: الآية ٧٥].

فلا يحصل الايقان الزائد على الإيمان في الأشياء إلا بكشف بواطن الأشياء والاطلاع على ملكوتها.

\*\*\*

### الموقف الثالث والعشرون بعد المائتين

قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴿١﴾ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾﴾  
[الكافرون: الآيات ١، ٢]... الخ السورة.

«أل» في «الكافرون» للجنس المخصوص، وهم الذين حُت عليهم كلمة ربك، أنهم لا يؤمنون، أي لا يرجعون عن كفرهم بحسب مرتبة كفرهم، وهم المعنيون بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: الآية ٦٧]. وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾﴾ [البقرة: الآية ٦] الخ، الآية. ونحو هذا.

والكفر: الستر لغة، فكل من ستر شيئًا وجحدته فهو كافر سائر بالنسبة لما ستره وجحدته، وهو أنواع كالشرك، وقد يطلق كل منهما على الآخر، وفي صحيح البخاري: «كفر دون كفر، وظلم دون ظلم».

وكما أن الكفر أنواع؛ فالداعون إلى الخروج من هذه الأنواع أنواع، منهم من يدعون إلى الخروج من الكفر الأعظم، ومنهم من يدعون إلى الخروج من الكفر الأصغر إلى ما بينهما.

﴿قُلْ يَتَّخِذُهَا الْكَافِرُونَ﴾ [الكافرون: الآية ١]. الجاحدون وحدانية الإله - تعالى -، الداعون معه إليها آخر، إما استقلالاً كالقائلين بالإثنين، وإما تقريباً كالقائلين:

﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: الآية ٣]. ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ [الكافرون: الآية ٢]. من الشركاء. ﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ [الكافرون: الآية ٣]. وهو الإله الواحد الأحد لما حقت عليكم كلمة العذاب، وما يبدل القول لديه تعالى: ﴿قُلْ يَتَّخِذُهَا الْكَافِرُونَ﴾ [الكافرون: الآية ١]. الجاحدون تنزيه الحق - تعالى - القائلون بتشبيهه بخلقه مطلقاً، كالمجسمة والحلولية والاتحادية المنكرون والمؤولون بقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: الآية ١١].

«لا أعبد ما تعبدون» وهو الآلهة المشبهة بمخلوقاته مطلقاً، فإنه إله مخلوق اخترعه عابده في تخيله: ﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ [الكافرون: الآية ٣]. وهو الإله المنزه في تشبيهه.

﴿قُلْ يَتَّخِذُهَا الْكَافِرُونَ﴾ [الكافرون: الآية ١]. الجاحدون تشبيه الحق تعالى، القائلون بتنزيهه مطلقاً في جميع المراتب، المنكرون والمؤولون لما ورد في الكتب وسنن الرسل، ومن تجليه بصور مخلوقاته، من غير حلول ولا اتحاد، ونعته بنعوت المحدثات، كالنزول والهرولة، والقدم والضحك، والوجه والعين، والمجنب والجوع والعطش، ونحو ذلك.

﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ [الكافرون: الآية ٢]. وهو الإله المنزه مطلقاً في جميع المراتب، المحكوم عليه بأنه على كذا، ولا بد ولا يكون على كذا، المحجور عليه بالعقول والأفكار.

﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ [الكافرون: الآية ٣]. وهو الإله المنزه المشبه، أعني منزّه حالة تشبيهه.

﴿قُلْ يَتَّخِذُهَا الْكَافِرُونَ﴾ [الكافرون: الآية ١]. الجاحدون انفراد الحق - تعالى - بإيجاد كل موجود، القائلون بتأثير الطبائع والأفلاك، أو الأسباب العادية بطبيعتها، أو بقوة أودعها الله - تعالى - فيها، أو أنّ العبد يخلق أفعاله الاختيارية كما يقوله المعتزلي.

﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ [الكافرون: الآية ٢]. وهو الإله الذي له شريك في فعل من أفعاله، أو حكم من أحكامه.

فقوله: ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ [الكافرون: الآية ٢]. ما أعبد.

﴿وَلَا أُنشِئُ عِبِيدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ [الكافرون: الآية ٣]. المقصود به أهل الكفر الأكبر.

وقوله: ﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ﴾ [الكافرون: الآية ٤، ٥]. المقصود به ما عدا أهل الكفر الأكبر، من سائر الطوائف والمبطل والنحل، فما في كلام الحق - تعالى - تكرار.

﴿لِكُمْ دِينِكُمْ﴾ [الكافرون: الآية ٦]. الدين الجزاء، أي لكل طائفة منكم جزاء بحسب مرتبة كفرها؛ فكما أنَّ الكفر أنواع فالجزاء أنواع، فلكل كفر جزاء.

﴿وَلِي دِينٍ﴾ [الكافرون: الآية ٦]. أي لي جزاء عام وهو التلذذ والتنعم بنعيم كل معتقد حيث كان إلهي ومعبودي مطلقاً، لا حكم عليه ولا تحجير، والعباد للإله المطلق له النعيم المطلق.

\*\*\*

### الموقف الرابع والعشرون بعد المائتين

قال تعالى: ﴿وَلَمَنْ حَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ﴾ [الرحمن: الآية ٤٦]. وقال في السورة نفسها: ﴿وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّاتٍ﴾ [الرحمن: الآية ٦٢].

اعلم أن العباد على قسمين: أشقياء وسعداء، والسعداء على قسمين: أبرار أصحاب اليمين، ومقرَّبون سابقون؛ فالأشقياء لا خوف عندهم، والسعداء لهم خوف، وخوفهم نوعان: خوف الإجلال والتعظيم والمهابة، وهو للمقرَّبين السابقين، فإنَّ الخوف منه تعالى على قدر المعرفة به، فمن كانت معرفته أتم، كان خوفه أكمل؛ ولذا قال السيد الكامل - عليه السلام -: «إني لأعرفكم بالله وأشدكم له خشية»<sup>(١)</sup>.

وخوف النار والأغلال والعذاب والتكال، هو للأبرار أصحاب اليمين، وليس الخوف من لازمه الإجلال والإعظام، فإنَّ الإنسان يخاف الحيَّة والعقرب، من غير

(١) هذا الحديث سبق تخريجه.

تعظيم ولا إجلال، ولما كان خوف الأبرار والمقربين مختلفاً في النوعية؛ كان جزاؤهما مختلفاً في العين والماهية. فجزاء المقرّبين، دخول جنتي الذات والصفات، وهو جزاء معنوي، ودخول معنوي، حيث كان خوفهم معنوياً جزاءً وفقاً؛ إذ الجزاء من جنس العمل، وهما الجنتان المتقدمتان في الذكر في السورة، فهما متقدمتان رتبةً وذكرًا، وجميع ما ذكر في هاتين الجنتين هو من الأمور المعنوية؛ فقلوه: ﴿ذَوَاتًا أَفْنَانٍ﴾ [الرُحْمَنُ: الآية ٤٨].

إشارة إلى كثرة التجليات الذاتية والصفاتية وتشاجرها وتباينها، بحيث لا يشبه تجلُّ تجلياً أبد الآبدن.

وقوله: ﴿فِيهَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ [الرُحْمَنُ: الآية ٥٠].

إشارة إلى جريان العلوم اللدنية والإلهامية، وتتابعها على الدوام، لمن دخل هاتين الجنتين. فالعلم اللدني هو الوارد من الوجه الخاص الذي لكل إنسان. والعلم الإلهامي هو الوارد بواسطة الملك غير المحسوس، فبين العلمين فرقاً الواسطة وعدمها.

وقوله: ﴿فِيهَا مِنْ كُلِّ فَنَكَةٍ زَوَاجَانِ﴾ [الرُحْمَنُ: الآية ٥٢].

إشارة إلى أن في هاتين الجنتين، من كل ما تستلذه الأرواح، وتتنعم به القلوب نوعين؛ كالمشاهدة والمكالمة، والحضور والغيبة، والسكر والصحو، والبقاء والفناء، والجمع والفرق... ونحوها. وقس على هذا ما لم أذكر، وهاتان الجنتان لا نهاية لهما ولا حد. ونعيمهما لمن دخلهما دنياً وبرزخاً، والآخرة واللذة فيهما أتم، والتنعم أكمل؛ بل لا نسبة بينهما، وبين الجنتين المذكورتين بعد، وجزاء الأبرار دخول جنتين محسوستين؛ لأن ما خافوه محسوس. وهما المذكورتان في قوله:

﴿وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ [الرُحْمَنُ: الآية ٦٢].

فهما دون الأولين في القدر والسعة واللذة، بل هاتان كلا شيء، بالنسبة للأوليين، فإنهما لا يدخلان تحت الكم والكيف، وما ذكره في الجنتين الأخيرتين كله محسوس، ولهما نهاية وحد في أنفسهما، لا في نعيمهما، وهما الجنتان اللتان ورد الخبر بهما؛ كما في صحيح البخاري: «جنتان من فضة آتيتهما وما فيهما، وجنتان من ذهب آتيتهما وما فيهما».

«فَمَنْ» في قوله: ﴿وَلَعَنَ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ﴾ [الرُحْمَنُ: الآية ٤٦].



واقعة على الصنفين الخائفين من الأبرار والمقربين مع اختلاف خوفهما، فهو مقول بالتشكيك؛ كما أن المقام هو بالنسبة إلى المقربين بمعنى الحضرة الربانية، وبالنسبة إلى الأبرار مقام العباد بين يدي الحق - تعالى - .

وقوله: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّاتٌ﴾ [الرحمن: الآية ٦٢]. هو على طريقة التوزيع، فإن الإخبار واقع على الصنفين من المقربين والأبرار.

\* \* \*

### الموقف الخامس والعشرون بعد المائتين

قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾

[البقرة: الآية ٢٥١].

أي: لولا وجود دفع الله، الاسم الجامع لأسماء الجلال والجمال والرضى والغضب، الناس الذين هم مظاهر أسماء الجلال والجمال والرضى والغضب، بعضهم، يعني مظاهر أسماء الجلال والشر والغضب ببعض، بمظاهر أسماء الجمال والخير والرضى، والاسم الجامع هو المدافع، والمدافع في الجهتين من حيث الناس، الذين هم مظاهر الصنفين؛ كما قال: ﴿قَتَلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ [التوبة: الآية ١٤].

وأن هذين الصنفين، أعني مظاهر أسماء الجلال والجمال، المعبر عنهما باليدين، في الآيات والأحاديث دائماً، في مدافعة ومغالبة ومشاققة، حتى في الشخص الواحد؛ كما ورد: «أن للملك لمة وللشيطان لمة».

فالمطاردة والمدافعة بين مظاهر الجلال والجمال لا تنفك دائماً، كمطاردة الليل والنهار بالنور والظلمة، «لفسدت الأرض» أنحل نظامها وزلزلت زلزالها؛ إذ لولا وجود دفع الله أهل الكفر بأهل الإيمان، وهم مظاهر الاسم الله الجامع للجلال والجمال لاستولى الكفر على أهل الأرض. وقد قضى تعالى: أنه إذا لم يبق على وجه الأرض من يقول «الله الله» قامت القيامة، فانفطرت السماء وطويت الأرض، وانقلب الأمر إلى الآخرة؛ كما أنه لولا وجود مدافعة الله الشيطان بالملك، لفسدت الأرض، أرض النفوس التي هي محل البذور والإلقاء؛ كما قال: ﴿فَأَلَمَمَّا تَجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ [الشمس: الآية ٨].

﴿وَلَا كِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: الآية ٢٥١].

أي ذو إفضال وامتنان بوجود مدافعة مظاهر الخير لمظاهر الشر كمدافعة أهل الكفر بأهل الإيمان، ومدافعة الملك للشيطان، ويكون العالمين على هذا عامًا أريد به خاص.

إشارة أخرى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ﴾ [البقرة: الآية ٢٥١] الآية.

الناس: يعمُّ الجنَّ والإنس. والجنُّ يعمُّ الملائكة وجميع الأرواح. والعالم كلُّه ذو روح، فيكون دفع الله الناس بعضهم ببعض يعمُّ العالم كلُّه أعلاه وأسفله، أعني مدافعة الأسماء بعضها ببعض، التي العالم كلُّه مظاهرها «لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ» لانحلت واضمحلت، المرتبة الإمكانية التي هي الأرض القابلة لظهور الأسماء المتدافعة المتغالبية؛ بل ولا كانت ولا وجدت فإنه لا قيام ولا بقاء لهذه الأرض إلا بمدافعة أسماء الجلال والجمال، التي اشتملت عليها مرتبة الألوهية المسماة بالله، بعضها ببعض، ومغالبتها ومداولتها في الغلبة؛ لأن العالم كلُّه إنما كان عن الطبيعة والعناصر، وهي مظاهر الأسماء، ومدافعة بعضها لبعض، ومغالبتها ضرورية. ولولا ذلك الميئل ما حدث شيء؛ لأن الاعتدال لا يكون عنه شيء:

﴿وَلَا كُنَّ اللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: الآية ٢٥١].

ذو إفضال على العالمين، وهو كلُّ ما سواه - تعالى -، امتنَّ على جميع العالم بوجود مدافعة الله الناس، الذين هم مظاهر أسمائه، فتمَّ إيجاد مظاهر الجمال والجلال؛ إذ الممكنات تطلب الإيجاد والتأثر، كما أن الأسماء تطلب الظهور والتأثير. والوجود كلُّه خير، والشرُّ هو العدم، فالعالمين على مقتضى هذه الإشارة على أصل وضعه.

\* \* \*

### الموقف السادس والعشرون بعد المائتين

قال تعالى: ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ حَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [طه: الآية ٥٠].

المطلوب من الواقف على هذا الموقف، أن يعطيه ما يستحقه من التأمل والإنصاف؛ فإنها مسألة تكسرت في البحث عنها أطافر كثيرين. ليعلم أن الأشياء الممكنة معلومة للحق - تعالى -، حالة عدها بعلم محيط إجمالي، في تفصيل لا يتناهى، والمشيشة المذكورة في هذه الآية؛ هي المشيشة الوجودية:

﴿أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ﴾ [طه: الآية ٥٠]. أي موجود: (حَلْقَهُ) طبيعته واستعداده؛

كما هي في قوله: ﴿وَقَدْ خَلَقْتَكُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ [مرنم: الآية ٩]. أي

موجودًا، لا الشبثية الثبوتية؛ كما هي في قوله: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [التحل: الآية ٤٠].

وهي الشبثية المعلومة المجردة عن الوجود العيني. ولحقائق الممكنات استعدادات، معلومة له - تعالى - ثابتة معدومة؛ وكما أن عدم الممكنات، السابق على وجودها غير مراد ولا مجعول؛ فكذلك استعداداتها وطبائعها الكلية غير داخله تحت الإرادة والجعل؛ لأنها الاقتضاءات الأسمائية الإلهية، التي هي حقائق أول، وهذه حقائق ثواني، والممكن من حيث هو ممكن، بالنظر إلى حقيقة الإمكان؛ لا يقتضي شيئًا لذاته، فلا بد له من مرجح؛ إذ وقوع أحد المتساويين بلا مرجح محال لما يلزم من التساوي، وعدم التساوي والمرجح لا يرجح إلا بالعلم، وإرادة المتقدمين على الترجيح. وبالنظر إلى كون علمه تعالى قديمًا محيطًا، لا يقبل التغيير، لاستحالته؛ فالممكن المعلوم حالة عدمه لا يقبل التغيير، لما يلزم من انقلاب العلم جهلاً، إذ المحال كانت معنوية أو عينية تعطى الحال بها أحكامًا ليست له، بمجرد النظر إلى ذاته. فلزم من هذا: أنه - تعالى - لا يعطي حقيقة وذاتًا من ذوات الممكنات، حالة إيجاده، من الأحوال والصفات؛ إلا ما علمه منه حالة عدمه لطلبه لذلك، باستعداده وطبعه، الذي هو مقتضى حقيقته؛ إذ انقلاب الحقائق محال. وصح قول حجة الإسلام الغزالي - رضي الله عنه -: «ليس في الإمكان أصلًا أحسن ولا أتم ولا أكمل مما كان».

أي مما هو عليه كل ممكن في الحال، ويكون عليه في الاستقبال، من الأحوال والصفات دنيا وأخرى، يعني أنه ليس في الممكن الجائز أن يكون في حق أفراد كل حقيقة وذات نسبت إلى الوجود في العالم أعلاه وأسفله أحسن وأتم وأكمل مما كان، أي مما أعطيت أشخاص كل حقيقة من الأحوال والصفات والأوضاع؛ لأنه تعالى فعل بها وأعطاهما ما تطلبه باستعدادها، وتستحقه بطبيعتها، الذي علمه منها حالة عدمها؛ فكما أنه تعالى، أخبر أنه لا يعطيها في النهاية إلا وصفها بقوله: ﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: الآية ١٣٩].

﴿وَلَا يَظُنُّ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: الآية ٤٩]. لأنه علمهم على تلك الصفات والأحوال في الدنيا، فكذلك في البداية، لم يعطهم من الأحوال والصفات إلا ما علمهم عليه قبل وجودهم، وهي استعداداتهم؛ لأنه علمهم متى وجدوا، يكونوا على تلك الأحوال والصفات والهيئات والأوضاع، لأنها مقتضى استعداداتهم، التي هي

حقائقهم أو لوازم حقائقهم. ومن البين أن العلم ظل للمعلوم، وحكاية عنه، فهو تابع له. ولا أحسن ولا أكمل ولا أنتم ولا أبدع ولا أحكم من إعطاء كل مستعد ما هو مستعد له، فإنه لا يطلب غيره، بل لا يقبله، فإنه لا يصلحه ولا يمشي به على حقيقته إلا ذلك، ألا ترى مثلاً إلى استعداد الشمعة للانطفاء بالنفخ، واستعداد قبضة الحشيش اليابس للاتقاد به، ولو أراد النافخ، إذا كان غير عالم بالاستعداد، ولا حكيم، فيعطي كل شيء ما يستحقه، إيقاد الشمعة بالنفخ، ما قبلت ذلك؛ لأنه خارج عن استعدادها. كما أنه إذا أراد إطفاء قبضة الحشيش بالنفخ ما قبلت ذلك كذلك. والفعل والفاعل واحد ولكن الاستعدادات مختلفة، والطبائع متباينة، فالتجلي الإلهي واحد. وحقائق الممكنات تقبله بحسب استعداداتها وقوابلها. فمن الاستعدادات ما يعم جميع أشخاص الحقيقة الواحدة، كالتعدّي مثلاً لحقيقة الحيوان والنبات. وقد يتفرد كل نوع من أنواع الجنس الواحد، باستعداد وطبيعة؛ كاستعداد أنواع الحيوان المصوّت، كل نوع إلى صوت يخالف الآخر، وما ذلك إلا لاختلاف الاستعدادات. وقد لا تنحصر الاستعدادات في أشخاص النوع الواحد، ولا في أنواع الحقيقة والجنس الواحد، والحق - تعالى - واسع عليم بالاستعدادات على اختلافها، حكيم يضع الأشياء مواضعها التي تستحقها، جواد يعطي كل مستعد ما يطلبه باستعداده، وهو معنى:

﴿أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ﴾ [طه: الآية ٥٠].

أي طبيعته واستعداده، «ثُمَّ هَدَى» أي بيّن ويسر وساق كل شيء بعد إيجاده، إلى ما هو مستعد له قبل إيجاده، فليس له تعالى إلا إعطاء الوجود للأحوال والصفات، لكل مستعد حسب استعداده وطلبه لذلك، بلسان حاله، الذي هو الاضطرار، وهو - تعالى - يقول:

﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [النمل: الآية ٦٢].

فكلام حجة الإسلام - رضي الله عنه - إنما هو في بيان أنه - تعالى - ما ظلم أحداً من خلقه، ولا عدل به عمّا علمه منه حالة عدمه، ولا نقصه خردلة ممّا طلبه باستعداده وخلقته وطبيعته، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، إن نقصاً فنقص، وإن كمّالاً فكمال، وبهذا كانت له الحجة البالغة على مخلوقاته. وفي بيان أن الأحوال والصفات والأوضاع المجعولة التابعة للحقائق، والذوات والمهيات غير المجعولة لا يمكن أن تكون أعلا مما هي عليه ولا أدون، لأنها مقتضى استعدادات الحقائق والذوات، من

غير تعرّض لشيء آخر وراء ذلك أصلاً، ولو قيل لحجّة الإسلام: هل في الإمكان العقلي أن يخلق الله - تعالى - حقائق وأحسن وأتم وأكمل ممّا خلق، أعني قدر، لقال: هو ممكن عقلاً إذا أراد. وأمّا كشفنا، فهو محال؛ لأن العالم مخلوق على الصورة الإلهية، وحجّة الإسلام، إنما يتكلّم مع الجمهور أصحاب العقول، فهو يقرب الأمر إلى عقولهم. ولو قيل له: وهل في الإمكان أن يعطي تلك الحقائق صفاتاً وأحوالاً، أعلى أو أدون ممّا تقتضيه استعداداتها، التي علمها عليه قبل نسبة الوجود إليها؟ لقال: لا يمكن؛ لأن القدرة إنما تتعلق بالممكن. ووقوع خلاف العلم الإلهي مستحيل. ولو قيل له: وهل في الإمكان أن يخلق الله - تعالى - حقائق تقتضي استعداداتها أحوالاً وصفاتاً هي أحسن وأكمل وأتم ممّا كان؟ لقال: نعم، كيف؟ وهو - تعالى - يقول: ﴿إِنْ يَشَأْ يُدْهِبِكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [إبراهيم: الآية ١٩]. فإطلاق، فجاز أن يكون أعلا.

وقال: ﴿إِنْ يَشَأْ يُدْهِبِكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ﴾ [الأنعام: الآية ١٣٣]. فأطلق كذلك.

وقال: ﴿يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أُمَّتَكُمُ﴾ [محمد: الآية ٣٨]. فقيّد بعد المثالية.

وقال: ﴿إِنَّا لَقَدِيرُونَ﴾ (٤٠) ﴿عَلَىٰ أَنْ تُبَدَّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ [المعارج: الآيتان ٤٠، ٤١]. فقيّد في هذه الآية البدل بالخيرية، يؤيد حمل كلامه - رضي الله عنه - على ما ذكرناه لا غير؛ قوله الذي بنى عليه هذه المقالة، عندما تكلم فيما يثمر التوكل، ما نضه باختصار بعض الكلمات: «هو أن تصدّق يقيناً أن الله لو خلق الخلائق كلهم على عقل أعقلهم وعلم أعلمهم، وأفاض عليهم من الحكمة ما لا منتهى لوصفه؛ ثم كشف لهم عن عواقب الأمور وأطلعهم على أسرار الملكوت، وأمرهم أن يدبروا الملك والملكوت، بما أعطوا من العلم والحكمة؛ لما اقتضى تدبير جميعهم أن يزداد فيما دبر الله به الخلق في الدنيا والآخرة جناح بعوضة، ولا أن ينقص منه جناح بعوضة، ولا أن يرقع عيب أو نقص، أو مرض أو ضرر عمّن يلي به، ولا أن يزال غنى، أو صحّة أو كمال، أو نفع عمّن أنعم عليه، بل كان ما خلق الله من السموات والأرض، وكلّ ما قسم الله بين عباده من رزق وأجل، وسرور وحزن، وعجز وقدرة، وإيمان وكفر، وطاعة ومعصية؛ عدم لا جور فيه، وحق لا ظلم فيه، بل هو على الترتيب الواجب الحقّ على ما ينبغي، وبالقدر

الذي ينبغي، وليس في الإمكان أصلاً أحسن منه ولا أتمُّ ولا أكمل، ولو كان، واذخره مع القدرة، لكان بخلاً يناقض الجود، وظلماً يناقض العدل، ولو لم يكن قادراً لكان عاجزاً. والعجز يناقض الألوهية» يعني - رضي الله عنه - أنه تعالى أعطاهم ما أعطاهم، وكشف لهم عن علمه بالأشياء في العدم؛ فعرفوا استعدادتها وطبائعها التي تقتضيها له، وحقائق الأشياء طالبة لصفاتها وأحوالها وأوضاعها التي تعرض لها بعد الإيجاد العيني، طلباً طبيعياً لزومياً، ورأوا تلك الصفات والأحوال على اختلاف أزمنتها وأمكانتها، مترتبة ترتيباً اقتضائياً، بحيث تكون الحالة الأولى جاذبة للتي بعدها، مستلزمة لها، كحلق السلسلة يجذب بعضها بعضاً جذباً طبيعياً، وأن الكثيف الثقيل استعداده وطلبه؛ يقتضي أن يكون أسفل، ولا يليق به ويصلحه إلا ذلك؛ كالأرض وما خلق منها من حيوان وإنسان، وأن اللطيف الخفيف استعداده وطبيعته يقتضي أن يكون أعلى كالسموات، وما خلق منها من ملك ونحوه. وأن البارد اليابس كالأرض، لا ينتظم أمره إلا بمجاورة البارد الرطب كالماء، وأن اليبس الحار كالنار؛ لا ينتظم أمره إلا بمجاورة الحار والرطب كالهواء، وقس على هذا، فلو عكس هؤلاء الذين أمرهم الله - تعالى - أن يدبروا الخلق، بما أفاض عليهم، وأعطاهم من العلم والحكمة خردلة ما انتظم العالم. بل لا يمكنهم زيادة خردلة ولا نقصانها، لأنه قلب للحقائق وهو محال. وتغيير لمعلوم العلم أزلاً، وهو محال أيضاً؛ إذ العلم لا بدُّ له من معلوم. ومتى ما ظهر ظهر طبق ما تعلَّق به العلم القديم، لا أزيد ولا أنقص بزمانه ومكانه، لا يتقدَّم ولا يتأخَّر، فهو تعالى يخلق ما يشاء ويختار، ولا يشاء ويختار إلا ما علم من كل معلوم حالة عدمه، وهو ما عليه كلُّ ممكن حالة وجوده، من جميع أحواله وصفاته التي لا نهاية لها في الدار الدائمة فلا يصحُّ أن يقال: الحق - تعالى - يعجز عن شيء؛ بل هو القادر المطلق، ولكن يقال: الحق - تعالى - لا يفعل إلا ما أراد واختار، ولا يريد ويختار إلا ما علم، والمعلوم لا يتغير. فلو كان في الإمكان خلاف الواقع، بحسب ما عليه كلُّ ممكن من الأحوال والصفات، مع طلب الممكن، أي ممكن كان من الممكنات، باستعداده ولسان حاله الأحسن والأكمل بالنسبة إلى ما أعطى من الصفات والأحوال على سبيل فرض المحال؛ إذ لا يطلب شيء غير ما هو مستعد له البتة؛ لكان بخلاً يناقض الجود، وظلماً يناقض العدل، والبخل والظلم محال، فاللازم، وهو منع المستحق ما هو مستحقُّ له، طالب له باستعداده محال. والظلم وضع الأشياء غير



مواضعها، التي تستحقها باستعداداتها، والعلم والحكمة. ولو لم يكن قادرًا على ما يريد لكان عاجزًا والعجز محال، فهو تعالى عالم قادر مريد مختار. ولعلمه وإرادته واختياره لا يعطي شيئًا في الممكنات إلا استعداده؛ لأنه مقتضى الإرادة المترتبة على العلم، المترتب على المعلوم. فتبين من هذا: أنه لا اعتزال ولا فلسفة، ولا جبر ولا إيجاب في قول حجة لإسلام في هذه المسألة، بل هو كلام صفوة الصفوة من أهل السنة والجماعة.

والحاصل: أن حجة الإسلام - رضي الله عنه - رمز بهذه المقالة إلى سرّ القدر، المتحكم في الخلائق، وهو الذي تنتهي إليه الأسباب والعلة، وهو لا سبب له ولا علة، فلا يقال فيه: «لِمَ» ولا «كَيْفَ» قال - رضي الله عنه - بعد ما قدّمناه من كلامه: «وهذا الآن بحر زاخر عظيم عميق واسع الأطراف مضطرب الأمواج، غرق فيه طوائف من القاصرين، ولم يعلموا أن ذلك غامض، ولا يعقله إلا العالمون، ووراء هذا البحر سرّ القدر الذي تحير فيه الأكثرون، ومنع من إفساء سرّه المكاشفون» إلى آخر المقالة. فاعتاص هذا الرمز على الأفهام، من الخاص والعام، وتباينت فيه الآراء من لدى عصر حجة الإسلام إلى هلمّ جزءًا، حيث كان هذا الرمز مورعًا بين طريقة المكاشفين، وطريقة المتكلمين، فهم بين معتقد مجيب، ومنتقد غير مصيب، أما العارفون بالله؛ فقد عرفوا صحة معناها، وأصل مبناها، غير أنه ما استقام لهم تطبيق اللفظ على المعنى المراد الاستقامة الحالية، عن تكلف المسالمة من الاعتراض، وكنت أنا الحقير، أقول عند المذاكرة مع الإخوان في هذه المسألة: «المعنى صحيح واللفظ مشكل»، إلى أن ورد هذا الوارد، وأما غير العارفين من مجيب ومعترض فهم يتخبطون بين كلام أهل السنة والاعتزال، والكل في ناحية عن مرمى حجة الإسلام، وأكثر من بسط الكلام، في هذه المقالة، من الذين وقفنا على كلامهم الشيخ المتفتن أحمد بن مبارك السجلماسي ثم الفاسي في كتابه «الإبريز»، وقال: إنه فعل ذلك نصيحة للمسلمين، والله ينفعه بقصده فإنه معذور، وهو من القادحين في هذه المقالة، ومن لم يشتم رائحة للمعنى الذي ذكرناه. ولولا خشية التطويل لجلبنا أجوبة المجيبين واعتراض المعترضين، فلا تحجبك أيها الواقف على ما كتبناه جلالة المتكلمين في هذه المسألة، وحقارة هذا الكاتب، عن أخذ ضالتك عند من وجدتها، فتكون ممن حرم الإفادة، وحجر على الله أن يتفضل على من شاء، وجرت ذيلها عليك آية، وقالوا:

﴿تَوَلَّى نَزَلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرِيبَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهْمٌ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ [الزخرف: الآيات ٣١، ٣٢]؟

\* \* \*

### الموقف السابع والعشرون بعد المائتين

قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص: الآية ٦٨].

اعلم أن الحق - تعالى - له الفعل والاختيار المطلق، ما لم يتقيد بمظهر، ويتعين بتعيين، فإنه حينئذ، لا يكون فاعلاً مختاراً في المظاهر؛ إلا بحسب استعداداتها وطبائعها. فإن التقيد بالأعيان يحكم على الوجود الحق، فلا يظهر فيها إلا بحسبها. فله - تعالى - في كل عين فعل، واختيار، هو مقتضى تلك العين؛ فإن الاستعدادات الكلية غير مجعولة، فعمله تابع لعلمه، وعلمه تابع لمعلومه، زُبَّةٌ فهو - تعالى - قادر أن يخرج من الحجر لُمرًا، ولكن بعد أن يجعل الحجر شجرًا، هكذا فلتعرف الحقائق وتفهم الدقائق.

\* \* \*

### الموقف الثامن والعشرون بعد المائتين

قال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: الآية

[٥٥].

أي: وعد الله حق ثابت وقوعه لمن وعده، ولكن أكثرهم لا يعلمون، فقالوا بحقية الوعيد، كذلك، وهو خطأ؛ لأنه تعالى يحب المدح، كما ورد في الصحيح. فحيثما ذكر - تعالى - الوفاء بالوعد، وإنما ذكره للتمدح والامتنان والوفاء بالوعد ليس هو مما يتمدح به، فإنه دليل الحقد والجفاء والغلظة، وليس في إخلاف الوعيد نقص، كما توهم، بل هو عين الكمال، ولا يسمى خلفاً عادة، وإنما يسمى عفوًا وغفرانًا وسماحة وكرمًا وسؤددًا. قال بعضهم يمدح نفسه بإخلاف الوعيد:

وإنني إذا أوعدته أو وعدته لمخلف إيعادي ومنجز موعدتي

كيف؟! وهو - تعالى - يحثنا على الخلق، ويأمرنا به، ويرغبنا فيه، في غير ما آية وحديث، ويمدحنا به، ولا يفعله؟! هذا محال؛ إذ لا أحد أحب إليه المدح من الله - تعالى - كما في صحيح البخاري، ولو لم يفعله، أدخل - تعالى - نفسه تحت قوله:

﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾ [البقرة: الآية ٤٤].

والعقل؛ إذا نظر إلى أنه - تعالى - لا ينتفع بطاعة، كما قال، لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولا يتضرر بمعصيته فإنه غني عن العالمين، لا يحكم بعقوبة ولا مثوبة وإنما الشارع جاء بتعيين هذا. وهذا ترجيح لأحد الجائزين في العقل مع توقف ذلك على المشيئة الإلهية من غير إيجاب، ولا يوجد في الكتاب ولا في السنة دليل نص لا يتطرق إليه احتمال في عقوبة العاصي. ولا بد بحيث لا يرجى له عفو ولا سماح ولو بعد حين، وأنه تعالى لا يخلف وعيده، فله تعالى أن يخوف عباده بما يشاء من قول أو فعل، وقوله:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ [النساء: الآية ٤٨] الآية.

ما هو دليل نص على أن المشرك مطلقاً يتسرد عليه العذاب أبد الآبدين وإنما دلت الآية على أنه لا يغفره، بمعنى أنه لا يستره، بل لا بد من عقوبته وتعذيبه. وهل بعد هذا التعذيب والعقوبة عفو وسماح أو لا؟! وليس في الآية دليل على أحدهما. وما ثم نص يرجع إليه في تسرد العذاب على أهله، كما هو في تسرد النعيم لأهله، فلم يبق إلا الجواز، ودعوى الإجماع باطلة، وقد تقدم ذلك في موقف: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ﴾ [الفتح: الآية ١].

قال تعالى: ﴿بَيِّنَاتٍ لِّلنَّاسِ إِن وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا﴾ [فاطر: الآية ٥].

وما قال: «ووعيده».

وقال: ﴿أَلَا إِنَّ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا﴾ [يونس: الآية ٥٥].

وما قال: «ووعيده» مع أن هذه الآية ذكرها عقب التهديد والتخويف، وهو قوله: ﴿بَيِّنَاتٍ لِّلنَّاسِ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَأَخْشَوْا يَوْمًا﴾ [لقمان: الآية ٣٣] الآية.

وقال في طائفة من الملائكة: ﴿وَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ [غافر: الآية ٧].

وقال، في طائفة أخرى منهم: ﴿وَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ [الشورى: الآية

٥]. يعني بني آدم، فعمم.

وقال حكاية عن الخليل - عليه الصلاة والسلام -: ﴿فَمَنْ يَبْعَثْنِي فَأَنَا مِنِّي وَمَنْ

عَصَانِي فَأَنَاكَ عَفْوَرٌ رَّحِيمٌ﴾ [إبراهيم: الآية ٣٦].

وقال حكاية عن عيسى - عليه الصلاة والسلام -: ﴿إِنْ تَعَذَّبْتَهُمْ فَأَنَا مِنْهُمْ عِبَادُكَ

وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَأَنَاكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: الآية ١١٨].

ولملاحظة هذا المعنى العظيم وغيره، ردّد - ﷺ - هذه الآية ليلة كاملة، كما ورد في الخبر. فلو لم يكن العفو والسماح جائزاً، ولو بعد حين، ما فوّضه إليه الأنبياء، ولا سأته الملائكة - على جميعهم الصلاة والسلام - فإن الأنبياء والملائكة أعرف الخلق بالله - تعالى - وبصفاته وأفعاله. فكلّ ذنب يجوز العفو عنه بترك العقوبة عليه أصالة إلا الشرك، ولا كلُّ شرك: بل ما كان عن تقليد، كما حكى تعالى عنهم:

﴿بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [الشُّعْرَاءُ: الآية ٧٤].

وقولهم: ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّهْتَدُونَ﴾ [الزُّحُرْفُ: الآية ٢٢].

فإن هؤلاء ما نظروا ولا اعتبروا ولا اجتهدوا؛ بل عطّلوا نعمة العقل التي هي أعظم نعمة أنعم الله بها على الإنسان. وأمّا إذا كان الشرك بعد النظر والاجتهاد وبذل الطاقة، فأذاه نظره القاصر إلى الشرك، فهذا لا نصّ في القطع أنه لا يغفر له، قال تعالى:

﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ﴾ [المؤمنون: الآية ١١٧].

وهذا له برهان في زعمه، وإن كان ليس ببرهان في نفس الأمر؛ فإن النظر الصحيح المستوفي للشرائط؛ لا يصل به صاحبه إلى الشرك، كيف؟! وقد قال تعالى:

﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: الآية ٢٨٦].

وقال: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَّا آتَنَهَا﴾ [الطلاق: الآية ٧].

وهذا عمل جهده وبذل وسعه، وأهل الله العارفون به، مجتمعون على أن المجتهد في الأصول، وهي المسائل التي لا يكفي فيها إلا القطع، أعني العقائد العقلية معذور، كما هو في الفروع، وهي المسائل التي يكفي فيها غلبة الظن، وهي العمليات. ووافق أهل الله حجة الإسلام الغزالي نظراً في كتابه «التفرقة بين الإيمان والكفر والزندقة»، وألا فهو من أكابر أهل الله، ووافقهم أبو الحسين العنبري، والجاحظ من المعتزلة، ولا تقل أيها الواقف: أسرفت وأفرطت؛ فإني والله توقفت في كتابة هذا الوارد ثلاثة عشر شهراً بعد وروده، إلى أن أذن الله - تعالى - في كتابته. ومن أطلعه الله على شرف هذا النوع الإنساني، وعناية الله به، وما خصّه به من تسخير الأفلاك وسجود الأملاك، قال بما قلناه، وما استبعد في حقّه فضلاً من الله - تعالى - .

وفي صحيح البخاري: «فلو يعلم الكافر بكلّ الذي عند الله من الرحمة لم ييأس من الجنة».

\* \* \*

### الموقف التاسع والعشرون بعد المائتين

قال تعالى حكاية قول العبد الصالح الخضر عليه السلام: ﴿وَمَا فَعَلْنَاهُ عَنْ أَمْرِي﴾ [الكهف: الآية ٨٢].

اعلم أن المخلوقات منقسمة إلى عالم أمر وعالم خلق، فلكل فرد من أفراد عالم الخلق، حتى الذرة أمرٌ يخصه من عالم الأمر يدبره، وعالم الخلق هو السبب في إيجاد عالم الأمر، من الأمر الكلّ، قال إمام العارفين محيي الدين - رضي الله عنه -:

وما الفخر إلا للجسوم وكونها مولدة الأرواح ناهيك من فخر  
ألا إن طيب الفرع من طيب أصله وكيف يطيب الفرع من مخبث النجر<sup>(١)</sup>!

هكذا قال. وقال أيضًا: هل الصورة سبب في وجود الروح الأبدي، أو الروح الأبدي سبب في وجود الصورة؟ فإنه قال تعالى في خلق عيسى - عليه الصلاة والسلام -: ﴿فَنفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا﴾ [الأنبياء: الآية ٩١].

يعني: فكانت صورة عيسى - عليه السلام -.

وقال في خلق آدم - عليه الصلاة والسلام -: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾ [الحجر: الآية ٢٩].

يعني: وإن كانت «الواو» لا تقتضي الترتيب، لكنه يحتمل أن تسوية الصورة مقدّمة على نفخ الروح، والذي عندي أنهما متلازمان، بحيث لا ينفك أحدهما عن الآخر. وإن ورد في الصحيح، في ذكر أطوار الخلقة الإنسانية: نطفة، ثم علقة، ثم مضغة، ثم ينفخ فيه الروح. فيحتمل أن يكون المراد بنفخ الروح هنا ظهور آثار الروح، وهو الحسّ والحركة والتغذي، فعند ابتداء صورة الإنسان تكون روحها روحًا جمادية، بمعنى أنها لا تفعل إلا فعل روح الجماد. وهو إمساك أجزاء الصورة وجواهرها بعضها على بعض، ولا يظهر عنها فعل غير هذا وعندما تصير الصورة تنمو

(١) النَّجْر: قال في لسان العرب: النَّجْر والشَّجْر والشُّجَار: الأصل والحسب، الشُّجْر: اللون. والنَّجْر: الطبع والأصل، وشكل الإنسان وهيئته (لسان العرب لابن منظور مادة نجر).

وتتغذى تكون روحها روحاً نباتية، بمعنى أنها تفعل ما تفعل روح النبات، وهو النمو والتغذي لا غير. وعندما يظهر في الصورة الإحساس والحركة تكون روحها روحاً حيوانية، بمعنى أنها تفعل فعل روح الحيوان وهو الحس والحركة والتخيل. وعندما تظهر منها الآثار التي لا تظهر إلا من الإنسان، وهي الفكر والتدبير ونحوهما؛ فهي إنسانية تختلف أسماؤها باختلاف ما يظهر عنها من الآثار، زيادة ونقصاناً، وهي واحدة لا تتعدد في ذاتها، ولكن في صفاتها. ولا تتجزأ ولكن تكون آثارها وتظهر بحسب استعداد الصورة لظهور آثار الروح عتها، فصورة بغير روح لا تكون، وروح بغير صورة لا تكون، إما عنصرية أو طبيعية أو خيالية أو روحانية؛ كما يقول الحكيم في الصور الجسمانية: إنها مركبة من جوهر الهولي وجوهر الصورة، وكلاهما لا يوجد بدون الآخر. فالصورة الجسمية مركبة منها. والروح لا تدرك نفسها في غير صورة أبداً، لا دنيا ولا برزخاً ولا أخرى، ولو لم يكن لها مركب تدبره لالتحقت بالعدم؛ فنفس إرادة الحق - تعالى - من الطبيعة التي هي ظاهر الأمر الرباني، نفس إرادته تعالى من الأمر الكلّ روحاً يختص تدبيرها بتلك الصورة، في عالم الأجسام، ولعالم الأمر أمرٌ واحدٌ يجمعه، قال: ﴿وَالَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ﴾ [هود: الآية ١٢٣].

وقال: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَجِدَةٌ﴾ [الشمس: الآية ٥٠].

كما أن لعالم الأجسام جسماً واحداً يجمعه، هو الجسم الكلّ، وعالم الأمر، حاكم على عالم الجسم ومسلط عليه، والكل تحت تدبير الحق وتسخيره. قال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: الآية ٥٤].

وقال: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾ [يونس: الآية ٣].

وكل فاعل في عالم الخلق إنما يفعل ما ينسب إليه من الأفعال، بأمر عالم الأمر. أعني أمره الخاص به، فإذا فعل الفاعل، أي فاعل كان، من عالم الخلق، فعلاً ما، بأمر أمره الخاص به، المضاف إليه؛ فقد يكون ذلك الفعل صواباً وقد يكون خطأ، وقد يكون طاعة، وقد يكون معصية، فإن الأمر الخاص بالمخلوق الخاص هو متفقد لأمر الحق - تعالى - في ذلك شراً كان أو خيراً، نفعاً كان أو ضرراً، وأما إذا فعل الفاعل فعلاً ما، بأمر الأمر الكلّ، الجامع للأمور كلها؛ فلا يكون إلا صواباً وطاعة، وهذا لا يكون إلا لنبي أو وارث. فلهذا قال العبد الصالح الخضر قاطعاً لا اعتراض الكليم - عليهما السلام -:

﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾ [الكهف: الآية ٨٢].



بمعنى ما فعلته فعلاً ناشئاً عن أمري الخاص بي، المضاف إليّ؛ بل فعلته فعلاً ناشئاً عن الأمر الكلّ، الذي لا يأمر بالفحشاء، ومراده بقوله: «مَا فَعَلْتُهُ» الأفعال الثلاثة: خرق السفينة، وقتل الغلام، وإقامة الجدار، إلّا الفعل الأخير فقط. ولما كان الكلّيم - عليه الصلاة والسلام - على علم، وهو أنّ من كان فعله بأمر الأمر الكلّ، لا يكون إلّا صواباً وطاعة، وسلم واستسلم.

ولما كتبت هذا الموقف؛ رأيت أنني أوتيت بكتاب، وقيل لي: هذا كتاب الشيخ محيي الدين بن العربي - رضي الله عنه - الذي ألفه في الروح، فتصفحته، والحمد لله ربّ العالمين.

\* \* \*

### الموقف الثلاثون بعد المائتين

قال تعالى: ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾

[طه: الآية ١١١].

وجوه الحق - تعالى - هي أسماؤه ونسبه، سمّيت نسبةً من حيث أنها لا موجودة ولا معدومة، وسمّيت أسماءً لأنها تدلّ عليه دلالة الأسماء على مسمياتها، وإن كان لا يخلو اسم منها عن رائحة الوصفية؛ لأنه - تعالى - إنما يذكر بها على وجه الثناء. والثناء لا يكون بالاسم المجرد عن الوصفية. وسمّيت وجوهها من حيث أن ظهور الحق - تعالى -، لمن ظهر له لا يكون إلّا بها. ولذا سمّي العضو الذي هو أوّل ما يظهر من الإنسان لمقابله وجهها، لأنه يظهر به أولاً. ووجوه الحق - تعالى - أعني أسماؤه، لا نهاية لها، ولا يحاط بها بنصّ قول السيّد الكامل - عليه السلام -: «أسألك بكل اسم هو لك سمّيت به نفسك».

يعني لنا: وإلّا فأسماؤه - تعالى - قديمة بالنسبة إليك: «أو أنزلته في كتابك، أو علّمته أحدًا من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك».

ويقوله في حديث الشفاعة، كما هو في صحيح البخاري: «فأحمده بمحامد يعلمنيها لا تحضرني الآن».

والحمد لا يكون إلّا بالثناء بالوصف الجميل ويقوله: «لا أحصي ثناء عليك كما أثّنت أنت على نفسك».

رواه البخاري، ويقوله: لا أحصي ثناء عليك، لا أبلغ كل ما فيك، فليس عند العالم من الأسماء إلّا ما تطلب العالم ويطلبها. وما عدا ذلك، فاختصاص لبعض

الخواص، ومع كون وجوه الحق - تعالى - لا نهاية لها؛ فهي ترجع إلى أصول سبعة، وهي: أئمة، وأنهار وكليات، وأصول لجميع الوجوه، وهي: القادر، والمريد، والعالم، والمتكلم، والسميع، والبصير، والحي، عند المتكلمين، والحي، العالم المريد القائل القادر الجواد، المقسط، عند الطائفة العلية. وإمام هذه السبعة هو الوجه الحي، فهو إمام الأئمة بإشارة هذه الآية الكريمة، فله عنت الوجوه وخضعت، لأنه الشرط في التسمي بكل واحد منها، والشرط مقدم على المشروط رتبة وطبيعة. قاسم الحي منبع الكمال الذي يستوعب كل كمال يليق به، بحسب ما اقتضته ذاته ومرتبته؛ فهو عين الكمال المشعر بجملته، الشامل لجميع الوجوه من حيث ما تضمن من الكمالات؛ إذ معنى الحي في حقه - تعالى - هو اقتضاء الوجود للفعل والإدراك، فجميع الوجوه داخله تحت هذا. وأخص الوجوه وأشدّها لزوماً للوجه الحي الوجه القيوم، ولم يرد في القرآن، وأكثر السنة ذكره إلا مقروناً به. حتى قال بعض سادات الطائفة: الحي القيوم اسم واحد مركب تركيب مزجي كعبلك، ونحوه. كما قال بعضهم ذلك في الواحد الأحد، والرحمن الرحيم. ومعنى القيوم القائم بنفسه، المقوم لغيره، فهو قريب من الوجه الحي، فإنه - تعالى - حي لذاته. وحياء كل شيء إنما هي من حياته، ويلى الوجه الحي، من هذه الوجوه، التي هي أئمة وأصول الوجه العليم. حتى جعله بعض القوم إمام الأئمة، وقدمه على الوجه الحي، نظراً إلى عموم تعلّقه بأقسام الحكم العقلي كلها. وإشارة هذه الآية ترد هذا القول، وتقرع صاحبه، وقد خاب من حمل ظلمًا، أي أخطأ صوب الصواب من آخر الوجه الذي عنت الوجوه له، وهو الحي القيوم، وقدم غيره من الوجوه، فإن الظلم وضع الشيء في غير موضعه اللائق به الذي يستحقّه.

\* \* \*

### الموقف الواحد والثلاثون بعد المائتين

قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: الآية ٢٦٤] الظالمين.

وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: الآية ٦].

وقال: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ [الأنعام: الآية ٥٣].

وقال: ﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ [هود: الآية ٣].

وقال: ﴿وَمَا آتَىٰ يَدِي أَلْعَمَىٰ عَنْ ضَلَّاتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [الشم: الآية ٨١].

وقال: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ الْفَوَىٰ﴾ [الفتح: الآية ٢٦].

وكانوا أحقّ بها وأهلها في هذه الآيات ونحوها، إشارات إلى ما يقوله القوم - رضي الله عنهم - من الاستعداد الثابت للمكناات، حال عدمها؛ فهي لا تجري إلا إليه، ولا تمشي إلا عليه، بعد إيجادها العيني.

قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [البقرة: الآية ٦] الخ الآية.

أي الذين كفروا باستعدادهم لا يمكن إيمانهم بعد إيجادهم. بمعنى أن المرجح - تعالى - لا يرجح. ولا يريد إلا كفرهم، لما علمه منهم. ووقوع خلاف المعلوم محال. ولا يخرجهم استعدادهم عن إمكان إيمانهم بالنظر إلى حقيقة الممكن، فإنه ما يصح وجوده وعدمه، ولكن إيمانهم غير ممكن.

بالنظر إلى جهة أخرى، لا يقال: إنما امتنع إيمانهم، لما خطه القلم الأعلى في اللوح المحفوظ؛ لأننا نقول: ومن أي حضرة استمد القلم ما كتب في اللوح؟! فمرادنا بحضرة الاستعداد الحضرة التي استمد القلم منها ما كتب، وهي حضرة العلم بالمعلومات واستعداداتها، وأحوالها التي تكون عليها إذا وجدت.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة: الآية ٥١].

ليس المراد أنه لا يحب هدايتهم ولا يرضاهما، بل لا يرضى لعباده الكفر. ولكنه لما علم استعدادهم وما سيكونون عليه من عدم قبولهم للهداية، أراد بهم ما علمه منهم، لم يخلق لهم الهداية.

وقوله: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ [الأنعام: الآية ٥٣]. جواب للكفار.

القائلين: ﴿أَهْتَدُوا مِنْ اللَّهِ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيِّنَاتٍ﴾ [الأنعام: الآية ٥٣].

فما علل اختصاص هؤلاء الضعفة بالإيمان إلا بكونه - تعالى - تعلق علمه القديم بأنهم من الشاكرين، يريد أنه علمهم على هذا فأعطاهم إياه، وأوجده لهم لاستحقاقهم إياه، واستعدادهم.

وقوله: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ الْفَوَىٰ﴾ [الفتح: الآية ٢٦].

وكانوا أحقّ بها وأهلها، ولا أحقيّة ولا أهليّة قبل الإسلام، وإنما أحقيّتهم وأهليّتهم كانت باستعدادهم الذي منه يستمدّون، وعليه يعتمدون.

وقوله: ﴿وَوُوتَ كُلُّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ [هود: الآية ٢٣].

أي يعطي - تعالى - كل صاحب فضل فضله، بمعنى يوجد له. أخير تعالى أن الفضل ثابت لصاحب الفضل، قبل إعطائه - تعالى - له. ثم هو - تعالى - يعطيه له، أي يوجد. فللممكن الاستعداد، وللحق - تعالى - الإيجاد.

وقوله: ﴿وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعَمَىٰ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا﴾

[النمل: الآية ٨١].

يعني: لا يبصر ولا يسمع دعاك، ويهتدي بهدائك إلا من كان له استعداد أزلي أنه يؤمن بآياتنا، عند إيجاده وإرسال الرسل إليه. واعلم أن كل ما تقوله الطائفة العليّة - رضي الله عنها - له دليل من الكتاب والسنة، عرفه من عرفه، وجهله من جهله؛ لأن طريقتهم مؤسّسة على الكتاب والسنة. غير أن من علومهم أمورًا وجدانيات، لا يمكن أن يقام عليها دليل، ولا تحدّ بحدّ، وأن الوجدانيات المحسوسة، لا تحدّ، فكيف بهذه؟! على أن كلامهم في العلوم الخاصّة بهم إنما يكون مع أبناء جنسهم، وأهل جلدتهم، المؤمنين بهم وبكلامهم؛ فلا يطالبونهم بدليل. وعدم الدليل لا يوجب عدم المدلول. فقد اتفق أهل النظر على أن عدم الدليل لا يوجب عدم المدلول؛ إذ العالم عندهم دليل على وجود موجدته تعالى، وأنصافه بالصفات الأربعة، التي لا يمكن لفاعل أن يفعل إلا بعد الاتصاف بها. وقد كان تعالى ولا عالم. وذلك أن القوم - رضوان الله عليهم - لما استقامت ظواهرهم وبواطنهم على الطاعات، واتباع السنة قولاً وعملاً وحالاً قوي نور إيمانهم، فتشوّروا (أي بحثوا) قاموس القرآن والسنة؛ إذ ذلك بستانهم الذي فيه يتنزّهون، وفي أرجائه يتردّدون، ظهرت لهم منها أشياء كانت مندمجة مستورة عن العموم، وما هي بخارجة عن الأصل الذي هو الكتاب والسنة، ولا زائدة عليه، حتى يقال: الحقيقة غير الشريعة، كلاً وحاشا، وإنما ظهرت أسرار الكتاب والسنة وإشارتهما ظهور السمن من اللبن، عندما خضّ وحرك، فهل يقال: السمن ليس من اللبن؟! وإنما كان السمن باطناً في اللبن فظهر منه عندما خضّ، بصورة غير الصورة المعروفة من اللبن، وهو هو. فاقبل يا أخي ما جاءك من كلام أهل الله - تعالى - (أعني الصادقين) كلام كل ناعق. فما فهمته على وجهه فتلك الغنيمة الباردة، وما اعتاص عنك فهمه فكله إلى أهله، كما تفعل في متشابه الكتاب

والسنة مع التصديق به، إلى أن يأتي الله بالفتح، أو أمر من عنده، بدلالتك على من يفك لك معناه، وينصح لك عن معناه.

ولقد رأيت في الرؤيا رجلاً تعلق بي وقال: شممت منك رائحة حيي ليلاً، فقلت له: ما أنا منهم، ولكني من المؤمنين بوجودهم، المصدقين بكلامهم. فقال لي: كيف السبيل إليه؟ فقلت له: إذا أردك خلق فيك الطالبية، وفي مطلوبك المطلوبة، كاني أردت بهذا أن الحق - تعالى -، يخلق في المطلوب الذي هو الشيخ، بهمة المرید وقوة صدقه؛ ما يطلبه المرید منه. وما تذكرت هذه الرؤيا إلا سبقتني دموعي. فإياك يا أخي أن يصدك صادقاً أو يعارضك معارض عن محبة هذه الطائفة العلية، والتصديق لكلامهم؛ فإن محبتهم عنوان السعادة والإعراض عنهم عنوان الشقوة.

\* \* \*

### الموقف الثاني والثلاثون بعد المائتين

قال تعالى: ﴿سَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُمْ﴾ [المائدة: الآية ٥٤].

هذه محبة مخصوصة منه - تعالى - لهؤلاء القوم، كما أن محبتهم له - تعالى - مخصوصة، ولمحبته لهم ومحبتهم له آثار مخصوصة، وثمرات منصوصة، وإلا فالحق - تعالى - يحب جميع مخلوقاته، كما أن جميع مخلوقاته يحبونه. وذلك أن الميل والحركة، معنوية أو محسوسة في كل متحرك لا تكون إلا لمحجوب. فهو - تعالى - ما مال إلى إيجاد شيء، وتحرك الحركة الإرادية المعنوية إلا محبة في ذلك الشيء؛ كما أن كل مخلوق يحب المحسن إليه، ولا محسن إلا هو - تعالى - فهو يحب الله تعالى، وإن لم يشعر، ويسمى محباً لله في نفس الأمر. وأما بغضه تعالى لبعض الخصوص؛ كقوله:

﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ [البقرة: الآية ٢٧٦]، ﴿لَا يُحِبُّ الْكٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: الآية ٣٢]، ﴿لَا يُحِبُّ الْمُنٰفِقِينَ﴾ [البقرة: الآية ١٩٠]، ﴿لَا يُحِبُّ الْمُنٰفِقِينَ﴾ [الأنعام: الآية ١٤١].

فذلك بغض مخصوص، لأهل صفات مخصوصة؛ فهو في مقابلة محبته - تعالى - لأهل صفات مخصوصة؛ كقوله:

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: الآية ٢٢٢]، ﴿يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: الآية ١٩٥]، ﴿يُحِبُّ الصَّادِقِينَ﴾ [آل عمران: الآية ١٤٦].

ونحو ذلك، فهذه محبة مخصوصة منه تعالى لهم، جزاء محبته منهم له تعالى مخصوصة؛ فإنه تعالى جعل الأمر تارة منه إلينا، وتارة منا إليه؛ كما قال: ﴿شُرَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا﴾ [التوبة: الآية ١١٨].

وقال: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: الآية ٥٤].

وقال فيما منا إليه: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِكُمْ أَوْفٍ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة: الآية ٤٠].

وقال: ﴿إِنْ تَصْرُوا لِلَّهِ يُصْرِكُمْ﴾ [محمد: الآية ٧].

فتارة تكون البداية منه والجزء منا، وتارة تكون البداية منا والجزء منه. ولكل من المحبتين ثمرة، أعني محبة الخواص له، ومحبته للخواص. فثمرة محبتهم له القيام بمطالبه - تعالى - سواء كان الطلب جازماً أو غير جازم، والكف عن نواهيه سواء كان طلب الكف طلباً جازماً أو غير جازم، وثمره محبته - تعالى - لهم أن يكشف لهم عنهم، فلا يجدون غير ولا سوى لهم؛ كما ورد في الخبر: «إِذَا أَحْبَبْتَهُ كَتَبَهُ»، وفي رواية: «كنت سمعه وجميع قواه»<sup>(١)</sup>، الحديث.

دنا فتدلى رب عبد وعبده فلما التقينا لم يكن غير واحد  
وحينئذ تتضاعف محبتهم وتزايد تقرباتهم:

وأبرح ما يكون الشوق يوماً إذا دنت الديار من الديار

قال إمام المحبين وسيد المحبوبين: «وَجُعِلَتْ قَرَّةَ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ».

\* \* \*

### الموقف الثالث والثلاثون بعد المائتين

قال تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى:

الآية ٣٠].

ورود في الخبر: «أشد الناس بلاة الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل، يبلى الرجل على حسب دينه؛ فإن كان في دينه صلابة اشتد بلاؤه. وإن كان في دينه رقة ابتلى على قدر دينه. فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على وجه الأرض، وما عليه خطيئة».

(١) هذا الحديث سبق تخريجه.



أخرجه الإمام أحمد في المسند له، والترمذي، وابن ماجه. وورد في خبر آخر: «أشدُّ الناس في الدنيا بلاة نبيٍّ أو صفيٍّ».

رواه البخاري في التاريخ، وورد في خبر آخر: «أشدُّ الناس بلاة الأنبياء، ثم الصالحون، لقد كان أحدهم يبتلى بالقمل حتى يقتله؛ ولأحدهم كان أشدَّ فرحًا بالبلاء من أحدكم بالعطاء».

رواه الحاكم في المستدرک والترمذي والنسائي هذا في الغالب:

وإلا فقد ورد في بعض الأخبار: «إنَّ الله عبادًا يحييهم في عافية، ويميتهم في عافية، ويبعثهم في عافية، ويحشرهم في عافية ويدخلهم الجنة في عافية».

ذهب عتي مخرجه<sup>(١)</sup>.

واعلم أنه لا إشكال ولا تعارض فيما بين الآية والأحاديث؛ فإن الآية واردة في مسمى المصيبة حقيقة، وهي التي لا تكفر بها خطيئة، ولا ترفع بها درجة، والأحاديث واردة في مسمى المصيبة مجازًا، بحسب الظاهر، وهو المسمى ابتلاء واختبارًا وتمحيصًا. وبهذه الأسماء ورد في الكتاب والسنة، بكثرة. وجاء بلفظ المصيبة قليلاً مجازًا فلماذا نقول: ما يحلُّ بالإنسان من الآلام التي لا توافق الطبع ثلاثة أنواع: مصيبة، وهو ما يصحبه التسخُّط والاعتراض، وهو خاص بالكفَّار وبعض ضعفه الإيمان. وابتلاء تمحيص واختبار، وهو الذي يصحبه الصبر وعدم التسخُّط، وهو لأهل الإيمان الكامل. ورفع درجات، وهو ما يصحبه الرضى ويحصل به الترقى في درجات القرب، وهو خاص بخاصته الخاصة من الأنبياء، والكمثل من ورثتهم؛ فليس للأنبياء وورثتهم كسب، يوجب أن يكون ما يحلُّ بهم مصيبة وما يكتسبه الإنسان؛ إمَّا كفر أو معاصي كفار وإمَّا معاصي أهل قطيعة ممَّن ينسب إلى الإيمان، وإمَّا معاصي لا يخلو أهل الإيمان منها غالبًا، وإمَّا معاصي صورة لا حقيقة، وهو ما سناه الله - تعالى - معصية في حق الأنبياء، وسمَّوه هم كذلك أدبًا، لكمال معرفتهم بالله - تعالى -، وعلو مرتبتهم على من سواهم - عليهم الصلاة والسلام - ولو صدر من غيرهم ما جرى عليه اسم المعصية شرعًا، ولا خاف فاعله عقوبة عليه أصلًا، كمعاصيهم التي خافوها يوم القيامة، وذكروها في ذلك الموقف الهائل، مثل الأكل من

(١) أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد (٢/٢٩٠) طبعة القدسي، والمتقي الهندي في كنز العمال، حديث رقم (١١٢٤٧).

الشجرة ناسياً. والناسي لا يدخل تحت حد المعاصي، فإنه الفاعل التارك بقصد المخالفة وقد قال تعالى:

﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ﴾ [طه: الآية ١٢١].

ومثل كذبات الخليل - عليه الصلاة والسلام - الثلاث، وهي قوله لسارة إنها أختي، وقوله: بل فعله كبيرهم هذا، وقوله: إني سقيم. وهذه معاريض فيها مندوحة عن الكذب. ومثل دعوة نوح - عليه الصلاة والسلام - على قومه، عندما يئس في إيمانهم وسؤاله ربه ما ليس له به علم. وهو قوله:

﴿رَبِّ إِنِّي مِنْ أَهْلِ﴾ [نوح: الآية ٤٥].

ومثل قتل الكليم - عليه السلام - القبطي الكافر ونحو هذا مما خافوه وبكوا منه. ولو صدر منهم غير هذا لذكروه في ذلك اليوم، الذي تبلى فيه السرائر، فما يحل بالكفار، وضعفة الإيمان فهو مصيبة. وما يصيب خاصة المؤمنين فهو تكفير سيئات، كما ورد في الأخبار الصحيحة، وما يصيب خاصة الأنبياء والصالحين الأمثل فالأمثل، فهو ترقى درجات ونعيم خفيات، وقد أمر الله - تعالى - رسوله الأكرم محمداً - ﷺ - أن يقول للكفار:

﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾ [التوبة: الآية ٥١].

أي: «لا علينا» لحسن عاقبته وعظيم فائدته، وفي ضمنه: لن يصيبكم إلا ما كتب الله عليكم «لا لكم» لشؤم عاقبته كشؤم بدايته، وسوء باطنه كظاهره؛ فما يحل بالأنبياء والأمثل فالأمثل ظاهره محنة وباطنه منحة، وهو - تعالى - قادر أن يرفعهم درجات الكمال من غير ابتلاء. ولكن حكمته اقتضت هذا. فلا يُسأل عما يفعل، فانظر يا أخي ما أوضح الحقائق، وما أجلاها، وما أبردها على القلوب المنورة، وما أحلاها؟!.

\*\*\*

### الموقف الرابع والثلاثون بعد المائتين

قال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القدر: الآية ٤٩].

قراءة أبي السماك برفع «كُلُّ» أي كل شيء خلقناه بتقديرنا له وتصورنا إياه في علمنا هو نحن؛ لأن التصور ليس بزائد على المتصور، فوجوده وجوده، ولا وجود للمقدر المتصور اسم مفعول، غير وجود المتصور اسم فاعل.

رأيت كأنني دخلت مسجدًا للصلاة فيه فكلمني إنسان وجاوزني فتبعته وقلت له :  
 إنك كَلَمْتَنِي فماذا قلت لك؟! أتقول الوجود غير الموجود؟ فقلت: الوجود عند  
 الطائفة العلية حقيقة واحدة ذات لا صفة، لا تنجزًا ولا تنبعض ولا تتعدّد، وتعدّد  
 الموجودات لا يؤثر فيه تعداد لأنها نسبة وإضافاته وأسماءه. وليس هو الحصول ولا  
 الثبوت ولا التحقيق كما هو عند المتكلمين. والغيران عند المتكلمين، أمران  
 وجوديان، بمعنى أن كل واحد من الغيرين له وجود مستقلّ بنفسه. وعند الطائفة  
 العلية: الغيرية لفظية مجازية، لا حقيقة لها، ولا وجود إلّا في اللفظ. والموجود اسم  
 مفعول هو الذي وقع عليه الوجود، فلا يجوز إطلاق لفظة موجود على الحق - تعالى -  
 إلّا لضرورة تعليم ونحوه؛ وإذ قلنا الوجود ذات لا يقبل التعدّد. فقولنا في المحدث  
 موجود معناه له نسبة إلى الوجود، أو إضافة أو نحو ذلك؛ فالموجودات ما استفادت  
 الوجود من الوجود الحق - تعالى -، وإنما استفادت المظهرية للوجود الحق، بمعنى  
 أنها محال لظهوره، وهو الظاهر بأحوالها ونعوتها؛ فوحدة الموجودات حقيقة لوحدة  
 العين، وهو الوجود الذات الحق. وتعددها مجاز لأنها ما تعددت إلا بتعينات،  
 وتميّزت بتمييزات ونسب عدميات، فهو الظاهر، وهو الصور، بحسب ما يعطيه  
 استعداد كل عين ممكنة، فيظهر بذلك الاستعداد. ولما ظهر الوجود الحق منوعًا  
 بنعوت المحدثات الممكنات احتجب عن البصائر والأبصار، فظنّ الظّائنون وتوهم  
 المتوهمون أن الوجود الذي ظهرت به هذه الصور في المدارك البشرية، وقامت به  
 هذه النعوت والصفات هو وجود حادث خلقه الله - تعالى - للممكنات، وهو وهم  
 باطل؛ لأنه لو كان، فإنما أن يكون جوهرًا أو عرضًا، ولا جائز أن يكون جوهرًا أو  
 عرضًا، ولا جائز أن يكون جوهرًا ولا عرضًا. وقد تقدم برهان ذلك في أثناء هذه  
 المواقف، فالموجودات كلها ليست إلّا تجريدات، جرّدها الوجود الحق في نفسه من  
 نفسه لنفسه، فالوجود المنسوب إليها وجوده، وليس الوجود بصفة للموجود كالبياض  
 والسواد مثلاً فيكون غيرًا زائدًا، كما أن العدم ليس هو بشيء زائد على المعدوم،  
 فيكون غيرًا، وإنما هو نسبة وإضافة لهما، ولم نتعرض لمذاهب المتكلمين والفلاسفة  
 في غيرية الوجود وزيادته أو عدمها؛ لأنهم وإن اختلفوا في عينيته وغيريته فهم متفقون  
 على أن الموجودات موجودة في نفس الأمر؛ كما هي في المدارك البشرية. إمّا بوجود  
 حادث عند المتكلمين، وإمّا بالوجوب القديم عند بعض الفلاسفة، وليس هذا بمذهب  
 الطائفة العلية؛ فإن الموجودات عندهم لا وجود لها إلّا في المدارك، لا في نفس  
 الأمر، وإنما الوجود له - تعالى - والموجودات نسبة واعتباراته وتعيناته وظهوراته،

وكلها أمور عدمية ظهرت في المدارك البشرية للحجاب الذي وصفت به، وهو الجهل. والوجود الذي نسبت إليه الموجودات وجود خيالي، فليس هو عند التحقق عينها ولا غيرها؛ كما أنه ليس عين الحق - تعالى - ولا غيره، فليس الوجود الحقيقي إلا له - تعالى - . والعالم كله أعلاه وأسفله له الوجود الخيالي المجازي .

\* \* \*

### الموقف الخامس والثلاثون بعد المائتين

قال تعالى: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٨﴾ يَبْتَغِيَانِ بَرْزَخًا ﴿١٩﴾ لَا يَبْتَغِيَانِ ﴿٢٠﴾﴾ [الرحمن:

الآيات ١٩، ٢٠].

كلُّ شيتين متقابلين فلا بد أن يكون بينهما حاجز معقول يفصل بينهما، بحيث لا يختلط أحدهما بالآخر، يسمى برزخًا، لا يكون عينها ولا غيرها، وفيه قوتها معًا بمعنى أنه لا يكون عين كل واحد من المتقابلين من كلتي وجهتيه، بل له وجه إلى هذا ووجه إلى هذا، مع أنه لا يتجزأ ولا يتبعص، ولا يتقسم، يكون بين محسوسين، كالخط المعقول الفاصل بين الظل والشمس، وقد يكون بين معقول ومحسوس، وقد يكون بين موجود ومعدوم، وبرزخ البرازخ كلها وأجمعها الحقيقة المحمدية. ولها أسماء متعددة باعتبارات وتنزلات وظهورات وهي لا غيرها. وهذه الحقيقة البرزخية هي أحد الأشياء الثلاثة التي يتعلق العلم بها، وما عدا هذه الثلاثة فعدم محض لا يعلم ولا يُجهل ولا تُوصف بوجود ولا عدم في حد ذاتها، ولا بحدوث ولا قديم، ولا بتقدم على العالم ولا بتأخر عنه، وهي حقيقة جميع الموجودات، وهي في القديم قديمة، وفي الحادث حادثة؛ كالحقائق الكلية المعقولة، مثل العالمية والقادرية والإرادية ونحوها؛ فليس هي الحق - تعالى - بوجه، كل هذا تصدق فيه إذا حكمت به، فهي البرزخ بين الوجود المطلق والعدم المطلق، ومرتبة الإنسان الكامل برزخ بين مرتبة الألوهية والمخلوقات، فهو برزخ بين معقول ومحسوس. والبرزخ من حيث هو لا موجود ولا معدوم، ولا مجهول ولا منفي، ولا مثبت كالصور المدركة في المرايا وفي كل جسم صقيل، فإنك تعلم أنك أدركت شيئًا بوجه، وتعلم أنك ما أدركت شيئًا بوجه، فأنت صادق إن قلت أدركت، أو قلت ما أدركت، والصورة ما حلّت في المرايا وفي غيرها من الأجسام الصقيلة، ولا هي بينك وبين المرايا، وليست تلك الرؤيا بانعكاس صور المرئي إلى العين، وإنما الحق - تعالى - أجرى العادة بخلق رؤية الصور البرزخية الخيالية، عند مقابلة الصور الجسمانية للأشياء

الصقيلة؛ كالمراة ونحوها من الأجسام الصقيلة، وليس البرزخ غير الخيال، فهو هو عينه، وله أربع مرات، وحقيقة البرزخية الخيالية في الجميع واحدة.

الأولى: البرزخ المسمى بالخيال المنفصل، وبالعماء وبالحق المخلوق به كل شيء، وهو البرزخ بين المعاني التي لا أعيان لها في الوجود؛ كالعلم والثبات ونحوها وبين الأجسام النورية والطبيعية، وفيه تظهر الصور المرئية في الأجسام الصقيلة مثل المرايا ونحوها. وشأن هذا البرزخ الخيالي العمائي تكثيف اللطيف المطلق وهو الحق - تعالى -، فإنه من هذا البرزخ الخيالي ظهر موصوفاً بصفات المحدثات منعوتاً بنعوتها؛ كما ورد في الكتب الإلهية وسنن الأنبياء من المتشابهات وتلطيف الكثيف المطلق، ومنه أتصف الممكن المحدث بالصفات الإلهية كالحياة والعلم والقدرة ونحوها، فالبرزخ العمائي هو الخيال، والصور المرئية فيه هي المتخيلات، وفي هذه المتخيلات ما يرى بعين الحس ومنه ما يرى بعين الخيال، كرؤية تحوّل الحرياء في الألوان التي تمرّ عليها، فهذه رؤية بعين الخيال لا بعين الحس، وذلك أن العين الباصرة لها الإدراك بعين الحس وبعين الخيال، فإن رسول الله - ﷺ - كان يرى جبريل في صورة دحية الكلبي بعين الحس، فيعرف أنه جبريل، وأنه روح متجسدة، ويراها غيره بعين الحس فلا يعرف أنه جبريل، ولا يشك أنه دحية الكلبي نفسه، وأهل الشهود أرباب التخيلات يشهدون العالم متحوّلاً متبدلاً متنقلاً في كل لحظة، لأنهم يشهدونه بعين الخيال. وبهذه العين يدركون جميع التخيلات الحاصلة لهم في الدنيا والآخرة، وأهل الحجاب يشهدون العالم ثابتاً على حالة واحدة لأنهم يشهدونه بعين الحس؛ لأن موطن الدنيا موطن النظر بعين الحس، وإنما خضع الحق - تعالى - بعض الخواص بالنظر بعين الخيال في الدنيا أحياناً لأنهم تجاوزوا موطن الدنيا حكماً ووصلوا إلى البرزخ، الذي هو موطن النظر بعين الخيال، وصور جميع الجسمانيات هي في هذا البرزخ الخيالي صور روحانية خيالية على وجه لطيف، لا يمتنع فيه التداخل ولا التزاحم ولا إيراد الكبير على الصغير، بل ولا الجمع بين الضدين، ولا وجود شخص واحد في مكانين، وفيه رأى - ﷺ - موسى - عليه السلام - قائماً يصلي في قبره، ورآه في السماء السادسة كما في الصحيح، ولا يقال لشيء إنه مستحيل وجوده في هذه الحضرة أبداً، ففيه تتجسد المعاني، كتصوّر الموت في صورة كبش وفيه توزن الأعمال، وفيه تجادل سور القرآن عن صاحبها؛ كما جاء في الأخبار الصحيحة وفيه تتروحن الأجسام الكثيفة؛ كما ورد في حديث الإسراء الذي أنكره كثير من الفلاسفة المتعلقة.

الثانية: البرزخ المسمى بالخيال المتصل والخيال المقيد، ويسمى بأرض السمسة وأرض الحقيقة، وهو البرزخ الخيالي تظهر فيه الصور الجسمانية الكثيفة التي تقبل التجزؤ والتبعيض والخرق والالتئام، وهي المركبة من العناصر صورًا مركبة لطيفة، لا تقبل التجزؤ ولا الخرق ولا التبعيض، ولا يمتنع فيها إيراد الكبير على الصغير ولا تصوّر المحال، ومنه ورد: «اعبد الله كأنك تراه».

ومن شأن هذه المرتبة تلطيف الكثيف المقيد؛ لأن المحسوسات الكثيفة تظهر فيها بصور لطيفة روحانية كما قدمنا، وتكثيف اللطيف المقيد، ومنشأ هذه المرتبة البرزخية الخيالية مقدم الدماغ، وهي التي تمسك صور المحسوسات عند غيبوبتها كما يرى الإنسان مثلاً مدينة ثم يغيب عنها، فإذا تذكرها رآها كما كان رآها، فيظن أنه رآها في موضعها في غير هذه المرتبة الخيالية، وهو ما رآها إلا في هذه المرتبة البرزخية الخيالية الدماغية، والفرق بين البرزخ المسمى بالخيال المتصل والبرزخ المسمى بالخيال المتصل هو أن المتصل يذهب بذهاب المتخيّل (اسم فاعل) كما هو في أنواع السحر والسيما ونحوهما؛ كما قال تعالى:

﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى﴾ [طه: الآية ٦٦].

وهي لا تسعى في الحقيقة وإنما تسعى في خيال المسحور بسبب السحر لا غير، والخيال المتصل لا يذهب بذهاب المتخيّل له، فإنه حضرة ذاتية قابلة لتجسد المعاني والأرواح دائماً.

الثالثة: البرزخ الخيالي النومي، وهو البرزخ بين الموت والحياة، فإن النائم لا حي ولا ميت بل له وجه إلى الموت ووجه إلى الحياة، وفي هذه المرتبة يرى الإنسان ربه متصوّرًا بصور المحدثات، ومنه ما ورد في الخبر عنه - ﷺ -: «رأيت ربي في صورة شاب أمرد له وفرة وفي رجله نعلان، وعلى وجهه قرأش من ذهب»<sup>(١)</sup>.

فهو من صور البرزخ المسمى بالخيال المقيد، ويرى الإنسان نفسه في مكان غير المكان الذي هو فيه، فهو في مكانين وهو لا غيره وأمثال هذا من المحالات المنامية، والكل صحيح.

الرابعة: البرزخ الخيالي الذي تنتقل إليه أرواحنا بعد الموت الطبيعي، وهو المسمى بالصور في قوله: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ [المؤمنون: الآية ١٠١].

(١) أورده العجلوني في كشف الخفاء، حديث رقم (١٤٠٧) طبعة دار الكتب العلمية - بيروت.



وبالناقور في قوله: ﴿فَإِذَا نُفِرَ فِي النَّاقُورِ﴾ [المذثر: الآية ٨].

فإنه مثل المراتب المتقدمة في كون صورته خيالية، وكل ما ندركه في البرزخ من نعيم لأهله وعذاب لأهله؛ فإنما يدركونه بإدراكات هذه الصور البرزخية الخيالية؛ كما قال تعالى:

﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر: الآية ٤٦].

\*\*\*

### الموقف السادس والثلاثون بعد المائتين

قال تعالى: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا ءَابَاؤُنَا وَلَا حَرَمًا مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: الآية ١٤٨] الآيات.

هذا كلام حق أريد به باطل، أي لو شاء الله عدم إشراكنا ما أشركنا. ولو شاء عدم تحريم شيء مما حرمناه ما فعلنا، فإنه لا يقع منا إلا ما يشاء، وهذا حق. ووجه إرادتهم الباطل بهذا الحق أنهم جعلوا كل ما شاءه الحق بعباده هو مرضي له، محبوب لديه، وهذا باطل، فإن الحق - تعالى - يشاء بعباده ما علمه منهم أولاً، والذي علمه منهم أولاً؛ هو ما تقتضيه حقائقهم ويطلبونه باستعدادهم من خير وشر، وتوحيد وكفر، فمشيئته تابعة لعلمه، وعلمه تابع لمعلومه، ومعلومه منه مهتد وضال، وموحد ومشرك، وشقي وسعيد، وصادق وكاذب، فإن مخلوقاته - تعالى - مظاهر أسمائه، وأسمائه منها ما يقتضي الجمال والرحمة وهو حظ أهل السعادة، وأصحاب القبضة اليمنى، ومنها ما يقتضي الجلال والقهر وهو حظ أهل الشقوة أهل القبضة الشؤمي، فمشيئته تعالى لأمر ليست عنواناً على محبته له ورضاه به، فإنه لا يرضى لعباده الكفر، وقد شاء كفر كثيرين منهم، وإنما المشيئة عنوان على أنه سبق علمه أولاً بما يشاؤه أبداً، فلو كان كل ما يشاؤه بعباده خيراً للزم أن يكون إرسال الرسل وتشريع الشرائع عبثاً، فإنها جاءت بالأمر والنهي وبيان قبضة اليمين وقبضة الشمال؛ كما قال تعالى:

﴿فَمِنْهُمْ سَفِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ [هود: الآية ١٠٥].

وهذا الذي حكاه الحق - تعالى - عن المشرعين وأن كل ما يشاؤه الله - تعالى - بعباده فهو خير. عقد ثالث، فإن عقيدة أهل السنة: أنه تعالى يشاء بعباده الخير

والشرّ، وعقيدة المعتزلة: أنه - تعالى - لا يشاء بعباده إلا الخير، ومشية الشرور هي من العباد، لا من الحق - تعالى -، فلو كشف الله - تعالى - لعبد من خواص عبده، عن سابق علمه منه، وعمّا تقتضيه عينه الثابتة لصحّ له، وقبل منه أن يقول فعلت ما فعلت بمشيئة الله وأمره الإرادي، الذي هو أعمّ من المحبوب والمكروه له تعالى؛ لهذا قال:

﴿قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا﴾ [الأنعام: الآية ١٤٨].

أي هل عندكم علم بما تقتضيه استعداداتكم وكشف عن أعيانكم الثابتة فينبوه لنا، وأنكم ما أشركتم وحرّمتم ما حرّمتم وفعلتم ما فعلتم؛ إلا بعد أن كشف الحق - تعالى - لكم عن مشيئته بكم، التابعة لعلمه، وهذا هو العلم المتعلّق بسرّ القدر الذي هو سبب الأسباب وعلة العلل، وحيث لم يكن عقدهم من هذا القبيل؛ فما فعلوا - فعلوا إلا بالظنّ؛ ولهذا قال:

﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾ [الأنعام: الآية ١٤٨].

أي ما أشركتم وحرّمتم ما حرّمتم إلا بالظنّ، والظنّ أكذب الحديث؛ فإنه خطرات نفسانيّة يوحىها الشيطان إلى أوليائه، وحيث كان الأمر كما أخبر الله عنهم فلا حجة لهم بمشيئة الله - تعالى - إشراكهم، وافتراؤهم عليه بتحريم ما حرّموا، بل له تعالى الحجة عليهم؛ ولهذا قال:

﴿قُلْ فَلِلَّهِ الحُجَّةُ البَليغة﴾ [الأنعام: الآية ١٤٩].

عليكم في شرككم وجميع أفعالكم المخالفة لأمره ونهيه - تعالى - فإنه - تعالى - ما شاء بكم إلا ما طلبته أعيانكم الثابتة بالسنة حالها، وهو تعالى الجواد المطلق، فلا يرد سؤال الاستعدادات، وهي الاقتضاءات الأسمائية والوجوه الخاصة التي هي حقائق أول لحقائق المخلوقات، فما حكم عليكم إلا بكم ومنكم. بل أنتم الحاكمون على أنفسكم؛ فإن الحاكم محكوم عليه، أن يحكم في القضية بما تقتضيه ذات القضية.

\*\*\*

### الموقف السابع والثلاثون بعد المائتين

قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ الخَلْقِ غَافِلِينَ﴾ [المؤمنون: الآية ١٧].

أي ما وجدنا غافلين عن شيء خلقناه من عالمي الخلق والأمر، بأن تركنا إمداده بما يكون به بقاؤه، ومدة إرادتنا بقاء صورته، بل نمذّ كل مخلوق بما تبقى به

صورته، وليعلم أن الحق - تعالى - ما خلق صورة من الصور الطبيعية أو العنصرية إلا خلق لها أرواحاً تدبرها مدة إزادته تعالى بقاءها، فإذا أراد - تعالى - انحلال تركيب صورة من صور المخلوقات، قطع عنها الإمداد الذي يكون به بقاءها، فتدعى أركان تلك الصورة إلى الخراب، ويحصل الحادث الأعظم المسمى بالموت، كما في الحيوان. أو تفرق الأجزاء كما في النبات. ولهذا يقول بعض المتكلمين: إن القدرة الإلهية لا تتعلق بالإعدام، وإن الإعدام ما هو إلا قطع المدد الذي يكون به بقاء صورة المخلوق، فذلك إعدامه لا غير، كالسراج مثلاً، فإن صاحبه ما دام يريد بقاءه مشتعلًا يمدّه بالزيت، فإذا أراد انطفائه قطع عنه الزيت فينطفئ السراج بنفسه لا بفعل فاعل. فأما الصور العنصرية، فإن الحق - تعالى - جعل لها أرواحاً كثيرة تدبرها، أعظمها تدبير الأرواح الأربعة المسماة: بالحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة، ومجموعها يسمى بالطبيعة، والروح المسمى بالدافعة، والروح المسمى بالماسكة، والروح المسمى بالغاذية، وغيرها من الأرواح التي تسميها الحكماء بالقوة الجسمانية. وجعل تعالى هذه الأرواح متضادة متباينة الأفعال لحاجة الصورة الجسمانية لذلك، فمتى ضُغف روح عن فعله، وأداء وظيفته، طلب الإمداد من الحق - تعالى - بروح مناسب له ليتقوى به، ويدفع الغلبة عن نفسه، فيهيء له الحق - تعالى - غذاءً أو دواءً، ولهذا جعل الحق - تعالى - الأغذية والأدوية، فليست الأغذية والأدوية إلا أرواحاً تحملها صور جسمانية دوائية أو غذائية إلى الأرواح الأصلية، ليتقوى بها من حصلت عليه غلبته من مقابله. مثلاً إذا ضُغف الروح الدافع عن فعله، وغلبه الروح الماسك؛ طلب الروح الدافع غذاءً مناسباً له، يتقوى به حتى يفعل فعله ويؤدي وظيفته أو دواءً مناسباً له، ولهذا كانت الأدوية المسهلة، وكذا إذا ضُغف الروح الماسك عن فعله، وأداء وظيفته، وغلبه الروح الدافع؛ طلب غذاءً مناسباً له أو دواءً مناسباً، ولهذا كانت الأدوية القابضة. وقس على هذا، وإذا أدت الصورة الغذائية أو الدوائية روحها إلى الروح الذي طلبها، فسدت وخرجت من الجسم، إما بالقيء أو الغائط أو البول أو غير ذلك، فلا تستهي الأرواح وتطلب إلا أرواحاً مناسبة لها. ولا تطلب الصور الجسمانية الدوائية أو الغذائية إلا بالغرض، لكون الأرواح المناسبة لها تصل إليها بواسطة الصور الغذائية أو الدوائية، فسبحان العليم الحكيم، له الخلق، أي خلق الصور والأمر، أي تدبير الخلق بالأمر، وهي الأرواح الأمرية الموجودة لا عن مادة، ولولا التضاد بين أفعال هذه الأرواح الجسمانية ما استقامت صورة الجسم، أي جسم كان من الأجسام العنصرية. ولهذا إذا غلب واحد منها الغلبة الثاقفة، حتى لم يبق

لمقابله أثر فسدت الصورة، كما إذا غلبت الحرارة ولم يبق للبرودة والرطوبة أثر أو العكس. ونحو ذلك من أفعال الأرواح الجسمانية، فما قامت الصورة إلا بوجود هذه الأرواح المتضادة الأفعال.

\* \* \*

## الموقف الثامن والثلاثون بعد المائتين

قال تعالى: ﴿وَمَا يَكُم مِّن نِّعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ [النحل: الآية ٥٣].

أي ما من نعمة متلبسة بكم منسوبة إليكم بالمجاز إلا وهي صادرة من الله - تعالى - راجعة إليه بالحقيقة، فإن أعظم نعمة على كل موجود وجوده، وتوابع وجوده وإمداده بما به بقاء وجوده. والكل من الله إلى الله حقيقة، ولما يقال فيه مخلوق وسوى وغير مجازًا، فالوجود المنسوب إلى المكونات، المفاض على المخلوقات، هو وجوده تعالى مفاض منه عليها، لا كالإفاضة المعروفة، فإن ذلك محال على الوجود الواجب القديم، والحياة المنسوبة إلى كل حي هي حياته - تعالى - لا غيرها، والعلم المنسوب إلى كل عالم هو علمه تعالى لا غيره، وكذا الإرادة والقدرة والسمع والبصر وباقي الكمالات. كل ذلك منه وإليه بلا حلول ولا اتحاد ولا امتزاج، ويا عجبًا ممن يرمي الطائفة العلية بشيء من ذلك؟! فكيف يحل الوجود في العدم؟! أم كيف يتحد الحدوث بالقدم؟ أم كيف يتصور امتزاج المعاني بالكلم؟ فلا وجود قديمًا ولا حادثًا إلا وجوده تعالى، ولا حياة قديمة ولا حادثة إلا حياته تعالى، فإن الحياة هي اقتضاء الوجود للفعل والإدراك، فدخل في الفعل جميع ما هو من قبيل الأفعال. وفي الإدراك جميع الصفات الكمالية. وحيث كان الوجود ليس إلا له، وتوابع الوجود ليست إلا له حقيقة؛ فمحال أن يكون الوجود لغيره حقيقة؛ لأن الوجود حقيقته واحدة لا تتعدّد ولا تتبعّض، كما أنه من المحال أن تكون الصفات التابعة للوجود لغيره - تعالى - حقيقة إذ الصفات لا يظهر بها غير من هي له أبدًا، فالكل منه له، والمسمى خلق الله وغير الله؛ إنما هي تجريدات جرّدها الحق - تعالى - من نفسه لنفسه في نفسه، كتجريد البيانيين يخاطب الإنسان نفسه بنفسه، بما يريد، ويسمعها بها، ويجيبها بها، ويحاورها بها، ويعاتبها بها، وينصحها بها، فيقبل بها أو يردّها بها، وهو هو لا ثاني له، فإنه واحد بالحقيقة غير متعدّد، كرجع الصدا، فإنه ليس هنا إلا الصوت حقيقة وعلماً وهو اثنان مجازًا ووهماً.

\* \* \*

## الموقف التاسع والثلاثون بعد المائتين

قال الله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَكُنْ لَهُ  
وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾﴾ [الإخلاص: الآيات ١ - ٣]. إلى آخر السورة.

ورد في أسباب النزول: أن المشركين أو اليهود، قالوا لرسول الله - ﷺ -:  
انسب لنا ربك الذي تدعو الناس إلى عبادته، أي بين لنا أصله، وهو مرادهم بنسبه؛  
فنزلت هذه السورة، في بيان نسب الرب - تعالى -، وزادت على بيان النسب، بيان  
الحسب، وهو ذكر الصفات الجميلة والكمالات الجليلة.

فالنسب قوله: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾﴾ [الإخلاص: الآية ١].

والحسب قوله: ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾﴾ [الإخلاص: الآية ٢]. الخ السورة.

لأن الحسب مأخوذ من الحساب، وهو تعديد صفات الكمال. «قُلْ» أمر له  
- ﷺ - فجوابهم تلاوة هذه السورة الشريفة عليهم، قوله «هو» الهو هنا، مبتدأ لفظاً  
ومعنى، فإنه يشار به إلى الذات الغيب المطلق، فهو غيب الغيوب الذي لا شعور به  
لأحد إلا من حيث أنه لا شعور به، بمعنى أنه يشار به إلى الذات، من غير ملاحظة  
شيء من غيبة أو حضور أو خطاب؛ كما هو في الاصطلاح، وإلا فالذات من حيث  
هو لا دلالة للفظ عليه، ولا علم لأحد به، فليس «الهو» هنا بضمير يطلق على كل  
غائب، كما هو عند النحويين بل هو إشارة إلى كنه الذات، الذي لا يعلم ولا يدرك،  
حيث كان شأن ما لا يدرك ولا يُعلم أن يكون غائباً لا غير، وإلا فهو الغائب الحاضر  
عند التحقق، كما أن المراد «بالهو» هنا، الهوية المجردة، لا الهوية السارية؛ إذ  
«اللهو» اعتباران: فباعتبار التجرد عن المظاهر والتعينات يسمى هوية مرسله ومطلقة،  
وباعتبار سريانه في المظاهر وقيوميته لكل موجود يسمى هوية سارية. ويسمى الذات  
في مرتبة إطلاقها بالمعجوز عنه، عند أرباب هذا العلم، فلا يتعلق به علم من كل  
مخلوق، وعن هذه المرتبة أخبر - ﷺ - بقوله: «وإن الملائكة ليطلبونه كما  
تطلبونه».

وحيث لا يتعلق به علم في هذه المرتبة فلا يصح عليه حكم؛ إذ كل علم  
وعالم ومعلوم وحكم وحاكم ومحكوم به، إنما هو متقوم بالذات. فليس هو الذات  
المشار إليه بـ«اللهو» فلا يتصور، فلا يعلم، فلا يحكم عليه، وكما أنه لا يعلم لا  
يجهل؛ إذ التصور أول مراتب العلم. والجهل لا يراد إلا على ما يرد عليه العلم، فلا

يقال فيه معلوم ولا مجهول، ولا موجود ولا معدوم، ولا قديم ولا حادث، ولا واجب ولا ممكن؛ فهو مادة العدم والوجود المقيدين، أو المطلقين؛ إذ حقيقة العدم المطلق، هو الذات المتجردة تجرّداً أصلياً، أي غير نسبي؛ كما أن العدم المقيّد هو الذات المتجردة تجرّداً نسبياً، فلولا تقوّم العدم المطلق والعدم المقيّد بالذات ما صحّ عليهما حكم، ولا استقامت عليهما عبارة، ولا كان لهما تصوّر، حتى قيل: هذا مطلق وهذا مقيّد. وحكم المطلق عدم قبول الوجود العيني، وحكم المقيّد قبول الوجود العيني، إلى غير هذا. والعدم المطلق - وإن لم تكن له صورة علمية كالعدم المقيّد - فله وجود في بعض مراتب الوجود الأربعة، كما أن حقيقة الوجود المطلق هو الذات المتعيّن تعيّنًا أصلياً، أي غير نسبي. وحقيقة الوجود المقيّد، هو الذات المتعيّن تعيّنًا نسبياً، والتعين غيب محض في الذات المتجرّدة. فإذا اقتضت ظهورها بتعيّنها به، صار ما كان هو الذات العدم، هو الذات الوجود، وما كان غيباً تعيّنًا ومظهرًا، فظهور المعدوم من العدم هو تعيّن الذات الوجود. وتسمّى الذات عند هذا الاقتضاء: «الذات الوجود» وتسمّى القضايا «موجودات» و«مراتب»؛ فالوجود المطلق، عندما يتجلّى على أعيان الممكنات، وتنصّغ بنوره وينصّغ بأحكامها، يصير موجوداً مقيّداً بالنسبة إلى الممكن، مع إطلاقه حالة تقييده بها، فهو المطلق المقيّد، المتجرّد المتعيّن. قوله «الله» يدل بعض من كلّ، باعتبار كون الذات مادة الوجود والعدم، وبدل شيء من شيء باعتبار كون الوجود عين الذات، وهو هنا اسم الذات الوجود المطلق؛ كما أن «الرحمن» اسم الذات، باعتبار الوجود المنبسط على أعيان الممكنات الثابتة: فالجلالة هنا علم مرتجل، وليس بمشتقّ ولا راتحة فيه للوصفية ولا اعتبار نسبة، فهو دال على الوجود الذات، لا من حيث نسبة ما يوصف بها كالأسماء الجوامد للأشياء، فليس هو الجلالة المشتقّة المذكورة بعد، فإن تلك اسم المرتبة، لا اسم الذات. ولهذا قال من قال من أنمة هذا الشأن: «لا يصحّ التخلّق بالاسم «الله» من حيث إنه اسم ذاتي لا يتوّهم معه دلالة على غير الوجود الذات» وله قال الأشعري - رضي الله عنه -: قد يكون الاسم عين المسمّى نحو «الله»، فإنه علم على الذات من غير اعتبار معنى فيه، يعني لأنه اسم الوجود، والوجود عين الذات، فإنه يقول: الوجود عين الذات. وله قال سيبويه - رضي الله عنه -: الله أعرف المعارف، فلا أعرف من الوجود؛ لأنه بديهي، والأشعري وسيبويه، وإن لم يشعر بما قلناه، ولا قصدا المنحى الذي نحونا، فقد تبرق على بعض القلوب بوارق، فتصدر منها من غير قصد بعض الحقائق، وما انتشر الخلاف في الجلالة؛ إلا لعدم العلم بالفرق بين الجلاتين.



قوله: «أحد» هو بدل ثان، وهو اسم الذات الوجود، باعتبار تعين. ولا ظهور لشيء من اسم أو صفة أو كون، فإنها نسب. والأحد من كل وجه لا يقبل النسب. فالمراد بالأحد ما يكون واحداً من جميع الوجوه، فهو البسيط الصرف عن جميع أنحاء التعدد عددياً أو تركيبياً أو تحليلياً، فهو اسم الذات الوجود، بشرط لا شيء مع الذات. و«الهو» المتقدم الذكر يشار به إلى الذات في مرتبتهما المشعور به، لا بشرط شيء، ولا بشرط لا شيء، فالأحدية اسم الذات الوجود المطلق عن الإطلاق والتقييد؛ لأن الإطلاق تقيّد بالإطلاق، والمراد: أنه لا شيء من قيد وإطلاق، ولهذا جعل الأحد بعض سادات القوم - رضي الله عنهم - أول الأسماء؛ لأن الاسم موضوع للدلالة، وهي العلمية الدالة على عين الذات، لا من حيث نسبة من النسب، أو صفة من الصفات، فلا يعقل معه إلا العين من غير تركيب، فليس الأحد بنعت، وإنما هو عين، ولهذا منع أهل الله - رضي الله عنهم - أن يكون لأحد من ملك أو بشر تجلُّ بهذا الاسم، لأن الأحدى تنفي بذاتها أن يكون معها ما يسمى غيراً وسوى، وهي أول المراتب والتنزلات من الغيب إلى المجالي المعقولة والمحسوسة، كما أن أول التبعينات الوحيدة، وهي الذات مع التعيين الأول، وهي الحقيقة المحمدية، فهي البرزخ بين غيب الغيوب الذات المجرد، وبين الكثرة النسبية، وهي مرتبة الأسماء، وبين الكثرة الحقيقية، وهي مرتبة الأكوان، وقولنا الأحد أو الوجود اسم الذات، تقرب للأمور الوجدانية للأفهام؛ لأن اسمها معنى قائم بها، فهو صفتها، و صفتها عين ذاتها، فهذه المرتبة أحدية جمع جميع الأشياء الإلهية والكونية المتكثرة بنوعيتها. وكل ما تتحد به الأمور الكثيرة فهو أحدية جمع جميعها، كالحقيقة الإنسانية، فإنها أحدية جمع جميع بني آدم، والبيت فإنه أحدية جمع جميع السقف والجدران وما يتفضل إليه البيت. فقوله «الله» هو خبر عن المبتدأ، والجلالة هنا مشتقة، فهو اسم للمرتبة المسماة بمرتبة الصفات المحيطة بالتعلقات؛ إذ كل موجود قديماً كان أو حادثاً فله ذات ومرتبة، فذاته حقيقته التي تقوم بها مرتبته، والمراتب أمور اعتبارية، ومرتبته هي حقيقته من حيث جمعها للأسماء والنسب والاعتبارات اللانقطة بها، وهي التي تُضاف إليها الآثار دون الذات الوجود المطلق من حيث هو مطلق، عن كل اسم ووصف ونسبة، لما تقرر أنه لو كان التأثير للوجود المجرد عن النسب لكان تأثيره إما بإيجاد مثله أو ضده وكلاهما محال، فتعين التأثير للمرتبة، وهي الألوهية، التي أمرنا بتوحيدها. بمعنى اعتقاد أحديتها وعدم الشركة فيها، ولا يفهم من الأمر بالتوحيد ما يدلُّ عليه لفظه فقط، بل المأمور به هو توحيد الخاصة وتوحيد العاقبة، إنما يقبل

بمحض الفضل. قيل لي في واقعة من الوقائع: «التوحيد إبطال التوحيد» بمعنى أن التوحيد الحقيقي المطلوب هو الذي يبطل معه ويرتفع منه، ما يدلّ عليه لفظ التوحيد، فإنه يدلّ بجوهره على موحد (اسم فاعل) وعلى موحد (اسم مفعول) وفعل قائم بالفاعل، وهذه كثرة لا وحدة فيها. فإذا لم يبق إلا واحدًا، يعلم أنه واحد لا شريك له في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله، ولا في أحكامه، ولا في أسمائه، فهناك يصدق التوحيد وتبطل الكثرة بإبطال ما يدلّ عليه التوحيد وزواله، وإلى هذا أشرت من قصيدة:

وما الدين إلا توحيد وما غيرنا      يوحدنا فغيرنا الشرك والرجس  
وما التوحيد المقبول قولاً وإنه      لفعل فلا يغرك جنّ ولا إنس  
وما هو إلا أن تصير إلى الفنا      وتصعق ليس ثم روح ولا حسّ

فلننظر الوحدة من حيث هي، لا من حيث الموحد لها، فإن كانت عين الموحد بها فهي نفسه، وإن لم تكن عين الموحد فهو تركيب لا توحيد وما هو مطلب الرجال ولا مقصودهم، أخبر - تعالى - أن نسب أي أصل رب محمد الذي يدعو الناس إلى عبادته؛ هو الذات الغيب المطلق، غيب الغيوب مادة العدم والوجود المشار إليه «بالهو» المنتزّل إلى مرتبة الوجود المطلق المجرد عن كل ما يحكم بزيادته، المعبر عنه «بالله» الجلالة غير المشتقة من شيء، المنتزّل إلى مرتبة الأحدية، التي هي مجلى ذاتي، ليس للأسماء ولا للصفات ولا لشيء من الكائنات فيها ظهور، وهي المسماة بالأحد المنتزّل إلى مرتبة الأسماء والصفات وهي الألوهة، وهي مرتبة إعطاء كل ذي حقّ حقه من الحق والخلق المسماة بالجلالة المشتقة، وهو الله ربّ محمد، الاسم الجامع لمعاني أسماء الإله جميعها فهو يتضمّن جميع الأسماء ولا تتضمّنه، وينعت بها ولا تنعت به، فلذا كان أحدية جمع جميع الأسماء. قوله: «الصمد» هو المصمود المقصود في الحاجات، لطلب نفع ودفع ضرر، وليس هذا لغير الله - تعالى - . قوله:

﴿لَمْ يَكُنْ لَكُمْ يَكْفُورًا﴾ [الإخلاص: الآية ٣]، أي لم ينفصل منه تعالى جزء فيتكوّن منه شيء كما تنفصل النطفة من الأب فيتولّد منها الابن، وكما ينفصل الريح من بعض الحيوان، فيتولّد من ذلك الريح، مثل ذلك الحيوان، وكما تنفصل النواة والبذرة فيتولّد منها أمثال أصولها التي انفصلت عنها. فليس في شيء منه تعالى شيء، وإنما تتكوّن الأشياء عنه تعالى بالتوجه الإرادي المعبر عنه «بكن» لا باتّصال ولا بانفصال ولا بمعالجة ولا بمزاولة: ﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾ [الإخلاص: الآية ٣] أي لم يتولّد - تعالى - عن

شيء فيكون منفصلاً عن شيء، فإنه الأول بلا بداية، فليس فيه - تعالى - شيء من شيء:

﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: الآية ٤].

الكفو المثل (يكسر الميم) والأحد بمعنى الواحد موضوع للعموم في النفي، فلا مثل له تعالى في ألوهيته؛ كما قال:

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: الآية ١١].

على زيادة الكاف وعدم زيادتها أيضاً؛ لأنه على فرض وجود المثل، فهو مجعول له تعالى، لأنه بجعله وخلقه كما ورد: «إن الله خلق آدم على صورته»<sup>(١)</sup>.

وهو في التحقق مثل بفتح المثلثة؛ كما قال:

﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾ [النحل: الآية ٦٠].

في السموات والأرض، وهي أي المثل.

﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [النحل: الآية ٦٠].

فمرتبة الألوهية التي للذات العلية لا مثل لها ولا ثاني، وهي التي أمرنا بتوحيدها، وجاءت الرسل - عليهم الصلاة والسلام - للعباد طالبة منهم أن يقولوا: «لا إله إلا الله» لقول الرسل لهم: قولوا: لا إله إلا الله، فلا تجعل الله تعالى كفوًا ولا مثلاً. وأما الضد، فله ضد من حيث أنه المعبود وضده العابد، وأنه الرب فضده المربوب، وأنه المالك فضده المملوك، وأنه الرحمن فضده المرحوم إلى غير هذا، هذا شأن الجلالة المشتقة التي هي اسم المرتبة كالسلطنة والقضاء ونحوهما من المراتب. وأما الجلالة التي ليست بمشتقة، وهي اسم الوجود الذات فلا مثل لها ولا ضد، ولا تنزه مطلقاً، ولا تشبه مطلقاً، فإنها عين الضدين والمثلين. والشيء لا يشبه بنفسه، ولا ينزه عن نفسه، فلا تشبيه في العالم ولا تنزيه من هذه الحيثية، وقد ورد في الخبر بروايات متعددة: أنه - ﷺ - قال في هذه السورة: تعدل ثلث القرآن<sup>(٢)</sup>. ووجه ذلك: أن المعلومات منحصرة في ثلاثة: من وجه حقيقة فاعلة، وهي الحق - تعالى - الإله وما يتعلق به من ذات وصفات وأفعال وأحكام. وحقيقة

(١) هذا الحديث سبق تخريجه.

(٢) ومن هذه الروايات ما رواه مسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل قراءة: «قل هو الله أحد». حديث رقم (٢٥٩) - (٨١).

منفصلة، وهي العالم وهو اسم لما سوى الحق - تعالى - جميعه أسفله وأعله،  
وحقيقة جامعة بين الفعل والانفعال، وهي حقيقة الإنسان الكامل البرزخ بين حقيقة  
الفعل والانفعال، فكل ما دلّ عليه الكلام القديم، وهو القرآن لا يخرج عن هذه  
المعلومات الثلاث. وهذه السورة تضمّنت الكلام على الحقيقة الأولى، فهي ثلث  
القرآن لهذا.

\* \* \*

### الموقف الأربعون بعد المائتين

قال تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ [الفاتحة: الآية ١].

اعلم أن القائل (بسم الله) في أول أفعاله، لا يخلو إما أن يكون سنياً، فالباء في  
حقه معناها الاستعانة. قال بهذا المعنى أو خلافه لجهله بحقائق الأمور وموارد  
المعاني، فإنه يرى الفعل لله - تعالى - من حيث الخلق وله من حيث الكسب، إن كان  
أشعرياً. ومن حيث الجزء الاختياري إن كان ماتريدياً فله دخل في الفعل ولا بد،  
ويستعين بالله - تعالى - عليه حيث أمر تعالى بذلك، قال تعالى:

﴿أَسْتَعِينُوا بِاللَّهِ﴾ [الأعراف: الآية ١٢٨].

وقال: ﴿وَأَيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: الآية ٥].

وفي الصحيح: «لا حول ولا قوة إلا بالله».

وإن كان عارفاً بالله - تعالى -، فالباء في حقه بمعنى من، فإنه لا يشهد له فعلاً.  
وإنما يشهد صدور الأفعال من الله الوجود الحقّ المقوم لكل صورة تظهر الأفعال عنها  
باديء الرأي فيرى نفسه، وكلّ مخلوق آلات يفعل الله بها ما يشاء، وأقلاماً يحركها  
فيما يريد ويقدر، المتعلق بما يناسب الفعل الذي جعلت البسملة مبدأ له فإذا سألتنا  
أجنيبي، قلنا: تقديره: خلق الشيء الفلاني صادر من الله. فإذا قدرناه لأهل طريقنا قلنا  
مثلاً: التلاوة صادرة من الله أو الذكر أو الصلاة أو غير ذلك، فإن تلاوتنا من أفعالنا،  
وأفعالنا مخلوقة له تعالى وكل فعل من أفعالنا له اسم يخصه من أسماء الحق - تعالى -  
التي لا نهاية له، وأن الحكمة في تشريع التسمية في أول كل فعل مباح أو مشروع هي  
إظهار التبرئة بالقول من دعوى الفعل للإنسان، كما هو في نفس الأمر. فإذا كان  
الفعل غير مشروع ولا مباح، لم تشرع التسمية أدباً من نسبة صدور ما عليه اعتراض  
من الشارع منه - تعالى -، هذا حظّ العارف.

فإن كان محققاً فهو فوق العارف فإنه يزيد بمراعاة الأدب، فإذا كان الفعل عليه اعتراض من الشارع ولو في الظاهر؛ فإنه ينسبه لنفسه كالمعتزلي ويصير قدرياً في ظاهره، وقوله دون باطنه واعتقاده؛ كما قال:

﴿فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ [الكهف: الآية ٧٩] (يعني السفينة).

وقال: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ (٨٠) [الشعراء: الآية ٨٠].

وهذا النوع من الاعتزال عين الكمال.

وإما أن يكون (أعني القائل: بسم الله) معتزلياً، فالباء في حقه معناها الملازمة، لا أثر لمدخلها في الفعل، وكذا قال صاحب الكشاف. وإن قال معناها خلاف هذا، فهو مكابر لأنه يرى أنه خالق الأفعال الاختيارية. ولهذا عنده ترتب الثواب على الطاعة، والعقاب على المعصية، فباء اسم الله عنده؛ للمصاحبة والملازمة، كما في قولهم: دخلت عليه بثياب السفر، فإن المعتزلي يعتقد أن الله - تعالى - أعطاه القدرة على أفعاله الاختيارية وفوض إليه بعد ذلك إن عمل صالحاً فلنفسه، وإن أساء فعليها، فهو هالك. وأهلك منه من قال: إن القدرة والفعل له معاً كمدعي الربوبية من الهالكين.

\*\*\*

## الموقف الواحد والأربعون بعد المائتين

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: الآية ٢٢٢].

التوبة أنواع، باعتبار ما منه المتاب، فطائفة تتوب من المعاصي، وطائفة تتوب من الطاعات، أي من نسبتها إليها مع فعلها، وطائفة تتوب من طلب الأعواض والأجور، وطائفة تتوب من التوبة. قال ابن العريف الصنهاجي - رضي الله عنه -:

قد تاب قوم كثير وما تاب من التوبة إلا أنا

فالتائبون عام وخاص، وخاص الخاصة، ولفظ التوبة يعم الجميع لغة، ولكن إشارة الآية الكريمة على ما أعطانا الإلهام الإلهمي فرقت بين توبة العموم، سمّتها تطهيراً، وبين توبة الخصوص سمّتها توبة؛ إذ ليس أدناس مخالفات، وأوضار نسب طاعات، فالمحوبون الأولون المقدمون في الذكر لتقدمهم رتبة هم الخاصة، وخاصة الخاصة التائبون من التوبة، فالخاصة وهم العارفون بالله؛ توبتهم الرجوع منه إليه

- تعالى -، وخاصة الخاصة، وهم العلماء بالله - تعالى -، توبتهم الرجوع إليه من رجوعهم، أي من نسبة الرجوع إليهم؛ إذ لا يرجع إلا موجود حقيقة، ولا وجود لهم، فتوبتهم من دعوى الوجود، وإليه يشير قائلهم:

إذا قلت ما أذنبت قالت مجيبة وجودك ذنب لا يقاس به ذنب

فليس في الحقيقة إلا هو الراجع والمرجع إليه، فهو الثابت كما قال:

«تَابَ عَلَيْهِمْ» فالتوبة فعله والفعل قائم بالفعل، وهؤلاء الثابتون هم المعنيون بقوله - ﷺ -: «إِنَّ اللَّهَ يَجِبُ كُلَّ مَفْتِنٍ تَوَابًا»<sup>(١)</sup>.

وفنتهم إنما هي طروء الغفلة عليهم من هذه المشاهدة، لما هو لازم البشرية من الغفلة والنسيان، فإذا تذكروا تابوا توبتهم الخاصة بهم، فهم أحق وأولى بمحبة الله تعالى لهم، وأما المتطهرون فهم الثابتون من العامة، سواء الثابتون من المخالفات، ومن طلب الأعواض على الطاعات ونحوهما، ومحبة الله - تعالى - للمتطهرين، أي الثابتين من العامة إنما هي ببركة الثابتين الأولين، وبالتبع لهم لاشتراكهم في المعنى الذي هو الرجوع، وإن كان بين الرجوعين فرقان بعيد؛ إذ التوبة هي الرجوع الحقيقي وذلك بالتيروء من نسبة الرجوع، الذي هو معنى التوبة، إلى العدم ونسبته إلى الوجود، كما هي توبة خاصة الخاصة، أو الرجوع به منه إليه كما هي توبة الخاصة، وما عدا هذين الصنفين فتوبتهم بمعنى رجوعهم تطهير لا رجوع، لأنهم ما رجعوا بعد إلى وإنما رجعوا من عدم إلى عدم، ومن كون إلى كون، وما تاب أحد ولا تطهر بمعنى تاب إلا بعد توبة الله - ﷻ - عليه؛ كما قال:

﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا﴾ [التوبة: الآية ١١٨].

فتوبتهم إليه فرع توبته عليهم، أي فيهم، «فعلى» بمعنى «في»؛ إذ هم ظروف التوبة وهو فاعلها، لِيَتُوبُوا، أي لتنسب التوبة إليهم حيث أنهم ظروف وآلات لأفعاله، فهو الفاعل حقيقة والنسبة إليهم مجازًا.

\*\*\*

### الموقف الثاني والأربعون بعد المائتين

قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَقَّقَ الْفَقِي الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾ [الحج: الآية ٥٢] الآية.

(١) هذا الحديث لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع.



اعلم أنه لما أمر الله - تعالى - رسوله - ﷺ - أن يقول للناس :

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [١٩] ﴿الْحَجَّجْ: الآية ٤٩﴾، ﴿فَالَّذِينَ  
ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [٥٠] ﴿الْحَجَّجْ: الآية ٥٠﴾، ﴿وَالَّذِينَ  
سَعَوْا فِي ءَايَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [٥١] ﴿الْحَجَّجْ: الآية ٥١﴾.

أي أرسلت إليكم لتمييز أهل السعادة من أهل الشقاوة، فلا بد أن يؤمن بي  
بعضكم فيسعد، وهم: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [الْحَجَّجْ: الآية ١٤] إلى آخر  
الآية، ويكفر بعضكم فيشقى، وهم: ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي ءَايَاتِنَا مُعْجِزِينَ﴾ [الْحَجَّجْ:  
الآية ٥١] إلى آخر الآية، تنبيهاً له - ﷺ - لثلاث يصدر منه ما صدر من الرسل والأنبياء  
قبله من التمني، رتب على ذلك أخباره - ﷺ - بقوله:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ﴾ [الْحَجَّجْ: الآية ٥٢] إلى آخر الآية.

ذلك أنه تعالى ما أرسل رسولا مستقلاً بالدعوة، ولا نبياً داعياً إلى اتباع شريعة  
من قبله من الرسل إلا ويحققه بصفة الرحمة الكاملة والرأفة الشاملة، فيتمنى لذلك  
ويقول بلسانه لا بقلبه؛ لأن التمني ليس من أعمال القلوب، ويتلفظ بقوله: ليت الحق  
- تعالى - يهدي جميع من أمرني بدعوتهم إليه. وهذا التمني قهري طبيعي في كل  
رسول ونبى، كسائر الأمور الطبيعية، لما يغلب عليهم - صلوات الله عليهم وسلامه -،  
من إرادة الخير لعباد الله وحب نجاتهم، وكان نبينا محمد - ﷺ - على جانب عظيم  
من هذا، كما أخبر الحق - تعالى - عنه في غير ما آية، غير أنه ما صدر منه من هذا  
التمني قطعاً، مع أن كل رسول ونبى، يعلم أنه - تعالى - ما أمرهم بدعوة الخلق إلا  
لتمييز القبضتين، وتبين أصحاب الشمال من أصحاب اليمين، لئلا يكون للناس على  
الله حجة بعد الرسل، وحيث كان هذا التمني وإن كان خيراً بادىء الرأي، فهو مناقض  
للعبودية المحضة، التي هي إلقاء القيادة بيد العليم الحكيم، وعدم الاختيار لشيء معه  
- تعالى -، مع أن التمني لا جدوى له ولا فائدة؛ لأن الشيء المتمنى حصوله لا يخلو  
إما أن يكون مقدوراً أو غير مقدور، فإن كان غير مقدور فهو معارضة القدر.  
وإن كان مقدوراً فهو تضييع للوقت وبطالة. ولما كانت مرتبتهم عند الحق - تعالى -  
أسمى المراتب اقتضت أن الأولى بهم - صلوات الله وسلامه عليهم - تركه، وإن كان  
هذا لا يقدح في مراتبهم العلية، حيث إنه كالأمر الطبيعي القهري لهم. ولكنه فيه  
شوب من عدم الوقوف مع العبودية المحضة، التي تقتضيها مرتبتهم. وذلك لما جبل  
عليه البشر من الغفلة، فإنه أمر ذاتي لا يرفع أبداً ولا عن الرسل - صلوات الله وسلامه

عليهم - ولذا تقرر في القرآن العزيز الأمر للرسول أن يقولوا لأممهم: إنما نحن بشر، وفي الصحيح: «إنما أنا بشر أنسى كما تنسون، فإذا نسيت فذكروني»<sup>(١)</sup>.

ولولا النسيان والغفلة ما حصل لهم هذا التمني، مع علمهم بحقيقة الأمر وباطنه. فلهذا نبه الحق - تعالى - حبيبه المخصوص بخصائص ما أدركها رسول قبله؛ لئلا يفوته هذا الأدب الواحد، الذي ما خلا عنه رسول ولا نبي؛ إذ كل ما يقدح في مقام فإن صاحب ذلك المقام لم يتصف في تلك الحال بالكمال الذي يستحقه ذلك المقام. وإن كان من الكمّل، قال إمام العالمين بالله - تعالى -، وبرسوله - عليهم الصلاة والسلام - شيخ الشيوخ محيي الدين الحاتمي «ما رأيت ولا سمعت عن أحد من المقرّبين أنه وقف مع ربه على مقام العبودية المحضه»، فالملا الأعلى يقول:

﴿أَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾ [البقرة: الآية ٣٠].

والمصطفون من البشر، يقولون: ﴿لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكُفْرَيْنَ ذَبَارًا﴾ [نوح: الآية ٢٦].

«إن تهلك هذه العصابة لن تُعبد بعد اليوم»<sup>(٢)</sup>.

ولما صدر منهم - عليهم الصلاة والسلام - هذا التمني أذبه الحق - تعالى - ونبّههم على ما فاتهم في هذا التمني بتسليط الشيطان، وإلقائه تكذيبهم في نفوس جميع المتمنى تصديقهم وهدايتهم من لم يصدقهم بعد، ومن لا يصدقهم أبداً، وإن وجد فرد لم يتوقف ولم يتلثم وهو الصديق، فهذا نادر. ولذا عظمت مرتبته؛ كما قال: ﴿الْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّهِ﴾ [الحج: الآية ٥٢].

فالكل يرتاب ويتوقف؛ كما قال: ﴿كُلُّ مَا جَاءَ أُمَّةٌ رَسُولًا كَذَّبُوهُ﴾ [المؤمنون: الآية ٤٤].

وقال: ﴿يَحْزَنُ عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [يس: الآية ٣٠].

فينسخ الله ما يلقي الشيطان بإظهار المعجزات الخارقة، والآيات المتتابعة، فعرف الكل صدقه، فمن سبقت له سعادة أظهر ما عرف باطنًا، ومن سبقت شقاوته جحد واستكبر؛ كما قال:

(١) رواه البخاري: كتاب الصلاة، باب التوجه نحو القبلة حيث كان، حديث رقم (٣٩٩).

(٢) رواه مسلم: كتاب الجهاد والسير، باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر وإباحة الغنائم حديث رقم (٥٨ - ١٧٦٣). ورواه أحمد في المسند حديث رقم (٢٢٢).

﴿فَأَنَّهُمْ لَا يَكْفُرُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بَكَرْتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: الآية

. [٣٣]

وقال: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا﴾ [النحل: الآية ٨٣].

ونعمة الله هي محمد - ﷺ - وقال: ﴿وَجْحَدُوا بِهَا وَاسْتَقْبَتَهَا أَنفُسَهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [الشم: الآية ١٤].

أي: جحدوا بها ظلماً وعلواً مع إيمانهم أنها من الله - تعالى - تصديقاً لرسوله، وقال: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا أَنْزَلَ هَذُلًا إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ﴾ [الإسراء: الآية ١٠٢].

إلى أمثال هذه الآيات، ومن طالع كتب السَّيْرِ علم أن المشركين كانوا عالمين صدقه - ﷺ - ولكن جحدوا استكباراً وسبق شقاوة، وقد شهد الله - تعالى -: أن اليهود كانوا يعرفون صدق محمد - ﷺ - كما يعرفون أبناءهم، ثم يلقي الشيطان للمكذبيين، أنكم خسرتم أنفسكم وسفهتكم أحلامكم بعدم إظهار ما علمتم من صدقه، ثم يلقي إليهم الشك أيضاً، وهذا دأبهم ودأب الشيطان معهم يشككهم في صدقه ثم يشككهم في كذبه، وذا حال من كان في زمانه من الكفار؛ كما قال: ﴿فَهُمْ فِي رَبِّيهِمْ بَرْدَدُونَ﴾ [الثورة: الآية ٤٥].

وقال حكاية عنهم: ﴿وَإِنَّا لَنِي سَكِي مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ [هود: الآية ٦٢].

ولهذا تكون معيشة الكافرين ضنكاً؛ كما قال: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾ [طه: الآية ١٢٤].

أي في الدنيا، فهو في ضيق، مما يلقي الشيطان إليه، فلا يستريح باطناً في الدنيا أبداً، ثم يحكم الله آياته ويثبتها في قلوب المسلمين ظاهراً وباطناً، فلا يبقى لهم تردّد ولا وسوسة في صدق الداعي إلى الله، وذلك بمخالطة بشاشة الإيمان لقلوبهم فلا يسخطونه أبداً، والله عليهم بما تقتضيه استعدادات مخلوقاته حالة ثبوتها وعدمها، حكيم يضع الأشياء مواضعها اللائقة بها بالاستحقاق من غير زيادة ولا نقصان، ولا يظلم ربك أحداً في كل ما يفعل ويحكم، ليجعل ما يلقي الشيطان فتنه، بيان حكمة تسليط الشيطان بالإلقاء في قلوب جميع أمة الدعوة والإجابة جميعاً مع تنبيه الرسل والأنبياء على تمثيهم، وأن ذلك فتنه، فيقول المنافقون، وهم الذين في قلوبهم مرض: لو كان هذا حقاً ما توقف الجميع فيه قبل. ويقول الكفار الجاحدون وهم القاسية قلوبهم: عاز علينا أن نظهر تصديقه بعد جحوده استكباراً وعناداً؛ كما قال

تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ﴾ [الآية ١٠١] في الأعراف.

وقال في يونس: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ﴾ [الآية ١٧٤].

فاشدد يديك وعَضَّ بالنواجذ على ما سمعت في هذه الآية، ولا تلتفت إلى ما ذكره كثير من المفسرين فيها في قصة الغرائيق<sup>(١)</sup>، التي وضعها بعض الملاحدة ليدخل الشك في الوحي والقرآن الذي:

﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ [فصلت: الآية ٤٢].

وما تنزلت به الشياطين، وما ينبغي لهم وما يستطيعون، وإني لأسأل من الله العفو والسماحة للحافظ ابن حجر حيث صحح تلك القصة الفظيعة الشنيعة، وأند طرق ورودها ورفع قوادحها، والآية ما أخبرت أن هذا كان من محمد - ﷺ - وإنما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ﴾ [الحج: الآية ٥٢].

فهو أخبار له - ﷺ - لا إخبار عنه، وهو نص صريح:

﴿مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾ [الثور: الآية ١١٦].

فأين ذهب شرف النبوة والرسالة، الذي لا شرف فوقه إلا شرف الربوبية، لو صحَّت هذه القصة، فأين العصمة إذا كان الشيطان يلقي الكفر على ألسنة الرسل والأنبياء جميعهم ويسمعه الناس من لسان كل رسول وكل نبي، فإن صريح الآية أن هذا التمني واقع من كل نبي ورسول أرسله الله - تعالى -، والنطق بقصة الغرائيق كفر ضرورة، ولو وردت القصة بأن الشيطان ألقى في أذان السامعين هذا؛ لربما كان له وجه إلى القبول، ولكن قالوا ألقى الشيطان على لسان رسول الله - ﷺ -: «اللهم إنا نعوذ بك من التلبيس، ومن نزعات إبليس، ومن أن نضل أو نُضَلَّ».

\*\*\*

(١) قال ابن كثير في تفسيره: قد ذكر كثير من المفسرين ههنا قصة الغرائيق، وما كان من رجوع كثير من المهاجرة إلى أرض الحبشة ظناً منهم أن مشركي قريش قد أسلموا، ولكنها من طرق كلها مرسلة، ولم أرها مستندة من وجه صحيح، والله أعلم. قال ابن أبي حاتم: حدثنا يونس بن حبيب، حدثنا أبو داود، حدثنا شعبة عن أبي بشر عن سعيد بن جبير قال: قرأ رسول الله ﷺ بمكة النجم، فلما بلغ هذا الموضع «أَرَأَيْتُمْ أَكَلَتْ وَالْعُرَى (١) وَمَنُوءَ الثَّلَاثَةَ الْأَخْرَجَ (٢)» [النجم: الأيات ١٩، ٢٠] قال: فالتقى الشيطان على لسانه تلك الغرائيق العلى وأن شفاعتهم تترجى، قالوا: ما ذكر ألهتنا بخير قبل اليوم، فسجدوا وسجدوا، فأنزل الله عز وجل هذه الآية «وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِنَّا نَمُنُّ =

## الموقف الثالث والأربعون بعد المائتين

قال تعالى: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ [الأعلى: الآية ١].

التسبيح التنزيه، والتنزيه التبعيد، أي باعد نسبة اسم ربك إلى ذاته عن مماثلة نسبة أسماء المحدثات إليها ومشابقتها إياها، والاسم هنا عام، أريد به خاص، وهو ما يوهم لفظه ومفهومه تشبيهاً وتمثيلاً. وذلك أن أسماءه تعالى قسمان:

قسم يدركه العقل، وهو ما يقتضي الكمال والنزاهة، فهو يدل على التنزيه، بدلالة من الدلالات، ولا يكون الأمر بتنزيه هذا الاسم، فإنه حاصل، وتحصيل الحاصل محال.

وقسم لا يدرك العقل له كمالاً، ويتوهم أن التنزيه عنه هو الكمال. ولولا أن الشارع سماه به ما سُمي العقل الحق - تعالى - به ولا قبله في حقه؛ وذلك كالضاحك والفارح، والمتعجب والمحب، والمتردد والناسي، والمستحي والماكر، والمستهزئ والمستوي والنازل، ونحو هذا مما ورد في الكتاب والسنة. فهذا القسم هو المأمور بتسبيحه وتنزيهه، فليست نسبة هذا القسم إلى ذاته - تعالى - كنسبته إلى غيره، من ذوات المحدثات لأن ذاته تعالى غير معلومة لنا، فالنسبة إليها مجهولة لنا. وفي ضمن الأمر بتنزيه الاسم، تنزيه الذات المسماة بهذا القسم، وهي الأسماء الشرعية، ولكن من جهتين؛ فالاسم ينتزه من حيث النسبة عن المشابهة والمماثلة، لنسبته للمخلوقات حيث كان اللفظ واحداً، والمفهوم واحداً، لكن النسبة مجهولة مختلفة بلا شك. وأما تنزيه الذات المسماة بهذا الاسم فهو تنزيه التنزيه، وهو ضد التنزيه العقلي، فإن العقل بتنزيهه أحال إطلاق هذه الأسماء عليه تعالى، تنزيهاً له تعالى، وما قبلها إلا بضروب من التأويل والمجاز، فأمر تعالى في كتبه وعلى السنة رسله - عليهم الصلاة والسلام - بتنزيهه عن هذا التنزيه العقلي، وبإثباتها له؛ كما سُمي نفسه ووصفها على المفهوم منها في اللسان العربي الذي خاطبنا الحق - تعالى - به، وأرسل به رسوله، ليبين لنا ما نزل علينا، فإنه من المحال أن يخاطبنا الحق - تعالى - بما لا نفهم عنه، ولكن لما جهلنا الذات العلية؛ جهلنا نسبة هذه الأسماء إليها فقط، ألا ترى الصحابة الكرام - رضي الله عنهم - كانوا مع رسول الله - ﷺ - حين نزلت عليه هذه الآيات التي كثر الخوض فيها والقبيل والقال ما نقل عن أحد منهم أنه استشكلها وسأل عنها رسول الله

= أَلْفَى الشَّيْطَانُ فِي أُمِّيَّتِهِ، فَيَسْعُ اللَّهُ مَا يَلْفَى [الحج: الآية ٥٢]. (تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج

- ﷺ - وما ذلك إلا بأن الأمر على ما ذكرناه، فهو مذهب السلف الصالح. ولكن الكثيرين لعلمهم المتكلمين ما فهموا مذهب السلف وقالوا عنهم، إنهم يقولون: لا نعلم ما خاطبنا الحق به، ونكل علم ذلك إلى الله - تعالى - وإلى رسوله، بمعنى أنهم لا يفهمون معاني الأسماء التي سُميَ الحق - تعالى - نفسه بها من أسماء المحدثات، وهذا محال؛ فتلك الأسماء أسماء الرب حقيقة لا مجازًا، وهو الرب الأعلى، وهو التعيين الأول منشأ جميع الأسماء المشار إليه بقوله:

﴿وَأَنْ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ﴾ (النجم: الآية ٤٢).

رب محمد - ﷺ - وهو أول التعيينات، وحضرة الجمع الجامعة لجميع الأرباب، أي لجميع الأسماء الربية، التي تربي المخلوقات. فالرب المضاف إلى ضمير محمد - ﷺ - أعلى الأرباب وأجمعها. ومع كون هذه الأسماء والنوع التي تطلق على المحدثات أثبتتها تعالى لنفسه حقيقة؛ فهي من أسماء الأفعال لا تطلق منها ونسبته به - تعالى - إلا ما أطلقه الشارع، فنحن معه حيث ما كان، فما قال قلنا وما سكت سكتنا، فلا نقول يا قاتل، وقد قال: ﴿وَلَيْكَ اللَّهُ قَلْبُهُمْ﴾ [الأنفال: الآية ١٧].

ولا يا معذب، وقد قال: ﴿يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ﴾ [التوبة: الآية ١٤].

ولا يا مضل، وقد قال: ﴿يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ﴾ [الزعد: الآية ٢٧].

ولا يا مستهزئ، وقد قال: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ﴾ [البقرة: الآية ١٥].

ولا يا ماكر، وقد قال: ﴿وَمَكَّرَ اللَّهُ﴾ [آل عمران: الآية ٥٤].

ولا يا رامي، وقد قال: ﴿وَلَيْكَ اللَّهُ رَمِي﴾ [الأنفال: الآية ١٧].

ولا يا متقرب، وقد قال الرسول - ﷺ - : «تقربت منه ذراعًا»<sup>(١)</sup>.

ولا يا مهروول، وقد قال: «أثبته هرولة»<sup>(١)</sup>، إلى غير هذا مما ورد في الكتاب والسنة.

\* \* \*

## الموقف الرابع والأربعون بعد المائتين

قال تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ﴾ [الزخرف: الآية ٧٧].

(١) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الذكر والدعاء...، باب الحث على ذكر الله، حديث رقم ٢ - (٢٦٧٥). ورواه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وَيُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ تَسَكُّرًا﴾ [آل عمران: الآية ٢٨]، حديث رقم (٧٤٠٥). ورواه أحمد في المسند، حديث رقم (١١٣٦٧).



وقال: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهُنَّ أَنْفُسُكُمْ﴾ [فُضِّلَتْ: الآية ٣١].

يعني الجنة، التي وعد بها عاثة المؤمنين، فيها ما ترغب فيه كل نفس من المشتبهات الحيوانية الطبيعية، والمستلذات الجسمانية. وأما الجنة التي وعد بها خاصة المؤمنين؛ ففيها ما تشتهي الأرواح وترغب فيه الأسرار، وليس إلا دوام الشهود على بساط القرب من العلي الأعلى بالمنظر الأوضح الأجل، ويجدون في تلك المشاهدة من اللذة كل ما يجده أهل الجنان من اللذات وأزيد، قال: في الآية الأولى للجنس والعهد، وهي كل نفس إنسانية باقية على أصل خلقتها، والمخاطبون في الآية الثانية هم الصحابة الكرام أصحاب النفوس الزكية، التي ما خالطها شيء، ولا اعتلت بعقل خارجية، فالمراد في الآيتين: أن الجنة فيها ما تشتهي كل نفس إنسانية باقية على أصل خلقتها، سليمة من الآفات، ما طرأت عليها علة خارجية أخرجتها عن مجراها الطبيعي لها، وليس الطبيعي إلا ما هو مشتبه العموم، ومستلذ الأذواق السليمة من الآفات، فإن بعض النفوس طرأت عليها أمراض وأصابتها آفات، بدلت صفاتها الطبيعية، وجعلتها تشتهي ما هو مستقذر عند الطبع السليم شنيع، أو تكره ما هو مشتبه عنده مستلذ، وهذا مشاهد عياناً في الجهتين، مشهور، فمن دخل الجنة لا يشتهي إتيان الذكران، فإنها شهوة نشأت في بعض النفوس في الدنيا عن علة وآفة خارجة عن الطبع الحيواني، حتى الحيوانات العجم فإنها لا تفعله، وما فعله إلا أشرار الإنسان لمرض، وما فعله أحد من البشر قبل قوم لوط - عليه السلام - قال تعالى:

﴿اتَّأْتَوْنَ الْمَجْهَشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: الآية ٨٠].

وقال تعالى فيهم: ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ [الشعراء: الآية ١٦٦].

أي متعدون الحدود، لا أعني الحدود الشرعية؛ فإن الجنة لا تحجير فيها، ولكن اعتداء الحدود التي للأشياء، وهي الحافظة للأشياء المميزة لها، فلا يدخل محدود في حد غيره، ومن حد الذكر أنه فاعل، كما أن حد الأنثى أنها منفعة، فمن جعل الذكر منفعاً، فقد اعتدى حد الذكر، وقلب حقيقته.

وقال تعالى فيهم: ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَكَاحِكُمُ الْمُنْكَرَ﴾ [الغنكيات: الآية ٢٩].

فشهوة إتيان الذكران منكر غير معروف في العرف الإنساني.

وقال فيهم: ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ﴾ [الأعراف: الآية ٨١].

متجاوزون الحكم الإلهية في مخلوقاته - تعالى -، وقال فيهم:

﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ بِجَهْلُوكُمْ﴾ [الثمل: الآية ٥٥].

وليس فيمن يدخل الجنة جاهل بحكمة الله - تعالى - فيما يفعل، فإن الحق - تعالى - ما جعل الفاعل يطلب الفعل والمنفعل يقبل، بل لم يطلب من الفاعل الفعل إلا للإنتاج وحصول فائدة للفاعل والمنفعل، فهذا حاصل في الأصل، الذي وجدنا عنه؛ فإن الممكنات ما قبلت الفعل من الفاعل تعالى لما أرادوا إيجادها إلا لما في ذلك من الإنتاج، لمن يسبح الله بحمده. وحصول النفع للطرفين، فاستفادت الممكنات ما نسب إليها من الوجود، واستفادت الأسماء الإلهية ظهور سلطنتها بظهور آثارها. وكذلك الأمر في الأجرام السماوية مع العناصر والأركان، تفعل الأجرام السماوية في العناصر فتقبل فعلها فيها. لما ينتج من ذلك النكاح المعنوي من المولدات، الحيوان وغيره، وكذا الأمر في الحيوان والإنسان يفعل ذكرانه في إنائه فينتج من ذلك كثرة المسيحين لله بحمده، مع حصول الفائدة واللذة للطرفين، فلو انتفت اللذة من أحد الطرفين مع عدم الإنتاج؛ ما قيل منفعل الفعل به طبعاً، كإتيان الرجال، فهو خلاف الطبيعة الإنسانية ومجاري الحكم الإلهية تقتضي إلا يخلق الله - تعالى - لأهل الجنة أدياراً، ونشره الجنة غير معلوم؛ فإنه قال:

﴿وَنُنشِئُكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الواقعة: الآية ٦١].

لأنه تعالى إنما خلق هذا المحل في الدنيا لإخراج القدر والخبث لا غير، وأهل الجنة لا قدر يخرج منهم، إنما هو رشح يخرج من أعراضهم، كما في الصحيح. وقد ورد في الخبر: «أن أهل الجنة لا أسنان لهم». كما ورد أيضاً: «أن الرجال لا يحي لهم».

وذلك لانتفاء الحاجة إلى الأسنان واللحى في الجنة، بخلاف القبل في الرجل والمرأة فإنه لمصلحة النكاح، الذي هو أعظم شهوة، وألذ لذة، ولما فيه من الإنتاج؛ فقد ورد في خبر: «أن أهل الجنة يتوالدون».

ففي كل دفعة من الرجل يخرج ولد كامل سوي يسبح الله حيث شاء الله - تعالى -.

## الموقف الخامس والأربعون بعد المائتين

قال تعالى: ﴿قَوْلٌ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ [البقرة: الآية ١٤٤].

أمر من الحق - تعالى - لرسوله - ﷺ - ولكل من تبعه بتولية وجوههم الباطنة تلقاء المسجد الحرام الباطني. والمسجد الحرام هنا إشارة لا تفسيراً، كناية عن الحضرة الجامعة لجميع الحضرات، وهي حضرة الجمع والوجود؛ فكما أمرهم - تعالى - بتولية وجوههم الجسمانية شطر المسجد الحرام الجسماني، أمرهم بتولية وجوههم المعنوية شطر المسجد الحرام المعنوي، حيث ما كنتم، أي في أي مرتبة كنتم من مراتب الفرق، فلتكن وجوهكم المعنوية متوجهة لمرتبة الجمع، فإن الجمع حقيقة، والفرق حكمة، ووجه كل شيء عينه، وحقيقته التي هو بها، وهذا الوجه هو لكل مخلوق من الحق - تعالى - وهي الوجوه التي عنت للحي القيوم في قوله:

﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ﴾ [طه: الآية ١١١].

وهذا الوجه هو الذي كان أصحاب الصفة - رضوان الله عليهم - يدعون ربهم بالغداة والعشي، يريدون معرفته. وهذا الوجه هو الباقي من كل شيء، إذ هلك كل شيء، قال تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُمْ﴾ [القصاص: الآية ٨٨].  
وقال: ﴿وَبَقِيَ وَجْهٌ رَبِّكَ﴾ [الرحمن: الآية ٢٧].

فهو مقصود الحق - تعالى - من الأشياء، فلا يفتقد ما غاب، إذا حضر ولا يعبأ بما حضر إذا غاب هو، فظاهر الأمر يقتضي أن ثم مولى وموتوى مطاوع وليس إلا واحداً هو المولى والموتوى. ولشدة اعتناء الحق - تعالى - بهذا الوجه كرر في القرآن ذكره وكذا في السنة، قال: ﴿وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ﴾ [الأعراف: الآية ٢٩].

وقال: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾ [البقرة: الآية ١١٢].

وقال: ﴿وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ﴾ [لقمان: الآية ٢٢].

وقال: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾ [النساء: الآية ١٢٥].

وقال حكاية عن الخليل - عليه السلام -: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [الأنعام: الآية ٧٩].

وفي الصحيح: أنه - ﷺ - كان يقول عند النوم: «اللَّهُمَّ وَجَّهْتِ وَجْهِي إِلَيْكَ»<sup>(١)</sup>.

وفي الصحيح في دعاء التوجه: «وجهت وجهي»<sup>(٢)</sup>. ونحو هذا.

والعامة لهم شعور بهذا الوجه ولا يعلمون ما هو؟! وهذا من بقايا علم الخاصة في السنة العامة، فإنهم يقولون لمن يدعون له: بيض الله وجهك، أبيض كان أو أسود!! ويقولون لمن يدعون عليه: سؤد الله وجهك كذلك؛ فليس المراد بهذا الدعاء إلا الوجه المذكور، لا العضو المعروف. وإليه يشير قوله:

﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران: الآية ١٠٦].

فإن من الوجوه الحاكمة على هذه الممالك الإنسانية المتولية على رعاتها من تأتي رعيته ومملكته دنسة فذرة سوداء بأقذار المخالفات وأنواع الشرك والمعاصي، فهذا هو سواد هذا الوجه عند من ولأه وجعله حاكماً، ومن الوجوه من هو بالعكس، وهذا هو بياض هذا الوجه، عند من ولأه، وهو الاسم الجامع كمحاسبة العمال وعرض رعاياهم على الملك سواء بسواء، يشير إلى هذا قوله:

﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾ [المطففين: الآية ٢٤].

أي: تعرف من معرفتك وجوههم الحاكمة عليهم أنهم سعداء أهل نعيم، فإن من عرف الحاكم عرف حال رعيته ومملكته الحاكم عليها خيراً أو شراً.

\* \* \*

## الموقف السادس والأربعون بعد المائتين

قال تعالى: ﴿وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأَنْزَلَ إِلَيْكُمُ وَإِلَيْنَا وَإِلَيْكُمْ وَجِدُّ وَنَحْنُ لَكُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: الآية ٤٦].

القول في الآية إشارة لا تفسير، أنه تعالى أمر المحمديين أن يقولوا لكل طائفة من طوائف أهل الكتاب: يهود ونصارى وصائبة وغيرهم آمنا بالذي أنزل،

(١) رواه الطبراني: المعجم الصغير (٩/١) طبعة السلفية. ورواه البخاري في الأدب المفرد: (١٢١١) طبعة السلفية.

(٢) رواه مسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه، حديث رقم (٢٠٠ - ٧٧١). ورواه الترمذي: الجامع الصحيح، كتاب الدعوات، باب ما جاء في الدعاء عند افتتاح الصلاة بالليل، حديث رقم (٣٤٢١).

أي تجلّى إلينا وهو الإله المطلق عن كل تقييد، المنزه في عين تشبيهه، في عين تنزيهه، وهو هو المشبه في الحاليتين. وأنزل أي تجلّى إليكم في صور التقييد والتشبيه والتحديد، وهو هو المتجلّى إلينا وإليكم، فليس النزول والإنزال والتنزيل والإيتاء، إلا ظهورات وتجليات سواء نسب ذلك إلى الذات أو إلى كلامها، أو إلى صفة من صفاتها، فإن الحق - تعالى - ليس في جهة فوق لأحد فيكون الصعود إليه، ولا جهة لذات الحق - تعالى - وكلامه وأسمائه، فيكون النزول منه إلينا، وإنما النزول ونحوه باعتبار المتجلّى له ومرتبته؛ فالمرتبة هي سوّغت التعبير بالنزول ونحوه. والمخلوق مرتبته سافلة نازلة، والحق - تعالى - مرتبته عالية، رفيع الدرجات، فلولاً هذا ما كان التعبير بنزول ولا إنزال، ولا صعود ولا عروج، ولا تدلّ ولا تدان. وإنما كان التعبير بالنبأ للمجهول؛ لأن التجلّي صادر من الحضرة الجامعة لجميع أسماء الألوهية، ولا يتجلّى منها إلا حضرة الإله وحضرة الربّ وحضرة الرحمن، قال: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر: الآية ٢٢]، وقال: «ينزل ربنا»، كما ورد في الخبر. وقال - تعالى - ﴿إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: الآية ٢١٠]، وغير ممكن أن تتجلّى حضرة من الحضرات بجميع ما اشتملت عليه من الأسماء، فهي دائماً تتجلّى بالبعض وتستر البعض، ممّا اشتملت عليه، فافهم، فالهنا وإله كل طائفة من الطوائف المخالفة لنا واحد وحدة حقيقية؛ كما قال في أي كثيرة، وإلهكم إله واحد، وقال:

﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ﴾ [آل عمران: الآية ٦٢].

وإن تباينت تجلياته ما بين إطلاق وتقييد وتنزيه وتشبيه، وتنوّعت ظهوراته، فظهر للمحمدين مطلقاً عن كل صورة في حال ظهوره في كل صورة من غير حلول ولا اتحاد ولا امتزاج، وظهر للنصارى مقيداً بالمسيح والرهبان؛ كما أخبر تعالى عنهم في كتابه، ولليهود في العزيز والأخبار، وللمجوس في النار، وللثنوية في النور والظلمة، وظهر لكلّ عابد شيء في ذلك الشيء من حجر وشجر وحيوان ونحو ذلك، فما عبد العابدون الصور المقيّدة لذاتها؛ ولكن عبدوا ما تجلّى لهم في تلك الصورة من صفات الإله الحق - تعالى -، وهو الوجه الذي لكل صورة من الحق - تعالى -، فالمقصود بالعبادة واحد من جميع العابدين. ولكن وقع الخطأ في تعيينه، فالهنا وإله اليهود والنصارى والصابئة وجميع الفرق الضالّة واحد؛ كما أخبر تعالى؛ إلا أن تجلّيه لنا غير تجلّيه في نزوله إلى النصارى، غير تجلّيه في نزوله لليهود، غير تجلّيه لكل فرقة على حدتها، بل تجلّيه في نزوله للأمة المحمدية متباين متخالف، ولذلك

تعددت الفرق فيها إلى ثلاث وسبعين فرقة، وفي نفس هذه الفرق فرق بينها تباين وتخالف كما لا يخفى على من توغل في علم الكلام. وما ذلك إلا لتنوع التجلي بحسب المتجلى له واستعداده والمتجلى تعالى واحد في كل تنوع وظهور ما تغير من الأزل إلى الأبد، ولكنه - تعالى - ينزل لكل مدرك بحسب إدراكه والله واسع عليهم، فاتفقت جميع الفرق في المعنى المقصود بالعبادة، حيث كانت العبادة ذاتية للمخلوق وإن لم يشعر بها إلا القليل، من حيث العبادة المطلقة، لا من حيث أنها كذا وكذا واختلفت في تعيينه، فنحن للإله الكل مسلمون وبه مؤمنون، كما أمرنا أن نقول. وما شقى من شقى إلا بكونه عبده في صورة محسوسة محصورة، وما عرف ما قلنا إلا خواص المحمدين دون من سواهم من الطوائف، فليس في العالم جاحد للإله مطلقاً من طائعتي ودهري وغيرهما، وإن فهمت عباراته غير هذا فإنما ذلك لسوء التعبير؛ فالكفر في العالم كله إذن نسبي، وهنا نكتة إن شعرت بها فمن لم يعرف الحق - تعالى - المعبود هذه المعرفة عبد رباً مقيداً في اعتقاده، محجراً عليه أن يتجلى لأحد بغير صورة اعتقاد هذا المعتقد، وكان المعبود الحق - تعالى - بمعزل عن جميع الأرباب، وهذا من جملة الأسرار التي يجب كتمها عن غير أهل طريقتنا ويكون مظهره من الفتائين لعباد الله - تعالى - فالحذر الحذر، ولا ذنب على من كفر مظهره، من العلماء، أو نسيه إلى الزندقة حيث لا تقبل منه توبة، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

\* \* \*

### الموقف السابع والأربعون بعد المائتين

قال تعالى: ﴿وَهَلْ أُنْتَكِ نَبْوًا الْحَصَمُ﴾، إلى قوله: ﴿وَحَسَنَ مَكَابٍ﴾ [ص: ٢١ - ٤٠].

اعلم أن داود - عليه السلام - كان إنساناً كاملاً وخليفة ظاهراً وباطناً. وما نص الله - تعالى - في كتابه على خلافة أحد من الخلفاء إلا عليه في قوله: ﴿يُنَادُواذُنَا إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ﴾ [ص: الآية ٢٦].

وآدم - عليه السلام - في قوله للملائكة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: الآية ٣٠].

أي مسكنه بجسمه يكون في الأرض، وإلا فالخليفة نافذ الحكم في العالم كله أعلاه وأسفله. والإنسان الكامل الخليفة، له استعداد للظهور بجميع الأسماء الإلهية



على التمام، ذاتية وصفاتية؛ لأنه مخلوق على الصورة. وذلك ممكن غير واقع، ولما ظهر داود - عليه السلام - بالأسماء التسعة والتسعين المشار إليها بقوله - ﷺ -: «إن لله تسعة وتسعين اسماً مائة إلا واحد»<sup>(١)</sup>.

تعلقت همته بالظهور بكمال المائة، وهو الاسم الذاتي الخاص بها، غار الحق - تعالى - من المشاركة بالظهور باسم الذات؛ فأرسل - تعالى - إلى داود - عليه السلام - ملكين في صورة رجلين متخصصين، أحدهما نائب الحق - تعالى - والآخر نائب عن داود - عليه السلام - فقال نائب الحق - تعالى -:

﴿حَصَمَانَ بَعَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ﴾ [ص: الآية ٢٢].

أي عدل عن خلقه وطلب غير مستحقه، يريد داود - عليه السلام - فيما سمت همته إليه، فاحكم بيننا بالحق، وهو إعطاء كل مستحق حقه، وليس لداود - عليه السلام - حق في الظهور بالاسم الذاتي، وإن كان له استعداد لذلك:

﴿إِنَّ هَذَا أَخِي﴾ [ص: الآية ٢٣].

يريد نائب داود - عليه السلام - وهو المدعى عليه، ومن أسمائه - تعالى - المؤمن، وقد ورد في الخبر: «المؤمن أخو المؤمن»، وفي هذا القول تسلية وتطبيب لقلب داود - عليه السلام - حيث أنزل نائب الحق - تعالى - نائبه منزلة الأخ، والغالب مشاركة الأخوين فيما لهما.

﴿لَمْ تَسْعُ وَتَسْعُونَ نَجَّةً﴾ [ص: الآية ٢٣]. كناية عن ظهور داود - عليه السلام - بالتسعة والتسعين اسماً.

﴿وَلِي نَجَّةً وَوَجْدَةً﴾ [ص: الآية ٢٣]. يريد ما تقدمت لأحد فيها شركة ولا طلب أحد الشركة فيها قبله.

﴿فَقَالَ أَكْفَلْنِيهَا﴾ [ص: الآية ٢٣]. ضمها إلي مع التسعة والتسعين نعمة، ففهم داود - عليه السلام - المثل المضروب له أول ما تكلم به الخصم، وهو نائب الحق - تعالى -، ولذا حكم له، ولم يترتبص لكلام المدعى عليه، ولا قال له: أدل بحجتك، بل ولا تكلم المدعى عليه بشيء، ويادر داود - عليه السلام - بقوله: «لَقَدْ

(١) رواه مسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب في أسماء الله تعالى وفضل من أحصاها، حديث رقم (٦ - ٢٦٧٧). ورواه غيره.

ظَلَمْتُكَ» يريد داود - عليه السلام - نفسه لا الملك الذي هو نائبه، وظنَّ داود - عليه السلام - عند ذلك أن الوارد الذي ورد عليه بطلب الظهور بالاسم المكمل مائة، إنما هو فتنة واختبار من الحق - تعالى - له، ثم راجع علمه، فإن المثل المضروب أذهله وأقلقته، فاستغفر ربَّه من هذا الظنِّ، الذي صدر منه فلتة لا غير، ولذا كان التعبير بالفاء، فالاستغفار والإنابة مفرَّعان عن الظنِّ؛ إذ ليس لكامل أن يظنَّ بربِّه هذا، فإنه إنما يأتي ما يأتي بالقاء الإلهيِّ إما بواسطة ملك، أو من جهة الوجه الخاص به، فهو على بصيرة وبيِّنة في كل ما يأتي ويندِّز، وأمر الحق - تعالى - للكامل لا تكون حباته للمكر، ولكن الحق - تعالى - قد يأمرهم بأشياء في بواطنهم ويمنعهم منها ظاهر الحكم، والحكمة هنا هي ألا يطلب أحد من الخلفاء الكاملين بعد داود - عليه السلام - الظهور بالاسم الذاتي وهو المكمل مائة، فإنه إذا منعه داود - وهو المنصوص على خلافته في القرآن، وهو الذي كُمل به ظهور الخلافة، فإنها من عهد آدم - عليه السلام - وهي تترايد في الظهور إلى أن كُمل ظهورها بداود - عليه السلام - فغيره ممن لم ينصَّ الحق - تعالى - على خلافته أولى بالمنع، فإيَّاك أن تسمع لخرافات القصاص وجهلة المؤرخين ومن قلدهم من بعض المفسرين المولعين بنقل أمثال هذا عن أهل الكتاب، فإن مقام النبوة أعلا من أن يتكلَّم فيه برأي أو قياس، وأعز من أن يدرك لغير نبيِّ فما علم العلماء من مقام النبوة والأسماء إلا ما علمه الناس من النجوم عند ظهورها في الماء، فالحذر الحذر من الخوض في النبوة والأنبياء مطلقاً، فالله يعصمنا وإياكم من الزلل في القول والعمل.

وبعد كتابتي لهذا الموقف بقليل؛ ورد عليَّ في الواقعة قوله:

﴿وَجُودٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾﴾ [الغاشية: الآيتان ٨، ٩].

\*\*\*

### الموقف الثامن والأربعون بعد المائتين

قال تعالى: ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ﴾ [إبراهيم: الآية ٢٥].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي﴾ أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ﴿البقرة: الآية ٢٦﴾.

وقال: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: الآية ٤٣].

أخبر تعالى: أنه يضرب، أي يبين، فإن الضرب لغة البيان بالأمثال للناس، ما غاب عنهم من الحقائق الإلهية، والمعاني الربانية، فإن المثل تخيل يوصل إلى تحقيق، ولا يشترط في المثل مساواته للمثل له من كل وجه، بل يكفي الوجه الواحد. والمراد بالناس المضروبة لهم الأمثال الذي إنسانيتهم حقيقية، فالأمثال مضروبة لمن كملت إنسانيته، فغلبت حيوانيته، لا مطلق المسمى إنساناً، فإن من المسمى إنساناً ما هو حيوان، والناس موضوع للجمع، واحده إنسان من غير لفظه، وقد ضرب الحق - تعالى - الأمثال بأقواله وأفعاله، وضرب المثل بالفعل أوضح في التفهيم وأبين في التوصيل، ونهى - تعالى - عباده أن يضربوا له الأمثال، قال:

﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾ [التحل: الآية ١٧٤].

أي لا تضربوا الأمثال للاسم الجامع «الله»، فإنه جامع للمتماثلات من المتضادات، والمتناقضات والمتخالفات والمتماثلات، وذلك من خواص الإله، وهو واحد، فلا يوجد له مثال، بخلاف غيره من الأسماء الخاصة. ووعد - تعالى - من آمن بما ضربه من الأمثال، تقليدًا لمن علمه الله ذلك من نبي وولي بأنه يمتن عليه بعلمها، في ثاني حال يرفعه من درجة الإيمان إلى درجة العلم، التي هي أعلا درجة من الإيمان، فقال:

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: الآية ٢٦].

أي سيعلمون أنه أي (المثال): ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: الآية ٢٦] حيث إنه مثال للممثل له حق ثابت، وذم - تعالى - من لم يؤمن بذلك، قال:

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا﴾ [البقرة: الآية ٢٦].

وذلك أنهم جهلوا الممثل له؛ فاحتقروا المثال، فما عرفوا أن العالم ظل الحق - تعالى - ولا علموا أن العالم كله اسمه الظاهر، وأنه تجلياته وظهوراته ومثالاته وتعيناته بحقائق ألوهيته، البعوضة فما فوقها إلى العرش إلى العماء، فكل العالم العلوي والسفلي، أمثال لما في الحضرة الإلهية العلية من الحقائق والرقائق، الكلبيات والجزئيات. وجعل - تعالى - معرفة الإنسان نفسه ضرب مثال لمعرفته ربه، فإذا عرف نفسه، عرف ربه؛ كما ورد في الخبر، الذي صححه الكشف، وإن قال بعض الحفاظ: إنه من كلام أبي بكر الرازي، فما أحالنا - تعالى - إلا عليه، في أمره لنا بالنظر في أنفسنا وفي السموات وفي الأرض، حيث يقول:

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [الرؤم: الآية ٨].

وقال: ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [التين: الآية ٢١]!

وقال: ﴿قُلْ أَنْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [يونس: الآية ١٠١].

يعني من حيث أنها أمثلة لما في الحضرة الإلهية من الحقائق والمعاني، لا من حيث هي أنفس وسموات وأرض، ولذا قال: ﴿أَنْظُرُوا مَاذَا﴾ [يونس: الآية ١٠١]، وقال مُمْتَنًا على خليله إبراهيم - عليه الصلاة والسلام -:

﴿وَكَذَلِكَ نُرَى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾

[الأنعام: الآية ٧٥].

وملكوت كل شيء، هو باطنه وما تضمَّنه من الدلالة والمثالية. والموقن الثابت الذي لا يتزلزل علمه ولا تطرقه الشبه، وليس ذلك إلا من علم بواطن الأشياء وحقائقها، وأما من كان علمه مقصورًا على ظواهر الأشياء وصورها، التي هي كالصدف على الدرّ، فعلمه عرضة لكل شبهة، وغرض لكل شك، فلا يقان له، فالأكوان خلقها - تعالى - سلايم يتوصل بها إلى المعاني الإلهية الباطنة فيها، فمن قصر نظره، ووقف مع المثال، ضلّ وحاز، ومن ارتقى إلى الحقيقة اهتدى؛ قال تعالى: ﴿يُضِلُّ بِهِ﴾ [البقرة: الآية ٢٦] (أي المثال) ﴿كَثِيرًا﴾ [البقرة: الآية ٢٦] وهو الواقف مع المثال الذي ما تعدى مرتبة الحسن، فما عرف أن الدرّ وراء الصدف، فهو ضالّ عمّا أريد بذلك المثال، ﴿وَيَهْدِي بِهِ﴾ [البقرة: الآية ٢٦] (أي المثال) ﴿كَثِيرًا﴾ [البقرة: الآية ٢٦]، وهو الذي فتح الله عين بصيرته فعبر من المثال إلى الممثل له؛ لأنه - تعالى - ما خلقنا إلا لنعبد - تعالى - . والعبادة من غير معرفة المعبود محال، فخلق العالم لنعرفه به - تعالى - فنعبده، فالآثار دلّت على المعاني «الإلهية»، والحقائق الربّانية، والمعاني الإلهية دلّت على ذات الإله الربّ المعبود تعالى: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ﴾ [البقرة: الآية ٢٦] (أي المثال) إلا الفاسقين.

والفسق لغة: الخروج، وهم الذين خرجوا عن إنسانيتهم جملةً واحدة إلى أسفل سافلين، فإن لكل بني آدم خلقًا: ﴿فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: الآية ٤]، وهي الإنسانية الحقيقية.

﴿فِطَرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الرؤم: الآية ٣٠].

ثم رَدّه - تعالى - أسفل سافلين بجعله تحت حكم الطبيعة وأسر العقل المعاشي، فإن العقل عقال عن الترقّي إلى إدراك الأمور الإلهية، التي فوق طوره؛ ولذا قال:

﴿وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [الغَنَكِبُوت: الآية ٤٣].

وما قال: وما يعلمها إلا العقلاء؛ إذ استناد الأمور الكونية، ومثاليّتها للحقائق الإلهية خفي عن العقول، لا تدركه بآلاتها، وما كان فوق حدّها المحدود لها، لا حيلة لها في الوصول إليه واكتسابه، وإنما لها أن تتعمّل بالأعمال الشرعيّة، وتستعد الاستعداد الجزئي، وتنتظر الوهب من الوهاب - تعالى -، فإنها علوم وهب، لا علوم كسب، وهو المسمّى بالعلم اللدنيّ، إشارة إلى قوله:

﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: الآية ٦٥].

ففيض هذا العلم متقدّم على تعقله، فإذا وردت هذه العلوم من الوهاب، عقلها العقل وصارت عنده من المعقولات، بل البديهيات، يعد أن كان لا يتصوّرهما ولا يحوم حول حماها، بل ينكرها إن سمعها، ولما كان موضوع هذا الموقف، التعيّنات والظهورات التي هي أمثلة وتخيّلات توصل إلى تحقيقات أدخلناها في قالب التمثيل، ليسهل تصوّرها ويحصل ما أردناه لإخواننا من معرفة التجليات، وإياك ثم إياك أن تتوهم وتخيّل - فيما أذكره في هذا الموقف - تشبيهاً عقلياً أو تمثيلاً وحلولاً واتحاداً أو سرياناً، أو امتزاجاً أو ارتساقاً، أو اتصلاً أو انفصالاً، أو مقابلة أو مقارنة، أو تقديماً أو تأخيراً، أو قبلية أو بعدية، أو كيفاً أو كمّاً أو معيّة أو أيّناً، أو متى أو ترتيباً، فمن توهم شيئاً من ذلك سقط في مهواة من التلف على أمّ رأسه.

## ١ - فصل

لما كان العالم هو الاسم الظاهر، وكان الإنسان من بين سائر العالم، جامعاً بين الاسم الظاهر والباطن، كان له الشرف؛ فهو أشرف المخلوقات وأكملها، وأما فضله على سائر المخلوقات فشيء آخر، فالإنسان الكامل هو الكون الجامع للحقائق الإلهية والكونية، فهو المثل الذي لا مثل له، قال تعالى:

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: الآية ١١].

ففي الكاف، طريقان عند أهل الله: الزيادة، وعدم الزيادة.

فعلى زيادة «الكاف» يكون المعنى: ليس مثل الحق - تعالى - شيء؛ لأنه عين الوجود ولا مثل للوجود، لأنه لو صحّ للوجود مثل لصحّ أن يطلق عليه اسم الوجود،

والوجود واحد لا ثاني له، فلا مثل له؛ أو يكون المنفي هي المثلية العقلية، وهي المساواة في جميع الصفات النفسية، لا المثلية اللغوية.

وأما على أن «الكاف» غير زائدة، وهو مذهب جمهور أهل الطريق، سادة هذه الأمة المحمدية؛ ففيها طريقان أيضًا، والمماثلة ثابتة على كلا الطريقين.

الأولى: أثبت له - تعالى - مثلًا وهو الإنسان الكامل، ونفى أن يماثل هذا المثل، فيكون مساق الآية: نفي المثل لمثل الحق - تعالى -، وهو الإنسان الكامل؛ إذ الإنسان الكامل مظهر جامع لجميع الحقائق الأسماوية، التي تطلب العالم: أعلاه وأسفله، جواهره وأعراضه. ومظهر أيضًا لجميع الحقائق الكونية، فالمقولات العشر، التي تجمع العالم كله، متفرقة في العالم، مجتمعة في الإنسان، فلإنسان نسبتان نسبة يدخل بها إلى الحضرة الإلهية، ونسبة يدخل بها إلى العالم، فهو المقابل لجميع الموجودات قديمها وحادثها. وما سوى الإنسان لا يقبل ذلك. فالحق - تعالى - له القدم، وما له دخل في الحدوث، والعالم له الحدوث، وما له دخل في القدم. والإنسان له القدم وله الحدوث، فهو منعت بهما؛ فلهذا هو ربّ وعبد، عبدٌ من حيث أنه مخلوق مكلف، وربّ من حيث أنه خليفة. ومن حيث أنه خلق على الصورة الإلهية؛ فهو يلحق بالإله التحاقًا معنويًا، والعالم كله تفصيل ما اجتمع في الإنسان الكامل. فلهذا سمّاه شيخنا إمام العالمين بالله محيي الدين الحاتمي: «بالإنسان الكبير، وبالعالم الكبير»، وسمّى العالم - مما عدا الإنسان - بالإنسان الصغير، قال لي سيدي محيي الدين في واقعة من الوقائع: (إن الله خلق الإنسان الكامل له، ليظهر به تعالى. وخلق العالم للإنسان الكامل له، ليظهر به، أي الإنسان؛ فالعالم مخلوق بواسطة الإنسان، وبسببه، وحيث كان العالم مخلوقًا للإنسان، والإنسان مخلوقًا له - تعالى -، كان العالم مخلوقًا لله؛ وذلك لكلام جرى بيننا، فإنه حضر بين أبدينا مؤلف من مؤلفات سيدنا - رضي الله عنه - ففتحته، فإذا أوله: الحمد لله الذي خلق العالم له، فقلت له: العالم مخلوق للإنسان، قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجن: الآية ١٣].

وليس تسخيره إلا سعيه في ظهوره، وما به بقاء ظهوره، والخطاب للإنسان، فأجاب - رضي الله عنه - بما تقدّم. ولما كان الأمر على ما ذكرناه أعقب تعالى قوله: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ﴾ [الغنكوت: الآية ٤٣].



بقوله: ﴿خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ﴾ [العنكبوت: الآية ٤٤].

وهو كل ما علا، «والأرض» وهو كل ما سفل، «بالحق» بسبب الحق المخلوق؛ إذ من أسماء الإنسان الكامل «الحق» المخلوق به، وليس إلا الحقيقة الإنسانية الأكملية المحمدية. أخبر - تعالى - أنه خلق السموات. والمراد: كل ما علا من الأفلاك والأمكنة والأرض، والمراد: كل ما سفل من العناصر والأركان وما تولد منها لتفصل مجمل الحق، الذي خلقت لأجله، وتمييز مبهمه وتظهر خفيته. وهذا بحسب الحق الأولي الغيبي العلمي، فإن الإنسان الأكمل متقدم بالحقيقة. وأمّا بحسب الخلق الإيجادي العيني الشهادي، من حيث الصورة والنشأة الطبيعية العنصرية؛ فالإنسان متأخر، اجتمعت نشأته من كليات حقائق السموات والأرض وجزئياتها، فكان مختصرهما، وهما مطوّلاه؛ ولذا قال تعالى:

﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر: الآية ٥٧].

لأنهما كالأبوين للإنسان، من حيث صورته الظاهرة، لا أنهما أكبر مقداراً، فإنه إخبار بمعلوم. وجلّ - تعالى - أن يخبر بمعلوم لا فائدة فيه، ولا أنهما أكبر قدرًا؛ فإنه خلاف ما هو الأمر عليه. ولكن أكثر الناس لا يعلمون أن السموات، وهو ما علا من الأرواح والأفلاك والأمكنة، أبأوتنا العلويات. وأن الأرض، وهو ما سفل من العناصر والأركان، أمهاتنا السفليات.

والطريق الثاني: أن يكون مساق قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: الآية ١١].

ليس مثل مثله شيء، أي لا يكون لمثل مثله - تعالى - مثل؛ فالمراد: إثبات مثل له - تعالى -، وإثبات مثل، وفي المثل من هذا المثل، وهذا أوضح؛ لأن «الكاف» اسم بمعنى مثل، فيكون هنا مثلان: مثل مشبه، ومثل متزه عن المثل.

فأما المثل المشبه فهو العالم غير الإنسان، ولكنه مثل غير كامل؛ إذ العالم ليس بمثل كامل، إلا باعتبار دخول الإنسان في جملته، فإن العالم إنما كامل بالإنسان الكامل، وما كمل الإنسان بالعالم. فالعالم مثل للحق - تعالى -، فإنه محل ظهوره - تعالى - بأسمائه العلى، وحقائق نسبه الحسنى، فكل حقيقة كونية كلية هي مظهر حقيقة إلهية كلية، وكل حقيقة كونية جزئية هي مظهر حقيقة إلهية جزئية.

وأما المثل المنزه، فهو الإنسانية الكمالية كآدم - عليه الصلاة والسلام - ومن ورثه من أولاده، الذين تسجد لهم الملائكة، فإن الملائكة لم تزل تسجد لمن ظهر بالحقيقة الإنسانية على الكمال، كما سجدت لآدم؛ فالإنسان الكامل من حيث أنه آخر موجود، من حيث الصورة الظاهرة هو مثل المثل، وليس للإنسان الكامل مثل، فإنه ظهر بالإنسان الكامل، من الأسماء الإلهية، ما لم يظهر بالعالم. فالإنسان الكامل «مثل» بسكون الراء على النحو الذي ذكرناه، ومثل بفتح الراء؛ لأن المثل هو ما يتعين به المثل له في الإدراك والحق - تعالى - الظاهر المتعين في الآفاق والأنفس متعين بالإنسان الكامل، ولذا كان من أسمائه «صورة الإله»، فإنه مستعد للظهور بجمع الأسماء الإلهية على تقابلها وتخالفها كما ظهر الحق بها، فإنه لما توجه الحق إلى خلقه بيديه؛ فحمل جميع الأسماء الإلهية، والحقائق الكونية. والعقل الأول لما توجه الحق إلى خلقه، خلقه بأمره؛ وهو «كن» فحمل علوم الكون إلى يوم القيامة، فالإنسان الكامل هو المثل الأعلى. قال تعالى:

﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الروم: الآية ٢٧].

ثم نعته بالعزیز الحكيم، فمن كان نعته العزة والمنعة، عز أن يعرف أحد مقامه وأوصافه. ووصفه بالحكمة؛ فيعطي على ما ينبغي، ويمنع على الوجه الذي ينبغي، فهو المثل الأعلى للحق، ظهر به - تعالى - للمدارك النورانية، فهو مرآة الحق - تعالى - ومرآة العالم؛ فمن رآه رأى الله - تعالى - ورأى العالم، ومن عرفه عرف الله وعرف العالم. وبهذا ورد «من عرف نفسه عرف ربه»، وأقول: من عرف نفسه من حيث الظاهر والباطن عرف ربه وعرف العالم؛ لأن النفس جامعة لحقائق العالم وحقائق الحق - تعالى -، قال تعالى:

﴿سَرُّهُمْ ءَايَاتُنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ﴾ [فصلت: الآية ٥٣].

فآيات الآفاق هي كل كون خرج عن الإنسان في العالم الأعلى والأسفل، وآيات الأنفس هي ما دخل في الإنسان من الحقائق الكونية المستندة إلى الحقائق الإلهية.

﴿حَقِّقْ يَبِينْ لَهُمْ﴾ [فصلت: الآية ٥٣].

أي الذين أراهم الله آيات الآفاق والأنفس، أن ما رآه في الآفاق والأنفس، لا بحلول ولا اتحاد، ولا بشيء مما تتخيله العقول السليمة؛ وإنما ذلك كظهور المعاني بالألفاظ، وكظهور الظل عن ذي الظل، لأن التجلي موضوع للرؤية، ولذا قال:

«سُنْبِرِيهِمْ» وقد فعل . وليس ذلك إلا بتجليّه في الآفاق والأنفس . وليس تجليّه في الآفاق بمغاير لتجليّه في الأنفس ؛ وإنما ذلك بمثابة المفصل من المجمل . وما ظهر بالحقيقة الإنسانية، التي هي عبارة عن الصورة الرحمانية على الكمال، سوى محمد - ﷺ - فإنه ظهر بها على الوجه الأكمل، الأفضل الأشرف؛ إذ هي حقيقته . وغيره من الأنبياء، والكمّل من ورثتهم على جميعهم الصلاة والسلام، حصل لكل نبيّ واحد منهم بحسب ما قسم له من القرب الإلهي، وإن اشتركوا كلهم في الكمال النبويّ والشرف والاصطفاء الاختصاصي الرسالي .

تنبيه :

وصف الإنسان الحقيقي بالكمال ليس للاحتراز من الإنسان الحيوان، فإنّ التمييز بينهما ظاهر بديهي، حيث إن الإنسان الكامل له الظهور بالاعتدال التام، تتكوّن الأشياء عند قوله: «كن» أو قوله: «باسم الله» يحيي ويميت ويدلّ ويعزّز، ويعطي ويمنع، ويولّي ويعزل . . الخ . ومع هذا الاعتدال الذي أعطيه فهو في نفسه العبد الذليل، الذي لا تشوب عبوديته ربوبية بوجه ولا حال، لا يظهر لأحد بما أعطاه وخصّه به من التصرف في العالم أعلاه وأسفله . والإنسان الحيوان لا شيء له من هذا، فلا مشاركة ولا مشابهة بينهما، فلا التباس؛ وإنما ذلك للاحتراز من الإنسان الناقص حسًا ومعنى، وهو الدجال، فإنه يظهر الاعتدال، يعطي التكوين بقول: «كن» مثل الإنسان الكامل، يقول للسماء: أمطري فتمطر، وللأرض: انبتي فتبت، وأخرجي كنوزك فتخرجها . . تجيب دعوته الوحوش وجميع الحيوانات، يمرّ على القوم فيدعوهم إلى عبادته، فإن لم يجيبوه، إن شاء قال لأموالهم: اتبعيني، فتبعه، وإن شاء قال لها موتي فتموت حالاً، يحيي ويميت، ومع هذا الاعتدال فهو إنسان ناقص حسًا ومعنى . أمّا المعنى، فلنقصه السعادة الأخروية، وأمّا الحس، فلأنه أعور العين اليمنى كأنها عنية طافئة، فنقص خلقته اليمنى إشارة إلى عدم سعادته الأخروية في الدار الآخرة، وإن كملت خلقته الشؤمي، التي هي إشارة إلى سعادته الدنيوية بالظهور بالخوارق، التي أعجزت الخلائق التي من جملتها أنه يتبعه مثل الجنة والنار . فلهذا الاشتباه في الاعتدال التكويني والإنسانية، جاء الوصف بالكمال، لتمييز الإنسان الكامل السعادتين، الصادق الولي، من الإنسان الناقص السعادة الأخروية الكذاب العدو .

واعلم أن الإنسان الكامل، والعالم كلّه، ليس بشيء زائد على أمور معلومة: أولاً، متّصفة بالوجود . ثانياً: والعلم عين العالم، والمعلوم عين العلم . فأيات الآفاق

والأنفس الظاهرة آيات ودلالات على ما في الحضرة الإلهية من الحقائق. إذ قدمنا أنه ما من حقيقة كلية كونية أو جزئية، إلا ولها حقيقة إلهية تقابلها، هي مستندها ومحتدتها. والحقيقة الكونية هي تعينها وظهورها، ومثال لها وفرعها. فالنسخة الكونية متقابلة للنسخة الإلهية حرفاً حرفاً، ولا يلزم من تقابل النسختين واستناد إحداهما إلى الأخرى المساواة في الحقيقة والنسبة، فإن الذهب تقابله مئاقيل الحديد في الصنجة التي يوزن بها، وأين الذهب من الحديد؟ وإن اشتراكا في الوزن والمقابلة؟ وقد عنّ لي أن أذكر بعض الكليات من تقابل النسختين، تأنيساً للإخوان، وحرصاً على إيصال العلم إليهم، فإن أكثر ساداتنا - رضوان الله عليهم - ذكروا تقابل النسخة الكونية، أعني العالم، مع النسخة الإنسانية، وما ذكروا من تقابل النسخة الكونية والإلهية إلا بعض أشياء ندره.

## ٢ - فصل بل وصل

قد أخبر - تعالى - أن له نفساً، أي ذاتاً، وأن له كلاماً وقولاً وكلمات، وأخبر رسوله - ﷺ - أن له نفساً، قال: «إن نفس الرحمن يأتيني من قبل اليمين».

رواه الإمام أحمد - رضي الله عنه - والنفس يستدعي مراتب تمييزه وتكليفه، كمخارج الحروف في الشاهد، وتفصيل هذا يطول. فالذات تقابل بالذات، والأسماء بالأسماء، والأفعال بالأفعال، والأحكام بالأحكام، والأمر بالأمر، والنهي بالنهي، والإجابة بالإجابة، والرد بالرد، والطاعة بالطاعة... فيقابل ذوات العالم وهي الجواهر، قوله: ﴿وَيُحَدِّثْكُمْ اللَّهُ نَفْسَكُمْ﴾ [آل عمران: الآية ٢٨].

ونفس الشيء ذاته. ويقابل قولنا: اغفر لنا وارحمنا، انصرتنا... قوله: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ [النساء: الآية ٧٧].

ونحوه من الأوامر، فإن الذي سُمي دعاء أدباً، هو في الحقيقة والصيغة أمر؛ إذ صيغة «أفعل» واحدة، وقولنا:

﴿لَا تَوَاصِدْنَ﴾ [البقرة: الآية ٢٨٦]، ﴿وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إصْرًا﴾ [البقرة: الآية ٢٨٦]، ﴿لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً﴾ [يونس: الآية ٨٥]... هو مثال قوله:

﴿وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [النساء: الآية ٣٦]، ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الرِّقَّةَ﴾ [الإسراء: الآية ٣٢]، ﴿وَلَا تَقْلُبُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ﴾ [الأنعام: الآية ١٥١].

فإن «ال» التي سُمِّيناها دعائية هي «لا» الناهية حقيقة، وقول من قال: «سمعنا وعصينا»، هو مثل قوله: ﴿وَمَا دَعَا الْكٰفِرِيْنَ اِلَّا فِي ضَلٰلٍ﴾ [الرعد: الآية ١٤].

وقوله: ﴿اِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللّٰهُ مِنَ الْمُتَّقِيْنَ﴾ [المائدة: الآية ٢٧].

وقوله: ﴿سَمِعْنَا وَاَطَعْنَا﴾ [البقرة: الآية ٢٨٥] هو مثال قوله: ﴿اُجِيبْ دَعْوَةَ الدّٰعِ اِذَا دَعَاكَ﴾ [البقرة: الآية ١٨٦].

وقوله: ﴿قَدْ اُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمْ﴾ [يونس: الآية ٨٩].

قبول بقبول، وردُّ بردُّ، بل طاعة بطاعة، بل عبادة بعبادة، وقد أطلق هذه اللفظة إمام الأولياء العلماء بالله محيي الدين، وهو من الملامية المتأدبين، قال: «فيعبدني وأعبده»، وقد ورد في كتب السِّير أنه - ﷺ - قال لعمره أبي طالب، لما قال له: يا بن أخي ما أرى ربك ألا يطيعك: «وأنت يا عمُّ لو أطعته لأطاعك»<sup>(١)</sup>.

فكلُّ ما في العالم لا بدُّ من أن ينفعل، وهو قبوله تأثير المؤثر، وفعل الفاعل؛ فهو مثال لهذه الحقيقة الإلهية ومستند إليها، وهي الإجابة، وتسمى في اللسان: المطاوعة؛ سموا الفاعل، مطاوع اسم مفعول. والقابل المتأثر، مطاوع اسم فاعل.

وما في العالم من الكم، فهو العدد، والكثرة، فهو مثال لقوله:

﴿وَلِلّٰهِ اَلْاَسْمَاءُ الْحُسْنٰى﴾ [الأعراف: الآية ١٨٠].

فاستاده ومقابلته للحقائق الإلهية.

وما في العالم من الكيف؛ فهو مثال لقوله:

﴿كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: آية ٢٩].

وقوله: ﴿الرَّحْمٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوٰى﴾ [طه: الآية ٥].

وقوله - ﷺ -: «ينزل ربنا كل ليلة...» الحديث، رواه البخاري في

الصحيح.

وما في العالم من التغذي، والعالم كله متغذ؛ فالهيولى التي هي أصل العالم، غذاؤها الصور مطلقاً، عقلية وروحانية ومثالية وجسمانية. وأغذية الأجسام جسمانية،

(١) أخرجه الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد (٣٧٨/٨) تصوير بيروت.

وأغذية الأرواح معنوية؛ فهو مقابل للأسماء الإلهية، التي تطلب العالم، فإن غذاءها بظهور آثارها، كالحقائق والرازق والمصوّر والقادر والمريد، ونحوها. ولو انعدمت الأشياء التي تظهر فيها آثارها لانعدمت الأسماء، أعني انعدم ظهورها لانعدام آثارها. وصارت كما كانت قبل خلق العالم، كما ينعدم من العالم ما لم يبق له غذاء.

وكل ما في العالم من التقييد والتجوير وعدم الإطلاق؛ فهو مثال ومقابل للقدرة الإلهية، فإن تأثيرها مقيد بالممكن ومقصور عليه، ولا تأثير لها في غيره، من واجب ومستحيل؛ إذ لو أثرت فيهما لانقلبت حقيقتها، وقلب الحقائق مُحال.

وكل ما في العالم من النسب والإضافات فهو مثال ومقابل لقوله: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفتح: الآية ٢]، ﴿مَلِكِ الْمَلَكِ﴾ [آل عمران: الآية ٢٦]، «خالق الخلق».

وكل ما في العالم من أن يفعل، وهو التأثير؛ فهو مقابل لقوله: «بِنِدْوِ الْمِيزَانِ، يَخْفِضُ وَيَرْفَعُ».

وكل ما في العالم من أين، وهو المكان؛ فهو مثال ومستند لقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌُ﴾ [الزخرف: الآية ٨٤].

وقوله - ﷺ -: «كان في عماء»<sup>(١)</sup>.

وكل ما في العالم من التراكيب والامتزاجات بين الأعيان أو بين المعاني فيظهر ثالث، ليس هو عين المركبين ولا غيرهما، ولا عين الممتزجين ولا غيرهما، فهو مثال مستند إلى تركيب الوجود الحق مع أحوال الأعيان الثابتة، فظهر هذا المسمى خلقًا، لا هو حق ولا هو خلق، وما هو إلا هما، واحذر أن تتوهم أن ذلك كتركيب محدث مع محدث، أو امتزاج محدث بمحدث! هيهات هيهات!!

وكل ما في العالم من اختلاف الصور والأشكال والألوان والأمزجة في النوع الواحد، كالواحد والنبات والحيوان والإنسان؛ فمستنده من الحقائق الإلهية، وارتباطه بعدم تكرّر التجلي الإلهي، فإنه - تعالى - ما تجلّى لواحد بتجلّ مرتين، ولا لاثنتين بتجلّ واحد، فلا بدّ من الاختلاف في أشخاص كل نوع من أنواع المخلوقات، مع وحدة كل نوع بالحدّ والحقيقة.

وكل ما في العالم من الشبهات والبرازخ، فإنه مثال لهذه الحقيقة.

(١) هذا الحديث سبق نخريجه.



وكلُّ ما في العالم من المتقابلات، فإنها أمثلة مستندة للقدمين الإلهيتين اللتين تدلُّنا إلى الكرسي، كما ورد في الخبر، الذي أخرجه الحاكم في المستدرک علی الصحیحین .

وكلُّ ما في العالم من الأمور، التي تظهر آثارها، ولا عين لها في الوجود الشهادي، كالطبيعة وبعض صفات الإنسان كالشجاعة والسخاء ونحوها، فهي أمثلة مستندة إلى الأسماء الإلهية، فإنها لا عين لها في الوجود الخارجي الشهادي، والآثار كلها لا تنسب إلا إليها .

وكلُّ ما في العالم ممَّا يدخل على الناس البسط والطرب، فيضحكون وينسطون، كهؤلاء الذين يفعلون أفعالاً ويقولون أقوالاً يضحك منها الكبير والصغير، والعاقل وغير العاقل؛ فذلك مرتبط ومستند إلى حقيقة قوله تعالى:

﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكٌ﴾ [النجم: الآية ٤٣].

وكلُّ ما في العالم من التضاد كالخوف والرجاء والقبض والبسط، والعز والذل، والحياة والموت، والليل والنهار، من حيث أنهما نور وظلمة؛ فذلك مثال مستند إلى اسميه تعالى:

﴿الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ [الحديد: الآية ٣].

وإلى التجلي والاستتار، وأما ظهور الزيادة والنقص في الليل والنهار، مع أنهما في نفس الأمر على حالة واحدة لا يزيدان ولا ينقصان، وإنما ذلك بحسب الرأيين لتفسير الأوضاع الأرضية والسماوية عليهم، وإلا فالليل والنهار يتساوقان دائماً إلى قيام الساعة؛ فذلك مستند مثال إلى تحول الحق - تعالى - في الصور، كما ورد في صحيح مسلم، وظهوره تعالى باسم، وبطونه بآخر، وتجليه بصورة واستتاره بأخرى، وكلُّ ذلك راجع إلى الرأيين؛ وإلا فهو - تعالى - متجلُّ أولاً وأبداً، لا يحدث له انتقال من صورة إلى أخرى، ولا يعتره ظهور ولا بطون، ولا تجلُّ ولا استتار .

وكلُّ ما في العالم من الأحوال الوجدانية الذوقية التي لا تدرك إلا ذوقاً، فلا تعلم بالحد ولا تدرك بالرسم، مثل العلوم الذوقية، والطعوم والروائح المكتسبة من البواطن؛ فذلك مثال مستند من الحقائق الإلهية، وما وصف الحق - تعالى - به نفسه: من الرضا والغضب، والشوق والحب، والفرح... وغير ذلك من الأحوال الذوقية؛ فلا يمكن أن يخلق الخالق، ويفعل الفاعل شيئاً ليست له منه نسبة بوجه

من الوجوه، أو اعتبار من الاعتبارات فقد تفرّر عند أهل هذا الشأن، الذين أعلمهم الله - تعالى - بحقائق الأشياء أن الشيء لا ينتج شيئاً يكون ضده أو نقيضه. قال تعالى:

﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ﴾ [الإسراء: الآية ٨٤].

أي على ما يناسبه، لا على ما يناقضه ويضاده؛ ولأن نتيجة الشيء هي أثره الحاصل منه، فهي من لوازمه. ومن المستحيل أن يكون لازم الشيء ضدّاً أو نقيضاً له، وأثقل شيء على النفوس، وأعضاه تصوّراً، وأبعده قبولاً من العقول الضعيفة، استناد حقائق كونية، تحيل معانيها العقول عن الحق - تعالى - إلى حقائق إلهية. منها ما لا يقال ولا يطلق الحق - تعالى - أدباً - وإن كان حقاً - إذ ما كل حق يقال، ومنها ما يقال للخواص، الذين ميّزوا المراتب، وعلّموا التنزيه في التشبيه، فأعطوا كل تجلٍ حقّه، ونزلوا كل اسم منزلته.

ولعلّوا هذا المنزع عن إدراك أكثر العقول وعزّته عن أن يطرق ساحته أكثر الخلق، ولما اشتمل عليه كلامنا من الأسرار المضمون بها؛ لأن علماء الظاهر تنكروها وتسارع إلى ردّها، لما شرعت في هذا الموقف، وكتبت بعضه. ورد الأمر الإلهي بالتوقّف، وتلا على الوارد قوله تعالى:

﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: الآية ١١٤].

فتوقفت مدة نحو السنتين، إلى أن ورد الإذن الإلهي بتمامه، وتلا عليّ الوارد قوله تعالى:

﴿فَلَا يَنْزِعُكَ فِي الْأَمْرِ وَأَدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَّ هُدًى مُسْتَقِيمٌ﴾ (٦٧)   
 وَإِنْ جَدَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ   
 فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾ [الحج: الآيات ٦٧ - ٦٩].

فمن ذلك استناد الشرك والظلم، والغضب والتعدي، والكذب والبهتان، والذل والافتقار، والجهل ونحوها إلى حقائق إلهية. أما الشرك فمستنده من الحقائق الإلهية قوله تعالى:

﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [النحل: الآية

فشرك في الفعل بين ذات وإرادة، و«قول» هذا إن كان الشرك أمرًا وجوديًا. وأما إذا كان من الإعدام فمستنده من الحقائق الإلهية مرتبة التنزيه، فإنها حضرة لا عين لها في الوجود الخارجي.

وأما تعدد الأرباب المعبودين حسًا في العالم، فمستند ذلك من الحضرة الإلهية تعدد الأسماء الخاصة، فإن لكل مخلوق - أي مخلوق كان - اسمًا خاصًا، وهو المسمى بالوجه الخاص، عند سادتنا، لا يشاركه فيه مخلوق آخر، ذلك الاسم هو ربه، لا يعرف ذلك المخلوق غيره، ولا يتجلى له الحق بالأصالة إلا فيه، وذلك الاسم، هو محتد ذلك المخلوق، وهو الطالب من الاسم الجامع «الله» إيجاد ذلك المخلوق؛ بل ذلك الاسم هو حقيقة ذلك المخلوق، فلهذا تعددت الأرباب في الحس، إذ لكل مخلوق ربًّا باطنًا تخصه من الحضرة الربية الجامعة، عرفه أو جهله المربوب.

وأما الظلم، وهو لغة وضع الشيء في غير موضعه اللائق به؛ فمستنده من الإلهيات أن يرسل - تعالى - مطرًا غزيرًا، فينهدم به بيت رجل صالح أعمى مقعد فقير له ذرية ضعفاء، أو المرأة على هذا النعت في محل لا راحم فيه، وكخلق النار مثلًا فيحترق به بيت رجل أو امرأة على هذا النعت؛ فظاهر هذا الفعل أنه غير لائق صدوره منه تعالى، فإنه فعل في غير محله اللائق به جلّ وعزّ تعالى عن الظلم، ووجه حسن هذا منه - تعالى - أنه حكيم، وليس من شأن الحكيم أن يترك فعل الخير الكثير إذا لزمه شرٌ قليل، ولا يخفى عن عاقل، أن إنزال المطر فيه حياة العالم من نبات وحيوان وإنسان. وخلق النار فيه من المصالح ما لا يجهله أحد، فلا يترك - تعالى - إنزال المطر، ولا خلق النار، ولا خلق الحديد، لئلا يقتل به نبي أو رجل صالح، لا يقال الحق - تعالى - قادر على إيصال المنافع من غير حصول ضرر لأحد؛ لأننا نقول: الحقائق الإمكانية لها ارتباطات مع بعضها، فمنها لوازم وملزومات، وتوابع ومتبوعات، فهو - تعالى - يفعل ما يريد، ويريد ما علم. وما علم إلا ما هو المعلوم عليه في ثبوته وعدمه، فلا يوجد شيئًا إلا كما علمه.

وأما الكذب في العالم، وهو الإخبار بالشيء على خلاف ما هو عليه؛ فهو مستند إلى ما نسبه الحق - تعالى - إلى عباده، فقال لهم: «فَعَلْتُمْ، أَحْسَنْتُمْ، أَسَأْتُمْ، صَلَّيْتُمْ، رَكَّعْتُمْ»، ولما حصص الحق قال: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ (٩٦) [الصفات: الآية ٩٦].

وقال: ﴿لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ﴾ [البقرة: الآية ٢٦٤].

وقال: ﴿وَمَا رَمَيْتَ﴾ [الأنفال: الآية ١٧].

وقال: ﴿قَلَمَ تَقْتُلُوهُمْ﴾ [الأنفال: الآية ١٧].

ووجه حسن هذا منه - تعالى - أنه قوله على وفق علمه، والجبر على وفق العلم لا يكون إلا صدقاً، فإنه - تعالى - علم من الإنسان دعوى الاستقلال بالفعل والترك، وأن له قدرة أو كسباً أو جزءاً اختيارياً، ولا تقوم الحجة عليه إلا بدعواه؛ فمضى دعوته لذلك.

وأما البهتان، فاستناده إلى ما ورد في الخبر المرفوع إليه - ﷺ -: «أنه تعالى يوم القيامة يوقف العبد بين يديه، ويقول: عبدي فعلت كذا وفعلت كذا»<sup>(١)</sup>.

وليس للعبد فعل، ووجه حسنه يعلم مما تقدم.

ويقبح من سواك الشيء عندي وتفعله فيحسن منك ذاك

وما في العالم من الاستعانة بالغير، والاستنصار به؛ فمستنده مثال مرتبط بحقيقة قوله تعالى: ﴿إِنْ نَصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ﴾ [محمد: الآية ٧].

يقول تعالى للممكنات، من باب الإشارة: ﴿إِنْ نَصُرُوا اللَّهَ﴾ [محمد: الآية ٧]. بقبول تأثير «يَنْصُرْكُمْ» على العدم، بإعطاء الوجود لكم؛ فإن علة الإيجاد مركبة من القائل والفاعل، ولولا ذلك ما وجد شيء. وما في العالم من المجازات والمقابلة فمستنده مثال مرتبط بحقيقة قوله: ﴿وَأَوْفُوا بَعْدِي أَوْفٍ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة: الآية ٤٠].

وقوله: ﴿فَأَذْكُرُوا﴾ [البقرة: الآية ١٥٢].

وما في العالم من المجازاة بالشر والمقابلة، فهو مستند إلى حقيقة قوله: ﴿وَهُوَ حَدِيثُهُمْ﴾ [النساء: الآية ١٤٢].

وقوله: ﴿وَمَكْرَ اللَّهِ﴾ [آل عمران: الآية ٥٤].

(١) هذا الحديث بهذا اللفظ لم أجده إنما وجدت معناه عند الترمذي، كتاب صفة القيامة والرفاق والورع، حديث رقم ٢٤٢٧.

وما في العالم من الخدع والمكر والنفاق، فمستنده قوله: ﴿سَلَسَدْرُهُمْ مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: الآية ١٨٢].

يمدّهم بالنعم وينسيهم الشكر عليها، فسيستوجبون العذاب به، فإن أصل الخداع والمكر إرادة الشر من حيث لا يعلم.

وما في العالم من الجبر فمستنده من الإلهيات، أنه - تعالى - لا يعطي معلوماً إلا ما أعطاه ذلك المعلوم من العلم بنفسه، ولا يعلم به إلا ذلك. فهو - تعالى - مجبور أن لا يتعدى به، ما علمه منه، بوجه ولا حال. ولذا قال: ﴿مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلَ لَدَيْكَ﴾ [ق: الآية ٢٩]. وما قال إلا ما علم، وما علم إلا ما أعطته حقيقة المعلوم.

وما في العالم من فعل، مع كراهة الفاعل وتردده وحيرته فمستنده من الإلهيات ما ورد في الصحيح، فيما يرويه رسول الله - ﷺ - عن ربه: «ما ترددت في شيء أنا فاعله، ترددي في قبض نسمة عبدي المؤمن، يكره الموت وأكره مساءته، ولا بد له من لقائي»<sup>(١)</sup>.

فيميته - تعالى - على كره بعد تردد هو المعلوم، فإنه علمه كذلك، وخلاف المعلوم ما يكون.

وما في العالم من الافتقار فمستنده من الإلهيات توقف العلم على المعلوم، وكونه تابعاً للمعلوم؛ فإن المعلومات أعطت العالم العلم بها، فلم يكن له العلم بها إلا منها. ومن غلب عليه التنزيه له أن يقول، إن الحق - تعالى - ما أخذ معلوماته إلا من ذاته، لا من غيره، فمنه وإليه.

وما في العالم من الجهل بسيطاً أو مركباً فأصله ومستنده من الإلهيات، قوله:

﴿أَنْتَبِهُنَّ اللَّهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ [يونس: الآية ١٨] ١٩.

يعني الشريك، فهو - تعالى - لا يعلم له صورة علمية ولا حسية، فمسمى الشريك عدم.

وما في العالم من السهو والنسيان والغفلة، وإن اختلفت حدودها، فهي في مقابلة قوله: ﴿إِنَّا نَسِينَكُمُ﴾ [السجدة: الآية ١٤].

(١) رواه البيهقي في السنن الكبرى. (٢١٩/١٠) تصوير بيروت.

وقوله: ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَسْتَكْفِرُ﴾ [الجاثية: الآية ٣٤].

وما في العالم من الحركة حسًا وعقلًا ومعنى وكيفًا؛ فهي في مقابلة قوله تعالى: «من تقرب إلي شبرًا، تقربت منه باعًا، ومن أتاني يمشي، أتيته هرولة»<sup>(١)</sup>.

وقوله: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر: الآية ٢٢].

وقوله: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ﴾ [البقرة: الآية

[٢١٠].

وأما الجور، وهو لغة الميل إلى أحد الجهتين. غير أنه إذا كان الميل إلى ما ينبغي ويحمد شرعًا أو عرفًا، خصّ باسم العدل، وإن لم يكن كذلك، خصّ باسم الظلم والجور؛ فمستنده للحقائق الإلهية: «الإرادة»، فإنها جورٌ وميلٌ إلى ترجيح أحد الجائزين، اللذين هما حقيقة الممكن. فالكائنات كلها إنما كانت بجور الإرادة وميلها لأحد الجائزين على الممكن، فإن الاعتدال لا يكون عند شيء أصلاً، فلو بقيت قبة الميزان على الاعتدال ما ارتفع شيء وانخفض شيء. وقد أخبر عنه - ﷺ - أنه يخفض الميزان، ويرفعه.

وأما الغضب والتعدي وهو أخذ الشيء من يد صاحبه المتصرف فيه، فهو في مقابلة الأسماء الإلهية المتضادة؛ كالمعز والمدلّ ونحوهما، يكون الاسم المعزُّ مثلاً حاكمًا على شخص ظاهرًا به. وذلك الشخص عزيزًا، فيغير عليه الاسم المدلّ، فيخطفه من يد المعز، فيصبح ذلك الشخص ذليلاً. وذلك بحسب القضاء الأزلي، فإن قضى برجوع ذلك الشخص إلى عزته، بقي الاسم المدلّ مقهورًا تحت دولة الاسم المعزُّ إلى أن تنقضي دولته، فإن للأسماء الإلهية دولاً وأياماً يدال هذا الاسم مرة ويدال عليه مرة أخرى، فيأخذ ذلك الشخص ويسترجعه من يد غاصبه، وإن كان القضاء سبق، بأنه لا يرجع إلى عزته ذلك الشخص أبدًا، ذهب الاسم المعزُّ جملةً واحدة، ولم يبق له تعلق بالنسبة إلى ذلك الشخص أو بعكس ما ذكرنا بين الاسمين، وهكذا جميع الأسماء المتقابلة، والنهاية أبدًا لا يكون حكمها إلا للاسم الأول، الذي عيّن ذلك الشخص، الثابتة صورته، وهو المعبر عنه بالوجه الخاص، الذي للحق - تعالى - في كل موجود، ومن حيث ذلك الوجه ثبتت المعية والقرب والعلم بالجزئيات؛ فإن كان من أسماء الجمال الكلية أو الجزئية فالإله النهاية، أو من أسماء

(١) هذا الحديث سبق تخريجه.



الجلال والقهر فكذلك. وإن اعترضته في الطريق عوارض تضادّه فلا بدّ أن يرجع الأمر والحكم إليه في النهاية، فإن الأمر الوجودي، دائرة بدايته عين نهايته. قال تعالى:

﴿ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾ [الأعراف: الآية ٢٩].

أخبر أن العود عين البدء، أي رجوعكم في النهاية إلى البداية؛ فالنهاية عين البداية.

وما في العالم من رفع درجة بعضهم فوق بعض، وتسخير بعضهم لبعض؛ فهو مثال مستند لرفع درجة بعض الأسماء الإلهية على بعض. فإن اسمه «الحي»، أرفع درجة من جميع الأسماء؛ لأنه شرط في الجميع. وبعده اسمه «العالم» فهو أرفع من جميع الأسماء، ما عدا «الحي» لعموم تعلقه، والقدرة الإلهية تحت تسخير الإرادة. والإرادة تحت تسخير العلم. والعلم تحت تسخير المعلوم، فإنه تابع له.

فها قد ذكرنا بعض الكلّيات من تقابل النسخة الإلهية والنسخة الكونية، فتخا للباب ورميًا للمسترشدين على الطريق. ومن هذا يعلم أنه لا شيء قبيح لذاته، ولا منكر لعينه، وإنما ذلك لعوارض تعرض للفعل، من حيث صدوره من المخلوق، فلا يوجد في العالم قبيح ولا منكر إلا باعتبار، فكل ما خلق الله فهو ملبح بالأصالة، فلم يبق إلا المطلق. ومن أحاط علمًا بما قدمناه، وفهمه على النحو الذي أردناه عرف أن النسختين متقابلتان حدو القدّة بالقدّة، وعرف صحة قول حجة الإسلام الغزالي - رضي الله عنه -: ليس في الإمكان أبدع ولا أكمل من هذا العالم؛ إذ لو كان وأدخره لكان بخلاً يناقض الوجود، وعجزًا يناقض القدرة. مع ما تقدّم وتأخّر من كلامه في باب التوكل، من كتابه «إحياء العلوم». يريد - رضي الله عنه - أنه لما كان العالم مظاهر أسمائه - تعالى - الكلّية والجزئية؛ لأنها الطالبة لإيجاد العالم وإظهاره من العدم الإمكانية، مع طلب الحقائق الإمكانية للإيجاد والظهور، من التعيّن العلمي إلى التعيّن الخارجي، مع عوارض التعيّن الخارجي ولوازمه من الأحوال والنوع، التي لا تنحصر، ولا تدخل تحت ضابط، ولا قياس. وقد أجاب الحقّ - تعالى - طلب الجميع، فلم تبق حقيقة كلّية إلهية تطلب العالم إلا وقد ظهرت بحقيقة كلّية كونية، وجزئياتها وأشخاصها لا تتناهى، فلم يبق شيء في الإمكان من حيث الأجناس والأنواع إلا وقد كان، فإنه لو بقي في الإمكان شيء بعد هذا العالم جنسًا أو نوعًا،

وآذخه - تعالى - لكان هذا الأذخار بخلاً عن الممكنات الطالبة باستعدادها للإيجاد، وعن الأسماء الإلهية الطالبة لظهورها بظهور الممكنات، التي هي آثارها. وإن لم يكن بخلاً تعيّن أن يكون عجزاً؛ فإن عدم إسعاف الطالب بمطلوبه لا يكون إلا بخلاً أو عجزاً، وكلاهما محال على الجواد المطلق القادر على كل شيء، فهو الذي أعطى كل شيء خلقه واستعداده كما ينبغي، وعلى الوجه الذي ينبغي، وبالقدر الذي ينبغي، فإعطاء الحق - تعالى - تابع للمطلب الاستعدادي الكلي من الأسماء ومن الأعيان الثابتة، التي هي صور الأسماء. وللمطلب الحالي الاضطراري لا القولي إلا أن يوافق الاستعدادي والحالي؛ فلا يجب لشيء على الحق - تعالى -، ولا يتصور في حقه - تعالى - منع مستعد لشيء منّا هو طالبه باستعداده الكلي، فإن من أسمائه تعالى «المعطي»، ولا يكون مسمّى بهذا الاسم في حال دون حال، ولا في وقت دون وقت، وما سمّي بـ«المانع» إلا من حيث عدم قبول الطالب بلسانه، ما هو مستعد لقبوله؛ فما أنكر قولة حجة الإسلام، واستعظمها واستغربها منه إلا من كان متكلماً قحاً محجوباً عن الرقائق والدقائق، ما شَمَّ رائحة من علم القضاء والقدر، ولا عرف كيف نشأ العالم ولا أسباب صدوره؛ فتوهم أن في هذه المقالة تعجيزاً للقدر، وتناهيًا للمقدّرات، وإيجاباً على الحق - تعالى - فعل الأبدع، ومشيئاً على قواعد المعتزلة، وهيئات هيئات!! وإنما مراد حجة الإسلام: التنبيه على أن سبب هذا الاختلاف، الواقع في العالم بين أجناسه وأنواعه، وبين أشخاص النوع الواحد؛ هو القضاء الأزلي. وسبب القضاء الأزلي هو الحكمة من اسمه تعالى «الحكيم»، فهي المخصّصة للاستعدادات، والحكمة متقدّمة بالمرتبة على العلم الأزلي، فما ظهر في هذه النسخة الشهادية إلا ما طلبته الاستعدادات الأزلية غير المجمولة؛ فكل ما ظهر في العالم فهو العدل والحق:

﴿وَلَا يَظَلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: الآية ٤٩].

### إنك رمز وفتح كنز

من أعظم الأمثلة للتجليات الإلهية الأجسام الصقيلة، وبالخصوص المرايا. ومنها الآلة الشمسية المسماة بفوطوغراف، التي حدثت في زماننا. جعل - تعالى - الأجسام الصقيلة مثلاً لتجليه في الصور الحسية والخيالية، والمثالية والعقلية، وإن تصور تجليه - تعالى - صعب جداً. فلذا ما تصوره أكثر الخلق، سوى هذه الطائفة المرحومة إلا بالحلول أو الاتحاد أو السريان أو نحو هذا من المستحيلات، ممّا

يكون بين موجودين مستقلّين بالموجودة، ومما هو من لوازم الأجسام، فما استطاعت العقول أن ترقى فوق هذا، والطائفة المرحومة أدركت تجليات الحق - تعالى - في الصور، وما اشتبه عليهم بحلول ولا اتحاد ولا بغير ذلك، مما اشتبه على غيرهم، من أصحاب العقول المعقولة بقيود الأكوان، المسجونة بسجني الزمان والمكان. وانظر إلى اختلاف مقالات العقلاء فيما يظهر بسبب المقابلة للمرأة، وكلُّ فرقة مصيبة في إبطال مقالة غيرها، غير مصيبة في دعواها، فإن ظهور الصور وتجليها في الأجسام الصقيلة مجهول للعقول لم يدركه حكيم ولا متكلم، وإنما أدركه أهل الكشف والوجود، الذين أعلمهم الله بحقائق الأشياء على ما هي عليه.

قال إمام الكاشفين من الأولياء محيي الدين - رضي الله عنه -: الجسم الصقيل أحد الأمور التي تظهر صورة البرزخ، المثل بجري العادة الإلهية. ولهذا لا تتعلّق الرؤية فيها إلا بالأجسام، هذا إذا كانت المرأة على شكل مخصوص، ومقدار جرم مخصوص؛ فإن لم تكن كذلك، لم تصدق المرأة في كل ما تعطيه، بل تصدق في البعض دون البعض. انتهى.

فما خلق الله المرايا إلا ضرب مثال لتجليه، فليست الصورة الظاهرة بسبب المقابلة للمرأة عين المتوجّه على المرأة، وإلا لما تحكّمت فيه المرأة فظهر بما عليه المرأة صغرًا وكبرًا، واعوجاجًا واستقامة، وطولًا وعرضًا، ولا غيره؛ لأنها ما ظهرت إلا بتوجهه على المرأة، ولا عين للمرأة؛ لأن المرأة ما فيها صورة من ذاتها ولا غيرها، لأنها ما ظهرت إلا ما فيها، ولأنها (أي الصورة) بين المقابل والمرأة، والرائي لا يشكّ أنه رأى شيئًا زائدًا على المرأة، وعلى المقابل لها، فليس هو عدما صرفًا، ولا هو من المعقولات، ولا من الماديات، ومع إدراكه ذلك محسوسًا لا يقدر أن يحكم عليه بأنه موجود ولا معدوم، ولا ثابت ولا متغي، ولا هو معلوم ولا مجهول، ولا هو جوهر ولا عرض، ولا جسم، فهو شيء يدركه الحسّ ويشته، وينفيه العقل. فكذلك يقال في العلم الإلهي في التجلي، الوجود الحق الذات، متجلّ بالصور الحسية والخيالية والمثالية والعقلية والروحانية، التي هي مرايا تجليّه من غير حلول، ولا شيء مما أحالته العقول، ممّا يكون بين وجودين عند القائلين بالاثنتين، وإذا كان بعض الحوادث يظهر بحادث مثله، ويتجلى به، من غير أن يتصور فيه حلول ولا غيره؛ كتجلي المعاني وظهورها بالألفاظ، فإنها بالضرورة ليس فيها ممّا ألزمتنا به، لقولنا بالتجلي في الصور من غير حلول ولا اتحاد، فإنه ليس عند أهل طريقنا إلا

وجود واحد، يتعدّد بتعدّد الصور، التي هي مراياه، يرى فيها ذاته المطلقة والمقيّدة المتعيّنة ببعض أسمائه، وكما أن المقابل للمرأة، تظهر له صورته بحسب ما هي المرأة عليه من الصفات، وهو على غير تلك الصفات في ذاته وصفاته؛ كذلك يقال في العلم الإلهي: الوجود الذات الحق، يتجلّى بالصور التي هي مراياه، بحسب استعداداتها، وما تعطيه أعيانها الثابتة في جميع صفاتها وأحوالها ونعوتها المحمودة والمذمومة، التي هي من لوازم الممكنات العارضة للوجود العيني، ولا يلحقه تغيير عمّا هو عليه من التنزيه والتقديس. وكما أن الصورة الظاهرة بسبب المرأة ليست عين المرأة، ولا عين المتوجّه على المرأة، ولا غيرهما؛ كذلك يقال في العلم الإلهي: الوجود الظاهر بالصور جميعها هو ظلّ الوجود المطلق عن التقييد، الظهور بالصور، وصورته الظليّة؛ فما هو عين الوجود المطلق، ولا غيره، ولا عين الصورة، ولا غيرها، فلهذا يقال في كل موجود: هو لا هو، بمعنى أن يقال في مسمّى زيد أي صورة مخلوقة، ثم يقال: ليس هو زيّداً، وإنما هو الوجود الظاهر بأحكام عين زيد، الثابتة في العدم؛ فالوجود المقيّد بالموجودات العلمية، وهي الأعيان الثابتة المعدومة في الخارج وبالموجودات الخارجية محصور في الظهور بالممكنات الثابتة العلمية والخارجية. وأمّا الوجود المطلق فهو على إطلاقه، لأنه لو تقيّد، انقلبت حقيقته، وقلب الحقائق محال، ومع هذا فالوجود المطلق عين الوجود المقيّد، لا فرق بينهما إلّا بالإطلاق والتقييد. والإطلاق والتقييد من الأمور الاعتبارية، لا عين لها في الوجود الشهادي، زائدة على الموجود؛ فلا يتوهم متوهم أن الوجود الذات المطلق، محصور في العالم، ولا يكمل شهود مشاهد وعرفان عارف حتى يشهد الإطلاق في التقييد، والتقييد في الإطلاق؛ لأن مشهوده ومعروفه هكذا هو، فافهم. وسيأتيك أوضح من هذا إن شاء الله وأبين.

وكما أنه المتوجّه على المرأة، إذا رفع يده اليمنى مثلاً رفعت الصورة يدها اليسرى، وبالعكس؛ فكأنها تقول للمقابل للمرأة: إنه وإن كانت نشأتي من مقابلتك فما أنا عينك؛ إذ لو كنت عينك ما خالفتك في شيء، ولا أنا غيرك، إذ لو كنت غيرك ما تحركت بحركتك. كذلك يقال في العلم الإلهي: الوجود الذات المتجلّي بالصور الظاهر بها، حسب استعداداتها، وما هي عليه القوابل لظهور آثار الوجود الذات، بقول للوجود المطلق: إني وإن كنت على صورتك فما أنا أنت ولا أنت أنا، فإنك المطلق وأنا المقيّد، ولا أنا غيرك، فإنه لولا توجّهك على العين الثابتة المعدومة ما ظهرت أنا بينك وبينها. وكما أن بعض المرايا المصنوعة على شكل

مخصوص وهيئة معروفة عند علماء علم المرايا، إذا قابلتها الشمس على حدٍ مخصوص ووضع معلوم انعكس ضوءها على المقابل لها، فيحرق ما سامتها من القطر المقابل؛ كذلك يقال في العلم الإلهي: أعيان العالم لا تزال ينظر بعضها بعضاً في مرآة النور الوجودي، فتعكس أنوارها عليها، بما تكتسبه من أنوار النور الوجودي، فتحدث في العالم التغيرات والاستحالات بالكون والفساد والمناسب الموافق الملائم، وغير المناسب المخالف، على أثر حقيقة النور الإلهي الواحد بالذات، المتعدد بحسب الاستعدادات، واختلاف القوابل. والمؤثر روحاني، والمتأثر طبيعي. وكما أن المرآة تحكم على المتوجّه عليها المقابل لها، فيظهر فيها بصفاتها ونعوتها؛ كذلك يقال في العلم الإلهي: الوجود الذات المتجلي بالصور تحكم عليه الصور، فيوصف بأوصافها، وينعت بنعوتها، ويسمى بأسمائها من ملك وعرش وكروسي وإنسان وحيوان وسماوات وعناصر ونحوها، وليس هنالك إلا الوجود الظاهر الشهادة، الساتر، والعالم كله الباطن، الغيب المستور؛ فإنه أخير تعالى:

﴿إِنَّهُمْ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطُونَ﴾ [فُضِّلَتْ: الآبة ٥٤].

والإحاطة بالشيء تستر ذلك الشيء، فيكون الظاهر: المحيط لا المحاط به؛ فإن الإحاطة تمنع من ظهوره. ولكن لما كان الحكم للموصوف بالغيبة في الشهادة، وللموصوف بالباطن في الظاهر، وكانت أعيان العالم الثابتة، على استعدادات في أنفسها، حكمت على الظاهر بما تعطيه حقائقها، فتسمى الوجود الذات بأسمائها، وأتصف بصفاتها، ونعت بنعوتها؛ وكما أنه إذا وضعت شمعة مثلاً موقدة في وسط مراية مختلفة الأشكال، من تربع وتسديس واعوجاج واستقامة وصفاء وكدورة، فترى تلك الشمعة في المرايا بحسب صفات المرايا المتعددة النعوت والصفات، فالشمعة واحدة في ذاتها، كثيرة بعدد المرايا، وهي - وإن ظهرت في كل مرآة بحسب ما هي عليه المرآة - فهي منزّهة في حدّ ذاتها من الحلول في المرايا وعن صفات المرايا. وهي على ما هي عليه قبل الظهور بالمرايا. كذلك يقال في العلم الإلهي: الوجود الذات الظاهر بالمظاهر - وإن عدده المظاهر ونوعته إلى ما لا يحصى من النعوت والأحوال والصفات - فهو واحد نزيه عن التلون والتعدد والانقسام والحلول والاتحاد بالصور، وهو بعد الظهور بالصور كهو قبل الظهور بالصور لا يلحقه تغيير في ذاته؛ وكما يقال في الصور الظاهرة في المرآة: إنها كالنسبة بين المنتسبين، ولا عين لها في حدّ ذاتها؛ فهي لا موجودة ولا معدومة من حيث ذاتها. فلو لا المرآة وفرض المقابل

للمرأة ما ظهرت صورة المرأة في المرأة، فهي اعتبار محض، في أمر محقق، وقد تتغير النسبة ولا يتغير المنسوب والمنسوب إليه، وتزول ولا يزول ذلك الأمر المحقق، ولا يتغير عما هو عليه. كذلك يقال في العلم الإلهي: الصور كلها معنوية عقلية وخيالية مثالية، وحسيّة شهادية، هي نسب حضرة بين أسماء الألوهة، وحضرة الأعيان الثابتة في العدم. فهي - أعني الصور - كلها اعتبار محض، في أمر محقق، وهي أسماء الألوهة، باعتبار قدمها وثبوتها للمسمى في الأزل، قبل إيجاد العالم. والأعيان الثابتة باعتبار معلوميتها، فإذا زالت النسب لم يزل ذلك الأمر المحقق ولا يتغير، كالخلف والإمام مثلاً، إذا استقبلت البيت ثم استدبرته، فتزول نسبة القدم وتحدث نسبة الخلف وعكسه، وأنت والبيت ما تغيرتما لتغير النسب وزوالها، فكل صورة في العالم العلوي والسفلي هي نسبة ظهرت بين مرتبة الأسماء والأعيان الثابتة، بتوجه النور الوجودي. وكذا يقال في الأعيان الثابتة، التي هي صور علمية: إنها نسب بين الذات الوجود، وبين أسماء الألوهة، وحكمها حكم الصور الخارجية. وكما أن الإنسان، إذا لم يَرِ الإنسان المرأة ولم يتقدم له نظر فيها، ثم نظر في المرأة، ورأى صورته فربما توهم أن صورته انتقلت إلى المرأة، أو أنه وجدت في المرأة صورة حقيقية تماثله، كذلك يقال في العلم الإلهي، الممكنات ما خرجت من الحضرة العلمية، وإنما ظهرت صورها، أي أحوالها ونعوتها وصفاتها، في مرآة الوجود النور. وذلك أنه لما تجلّت الذات من الاسم النور، للأعيان الثابتة؛ أبصرت الأعيان ذاتها في مرآة الحق، فتخيّلت أنها وجدت في المرأة، أو إنما ظهر في المرأة، موجود آخر غير الموجود في العلم. وما علمت أنه لما تجلّى تعالى، وهي موجودة في العلم: لم تستطع إدراكاتها التي هي بمنزلة الشعاع للأبصار، أن تنفذ في المرأة، فانعكس إدراكها إلى ما صدر عنه، فما انعكس الشعاع من المرأة إلى الناظر، فأدركت نفسها في العلم. وكما أن المنوّج على المرأة، إذا رأى صورته أو أي صورة رآها إنما يرى عوارض حقيقة ما رأى، وغواشيها الغريبة، وصفاتها كالبياض والسواد والطول والقصر، ونحو ذلك، من عوارض الوجود الخارجي. وأما حقيقة الصورة فلا ترى في المرأة، كذلك يقال في العلم الإلهي: كل شيء يدرك في مرآة الوجود الحق من الممكنات، ممّا يسمّى إنساناً وحيواناً مثلاً وزيداً وعمراً؛ إنما تلك عوارض الإنسان وزيد وعمرو، أدركت في الوجود النور، الذي هو بمثابة النور في إدراك أحوال الممكنات به، وصفاتها، وما يعرض لها. فكل ما يدرك ويشاهد إنما هو الوجود الذات مثلبساً بأحوال الممكنات ونعوتها، وأما حقيقة الممكن التي هي عينه الثابتة فلا



تدرك خارج العلم، ولا لها وجود خارجي. وكما أن الناظر في المرأة إنما يرى أثر وجهه الذي هو على صورته، لا وجهه حقيقة؛ إذ حقيقة الوجه الذي رآه في المرأة من وراء ذلك لا ينزل في المرأة ولا يمتزج بها. كذلك يقال في العلم الإلهي: جميع الآثار الكونية، هي مرايا يظهر فيها وجه الحق - تعالى -، فالأثر هو نفس صورة المؤثر، من حيث الظهور، وليس هو نفس صورة المؤثر من حيث البطون؛ إذ الأثر يوجد ويُعدم على حسب إرادة المؤثر وتوجهه، والمؤثر حقيقة من وراء الأثر، لا يتغير بالإيجاد والإعدام. فالآثار هي تجلياته تعالى، يشهده العارفون فيها، وهي الحجب له تعالى عند المحجوبين. وكما أن المرأة إذا قابلت امرأة أخرى ظهرت كل امرأة بما فيها في الأخرى؛ كذلك يقال في العلم الإلهي: المخلوق امرأة الخالق - تعالى - النور الوجود امرأة المخلوق، يرى المخلوق صورته في امرأة الوجود النور - تعالى -، فإنه كالمرأة لظهور صورة المخلوق به. وكما أن الناظر في المرأة يرى أولاً جرم المرأة، ثم ينحجب عنه جرم المرأة بصورته، أو بصورة ما رأى في المرأة؛ كذلك يقال في العلم الإلهي: أول ما يدرك من كل شيء وجوده، وهو الوجود الحق - تعالى -، الذي هو امرأة ظهرت به وفيه الأشياء، ثم ينتقل الإدراك البصري إلى صورة ذلك الشيء؛ فينحجب عنه الوجود الحق، ولا يقدر أن ينظر جرم المرأة وهو ينظر الصورة أبداً، وكما أن المرايا المتعددة، إذا وضعت متقابلات وصنعت صنعا مخصوصاً، يكون في كل امرأة منها ما في المرايا جميعها، كذلك يقال في العلم الإلهي: كل شيء فيه كل شيء، أي كل صورة فيها ما في الصور كلها، من حيث وحدة وجودها، ولكن ظهور آثار ما تضمنه الوجود مختلف بحسب الاستعدادات والأمزجة، وهي مختلفة اختلافاً لا يحصى، فظهور آثار ما تضمنه الوجود حاصل في الإنسان الكامل بالفعل، وفي غيره بالقوة والصلاحية. ويظهر في كل بحسب ما قسم له، قلة وكثرة لموانع مزاجية وطبيعية. وإلا ففي البعوضة ما في العرش من حيث الوجود، وكما أن المرايا منها ما يحرق ما واجهها ويفنيها، ومنها ما يظهر صورة ما واجهها ويبقيه؛ كذلك يقال في العلم الإلهي: إن من التجليات الإلهية ما يبقي ما توجه عليه ويعطيه أحوالاً ويوجد فيه أعراضاً، ومنها ما يفني ما توجه عليه كما ورد في سبحات الوجه: أنه لو كشفها لأحرقت ما أدركه بصره. وكما أن المرأة ما أثرت في حقيقة من أظهرت صورته فيها، وإنما أثرت فيه من حيث أنها أظهرت مثال صورته؛ فهي مجلى لبعض ظهوراته، ولبعض نسب تضاف إلى صورته المنطبعة في المرأة؛ كذلك يقال في العلم الإلهي: الوجود الحق الذي ظهرت به الممكنات،

ظهور الصور في المرأة، ما أثر في حقائقها، فليست بمجعولة له، بمعنى مخلوقة؛ فإن الممكنات من حيث حقائقها، هي شؤون الحق - تعالى - في التعيين الأول، فلا يجوز أن يؤثر فيها من هذه الحيثية. ولهذا يقول إمام العارفين محيي الدين - رضي الله عنه - : «ليس ثمة شيء يؤثر في شيء، وإنما المدد يصل من باطن الشيء إلى ظاهره»، والنور الوجود الحق يظهر ذلك. وكما أن الصورة تشهد بالمرأة، وتدرك بالإدراك البصري، ولا يدرك ما عدا ذلك من وجوهها، فلا تعلم من جميع الحيثيات والوجوه؛ كذلك يقال في العلم الإلهي: الذات التي هي ذات كل موجود وحقيقته يُدرك بالنور الإلهي، وتشهد من بعض وجوهها، ولا تُعلم، فلا يحاط بها، فهي مجهولة أبدًا. وكما أن المرأة لا لون لها، لذلك قبلت جميع الألوان والنعوت والصور، فتظهر فيها؛ كذلك يقال في العلم الإلهي: الوجود الذات لما كان لا صورة له ولا لون ولا نعت خاصًا به، يظهر بجميع الألوان والنعوت والصور، فيظهرها ظاهرًا بها. وكما أن صورة المتوجّه على المرأة؛ تظهر بالمرأة، ولا يعرف كيف كان ذلك، وما انفصل شيء عن شيء ولا اتصل شيء بشيء، ولا انتقل؛ كذلك يقال في العلم الإلهي: العارف بالتجليات الإلهية الأسمائية، يعرف تجلي الحق. ولم تجلي، وبم تجلي، ولا يعرف كيف تجلي؛ فإن علم كيفية التجلي في غاية الغموض، فكيفيّة تعلق القدرة بالمقدور غير واضح؛ لأن التجلي الوجودي، المنبسط النور على الممكنات الثابتة المعدومة غير مجعول، والأعيان الثابتة غير مجعولة أيضًا، ولا يعقل من أثر القدرة إلا اقتران الوجود المفاض بالعين الممكنة، والمقصود من الاقتران حركة معنوية معقولة، تُوجب الاتصال، ولا حركة في المعاني والحقائق المجردة. وأيضًا الممكن لا اقتدار له أصلًا؛ إذ لا فاعل إلا الله، فلا حقيقة للممكن يطلع بها على اقتدار الله وتجليه بالأشياء، إذ كلُّ شيء إنما يشهد الله من نفسه، ومما هو عليه، فما ليس فيه لا يعلمه من الحق؛ ولأن تجليه - تعالى - في الأسماء التي تعطي آثارًا وتظهر عنها أعيان تحجب تلك الآثار والأعيان عن إدراك موجد تلك الآثار وخالقها، إلا أن خصّ الله بذلك نبيًا أو وارث نبي، فذلك له تعالى.

### ٣ - فصل بل وصل

في مثالية الآلة الشمعية للتجلي الإلهي، ولتعرض لها فرضًا ليظهر التمثيل ويسهل الإدراك، فنقول:

إن ملكًا عظيمًا ما رآه أحد ولا عرفه بشيء من أوصافه خطر له في نفسه أن يتعرّف لغيره، فنظر وتأمّل في ذلك فوجد ذلك من جهة كنه ذاته غير ممكن، لموانع تمنع من ذلك، وأمّا من جهة النعوت والأوصاف فرأى ذلك ممكنًا، فخرج متحجّبًا برسم صورة، وقال من وراء حجابية تلك الصورة: هذه الصورة التي تدركونها هي مثال صورتي، فإني عرفت أنكم تعجزون عن إدراك حقيقتي وذاتي؛ فأظهرت لكم هذه الصورة لتعرفوني بعض المعرفة اللائقة بكم، لا المعرفة من حيث أنا، فإن ذلك غير ممكن، فخذوا عن هذه الصورة ما شئتم من الصور، فلنسمّ الصورة التي ظهر الملك متحجّبًا بها بالتعنيّ الأول، وبالحقيقة المحمّدية، وبحقيقة الحقائق، وبهولي الكل، وبالصورة الرحمانية، وبالوحدة المطلقة... وبغير ذلك من الأسماء، ولنسمّ أوّل صورة أخذت عن هذه الصورة بالعقل الأوّل، فإنه أوّل صورة روحانية، وبالقلم الأعلى، وبالروح الكل... وبغير ذلك من الأسماء. ولنسمّ التي أخذت عن هذه الصورة بأجناس العالم، والصور التي أخذت عن هذه الصور الجنسية، وهي أشخاص الأجناس لا نهاية لها. ولنسمّ الأوراق التي تجعل عليها الأصباغ لتستعد لظهور الصورة فيها بالأعيان الثابتة، وبالاستعدادات الإمكانية، عند ساداتنا وبالماهيات، عند الحكماء، وبالمعلوم المعلوم، وبالشياء الثابت عند المتكلّمين. وكما قلنا في المثال: إن الملك ما رآه أحد ولا عرفه من حيث ذاته، والذات هو الأمر الذي تستند إليه الأسماء والصفات في تعيّناتها لا في وجودها. سواء في ذلك القديم والحادث، وسواء كان الذات معدومًا كالنعفاء، أو موجودًا وجودًا محضًا، وهو ذات الحق - تعالى - أو موجودًا ملحقًا بالعدم، وهي ذوات المخلوقات المحدثات، كذلك يقال في العلم الإلهي: «الحق تعالى ما عرفه أحد من مخلوقاته من حيث ذاته، ولا يعرفه ملك ولا رسول لا في الدنيا ولا في الآخرة، فالكل في ذات الله حمقى»، كما ورد في الخبر: «وإن الملأ الأعلى ليطلبونه كما تطلبونه».

كما ورد أيضًا، فالمدعي معرفتها كاذب مباحث، والمتكلّم فيها لطلب معرفتها أخرس صامت، ولهذا يعبر عنه السادة بغيب الهوية، وبالغيب المطلق، وبالغيب المصون، وبالغيب المكنون، وبالهو، أي الذات الذي هو الكل في الكل، وبالغيب الذي لا يصحّ شهوده، وبمحلّ سلب الأحكام والقيود، وبالمعجوز عنه، وهو ما لا يتصوّر، فليس هو موجودًا ولا معدومًا. فليس بمعلوم؛ لأنّ التصوّر أوّل مراتب العلم. ولا هو مجهول؛ لأنّ الجهل لا يرد إلا على ما يرد

عليه العلم، إذ هو ضده، والعلم لازم لمحلّه، فلا يعرض له الجهل، فما لا يتعلّق العلم به في محله لا يتعلّق الجهل به فيه، وإلا اجتمع الضدان إن كان الجهل معناه التصديق بالخلاف، وإن كان الجهل معناه عدم العلم بما من شأنه أن يعلم؛ فهو نقيضه، ولا يجتمعان، ولا يرتفعان، لكن عمّا من شأنه أن يتعلّق به. وليس من شأن العلم أن يتعلّق بممتنع التصوّر، فليس من شأن الجهل الذي هو عدم تعلّق العلم بما من شأنه أن يتعلّق به أن يتعلّق بالممتنع التصوّر. فالممتنع التصوّر لا معلوم ولا مجهول. فطلب العلم بالذات من حيث هي ذات حماقة، والوصول إلى العلم بها مُحال. ولهذا حذّر الله - تعالى - عباده وأراحهم من طلب ما حصوله محال، فقال:

﴿وَيَحْذَرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَكُمْ﴾ [آل عمران: الآية ٢٨].

أي ذاته، وأمرهم بطلب ما حصوله ممكن، وهو علم مرتبة ذاته، وهي الألوهية فقال: ﴿وَلْيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَجَدُّ﴾ [إبراهيم: الآية ٥٢].

وقال: ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [محمد: الآية ١٩].

إذ الألوهة تُعلم ولا تُشهد، فإنها معقولة. والذات تشهد من بعض وجوهها ولا تُعلم، إذ العلم بالشيء يقتضي الإحاطة به من جميع جهاته ووجوهه، والإحاطة بالذات محال. فإن الذات في اصطلاح أهل الطريق سادة هذه الأمة؛ يراد به: ما لا يشعر به إلا من حيث أنه لا يشعر به. فالعلم به هو أنه لا يعلم، فلا يحاط به كل شيء. العلم به غير الجهل به، إلا الذات، العلم به عين الجهل به، وهو أنه لا يُعلم. فلا يدخل تحت إحاطة علم منه - تعالى - فضلاً عن غيره، فهو يعلمها أنه لا يحيط بها علمه. وهذا علم لا جهل معه، علم من حيث أنه علم أن من حقيقة الذات عدم الإحاطة بها. وجهل: من حيث أنه لا يحيط بها علماً، فعلم من حيث جهل، فجمع بين الضدين. وليس ثم من يجمع الأضداد إلا هو، ولا نقول: إنه - تعالى - لا يعلم ذاته، كما قيل، حيث العلم بالشيء يقتضي الإحاطة به من كل جهاته ووجوهه، وذاته - تعالى - لا نهاية لها، بمعنى أنه لا غاية لظهوراته بمفعولاته، والإحاطة بما لا يتناهى محال، لما فيه من الجمع بين النقيضين، وهو النهاية وعدم النهاية، ولا نقول إنه - تعالى - محيط بذاته؛ لأن الجهل عليه محال، كما قيل. والذي نقول - وهو الحق، والقول الصدق - إنه يعلم ذاته على ما هي عليه. والذي هو عليه عدم النهاية، وعدم الإحاطة بها. فهو يعلمها: أنه لا يحاط

بها. ومن علم الشيء على ما هو عليه لا يقال جهله. فالذات مقوم كل علم ومعلوم، وإدراك ومدرك، وحكم ومحكوم به، وهو لا يتقوم بشيء. فالذات لا يدرك ولا يعلم ولا يحكم عليه بشيء. وهذا الثبوت السلبي يعبر عنه ساداتنا بامتناع النفي والإثبات، فلا يقال عليه: فإنه المعجوز عنه والشعور به ليس إلا أنه ما لا يشعر به. وبعض سادات أهل الطريق، يعدّ الذات من جملة المراتب، وبعضهم لا يعدها في المراتب؛ لأن المراتب كلها متقومة بالذات. فليست الذات بمرتبة. وقولهم: ذاته، إنما هو عبارة عن مرتبة حدية قامت في المدارك مقام الذات، فأسندوها إلى الذات المقوم لكل مرتبة، ولذا جاءوا بالضمير المشعر به، فقالوا: ذاته.

### كسر طلسم وإيضاح مبهم

الذات من حيث هو، هو مادة العدم والوجود؛ فأحد طرفيه العدم بقسميه، والآخر الوجود بقسميه؛ إذ العدم المحض المطلق الذات المتجردة تجردًا أصليًا. والعدم المقيّد، هو الذات المتجردة تجردًا نسبيًا. فإذا اعتبرت الذات لا بشرط شيء ولا بشرط لا شيء؛ فهي في مرتبتهما الشعورية، وهي مادة العدم المطلق والمقيّد، والوجود المطلق والمقيّد، وهي المسمّاة في اصطلاح ساداتنا: بالوحدة المطلقة، لها وجه إلى العدم ووجه إلى الوجود؛ فهي لا وجود ولا عدم. فإذا اعتبرت الذات بشرط لا شيء، فهي على تجرّدها الأصلي، وهذه مرتبة العدم المحض المطلق، وهي المسمّاة في اصطلاح ساداتنا: بالأحدية. فإذا قيل: العدم هو الذات المتجردة تجردًا أصليًا، أي غير نسبي، فالمراد به العدم المحض المطلق. وبعض سادات القوم يعبر عن الذات المتجردة تجردًا أصليًا: بإطلاق الهوية، وبالإطلاق الذاتي، وهو اللاتقنين، فلا ينضاف إليه نسبة اسم ما، من وحدة أو وجوب وجودًا واقتضاء أثرًا، وتعلّق علم منه بنفسه فضلًا عن غيره؛ لأن كل ذلك يقتضي بالتعنين المنافي لإطلاق الهوية. والإطلاق هنا أمر سلبي، لا يقابله التقييد؛ إذ الإطلاق الذي يقابله التقييد تقييد بالإطلاق، وقولهم: لا ينضاف إلى الذات؛ نسبةً ولا اعتبار ولا وصف ولا وجه ولا إضافة، ليس المراد: أن ذلك خارج عن الذات كلّها، وإنما المراد: أن جميع تلك الاعتبارات، من جملة الذات؛ فهي الذات لا باعتبارها ولا بنفسها، بل هي عين ما عليه الذات. فإذا اعتبرت الذات بشرط شيء؛ فهي مرتبة الوجود المحض المطلق، وهي المسمّاة في اصطلاح السادة: بمرتبة الواحدية. فإذا قيل: الوجود هو الذات المتعنين تعيينًا أصليًا، أي غير نسبي؛ فالمراد به الوجود المحض المطلق، وهو اعتبار

الذات، لا بشرط هذا. أي اعتبار الذات مقيّدة بغير معين، بل تقييد مطلق. وهذه المرتبة تستلزم الوجود المقيّد، فإذا قيل: الوجود هو تعين الذات تعيناً نسبياً؛ فالمراد به: الوجود المقيّد. وتستلزم هذه المرتبة العدم المقيّد، وهو اعتبار الذات بشرط لا هذا، أي اعتبار الذات متجرّدة عن شيء، بالنسبة إلى تعينها بشيء. فحيث قيل: العدم هو انتفاء التعيين النسبي؛ فالمراد به: العدم المقيّد. وإنما كانت مرتبة الوجود المحض المطلق، مستلزماً للوجود المقيّد والعدم المقيّد؛ لأن الوجود المحض المطلق، مرّتب على العدم المحض المطلق، والوجود المقيّد، مرّتب على الوجود المطلق. والعدم المقيّد مرّتب على الوجود المقيّد، فإنه من المنفاس المخزونة.

وكما قلنا في المثال: إنه خطر في نفس الملك أن يتعرّف لغيره... الخ، ما تقدم؛ كذلك يقال في العلم الإلهي: إن الذات العلية، لما مالت إلى الظهور بالمظاهر، والتعين بالتعينات الأسمائية، والاعتبارات الكونية، بميل هو الذات، لا زايد عليها. كما ورد في الخبر الذي صحّحه أهل الكشف والوجود: «كنت كنزاً»<sup>(١)</sup> الخ، فعند هذا الميل حصل انكشاف الذات للذات بالذات. وكما قلنا في المثال: إن الملك لما نظر وتأمل في نفسه، وجد التعرف إلى الغير ممكناً من حيث الصفات، كذلك يقال في العلم الإلهي: الحق - تعالى - لما أحب أن يعرف وعلم ذاته بذاته، رآها قابلة مطلقاً، قابلة لظهورها بأوصاف الحق وبأوصاف الخلق وما يلحق ظهورها إجمالاً وتفصيلاً، وقابلة لبطونها وغيبها وانتفاء جميع الاعتبارات عنها كما هي.

وكما قلنا في المثال: إن الملك برز متحجباً ومتسترًا بصورة، وقال: هذه صورتني، كذلك يقال في العلم الإلهي: الذات الغيب المطلق ظهر متحجباً بالصورة المسماة بالصورة الرحمانية، وبالتجلي الأول، وبالتعين الأول، وبالحقيقة المحمّدية، وبرداء الكبرياء، وبغير ذلك. وهذه الصورة هي السارية في كل موجود، فتسترت وتحجبت بصور الموجودات العقلية والروحانية والخيالية والمثالية والحسية، وظهرت بها أيضًا، فهي المظهرة لها عند العارفين أهل الكشف والوجود، وهي الساترة لها عند الغافلين المحجوبين من وجه واحد: ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ﴾ [الحشر: الآية]. [٢].

(١) هذا الحديث سبق تخريجه.



وكما أن الصورة التي خرج الملك متحجباً بها في المثال هي حاجزة بينه وبين الناس، فهي كالبرزخ بين الشئيين؛ كذلك يقال في العلم الإلهي: الصورة الرحمانية التي هي أول التعيينات، برزخ بين الحق والخلق، فهي المانعة من اختلاط حقيقة الواجب بحقيقة الممكن، فلا يجتمعان في حدٍ ولا حقيقة.

وكما أن الصورة في المثال لها وجه إلى الملك ووجه إلى الناس؛ كذلك يقال في العلم الإلهي: الصورة الرحمانية: البعثن الأول، لها وجه إلى الحق، فهي من ذلك الوجه حقٌ قديم واجب فاعل مؤثر، ولها وجه إلى الخلق، فهي من هذا الوجه خلقٌ حادث ممكن منفعل متأثر، هذا باعتبار. وإلا فهي وجه واحد، لأنها لا تنقسم ولا تنجزاً، فهي عين الحق وعين الخلق.

وكما أن للصورة في المثال حقيقة، وللملك حقيقة في حد ذاته، وللناس الذين ظهر لهم بصورته حقيقة؛ كذلك يقال في العلم الإلهي: الحقائق ثلاث: حقيقة قديمة واجبة فاعلة وهي حقيقة الحق - تعالى - . وحقيقة حادثة ممكنة منفعة، وهي حقيقة العالم كله. وحقيقة نالئة جامعة بينهما من وجه، فاصلة بينهما من وجه، فهي واجبة ممكنة، قديمة حادثة، فاعلة منفعة، وهي هذه الصورة الرحمانية الحقيقية المحمدية، حقيقة الحقائق الكلية.

وكما أن الصورة التي ظهر الملك متحجباً بها في المثال هي أصل جميع الصور، التي أخذت عنها بألة التصوير؛ كذلك يقال في العلم الإلهي: الصورة المسماة بالحقيقة المحمدية، مادة جميع العوالم العلوية والسفلية.

وكما أن الورقة التي تمسك الصورة، إذا كانت متقنة بجميع ما يلزم لإمسك الصورة، معدلة مساوية؛ ظهرت فيها الصورة على الكمال والتمام، كذلك يقال في العلم الإلهي: الصورة إذا كانت معدلة مساوية، ظهرت فيها الصورة الرحمانية المعبرة بقوله: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾ [الحجر: الآية ٢٩].

على الكمال والتمام، وليست إلا صور الأنبياء وكمل ورثتهم - صلى الله عليهم جميعهم - وقد تكون الورقة غير نائمة التسوية والتعديل، فيظهر فيها الصورة غير نائمة، كما ينبغي، وهي صورة ما عداهم - ﷺ - جميعهم من الأناس إلى الحيوان إلى النبات إلى الجماد.

وكما أن الصورة التي خرج متحجباً بها، هي حجاب بين الملك وبين الناس، فلا يدركون ذات الملك وحقيقته من حيث هو؛ كذلك يقال في العلم الإلهي:

الصورة الرحمانية، التي هي الحقيقة الإنسانية الأكملية، ورداء الكبرياء، حجاب بين العالم وبين الحق - تعالى -، من حيث السبحات المحرقة، فإن الله لا ينظر إلى العالم إلا ببصر الإنسان الكامل، فلا يحترق العالم للمناسبة، ولولا هذا الحجاب، لاحترق العالم وتلاشى.

وكما أنه بمجرد رفع الغطاء ما بين الصورة وما يراد انطباعها فيه تنطبع الصورة من غير مهلة ولا تراخ؛ كذلك يقال في العلم الإلهي: كل صورة فعلتها الطبيعة وسوّتها، ورفع عنها غطاء العدم ارتسمت فيها الصورة الإلهية بحسب مرتبتها، وما يعطيه استعدادها بل الصورة عين ما ارتسمت فيه.

## إفصاح وإيضاح

للذات الغيب المطلق تجليات وتزولات وتعيّنات وظهورات، تسمى: بالمراتب والتعيّنات، والمجالي والمنصّات، والمظاهر، وهي الأسماء الإلهية والمخلوقات الكونية، من العقل الأول إلى آخر مخلوق، لو كان للمخلوقات آخر، ولا آخر لها؛ فأول المراتب عند من يعدّ الذات مرتبة الأحدية، وهي الذات بشرط لا شيء أي بشرط الإطلاق. فهي مرتبة تقيدها بتجزّدها عن القيود الثبوتية، فهي عبارة عن مجلي ذاتي ليس لشيء من الأسماء ولا لمؤثراتها فيه ظهور؛ وإنما هو ذات مجردة عن الاعتبارات الحقيقية والخلقية، فهي مرتبة العدم المطلق كما قدمنا. وإنما قال من قال: الأحدية الذاتية، أول المراتب، مع أنها مرتبة العدم المطلق لمّا كان تعقل كل تعيّن، يقضي بسبق اللائقين عليه، من حيث هو هو لا يصح أن يقضي عليه بتعيّن، قالوا: إن وراء ما تعيّن أمراً لا يدركه كنهه، هو منشأ ما تعيّن وبه ظهر كل متعيّن، فما حصل عندنا من الأحدية إلا أمر جملي، هو اعتبار الذات بإسقاط جميع الاعتبارات. إذ الاعتبارات فيها بحكم البطون، لا بحكم الظهور، فهي في المثل، كمن ينظر من بعيد إلى جدار بني من طين وأجر وجصّ وخشب، ولا ينظر إلا جداراً فقط، وأحدية كثرة ذلك الجدار مجموع ما بني منه، لا على أنه اسم لهذه الأشياء؛ فالأحدية اسم للذات الصرف المحض، لكن نسبت الأحدية إليها، فنزل حكمها عن الصرافة والمحض، وهي ملحقة بالصرافة والسداجة، فهي أعلى المجالي، وبعدها الهوية؛ فإنه ليس لشيء فيها ظهور إلا الأحدية، فالتحقت بالسداجة. لكن دون لحوق الأحدية، لتعقل الغيبوبة فيها بطريق الإشارة إلى الغائب بالهؤ. وبعدها الآتية، وهي ليس لغير الأحدية فيها ظهور،

فالتحقت بالسداجة، لكن دون لحوق الهوية، لتعقل التحدي فيها، والحضور والحاضر أقرب إلينا من الغائب، ويمتنع الاتصاف بالأحدية للمخلوقات، فإنه منافي ومغاير للأحدية؛ لأن الذات مطلق، والعبد قد حكم عليه بالمخلوقية، وكل اسم بعد الأحدية، فهو مخصص لا ينسب إلى الذات؛ إذ حكم الذات في نفسها شمول الكلّيات والجزئيات والنسب والإضافات والاعتبارات لا بحكم ظهورها، بل بحكم اضمحلالها تحت سلطان أحدية الذات، وإنما ينسب ذلك التجلي إلى الاسم الذي ظهر به، لا إلى الذات. وبهذا الاعتبار، هو سقوط جميع الاعتبارات سمي تعالى بالأحد، وليس في الأسماء الإلهية اسم علم على الذات، لا شيء فيه غير العلمية؛ إلا الأحد الواحد عند إمام العلماء بالله سيدنا محيي الدين.

وكلّيات التعينات والمراتب محصورة في ستّ مراتب، الأولى مرتبة الغيب المغيب، وهو التعين الأول، المرتبة الثانية مرتبة الغيب الثاني، المرتبة الثالثة مرتبة الأرواح، المرتبة الرابعة مرتبة عالم المثال، المرتبة الخامسة مرتبة عالم الأجسام، المرتبة السادسة مرتبة الإنسان الجامع لجميع المراتب المتقدمة. والمراتب والتعينات والمظاهر ونحوها كلّها أمور اعتبارية لا وجود لها في حدّ ذاتها؛ إذ التعين ونحوه لا يزيد على المتعين بالعين، فلا عين لها في الوجود العيني، فليس إلا الذات الوجود الأحد الواحد. وأما المراتب كالخلافة والسلطنة والإمامة والقضاء والحسبة ونحوها، فهي أمور عقلية اعتبارية، وإن كان التأثير والفعل لا ينسب إلا للمراتب، وإن نسبت إلى الذوات فلأمر حقي فيها، فليس الوجود إلا لصاحب المرتبة. والتمييز بين المرتبة وصاحبها ظاهر حاصل حقيقة وعلماً، فليس في الخارج صورة للمرتبة زائدة على صورة صاحبها، لكن أثرها مشهود، ممن ظهر بها، ما دام له الحكم بها، وهي قائمة به. ومتى انتهى حكمها بقي صاحبها بعد كسائر الناس، لا يظهر عنه أثر؛ إذ الأثر نسبة بين مؤثر ومؤثر فيه، ولا تحقق لنسبة بنفسها فتحققها بغيرها، ولا يصح أن يكون ذلك الغير هو الوجود؛ لأن الوجود لا يظهر عنه ما لا وجود له، ولا يظهر عنه عينه من كل وجه، لأنه حينئذ يصير الوجود وجودين اثنين. وأمر الخلق والإيجاد محصور بين الوجود الذات والمرتبة، أي مرتبة الوجود الذات، وهي الألوهة؛ فإنها الجامعة لجميع مراتب التأثير، وهي الأسماء. وحيث لم يصح نسبة التأثير إلى الذات الوجود، تعيّن نسبتها إلى المرتبة وهي الألوهة.

## ٤ - فصل

في المرتبة الأولى من مراتب التعينات الكلية، وهي المسمأة في اصطلاح القوم بمرتبة الوحدة، وهي الذات لا بشرط، وهي التي عبّرنا عنها في المثال: بالصورة التي خرج الملك متحجّبًا بها، وقال للناس: هذه صورتي، فالذات لما تنزلت من الذات الأحديّة، نزلت إلى مرتبة التعين الأول، وهي الوحدة المطلقة الذاتية الحقيقية. بمعنى أن الوحدة عين الذات، لا صفة لها ولا نعت. ونسبة الأحديّة المسقطه لجميع الاعتبارات، ونسبة الواحديّة المثبّته لجميعها إليها على السواء. فإن قيل: إن أهل هذا الشأن قالوا: أول تعين الذات هي الوحدة المطلقة الذاتية. وقالوا: أول المراتب الأحديّة الذاتية، فمن أين لهم بالأحديّة؟ قلنا: الإطلاق مقدم بالمرتبة على التقييد، وإنما كانت الوحدة أول تعيين للذات، وأوّل اعتبار، وأوّل المراتب المنعوتة؛ لأن كل تعين يفرض لا بدّ وأن تتقدم عليه الوحدة ضرورة. إن كل كثرة وكثير، لا بدّ وأن تتقدم عليه الوحدة تقدّمًا رتبيًا، بلا توهم تقدم استتار وغيبية فقدان. ومن مرتبة الوحدة انتشأت الأحديّة والواحديّة التي هي المرتبة الثانية للوحدة، والثالثة للأحديّة، فكانت برزخًا جامعًا بينهما من وجه، موحدًا وفاصلًا بينهما من وجه، معدّدًا لهما. ولهذا كان من أسماء هذه المرتبة مرتبة الجمع والوجود، وأحديّة الجمع؛ لأن الأحديّة مرتبة العدم المطلق. والواحديّة مرتبة الوجود المطلق، كما بيّنا قبل. والوحدة البرزخ الجامع بين الوجود والعدم، والفاصل بين الوجود والعدم، وكان من أسمائها البرزخ الأكبر، والأعظم، والأوّل، وبرخ البرازخ؛ لأنها البرزخ الساري في جميع البرازخ. ومن المعلوم أن كل متقابلين لا بدّ أن يكون بينهما برزخ معقول، لئلا يتحدّا، ألا يكون عين المتقابلين، ولا غيرهما له وجه إلى هذا ووجه إلى هذا. بل هو وجه واحد؛ فإنه ينقسم ولا يتبعّض. ولتتقدّم مرتبة الوحدة وأصالتها وكونها منبع المراتب والتعينات، ولا تعين ولا تعقل لمعقول ولا لمحسوس ولا لمتخيّل إلاّ بها سمّيت حقيقة الحقائق؛ فإن الوحدة الذاتية باطن كل حقيقة إلهيّة وكونيّة. تكون في الإلهيّة آلهة واجبة قديمة، وفي الكونيّة كونيّة ممكنة حادثه، فهي المعلوم الثالث؛ فإن المعلومات منحصرة في ثلاث، باعتبار الحقّ الواجب تعالى، والعالم الممكن، وحقيقة الحقائق هذه، وهي المسمأة بالحقيقة الكلية في كتب القوم، وهي لا موجودة ولا معدومة، بمعنى أنها غير موجودة العين خارجًا وجود استقلال، فإنها معقولة في حدّ ذاتها، فلا تكون لها صورة ذاتية، لكن لها في كل موجود حقيقة من غير انقسام ولا تبعيض، وهي باطن

كل حقيقة، والوصف الذاتي لكل حقيقة، لاستحالة تعقل شيء بدونها موجودًا أو معدومًا، ووجودها عين بروز الموجودات وتابع لها؛ فإن كان الموجود الموصوف بها واجبًا فهي واجبة، أو ممكنًا فممكنة، أو قديمًا فقديمة، أو حادثًا فحديثة. ولا توصف بالكل ولا بالبعض ولا بالزيادة أو النقص ولا بالتقدم على العالم ولا بالتأخر عنه، فهي واحدة فتتعدد بتعدد الموجودات. ولولا أعيان الموجودات ما عرفت، ولولاها ما عرفت حقائق الموجودات. وهذه الحقيقة تقارن الحق في الأزل، من غير أن يكون لها وجود في عينها. ويستحيل عليها التقدم الزمني على العالم والتأخر عنه؛ كما استحال ذلك على الحق - تعالى -، لأنها ليست بموجودة ولا معدومة. وليس العالم بتأخر عنها أو يحاذيها بالمكان، إذ المكان من العالم، وهذه أصل العالم، وعنها ظهر العالم، فهي حقيقة حقائق العالم الكلية المعقولة في الذهن، التي تظهر في القديم قديمة وفي الحادث حادثة، وهي معلومة له تعالى، يعلمها بها لا غيرها؛ إذ هي صفة العلم، وليس العلم غيرها، ولا هي العلم، فلولا الإله الحق وهذه الحقيقة الكلية، ما ظهر شيء من العالم العلوي والسفلي من الجواهر والأعراض والنسب. فإن قلت: إن هذه الحقيقة هي العالم صدقت، أو غير العالم صدقت، أو إنها الحق سبحانه صدقت، أو غير الحق تعالى صدقت، أو غير العالم وغير الحق وإنما شيء ثالث زائد صدقت، ولا غير؛ لأن المغايرة بين الوجودين، وليس الوجود باثنين. كل هذا يصحح عليها، فهي الكلي الأعم الجامع للحدوث والقدم، وهي الهبأ والهبولى وهبول الكل وهبول الهبولات والهبولى الخامسة؛ لأن الهبولى في اصطلاح ساداتنا: اسم للشيء باعتبار ما هو ظاهر فيه، بحيث يكون كل باطن هبولى الظاهر، الذي هو صورة فيه. وإنما قيل في هبولى الكل الخامسة؛ لأن الجسم الكل الذي هو أقصى مراتب الظهور صورة في النفس الكلية. والنفس الكلية صورة في العقل الكل، والعقل الكل صورة في العلم. والعلم صورة ظهرت من باطن الوحدة المطلقة، وهي حقيقة الحقائق المسماة أيضًا بالحقيقة المحمدية؛ فالحقيقة المحمدية صورة لمعنى وحقيقة ذلك المعنى. وتلك الحقيقة هي حقيقة الحقائق، فهو - ﷺ - الإنسان الكامل الأكمل مظهر التعيين الأول، وغيره من الكاملين ممن يسمى بالإنسان الكامل هو مظهر التعيين الثاني، ولذا قالوا في التعاريف: الحقيقة المحمدية هي الذات مع التعيين الأول، ولهذه المرتبة والتعيين الأول أسماء كثيرة، وذلك لكثرة وجوها واعتباراتها. وجميعها عبارة عن صورة علمه - تعالى - بنفسه، من حيث تعلق نفسه بنفسه، باعتبار توحد العالم

والعلم والمعلوم. وعندما تعيُنت الذات هذا التعيُن المذكور، تميّزت الحقائق الإلهية والكونية التي كانت مستهلكة في الذات الأحادية تمييزًا نسبيًا لا حقيقيًا. ولذا كانت الحقائق في هذه المرتبة تسمى شؤونًا مجملة في الذات. بخلاف المرتبة الثانية، فإنها فيها متميزة حقيقة، فلها في المرتبة الأولى تميّز نسبي وإجمال حقيقي. وفي المرتبة الثانية، لها إجمال نسبي وتميّز حقيقي؛ ولهذا سميت هذه المرتبة الأولى: بحضرة علم الإجمال، وهي اعتبارات الوحدة التي لا تميّز فيها حقيقيًا ولا مغايرة للذات، لمنافاة الوحدة لذلك، ولأنصاف معلوماته بالإجمال. فلو قيل: إنه تفصيل في هذه المرتبة، للزم الكذب والتناقض، على أن العلم من حيث إنه تميّز وانكشاف، لا يوصف بالتفصيل والإجمال؛ لأنها من لوازم الكم، ولا كم في العلم. ومن المعلوم البين، أن العلم حكاية ومرآة للمعلوم، يتعلّق به على ما هو عليه، من إجمال وتفصيل. فلو لم يكن الأمر هكذا لكان جهلاً، فالعلم في مرتبة الوحدة التعيُن الأول، متعلق بمعلوم واحد. ففعله متعلّد لمفعول واحد، فلا يقال في هذه المرتبة إلا أنه علم نفسه فقط. ولذا كان الوجود في هذه المرتبة، عبارة عن وجدان الذات نفسها في نفسها، باندرج اعتبارات الواحدية فيها. وجدان مجمل، مندرج فيه تفصيله، فحكم عليه بنفي التمييز. وهذا معنى قولهم في العلم في هذه المرتبة: علم ذاتي، أي الذات علمت الذات، من غير اعتبار زائد على الذات؛ إذ لا غير في هذا التعيُن. وكل معلوم سمي غيرًا وسوى، فيما بعد من المراتب، فهو في هذه المراتب عين الذات؛ فالذات والمعلومات جملة واحدة، لقرب هذه المرتبة من الأحادية الصرفة المحضة.

### حل مشكل وفتح مقفل

العلم الذاتي يقال فيه: علم فعلي، وهو حقيقة كل مرتبة فاعلة، وحقيقة مؤثرة من حيث فاعليتها وتأثيرها. وإلا فكل حقيقة ومرتبة فاعلة من وجه، منفعة من وجه. فإن قيل: كيف هذا والعلم لا تأثير له في المعلوم؟ قلنا: لكون الحقائق إنما تحققت به، وقد كانت مستهلكة في الذات، في مرتبة الأحادية. ولما تعيُنت التعيُن الإجمالي بالعلم الذاتي، صح القول بأنه فاعل لها في الجملة، توسعًا، بخلاف العلم في المرتبة التي بعد هذه، فإنه يقال فيه: انفعالي؛ لأنه نسبة ظهرت بين العالم والمعلوم، ظهور الصورة بين المرآة والمتوجّه عليها. فهو حكاية العلم الذاتي، ولا فرق بينهما إلا باعتبار أن العلم الذاتي تعلّق بالذات من غير اعتبار شيء مغاير للذات؛ إذ لا غير في هذه المرتبة. وفي المرتبة الثانية؛ تعلّق العلم بأشياء مغايرة



للذات، متميزة عنها. والعلم عين الذات في المرتبتين، ليس غيرها. غير أنه في المرتبة الأولى يقال: علمت الذات. وفي المرتبة الثانية يقال: علمت الذات معلومات غير الذات، مغايرة نسبية لا حقيقية. ولما كانت الذات في المرتبة الثانية عالماً وعلماً، وكان المعلوم غيراً صحَّ القول بأن العلم نسبة. بمعنى أن الذات إذا نسبتها إلى المعلومات تكون علماً، وهكذا جميع ما ينسب إلى الحق تعالى من قدرة وإرادة وغيرهما، فافهم وتدبّر ولا تتحير بمخالفة أهل النظر. ثم اعلم أن بين معلومية المعلوم حال عدمه وحالة وجوده فرقاً؛ فإذا كان الشيء موجوداً، فالعلم به متقدم على وجوده العيني، وهو مراد من قال: مطلب المعلوم تابع للعلم. وإذا كان الشيء معدوماً عدمه الأزلي، فالعلم به مساوق له، ويتأخر عنه بالمرتبة؛ لأنه لذاته أعطاء العلم. وهو مراد من قال: العلم يتبع المعلوم، وهو عبارة إمام العلماء بالله سيدنا وشيخنا محيي الدين الحاتمي في كتبه، حيث إن العالم عنده لم يزل على عدمه الأزلي، من حيث أعيانه وحقائقه. وكانت الذات في التعيين الأول والمرتبة الأولى هي العالمة وهي المعلومه وهي العلم، فهي من حيث اعتبارها علماً تابعة لنفسها، من حيث اعتبارها معلوماً، تبعية رتبة لا تبعية ترتيب. وإنه تعالى لما علم ذاته، علم كل ما يصحُّ أن يُعلم من علمه بذاته، فليس علمه بالعالم مغايراً لعلمه بذاته، فما أخذ معلوماته إلا من ذاته. وحيث كان الأمر كما بينا، صحَّ القول: بأن معلومات الحق تعالى أعطته العلم بها، فإنها في هذه المرتبة عين الذات لا غيرها، فذاته أعطته العلم بذاته. والمعلوم مقدّم بالمرتبة على العلم، فإن العلم مرآة المعلوم وحكايته، وأنكر هذا العالم الكبير الشهير عبد الكريم الجيلي - رضي الله عنه - إذ قال في كتابه «الإنسان الكامل»: ولقد سهى الإمام محيي الدين بن العربي فقال: إن معلومات الحق أعطته العلم من نفسها، «ولا يجوز أن يقال هذا»، انتهى. يريد - رضي الله عنه - منع هذا، لما فيه من رائحة الافتقار إلى الغير، وإذا فهمت ما قدمناه على وجه علمت من سها. ولقد صار المعقول بالبيان المحسوس، (ولا عطر بعد عروس)<sup>(١)</sup>، وهذا الذي ذكرناه، هو باعتبارات وحيثيات وجهات، وإلا فنسبة الذات إلى جميع الموجودات العينية والعلمية نسبة واحدة، وليس لها تقدّم ولا تأخر بالنسبة إليها، فإنه ليس إلا الذات، وعلمها عينها، وعين معلومها. لذا تعلق العلم الذاتي بما لا يتناهى، لأنه علم ذاته، وما تقتضيه ذاته من الأسماء وما تقتضيه تلك المقتضيات،

(١) ويقال: لا مخياً لعطر بعد عروس. (مجمع الأمثال للميداني، باب ما جاء فيما أوله لا، ج ٢ ص ٢١١ ط. دار الحياة - بيروت).

وهلم جزاً. فالمرادات والمقدورات والظهورات والتعيّنات لا نهاية لها، ولا حدّ تقف عنده من حيث أشخاص الأجناس؛ فإن المعلومات نوعان:

نوع متناهٍ من حيث اقتضاء الحكمة الإلهية لذلك، فيتعلّق العلم به على ما هو عليه من التناهي، كأجناس العالم والدينا، وهي عالم الكون والفساد، وذلك من محدّب السماء السابعة العليا إلى أسفل سافلين، ونهاية المخلوقين، فهذا هو الدينا، والبرزخ الذي تنتقل إليه أرواحنا بعد الصوت ومفارقة هذه الصور العنصرية، فالعلم محيط بما يتناهي على سبيل التفصيل شخصاً شخصاً وجزءاً جزءاً، وبأحواله التي تتجدّد عليه وأزمته وأمكته ومراتبه.

ونوع غير متناهٍ، فيتعلّق العلم به على أنه غير متناهٍ، كذاته تعالى بمعنى أنه لا نهاية لظهوره وتجليه بمراداته ومقدوراته، كالجنة والنار ومن فيها، وما أعدّ الله لأهلها؛ فإن الجنة والنار لا يلحقهما فناء أبداً، بهذا وردت الأخبار الصحيحة كتاباً وسنةً وكشفاً، فيتعلّق بما لا يتناهي على ما هو عليه؛ فلو قيل: العلم محيط بما لا يتناهي كإحاطته بما يتناهي، لانقلبت حقيقة المعلوم الذي قلنا: إنه غير متناهٍ، إلى أنه متناهٍ، وانقلب العلم جهلاً حيث تعلّق بالشيء على خلاف ما هو عليه ذلك الشيء؛ إذ العلم حقيقة ينكشف بها المعلوم على ما هو عليه، إذا كان موجوداً، أو يكون عليه إذا وجد من إجمال وتفصيل وتناهٍ وعدم تناهٍ.

هذا، ووصف المعلوم بالتناهي أو عدم التناهي مطلقاً فيه تسامح، فإن ما لم يدخل في الوجود لا يوصف بالتناهي ولا عدمه. وما دخل في الوجود فهو متناهٍ، ولما كان الوجود الذات علم عين ذاته، وذاته عين وجوده، ووجوده غير متناهٍ، تعلّق ما لا يتناهي وجوداً، بما لا يتناهي معلوماً ومراداً ومقدوراً. لا يقال: كيف يريد الحقّ تعالى إيجاد نعيم لأحد من أهل الجنة مثلاً لم يعلم شخص ذلك النعيم؟! فإن العلم بالشيء متقدّم على إرادة إيجاد ضرورة؛ لأن تأثير القدرة مرتّب عقلاً على تأثير الإرادة، وتأثير الإرادة مرتّب على العلم، لأننا نقول: نعيم أهل الجنة معلوم الأجناس والأنواع على طريق الإحاطة والتفصيل. وكذا عذاب أهل النار، فما وجد من أشخاصه علمه الحقّ - تعالى - وما لم يوجد فهو مثل لما وجد، غير مخالف له. وتعلّق العلم به أنه هكذا يكون إلى غير نهاية، فأجناسه لا تتغيّر ولا تبدّل، وهي متناهية. وأشخاصه غير متناهية، تتماثل في الصور وتباين في الطعم بحسب تأثير المؤثرات فيها. وسبب اختلاف تأثير المؤثرات، اختلاف تجلّيات

الأسماء الإلهية على المؤثرات، هكذا أخبرت في الواقعة، ومصادقه من كتاب الله قوله:

﴿كَلِمًا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ تَمَرٍ رَزَقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأَنُوتُوا بِهِ مُتَشَبِهًا﴾ [البقرة: الآية ٢٥].

يشبه بعضه بعضاً في الصورة، ويخالفه في الطعم؛ فمعنى تعلق العلم بما لا يتناهى هو إحاطته بحقيقة كل معلوم، وإلا فليس معلوماً بطريق الإحاطة. وحقائق المعلومات وأجناسها قد وجدت وانحصرت وتناهت، وبقيت أشخاصها وأفرادها لا تتناهى ولا تنحصر. وأشخاص ما يوجد من كل جنس هو مثل لما وجد، وما وجد معلوم؛ فما بقي في الإمكان فمعلوم، فليس من شرط تعلق العلم بالمعدوم عند الإدراك، أن تكون أشخاص ذلك الجنس موجودة في أعيانها، وإنما من شرط أن يكون منها موجود واحدًا وجزءًا في موجودات متفرقة، يجمعها مظهر موجود آخر، وما بقي معدومًا فهو مثل له؛ فما بقي معدومًا فمدرك حقيقة عندك إدراكًا صحيحًا، لأنه مثل له أجزاء موجودات. فالعلم إنما يتعلق بالمعدوم، لتعلقه بمثله الموجود أو بأجزاء مثله، فهذا معنى تعلق العلم بما لا يتناهى معلومًا. فالعلم عند المحققين لا يتعلق إلا بالموجود، وتعلقه بالمعدوم، هو بالمعنى الذي ذكرناه، والمعدومات أربعة أقسام: قسم معدوم ولا يصح وجوده كالشريك للبارئ - تعالى -، وقسم يجب وجوده وجوبًا اختياريًا كشخص من الجنس الموجود. وقسم يجوز وجوده كعدوية ماء البحر في البحر. وقسم لا يصح وجوده قطعًا اختياريًا، لكن وجد شخص من جنسه، هذا على ما يجوز وجوده وما لا يصح اختياريًا، والمراد الشخص الثاني من الجنس فصاعدًا. فأما القسم المعدوم الذي لا يصح وجوده وهو المستحيل، فلا يتعلق به علم أصلاً؛ لأنه ليس شيئًا، فهو عدم محض. والعدم المحض لا يتصور تعلق العلم به، لأنه ليس على صورة ولا مقيد بصفة. وما عدا هذا من أقسام المعدوم فقد جعلناه إما وجوبًا أو جوازًا أو محالًا اختياريًا، مع فرض وجود شخص من الجنس. وكلها راجعة إلى الوجود. وما كان راجعًا إلى الوجود فالعلم يتعلق به. فإذا علمت هذا علمت أنه لا بد من الرؤية، وحينئذ يحصل العلم في زمان الرؤية، وفي تقدير زمان إن كان الرائي لا يجوز عليه الزمان؛ فكل عالم إحاطة من غير تخصيص، موجود في نفسه وعينه، عالم بنفسه، مدرك لها. وكل معلوم سواء إما أن يكون على صورته بكمالها، فهو مثل له أو على بعض صورته، فمن هذا الوجه يكون عالمًا بالمعدومات؛ لأنه عالم بنفسه. وذلك العلم ينسحب على

المعدومات انسحابًا. وهذا عمومًا في كل موجود، فإنه من وجد على صورة شيء، فذلك الشيء على صورته بنفس ما يرى صورته، يرى من هو على صورته وبنفس ما يعلم نفسه، علم من هو على صورته، لا يتقصه من ذلك شيء؛ فلو لا ما هو الإنسان على الصورة الرحمينية، وكما ورد في الخبر ما تعلق العلم به أزلًا؛ إذ العلم المتعلق أزلًا بالحداثات إنما حصل ولم يزل حاصلًا بالصورة القديمة الموجودة التي خلق عليها الإنسان. فالعلم إنما يتعلق بالمعدوم لتعلقه بمثله الموجود، وهذا هو إدراك المفضل في المجمع مفضلًا وهو مختص بالحق. وأما نحن معاصر الحدوث فما ندرك المجمع إلا من المفضل الحادث الحاصل في الوجود. ثم أدركنا في ذلك المجمع تفصيلًا مقدّرًا، يمكن أن يكون وأن لا يكون. فهذا هو الفرق بين علم الإجمال المنسوب إلى الحق وإلى الخلق. فالحق - تعالى - يعلم التفصيل في الإجمال كما قلنا، وهو لا يدل على أن المجمع مفضل، وإنما يدل على أنه يقبل التفصيل إذا فُضِّل بالفعل، فليس العالم علوًا أو سفلاً دنياً وأخرى إلا صورًا تعقب صورًا. والعلم يسترسل عليها استرسالًا. وإلى هذا الإشارة بقوله:

﴿حَقٌّ تَعَلَّمَ﴾ [محمد: الآية ٣١] مَعَ عِلْمِهِ.

قبل تفصيلها أنها تفضل لا أن علمها مفضلة حال إجمالها، فإنه جهل لا علم. ومعنى الاسترسال هو أنه - تعالى - يعلمها بالعلم الكلي الشامل لها على سبيل التفصيل، فيسترسل عليها من غير تفصيل الآحاد، لتعلقه بالشامل لها من غير تمييز بعضها عن بعض، وتعلقه بها على هذا الوجه ليس بنقص؛ فإنه تعلق بها على ما هي عليه، وكشف الشيء على ما هو عليه هو العلم، وقد شُعَّ على إمام الحرمين أبي المعالي - رضي الله عنه - حيث قال في كتابه البرهان: «علم الله - تعالى - إذا تعلق بجواهر لا نهاية لها، فمعنى تعلقه بها استرساله عليها من غير فرض تفصيل الآحاد، مع نفي النهاية». ونسب بهذا إلى مذهب الفلاسفة القائلين بأنه - تعالى - لا يعلم الجزئيات، ونحن نحاشيه من هذا، فإن كان الاسترسال عنده بالمعنى الذي ذكرناه فهو الحق الذي لا شك فيه، وهو مذهب أهل الكشف والوجود، وليس هذا من مذهب الفلاسفة، فإن مذهبهم نفي علمه - تعالى - بالجزئيات الشخصية، إلا على وجه كلي. وكلامنا إنما هو في المعدومات الشخصية، التي لم تدخل في الوجود بعد، ولغرض هذا المبحث عن أهل النظر والفكر تخالفت فيه الآراء فكثرت المقالات، فكم للحكاماء والمتكلمين فيه من تطويل وتهويل وتشعيب وتشغيب. وأما أهل الله الذين أعلمهم الحق بحقائق الأشياء على ما هي عليه، واختصهم برحمته فما بقي لهم

اضطراب ولا شك ولا ارتياب. فلهذا أطنبنا في البيان إراحة للإخوان، ورئاً للعطشان.

﴿الرَّحْمَنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿٢﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴿٤﴾﴾  
[الرحمن: الآيات ١ - ٤].

يختص برحمته من يشاء.

## ٥ - فصل في التعيين الثاني والمرتبة الثانية

ولما تعينت الذات التعيين الأول العلمي الإجمالي الذاتي؛ تبين أن لها كمالين:

كمال ذاتي مجمل بلا شرط ولا كثرة ولا غيرية ولا تميز ولا اسم ولا نعت، وقد حصل بالتعيين الأول.

وكمال أسمائي مفضل سار في الأسماء والحقائق، متوقف ظهوره على الأسماء ومؤثراتها من حيث ظهور كل فرد ووجدانه لنفسه ولأمثاله، من كونها أغيراً مقيدات بالمراتب، استدعى ثبوت هذا الكمال وظهوره، لكثرة المعلومات وتعددتها المستحيل مجامعتها للوحدة، إلى أن تكون له حضرة، هي محل تفصيل تلك الحضرات، فتنزلت الذات الوجود من التعيين الأول إلى التعيين الثاني، الذي تظهر فيه الأشياء وتميز ظهوراً وتميزاً علميين، لانتقاد الكثرة والتميز الحقيقي في التعيين الأول، مع تضمن التعيين الأول، لجميع نسب التعيين الثاني مع الأسماء الإلهية، التي هي لها الفعل والتأثير. والحقائق الكونية التي لها الانفعال والتأثير، وهي المسماة في التعيين الأول بالشؤون الذاتية، جمع شأن، بمعنى أمر مجمل غير مفضل، فالشؤون تفعلات الحق - تعالى - للأشياء، من حيث كينونتها في ذاته، فظهرت في هذا التعيين الثاني والمرتبة الثانية وما تحتها من المراتب، بصور الحقائق المتبوعة لغيرها من الأسماء كالحياء والعلم، وبصور أمور كائنة مثل الذوات والجواهر، فالعلم في هذا التعيين الثاني هو ظهور الذات لنفسه بشؤونه من حيث مظاهر تلك الشؤون المسماة صفات عند المتكلمين، فيكون متعلقاً بمعلومات متميزة متغيرة، فهو متعلق بمفعولين. ولهذا كان الوجود في هذا التعيين الثاني عبارة عن وجدان الذات عينها، من حيث ظهورها وظهور صورتها المسماة بظاهر اسم الرحمن، وظهور تعيناتها، وهي أسماء الألوهة. وهذه المرتبة الثانية الكلية تشتمل على مراتب منها: مرتبة الوجود المقدسة عن شوائب

النقص، وهي المدعوة بمرتبة الصفات. ومنها مرتبة الإمكان، ولها تين المرتبتين مرتبة فاصلة بينهما من وجه، وجامعة لهما من وجه، فهي البرزخ الفاصل الجامع المعقول. كما أن حقيقة كل برزخ كذلك، فإذا وجبت كانت ألوهة فاعلة مؤثرة مقدّسة، وعليها يطلق لفظ «الله»، وإذا أمكنت باقتضاء حضرة الوجوب لمظاهرها ومؤثراتها كانت خلقاً منفعلاً. فلهذا سميت هذه المرتبة بالبرزخية الثانية، كما سميت بالعماء، حيث كان العماء اسماً للسحاب الرقيق الحابل بين الناظر والشمس. وهذا العماء حائل بين مرتبة الوجوب ومرتبة الإمكان، وفاصل بين الوحدة والكثرة الحقيقيتين، وحدة الذات وكثرة صور الموجودات. فليست هذه المرتبة عينهما ولا غيرهما. وفيها قوة كل واحدة منهما، فحضرة الوجوب من العماء تلي التعيين الأول، لأنها حضرة تعيين أسماء الألوهة التي هي كلّها واجبة له لذاته تعالى. والوجه الآخر يلي حضرة الإمكان حقائق الممكنات التي هي كلّها ممكنة لذاتها، وهي القابلة لحضرة الوجوب الفاعلة، وحضرة الإمكان هي أيضاً برزخ متوسط بين حضرة الوجوب وحضرة الامتناع، التي يتوهم مقابلتها لحضرة الوجوب. فالممكن من حيث الإمكان برزخ بين الوجوب والامتناع. وحقيقة البرزخ أنه لا يكون إلا معقولاً، فلهذا نقول الممكنات كلّها من حيث إمكانها معقولة. وإنما صارت محسوسة لما في المدارك من الأغاليط، بل الأغاليط في العقول الحاكمة لا في المدارك؛ فإن المدارك تعطي ما في قوتها. ومن هذا البرزخ العمائي أنصف الحق بصفات الخلق ونعت بنوعاتهم، كما ورد في الكتب الإلهية والأخبار النبوية، وهي المسماة عند المتكلمين بالصفات السمعية، بمعنى أنها لولا أن الشارع جاء بها ما أثبتها العقل ولا قبلها. بل ما قبلتها بعض العقول إلا بالتأويل والرد إلى مداركها. وأنصف الخلق بصفات الحق كالحيّة والعلم، والقدرة والإرادة، والإحياء والإماتة، وانشأ هذا العماء من النفس الرحماني، فمنه ظهر. والنفس الرحماني هو أيضاً من أسماء المرتبة، باعتبار أن النفس الطبيعي في الممكن هواء ساذج لا صورة له في باطن المتنفس، ينبعث من باطنه إلى ظاهره، حاملاً لصور المعاني التي يريد المتكلم إبرازها، فإذا وصل إلى المخارج الحرفية تصوّر بصور ما هي المخارج مستعدة له فتميّز الحروف، وتركب الكلمات، وتظهر مختلفة الصور، والنفس حقيقة واحدة، فسمي هذا التعيين الثاني بالنفس الرحماني؛ لأجل ذلك فإن تعدد الوجود الواحد واختلاف صورها إنما حصل من اختلاف القوابل التي هي الأعيان الثابتة واختلاف أحكامها وأحوالها، والعماء عين النفس، ولكن لما تميّز عن النفس اللطيف بالصورة العمائية الكشفية، لكون الممكنات كلّها في العماء بالقوة؛ فشبهه بالسحاب



الدقيق الذي أصله ومنشأه نفس الأبخرة الطبيعية الصاعدة من الأرض، كما تميّز الثلج بالصورة الثلجية من الماء، وليس الثلج إلا ماء منعقدًا، فإذا زالت الصورة التي هي اعتبار محض وعرضٌ عَرَضٌ للحقيقة المائتية، بقي الماء على حقيقته وأصله. وإلى هذا العماء الإشارة بقوله - ﷺ - «لأبي رزين العقيلي، لما قال له: يا رسول الله، أين كان ربنا قبل أن يخلق الخلق؟!» «كان في عماء ما فوقه هواء وما تحته هواء».

رواه الترمذي، يريد السائل أن الحق - تعالى - ظاهر في صور مخلوقاته الظهور اللائق بجلالته ونزاهته بلا حلول ولا اتحاد؛ كما أخبر بقوله:

﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ [الحديد: الآية ٤].

فأين كان ظهوره قبل خلق المخلوقات؟ فكان الجواب: أنه كان ظاهرًا بمعلوماته التي تضمّنتها الحضرة العمائية.

وقوله: «ما فوقه هواء وما تحته هواء» بيان للعماء، وما في قوله: «ما فوقه وما تحته» يصح أن تكون موصولة، أي الذي فوقه حقٌ وتحتة خلق، يريد - ﷺ - أنه برزخ بين حقٍ مطلق وخلقٍ مقيد، وهو في نفسه وحقيقته لا حقٌ محض ولا خلق محض، فهو حقٌ وخلقٌ.

ويصح أن تكون «ما» نافية، لا حق من كل وجه ولا خلق من كل وجه، فهو لا عين ولا غير، فإنه فاصل بينهما. ولولا هو ما تميّز أحدهما من الآخر.

فالعماء اسمه - تعالى - الظاهر، والنفس الرحماني اسمه - تعالى - الباطن، وليس الظاهر بشيء زائد على الباطن إلا باعتبار ما قدمنا فهو عينه، وإنما أضيف النفس إلى الرحمّن دون باقي الأسماء؛ لأن الرحمّن اسم للوجود المفاض على الممكنات، أعيانًا ثابتة وصورًا وجودية، فهو عين الرحمة العامة التي وسّعت كل شيء، حتى أسماء الألوهة، فإنها به رحمت مّا كانت فيه من الاستهلاك والاجتنان في وحدة الذات، فتميّزت حقائقها بهذا النفس.

وبعض سادة القوم يجعل النفس الرحماني من أسماء التعيين الأول، لهذا الاعتبار، ولا مشاحة في الاصطلاح.

### (تكميل)

ولهذا التعين الثاني والمرتبة الثانية أسماء كثيرة لكثرة وجوها واعتباراتها، منها:

مرتبة الواحدية، وهو أشهرها وأكثرها دوراناً في كلام القوم. سُمِّي بذلك لأنه اعتبار الذات من حيث انتشاء الأسماء منها، ومن حيث اتحادها من جهة كون كل اسم دليلاً عليها، وإن كان يفهم منه معنى يتميِّز به عن غيره، فسُميت الذات واحداً بالاعتبار الذي صار به الكل متوخذاً في الدلالة عليها. قال إمام العلماء شيخنا محيي الدين: «ليس في الأسماء الإلهية اسم علم على الذات إلا الاسم الواحد الأحد»، انتهى.

وفي الواحدية تظهر الذات اسماً والاسم ذاتاً، ولهذا ظهر كل اسم عين الذات وعين كل اسم من الأسماء الأخرى، لاشتراك الأسماء في الذات، وظهور الذات بكل ما ظهر من الأسماء. فإذا تجلَّت الواحدية، فما ثم خلق، بل ما يدرك حقاً، لظهور سلطانيها بكل صورة في الوجود، والأسماء الثابتة للذات في هذه المرتبة الواحدية، منها أسماء أجناس أصول كالأسماء السبعة، «الحي، العليم، القادر، المرید، المتكلم، السميع، البصير» عند المتكلمين أهل العقول. و«الحي، العالم، المرید، القائل، القادر، الجواد، المقسط» عند أهل الكشف والشرح والوجود. والأسماء التسعة والتسعين، الوارد بعضها في الكتاب وبعضها في الأحاديث متفرقة، ومنها أسماء كالأشخاص والجزئيات النازلة ولا نهاية لها؛ إذ لكل مخلوق من أول مخلوق إلى غير نهاية له، اسم يخصه، هو الذي اقتضى من الذات الغنية إيجاد ذلك المخلوق، وإبرازه من العدم إلى الوجود، والله واسع عليم. ومن أسمائه: «محل نفوذ الاقتدار»، لكون الاقتدار إنما يتحقق في هذه الحضرة التي هي منشأ السواء، فإن الوجود إنما تعدد وتكثرت بحسبها. ومن أسمائه: «الظل الأول»، لأنه أول قابل للكثرة التي هي صور ظلال شؤون الوحدة. ومن أسمائه: «الحقيقة الإنسانية الكمالية» بمعنى أن صورة الإنسان الكامل صورة لمعنى وحقيقة ذلك المعنى، وتلك الحقيقة هو حضرة الألوهة المسماة بالتعين الثاني وبالمرتبة الثانية، فالإنسان الكامل من حيث أنه معلوم الواجب، بمعنى أنه تعالى علم نفسه؛ فعلم الإنسان الكامل من نفسه فهو لهذا لا يزيد على الواجب تعالى حقيقة، فهو المثل الأعلى العزيز الحكيم. ومن حيث تميِّزه بالإمكان، فهو الإنسان الحقيقي. فالإنسان الكامل مظهر التعين الثاني، والإنسان الأكمل مظهر التعين الأول، حقيقة الحقائق، وهي الحقيقة المحمدية الإنسانية، الحقيقة الأصلية. ومن أسمائه: «قاب قوسين»، وهما ظاهر العلم وظاهر الوجود لجميع الأنبياء - صلوات الله وسلامه عليهم - وأما قاب قوسين، في قوله تعالى، في حق محمد - ﷺ - : ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ﴾ [النجم: الآية 9].

فهما الأحدية والواحدية.

﴿أَوْ أَدْنَى﴾ [التَّجْم: الآية ٩].

يعني الوحدة الجامعة بين الأحدية والواحدية، فإن حقيقته ﷺ هي البرزخية العظمى الأولى. ومن أسمائه: «حضرة الإمكان» تسمية له بما فيه من الممكنات، فإن المعلومات بهذا العلم الأزلي ما بين واجب ظهوره بنفسه، وبين ممتنع ظهوره بنفسه، وبين متوسط بينهما نسبه إليهما على السواء، فسُمي المتوسط بمرتبة الإمكان، ومن أسمائه: «المرتبة الثانية» لكونها صورة التعيين الأول، الذي هو مرتبة الذات، ومن أسمائه: «مرتبة الألوهة»، لكون التجلي الظاهر فيه وبه أصل جميع أسماء الألوهة، التي اشتمل عليها الاسم الجامع «الله» ومن أسمائه: «مرتبة الغيب الثاني»، لغيبة كل شيء فيه عن نفسه وعن مثله لانتفاء صفة الظهور للأشياء فيه مع تحققها وتميزها وثبوتها للعالم بها لا لأنفسها، ومن أسمائه عند بعضهم: «مرتبة الجبروت، ومرتبة الأسماء، ومقام الجمع، وعالم الجمع، وحضرة الدنوّ، وحضرة الذاتي، وحضرة تجلي الغيب الثاني، والأفق الأعلى»، فمتى وصل المخلوق إليه ظهر بصفات الخالق، فيحيي ويميت، ويرى الأكمه والأبرص، وذلك للإنسان الكامل المتحقق بالحقيقة الإنسانية، وقد يراد بالأفق الأعلى، حضرة الجمع والوجود، والمتحقق بها هو المتحقق بمقام الأكملية الذي هو فوق مقام الكمال، ومن أسمائه: «عالم المعاني»، لتحقق جميع المعاني الكلية والجزئية وتميزها فيه، لاستحالة خلوه عن شيء، ومن أسمائه: «حضرة الارتسام» لارتسام الكثرة النسبية المنسوبة إلى الأسماء الإلهية والكثرة الحقيقية المضافة إلى الكون وحقائقه، والمعنى بالارتسام؛ الامتياز النسبي الحاصل للماهيات، لاستحالة الكثرة في ذاته - تعالى - لترسم فيه تلك الكثرات والتميزات. ولهذا كان من أسمائه: «حضرة العلم الأزلي الذاتي»؛ لأنه حضرة تعلق علمه - تعالى - بالأشياء، على سبيل التفصيل لحقائقها. فالعلم في هذا التعيين الثاني، نسبه بين العالم والمعلومات، بمعنى أن الذات إنما نسبتها إلى المعلومات كانت علماً، وإلى المرادات كانت إرادة، وإلى المقدورات كانت قدرة، وهكذا في أسماء الحق كلها، فليس العلم في هذه المرتبة إلا تعلق خاص للذات العالمة لهذا التعلق تسمى عالمة، فقول إمام المحققين محيي الدين: «علم الحق - تعالى - نسبه كسائر ما ينسب إليه تعالى»، المراد منه نفي الزائد على الذات، الذي أثبتته المتكلمون، ونفي تعلقه؛ فليس إلا الذات والمعلومات، فإذا ظهر الممكن في عيته تعلق العلم به بأنه ظاهر، كما تعلق به أنه

باطن بذلك العلم، فهو نسبة عقلية حكمية أوجبت للذات اسم العالم من كون هذه النسبة حالاً وشأناً من شؤون الذات. وللحاصل في العلم اسم المعلوم، فامتياز العلم النسبي الحكمي عن الذات أوجب هذا الحال، وهو كون الذات عالمة، والأحوال لا موجودة خارجاً ولا معدومة عقلاً وحكماً، وحيث كان العلم في هذه المرتبة نسبة كان توقّف تحقّقه على تحقّق المعلوم ضرورة، وإليه الإشارة بقوله: «حَتَّى نَعْلَمَ، وَلْتُنَعْلَمَ، وَلَمَّا يَعْلَمْ» ونحوه؛ فإن العلم المضاف إلى الحقّ - تعالى - من حيث أسماؤه الحسنى، يتوقف تحقّقه على تحقّق المعلوم التحقق اللاتق به، كما هو شأن النسب، فإنه لا تحقّق لنسبة إلا بتحقّق طرفيها، فإن مقتضى الذات - من حيث هذه النسب - أن لا يظهر كل منها إلا بكلّ منها، وتوقّف النسب بعضها على بعض لا يقدح في الغنى الذاتي، بخلاف العلم الذاتي في التعيّن الأول، فإنه ليس هناك إلا الذات، فلا يقال في العلم: هناك أنه نسبة؛ لأن النسبة بين اثنين ولا اثنيّة في التعيّن الأول، فتوقّف العلم على المعلوم ليس من حيث أحدية الذات، فإنّ الأحدية تقهر الكثرة النسبية العلمية والوجودية العينية فافهم، وفي هذه الحضرة العلمية تعيّنت حقائق الممكنات المسماة بالأعيان الثابتة، وتميّزت تعيّنًا وتمييزًا علميين، فهذه المرتبة حقيقة كل مرتبة منفعلة متأثرة قابلة.

### (تدقيق)

ثم اعلم أنه لما تحصّل من تعيّن الذات لنفسها بنفسها صورة علمية، هي المسماة بصورة الرحمن، وبصورة جمعية الحقائق، وبالنكاح الأول الغيبي، فإن النكاحات أربع، هذا أولها، وهو التوجّه الأصلي الإلهي الذاتي من حيث اجتماع الأسماء الأولى الأصلية، التي هي مفاتيح غيب الهوية، والحضرة الكونية؛ فكان المولود الوجود العالم المسمّى بنفس الرحمن. وبالصورة الرحمانية، كانت تلك الصورة العلمية بمثابة الظلّ للذات والحكاية لها، مع ما اندرج في الذات من المعلومات التي هي عين الذات، والمراد بالصورة الواردة في الأحاديث كما في رواية البخاري: «إن الله خلق آدم على صورته».

وفي رواية صححها ابن النجار: «إن الله خلق آدم على صورة الرحمن».

مجموع الأسماء الإلهية ومدلولاتها هي المعلومات الإلهية والكونية، التي هي لوازم الأسماء، فلا صورة له - تعالى - مطلقاً، لا محسوسة ولا متخيّلة ولا معقولة. ولكل ذي ظلّ ظلّ قائم بذاته، معقول فيه، وظلّ ممتدّد عنه. ولا يعرف الحقّ

- تعالى - من حيث الظل المعقول أحد غير محمد - ﷺ -، فامتد الظل المسمّى بالوجود المقيّد وبالرحمّن وبالوجود المفاض وبالتور المرشوش، كما سّماه رسول الله - ﷺ -، وبالتجلّي الساري في جميع الذراري وبالرق المنشور، وبالوجود العام، وبالوجود المشترك، وبالرحمة التي وسّعت كل شيء، وبحقيقة العالم... وبغير ذلك. فقباله العدم المقيّد، كما قابل الوجود المطلق العدم المطلق، فما قبل التور المرشوش، فهو المسمّى بالعدم المقيّد، وبالممكن. وما لم يقبل التور الوجود هو المسمّى: بالعدم الصرف وبالمحال وبالعدم المطلق. والكلّ معدوم لنفسه حينئذ، غير أن المعدوم المطلق معدوم للعالم - تعالى - أعني ليست له صورة ولا عين في علم العالم تعالى، والعدم المقيّد معدوم لنفسه موجود للعالم به - تعالى - بمعنى أن له صورة علمية هي المسافة بالاستعدادات وبالأعيان الثابتة وبحقائق الممكنات عند ساداتنا أهل الطريق. وبالمهيات عند الحكماء، وبالمعدوم الثابت عند المتكلمين. وكلّها عبارة عن تعلّقات الحق الكلية والجزئية التفصيلية، وهي ثابتة لا موجودة، خلافًا للأشاعرة النافيين للثبوت. والثبوت غير الوجود كما أن النفي غير العدم، فالثبوت والنفي متناقضان كالوجود والعدم، والثبوت للأعيان عبارة عن إمكانها وقابليتها للوجود عند إرادة الموجد - تعالى - وطلبها للوجود طلبًا استعداديًا، فإن حقيقة كل ممكن عبارة عن نسبة متميِّزة وكيفية متعيّنة في علم الحق - تعالى - من حيث إن علمه عين ذاته، وهذا الثبوت للأعيان ليس يجعل جاعل؛ لأنه عدم، والعدم لا يكون أثر الفاعل وإنما فاضت في العلم بالتجلّي الذاتي الحبي المسمّى «بالفيض الأقدس»، فهي في هذا الموطن محكوم لها بالقدم؛ إذ لا علم إلا بمعلوم، فيستحيل علم ولا معلوم كما يستحيل علم ولا عالم، فهي في هذا الحكم قديمة للعلم، محدثة لأنفسها؛ فإنه يستحيل مساوتها للحق في انتفاء الأوليّة، إذ كل ما سواه - تعالى - محدث، بمعنى أنه مفتقر إليه - تعالى - في تعيّن في العلم أو الخارج، وإلا كان مساويًا للحق - تعالى - في الفناء الذاتي، وبذا أخبر تعالى فقال:

﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ ﴿١﴾ [الإنسان:

الآية ١].

أي قد أتى، «فهل» هنا بمعنى «قد» بإجماع، على الإنسان حين من الدهر، والدهر الله. والحين تجلّ من تجلياته، لم يكن الإنسان في ذلك التجلي شيئًا مذکورًا،

فلم يكن معلومًا فلا وجود له في ذلك التجلي، لا من حيث الوجود العيني، ولا من حيث العلم؛ لأنه لم يكن مذكورًا، فلم يكن معلومًا، لأن الوجود الذات إذا ذكر بعلمه، الذي هو عين ذاته الممكن المعدوم، كان موجودًا له بعلمه، وهو معنى ثبوته. وإذا ذكره بكلامه، الذي هو عين علمه، الذي هو عين ذاته، صار موجودًا له بكلامه، وهو معنى وجوده لنفسه بعد عدمه. والثبوت للممكن هو عين ثبوته، هو تعالى في علمه. والوجود العيني الذي للممكن هو عين وجوده هو تعالى في نفسه. فصح بما ذكرنا أن للأعيان الثابتة اعتبارين، هي يأحدهما قديمة وبالأخرى حادثة؛ فمن قال بقدمها مطلقًا وفي المقام حقّه، وكذا من قال بحدوثها مطلقًا. والخلاف في الماهيات يكونها مجعولة أو غير مجعولة مشهور في كتب المتكلمين. ونحن لا نعتبر إلا كلام أهل الله، أهل الكشف والوجود. وللعالم ثلاث مواطن: المواطن الأول، التعيين الأول، ويسمى العالم فيه: شؤونًا ذاتية. والمواطن الثاني، التعيين الثاني، ويسمى العالم فيه: أعيانًا ثابتة. والمواطن الثالث، هو هذا الوجود، المسمى: بالوجود، عند العامة.

### وطاء وكشف غطاء

ثم اعلم أنه لما كانت المعلومات تنقسم إلى: ما يختص بعلمه الحق - تعالى -، وذلك في مرتبة التعيين الأول، والتعيين الثاني، حيث كانت المراتب اعتبارية علمية، لا وجودية عينية، وجميع المراتب المتقدم ذكرها علمية. وإلى ما يعلمه الحق - تعالى -، والأشياء المسماة غير، أو سواء، وخلقًا، وذلك في مرتبة عالم الأرواح ومرتبة عالم المثال، ومرتبة عالم الأجسام، وكانت الأسماء «الإلهية» قد تميزت وتعينت حقائقها في التعيين الثاني، وهو المرتبة الثانية، تحاورت الأسماء فيما بينها، وطلبت ظهورها بظهور آثارها، السريان محبته الظهور فيها من الذات؛ فإن الأسماء في الحضرة العلمية لا آثار لها، فهي مؤثرة بالصلاحية والقوة، حينئذ فخالق ولا مخلوق، ورازق ولا مرزوق، ومصور ولا صورة، ورحيم ولا مرحوم، حقائق معطلة التأثير؛ فأسماء الألوهة التي تطلب العالم، وإن كانت معاني قديمة بالنسبة إلى المسمى تعالى، وكان التعلق لها نفسيًا، فتأثيرها في مؤثراتها حادث. فلهذا نقول: إذا اعتبر الاسم من حيث المسمى تعالى كان قديمًا. وإذا اعتبر من حيث الأثر كان حادثًا؛ فمن قال بقدمها مطلقًا، كبعض أهل السنة، أو بحدوثها مطلقًا، كالمعتزلة، أو فرق بين أسماء الأفعال وأسماء الصفات، فما أصاب؛ بل هي قديمة عنده حادثة عندنا، وقد كانت أيضًا الأعيان الثابتة تميزت أعيانها في هذا التعيين الثاني، فسرت فيها محبته الظهور، من



حيث إنها عين علمه الذي هو عينه تعالى، فلجأت إلى الأسماء في ظهور أعيانها، فلجأت الأسماء إلى الاسم الجامع «الله»، وذلك بالاقتضاء الذاتي، فسبب نشوء العالم طلب الأعيان، الطلب الاستعدادي، ظهور أعيانها من الأسماء، وطلب الأسماء من الاسم الجامع «الله» لسريان الميل الذاتي إلى الظهور في الأعيان والأسماء لا سبق العلم؛ كما يقول المتكلم، ولا أن الحق - تعالى - علة، كما يقول الحكيم. فتجلى الحق - تعالى - عند طلب الأسماء بضرب من التجليات إلى الحقيقة الكلية، حقيقة الحقائق؛ فانفعل عنها حقيقة الهباء. وذلك أنه - تعالى - قسم ذاته قسمين، من غير تعدد في العين، فسمى أحد القسمين بالواجب القديم الربّ الفاعل، وسمى القسم الآخر بالممكن المحدث، العبد المنفعل، فأول ما ظهر من ذلك القسم الثاني، محلّ حكمًا، لأنه مكان متوهم، يقول فيه بعض أهل الله: «فلك الإشارات»، وهو المسمى بالهباء، عند بعض أهل الله. و«بالنفس الرحماني» و«بالخيال» عند بعضهم وبغير هذا من الأسماء؛ لأن العالم متحيّز، ولا بدّ للمتحيّز من مكان يحلّه. فإذا كان المكان مخلوقًا، دخل في حكم العالم، ولا بدّ له من مكان، ويتسلسل أو يدور أو ينتهي إلى محلّ حكمي لا يقال فيه خلق - على الإطلاق - لئلا يدخل في جنس العالم، ولا حق - على الإطلاق - لأن الحق ليس بظرف لغيره؛ كما أن غيره لا يكون ظرفًا له، فكان الهباء ظرفًا للعالم حكمًا، كظرفية العلم للمعلومات. فإن المعلوم في العلم حكمًا، ويسمى الهباء بالحق المخلوق، وتقيد الحق بالمخلوقية في هذه المرتبة من أجل ذلك الانقسام. فالهباء جوهر العالم، والعالم كله فيه بالصالحية والقوة، مثلوه بطرح البثاء الجصّ ليفتح فيه ما شاء من الأشكال والصور، ملأ الله به الخلاء، وهو الفراغ المتوهم. ولما خلق الله - تعالى - الخلق التقديري خلقه جوهرًا مظلماً معقولًا، فتجلى الحقّ عليه باسمه «النور الوجودي» فانصبغ بذلك النور، فاتّصف بالوجود، بعد أن كان عدمًا، فزالت عنه ظلمة العدم، فظهر الهباء، بعدما انصبغ بالنور الوجودي على صورة العالم؛ لأن الممكنات كلها ظهرت فيه ظهورًا غيبياً علمياً. فالهباء هو العالم البسيط، والعالم فيه هو الوسيط، والإنسان الكامل هو الوجيز؛ فالإنسان على صورة العالم، والعالم على صورة الهباء، والهباء على صورة الحق، باعتبار الظهور، وبالعكس باعتبار البطون، ظهر - تعالى - في الهباء بمعلوماته فهو محلّ الأعيان الثابتة؛ فإذا قال تعالى للمكن: كُنْ، وهو ثابت العين في جوهر الهباء المسمّى بالعماء وبالخيال وبالهيولى... عند الحكماء وسمع الأمر بالسمع الثبوتي لم يتوقّف عن الوجود، فكان صورة في جوهر الهباء، بعد أن كان معلومًا. ولما وجدت الصور في الهباء أعطته

الوجود العيني، بعد أن كان معقولاً، فهو الذي قبل أعيان العالم الثابتة وأرواحه وصوره وطبائعه، وهو قابل لما لا يتناهى، فإن ما لم يدخل في الوجود لا يوصف بالتناهي. والأمر بالتكوين والوجود أمر للصورة؛ لأن الأعيان الثابتة لم تزل ثابتة في عدمها. والصور أعراض مجتمعة، والوجود ليس إلا له - تعالى - . فالأمر بالتكوين هو المكوّن، اسم فاعل، والمكوّن، اسم مفعول، والتكوين؛ فهذا بدأ العالم وجوهره فهو موجود من النور الوجودي، والحقيقة الكلية، والهباء.

## ٦ - فصل في المرتبة الثالثة

وهو تنزل الذات إلى مرتبة الأرواح، مرتبة النكاح الثاني، وهي عبارة عن الاجتماع الواقع في عالم المعاني لتوليد الأرواح العالية العقل والمهيمن؛ فإن الأرواح العالية هيئات اجتماعية متحصلة من اجتماع جملة من أحكام الوجود، وهي الأسماء الإلهية والحقائق الإمكانية، فتسمى المؤثرات: أحكام الوجوب، والقوابل المتأثرات: أحكام الإمكان؛ فلما خرج الإذن الإلهي للأسماء بالظهور والتأثير توجه كل اسم إلى ما تقتضيه حقيقته، فكانت الموجودات الخارجية، التي أولها عالم الأرواح العالية العقل الأول، ومن في مرتبته من المهيمن في الله، الذين ما عرفوا أن الله - تعالى - خلق غيرهم ولا أنفسهم، وهم الكرييون (بالتخفيف) سادة الملائكة المقربين؛ بل ليسوا بملائكة، وإنما هم أرواح، والنفس وهو اللوح المحفوظ من العالين، وإن كان مخلوقاً بواسطة العقل الأول. وأما العقل الأول والمهيمنون فمن غير واسطة. وهذه المرتبة يسميها بعض أهل الله «بعالم الملكوت» وبعضهم يسميها «بعالم الجبروت»، وبعضهم يسميها «بعالم الأمر» لوجوده عن أمر الحق فقط من غير واسطة سبب غير الأمر، وهو قوله: «كن»، فما هو موجود عن مادة وعالم الخلق كل موجود صدر عن مادة وسبب متقدم؛ كصدور الولد عن أبويه. وفي التحقيق، الكل عالم الأمر؛ كما قال تعالى:

﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: الآية ٥٤].

غير أن عالم الخلق له وجهان: وجه إلى سببه الحادث العيني، ووجه إلى الأمر وهو سببه الغيبي، وعالم بلا واسطة الأمر له وجه واحد. وحيث كانت حقائق الممكنات وهي الأعيان الثابتة صور الأسماء في المرتبة الثانية، التي هي التعيين الثاني. والأسماء كانت شؤون الذات في المرتبة الأولى، التي هي التعيين الأول، وتسمى الحقائق هنالك بـ«الحروف العليات»، وكانت حقائق الشؤون وذواتها تقتضي

تقدم بعضها وتأخر بعضها؛ لأن بعضها شأن الذات، بلا واسطة، وبعضها شأن الذات بواسطة، كالحياة فإنها شأن الذات بلا واسطة. والعلم فإنه شأن الذات بواسطة الحياة، وإن كانا عند المحققين متلازمين، فإن كل حي عالم، كما أن كل عالم حي، فالعالم له حي عالم كان بعض مظاهر الحقائق الإلهية علّة وبعضها معلولاً، والعلّة أقرب إلى الذات الوجود من المعلول، لذلك لما أراد الحق إيجاد الأعيان الخارجية، وكان ذلك بتجليه للأعيان الثابتة وظهورها في نور الوجود ظهور الصورة في المرآة كان أوّل تجليه لأقرب المعلولات، وجعله علّة وشرطاً لإيجاد كل ما بعده من المخلوقات، وهو العقل الأوّل الذي هو الحقيقة المحمدية في الخارج، بمعنى أن العقل الأول مظهر الحقيقة المحمدية، التي هي الذات مع التعيين الأوّل، وهي حقيقة الحقائق. وما بعد العقل الأوّل من المخلوقات إلى غير نهاية، هو مظهر العقل الأوّل. ولهذا يقال: الحق - تعالى - ظهر في الحقيقة المحمدية بذاته، وظهر فيما عداها بصفاته، وقد ورد في الخبر: «أنا نور ربّي والمؤمنون من نوري»<sup>(١)</sup>.

أي جميع المخلوقات من نوره، كما ورد في حديث جابر، الذي خرجه عبد الرزاق في مصنفه، فكان العقل - لما قدمناه - ألطف الموجودات وأشرفها، لأنه ظهر في مرآة الوجود بلا واسطة، فصارت حقيقة العقل الأوّل التي هي الحقيقة المحمدية، كالحجاب على الوجود الذات؛ فكل من ينظر بعده في مرآة الوجود الحق فلا يرى إلا صورة العقل. كما أن من ينظر في مرآة العقل لا يرى إلا صورة النفس، ومن ينظر في مرآة النفس لا يرى إلا صورة الطبيعة، وهكذا إلى آخر السلسلة. فالعقل أوّل الحجب الكونية، لا بمعنى أن الذات الوجود حلّ في حقيقة العقل، أو حقيقة العقل أتصلت بالذات الوجود، وإنما ذلك أن الوجود الذات عندما يتوجّه على عين من الأعيان الثابتة توجّهها خاصاً، وتوجّهه عينه وعين ما توجّه عليه تنصّب تلك العين بالنور الوجود الذات، وينصّب الوجود الذات بأحكام تلك العين، وبقوتها، فيظهر من هذا الانصبغ ما يسمّى: خلقاً وغيراً وسوى، وهذا الحجاب الأوّل لا يرتفع دنيا ولا آخرة، وهو الرداء المشار إليه في الخبر الصحيح<sup>(٢)</sup>، وليس بين القوم وبين أن ينظروا

(١) العجلوني: كشف الخفاء، حديث رقم (٦١٩) طبعة دار الكتب العلمية - بيروت.

(٢) يفسد الحديث القدسي: «العظمة إزاري والكبرياء رذائي، فمن نازعني فيهما فذفته في جهنم». مسند الطيالسي حديث رقم (٢٣٨٧). ومسند الشهاب حديث رقم (١٤٦٥) وهو في غيرهما.

إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن. وجميع إشارات الصوفية وتغزلاتهم متوجهة إليه، فهو المكنى عنه بليلى، وسلمى، والكأس، والخمر، والشمس، والبرق، والنور والنار... وهو غاية سير السائرين، ونهاية السالكين. فإذا وصلوا إليه علمًا وشهودًا وذوقًا؛ وصلوا إلى الإيمان بالغيب، وعرفوا أن الحق - تعالى - وراء ذلك. ومن أهل الرياضات والمجاهدات وتهذيب الأخلاق النفسية، ممن على غير شريعة، أو على شريعة منسوخة من يصل إلى شهود العقل الأول، فيظن أنه الحق - تعالى - وأنه ليس وراءه مرمى لرام، فيزداد ضلالًا ويجني وبالًا؛ لأنه ليس معه نور إيمان، وإنما معه نور النفس وخصوصيتها، ولا تنجلي الأشياء على الحقيقة إلا لذي نورين وعينين؛ وكما قلنا في المثال المتقدم: إن الملك خرج متحجبًا بصورة، وقال: هذه صورتي، خذوا عنها ما شئتم من الصور، فصورة العقل الأول هي أول صورة عينية شهودية ظهرت عن الصورة التي خرج الملك متحجبًا بها، وهي الصورة الغيبية الرحمانية، صورة التعيين الأول، وهذه الصورة هي السارية في جميع ما يظهر من الصور أبد الأبدان، ودهر الداهرين، إلى غير نهاية. فلو أخذ عنها مثلًا آلاف ألوف من الصور إلى ما لا نهاية له لكانت الصورة المفروضة أخيرًا، هي الأولى بعينها. وإنما الأوراق والأصباغ التي ظهرت الصورة فيها هي التي تتجدد وتحدث، كذلك يقال في العلم الإلهي: الصورة الرحمانية المفارقة على الممكنات هي واحدة في ذاتها لا تتعدّد ولا تتجزأ ولا تختلف، وإنما الصور الطبيعية والعنصرية التي هي بمثابة الأصباغ والأوراق هي التي تختلف وتتجدد، فهو الأول والآخر، من حيث أن صورته عين وجوده، الذي هو عين ذاته، في كل ما يفرض وجوده من الممكنات التي لا نهاية لها، ولا غاية لها؛ فهو الأول الآخر من حيثية واحدة لا بالنسبة إلى كذا؛ لأن أسماءه ليست بمتضادة. والذي اختص به الحق - تعالى - وبه عُرف، هو الظهور بالضدين. وهذا ممن غلط فيه المتكلمون، فإنهم جعلوا ما ورد في الكتاب والسنة من نحو قوله - تعالى -: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ [الحديد: الآية ٣].

من وجهين مختلفين وباعتبارين، وجعلوا للكلمات الثابتة له تعالى أصدادا ونقائص، مع أن تصوّر الضد والمنافي إنما يكون إذا كان المحل قابلاً، والحق - تعالى - لا يقبل النقائص، فكلماته لا منافي لها، فأعرفه، فإنه نفيس. وكما أن الصورة التي ظهر الملك متحجبًا بها هي صورته بلا شك، فالملك ظاهر معروف من حيث الصورة. وكل من عرف الصورة وشاهدها يعرف الملك ويميزه ممن سواه، والملك

من حيث نشأته وحقيقته باطن، ما عرفه أحد؛ فهو ظاهر معروف باطن مجهول، كذلك يقال في العلم الإلهي الحق - تعالى -، ظاهر باطن باعتبار واحد وجهة واحدة؛ لأن العالم صورة الوجود الذات الحق، فإنه تعين أسمائه، وظهور الأسماء هو ظهور الذات الوجود، لأن الأسماء أمور عدمية معقولة غير مشهودة، والظهور وجودي، وبطون الذات عين ظهور الأسماء؛ لأن ظهور الأسماء هو عين ظهور الكثرة، وذلك منافٍ للوحدة الذاتية، فعين بطونه تعالى عين ظهوره، فهو الظاهر الباطن. فانظر ما أعجب هذا!! فيا خيبة العقل في حكمه على الله - تعالى - الذات المطلق! وكما أن آلة التصوير لا تظهر عنها صورة إلا بالنور الشمس، فإذا كانت الشمس محجوبة لا تظهر عنها صورة ما قبلها، كذلك يقال في العلم الإلهي: لولا النور الوجود الذات ما ظهر شيء من المخلوقات؛ لأن المخلوقات ظل الحق - تعالى -، ولا يظهر الظل عادة وشهادة، إلا بنور وشاخص وشيء يظهر الظل فيه. فالشاخص مرتبة الأسماء، والذي يظهر الظل فيه أعيان الممكنات، والنور الوجود. فعندما يشرق النور على الشاخص يظهر الظل في أعيان الممكنات. وكما أن الصورة لا تظهر بألة التصوير إلا في شيء قابل لارتسام الصورة فيه، مستعد لذلك، وهي الأوراق المصبوغة بالصبغ المخصوص والوضع المخصوص، وإلا فلا ظهور؛ كذلك يقال في العلم الإلهي: لا يقبل الصورة الوجودية من الموجد - تعالى -، إلا الممكنات فإنها مستعدة متهيئة لقبول الوجود. وأما ما لا استعداد له للوجود ولا قبول وهو المحال فلا يقبل الوجود، فلا يؤثر فيه مؤثر تعالى، فعلة الإيجاد، مركبة من الفاعل والقابل، فلو فرض عدم أحدهما لم يكن شيء. وكما أن الصورة إذا لم يقابلها شيء يكون خلف آلة التصوير مستعد لأن يكون مظهرًا للصورة، لا تظهر الصورة؛ كذلك يقال في العلم الإلهي: المتجلي الإلهي لا يكون في غير مظهر معنوي أو روعي أو خيالي أو طبيعي أو عنصرى، لا في الدنيا ولا في الآخرة، فإن عدم المظهر عدم، والتجلي ظهور، فالوجود الذات لا يدرك مجردًا عن المظاهر:

كالشمس يمنعك اجتلاؤك نورها فإذا اكتستت برفيق غيم أمكنا

وقول أهل السنة المشتين رؤية الحق - تعالى - في الدار الآخرة: إنه - تعالى - يرى بلا مظهر ولا صورة ولا جهة ولا كذا ولا كذا... هو جار على التنزيه العقلي الذي هو خلاف التنزيه الشرعي، وقد نزه الحق - تعالى - نفسه عن تنزيه العقول، فقال: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الصفافات: الآية

وقال: ﴿سُبْحٰنَ اللّٰهِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ اِلَّا عِبَادَ اللّٰهِ الْمُخْلِصِينَ ﴿١٦٠﴾﴾ [الصفات: الأيتان ١٥٩، ١٦٠].

وعباد الله المخلصين هم الذين نزهوه كما نزه نفسه على السنة رسله - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين - .

### تتميم

ولما كثرت وجوه العقل واعتباراته كثرت أسماؤه، إذ كلُّ من قام به وصف اشتق منه اسم. منها «العقل الأول» عند قدماء الحكماء، لأخذه الوجود والعلم مجملاً بلا واسطة، فهو أول من عقل من ربه، وأول قابل لفيض وجوده. ومنها: «القلم الأعلى» لتفصيله ما أخذه مجملاً في اللوح المحفوظ، فهو القلم من جهة التدوين والتسطير. ومنها: «الروح الأعظم» عند أهل الله، فهو الروح من حيث التصرف والإمداد، لكونه حاملاً للتجلي الأول، ومنسوباً إلى مظهريته، ولغلبة حكم الوحدة والبساطة عليه، فإن الله خلق جوهرًا بسيطًا لا تعدد فيه ولا تركيب، بمعنى أنه لا يشبه المركبات الطبيعية أو العنصرية، وإلا فكلُّ مخلوق مركب، له ظاهر وباطن. فالبساطة معقولة، لا وجود لها خارجًا، فالأرواح مركبة من حقائق إمكانية، ووجود حق، ولا صورة لهذا الروح، فلا يتميز إلا بالصور التي تحمله، وهو جامع لجميع التجليات الإلهية، لما تجلّى له الحق علم جميع ما يظهر عنه من اللطائف والكثائف والبسائط والمركبات والجواهر والأعراض والأزمنة والأمكنة إلى يوم القيامة. ومنها: «روح الأرواح» لأنه منشأ جميع الأرواح الكلية الجزئية. ومنها: «الإمام المبين» لأنه ظاهر بصفة كلِّ شيء، ومفصل مبين لكلِّ شيء، بظهوره في كلِّ شيء، كما أظهر الحبرُ الكلمات والحروف. ومنها: «العرش» الذي استوى عليه الرحمن لأنه مظهر لجميع الأسماء، من جمال وجلال، فاستوى عليه - تعالى - كما يعلم هو. ومنها: «مرآة الحق» لأنه - تعالى - شاء أن يرى ذاته ظاهرة له، فظهر بنفسه في صورة العقل الأول، فقامت له نفسه في صورة المغايرة مقام المرأة، من غير انفصال ولا تعداد، فظهر كل ما في الصورة الإلهية في تلك المرأة التي هي نفس الحق - تعالى - في الحقيقة، والعقل الأول في الخلق الأول، وحقائق العالم في حضرة التفصيل. ومنها: «الكلمة» لأنه صدر عن كلمة الحضرة، وهي «كُنْ» وهي صورة الإرادة الإلهية والتوجه الإلهي، فصدر عالمًا بالمعلومات التي لا تتبدل؛ كما قال: ﴿لَا يَبْدِلُ اِلٰهِكُمْ اِلٰهًا﴾ [يونس: الآية ٦٤].



وقال: ﴿مَا يَبْدُلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ﴾ [ق: الآية ٢٩].

ومنها «المادة الأولى» لأنه أوّل مخلوق تبين من الغيب، وتفضّل منه جميع ما في العالم الكبير والصغير من جماد وحيوان ونبات وإنسان وملك وجبريل... وغيره من سائر الأرواح والملائكة. ومنها: «الفيض الأول»، لأنه تعالى أبرزه من حضرته قبل كلّ شيء وأفاضه على عين كلّ شيء، فظهر كلّ شيء ممتداً منه، بسبب فيضانه عليه. ومنها: «نفس الرحمن»، فإنه تعالى قال:

﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾ [الجبر: الآية ٢٩].

والنفخ إرسال النفس على المنفوخ فيه، فهو روح كلّ صورة، جعل له تعالى مع كلّ شيء يخلقه وجهاً خاصاً. ومنها: «العقل الكلّي» و«العقل الكلّ»، والفرق بينهما هو أن العقل الكلّي، ماهيته عقلية لها تعيّنات لا تتناهى بالقوّة، وهي كالمرايا، تظهر فيها كسائر الماهيات التي تظهر في جزئياتها. فالعقل الكلّي صورة العلم في العقل، والعقل الكلّ، هو صورة العقل الكلّي في الشخص؛ لأن كلّ ماهيته لا بدّ أن يكون لها من جزئياتها جزء هو شخصها الكبير، الذي اقتضاه الكلّي بنفسه، فانهصر فيه بجميع خاصياته ومعانيه ولوازمه، فهو الحقيقة. والجزئيات المحسوسات ظلاله؛ كأدم لماهية الإنسان، فإنه الشخص الكبير الجامع لجميع معاني هذه الماهية وخواصها. وكلّ ما سواه من أشخاص الإنسان ظلال لهذا الشخص، وبهذا تعرف أن العقل الكلّي موجود عينيّ متناهٍ في مكان. ومنها: «الروح الكلّ» و«الروح الكلّي»، والكلام فيهما كالعقل الكلّي والعقل الكلّ. ومنها: «مركز الدائرة»، لأن نقطة المركز تقابل بذاتها كلّ نقطة من نقط الدائرة، وليست هي من الدائرة، وكذلك هو، فإنه واحد بسيط يقابل جميع الصور والأجسام والجواهر، ويتلوّن بكل صورة، فهو الواحد الكثير. ومنها: «العقاب»؛ لأنه يصطاد النفس ويخطفها من سفلى هياكلها الظلمانية إلى عدالها النورانية. ومنها: «الدرة البيضاء»، لكونه أشدّ المسكنات بساطة ونزاهة، فهو غير متلوّن، وقد ورد في خبر: «أول ما خلق الله: درة»، فنظر إليها نظر هيبية، فسالت...<sup>(١)</sup> الحديث.

ومنها: «العدل»، لأنه يعطي كلّ شيء خلقه واستعداده، ومن أعطى الأشياء استعداداتها وما تقتضيه حقائقها، وأعطى كلّ شيء خلقه، لا أزيد ولا أنقص؛ فعدّل

(١) هذا الحديث لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع.

كل العدل. ومنها: «أمر الله»، قال تعالى:

﴿وَمَسْئُوكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الإسراء: الآية ٨٥].

أي: الروح أمر ربي، ف«من» بيانية؛ لأن الأمر هو ما صدر عن الحق بلا واسطة، فهو الروح، وهو النور المحمدي، كما ورد في الخبر الذي خرجه عبد الرزاق: «أول ما خلق الله نور نبيك يا جابر»<sup>(١)</sup>، الحديث بطوله.

وورد في خبر: «إن الله قبض قبضة من نوره، وقال لها كوني محمداً، فكانت»<sup>(٢)</sup>، ولهذا من أسمائه قبضة النور.

فجميع ما تقدّم من الأسماء، وارد عليه ومتوجّه إليه شخصاً وحقيقة، فإنه التعيّن الأوّل؛ إذ الأمر الصادر من حضرة الإطلاق، حيث لا تعيّن، صدر بصورة النور المحمدي، فهو التعيّن الثاني باعتبار قيام النور المحمدي بالأمر. والتعيّن الثالث باعتبار نزوله في عالم الخلق، فالمراتب ثلاث، وصاحبها واحد، فالحقيقة المحمدية حقيقة الروح الأوّل، وهو حقيقة جميع الأرواح، فهو ظهور الحقيقة المحمدية، وجميع الأرواح ظهوراته، والروح منزّه عن جميع النقائص الإمكانية ما عدا الوجوب بالغير، فمن لم يعرف، منزّه عن النقائص، إلّا الحق - تعالى - فقد جهل الروح. ومع كون العقل الأوّل أشرف المخلوقات وأقربها إلى الحق - تعالى -؛ لأنه خلقه من غير واسطة، فهو أجهل بالله من المصنوعات بصانعها، فإن المصنوعات بينها وبين صانعها مناسبة ما، ولو في الإمكان والحدوث. والعقل الأوّل، الروح الكلّ، ليس بينه وبين مبدعه مجانسة من وجه أصلاً، فهو لا يعلم من الحق - تعالى - إلّا وجوده، كما أن الذين دون العقل الأوّل، لا يعلمون من العقل الأوّل الروح إلّا وجوده. أمّا حقيقته فلا. فمن أين للمرأة معرفة حقيقة ذي الصورة، المتوجّه على المرأة؟ ومن أين للظلّ معرفة ذي الظل الذي امتدّ عنه؟! وهو يستمد من الحق - تعالى -، ويمدّ الخلق، ولا علم له بكيفية إمداد الحق - تعالى - له، فإن الإمداد بالتجلي. والعلم بكيفية التجلي من خصائص الإله، فإن العلم بكيفية التجلي يقتضي الاتحاد في الآنية، واتحاد آية الخالق بالمخلوق محال، وتقدم الكلام فيه. وعلم العقل الأوّل، عين ذاته، ما هو صفة له، وهو مجمل يتفصل بحسب التجليات. وإمداده لمن تحته في المرتبة، ذاتي لا يوصف فيه بالمنع، وإرادي يوصف فيه بالمنع، فإذا أراد الله نفاذ أمر ما كان أوّل

(١) هذا الحديث سبق تخريجه.

(٢) هذا الحديث لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع.

مَنْ يَتْلَقَاهُ مِنَ الْحَقِّ - تَعَالَى - الْعَقْلَ الْأَوَّلَ، وَهُوَ بِأَمْرِ غَيْرِهِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، فَهَمَّ الْجِنْدُ لَهُ، مِثْلَ جِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَسَائِرِ الْمَلَائِكَةِ. وَعِنْدَمَا بِأَمْرِ اللَّهِ بِأَمْرِ يَخْلُقُ مِنْهُ مَلَكًا لَانْفِاقًا بِذَلِكَ الْأَمْرِ، فَيُرْسِلُهُ الرُّوحَ لِقَضَاءِ ذَلِكَ الْأَمْرِ، وَلَمْ يَكُنْ بَيْنَ خَلْقِ الْعَقْلِ الْأَوَّلِ وَالْحَقِّ - تَعَالَى - زَمَانٌ يَتَقَدَّمُ بِهِ هَذَا وَيَتَأَخَّرُ بِهِ هَذَا، فَيَقَالُ: قَبْلَ وَبَعْدَ، هَذَا مُحَالٌ. وَلَكِنْ الْوَهْمُ يَتَخَيَّلُ أَنْ بَيْنَ الْحَقِّ - تَعَالَى - وَبَيْنَ إِيجَادِهِ الْخَلْقَ امْتِدَادًا، وَلَيْسَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ. وَإِنَّمَا تَقْدِمُ الْحَقِّ - تَعَالَى - بِالْمَرْتَبَةِ لَا بِالزَّمَانِ، كَتَقْدِمِ أَمْسٍ عَلَى الْيَوْمِ، فَإِنَّ الزَّمَانَ مِنْ جَمَلَةِ الْمَخْلُوقَاتِ، وَعَدَمِ الْعَالَمِ لَمْ يَكُنْ فِي زَمَانٍ. وَالْأَوَّلِيَّةُ الْمَنْسُوبَةُ لِلْعَقْلِ الْأَوَّلِ الْأَوَّلِيَّةُ فِي الْمَخْلُوقَاتِ، خِلَافَ الْأَوَّلِيَّةِ الَّتِي لِلْحَقِّ - تَعَالَى -. وَقَدْ جَعَلَ الْحَقِّ - تَعَالَى - لِلْعَقْلِ الْأَوَّلِ تَوَجُّهًا خَاصًّا إِلَى كُلِّ مَا يَرِيدُ - تَعَالَى - إِيجَادَهُ. وَيَخْلُقُ - تَعَالَى - عِنْدَ التَّوَجُّهِ مَا شَاءَ لَا بِتَوَجُّهِ الْعَقْلِ، فَإِنَّهُ يَتَعَالَى عَنِ الشَّرِيكَ وَالْمَعِينِ، فَلَا يَخْلُقُ - تَعَالَى - شَيْئًا بِشَيْءٍ. وَإِنْ خَلَقَ شَيْئًا لَشَيْءٍ، قَتَلْتَكَ «لَام» الْحِكْمَةَ، وَخَلَقَهُ عَيْنَ الْحِكْمَةَ، «فَالْبَاءُ» فِي خَلْقِهِ تَعَالَى بِالْحَقِّ، بِمَعْنَى اللَّامِ، فَلَيْسَتْ لِلْسَّبِيْبَةِ وَلَا لِلْإِسْتِعَانَةِ، وَمَنْ هُنَا يَعْلَمُ غَلَطَ مَنْ قَالَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى:

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الحجر: الآية ٨٥].

إِنَّ الْحَقَّ الْمَخْلُوقَ بِهِ عَيْنَ مَوْجُودِهِ، وَإِنَّمَا «الْبَاءُ» بِمَعْنَى «اللَّامِ»، كَمَا قَدَّمْنَا.

### إفشاء سرّ، وهتك ستر

نسبة الوجود إلى العقل الأول وغيره من سائر الممكنات، ممّا له ماهية عرض لها الوجود، ليس هو كما يقوله المتكلّمون وجمهور الحكماء: أن الممكنات لها وجودات يخلقها الله - تعالى -. لها لكلّ ممكن وجود. والموجودات موجودة في الخارج حقيقة، ولا أنها موجودات في الخارج حقيقة بوجود مشترك بين جميع الممكنات، كما يقوله بعض قدماء الحكماء؛ وإنما معنى نسبة الوجود إلى كلّ ممكن، عند أهل الله، أهل الكشف والوجود، أنه - تعالى - لما تجلّى لأعيان الممكنات الثابتة في علمه - تعالى -. لم تستطع أبصارها الثبوتية، النفوذ في النور الوجودي، فانعكست عليها، فرأت أنفسها وقد انصبغت بذلك النور الوجودي، فعلمت أنفسها وغيرها، وانصبغ النور الوجودي بأحكامها ونعوتها؛ فتوهمت لذلك أنها وجدت خارج العلم، لظهور الوجود بأحكامها ونعوتها، وهي لم تخرج ولا تخرج أبدًا، فلو خرجت خارج العلم كما تخيلت، لانقلبت حقائقها، وقلب الحقائق محال، لما يلزم عليه من نفي العلم عن الحقّ - تعالى - والخلق، ولما استحال على الأعيان الثابتة أن تظهر ذواتها،

واستحجال على الحق - تعالى - أن يظهر بذاته مجرداً عن المظاهر تعين أن تكون هذه المسماة موجودات ومخلوقات، إنما هي تجليات الحق - تعالى -، بأحوال الممكنات ونعوتها، ليست عين الحق، ولا عين الممكن، ولا غير الحق، ولا غير الممكن، فعين ما ترى عين ما لا ترى. فالموجودات كالصورة في المرأة، ما هي عين الرائي ولا عين المرئي فيه، ولكن بالمحل المرئي فيه، وبالناظر للمحل ظهرت الصورة. قال تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ﴾ [الأنفال: الآية ١٧]، فنفى.

﴿إِذْ رَمَيْتَ﴾ [الأنفال: الآية ١٧] فأثبت ما نفى.

﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ [الأنفال: الآية ١٧]، فأثبت لله ما أثبت لمحمد.

فقوة هذا التركيب تعطي: ما أنت، إذ أنت، ولكن أنت الله! وغير خاف أن الصفات النفسية عين الموصوف كالحيوانية والنطق للإنسان. ولكل مخلوق صفات نفسية ما لها ظهور إلا في عين الموصوف، وهي معانٍ لا تقوم بأنفسها، وهي عين الموصوف لا غيره. فإن الموصوف مجموع صفاته النفسية. وما ثم ذات غيرها تجمع الصفات، فوصف الشيء بنفسه، وقام بنفسه من حقيقته، أنه لا يقوم بنفسه، فانظر ماذا ترى؟! فما هو إلا الحق المسمى بالخلق، فليست صور العالم كلها إلا كقوس قزح، واختلاف ألوانه كاختلاف صور المحدثات، فإنك تعلم أنه ما ثم متلون ولا لون، مع شهودك ذلك، كذلك شهودك صور المحدثات في وجود الحق الذي هو الوجود، فتقول: ثم ما ليس ثم، لأنك لا تقدر أن تُنكر ما تشهد وأنت تشهده، كما أنك لا تقدر أن تجهل ما أنت تعلمه، وأنت تعلم. فالمعلوم في هذه المسألة خلاف المشهود، فالبصر يقول: ثم، والبصيرة تقول: ما ثم، ولا يكذب واحد منهما فيما يخبر. ومن هنا تعرف قول ساداتنا أهل الله؛ فالعلم كله خيال، لا يريدون أنه عدم محض، كما تقول السوفسطائية، أو أنه لا وجود له إلا في الخيال المتصل، كما توهم ذلك كثير من الجهلاء، بطريق أهل الله، كابن خلدون في مقدمته للتاريخ الكبير، وأضرابه، فرد عليهم بجهل. وإنما مراد أهل الله: أن العالم في حقيقة الأمر على خلاف ما تدركه مدارك الجمهور، فإن ظاهره خلق وباطنه حق. أو قل: ظاهره حق وباطنه خلق، فالعالم كالخيال الذي يجده كل عاقل من نفسه، فإن لكل إنسان خيلاً، هو شعبته من الخيال الذي وجد فيه العالم، كما سنوضحه. فإنك إذا أخذت عوداً مثلاً على طرفه جمرة، وحركته طولاً بسرعة ترى خطاً من نار، وإذا حركته دائرة ترى دائرة من نار لا تشك فيما أدركه بصرك، فإذا راجعت عقلك حكمت الأمر على خلاف ما أدركه بصرك، فلا وجود إذاً لخط النار

ودائرة النار إلا في خيالك المتصل، لا في الخارج عن خيالك، وكذلك المسحور يدرك ببصره أمورًا وصورًا لا يشك فيها ولا يرتاب، ولا وجود لما أدرك إلا في خياله المتصل، فإن الساحر إذا أراد أن يظهر عند شخص أمرًا ما أمسك الساحر ذلك الأمر في خياله المتصل، وخطف بصر ذلك الشخص الذي يريد سحره بخاصية اسم أو بخاصية نفسية اكتسبها بريضة، ورد ذلك الشيء إلى خيال ذلك الشخص؛ فيراه في خياله كما هو في خيال الساحر، هذا في اليقظة، وكذلك النائم يرى أشياء لا تنحصر، وتكون حوله جماعة غير نائمين لا يرون شيئًا مما رأى، فلا وجود لما رآه إلا في خياله المتصل، فليست هذه المدركات معدومة من كل وجه، وإلا لم تدرك، ولا موجودة من كل وجه، وإلا لأدركها الحاضرون. والوجود الخيالي من أقسام الوجود، فسادة الأمة الوارثون علوم الأنبياء يقولون: العماء الذي هو جوهر العالم، وفيه وجدت أجناسه وأشخاصه هو الخيال المنفصل. ويقال: الخيال المطلق، ويقال: الخيال المحقق، بمثابة المرأة التي بسبب التوجه عليها ظهرت الصور الخيالية في المرأة، وظهر صور العالم فيه هي المتخيلات، وإنما سمي بالخيال لأن كل شيء ظهر فيه فهو ظاهر، بخلاف ما هو عليه. فكل شيء وصف بالوجود فهو لا هو. فالعالم لا هو، والحق الظاهر بالصورة هو لا هو؛ فتحكم عليه بالجمع بين الضدين حكمًا صادقًا، فلا يقال في العالم: إنه عين الحق، ولا غير الحق، بين الوجود كله حق. ولكن من الحق ما يتصف بأنه مخلوق، ومنه ما يوصف بأنه غير مخلوق. وأيضًا كل شيء ظهر في الخيال، فهو إلى استحالة إنما سريعة وإنما بطيئة، فكل ما سوى ذات الحق - تعالى - متخيل، فلا يبقى شيء في الدنيا والآخرة وما بينهما ولا صور ولا أرواح ولا نفوس ولا أشخاص... ولا شيء مما سوى ذاته - تعالى - على حالة واحدة، بل يتبدل من صورة إلى صورة دائمًا أبدًا، وليس الخيال إلا هذا، فلو كان وجودًا حقيقيًا ما تغير ولا تبدل؛ لأن الحقائق لا تبدل، فما في الوجود الحقيقي لا يتغير ولا يتبدل إلا ذاته تعالى، وكل العالم في الوجود الخيالي. ومن حقيقة الخيال الحكم على كل شيء، من واجب ومستحيل وممكن، ولا يستحيل عنده شيء يحكم في الأعراض والمعاني، فيجعلها صورًا محسوسة قائمة بأنفسها، وفي أي صورة شاء ركبها وجسدها، ويريك الشخص الواحد في مكانين في آن واحد كما ورد أنه - ﷺ - قال: «مررت بموسى يصلي في قبره»<sup>(١)</sup>.

(١) رواه مسلم، كتاب الفضائل، باب من فضائل موسى، حديث رقم (١٦٤ - ٢٣٧٥). ورواه =

لما وصل إلى السماء السادسة، قال: «فإذا أنا بموسى»<sup>(١)</sup>.

وموسى شخص واحد، ومن هذا الخيال المقتول في سبيل الله، يراه المؤمن بعين إيمانه حيناً يرزق يأكل ويشرب، ويراه غير المؤمن ميتاً ملقى. وكذلك سؤال القبر يأتي المحجوب إلى زيد الميت مثلاً، فيقول: أراه ميتاً ساكناً لا حركة له، فيأتي المؤمن فيقول له: كذبت، إنه قد أقعده الملكان وهو حيّ يُسأل ويُجيب، فيأتي العالم الرثائي صاحب الكشف فيقول لهما: إنما كلاكما صادقاً، فإنه أخبر عن إدراكه، والحركة والسكون، والموت والحياة. فزيد الذي اختلفما فيه هو حيّ ميت، متحرك ساكن، ساكت متكلم، ملقى قاعد، وأقرب مثال يفهمك هذا ما يجده كل إنسان من نفسه فيما يراه في منامه من الأحوال التي لا تنحصر ولا تحصى، فالذي ينظر بالعين العوراء المحجوبة عن اللطائف أنكر سؤال القبر. وأوّل ما ورد في ذلك من الأحاديث الصحيحة والآيات كالمعتزلي، والذي ينظر بعين الإيمان المنورة اعتقد عذاب القبر تقليداً للشارع وجهل الكيفية. والذي ينظر بعينين ويمشي بنورين، وهو الذي كشف الله - تعالى - له عن أسرار الأخبار الإلهية والنبوية أثبت سؤال القبر وحياة المقتول في سبيل الله ونحو ذلك، وعرف الحقيقة والكيفية. والصورة المثالية قد تسري منها اللذة والألم إلى الصورة الحسية، لكون مدبرها واحداً، فإن الإنسان يرى في النوم أنه يقاتل أو يخاصم أو يرى أسداً أو حية؛ فيقوم وبوادره ترجف وقلبه يخفق. وقد يجامع الإنسان في النوم ويقضي حاجته فيستيقظ وقد أمني. . . وأمثال هذا كثير. وقد يأكل أو يشرب بعضهم في الخيال والواقعة فيرجع إلى حسّه شعباناً ريثاناً، وقد نقل غير واحد عن إمام الأندلس في زمانه، بقي بن مخلد أنه رأى النبي - ﷺ - سقاه لبناً في النوم، فاستقاء ليطمئن قلبه فقاء لبناً.

كنت مرّة في مجاهدة، فجعت وعطشت أشدّ جوع وعطش، فرأيت في أثناء ذلك أنني أتيت بطعام ما ذقت مثله في اللذة مدة حياتي، وسألت عمّن صنع ذلك الطعام؟! فقيل: فرح، فاتبعت وطعمة الطعام في فمي شعباناً ريثاناً، وانتشرت ألتني من تلك الأكلة في الحين، وقد كانت مدة أيام ملتوية مثل الخيط، فالخيال المتصل لا

= النسائي في السنن حديث رقم (١٦٣٤). ورواه غيرهما.

(١) رواه البخاري، كتاب الصلاة، باب كيف فرضت الصلاة حديث رقم (٣٤٩). ورواه مسلم، كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله. . . حديث رقم (٢٥٩ - ١٦٢). ورواه أحمد في المسند حديث رقم (١٢٥١٣).



يستحيل فيه شيء، وهو شعبة من الخيال المنفصل، فأحرى الخيال المنفصل الذي هو الحضرة الجامعة، فهو حقيق أن لا يظهر فيه إلا المستحيل، فلهذا كان يزيفه ويرمي به العقل، لولا أن الشرع قرره وجاء بحكمه، يكثف اللطيف المطلق، ويلطف الكثيف المطلق، فإن الحق - تعالى - يظهر فيه كثيفاً، فإنه يظهر متجلباً بالصورة الكثيفة؛ لأنه تعالى إذا ظهر في الخيال لا يظهر فيه إلا بحقيقته الخيالية. ويظهر الكثيف المطلق لطيفاً كظهور الإنسان بصفات الحق، وليس إلا الوجود الذات، وهذا الخيال المطلق العماء البرزخ الذي وجدت فيه الموجودات المتخيلات؛ كان معقولاً قبل إيجاد المخلوقات، وإنما الصور المتخيلات التي وجدت فيه أعطته الوجود، فهو أشبه شيء بالحقائق الكلية، بل هي أشبه شيء به، فإنها موجودة ضمن أشخاصها، وهو القول الحق. وهي من حيث هي حقائق كلية معقولة لا موجودة ولا معدومة. والخيال المطلق المنفصل المحقق هو الوهم عينه، لا غيره. وليس هو الوهم الذي يقول الحكماء: إنه قوة تدرك المعاني المتعلقة بالمحسوسات، كعداوة عمرو وصدافة زيد. وإذا تحكّم الخيال المطلق الوهم في إنسان وتسلطن واستولى عليه لا يبقى عنده شيء مستحيل لا عقلاً ولا عادة، فلا يحيل شيئاً في حق الحق تعالى. وكل شيء أحاله العقل في حق الحق تعالى؛ فهو ممكن عنده. وجميع المتشابهات الواردة في الكتب الإلهية والأخبار النبوية هي على ظاهرها لا يؤول شيئاً منها ولا يحيل شيئاً من المستحيلات عادة، كالطيران في الهواء والمشي على الماء والدخول في النار من غير حصول أضرار، والغوص في الأحجار والبحار، والنفوذ من الجدران والتصور بكل صورة من جماد ونبات وحيوان وإنسان وملك، فإنه يصير روحاً مجرداً لا تقيده صورة ولا صفة، فهو مطلق من جميع القيود. ونسبة جميع الصور إليه كنسبة صورته الخاصة إليه، فيؤثر في أي جسم أراد، بأي شيء أراد، فهو روح العالم جميعه، والعالم كله صورته. وإنما وصف الخيال بالمنفصل وبالمطلق؛ لأن الإنسان له قوة في مقدم دماغه، صورتها كالوددة، يتخيل بها الأشياء، فتظهر في خياله المتصل، لا في الخارج عنه، وهو شعبة من الخيال المنفصل، ووجه من وجوهه، فالخيال المنفصل المطلق المحقق، حضرة ذاتية قابلة دائماً للمعاني والأرواح فتجسدها بخاصيتها، فالصور التي تسمى في العرف العام محسوسات؛ إنما هي أرواح متجسدة في الخيال المنفصل كما تجسد جبريل لمحمد - ﷺ - ولعمر - عليه السلام - فوجود الأجسام في الخارج، مثل ظهور العلم في صورة اللبن. وليس الفرق بينهما إلا أن الأجسام الموجودة في الخارج تظهر في الخيال المنفصل، وهو العماء والبرزخ الثاني، والعلم

يظهر في صورة اللبّن في الخيال المتّصل المقيد، وحقيقة الخيال فيهما واحدة. وليس الخيال المتّصل بحضرة ذاتية، فإنه يذهب بذهاب المتخيّل - اسم فاعل - وهو على نوعين: منه ما يوجد عن تخيّل وهو ما يمسكه الإنسان في نفسه، في مثل ما أحسن به، أو مما صورته القوّة المصوّرة. ومنه ما لا يوجد عن تخيّل، كالثائم ما هو عن تخيّل ما يراه من الصور في نومه، وهذه الشعبة والوجه بين الخيال المطلق يكثف اللطيف المقيد، وهي المعاني المعقولة، فتظهر في صور متجسّدة، كالعلم في صورة اللبّن، والثبات في الدين في صورة القيد، والإسلام في صورة القبة، ونحو هذا، يلطف الكثيف المقيد فيظهر بصورة لطيفة روحانية، كالأجسام المحسوسة عندما تمسك صورها في مخيلتك، وبما ذكرناه تعرف الفرق بين عصا موسى - عليه الصلاة والسلام - عندما ظهرت حيّة تسعى، وبين عصا السّحرة وحيالهم عندما ظهرت بصور حيّات تسعى، فعصا موسى ظهرت حيّة تسعى في الخيال المنفصل المحقّق، فهي كسائر المخلوقات التي تتبدّل صورها بأن يخلع جوهرها صورة ويلبس أخرى. وأما حبال السحرة وعصيهم فإنما ظهرت حيّات تسعى في الخيال المتّصل، أعني خيال الحاضرين، فكانوا يرونها حيّات تسعى ولا وجود لما أدركوه بأبصارهم إلّا في خيالهم الخاص بهم، ممّا لا وجود له إلّا في خيال الحاضرين وأبصارهم. قال تعالى:

﴿سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ﴾ [الأعراف: الآية ١١٦].

ظهرت حيّات تسعى في الأعين، لا في نفس الأمر؛ فهي في نفس الأمر حبال وعصي ساكنة، فلو فرض حضور شخص ما كانوا سحروه، لرآها حبالاً وعصيًّا ساكنة كما هي قبل ذلك.

مطلب: ويرحم الله والدي، كان كلّما رأى إنساناً تغيّر رأيه وتبدّل قوله لأمر طراً عليه، يقول: الآن صار يدرس، فسألته عن ذلك؟ فقال لي: إن ساحراً كان يضع كوماً من البيض بالأرض، فإذا اجتمع الناس عليه سحر أعينهم وأراهم أنه يدرسه ويدوسه برجله ولا ينكسر منه شيء! ففعل ذلك يوماً كعادته، فحضر إنسان ما كان سحره الساحر، فقال للناس: ما جمعكم؟! فقالوا له: انظر إنه يدرس البيض ويدوسه برجليه ولا ينكسر!! فقال: أنتم عميان، إنما هو يدور بالبيض ولا يدوسه ولا يمسه برجليه، ففطن به الساحر، فسحره مثل الجماعة قبله، فقال: الآن صار يدرس، وأما قبل فإنما كان يدور بالبيض.

وأما عصا موسى - عليه السلام - فلها وجود في الخيال المنفصل المحقق، الذي هو الحضرة الجامعة. وجميع ما ذكره القوم في كتبهم من: أرض السمسم، وسوق الجنة، وعالم المثال، والخيال المتصل... هي شعب من الخيال المنفصل، ووجوه من وجوهه.

### تحقيق

ثم اعلم أن الوجود الذي وصفت به الممكنات، ونسب إليها، ليس هو الثبوت ولا الحصول ولا التحقق، كما يقول المتكلم والحكيم؛ لأنها اعتبارات عقلية، لا وجود لها إلا في الذهن، كسائر المصادر. وإنما هو عند الطائفة العلية، وجدان الشيء نفسه في نفسه، أو غيره في نفسه، أو في غيره، وقال بعضهم: الوجود ما به وجدان الشيء، وتحقيقه التحقيق الذي له بالذات فهو محقق في نفسه، وكل شيء إنما تحقق به، فتحقق كل شيء به، فرع تحققه هو في نفسه. وإنما سمي عند القوم «بالوجود العام، وبالوجود المشترك» لفيضانه على جميع الأعيان الممكنة، واشتراكها فيه العقل الأول وما بعده إلى غير نهاية. فليس مرادهم بالمشترك والعام أنه كلي لا تحقق له في الأعيان، كما فهم ذلك من كلامهم سعد الدين النفتازاني وردّ عليهم. والحكم على شيء قبولاً أو ردّاً، فرع تصوّره، كما تصوّره القائل؛ فإن الكلي بالمعنى المتعارف بين أهل الميزان لا وجود له خارج الذهن، والوجود عند القوم قائم بنفسه مقوم لغيره من الموجودات في مراتبها، كما يسميه بعضهم «بالتجلي الساري»، في جميع الذراري، كما يسميه بعضهم «بنفس الرحمن» نظرًا إلى ما حصل بالوجود من التنفيس عن الأسماء الإلهية والحقائق الممكنة، وهو المسمى «بالروح الكل» عندما تنزل إلى مراتب الإمكان، ولم يكن معدومًا ووجد؛ إذ الوجود لا يكون عدماً. ولو كان ممكنًا لما كان بينه وبين الممكنات التي كساها الحق إياه فرق، فيحتاج إلى وجود وتسلسل، أو يدور ويؤدي إلى محال، وهو أن لا توجد هذه الممكنات، وقد وجدت. ولا يصح أن يكون جوهرًا ولا عرضًا ولا من المجردات، عند من أثبتتها في واقعة الأشياء، ثلاثة: جواهر، وأعراض، وما لا جوهر ولا عرض. فالعرض معروف، والجواهر الأرواح، وما لا جوهر ولا عرض الوجود الحق، فإنه لو كان من الأعراض والجواهر أو المجردات لدخل تحت «كُنْ» وهو منزّه عن الدخول تحت حيلة «كن» فهو وجه الحق المعبر عنه بالوجه الخاص، الذي لكل مخلوق من المخلوق تعالى، فهو روح الله وروح الشيء نفسه، فالعالم قائم بنفس الله (بفتح الفاء) ونفسه ذاته،

فالموجود قائم بذات الله، فلكل شيء صورة، ولتلك الصورة روح، ولذلك الروح المخلوق روح إلهي قام به ذلك الروح، فمن نظر إلى الروح الإلهي القدسي في المخلوقات، قال: أرواحها قديمة، ومن نظر إلى ما ذكرناه قال: الأرواح مخلوقة حادثه، لانقضاء قديمين، فلكل مخلوق شكل هو صورته، وروح هو معناه، وسرُّ هو روح روحه، وهو الوجود الذات الحق، ولا تفاوت في الوجود، فالوجود الذي به العرش المحيط موجود، والوجود الذي به البيوضة موجودة واحد، والاختلاف في الموجودات بالوجود الواحد راجع إلى اختلاف حقائق الممكنات وصورها وأمزجتها، فليس ذلك لاختلاف في الوجود، ولا أن ثمة وجودات متعددة، فإنه أول ما صدر عن الواحد الحقيقي، ولا يصدر عن الواحد الحقيقي إلا واحد. وصدوره ليس على طريق الخلق والإيجاد من العدم، كما توهمه الكثير والجَم الغفير، وإنما ذلك على طريق الظهور من الغيب إلى الشهادة، ومن الإطلاق المحض إلى التقييد مع الإطلاق، ومن التجرد عن المظاهر إلى العين بها، فهو أول ما ظهر من البطون، لا من العدم؛ فهو محدث عند من أتصف به، لا في نفسه؛ كما قال تعالى:

﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنْ رَبِّهِمْ تُحَدِّثُ﴾ [الأنبياء: الآية ٢].

والذكر كلام الله، وكلام القديم قديم، فهو حادث عند من أتاهم لا في نفسه، فالحادث إتيانه وتنزيله. فإن قيل: إذا كان الوجود واحداً قديماً فما الفرق بين الوجود، والواجب الوجود لذاته، والوجود الممكن، مع وحدة الوجود فيهما؟! فالجواب: أن المرتبة التي يقتضي فيها الوجودان موجودة، حاصل له بذاته حصولاً لازماً هو موجود واجب. والمرتبة التي يقتضي فيها بخلاف ذلك هو موجود ممكن. ومع تقييد الوجود بما تقيده من المظاهر، وتعين به من التعينات فهو مطلق أبداً؛ لأن الحقائق لا تنقلب. فالمطلق عين القيد، وهو الذي ذكرناه في صدور الوجود عنه تعالى، هو أحد احتمالات قول بعض سادة القوم: «ما صدر عن الواحد إلا واحد»، فذلك الواحد هو الوجود الذي كسا الحق - تعالى - الممكنات إياه، لا موافقة للحكماء في قولهم: «لم يصدر عن الواحد إلا واحد»، وهو العقل الأول عندهم؛ فإن مراد الحكماء بقولهم: هذا الصدور على طريق الخلق والإيجاد من العدم، وهذا باطل عند أهل الله، فإن صدور العقل الأول وغيره من الممكنات، إنما كان عن الفردية، وهي ذات وإرادة وقول؛ كما قال تعالى:

﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [النحل: الآية ٤٠].

لا عن الوحدة الحقيقية، فأحدية الكثرة هي التي نشأ العالم عنها، وأما أحدية الواحد فهي غناه عن العالمين؛ لأن الوحدة لا فرق بينها وبين الهوية وكمال الإطلاق ومرتبة الغنى عن العالمين، إلا باعتبار حضوره لنفسه، المسمى بالتعئين الأول. فلا مناسبة بينها وبين الممكنات في فيضان الوجود، فالإبداع والخلق والإيجاد والتأثير والميدئية... إنما كانت عن مرتبة الألوهية، للنسبة التي بين أعيان الممكنات والأسماء، فإنها الطالبة لظهور العالم وإيجاده.

### لطيفة

الوجود الذي به الموجودات موجودة، لا يوصف بالوجود ولا بالعدم، من حيث ذاته. فلا يقال: الوجود موجود، فيتصف بنفسه، وإلا كان غير نفسه، فيجتمع التقيضان بأنه هو لا هو. ولا يقال: الوجود معدوم؛ فيتصف بصدّه فيجتمع الضدان، فالوجود لا موجود ولا معدوم؛ كما لا يقال في البياض أبيض ولا أسود، لا يقال في هذا ارتفاع التقيضين، لأننا نقول: نعم، عمّا لا يقبلهما.

### إقامة جدار لإخراج كنوز وأسرار

ثم اعلم أن في هذه المرتبة، أعني المرتبة العمائية الخيالية البرزخية، التي هي مرتبة اقتران الوجود الذات المنزّه عن التجزؤ والانقسام والحلول في الأرواح والأجسام بالممكنات، وشروق نوره على أعيان الموجودات يسمى الحق - تعالى - بكل اسم من أسماء الممكنات، ويوصف بكل وصف، ويتقيد بكل رسم، ويقبل كل حكم، ويدرك بكل حاسة من سمع وبصر ولمس وغيرها من الحواس، والقوة الحسيّة والعقلية والخيالية لسريانه في كل شيء محسوس ومعقول، ومتخيل بالنور الوجود اليحت النزيه لذاته من غير حلول ولا اتحد؛ لأنه بسبب التقييد والشروق على الأعيان يصير ظلًا لمرتبة إطلاقه، والظلّ عين ذي الظلّ، والوجود نور، والعدم ظلمة. فإذا انبسط النور على الأعيان في صورة الغيب المجهول، وهو الإطلاق الذاتي، يقع له امتزاج فيصلح أن يدرك؛ لأن النور المحض لا يدرك ما لم يمتزج بظلمة، وكذلك الظلمة الصرفة، لا تدرك. فلا بدّ في الإدراك من النور والظلمة، أخبر تعالى بأنه عين كل شيء في قوله:

﴿يَتَأَيَّهَا النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ﴾ [فاطر: الآية ١٥].

ونجد أنفسنا نفتقر إلى كل شيء من إنسان وحيوان ونبات وجماد، فجعل نفسه - تعالى - عين ما يفتقر إليه كل مفتقر. وظهوره - تعالى - بالصور الممكنة

وأتصافه بصفاتها وتسميه بأسمائها لا يتنافى إطلاقه وعزته ولا يضاد قدسه ونزاهته ووحده وأحديته، فإنه تعالى من حيث هذه البرزخية الثانية، قابلاً للإطلاق والتقييد، والوحدة والكثرة، والتنزيه والتشبيه، والوجوب والإمكان، والحقيّة والخلقية... ومن هذه البرزخية جاءت الآيات والأحاديث التي هي خارجة عن طور العقل، ولا يقبل إلا بتأويلها وردّها إلى مداركه، ويسمّيها متشابهات؛ فإنه - تعالى - ذكر في كتبه وعلى السنة رسله: أنّ له عينًا وعينين وأعينًا ويدين ويدًا وجنباً وقبضة، واستواء على العرش وإتياناً ومجيئاً، وأنه في السماء وفي الأرض، وله معية مع مخلوقاته أينما كانوا، وأنه يجوع ويعطش، ويعرى ويمرض، ويضحك ويبشش، ويفرح ويرضى، وينزل كل ليلة إلى السماء الدنيا... إلى غير ذلك، ووصف العبد بالفعل والترك والعلم والإرادة والقدرة والحياة والإماتة والإحياء... فإنها صفاته نسبيها إلى عبيده، كما هو صريح حديث التقرب بالنوافل. كلُّ هذا من البرزخية العمائية الجامعة للمرتبتين؛ فكل ما ورد في الكتب الإلهية وعن المظاهر النبوية ممّا يعطي التشبيه، فهو بحسب أحد وجهي هذه المرتبة البرزخية، مرتبة التقييد. وكل ما ورد من التنزيه فهو بحسب وجهها الآخر، مرتبة الإطلاق؛ فإنّ للحق مرتبتين: مرتبة إطلاق ومرتبة تقييد. ومنها جاءت الشرائع ونزلت الكتب وأرسلت الرسل... فاصرف ما ورد في الكتب والأخبار النبوية من التنزيه المطلق، إلى مرتبة الإطلاق، واصرف ما ورد فيهما من التشبيه، إلى مرتبة التقييد، والظهور بالمظاهر، واعتقد التنزيه في التشبيه، والإطلاق في التقييد؛ تكن ربانياً كاملاً لا منزهاً فقط، ولا مشبهاً فقط.

## ٧ - فصل بل وصل

في المخلوق الثاني من عالم الأرواح العالية، التي هي فوق الطبيعة، وهو النفس الكل. ولما خلق الله - تعالى - العقل الأول وسماه قلماً، كما ورد في الخبر، ولا يكون القلم قلماً بالفعل إلا إذا كان له لوح يكتب فيه، وألّا فهو قلم بالقوة والصلاحية، أوجد - تعالى - من العقل «النفس الكل»، وهو اللوح المحفوظ، وجوداً انبعاثياً، كإيجاد حواء من آدم - عليهما السلام - فكانت من ضلعه القصيري، لا بمعنى أن الضلع صارت حواء، وإنما تكوّنت منها؛ كتكوّن آدم من التراب، لا بمعنى أن التراب صار آدم، فكان اللوح المحفوظ محلاً لما يكتب فيه هذا القلم الإلهي. وقد ورد في خبر أخرجه أبو يعلى الموصلي، بسند حسن: «أول ما خلق الله القلم، ثم



خلق اللوح وقال للقلم اكتب. قال القلم: وما أكتب؟ قال الله له: اكتب وأنا أملئ عليك.

فخط القلم في اللوح ما يملئ عليه الحق، وهو علمه في خلقه، الذي يخلق إلى يوم القيامة، فجميع ما يحدث عند الأسباب من الأشياء والعلوم فهو مما علمه القلم، وكتبه في اللوح. وهنالك علوم يهبها الله لمن يشاء من الوجه الخاص الذي له - تعالى - في كل مخلوق، لا علم لغير الله بها، لا العقل ولا النفس، وهو اللوح المحفوظ. ثم أوجد الله - تعالى - في النفس، وهو اللوح، وهو ملك كريم: صفتين، نصفه علم ونصفه عمل، فبصفة العمل تظهر صور العالم عنه، كما تظهر صورة التابوت وغيره من الصور عند عمل النجار، وبهذه الصفة يعطي الصور للعالم. والصور منها ظاهرة حسية، وهي الأجرام والأشكال والألوان، وصور باطنة وهي العلوم والمعارف والإدراكات، فبالصفتين اللتين للنفس، اللوح المحفوظ، ظهر ما ظهر من الصور؛ لأن الموجودات كلها منطبعة فيها انطباعاً أصلياً، جرى بذلك القلم الأعلى فيه بإيجاد، فلا تقتضي الهيولى صورة إلا وهي منطبعة في اللوح، فلا بد من إيجادها، ولهذا تقول الحكماء: إذا اقتضت الهيولى صورة؛ كان حقاً على واهب الصور إيجاد تلك الصورة. وإنما سمي لوحاً محفوظاً لحفظه من التبديل والتغيير. فإن المكتوب فيه هو علم الله، وعلم الله لا يتغير. ومن جملة ما كتب فيه يدل ويتغير في عالم الكون والفساد، فالذي كتبه القلم في اللوح على نوعين: نوع اقتضته الأسماء الإلهية بذواتها من غير واسطة، فهذا لا يتبدل ولا يتغير. ونوع اقتضته القوابل الإمكانية كالأمر الجارية على حسب العادة، فهذا قد لا يتبدل، ويجريه الله - تعالى - على العادة المعتادة، وقد لا يجريه، ويخرق فيه العادة المعتادة. لا يقال: اقتضاء الأسماء الإلهية هو عين اقتضاء القوابل، لأننا نقول: بين ما تقتضيه الأسماء بواسطة وبغير واسطة فرقان. وأيضاً من حقيقة الحقائق الإمكانية الإمكان، وهو صحة الوجود والعدم؛ فكذلك ما اقتضته يصح وجوده وعدمه، قال تعالى:

﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَيَعْنَدُهُ ۗ أَمْ الْكِتَابِ ﴿٣٩﴾﴾ [الزهد: الآية ٣٩].

أخبر أنه يمحو ما يشاء محوه من لوح الوجود، مما كان أثبتته، إذ لا محو إلا بعد إثبات مما له أجل محدود، أي يردّه إلى أصله وهو الثبوت في الغيب الذي كان فيه، ويثبت ما يشاء إثباته في لوح الوجود، ثم يمحوه إن كان مما له أجل

محدودة، وهكذا على الدوام، فهو الخلاق على الدوام. والممكن مفتقر على الدوام، والمحو والإثبات المتعاقبان على الممكن؛ إنما هما في الصور. وأما الجواهر وهي الأرواح، فما أثبتته منها لا يمحوه، وإنما تتبدل عليه الصور، فكلُّ شيء من صور العالم هالك، لا من جواهره، فليس بهالك، ولا محو. وعلى هذا التأويل لا تعلق للآية باللوح المحفوظ، النفس الكلية، وعنده أم الكتاب، الضمير يعود على الاسم «الله» العلم على مرتبة الأولوهة التي لها الإشاء والمحو والإثبات، وإليها تُنسب جميع الآثار المسماة بمرتبة العلم الأزلي الذاتي، والأم الذات والكتاب؛ مرتبة العلم التفصيلي، مرتبة الألوهة، فالذات التي هي مرتبة العلم الإجمالي، المتعلق بما لا يتناهى مصاحبة الكتاب الذي هو مرتبة العلم التفصيلي، بل هي عينه، وهو مرتبة من مراتبها؛ فالذات أم، وعلمها الكتاب المبين، من حيث أن ما في الذات على الوجه الإجمالي الكلي؛ هو في العلم تفصيلي جزئي، كما أن القلم أم، واللوح المحفوظ الكتاب المبين، من الحقائق الكونية، من حيث أن ما في القلم على الوجه الكلي الإجمالي هو في اللوح جزئي تفصيلي، فهي ظاهرة بعلمها، هكذا أخبرني ختم الولاية شيخنا محيي الدين في الواقعة، قال في الفتوحات: «ما يكتب في اللوح المحفوظ لا يتبدل فلا يمحو بخلاف ما يكتب في ألواح المحو والإثبات المشار إليه بقوله: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ [الزعد: الآية ٣٩]، ومنها تنزلت الشرائع، ولهذا دخلها النسخ، وإلى هذه الألواح كان تردّد محمد - ﷺ - ليلة الإسراء في تحقيق الصلوات، ومنها وصف الحق - تعالى - نفسه بالتردّد» اهـ. وعلوم اللوح نبذة من علم الحق - تعالى -، ومع هذا لم ينقل أن أحدًا أحاط به، مع أن علمه متناهٍ. ومن أسماء هذا الملك الكريم اللوح «النفس الكلية»؛ لأنه متوجّه بالتدبير والتكميل لكل ما تفصل منه من الصور، فظهر بصور الموجودات الحسية والمثالية المركبة والبسيطة، فنسبة النفس الكلية إلى كل صورة في العالم نسبة واحدة، لا تفاضل بينها؛ إلا أن الصور تقبل من ذلك بحسب استعداداتها التي هي عليها، ولأنه تعالى نفس بها عن القلم؛ إذ جعلها لوحًا لما يلقي إليه، ومن أسمائه: «الروح المضاف» المشار إليه بقوله:

﴿وَفَخَّتْ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾ [الحجر: الآية ٢٩].

فهي الروح المنفوخ منه في الصور المسوّاة، ولكل صورة تسوية تليق بها وبمرتبها، خيالية أو حسية أو معنوية، فإذا سوّاها الحق - تعالى - توجّه عليها روح

الحق، وهو المراد بالنفخ في قوله: «وَنَفَخْتُ» فالنفخ عام في جميع الصور، كانت ما كانت، من كل ما يطلق عليه اسم صورة حتى إذا مشت دودة أو حية في الرمل وكان من أثرها صورة، نفخ تعالى في تلك الصورة روحاً يحفظ عليها صورتها إلى أن يأذن الله بانعدامها فيفارقه روحها إلى صورة أخرى، فالروح له الإمداد، والنفس لها التدبير، تدبر كل صورة بما قدر لها أو عليها، تنصبع في كل صورة بحسب مزاجها واستعدادها، كما أن النفس الجزئية الخاصة بكل إنسان تنصبع في كل عضو بما هو مستعد له، فتظهر في السمع سمعاً، وفي العين بصراً، وفي الأنف شمًا... .

وقس على هذا جميع الإدراكات الظاهرة والباطنة. فالعالم كله حامل، من حيث أنه صور، ومحمول من حيث أنه أرواح. فإذا كانت الصورة عنصرية ولم تظهر منها للعين حركة ولا إحساس سميت جمادًا ومعدنًا، وإذا كانت عنصرية وظهرت منها للعين حركة سميت نباتًا. وإذا ظهرت عنها حركة وإحساس وعقل وفكر وتصوير سميت إنسانًا، وإذا كانت الصورة معنوية معقولة، فإن ظهرت عنها حركة معنوية سميت نور علم، فإن لم تظهر عنها حركة معنوية سميت جمادًا، والصورة - مطلقًا - هي ظل النفس في جوهر الهولي، والنفس ظل الروح، والروح ظل الحياة، والحياة هي اقتضاء الوجود الحق للإدراك والعقل؛ فالوجود صاحب الحياة، والروح والنفس والصورة بالحقيقة. وذلك للشخص بالمجاز وصورة كل شيء ما به يتعين ويقع عليه الإدراك، أي إدراك كان، فالصور الحسية، هي صور الأرواح، والأرواح صور الأعيان الثابتة، والأعيان الثابتة صور الأسماء الإلهية، والأسماء الإلهية صور الذات الغيب المطلق. ومن أسمائه: «كل شيء»، وإليه الإشارة بقوله:

﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: الآية ١٤٥].

لأنه قبل ما نقشه القلم الأعلى فيه فصار منتميًا للكلم القولية والفعلية، مفضلة من كل ما يدخل في الوجود إلى يوم القيامة. ومن أسمائه «الكتاب المبين»، وإليه الإشارة بقوله:

﴿وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام: الآية ٥٩].

لأنه تنزل وظهر متصورًا بكل صورة: عرشًا وأرضًا وأفلاكًا، وما فيها إلى آخر صورة. ومن أسمائه «الكوكب الدرّي» نسبة إلى الدرّة البيضاء، وهو العقل الأول. ومن أسمائه الزمردة سمي بذلك لأن نوره مشوب بسواد الطبيعة التي هي بنت النفس؛

لأن الطبيعة نشأت من النفس الكل. ومن أسمائه «العرش العظيم»، فإن النفس عرش العقل الأول، ومن أسمائه «الذكر» كما في صحيح البخاري: «وكتب في الذكر كل شيء»، الحديث.

## ٨ - فصل

ثم بعد ما أوجد الله - تعالى - الأرواح العالية إيجادًا عينيًا شهاديًا؛ عين الله - تعالى - مرتبة الطبيعة، ثم عين بعدها مرتبة الهباء، وهو المسمى بالهبولي في اصطلاح الحكماء. ثم عين - تعالى - بعدها مرتبة الجسم الكل، ثم عين الشكل الكل. وهذه الأربعة يطلق عليها اسم الخلق التقديري، لا الخلق الإيجادي، فإنها غير موجودة في أعيانها، وإنما هي أمور كليّة معقولة كالأسماء الإلهية، ومعنى قولنا في هذه الأربعة: أنه تعين كذا ثم كذا؛ أنه تعالى لو أوجدها في العيان لكانت هذه مراتبها مرتبة كما ذكرناها. فأما الطبيعة فإنها أول ما تعين، بعد النفس الكليّة، اللوح المحفوظ، وهي عند أهل الله، على غير ما هي عليه عند علماء النظر من الحكماء؛ فهي حقيقة إلهية فعّالة للصور جميعها من كل ما يقال فيه عالم؛ فهي أحق نسبة بالحق - تعالى - مما سواها، فإن كل ما سواها ما ظهر إلا فيما ظهر منها، وهو النفس الرحماني، وهو الساري في صور العالم؛ إلا أن يكون مراد من جعل مرتبة الطبيعة تحت النفس الطبيعية، التي ظهرت في الأجسام العرش وما في باطنه، فتكون هذه الطبيعة الكبرى العليا، وهذه النسب مرتبطة بالأجسام من حيث ظهور حكمها فيها وبها؛ لأنها لما كانت الصور الجسمية هي أظهر الصور للمدارك صارت الطبيعة إنما تطلق على الطبيعة الجسمانية. وإنما سميت بالطبيعة لأن فعلها طبيعي لا علمي، فإنها غير موصوفة بالعلم، وفعلها بعلم النفس، وهي لا علم لها بما يصدر عنها؛ إذ الحرارة والرطوبة والبرودة واليبوسة، التي هي مجموع ما سمي بالطبيعة، أعراض تقوم بالأجسام لا بأنفسها. وهذه الأربعة مستندة إلى الأسماء الأربعة التي قام الوجود كله بها، وهي الحيّ العالم المرید القائل، كما أن الأركان الأربعة: التراب والماء والهواء والنار، مستندة إلى أركان الطبيعة الأربعة. فالطبيعة أمر كليّ عقلي، لا عين لها في الخارج الحسي والمثالي، كسائر المراتب. وبهذا تعرف أن الطبيعة عند أهل المحققين أعلى من جميع العالم، فإنها حقيقة إلهية فعّالة، تفعل الصورة السماوية الإلهية الوجودية بباطنها، وهو أحدية الجمع، ومادة هذه الصور السماوية وهيولها العماء وتفعل الصور الروحية العقل الأول والمهيمن والنفس الكليّة وعالم المثال، ومادة هذه الصور النور، وتفعل الأجسام غير العنصرية كالعرش والكرسي والأطلس

والمكوكب ومادتها الجسم الكلي، وتفعل صور جميع ما حواه العرش إلى غير نهاية، ومادتها معروفة، والظاهر في الأجسام آثار الطبيعة لا عينها؛ كالأسماء الإلهية تعلم وتعقل وتظهر آثارها، ولا عين لها في الخارج. فالطبيعة ظاهراً أمر الله، وأمر الله باطنها، وفي هذه المرتبة تعين النكاح الثالث الطبيعي الملكوتي، وهو توجه الأرواح العالية بما سرى فيها من أحكام أسماء الأئوهة بذواتها، دون أحكام مظاهرها المثالية في مرتبة الطبيعة إلى إيجاد عالم المثال والأرواح الملكية، عماد السموات والأرضين.

## ٩ - فصل

في المرتبة الرابعة من المراتب الكلية، وهي مرتبة عالم المثال الخيالي، وهي الصور الجسدية الخيالية البرزخية المركبة من الأجزاء اللطيفة، التي لا تقبل الخرق والالتئام، بمعنى افتتاح خرق فيها وسده، كما هو ذلك في الأجسام العنصرية، فهي في حقيقتها أجسام نورانية شعاعية، تنفذ في الأجسام نفود الشعاع البصري والشمسي في الأجسام الشفافة. ولكنها تظهر للمدارك ظهور الأجسام الكثيفة، تظهر في هذه المثالية الأرواح الملكية النورية والأرواح الجنية النارية. والجن في اصطلاح ساداتنا كل روح ناري أو نوري ظهر في جسم متجسد أو بعده، يعرف بآثاره. فكل صورة يظهر فيها الروحاني من ملك وجان، وكل صورة يرى الإنسان نفسه في النوم فيها، والصور التي تنتقل إليها أرواحنا بعد الموت، فهي من صور هذا العالم. وكذلك أرض السمسم التي ذكرها أكابر القوم هي من هذا العالم، لها من هذا العالم محلٌّ مخصوص من الخيال المنفصل، الذي هو العماء. والصور المثالية كئيبة، إلا أنها محسوسة، كما ورد في الحديث الذي أخرجه الترمذي: أن في سوق الجنة صوراً، وكلُّ من استحسن صورة منها لبسها، وهي باقية على حالها لا تنقص ولا تتغير. صورة واحدة ألف إنسان مثلاً لبسها وهي باقية على حالها لا تنقص ولا تتغير. كذلك هذه الصورة المثالية لو أراد ألف ملك أو آلاف من الملائكة الظهور بصورة حيّة المثالية مثلاً؛ لظهروا بها في آن واحد، وهي على حالها لا ينقصها ذلك شيئاً. وهذا من بعد عجائب عالم المثال الخيالي، الذي أتبته الكشف والنقل، ونفاه النظر والعقل. وكذلك ما تصوّره القوة المصوّرة التي بكلّ إنسان؛ هو من صور هذا العالم؛ إذ كل صورة يصوّرها الإنسان في خياله المتصل به لها وجود في هذا العالم. فلا يمكن أن يصوّر الإنسان في خياله شيئاً لا وجود له أصلاً، فإن الأرواح الإنسانية لها التصوّر بكل صورة، لكن في الخيال المتصل لغير الكمل، ولو أدرك

الإنسان ما تتصوّر به روحه، وتشكل خارج خياله لأدرك أمرًا مهولًا. وبين هنا سميّ التصوّر الذي هو أول مراتب وصول العلم إلى النفس تصوّرًا؛ لأن روحه تصوّرت بما أدركته نفسه. فكلّما أرادت النفوس شيئًا تصوّرت به لها أرواحها. إنّما في الخيال المتصل وهو للعموم، وإنّما في الخيال المنفصل وهو للخصوص من الأكابر. ولهذا كانت النفوس الذكيّة كلّما توجّهت إلى علم شيء تصوّرت به لها أرواحها فأدركته، إلّا ما شاء الله من العلوم. وإنّما الكمل من الرجال الذين كملت إنسانيتهم، وتحكم فيهم الخيال المنفصل، فكمّلت فيهم قوّة الوهم، فإنه عين الخيالي؛ فإنهم يخلقون ما شاءوا من الصور خارج الخيال المتصل، صورًا محسوسة قائمة بأنفسها، يكلمونها وتكلمهم. وتبقى ما شاءوا بقاءها، بشرط أن يحفظوها في مراتب الوجود الروحي والمثالي والحسي، فإذا غفلوا عنها انعدمت. وهذه الأرواح النورية والنارية المتجنّدة قد لا يراها من يراها بعين الخيال، وقد يراها بعين الحس، وكلا الإدراكين في العين الواحدة، وبين الإدراكين فرق. فإذا رأى الرائي الصورة وأدام النظر إليها ورآها تختلف أحوالها وأشكالها فليعلم أنه رآها بعين الخيال، وإذا رآها لا تختلف عليها الأحوال والصفات والأشكال، بأن تكون على حالة واحدة؛ فليعلم أنه رآها بعين الحس. وقد كان جبريل يأتي في صورة دحية، وفي صورة أعرابي، فيراه - عليه السلام - بعين الخيال فيعرفه، وتراه الصحابة بعين الحس فلا يعرفونه إلّا دحية أو أعرابيًا. فالصورة صورة دحية المثالية، بصورته العنصرية الحسيّة، في مكانه الذي هو فيه. وفي النفوس الإنسانية خاصيّة، وهي أنه إذا أدرك الإنسان روحًا متجنّدًا ملكيًا أو جنّيًا وقّده ببصره، وأدام النظر إليه بحيث لا يفتر؛ فلا يستطيع الروحاني أن يتحرك، ما دام الإنسان مقيدًا له بنظره إليه. وعندما يتشكّل الروحاني مطلقًا بصورة حيوانية أو إنسانية يعطى حكم تلك الصورة، فيجوع ويعطش ويبرد ويسخن وهكذا في جميع خواص الصورة التي تشكل بها لحكم الصورة عليه. وإنّما سميّ بعالم المثال لأنه حاوٍ لمثال كلّ شيء؛ ولأن الأشياء تظهر فيه ممثلة ما هي عين الممثل له ولا غيره، كما في المرآتي المنامية؛ فإن الله - تعالى - إذا أراد أن يُري أحدًا من عباده شيئًا من المغيبات الموجودة أو المعدومة كشفًا أو منامًا أراه ذلك بهذه الصورة المثالية، فإن صورته محيطة بكلّ ما يعلم؛ فكلّ ما يراه المكاشف في يقظته من نبّيٍّ ووليٍّ ومرئاض، ولو على غير شرع مشروع، والنائم في نومه؛ فهو من صور هذا العالم المثالي الروحاني. فالمرئي لا يكون إلّا ممثلًا، لأنه قد يرى أشياء معدومة ما دخلت في



الوجود، وإنما توجد في ثاني حال. والرائي إن كان ما رآه في النوم فإنه لا يرى إلا بعين الصورة المثالية الخيالية التي لبستها روحه. وإن كان من أهل الكشف في اليقظة فقد يرى ما مثل له بعين الخيال، وقد يراه بعين الحس كما حصل لرسول الله ﷺ - في صلاة الكسوف، تقدم وتأخر فسأل عن ذلك فقال: «مثلت لي الجنة والنار في عرض هذا الحائط»<sup>(١)</sup> الحديث.

فإنه لو أدرك ذلك بعين الخيال ما أثر فيه التقدّم والتأخر، فإنه أقوى من ذلك. وهذا هو المعروف عند الحكماء والمتكلمين «بالمثل الأفلاطونية»، فإن الله كشفه لهذا الإمام الإلهي، وأنكر ذلك المتكلمون قاطبة. حتى قال سعد الدين التفتازاني، عندما ذكر المثل الأفلاطونية: «لما كانت الدعوة عريضة، والحجة ضعيفة لم يشتغل المحققون برده». وأما تسميته بالبرزخ، فإنه برزخ بين المعاني، التي لا أعيان لها في الوجود الخارجي، وبين الأجسام النورية والطبيعية والعنصرية. فالمحسوسات تعرج إليه، والمعاني تنزل إليه، فتظهر بصورة برزخية جسدية خيالية، فيكسو المعاني المجردة عن المواد، أجسادًا ويشكلها ويصورها؛ فهو جسد باطن بين المعقول والمحسوس، كظهور العلم في صورة اللبن الكثيفة، وظهور الحق - تعالى - في النوم في الصور الطبيعية والعضوية، فيراه الرائي ولا يشك أنه رأى الله ويعبرها المعبر بما عنده من علم التعبير. وكظهور جبريل في صورة دحية، وظهور الملائكة في صور الذرّ يوم بدر. وقد قدّمنا أن الله - تعالى - أوجد الأرواح الملكية في مرتبة الطبيعة بعد خلق عالم المثال.

## ١٠ - فصل

في الأرواح الملكية عمار العرش والسموات والأرضين، ثم بعد ما أوجد الله العالم المثالي توجّهت الأرواح العالية من حيث مظاهرها المثالية، إلى إيجاد الأرواح الملكية في مرتبة الطبيعة. فكل الملائكة طبيعيتون داخلون تحت حكم الطبيعة. وكذلك ملائكة الأجسام العنصرية عنصريون طبيعيتون. والأرواح موجودة قبل الأجسام في الغيب دون الشهادة، وجوداً متداخلاً كوجود النخلة في النواة، والسنبلات في الحبة الواحدة، والحروف في الحبر الموضوع في الدواة. فهي متميزة للعالم بها تعالى لا لأنفسها حينئذ. والروح الكلّي واحد، ومنه تلقين الأرواح،

(١) رواه البخاري، كتاب الفتن، باب التعوذ من الفتن، حديث رقم (٧٠٨٩).

وتتميز تميزاً شعاعياً لا يتصل ولا ينفصل فهي غير منقسمة، بل ذات واحدة. ويتميز بعضها عن بعض بحسب الصور واستعداداتها، من تدبير الروح الكل. وانظر إلى الشخص الواحد الجالس وسط مرآتي متعددة تخالفه الأشكال، كيف يظهر في كل مرآة بحسب شكلها رقة وغلظاً، وطولاً وقصرًا واعوجاجًا واستقامة... إلى غير ذلك من الصفات، فإن المدبر (اسم فاعل) صورة المدبر (اسم مفعول)، فالروح واحد. ولم يرد في الكلام القديم إلا مفردًا، وهو أرواح كثيرة يعدد الأجسام والصور التي يدبرها، فمن قال العالم كله له روح واحد يدبره خطأ، وإن أصاب من وجهه. فالصور بمثابة المرآتي للروح، كلما قابلته مرآة، أي أوجد الله صورة ارتسم فيها، وانطبع بحقيقته على ما يليق به، لا يتجزأ ولا يتبعض ولا ينقسم. فبهذا المعنى، تعددت الأرواح فلهذا الأرواح لا تعرف نفسها إلا في صورة ومركب. فإذا انعدمت الصورة الطبيعية على الغرض، أو العنصرية، انتقلت إلى صورة مثالية خيالية برزخية، فإن الأرواح لا تنعدم بعد الإيجاد. ومن خواص الأرواح عدم التحيز، فلا مكان لها يحصرها، وإن كانت من العالم المخلوق، فهي لا داخله في العالم ولا خارجه عنه، فليست الصور بأبنيات ومحال للأرواح، والأرواح كلها سواء في هذه الخاضية، ملك وُجن وبشر، وغيرهم. إلا أن الصور العنصرية كالمملك لأرواحها في التصريف، وغير العنصرية كالمظاهر لأرواحها فكلمة أكمل الله صورة وسواها نورية أو عنصرية تجلئ لتلك الصورة، فيتكوّن عن أنتجني والصورة روح تناسب تلك الصورة، وأمدّها بتدبيرها. والأرواح كلها موجودة عن العقل والنفس، وهي من حيث ما هي أرواح أقسام ثلاثة: قسم مقيد بعدم المظهر، لا طبيعي ولا مثالي ولا عنصري، وهم الأرواح المهيمة في جلال الله، فلا يشعر أحد منهم بنفسه فضلًا عن غيره. ولا يسمون ملائكة، وهم المعروفون عند الحكماء بالجواهر المجردة. وقسم مقيد بالمظهر، وهم صنفان: صنف يضاف المظهر إليهم، لا هم إليه، وهم عمار السموات والأرضين، الذين تضاف الآثار والأفعال إليهم، وهم موجودون قبل السموات والأرضين، وهم المستخرون الوكلاء على ما يخلقه الله - تعالى -، فوكل بالأرجاء الملائكة المسماة بالزاجرات، وبالأخيار المرسلات، وبالإلهام الملقيات، وهي التي تلقي العلوم والخواطر بما شاء الله. وبالتفصيل المقسمات، وبالتشتيت النازعات، وبالأحكام المدبرات، وبالسوق السابحات، وبالترغيب والترهيب الناشرات، إلى غير ذلك من الأصناف التي لا يحيط بها إلا الله - تعالى -، وآخر صنف من الملائكة المخلوقون من أعمال العباد وأنفاسهم.

والصنف الثاني من هذا القسم يضافون إلى المظهر، بمعنى أنهم لا يتعبنون في الخارج إلا بعد تسوية المظهر، كالأرواح الإنسانية المضافة إلى صورها. والقسم الثالث لا يتقيدون بالمظهر ولا بعدمه، فلهم أن يظهروا حيث يشاءون، وهم الرسل السفراء بين الله وبين خلقه. والتصور بالصور، والتصور بالأشكال المختلفة ذاتي للأرواح، من غير أن تكون لها قوة مصورة مثل الإنسان؛ فإن الأرواح عين الخيال، وهي وإن كانت أجساماً فهي نورانية، تنفذ في الأجسام نفوذ الشعاع البصري في الأجسام الشفافة، وقد ورد في الصحيح: «أن للملك لمة وللشيطان لمة».

يعني في القلب، الحديث. أخرجه الإمام أحمد. وورد أيضاً أن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم، فهو ينفذ في جسم الإنسان حقيقة، لا كما يقول أهل الحجاب، أنه تمثيل وتخيل؛ إلا العقل الكل والنفس فإنهما لا يتشكّلان ولا يتصوران لأنهما فوق الطبيعة، ولا علم لهما بصور الأشكال الطبيعية، فلا يشهدان صور العالم، وإن كان النفس الكلّي يعطي الإمداد بذاته لعالم الطبيعة، من غير قصد؛ كما تعطي الشمس المنافع من غير قصد. فالعمل والعلم منسوبان إلى النفس هو نسبة ذاتية لها، كما ينسب التبييض إلى الشمس، والإحراق إلى النار. هكذا قال إمام أهل الكشف محيي الدين. والصور التي يتصور بها الروحاني من: ملك، وجن، وإنسان متروحن؛ ما هي غير الروحاني، ولو كان في ألف شكل مثلاً، وفي ألف مكان؛ فهو هو. وينسب الروحاني إلى أول صورة خلقه الله عليها، ثم تختلف عليه الصور حسب إرادته، كما ورد في الصحيح: «أن رسول الله - ﷺ - سأل جبريل أن يظهر له في صورته» فرآه - ﷺ - قد سد الأفق وله شماية جناح، وكان يأتيه مرة في صورة دحية بن خليفة الكلبي، وثارة في صورة أعرابي، وفي غير ذلك. وإذا اتفق موت الصورة التي تشكل بها الروحاني، وماتت في ظاهر الأمر انتقل ذلك الروحاني إلى البرزخ، ولا يخرج إلى الدنيا، كما تنتقل نحن بالموت إلى البرزخ. فهذا معنى موت الروحاني، وسواء في ذلك النوراني والناري، فإن من الملائكة من يموت هذه الموتة. فقد ورد أن علة تحريم إخراج الريح في المسجد هي أن الملك يلتقم الريح الخارج من الإنسان، ويخرج بها من المسجد، فيموت لذلك. وذكر بعض سادة القوم أن علة تحريم اللواط، هي أن النطفة إذا نزلت من الإنسان، نزل معها عدد كثير من الملائكة، فإذا وقعت في غير محل الزرع، مات أولئك الملائكة، فإذا وقعت في محل الزرع، وتكوّن عنها إنسان كان

أولئك الملائكة من جملة الملائكة الموكلين بذلك الكائن. فإن لم يتكوّن عن النطفة شيء مات أولئك الملائكة. وليس على الفاعل إثم، فإنه فعل بإذن، إذا كان الفعل حلالاً. فإن كان حراماً فعلة حرمه الزنا شيء آخر. فالجنّ تشارك الملائكة في كثير من الأحكام، من حيث أنها أرواح غير متحيّزه، غير أن الملائكة عقول منفوخة في أنوار، والجان عقول منفوخة في مارج من نار وهواء، كما ورد في الصحيح: «إن الله خلق الملائكة من نور، وخلق الجان من نار، وخلق آدم مما قيل لكم»<sup>(١)</sup>.

وستتكلّم إن شاء الله على الجان، عندما نصل إلى مرتبة إيجاده، والصورة التي يتصوّر بها الروحاني، ويظهر فيها، تحكم عليه حين تصوّره بها، فإذا تصوّر بصورة أسد زار وافترس، أو بصورة حيّة انساب ولدغ، أو بصورة عجل خار ونطح، أو بصورة طائر طار وصوت، أو بصورة إنسان حصل له ومنه ما يحصل للأرواح الإنشائية، سواء في ذلك الأرواح النارية والنورية. ففي صحيح البخاري: أن جبريل - عليه السلام - أتى رسول الله - ﷺ - بعد فتح خيبر وقال له: «إنك وضعت سيفك ونحن ما وضعنا أسيفنا، وقد عصب الغبار رأسه»، فلولا حكم الصورة عليه ما عصب الغبار رأسه، ولولا حكم الصورة ما حمل السيف في عنقه، وقد ورد: أن جبريل وميكائيل يبكيان عند رسول الله - ﷺ - فلولا حكم الصورة ما صحّ البكاء منهما. وإذا كانت الصورة تحكم على الحق - تعالى - فيسمى بأسمائها، وينعت بنعوتها، ويحكم عليه بأحكامها، فكيف بالأرواح؟!!

## ١١ - فصل

ثم تعيّن بعد مرتبة الطبيعة مرتبة الهباء، وتسمّى الحكماء الهبولى، وهو كالطبيعة لا وجود له إلا في العلم. ولو أوجده الله خارجاً لكانت هذه مرتبته. وبعض الحكماء جعل مرتبته قبل الطبيعة ودون النفس الكل. وحقيقة الهباء جوهر منبثّ في جميع الصور الطبيعية والعنصرية البسيطة والمركبة، لا تظهره إلا الصور، ولا تخلو منه؛ إذ لا تكون صورة إلا في هذا الجوهر. وهو مع كل صورة بحقيقته، لا ينقسم ولا يتجزأ ولا يتبعّض ولا يوصف بالنقص، فهو كالبياض الموجود في كل

(١) رواه مسلم، كتاب الزهد والرقائق، باب في أحاديث متفرقة، حديث رقم (٦٠ - ٢٩٩٦).

أبيض بذاته وحقيقته، فلا يقال: نقص من البياض قدر ما حصل منه في هذا الأبيض. والقول في الهباء عند المحققين من أهل الله كالقول في الطبيعة، وأنه ليست هذه مرتبته، وإنما مرتبته التقدم على الكل، فإنه أعلى الكل؛ لأنه الحقيقة الكلية، حقيقة الحقائق التي سبق الكلام عليها، تسمى هناك هيولى الهيولات، وهيولى الكل، وهيولى الخامسة. وقد بينا ذلك، فهو الجوهر الذي يقبل كل صورة بجوهره، والمدرك الصورة لا هذا الجوهر، ولا تقوم صورة إلا في هذا الجوهر المعقول، فكل موجود معقول بالنظر إلى ما ظهرت فيه صورته. وقد ذكرنا فيما تقدم أن الهباء عند السادة، الذي هو الهيولى عند الحكماء، اسم للشيء، باعتبار نسبه إلى ما هو ظاهر فيه، بحيث يكون كل باطن هيولى الظاهر، الذي هو صورة فيه، مثلاً السرير صورة، هيولاها قطع الخشب، وقطع الخشب صورة هيولاها الشجر، والشجر صورة هيولاها العناصر، والعناصر صورة هيولاها الهيولى الكل، وبعض أهل الله يسمى الهباء العنقاء؛ لأن العنقاء طائر يطير في القاف، يسمع باسمه ولا يرى. فكذلك حال الهباء وما يقتضيه الهباء المسمى بالهيولى من الصور، لا سبيل إلى بروزه جميعه، بحيث لا تبقى فيه قابلية لصورة أخرى. هذا محال، فلا يدرك لما في الهيولى من الصور غاية، وأول صورة قبل صورة الجسم الكل، وهو الطول والعرض والعمق.

(مطلب): وإلى ما ذكرنا يشير إمام أهل الله محيي الدين، في الخطبة التي ترجم بها عن العنقاء قال: قامت العنقاء بقرب عن وجودها، وتغرب بعزة حدودها، فقالت: أنا عنقاء مغرب، ما زال مسكني بالمغرب، فأنا الذي لا عين لي موجود، وأنا الذي لا حكم لي معقود، عنقاء مغرب قد تعورف ذكرها غرباً، وباب عيانها مسدود، ما صير الرحمن ذكري باطلاً، لكن بمعنى سره المفقود بي تكون الحدود. وعلى توقّف الوجود، يسمع بذكري، ولا أرى، وليس الحديث بي حديثاً يفترى. أنا الغربية العنقاء، وأمي المطوقة الوراقاء، ووالدي العقاب المالك، وولدي الغراب الحالك، أعنا عنصر النور والظلم، ومحل الأمانة والتهم. أنا الحقيقة لما عندي من السعة، ألبس لكل حالة لبوسها. إما نعيمها وإما بؤسها، ولا أعجز عن حمل صورة، وليست لي في الصور المعلومة سورة. لكن وهبت أن أهب العلوم ولست بعالمة، وأمنح الأحكام ولست بحاكمة، لا يظهر شيء لم أكن فيه، ولا يحصره طالب مدرك ولا يستوفيه، الخ.

## ١٢ - فصل

ثم بعد مرتبة الهباء تعينت مرتبة الجسم الكل الشامل لجميع الأجسام روحانية ومثالية وطبيعية وعنصرية. وهو أمر معقول كالطبيعة والهباء، ليس له وجود عيني، فإنه كلّي ظهر فيه حكم الهباء كما ظهر حكم الطبيعة في الهباء. فعمل الله - تعالى - بهذا الجسم المعقول الخلاء، وهو الامتداد والتوهُم في غير جسم، ولما كان الخلاء مستديرًا كان الجسم الكلُّ مستديرًا، فإن الجسم الكل عمير الخلاء، وكانت حركته مستديرة، فلو لم يكن الخلاء مستديرًا لكان ما خرج عن الجسم لا يقال فيه خلاء ولا ملاء، فحركته في خلالية، فهي رحوثة في حيزه ومكانه، فهو متحرك لا متحرك، بمعنى أنه لا ينتقل من حيزٍ إلى حيزٍ، وأظهر الله - تعالى - صور العالم في هذا الجسم الكل، على اختلاف، لاختلافها في استعدادها، وإن جمعها جسم واحد، وظهرت أحكام الأسماء الإلهية بوجود الصور، وما تحمله من الأرواح. ولما تحرك هذا الجسم بالاستدارة سمي فلكًا، فإن غير المستدير لا يسمّى شكله فلكًا، ويقبوله للطبيعة، وهي الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة، تحرك بغلبة الحرارة عليه. فإن الاعتدال لا يظهر عنه شيء. فلما تحرك، وما ثمَّ خلاء إلا ما عمره هذا الجسم، ولا بدَّ له من الحركة، فتحرك في مكانه وهي حركة الوسط كما قدمنا، لأنه ليس خارجه خلاء فيتحرك إليه.

## ١٣ - فصل

ثم بعد مرتبة الجسم الكلِّ تعينت مرتبة الشكل الكلِّ، وهو أمر معقول كالمراتب الثلاثة قبله، والشكل لغة، القيد، وهو المقيد بالشكل الذي ظهر به، فكلُّ من تشكّل بشكل فقد تقيد به، كائنًا ما كان. والشكل الكلُّ إنما ظهر في الجسم الكلِّ؛ لأنه هو الذي يقبل الأشكال، أي القيود، من تربييع وتسديس وتثمين واستدارة وتكعيب وتسطيح وتقصير... إلى غير ذلك من الأشكال، والشكل معقول أبدًا، والذي يدرك هو المتشكّل لا الشكل، فليس المتشكّل عين الشكل؛ إذ لو كان عينه ما صحَّ أن يظهر في متشكّل آخر. وهذا المشكّل ليس هو عين المتشكّل الآخر. وكما أن العقول الأول ظهر في مرآة الوجود الحق بلا واسطة كذلك النفس الكلِّ ظهرت في مرآة العقل الأول بلا واسطة. والطبيعة ظهرت في مرآة النفس الكلّية، والهباء ظهر في مرآة الطبيعة، والجسم الكل ظهر في مرآة الهباء، كذلك الشكل الكلِّ ظهر في مرآة الجسم الكل، فكل واحد من



هذه الأربعة المعقولة هباء لما قبله، ومجموع هذه الأربعة المعقولة ظهرت في العرش، فهي العرش، والعرش من جهة ظهوره العيني ظهر في مرآة النفس؛ إذ ليس بينهما موجود عيني خارجي، وإنما بينهما أمور معقولة غيبية لا شهادية. والنفس ظهرت في مرآة العقل، والعقل ظهر في مرآة العلم، والعلم مرآة ظهرت من باطن حقيقة الحقائق.

## ١٤ - فصل

في المرتبة الخامسة من المراتب الكلية، وهي مرتبة عالم الأجسام، وأولها العرش، ثم أوجد الله - تعالى - العرش في الجسم الكل المعقول وجودًا عينيًا شهاديًا، فهو موجود عيني طبيعي بعد النفس الكلية. واسم العرش يطلق لغة على السرير وعلى الملك. والمراد هنا السرير. والعروش خمسة أولها عرش الحياة، ويقال: عرش الهويّة، وعرش المشيئة، وهو العماء المتقدم الذكر، ويسمى فلك المعاني، وهو عرش معقول. الثاني العرش المجيد، وهو العقل الأول، الثالث العرش العظيم وهو النفس الكل، الرابع العرش الرحماني عرش الاستواء، الخامس العرش الكريم وهو الكرسي. والمراد هنا العرش الرحماني، وبعض السادة يسميه بالجسم الكل نظرًا لإحاطته بجميع الأجسام، وكان إيجاد العرش بتوجّهات الأرواح العالوية، بما سرى فيها من أحكام الأسماء الإلهية من حيث مظاهرها المثالية المتعينة في عالم المثال، فكانت الأرواح بمثابة الذكر، والطبيعة بمثابة الأنثى، والجسم الكل بمثابة المحل، والعرش بمثابة المولود. وهذا من النكاح الثالث، فإن درجة عالم المثال ودرجة العرش واحدة طبيعية، وما بقي بعده إلا النكاح الرابع، وهو النكاح العنصري الثقلي؛ فهو (أعني العرش) جسم طبيعي نوراني مثالي شفاف مستدير محيط بجميع العائم لاستدارته. وكل ما هو داخل فيه مستدير: الكرسي والسموات والأرض والعناصر، وما تولد منها بوصف بالعظم من حيث الإحاطة بالأجسام؛ إذ لا جسم طبيعي فوقه. وبالكرم من حيث أنه أعطى ما في قوته لمن تحته من الأجسام. وبالمجد من حيث أن ما فوقه شيء من الأجسام، فله الشرف والمجد، وهو منزّه عن الجهات، وقوائمه على الماء الجامد، فهو محمول على قوائمه وأما حملته من الملائكة والآدميين، فإنما ذلك تشريف له، قال تعالى:

﴿وَكَاكَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ [هود: الآية ٧].

وفي الصحيح: «كان الله ولم يكن شيء قبله، وكان عرشه على الماء»<sup>(١)</sup>.

والماء الجامد على الهواء البارد، وهو الذي جمّد الماء. وتحت الهواء ظلمة لا يعلم ما بعدها إلا الله، فإنه ما وُرد في ذلك خبر نبوي ولا كشفي عن أهل الله - تعالى -، وهو غير متحرك، خلافاً لأهل النظر من الحكماء؛ إذ لو كان متحركاً ما أخبر الله ورسوله - ﷺ - أنه على الماء مستقر، فهو جسد العالم، وهيكله الجامع لجميع متفرقاته، كما أن جسم الإنسان وهيكله جامع لجميع ما تضمنه وجوده من الروح والعقل والنفس والقلب وجميع قواه وحواشه الظاهرة والباطنة، غير أنه وإن أحاط بالعالم من حيث صورته فما أحاط به من حيث أرواحه، فإن الأرواح ليست تحته، فإنها غير متحيّزة، كروح العرش، لا هي داخلة فيه ولا خارجة عنه، واعلم أن سيّد المحققين وإمام الأولياء المكاشفين يخالف أهل الأرصاد وعلماء الهيئة، فإنهم يقولون الأفلاك تسعة: فلك البروج الأطلس وهي المسمّى في الشرع بالعرش، وفلك الثوابت المكوكب وهو المسمّى في الشرع بالكرسي، والسّموات السبع. وسيّدنا الشيخ يقول: الأفلاك أحد عشر: العرش، والكرسي، والأطلس، وفلك الثوابت، والسّموات السبع، ويقول: الأطلس، هو سقف الجنة ومحدّب. فلك الثوابت أرضها ومقره سقف جهنّم. ويخالفهم في حركة العرش والكرسي، فإنهما غير متحركين عنده، وليس في كلام سيّدنا الشيخ مخالفة لما ورد في الصحيح: «إذا سألتم الله فاسألوه الفردوس الأعلى، فإنه أوسط الجنة»<sup>(٢)</sup>.

وأعلى الجنة وفوقه عرش الرحمن، ومنه (أي من الفردوس) تنبّج أنهار الجنة، فإنه يعقل أن يكون المراد من قوله: «فوقه عرش الرحمن» الأخبار بعلو العرش على الفردوس، فإنه وصف الفردوس بالعلو، فربما يتوهم أنه أعلى من العرش، وحينئذ فلا يتنافى أن يكون بينهما شيء، أو لكون الأطلس سقف الجنة اعتبره من الجنة، ولم يعتبر الكرسي لكونه من جنس العرش، فصح كون العرش سقف الجنة. أو يكون الحديث ورد على ما تعرفه العرب ممّا يقوله أهل الرصد: أنّ الأفلاك تسعة، أعلاها الأطلس، الذي سماه المشرّعون بالعرش. قال في الباب السابع من الفتوحات: «وجعل سقف الجنة هذا الفلك، وهو العرش عندهم الذي لا تتعيّن حركته ولا

(١) رواه أحمد في المسند بلفظ: «كان الله تبارك وتعالى قبل كل شيء، وكان عرشه على الماء وكتب في اللوح ذكر كل شيء» حديث رقم (١٩٨٩٩).

(٢) رواه ابن حبان بنحوه في صحيحه، باب الأدعية حديث رقم (٩٣٤).

تتميزاً، فالذي يسميه الشيخ فلك البروج والأطلس هو الذي يسميه أهل النظر بالعرش، حيث توهموا أنه لا شيء فوقه. فإن فلك البروج الأطلس هو غاية ما وصلت إليه العقول والأنظار. ولما جاء الشرع بذكر العرش، وأنه أول الأجرام، وأنه فوق الكل، جعل المتشرعون من المتكلمين في الهيئة والرصد، فلك البروج الأطلس هو العرش، تطبيقاً للشرع على العقل، وقال في هذا الباب: «فأصغر الأيام التي تعدها حركة الفلك المحيط... إلى أن قال: فأصغر يوم عند العرب، وهو هذا الأكبر فلك»، أراد بهذا الفلك الأطلس، فلك البروج، فإنه متحرك. وأما العرش فغير متحرك، إلى أن قال: «فأول شيء أوجده في الأعيان الجسم الكل، وأول شكل فتح في هذا الجسم الشكل الكروي المستدير». أراد بهذا العرش عنده، إلى أن قال: «ولما خلق الله الفلك الأول دار دورة غير معلومة الانتهاء إلا الله تعالى، فإنه أول الأجرام الشفافة»، أراد بهذا الأطلس فلك البروج. فإنه أول الأجرام الشفافة الخالصة الجرمية، فإذا قال الشيخ: أول الأجرام العرش، فذلك حيث يعتبر صورة العرش الجسمانية ذات الطول والعرض والعمق. وإذا قال: أول الأجرام الأطلس فإنما ذلك حيث يعتبر صورة العرش المثالية الروحانية، بحكم المرتبة التي ظهرت فيها الصورة العرشية، وهي المثال، فإن الغالب على العرش الروحانية؛ لأن الطبيعة انبسطت بحكم المحل الذي هو عالم المثال، فعينت لها الإرادة الإلهية صورة العرش. وإذا أطلق الشيخ لفظ الحركة، على العرش والكرسي فإنما يريد الحركة المعنوية بالتأثير والإمداد، كالحركة الإرادية والحركة في الكيف ونحو هذا. وهذا هو العرش الرحماني، ليس هو المراد بقوله:

﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِئِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ﴾ [الزمر: الآية ٧٥].

فإن ذلك عرش فصل القضاء يوم القيامة، فهو عرش آخر. ولذا قال آخر الآية:

﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ﴾ [الزمر: الآية ٦٩].

وما قدمناه من أن مرتبة العرش بعد النفس، هو ما عليه جلُّ العارفين المحققين والمتشرعين، وخالف في ذلك العارف الكبير عبد الكريم الجيلي فقال: «مرتبة العرش أعلى من العقل الأول، فضلاً عن النفس؛ لأن العرش مظهر العظمة وخصوصية الذات. ويسمى جسم الحضرة ومكانها لكونه المكان المنزه عن الجهات الست، وهو المحل الشامل لجميع الموجودات، فهو في الوجود المطلق كالجسم للوجود الإنساني، باعتبار أن العالم الجسماني شامل للعالم الروحاني

والخيالي والعقلي، ولهذا عبّر بعض الصوفية عنه بأنه الجسم الكلّ، وفيه نظر؛ لأن الجسم الكلّ، وإن كان شاملاً لعالم الأرواح فالروح فوقه، والنفس الكلّ فوقه. وليس شيء فوق العرش إلا الرحمن. فإذا نزلناه في عالم العبارة قلنا: إنه فلك محيط بجميع الأفلاك المعنوية والصورية، سطح ذلك الفلك هي المكانة الرحمانية. وهويّة هذا الفلك هو مطلق الوجود عينياً أو حكماً. ولهذا الفلك ظاهر وباطن، فباطنه عالم القدس، عالم الأسماء الإلهية، وظاهره عالم الأنس، محلّ التشبيه والتجسيم والتصوير. فمتى قيل لك: العرش العظيم، فإن المراد به من الحقائق الذاتية مكانة العظمة، وذلك من الصفات؛ فاعلم أن المراد بذلك الوجه من الفلك، كالعرش المجيد، فإن المراد به من عالم القدس، المرتبة الرحمانية التي هي منشأ المجد. وكذلك العرش العظيم، فإن المراد به من الحقائق الذاتية، مكانة العظمة؛ وذلك من عالم القدس، وعالم القدس عبارة عن المعاني الإلهية المقدّسة عن الأحكام الخلقية والتفانص الكونية. وما قاله هذا السيّد يشهد له حديث الطبراني عن ابن عباس: «خلق الله العرش فاستوى عليه، ثم خلق العلم الحديث».

## ١٥ - فصل في الكرسي هو العرش الكريم

ثم أوجد الله - تعالى - الكرسي بعد العرش الرحماني، إيجازاً عينياً شهادياً جسماً لطيفاً بسيطاً طبيعياً روحانيته غالبية على جسمانيته كالعرش، والأجسام الطبيعية في اصطلاح ساداتنا: العرش والكرسي. وكما أن علوم العقل الأول مجملة، تتفصل في اللوح النفس الكلّ؛ كذلك علوم العرش مجملة تتفصل في الكرسي، فإن لعالم الملك كتاباً مجملاً وهو العرش، وكتاباً منفصلاً وهو الكرسي. فباعتبار اندراج ما ينفصل في الكرسي في العرش، يقال للعرش «أم الكتاب»، وباعتبار ما كان في العرش مجملاً في الكرسي يقال للكرسي «الكتاب المبين»، فبين القلم والعرش مضاهاة من جهة الإجمال. وبين اللوح المحفوظ النفس الكلّ والكرسي مضاهاة من جهة التفصيل، فالعرش من هذا الوجه المذكور في المرتبة الحسية مرآة القلم، فما في القلم مندرج على الوجه الكلّي والإجمالي، فهو في العرش كذلك، والكرسي أيضاً من هذا الوجه، في المرتبة الحسية، مرآة اللوح النفس؛ فما في اللوح ثابت فهو في الكرسي ثابت على الوجه الجزئي والتفصيلي. ومن الكرسي يبرز الأمر الإلهي في الوجود، فهو محلّ فصل القضاء. وهذا الكرسي إذا نزلناه إلى المثل فهو بمثابة الكرسي الصغير، الذي يوضع بين يدي العرش، المعدّ لجلوس الملك

وقت الحكم؛ لأجل الصعود عليه إلى العرش، وإذا دُلِّيَ قدميه للاستراحة يضعهما على الكرسي:

﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ﴾ [النحل: الآية ٦٠].

وهو بالنسبة إلى العرش الرحماني كحلقة ملقاة في فلاة من الأرض، والكرسي غير متحرك حركة حسيّة مثل العرش، ومقرّه على الماء الجامد الذي استقرّ عليه العرش. وبعدما خلق الله الكرسي تدلّت إليه القدمان، كما ورد في الخبر. أخرج الحاكم على شرط الشيخين عنه - رحمتهما -: «الكرسي موضع القدمين».

وهما كناية عن كلِّ حكيمين متضادين مخصوصين بالذات، غير متعدّين إلى المخلوقات، فهما عين الذات كالحقّيّة والخلقيّة، والحدوث والقدم، والتنزيه والتشبيه. أو متعدّين، كالأمر والنهي. وإن شئت قلت: هما الخير والشر، وإن شئت قلت: هما قدم الصدق الذي للسعداء وقدم الجبار الذي للأشقياء. وإن شئت قلت: هما الرحمة والغضب... كل ذلك سائغ، فالقدمان عبارة عن انقسام الكلمة التي هي الأمر الإلهي، فإنه ينزل إلى العرش هيولانيًا لا صورة له. فإذا وصل إلى الكرسيّ تعين وانقسم إلى ما ذكرناه. وقال بعض سادة القوم: ينقسم إلى حكم، وهو الحكم الشامل للأحكام الخمسة الشرعيّة، وإلى خبر، وهو ما لم يدخل تحت واحد من هذه الخمسة. والخلاف لفظي، فإن المعنى واحد. وعن العرش والكرسي تكون الأشكال القريبة الخارقة للعادة كالمعجزات والكرامات. وظهورها يكون في الخيال المنفصل، وكالسحر، وما شاكله. وظهوره يكون في الخيال المتصل، وبهذا تعرف الفرق بين الكرامة والمعجزة، والسحر، وإن اتفقا في الصورة. وعنهما تظهر الطبيعة المجهولة، التي يقال فيها الخاصيّة. كما تقول الحكماء الأطباء: الشيء الفلاني يفعل كذا بالخاصيّة، حيث يجهلون السبب الموجب لذلك الفعل.

## ١٦ - فصل في الفلك الأطلس

ثم أوجد الله - تعالى - الفلك الأطلس بعد الكرسيّ، وهو في الكرسيّ كحلقة ملقاة في فلاة من الأرض. قال تعالى:

﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [البقرة: الآية ٢٥٥].

والسماء كلُّ ما علا، والأرض كلُّ ما سفل، والكرسي هو هذا الجسم الذي قدّمنا بعض صفاته، وإن ورد في اللسان العربي: الكرسي بمعنى العلم. وإلى هذا الفلك الأطلس ينتهي علم علماء الهيئة والأرصاء، ويسمى بفلك البروج، وبفلك الأفلاك، وسمي بالأطلس لكونه لا كوكب فيه ولا شيء ممّا تميّز به حركته، فإنه متشابه الأجزاء، مستدير الشكل، لا تعرف لحركته بداية ولا نهاية، وما له طرف، ويسمى بفلك البروج؛ لأن الله - تعالى - لما خلقه قسمه اثني عشر قسمًا سماها بروجًا، أولها الجدي وآخرها القوس، وهم أسماء ملائكة خلقهم الله - تعالى - على صور مختلفة، فسّموا بأسماء صورهم في عالمنا. قال تعالى:

﴿وَأَلَمَلْنَا ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾ [البُرُوج: الآية ١].

والسماء كلُّ ما علا، فإن هذا الفلك ليس هو من السموات السبع، فجعل كل قسم برجًا لسكنى ملك من الموكلين بتدبير العالم، كأبراج المدينة وكل وال في برج، رفع الله الحجاب بين هؤلاء الأملاك وبين اللوح المحفوظ، فيشاهدون ما شاء الله أن يجريه على أيديهم في عالم الخلق إلى يوم القيامة، وجعل تعالى هذه الأقسام كالمنازل والمناهل، التي ينزلها المسافرون حال سفرهم، فتزلها الكواكب السيّارة وغيرها من الكواكب التي تقطع بسيرها في هذه البروج، فيخلق الله ما يشاء عند قطعها وسيرها، وبعدما خلقه الله تعالى داز دورة غير معلومة الانتهاء إلا الله - تعالى - لأنه ليس فوقه شيء محدود من الأجرام الخالصة الحرمة يقطع فيه؛ لأن الكرسي فوقه الغالبة عليه الروحانية، فإن الأطلس أول الأجرام الشفافة، ولا كان الله خلق في جوفه شيئًا فتتميز الحركات، وتنتهي عند من يكون في جوفه، ولو كان لم تميّز، لأنه أطلس متشابه الأجزاء والبروج. فروض مقدرة فيه موهمة لا موجودة عينًا، ويسمى بفلك الأفلاك لإحاطته بما تحته من الأفلاك، فجميع الأفلاك تقطع فيه، فيعلم ما لكل فلك من الطول والقصر في دورته، وهو يوم ذلك الفلك ولهذه الحكمة خلق الله تعالى الدراري السبعة في السموات، ليعرف قطع فلكها في الفلك المحيط الأطلس، وبوجود الأطلس حدثت الأيام السبعة والشهور والسنون. ولكن ما تعيّن فيه إلا بعد ما خلق الله في جوفه من العلامات التي ميّزت هذه الأشياء، فإن الليل والنهار ما كانا إلا بعد خلق الشمس. وأصغر الأيام هي التي تعدّها حركة الفلك المحيط الذي يظهر فيه الليل والنهار، فأقصر يوم عند العرب وهو هذا، لأكبر فلك. وذلك لحكمه على ما في جوفه من الأفلاك، إذ كانت حركة ما دونه في الليل والنهار حركة قسرية له، قهر بها سائر الأفلاك التي يحيط بها. ولكل فلك حركة طبيعية تكون له مع الحركة



القسرية، فكلُّ فلكٍ دونه ذو حركتين في الآن الواحد، ولكل حركة طبيعية في كلِّ فلكٍ يومٍ مخصوص، يعدُّ مقداره بالأيام الحادثة عن الفلك المحيط الأطلس، وهذا الفلك هو سقف الجنة عن سيدنا الشيخ، كما قدّمنا. وعن حركته يتكوّن في الجنة ما يتكوّن، وهو لا ينخرم نظامه. فالجنة لا تفتنى لذاتها أبدًا. ولما كانت الطبيعة فوقه ولم يكن بسيطًا فإنه مرّكبٌ كان منقسمًا على الطبائع الأربع: الحرارة، والبرودة، والرطوبة، واليبوسة، الأمتها الأربع. ومع كونها أربع، فإن الله جعل الاثنين منها أصلًا في وجود الاثنين الآخرين، انفعلت اليبوسة عن الحرارة، والرطوبة عن البرودة. فالرطوبة واليبوسة موجودتان عن سببين، هما: الحرارة والبرودة. وهذا الفلك أحد الأفلاك التي خلقها الله للبقاء، فلا تبدّل لصورها يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات هي العرش والكورسي، وهذا الفلك وهو الأطلس، وفلك المنازل... فإنهم ليسوا من عالم الدنيا التي قضى الله - تعالى - عليها بالفناء والهلاك من حيث صورها. فأول الدنيا من أعلى السماء الأولى التي تلي فلك المنازل سماء زحل، إلى أسفل سافلين، وما ذكرناه من أن الفلك الأطلس فلك البروج قاسر لما تحته من الأفلاك بحركته فهي لذلك ذات حركتين، فهو يتحرك من المشرق إلى المغرب، وسائر الأفلاك تتحرك من المغرب إلى المشرق، هو ما عليه علماء الهيئة أصحاب الأرصاد، ووافقهم على ذلك سيدنا الشيخ في الفتوحات المكيّة، وفرغ على ذلك أنه عن هذا الرأي لا يستحيل مؤثر فيه بين مؤثرين، بمعنى إيجاد مفعول واحد عن فاعلين؛ لأن مثل هذه الحركة لهذه الأفلاك تكون عن حكمين مختلفين: حكم قسري وحكم إرادي، أو طبيعي. وخالفهم في عقلة المستوفز، قال: وجعل حركات هذه الأفلاك كلّها على طريقة واحدة من المشرق إلى المغرب، كحركات الأفلاك الثابتة، يعني بالثابتة: الأطلس والمكوكب، فإنها لا تفتنى ولا تزول ولا ينخرم نظامها. قال خلاف ما يقوله أصحاب علم الهيئة، وذلك أنهم يرون السيارة تقطع في فلك الكواكب الثابتة من الشرطين إلى البطين، ومن الحمل إلى الثور، فيرون حركتها بالعكس من حركة فلك الكواكب الثابتة، فيجعلون حركاتها من المغرب إلى المشرق وليس الأمر كذلك، ولكن حركة فلك الكواكب على مقدار يعطيه تركيبه وطبعه من السرعة، والأفلاك السيارة معه في ذلك الدور، غير أنه يمشي عنها على قدر قوته بالوزن المعلوم، الذي قدره خالقه وخاطره، فيظهر تأخر القمر وغيره عن منزلة الشرطين إلى منزلة البطين، وعن برج الحمل إلى برج الثور، وهذا تأخر صحيح، ولكن ليس بتأخر حركة تقابله. وكلُّ من قال: إن

حركة الأفلاك مع حركة الفلك المحيط على التقابل؛ فما عنده علم. ومن شبهة ما ذكرناه والفقيرة الظاهرة في بعض السيارة لسرعته، تكون في فلكه في ذلك الوقت، أعطاه تركيب ذلك الفلك، وطبعه الذي خلقه الله - تعالى - عليه، وليس هذا من سيدنا اختلاف رأي، حاشا وكلاً، فإنه بعيد من مثل سيدنا، ولكنه في «عقلة المستوفز»<sup>(١)</sup>، ذكر ما أعطاه الكشف الصحيح، وما هو الأمر عليه في حقيقته. وفي «الفتوحات»<sup>(٢)</sup> ذكر ما عليه علماء الهيئة، وما تعطيه المشاهدة البصرية لأهل الأرصاد؛ إذ لم يتعلق بذلك شيء من أمر الدين وأحكام الشرع، حتى تلزم مخالفتهم. فإنه كما قال - رضي الله عنه - ليس كل أحد يصدقنا فيما ندعي فيه الكشف، ورأي إجماع أهل الرصد على ذلك. ولذلك فرغ عليها مسألة الأثر الواحد عن مؤثرين، وهي مسألة إجماع الحكماء والمتكلمين على امتناعها، لما يلزم عليه من كون الواحد اثنين بمعنى كون الأثر الواحد أكثرين، إلى أن قال: فإن الكواكب تقطع في الفلك، في رأي العين، من الغرب إلى الشرق، والفلك الأكبر المحيط، يقطع بها من الشرق إلى الغرب، فانظر قوله: «في رأي العين»، يعني لا في نفس الأمر.

## ١٧ - فصل في فلك الثوابت

ثم أوجد الله - تعالى - فلك الثوابت، بعد فلك البروج الأطلس، وهو آخر الأفلاك التي خلقها الله - تعالى - للبقاء فلا تفتى ولا تهلك صورها، سطحه أرض الجنة، ومقره سقف النار جهنم، وفيه الكواكب الثابتة، وهو بما احتوى عليه من السموات والأرضين في الفلك الأطلس، كحلقة ملقاة في أرض فيحاء، وفيه قوة ما فوقه الأطلس والكرسي والعرش؛ لأنه مولد عنهم. وهكذا كل مولد فإنه يجمع حقائق ما فوقه، حتى ينتهي إلى الإنسان، فيجتمع فيه قوة جميع العالم. فإن كان إنساناً كاملاً جمع مع ذلك الأسماء الإلهية، بكمالها، ويسمى هذا الفلك بمكوكب (بكسر الكاف) وبفلك المنازل، قال تعالى:

﴿وَالْقَمَرَ قَدَرْتَهُ مَنَازِلَ﴾ [يس: الآية ٣٩].

(١) كتاب «عقلة المستوفز» أحد كتب الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي في علم الحقائق الإلهية.

(٢) كتاب «الفتوحات المكية» وهو من أكبر وأهم كتب الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي في علم الحقائق الإلهية.

أي قَدَرْنَا له، والمنازل مقادير التقاسيم التي في فلك البروج، عَيْنُهَا الحق - تعالى - لنا بهذه المنازل، إذ لم يميّزه البصر. وهي ثمان وعشرون منزلة، أولها: النطع، وآخرها بطن الحوت، سُمِّيت منازل، لقطع السيارة فيها، وهي كالمنطقة في هذا الفلك بين الكواكب، وهي تقديرات وفروض في هذا الفلك، وما عرفت أنها منازل إلا بتزول السيارة فيها. ولولا ذلك، ما تميّزت عن سائر الكواكب سُمِّيت منازل لقطع السيارة فيها، ولا فرق بينها وبين سائر الكواكب الأخر التي ليست بمنازل في سيرها. فإن الكلَّ يسير ويقطع في الفلك الأطلس. وهذه المنازل هي مساكن أملاك نواب الاثني عشر ملكًا، الذين هم في الفلك الأقصى، يأخذون الأمر عن الاثني عشر ملكًا. وإنما سُمِّيت الكواكب - ما عدا السيارة - بالثابتة؛ لأن الأعمار لا تدرك حركتها، لقصر الأعمار؛ إذ كل كوكب منها يقطع الدرجة من الفلك الأقصى الأطلس في مائة سنة، تعدّ ثلاثمائة وستين درجة، كلُّ درجة مائة سنة. فانظر ماذا يجتمع!! فهو يوم ذلك الكوكب، فيوم كل كوكب منها بقدر قطعه فلك البروج الأطلس، فأسرع الكواكب قطعًا السيارة السبعة. وأسرع السيارة القمر، فإن يومه ثمانية وعشرون يومًا من أيام دورة الفلك الأطلس. وجميع الأيام تقدر بدورة الفلك الأطلس، وهي من طلوع الشمس إلى طلوعها ثانية. قال تعالى:

﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج: الآية ٤٧].

يعني هذه الأيام المعروفة، فأقصر أيام السبعة السيارة يوم القمر، وهو ثمانية وعشرون يومًا من أيامنا، والسيارة وغيرها من الكواكب إنما هي صور لأرواح ملكية، تدبّرها مثل صورة الإنسان وبروحه يفعل، وكذلك الكواكب، وكذلك الحروف هي صور لها أرواح، وبأرواحها تفعل، ولولا الأرواح ما فعلت الصور شيئًا، لا من إنسان ولا كوكب ولا حرف. وإنه - تعالى - جعل البروج والمنازل وسباحة الكواكب، أدلة على حكم ما يريد - تعالى - أن يجريه في العالم الطبيعي والعنصري من حرّ وبرد وبس ورطوبة في حار وبارد ورطب ويابس. فمنها ما يقتضي وجود أجسام، ومنها ما يقتضي وجود أرواح، وغير ذلك. فهي كالأسباب والعادة المعتادة في العموم، التي لا يجهلها أحد، فلا يكفر القائل بأنها أسباب وضعها الحق - تعالى -، كما لا يكفر القائل بغيرها من الأسباب العادية من غير نسبة خلق وإيجاد إليها. وكلُّ صورة في العالم يطلق عليها اسم فلك، ومدبّرها ومحركها ملك.

## تمهيد

## أوائل لإيجاد صورة الإنسان الكامل

ثم تعلقت إرادته - تعالى - التعلق التنجيزي، بإيجاد الدنيا وهي عند سيدنا إمام العارفين محيي الدين: اسم لما تحت مقعر فلك الثوابت، إلى الظلمة التي انتهى إليها علم العلماء من الأركان، وهي: التراب والماء والهواء والأثير وهو النار، والسموات والأرضين، والمولدات من الأركان وهي: الجماد والنبات والمعدن والحيوان والجان والإنسان التي مآل صورها وأجسامها إلى فساد وانتقال، فإنه - تعالى - جعل للدنيا أمدا معلوماً تنتهي إليه وتقتضي صورتها وتستحيل إلى صورة مخصوصة ما تشاهدها اليوم، كما أنه تعالى ينشئنا بعد البعث من القبور نشأة أخرى لا نعلمها اليوم، قال: ﴿وَنُنشِئُكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الواقعة: الآية ٦١].

والنشأة الأولى قد علمناها قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلَّمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى﴾ [الواقعة: الآية ٦٢].

وما سميت دنيا إلا بنا، فإنها دنيا أي قربي متأ، والآخرة بعدى. قال تعالى لمحمد - ﷺ -: ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى﴾ [الضحى: الآية ٤].

فمن مقعر فلك الثوابت إلى ما تحته يكون استحالة ما نراه إلى الأخرى، فللآخرة صورة غير صورة الدنيا، فينتقل ما ينتقل منها إلى الجنة من إنسان وغير إنسان، وكل من يبقى فيها فهو من أهل النار الذين هم أهلها، لا يخرجون منها أبداً. ومن محدب فلك الثوابت، الذي هو أرض الجنة عند سيدنا إمام العارفين محيي الدين، إلى فوق فهو مخلوق للبقاء، لا تبدل صورته. وقوله:

﴿وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَرَتْ﴾ [الانفطار: الآية ٢].

واسم الكواكب يشمل الكواكب الثابتة، وهي في الفلك، الذي هو أحد الأفلاك المخلوقة للبقاء؛ فالمراد بانتشارها ذهاب ضوئها فقط، ولذا قال في الآية الأخرى:

﴿فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ﴾ [المُرسلات: الآية ٨].

فطمسها إذهاب ضوئها، وهذه هي مرتبة النكاح الخامس، باعتبار النكاح الغيبي المعنوي، والرابع على عدم اعتباره، وهو النكاح العنصري السفلي الثقلي، لأنه عن

عصارات العناصر الأربعة وامتزاجاتها، وهو الاجتماع الواقع للأجسام البسيطة، بموجب ما وصل إليها من أحكام الأصول الأسمائية والمعنوية والروحانية، لإظهار صور المركبات وعالم الكون والفساد على اختلاف طبقاته وأجناسه وأنواعه. فنظم تعالى الطبائع الأربع، وهي: الحرارة والرطوبة والبرودة واليبوسة نظماً خاصاً. فضمَّ الحرارة إلى اليبوسة؛ فكانت النار البسيطة المعقولة، ثم ضمَّ الحرارة إلى الرطوبة، فكان الهواء البسيط المعقول، ثم ضمَّ البرودة إلى الرطوبة، فكان الماء البسيط المعقول، ثم ضمَّ البرودة إلى اليبوسة، فكان التراب البسيط المعقول، فحقيقة الطبيعة جامعة بين الأربعة، بمعنى أنها عين كل واحد من الأربعة، وليس واحد من الأربعة عينها من كلِّ وجه، بل من بعض الوجوه، وهذه الأركان الأربعة كل واحد منها مركب من الأربعة؛ لأن مجموعها مسمى الطبيعة. والطبيعة حقيقة واحدة لا تتجزأ ولا تنقسم، ويسمى المتكلمون هذه الأركان الأربعة بـ«الكيفيات الأولى» لتكثيف البسائط العنصرية بها أولاً. وبتبعية البسائط تتكثف المركبات بها ثانياً. فكلُّ ما غالب فيه ركن الحرارة حتى اضمحلَّت فيه البواقي سُمِّي بالطبيعة الهوائية. وكل ما غلب فيه ركن البرودة حتى اضمحلَّت فيه البواقي سُمِّي بالطبيعة المائية. وكلُّ ما غلب فيه ركن اليبوسة حتى اضمحلَّت البواقي سُمِّي بالطبيعة الترابية، ولا يسمى بالمرتبة الأولى تراباً ولا ماءً ولا هواءً ولا ناراً، ولا يقبل واحد منها الامتزاج بغيره من الأركان؛ لأنها في هذه الدرجة الأولى، واصلة إلى حدِّها وانتهائها. فإذا تنزَّلت إلى الدرجة الثانية قبل كلِّ واحد منها الامتزاج بغيره، فإنه لولا امتزاجها ما كان لواحد منها وجود. فلولا امتزاج النار مثلاً ببقية الأركان لم يكن لها وجود؛ لأن الطبيعة اسم لجمعها. فالطبيعة لا وجود لها إلا بالأربعة الأركان. وإذا كانت أركان الطبيعة في مرتبتها الأولى يقال فيها حرارة عنصرية ورطوبة كذلك، وبرودة ويبوسة كذلك، وإذا كانت في الدرجة الثانية يقال فيها حرارة طبيعية وبرودة طبيعية ورطوبة ويبوسة كذلك. وإذا كانت في الدرجة الثالثة يقال فيها حرارة نارية وبرودة مائية ويبوسة ترابية ورطوبة هوائية. وإذا تنزَّلت الأركان إلى الدرجة الرابعة وجدت عنها صورة من الصورة الجمادية أو النباتية أو الحيوانية أو الجنية أو الإنسانية، سمَّيت حرارة غريزية ورطوبة غريزية وبرودة ويبوسة كذلك. ففلك العناصر فوق فلك الطبائع، وفلك الطبائع فوق فلك الاستقصاءات، وهي أفلاك النار والهواء والماء والتراب. ومع كون الطبائع أربع أمهات، فائنتان منها أصل في وجود الاثنين؛ لأن الرطوبة واليبوسة منفعلتان عن الحرارة والبرودة. وأقوى الأركان النار، لأنها تؤثر في الأركان، فالماء يسخن وكذلك

الهواء وكذلك التراب والنار لا تقبل التبريد، فللنار أثر في نفس الأركان، وليس لواحد منها في النار أثر، فلهذا قالت طائفة: ركن النار هو الأصل، فما كثف منها كان هواء وما كثف من الهواء كان ماء، وما كثف من الماء كان ترابًا، وبعد النار الماء، فإن له أثرًا في الهواء والتراب، فيبرد الهواء ويزيد في رطوبته ويرطب التراب ويزيد في برودته وليس للهواء والتراب أثر في هذين العنصرين، فلهذا قالت طائفة: ركن الماء هو الأصل. وقالت طائفة: ركن الهواء هو الأصل، فما أفرطت فيه الحرارة سُمي نازًا. وما أفرطت فيه الرطوبة سُمي ماء. وما بقي على الاعتدال بقي عليه اسم الهواء، وقالت طائفة: ركن التراب هو الأصل. وقالت طائفة: الأصل أمر خامس، ليس هو واحد من الأربعة. وجعل تعالى بين الأركان منافرة، فمنها ما يقتضي المنافرة من كل وجه كالنار والماء والهواء والتراب. وجعل الهواء بين الماء والنار، فإنه وإن كان بين الماء والتراب، منافرة من وجه فبينهما مناسبة من وجه. وكذلك بين الماء والهواء والنار، فالماء يتنافر النار ويناسب التراب بالبرودة، والهواء بالرطوبة. والهواء يتنافر التراب ويناسب النار بالحرارة ويناسب الماء بالرطوبة، فلهذا يستحيل التراب ماء، والماء هواء، والهواء نازًا. والنار لا تستحيل ترابًا إلا بوسائط. والاستحالة لا تقع إلا عند الإفراط، فإذا جاوز المستحيل حدَّه المحدود انتقل إلى ضدّه، ولا يفهم من الاستحالة أن الحرارة تنقلب برودة واليبوسة تنقلب رطوبة أو البياض ينقلب سوادًا. . . فإنه مُحال، لما يؤدي إليه من قلب الحقائق وقلب الحقائق مُحال، لما يؤدي إليه من قلب العلم جهلاً، وهو محال. وإنما المراد أن الصور والأجسام الحاملة لهذه الطبائع الأربع هي التي تستحيل. فالجسم البارد قد يصير حارًا، والجسم اليابس قد يصير رطبًا لكن لا في وقت كونه حارًا ولا في وقت كونه يابسًا. وكذلك الجسم الأبيض قد يصير أسودًا لكن لا في وقت كونه أبيض؛ فالصورة المائية قد تنقلب صورة حجرية، والحجر قد يجعل ماء، والهواء الملاصق للإناء المبرّد قد يصير قطر ماء، والعائمة تتوهم ماء رشح من الإناء. والماء المغلي والشعلة، يصيران هواء، والهواء يصير نازًا، كما في كبر الحداد. فالفاسد حينئذ الصورة المائية، والكائن الصورة الحجرية في الأول. والفاسد الصورة الحجرية، والكائن الصورة المائية في الثاني، والفاسد الصورة الهوائية، والكائن الصورة المائية في الثالث، والفاسد الصورة المائية والنارية، والكائن الصورة الهوائية في الرابع، والجوهر الحامل لهذه الصور، الحاملة لهذه الطبائع باقٍ على حاله لا يفسد ولا يتغير، وهو المسمّى بنفس الرحمن وبالعماء، فهو لا يهلك ولا يستحيل. ولو هلكت ذرّة من العالم حيث جوهرها لهلك العالم جميعه،



لأحدية جوهر العالم، فهو واحد بالذات وإن ظهر للعيان بصور متعددة لا تنهاى كثرة. ولا يفهم أيضاً من الاستحالة والانتقال في الصور أن الصورة باقية، وانقلبت هي في نفسها، فهذا أيضاً مُحال غير معقول، وإنما هو إعدام للصورة التي قلنا فسدت، وإيجاد للصورة التي قلنا كانت، ووجدت مع بقاء الجوهر على حالته من غير تغير في الحالتين مع الصورتين. وإلى هذا أشار عليم الأسود - رضي الله عنه - في الحكاية المنقولة عنه، وهي أنه ضرب بيده أسطوانة في المسجد فصارت ذهباً. ثم ضربها بيده فعدت كما كانت، فلما بهت الرائي قان له عليم: يا هذا إن الحقائق لا تنقلب، ولكن هكذا تراها لحقيقتك برئك، يريد عليم: أن الجوهر الذي هو حقيقة الصورة الحجرية وبه قامت الصورة لم ينقلب ذهباً، وإنما الصورة الذهبية ظهرت في عينك لما لبسها الجوهر، كما ظهرت الصورة الحجرية في عينك عندما كان الجوهر لايساً لها. والجوهر على حاله ما تغير. وذلك لحقيقتك برئك أي لتحققك برئك أنه متجل من الأزل إلى الأبد لا يتغير ولا يتحول. ومع هذا يظهر بصورة ينكر فيها، ويظهر بصورة يعرف فيها، وهو هو في حالة الإنكار له والإقرار به والتغير والتحول، إنما هو في نظر الرائي لا في حقيقة المرئي، فالصور الحاملة للطباع كلها من تراب وماء وهواء ونار وجماد ونبات وحيوان وجرن وإنسان وأفلاك وأملاك إنما هي أعراض في الجوهر الواحد بالحقيقة، المتعدد بحسب الصور، يلبس الجوهر صورة فيسمى بها، كانت ما كانت، وهو المسمى بالكون، أي انتقلت من العدم إلى الوجود. ويخلع صورة فيزول عنه ذلك الاسم بزوالها، وهو المسمى بالفساد، أي انتقلت من الوجود إلى العدم، وزال عنها ما ظهر من الكون والوجود، وهكذا العالم كله دائم الكون والفساد في الصور في كل نفس، غير أنه إذا خلع الجوهر وليس صورة مثلها يقع اللبس، فتلبس الصورة الثانية الأولى، أي الصورة الكائنة بالفسادة، وهو الخلق الجديد، الذي الناس في لبس منه، وما أدركه أهل الله أهل الكشف والوجود وبعض الحكماء القدماء، أدركوه عقلاً. وأما إذا لبس الجوهر صورة مخالفة للصورة الأولى الفاسدة، كخلع الجوهر الصورة المائية ولبسه الصورة البخارية مثلاً، فذلك ظاهر الفساد والكون؛ فلهذا العالم دائم الافتقار إلى الحق - تعالى -، وكان الحق - تعالى - خلأفاً على الدوام. فأما افتقار الجوهر فإنه لا بقاء لظهور عينه إلا بتكوّن الصور التي هو حاملها؛ إذ من شرط بقائه وجود الصور فيه، التي هو موضوع لها، كما يقول المتكلمون الذين يتوهمون أن الصورة الجسمية جواهر الجوهر، لا يخلو عن عرض يقوم به. وكذلك الجواهر الجزئية، وهي الأرواح الجزئية التي هي موضوعة لما تحمله

من الصفات الروحانية والإدراكات والعلوم، فإنه لا بقاء لعينها إلا بها، فهي تتجدد عليها تتجدد الأعراض. وأما افتقار الصور فلبروزها من العدم إلى الاتصاف بالوجود، فإنها عند أهل الله كلها أعراض. قال قائلهم:

ما الكون إلا عرض سيان الجوهر والعرض

فتنعدم لأنفسها في ثاني زمان وجودها، كما يقول الأشعري؛ فالعرض عنده لا يبقى زمانين، فلا تزال الطبيعة وهي ظاهر الأمر الإلهي، تفعل الصور، والروح الكل يمدّها بالأرواح دنيا وآخرة، إلى غير نهاية. فإنه تعالى ما يسوي صورة محسوسة في الوجود، طبيعية أو عنصرية، على يد من كانت من فلك أو إنسان أو حيوان أو ريح إذا هبت فتحدث في الرمل أشكالا، حتى الحية والدودة تمشي في الرمل فيظهر طريق، فذلك الطريق صورة أحدثها الله بمشي هذه الدودة أو غيرها، فينفخ الله فيها روحا تناسبها من أمره تعالى، لا يزال يسبحه ذلك الشكل لصورته وروحه، إلى أن تزول الصورة وتفسد، فينتقل روحه إلى البرزخ. وإلى هذه الإشارة بقوله:

﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَبَقِيَ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الرحمن:

الآيات ٢٦، ٢٧].

وهو الكائن، عن أمره تعالى، الذي هو روح الله المضاف إليه وكل من أحدث صورة وزالت وفسدت وانتقل روحها إلى البرزخ؛ فإن روحها الذي هو ذلك الملك، يسبح الله ويمجده ويعبّد فضل ذلك على من أوجد الصورة التي كان هذا الملك روحها.

تنبيهه:

يلزم هذه الأجسام والصور الطبيعية والعنصرية أمور كالأشكال والألوان، والخفة والثقيل، والल्प والكثافة، والكدرة والصفاء، واللين والصلابة... وما أشبه هذا من لواحق الأجسام والصور. وذلك يرجع إلى أسباب مختلفة. فأما الألوان فعلى قسمين، منها: ألوان تقوم بنفس المتلون فتسمى أعراضا لازمة وصفات، كالبياض في العاج، والصفرة في الذهب، والسواد في الزنجي... وإلا تكن لازمة، كصفرة الوجع وحمرة الخجل، فتسمى أحوالا، وهي المقول عليها انفعالات عند المتكلمين. وقد أخبرناك أنه لا شيء منها بلازم ولا باق زمانين، عند أهل الكشف والوجود والأشاعرة. ولا ما يقال: إنها جواهر، عند المتكلمين. ومنها ألوان تظهر

لناظر الرائي، وما هي في عين المتلون، لاختلاف الأشكال وما يعطيه النور في ذلك الجسم، فإنه بالنور يقع الإدراك، كالجسم الواحد المتلون مثلاً بالحمرة والخضرة، إذا اختلفت منك كفيات النظر إليه من الاستقامة والانحراف، كيف يعطيك ألواناً محسوسة تدركها ببصرك، لا وجود لها في الجسم المنظور إليه، ولا تقدر تنكر ذلك. فقد أدركت ألواناً غير موجودة في أعيانها، وكذلك تقلب الحرباء في لون ما هي عليه من الأجسام على التدرج شيئاً بعد شيء. وإدراك تقلبها في الألوان محسوس، مع علمك بأن تلك الألوان لا وجود لها في أعيانها. وكذلك الألوان التي تظهر لناظر الرائي من قوس قزح فإنه ما ثمّ متلون، ولا لون مع شهودك الألوان ببصرك، لا تشك في ذلك. وكما يبصر الإنسان الشيء الأبيض من مسافة بعيدة أسود أو غيره، وهو في نفسه على خلاف ذلك اللون، ولا قام به ولا عرض له، وإنما ظهر هذا اللون في قوة الإدراك، بواسطة ذلك الشيء والبعد عنه.

## الأشكال

وأما الأشكال فكذلك، مثل الألوان، ترجع إلى أمرين: إلى حامل الشكل، وهو الجسم المتشكل حقيقة، كما هو ظاهر للبصر. وإلى حس المدرك له فقط، ولا وجود لذلك الشكل في ذلك الجسم الذي يرى أنه بذلك الشكل، كالعنبة ترى في الماء كبيرة كالإجاصة، والخاتم القريب من العين، يرى كالحلقة الكبيرة. والشمس ترى على شكل الترس ومقداره، وهي أضعاف الأرض في المقدار، فإنها قدر الأرض مائة وستين ونصف وثمان مرة. وكذلك ما يحدث في الهواء من سرعة الحركة بجمرة النار في يد المحرك لها. إذا أدارها فتحدث في عين الرائي دائرة وخطاً مستطيلاً، إن أخذ بالحركة طولاً، ولا تشك أنك أبصرت دائرة نازاً وشكل خط، ولا تشك أنه ما ثمّ شكل دائرة ولا خط. ونحو هذا، وما عدا ما ذكرناه من لواحق الأجسام الطبيعية والعنصرية فهو راجع إلى المدرك، لذلك، لا إلى أنفسها، ولا إلى الذوات الموصوفة التي هي الأجسام والصور، هذا عند أهل الله أصحاب الكشف والوجود. وأما الحكماء أصحاب الأفكار الذين ما وصلوا مرتبة الكشف الصحيح، فقد أخطأوا في مسألة لواحق الأجسام وما أصابوا، فإننا موقنون بأن من أهل الكشف الصحيح من لا تحجبه الأجسام الكثيفة كالجبال والجدران والستائر وبعد المسافة... فصورتها عنده صورة الأجسام اللطيفة التي لا تحجب ما وراءها عن نفوذ الإدراك، فيدركها ببصره الحسي. وإذا غمض عينه لا يراها ولا يدركها،

وهذا هو الفرق بين الكشف الحسي والخيالي، فإن الكشف الحسي - كما ذكرنا - لا تحجب صاحبه الكثائف ولا المسافة البعيدة، فإذا غمض عينه لا يرى شيئاً ممّا كان يراه، والكشف الخيالي كذلك لا تحجب صاحبه الكثائف ولا بعد المسافة، وإذا غمض عينه لا ينحجب عنه ما أبصره وأدركه، لأنه أدرك ما أدرك ببصره الخيالي، لا الحسي. ومن أهل الله من لا يثقله شيء يحمله، ومن أهل الله من لا يؤثر فيه النار ولا تحرق ثوبه، فصار مآل هذه الأوصاف اللائحة للأجسام إلى المدرك لها، ما هي لذوات الأجسام؛ إذ لو كانت لذوات الأجسام لوقع التساوي في ذلك في حق كل مدرك، كما وقع التساوي في كونها أجساماً وصوراً. وإياك أن تظن أنني أعني بقولي: «ومن أهل الله»، هؤلاء الذين يأكلون النار ويدخلون مسامير الحديد في أشداقهم، ويدخلون التنور ويمشون راكبين على ظهور الأشخاص ليعرفهم العوام بالولاية، مع عدم الاستقامة والمشي على الكتاب والسنة، اللذين هما أساس طريق أهل الله - تعالى - حاشاً وكلاً، ما يصدر عن هؤلاء منه ما هو شعوذة، ومنه ما هو سيمياء، ومنه ما هو خواص نفسية يتوارثونها بينهم. وأمّا أهل الله فلا تظهر عنهم كرامة إلا لفيضان وجد أو هداية مرید أو نصرة شرع أو إنقاذ هالك أو حاجة شديدة أصابت الناس، فإنه كما يجب على النبي إظهار معجزته يجب على الولي ستر ولايته. فإذا أظهره الله - تعالى - من غير إرادة منه، فذلك إلى الله، شأن الكاملين. وأمّا أصحاب الأحوال فليس كلامنا فيهم - وممن أخطأ فيه الحكماء من هذا الباب ظهور الآثار المختلفة الحكم عن العنصر الواحد العين والحقيقة، فتأولوا وتعسفوا، والحق أن ذلك ما هو لعين العنصر وحقيقته، وإنما ذلك من حيث القوابل، فإن النار مثلاً، من حيث أنها نار فلا تتغير من حيث ذاتها وحقيقتها، وتظهر عنها آثار مختلفة الحكم فتتغير أجساماً ولا تتغير أجساماً، مع أن إنارتها بالاشتعال والهواء لها مساعد، وتعتد أشياء كالطين المقبل مثلاً، وتسيل أشياء كالسمن والعسل والثلج والجليد، وتسود أشياء كوجه القصار، وتبيض أشياء كالشقة التي يقصرها، وتلين أشياء كالحديد، وتحرق أشياء كالأشجار، وتنضج أشياء كاللحوم، وهي على حقيقتها واستعداد القوابل يظهر الاختلاف:

العين واحدة والحكم مختلف      ويدرك العلم ما لا يدرك البصر

وبهذا تعرف خطأ الحكماء في قولهم؛ لا يصدر عن الواحد إلا واحد، فلما أحكم الله أركان الطبيعة ورتبها ترتيباً محكماً وأدارها ظهر الوجود مرتوقاً، قال تعالى:

﴿أُولَئِكَ يَرَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا﴾ [الأنبياء: الآية ٣٠]

[٣٠]

والرتق: اتحاد الشيء وانجماعه: ﴿فَفَتَقْنَهُمَا﴾ [الأنبياء: الآية ٣٠].

والفتق هو فراقه وامتيازته، ففصل - تعالى - بين التراب وبين الماء، وبين الماء وبين الهواء، وبين الهواء وبين النار، وبين السموات وبين الأرضين، فأول ما أوجد الله من المخلوقات الدنيوية الأرض.

## ١٨ - فصل في الأرض

ثم خلق الله من الصور الوجودية، بعد فلك الثوابت، وهو الفلك الرابع من الأفلاك التي خلقها الله - تعالى - للبقاء ركن الأرض، وهو التراب، وهو بارد يابس؛ فإن الأدلة الشرعية والكشف الصحيح يقضيان بأنها مخلوقة قبل بقية الأركان. والخلاف في ذلك مشهور، ولا حجة للمقاتل بخلاف هذا في قوله: ﴿أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءِ﴾ [النازعات: الآية ٢٧].

إلى قوله: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ [٣٠] [النازعات: الآية ٣٠].

فإن المراد دحأها ومدأها بعد خلقها، وتقدير أقواتها فيها، دحأها من أجل السماء أن تكون عليها، فإن أطراف السموات على الأرضين، فالأرض أول مخلوق من الدنيا، جعلها تعالى محل أكثر المولدات من العناصر، والمقصودة من بين سائر الأركان. وفيها تكون في الجنة، وعليها تحشر. غير أن صفتها تتبدل، فتكون في الحشر الساهرة، أي التي لا ينام عليها. قال تعالى:

﴿فَلَمَّا هِيَ زَجْرًا وَجْدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾﴾ [النازعات: الآيتان ١٣،

[١٤]

وقال: ﴿يَوْمَ بَدَّلَ الْأَرْضَ غَيْرَ الْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: الآية ٤٨].

فتفسد صورتها الآن، وتكون لها صورة أخرى لا نعلمها الآن. ولما كانت هي المقصودة لم تنزل الكتب الإلهية إلا بذكرها. وما جاء ذكر الأرض إلا مفرداً، قال تعالى: ﴿خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت: الآية ٢٩].

ثم قال: ﴿وَوَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ [فصلت: الآية ١٠].

لأنها خزانة أقوات المولدات، ومن جملة أقواتها، وجود الماء والهواء والنار، وما في ذلك من البخارات والآثار العلوية؛ فمجموع خلق الأرض وتقدير أقواتها فيها كان في ستة أيام، مع خلق السموات. قال تعالى:

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [هود: الآية ٧].

من أيام الرب، كل يوم ألف سنة مما تعدون، أي من أيامه المعروفة عندنا. وجعل تعالى ما بين مركز الأرض صخرة عظيمة كرة، وفي وسط تلك الصخرة الصفاء، حيوان في فمه ورقة خضراء، يسبح الله ويمجده، وطوق بالأرض جبلاً من صخرة خضراء، سُمي بجبل قاف. وقاف اسم الملك الذي جعل الله بيده حكم ما يظهر في الأرض من الزلازل والرجفات والخسف ونحو هذا؛ فكل ما يحدث في الأرض هو بيد هذا الملك الكريم، أخرج ابن أبي حاتم عن كعب قال في قوله تعالى:

﴿حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ [ص: الآية ٣٢].

الحجاب جبل أخضر من ياقوت، محيط بالخلائق؛ فمنه خضرة السماء التي يقال لها الخضراء. وخضرة البحر من السماء لها يقال البحر الأخضر، وطوق تعالى بهذا الجبل حية عظيمة اجتمع رأسها مع ذنبها. حكى سيدنا إمام العارفين محيي الدين: إنه اجتمع بمن صعد هذا الجبل - وكان من الأبدال، من أهل الخطوة - قال له: صليت الصبح في أسفله والعصر في أعلاه، وأنا بهذه المثابة، يعني من المثني بالخطوة. قال: وكلمته تلك الحية، وسألته عن الشيخ أبي مدين شعيب، المدفون بتلمسان. وأنه تعالى حلل ما حلل، ولطف ما لطف في جوف كرة الأرض منها، فكان ماء نتناً، وهو البحر العظيم المحيط بالأرض. فدار هذا الماء بالصخرة، وصارت الأرض عليه. ثم حلل - تعالى - ما حلل من الماء؛ فكان الهواء المظلم. فدار ذلك الريح بالمركز، الذي هو الصخرة؛ فاشتدت حركة الريح، فأمسك عليه الماء. والأرض فوق هذا الماء. أخرج ابن جرير في تفسيره عن ابن عباس قال: «خلق الله الأرض على الحوت، والحوت على الماء، والماء على ظهر صفاة، والصفاءة على ملك، والملك على صخرة، والصخرة في الريح».

ولعل الحوت الوارد في هذا الحديث وغيره هو الذي عبّر عنه أهل الكشف بالحيوان الذي هو في وسط الصخرة. وكيفية الدنيا الآن: الأرض على صخرة، أعني



مركز الأرض، دار بالصخرة هواء، وعلى الهواء ماء، وعلى الماء أرض، وعلى الأرض ماء، وعلى الماء هواء، وعلى الهواء جمداً، وعلى الجمداً بحر، وعلى البحر هواء، وعلى الهواء نار، وعلى النار السماء الدنيا إلى السماء السابعة. فأصغرهما الأرض التي نحن عليها، طبقة سوداء، وطبقة غبراء، وطبقة حمراء، وطبقة صفراء، وطبقة بيضاء، وطبقة زرقاء، وطبقة خضراء؛ كذا أخرجه أبو الشيخ عن سلمان، وهي - وإن كانت سبع طباق بالأدلة الشرعية والكشف - فقد يعسر الفصل بينهما، فهنّ معقولات غير محسوسات، كالامتزاج في الممتزجات، مثل النيل والإسفيداج. فإننا نعلم أن أجزاء النيل مجاورة لأجزاء الإسفيداج، مجاورة بالعقل لا يدركها الحس ولا يفصلها. ولولا أن الشارع أخبر أنها سبع أرضين ما أدرك ذلك العقل ولا الحس، وجعل تعالى لكل أرض استعداداً وانفعالاً، لأثر حركة فلك من أفلاك السموات، وطرح شعاع كوكبها؛ فالأرض التي نحن عليها للفلك الأول الذي يلي فلك الثوابت، فهي أصغر أرض لأكثر فلك. ثم ينزل الأمر من سماء، إلى أرض، إلى السماء السابعة السفلى، فأكبر أرض لأصغر سماء. ثم اعلم: أن الأرض متحركة حركة خفية لا تدرك حساً؛ لأن الحق - تعالى - أخبر أنه دعاها، قال لها وللسماء:

﴿أَتَيْنَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ [فضلت: الآية ١١].

فأجابنا طائعتين، فهما آيتان أبداً، طلباً للكمال. وحركة الأرض حول الوسط لأنها أكبر. حقيقية بسيطة الطبع، وكل متحرك بالاستدارة متحرك في حيزه، فهو متحرك ساكن؛ إذ لا يصدق عليه اسم الحركة، وهي الانتقال من حيز إلى حيز، فما انتقل من حيزه، ولا سكن فيتصرف بالسكون. فلما خلق الله - تعالى - الأرض على الماء، والماء على الريح اضطربت ومادت. فقالت الملائكة - وكان الحق - تعالى - أعلمهم أنها محل خلق يخلقون منها على نشأة مخصوصة، لا يمكن التصرف معها إلا على ساكن: يا ربنا كيف استقرار عبادك على هذه الأرض؟! فما شعروا إلا والجبال على الأرض. هكذا ورد بمعناه، في خبر أخرجه ابن أبي حاتم: خلق الله - تعالى - الجبال من الأبخرة الغليظة المترامية الصاعدة من الأرض، فهي مادتها. فلما خلقت الجبال على الأرض تفاوتت جوانبها. وتوجهت الجبال نحو المركز؛ فمنعتها أن تتحرك كحركة الكواكب، فهي على حركتها الرحوية الخفية. ومن الأرض تفجر الأنهار، وكل ما ينزل من المعصرات، فهو من بخارات الرطوبات التي تصعد من

الأرض، فمنها تفجر العيون والأنهار، ومنها تخرج البخارات إلى الجوّ، فتستحيل ماء، فينزل غيثًا منها وإليها، دولا ب دائم .

ثم بعد خلق الأرض خلق الله عنصر الماء .

## ١٩ - فصل في الماء

ثم خلق الله - تعالى - بعد الأرض - ركن الماء، وهو بارد رطب، فناسب الأرض من جهة البرودة، له عقل وروح وعلم كالأرض وسائر أجسام العالم - جعله - تعالى - محيطًا بالأرض، فهي مغمورة به، إلا القدر الذي استقرَّ عليه الحيوان البرّي والنباتات البرية. والماء العنصري أصله من نهر الحياة، وهو فوق الأركان، ومنه جعل - تعالى - كلُّ شيء حيّ. والماء يعطي الصور في العالم؛ فلذا أوّل شيء يظهر للعين من صور العالم الماء، وهو شفاف لا لون له في الأصل، فلما اختلط بالأجزاء الأرضية تكاثف. واختلف الحكماء فيه: هل هو مغذٌّ للأبدان، أم لا؟! وجعل - تعالى - الماء المحيط بالأرض مالحًا، لما فيه من مصالح العالم، فإنه بملوحته يصفّي الجوّ من وخم العفونات، التي تطرأ فيه من أبخرة الأرض وأنفاس العالم. فإن الأرض إذا خالطها الماء، وكثرت عليها الحرارة بما تعطيه الكواكب والشمس من الأشعة، فإذا قويت الحرارة على الرطوبة صعدت بها بخارًا علوًّا، فمن هناك يكون التعفين في الجوّ، فيذهب ذلك التعفين، ما في ماء البحر من الملوحة، فيصفو الهواء الذي يستنشقه كلُّ متنفس. وجعل - تعالى - لبقاع الأرض في الماء حكمًا، فجعل من الأرض سباحًا تعطي ماءً مالحًا، وأخرى تعطي ماءً مرًا، وأخرى تعطي ماءً زعاقًا، وأخرى تعطي ماءً عذبًا فرائنا. وأصل ذلك كله ممّا أعطى الماء الأرض من الرطوبة، وأعطاهها الهواء من الحرارة، حكمة إلهية، فالعذب لمصلحة الشرب، والملح لمصلحة إذهاب العفونات. وكلُّ ما ينزل من المعصرات فإنما هو من بخارات الرطوبات التي تصعد من الأرض. ألا ترى البخار الصاعد من الأنهار والبحار يصعد من الأرض ومن البحر، يطلب ركنه الأعظم، فيستحيل ماء، ويلحق بعنصره منه على قدر ما سبق في علم الله من ذلك؟! فجعل - تعالى - صعود البخار من الماء، وهو ماء استحالة هواء، يسمّى بخارًا ليقع الفرق بين الهواء الأصلي والهواء المستحيل. ثم يصير غمامًا متراكمًا، ثم ينزل ماء، كما كان أوّل مرّة، فعاد إلى أصله الذي خرج منه، ثم يعود الدور، فهو دولا ب دائر أبدًا، منه يخرج إليه يرجع بعضه .

## ٢٠ - فصل في الهواء

ثم بعد الماء خلق الله - تعالى - ركن الهواء، وهو حار رطب ذو روح وعقل وعلم وتسييح، وهبويه تسييحه، وهو الأسطقس الأعظم، خلقه بعد الماء لمناسبة الماء من جهة الرطوبة، وهو أقرب الأركان نسبة إلى نفس الرحمن؛ فإن الهواء نفس العالم الكبير. وليس في الأركان أقرب من الهواء، لسرعة الاستحالة. وإذا تحرك الهواء سُمي ريحًا، ولا يكون له هذا الاسم إلا إذا تحرك، والهواء أقوى من الماء، وبه يجري الماء ويتحرك وينساب. والماء أقوى من النار، والنار أقوى من الحديد، والحديد أقوى من الجبال، والجبال أقوى من الأرض، ولا شيء أقوى من الهواء إلا الإنسان. إذا تصدق بصدقة فأخفاها، حتى لا تعلم ما أنفقت يمينه؛ كذا ورد في خبر بمعناه، أخرجه الترمذي، والمراد من ذلك أنه ملك هواه، وجعله مقهورًا تحت حكم شرعه وعقله، ويركن الهواء حياة العالم، كما أن الماء أصل صور العالم. فصورة الهواء من الماء، وروح الماء من الهواء؛ فلو سكن الهواء لهلك كل متنفس، وكل شيء في العالم متنفس؛ لأن كل شيء في العالم ذو روح، والروح نفس. فلولا الهواء ما نطق ناطق ولا صوّت مصوت. ولو منع الحيوان التنفس - وهو إخراج الهواء وإدخاله - لمات من ساعته، فبالهواء حياته، وباحتباسه موته. فإن القلب يحرقه الهواء بسخونته وباحتباسه، وخلق تعالى الهواء لطيفًا ليقبل سرعة الحركة، فإن المتنفس يحتاج في وقت إلى نفس كثير، وفي وقت إلى نفس قليل. وإذا كان الهواء ريحًا بتحركه انقسم إلى أربعة: شمال، وهي ما بين الجدي إلى مطلع الشمس. وجنوب، وهي ما بين مطلع الشمس إلى سهيل وصبأ، وهي ما بين مطلع الثريا إلى بنات نعش. وذبور، وهي ما قابل الصبا. أخرج أبو الشيخ، عن الحسن البصري، قال: جعلت الرياح على الكعبة، فإذا أردت أن تعلم ذلك فأسند ظهرك إلى باب الكعبة؛ فالشمال عن شمالك، وهي مما يلي الحجر، والجنوب عن يمينك، وهي مما يلي الحجر الأسود. والصبأ قبلك، وهي مستقبل باب الكعبة، والذبور من دبر الكعبة، ومن الريح رياح لواقع، وهي التي تعطي صورًا: مثل التي تشعل النار، وتلقح الأشجار... أخرج ابن جرير في تفسيره، أنه - ﷺ - قال: «الريح الجنوب من الجنة، وهي من اللواقع، وفيها منافع للناس».

وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس، قال: «ما راحت جنوب إلا سال وإد مما رأيتموه أو لم تروه».

وأخرج عن قيس بن عباد قال: «الشمال ملح الأرض».

وفي صحيح البخاري عنه رضي الله عنه قال: «أُصِرَّتْ بِالصِّبَا».

ومنها ريح عقيم، وهي كل ريح تذهب الصور، كالتي تطفىء السرج، وتهلك النبات، وتعقم الأشجار، وتضرّ الحيوان. ففي صحيح البخاري: «أهلكت عاد بالدبور».

وأخرج ابن المنذر، عن عبد الله بن عمرو، قال: الريح ثمان، أربع منها رحمة، وأربع منها عذاب. فأما الرحمة فالناشرات والمثيرات والمرسلات والذاريات. وأما العذاب: فالعقيم، والصرصر - وهما في البر - والعاصف والقاصف - وهما في البحر - والريح واحدة في العين، وما هي واحدة؛ لأن صورتها تتجدد في كل نفس، كسائر صور العالم. وفي ركن الهواء يتكوّن ويوجد البرد والثلج والجليد والسحاب والمطر والضباب والظل والصقيع، وتكوينها في الجبال التي ذكر الله في قوله:

﴿وَيُنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مِزَّابًا فِيهَا مِنْ بَرَدٍ﴾ [التور: الآية ٤٤٣].

ومادة ذلك ونشؤه بإرادة الله - تعالى -، من الأبخرة المركبة من الماء والهواء، المرتفع بحرّ الشمس والكواكب؛ فالبخار المتصاعد قد تلطّف الحرارة أجزاءه المائية، فيصير هواء. وقد يبلغ الطبقة الزمهرية، فيتكاثف، فيجتمع سحابًا، ويتقاطر مطرًا إن لم يكن البرد شديدًا، فإن أصابه برد شديد، قبل تشكّل القطرات نزل ثلجًا. وخالف بعض أهل الكشف فقال: الثلج ليس هو مما يصعد من الأرض، وإنما هو من البحر المحيط بالأرض، وهو محمول بالقدرة الإلهية، فإن أصاب المطر برد شديد بعد تشكّله قطرات نزل بردًا صغيرًا، إن كان من سحاب بعيد، لذويان الزوايا بالحركة والاحتكاك، وإلا فكبيرًا غير مستدير. ولا يكون البرد إلا في الهواء الربيعي غالبًا، أو الخريفي، لفرط التحليل في الصيفي، والجمود في الشتوي. وأما الرعد فسببه هبوب الهواء، يصعد أسفل السحاب إذا تراكم، فيحدث من تمزيقه ومصاكته صوت، وهو تسييح الله - تعالى -؛ إذ كل صوت في العالم تسييح. وقد ورد في خبر أخرجه الإمام أحمد أن الرعد ملك، وهذا الملك مخلوق من الهواء، كالملائكة المخلوقين من أنفاس بني آدم. وفي ذلك الوقت يوجد الله، فيعينه نفس صورته، وتذهب صورته وتبقى روحه تسبح الله - تعالى - دائمًا. وأما البرق فهو نارية لطيفة وهواء مشتعل، تحدّثه الحركة الشديدة في الهواء. وذلك أن السحاب يتقل بالماء فينزل، كما صعد أولًا بالحرارة، فيحكّ وجه الأرض فتقوى حرارة الهواء الذي فيه، فيطلب الصعود إلى

عنصره، فيجد السحاب مترامًا فيمنعه، فيشتعل الهواء فيخلق الله منه ملكًا سماه برقًا. ثم ينطفي فتزول صورته ويبقى روحه. ولا بدُّ أن يكون بعد البرق رعد غالبًا، لحكمته تعالى، وخلقته. وأما الصواعق فهي أهوية محترقة لا شعلة فيها، فما نمر بشيء كثيف إلا أثرت فيه، لقوة الهواء ولطافته وتأديته. ومن عجيب أمر الصاعقة أنها تذيب الدراهم في الكيس ولا تحرق الكيس ولا تقطعه، وتقطع ذراع الإنسان ولا يخرج منه دم!! ونزلت في بلاد المغرب - ذَهَبَ عَنِّي أَيُّ سَنَةِ كَانَ - على رجل كان راكبًا فرسًا، لابسا برنصًا، ورأسه في قلنسوة البرنس؛ فقطعت رأسه، وما أثرت في قلنسوة البرنس شيئًا!! وفي هذا الركن تحدث حيوانات هوائية جويّة؛ لأن الرطوبة قد تغلب في الهواء، وتعطيه النار حرارة زائدة فيحدث في الجبال التي ذكر الله تعفين، فإذا تعفن من الهواء ما تعفن، كَوْنُ الله منه حيوانات.

## ٢١ - فصل في ركن النار

ثم خلق الله بعد الهواء ركنَ النار، المسمّى عند الحكماء بالأثير، وهو حارٌّ يابسٌ محيطٌ بكرة الهواء، خلقه الله - تعالى - مواليًا للسماء الدنيا، لتقابل حرارته برودة السماء الدنيا، فيندفع عن المولدات في الأرض ضرر بردها. وهذا الركن أوّل ركن قبل الأثير؛ لما دارت الأفلاك وأعطت الاستحالة في الأركان. وفي هذا الركن تحدث النجوم ذوات الأذنان، وسميت نجومًا كالنجوم الثوابت والدراري السّنة؛ لأن الكتل مأخوذ من نجم، إذا ظهر. وسبب ظهور النجوم ذوات الأذنان، ومادة تكوينها - بإرادة الخالق وقدرته - هو أن ركن النار متصل بركن الهواء، والهواء حارٌّ رطب، فيما في الهواء من الرطوبة، إذا اتصل بركن النار أثر فيه - للحركة - اشتعالًا في بعض أجزاء الهواء الرطبة. فما هو في ركن النار في الحقيقة، وإنما يحدث في الهواء، تشعله النار فتظهر الكواكب ذوات الأذنان. وذلك لسرعة اندفاعها، فتظهر في العين تلك الأذنان، فهي سريعة التكوين سريعة الاستحالة، كما نراها تتكوّن وتفسد في ثاني زمان تكوينها غالبًا، فما يلي العلوّ منها يطفيه برد السماء. وما يلي السفلى يطفيه الزمهير، وهو البحر المسحور، فمادتها ونشأتها من الهواء، فيه دخان غليظ، إذا وصل إلى كرة النار، كما يشاهد عند وصول دخان السراج (سراج منطف) إلى سراج مشتعل، فيسري منه الاشتعال. وكما نرى شرر النار إذا ضرب الهواء النار بالمروحة وغيرها، كالكبير تطاير منها شرر أمثال الخبوط في رأي العين. ثم تنطفي كذلك هذه الكواكب، جعلها الله - تعالى - بعد بعثة محمد - ﷺ - رجومًا

للسياطين، وكانت موجودة قبل بعثته - ﷺ - والذي حدث لها هو الرجم بها وكثرتها؛ لأنه بعثته - ﷺ - كانت في الميزان، وهو برج ريحي، فاشتعلت كرة النار اشتعالًا عظيمًا، وكثرت الاحتراقات في الأثير - وهو ركن النار والنجوم ذوات الأذنان - فعمرت كل مسلك في كرة النار، فضاقت المسالك عن الشياطين الذين يسترقون السمع، وما عرفوا علته ذلك فقالوا: إنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسًا شديدًا وشهبًا، وإنا كنا نقعد منها مقعد للسمع، فمن يستمع الآن يجد له شهبًا رصداً؛ لأن الشياطين - وهم كفار الجن - لهم عروج إلى السماء الدنيا يسترقون السمع، أي ما تقوله الملائكة في السماء، وتحدث به، مما أوحى الله به فيها. فإذا سلك الشيطان أرسل الله عليها شهبًا، ويبقى ذلك الضوء في أثره طريقًا، وقد يطول بقاؤه نادرًا أحيانًا ساعة فما دونها.

وما رأيت ليلة أكثر نجومًا ذوات أذنان، من ليلة سبع وعشرين من رمضان، سنة تسعة وثمانين ومائتين وألف. ابتداء ظهورها من وقت صلاة العشاء إلى الساعة الثامنة من الليل، بكثرة كأنها نيران بارود عساكر في حربها؛ فحيث توجه الإنسان إلى جهة من السماء يراها ممثلة من ذوات الأذنان. وكان ابتداء كثرتها إلى جهة الجنوب، ثم صار الجؤ كله يشتعل، فلا يطرف الإنسان طرفه إلا ويرى عددًا لا يتضبط. فقلت: ما هذا إلا لأمر عظيم سيكون. ومن عجيب ما رأيت أني ما رأيت واحدة قطعت المجرة، وإنما تخرج وتندفع إلى الأفق، وما يخرج من المجرة يذهب إلى الأفق طولًا، والله الأمر.

وقد يكون الهواء غليظًا لاختلاطه بأجزائه تصاعدت من الأرض، فلا يشتعل سريعًا، بل يحترق ويطول فيه الاحتراق فيبقى على صورة حية. وربما وقف تحت كوكب مسامت له، ويدور مع الكوكب في رأي العين. وقد شاهدناه أيام كنا بالمغرب، بقي يظهر لنا بعد الغروب ثم يغيب، قبل مضي الثلث الأول من الليل، نحوًا من شهر. فسبحان الفعّال لما يريد، المختار القادر، فإن قيل: قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾ [المُلك: الآية ٥].

فظاهر الآية، يعطي أن ذوات الأذنان في السماء الدنيا القريبى منّا، وأنها من المصابيح التي هي الكواكب، وأن الرمي بها، أي بالكواكب. . . فالجواب: أن ذوات الأذنان، لما كانت تظهر لنا في رأي العين كأنها السماء الدنيا منّا، كما تظهر لنا النجوم السيارة والثوابت كذلك، وأين الثوابت من السيارة؟ وأين السيارة من السماء



الدينيا؟ فأخبرنا تعالى على حسب ما تدركه أبصارنا ويعتقده الجمهور مثلاً. فاسم المصاييح يعُمُ السيارة والثواب وذوات الأذنان، لكون الجميع مضيئاً، والرجم خاص بذوات الأذنان، ممّا دخل عموم المصاييح. وأمّا النجوم السيارة والثواب فهي في أفلاكها لا تبرح ولا يرمى بها ولا تزول ولا تفسد إلى يوم القيامة، فالضمير في قوله: ﴿وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا﴾ [المُلْك: الآية ٥] يعود على ذوات الأذنان، باعتبار أنها مصاييح، وباعتبار أنها تظهر كأنها في السماء الدنيا من الناس، كما تظهر النجوم السيارة والثواب، فهذا التركيب مثل قوله:

﴿وَرَحِمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا﴾ [الأعراف: الآية ١٥٦] الآية.

فالضمير في قوله: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا﴾ [الأعراف: الآية ١٥٦] عائد على الرحمة الخاصة، من حيث أن مسمّى الرحمة يشمل الرحمة العامة والخاصة والذاتية والأسماوية، وما ذكرناه في الأركان الأربعة الأرض والماء والهواء والأثير وكائنات الجو، ممّا قال به الحكماء هو ممّا وافق فيه الحكماء أهل الله أهل الكشف والوجود. وورد في بعض الأخبار - وإن كانت ضعيفة - فلا تلتفت إلى قول من يقول: هذه آراء الحكماء الفلاسفة، وهي مبنية على نفي الفاعل المختار، فإنه قول أهل الجمود، فليست آراء الحكماء كلها باطلة، فلا ينكر كل ما قالته الحكماء إلا بسيط محجوب عن الدقائق والرفائق، فإن للحكماء إصابات عجيبة لا ينكرها منصف.

ثم بعد ما خلق الله الأركان ونظمها خلق السموات.

## ٢٢ - فصل في خلق السموات

ثم بعد ركن النار خلق الله الدخان، وذلك أنه تعالى كسا الهواء صورة النحاس، وهو الدخان. قال:

﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ﴾ [الرَّحْمَن: الآية ٣٥].

أي: دخان، فمن ذلك الدخان خلق سبع سموات طباقاً. قال تعالى:

﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾ [فُضِّلَتْ: الآية ١١].

وكانت حينئذ السموات رتقاً ففتقها، أي فصل كل سماء على حدة، بعد ما كانت رتقاً، أي واحدة، دخاناً، أخرج ابن جرير عن ابن مسعود قال: «إن الله كان عرشه على الماء لم يخلق شيئاً قبل ما خلق غير الماء. فلما أراد أن يخلق الخلق، أخرج من الماء دخاناً، فارتفع فسماه سماء» الحديث.

فالسَّمَوَاتُ مادنها من العناصر الأربعة، فهي عنصرية. وكذا ملائكة السموات، فهم كلهم من الطبيعة العنصرية. فلما علا الدخان إلى فلك الثوابت فتق تعالى في ذلك الدخان السموات السبع، وأوحى في كل سماء أمرها، ورتب فيها أنوارها وسرجها، وعمرها بملائكته لعبادته. ففي صحيح البخاري: «أطت السماء، وحق لها أن تئط، ما فيها موضع قدم إلا وفيه ملك راعع لله أو ساجد».

خلق - تعالى - السموات بعد ما خلق الأرض، وقدّر فيها أقواتها. قال تعالى: ﴿خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ [فُضِّلَتْ: الآية ٩].

إلى أن قال: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾ [فُضِّلَتْ: الآية ١٠].

إلى أن قال: ﴿ثُمَّ أَسْوَوْنَا إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾ [فُضِّلَتْ: الآية ١١].

خلق تعالى أجسام السموات شفافة، لا تحجب ما وراءها. ولولا ذلك ما أبصرنا الثوابت ولا السيارة، ما عدا القمر، فإنه في السماء الدنيا، وجعل تعالى السموات على الأرض كالقباب، على كل أرض سماء، أطرافها عليها نصف كرة، والأرض لها كالبساط. سماء أولى عليا على أرض سفلى. وهكذا كل سماء على أرض، إلى سبع سموات وسبع أرضين، وهذا خلاف ما يقوله أهل الأرصاد من الحكماء، أخرج أبو الشيخ، عن إياس بن معاوية قال: السماء مقببة مثل القببة، وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي قال: بناء السماء على الأرض كهيئة القببة. وخلق - تعالى - في كل سماء كوكبًا، وهي الجواري السبعة. ثم اعلم: أن السموات مستقرة ثابتة ساكنة غير متحركة الحركة التي توهمها أصحاب الرصد. وأن كل سماء متحركة بكوكبها، وإنما حركة السموات كحركة الأرض رحوثة في حيزها؛ لأنه تعالى دعاهما فقال لهما:

﴿أَتَيْنَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا لَطِيفِينَ﴾ [فُضِّلَتْ: الآية ١١].

فهما أتيان أبدأ، فلا يزالان متحركتين حركة خفية، طلبًا للكمال في العبودية، إلا أنه في كل سماء فلك، وهو الذي تحدته سباحة كوكب ذلك السماء؛ فالكواكب السيارة تسبح في أفلاكها. والأفلاك لولا سباحة الكواكب ما ظهر لها عين في السموات، فليست الأفلاك بأجسام مغايرة للسموات، كما توهمه كثير من أهل الأرصاد، والآخذين بظواهر الكتب والسنة، فهي أفلاك من حيث ما تحدته سباحة الكواكب. سموات من حيث عينها، فالأفلاك في السموات كالطرق في الأرض، يحدث كونها طريقًا بالماشي فيها، فهي أرض من حيث عينها، طريق من حيث

الماشي فيها. ولكل كوكب في فلكه حركة طبيعية، ولكل حركة طبيعية، في كل فلك، يوم مخصوص يعدُّ مقداره بالأيام الحادثة عن الفلك الأطلس المحيط، وهي التي تعدُّها أيامًا، فكلما قطع كوكب في فلكه، الفلك المحيط على الكمال كان يومًا لذلك الكوكب في فلكه. ويدور الدور، فلكل كوكب من السيارة يوم مقدر، يفضل بعضها على بعض، بقدر سرعة حركاتها الطبيعية، أو صغر أفلاكها أو كبرها. ويقطع هذه الأفلاك بكواكبها في الفلك المحيط وفلك الثوابت يحدث الله عند قطعها وسيروها ما شاء أن يحدث من العالم العنصري. وجميع الكواكب السيارة وغيرها هي صور أرواح ملكية تدبرها، فأرواحها تفعل، كما أن الإنسان بروحه يفعل. وجعل - تعالى - في كل سماء روحانية نبيًا من الأنبياء، كما أنه - تعالى - جعل في كل إقليم من أقاليم الأرض السبعة، بدلًا يمسك الله وجود ذلك الإقليم به، يستمد ذلك البدل من روحانية نبي من الأنبياء السبعة، في السبع سموات، خلق - تعالى - السماء الأولى والثالثة على طبيعة واحدة، وهي البرودة والرطوبة. وخلق الرابعة والخامسة على طبيعة واحدة وهي الحرارة واليبوسة. وخلق السماء الثانية ممتزجة، وخلق السماء السادسة حارة رطبة، وخلق السماء السابعة باردة يابسة.

وأول ما أوجد الله - تعالى - من السموات السماء الدنيا، أي القربى منّا.

### ٢٣ - فصل في السماء الدنيا

خلق الله - تعالى - السماء الدنيا يوم الاثنين، كما ورد في الخبر<sup>(١)</sup>. وجعل كوكبها القمر، ويعبر عنه بعض سادة القوم بالإنسان المفرد، وهو مسكن الملك الموكل بهذه السماء. فهي له كالقلعة لسكن الملك. ونور انقصر من نور الشمس، كسائر السيارة، ونوره يزيد وينقص بالنسبة إلينا، لا بالنسبة إلى ذاته، فإنه بالنسبة إلى ذاته بدر دائمًا ومُحاق دائمًا. فبقدر ما ينقص من وجهه الذي إلينا، وهو وجهه الظاهر يزيد في وجهه الآخر، وهو وجهه الباطن؛ كالليل والنهار، فما ينقص من النهار يزيد

(١) ولفظه: عن أبي بكر رضي الله عنه قال: وجاء اليهود إلى النبي فقالوا: يا محمد أخبرنا ما خلق الله من الخلق في هذه الأيام الستة، فقال: خلق الله الأرض يوم الأحد والاثنين، وخلق الجبال يوم الثلاثاء، وخلق المدائن والأقوات والأنهار وعمرانها وخرابها يوم الأربعاء، وخلق السموات والملائكة يوم الخميس إلى ثلاث ساعات يعني من يوم الجمعة، وخلق في أول ثلاث ساعات: الآجال، وفي الثانية الألفة على كل شيء مما ينتفع به الناس، وفي الثالثة آدم، قالوا: صدقت إن تمت فعرف النبي ما يريدون فغضب، فأنزل الله: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِنْ لَيْلٍ وَلَا نَهَارٍ﴾ (٣٨) قَامِرٌ عَلَىٰ مَا يُقُولُونَ ﴿٣٩﴾ (ابن جرير في التفسير) (و(جامع الأحاديث والمراسيل ج ١٨ ص ٢٤٨).

في الليل، وما ينقص من الليل يزيد في النهار. واليوم الذي هو مجموع الليل والنهار ما زاد ولا نقص، فهو أربع وعشرون ساعة دائماً. وأسكن - تعالى - هذه السماء روحانية آدم - عليه السلام - والبدل الذي يحفظ الله به الإقليم الأول من الأرض على قدم آدم - عليه السلام - وآدم هو المسمّى بالإنسان المفرد. وقد ورد في الصحيح أن رسول الله - ﷺ - وجدته ليلة أُسري به في هذه السماء، وعن يمينه وشماله نسمة بنيه السعداء والأشقياء. فإذا نظر قِبَل يمينه ضحك، وإذا نظر قبل شماله بكى<sup>(١)</sup>. ووجه المناسبة بين آدم - عليه السلام - وبين هذه السماء وكوكبها هي سرعة التغير والتقلب. فإن الإنسان كثير التقلب والتغير في خواطره في باطنه. قال بعض المراقبين من أرباب القلوب: إنه في اليوم واللييلة يتغير الإنسان سبعين ألف مرة من خاطر إلى خاطر، وهذا الفلك سريع الحركة، فإن أسرع الحركات الفلكية حركة فلك القمر؛ لأنه يقطع الفلك المحيط في ثمانية وعشرين يوماً. وليس هذا لغيره من الأفلاك؛ فلهذا كان ظهور الآثار في الكون سريعاً، لسرعة حركته. وله كل حكم يظهر في العالم في الأجسام والأرواح؛ فكل أثر علوي في الهواء والنار فمن سباحة القمر. وكل أثر سفلي في عنصر الماء والتراب فمن حركة فلك السماء الدنيا. وكل أمر علمي يكون يوم الاثنين؛ فمن روحانية آدم - عليه السلام - وروحانية القمر هي المسمّاة عند الحكماء بالعقل العاشر، العقل الفعال، وهو كغيره من السيارة، يقطع في الفلك المحيط ليتحصّل من خزائن البروج، التي هي تقديرات في الفلك المحيط الأطلس، ومن الملائكة الموكّنين بالخزائن من علوم التأثير ما تعطيه حقيقة كل كوكب. والقمر متحرّك بالإرادة كغيره من الكواكب، كتحرك الإنسان في الجهات، التحرك الإرادي؛ لأنها مكلفة عاقلة عالمة مأمورة؛ كما قال - ﷺ - في ناقته: «دعوها فإنها مأمورة»، رواه البخاري، وقال في الشمس: «إنها تستأذن كل يوم في الطلوع فتطلع، ويوشك أن تستأذن فلا يؤذن لها»<sup>(٢)</sup>.

ويقال لها: ارجعي من حيث جئت، فالجواني تريد في حركاتها أن تعطي ما في سمواتها من الأمر الإلهي، الذي يحدث أشياء في الأركان والمولدات الأربعة،

(١) رواه البخاري في صحيحه كتاب الصلاة، حديث رقم (٣٤٩). ورواه مسلم في صحيحه كتاب الإيمان، باب الإسرائاء برسول الله ﷺ إلى السموات وفرض الصلوات، حديث رقم (٢٥٩) - (١٦٢).

(٢) رواه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب صفة الشمس والقمر، حديث رقم (٣١٩٩).

وليس في الأفلاك أصغر من فلك القمر، أعني سماؤه. ولصغره كان أسرع دورة. جعل الله - تعالى - هذه السماء على طبع الماء باردة رطبة، فكان بينها وبين ركن النار، الذي هو الأثير منافرة حكمة بالغة، حتى لا تستحيل نازًا، فيبطل ما يراد به مما يهب الله المولدات والصور عند حركاتها في عالم الأركان. ولولا أنه - تعالى - جعل كرة الأثير بينها وبين الأرض ما تولد نبات ولا حيوان لشدة بردها. فلما دار هذا الفلك دورة قسرية فصل مكانه من الجسم الكل، فظهر الهواء بينه وبين الذي فوقه، وهكذا الأمر في كل سماء من السبع سموات.

## ٢٤ - فصل في السماء الثانية للسماء الدنيا

ثم خلق الله السماء الثانية، وجعل كوكبها عطاردًا، وهو الكاتب، ويومه المتعلق به هو يوم الأربعاء، وهو يوم النور، يوم عطارد. وكل أثر علوي في عنصر الهواء والنار في هذا اليوم فمن روحانية عطارد. وكل أثر سفلي في ركن الماء والتراب في هذا اليوم فمن حركة فلك هذه السماء. وكل أمر علمي في هذا اليوم فمن روحانية عيسى؛ فإن الله أسكنه هذه السماء الثانية، ومنه يستمدّ البذل الذي يحفظ الله به وجود الإقليم الثاني. والمناسبة بين هذه السماء وبين عيسى - عليه السلام - هي كون هذه السماء هي حضرة خرق العوائد والإعجاز. وعيسى - عليه السلام - نشؤه خرق عادة، وكلامه في المهد خرق عادة، وإحيائه الموتى خرق عادة؛ فهو في نفسه وفي أحواله خرق عادة. ومن أمر عيسى يعرف العارف الاستحالات الحسية والمعنوية، وكيف يصير الكثيف مثل الماء والتراب وجسد الإنسان، لطيفًا مثل الهواء والنار. واللطيف مثل النار والهواء والملك، كثيفًا مثل الماء والتراب والإنس؛ فإنه - عليه الصلاة والسلام - لما تجسد الروح جبريل لأمه، فكان ذلك عبارة عن تكثف اللطيف. ثم رفعه إليه حينًا إلى السماء الثانية بجسده؛ فكان ذلك عبارة عن تلطف الكثيف. ثم يترك من السماء إلى الأرض، كما ورد في الأخبار الصحيحة المتواترة، وهو عبارة عن تكثف اللطيف، ثم يموت، وهو عبارة عن تلطف الكثيف، بل العالم كله مستحيل من لطيف إلى كثيف، ومن كثيف إلى لطيف. فمن أدرك الأمر وكشف له عن هذا السر، عرف كيفية عروج رسول الله - ﷺ - بجسده الشريف من الأرض إلى السموات، سماء بعد سماء، إلى الكرسي إلى العرش، إلى أن جاوز جميع الأجسام الحسية، ثم الأجسام الروحية، ثم الأمور المعنوية، إلى حيث لا حيث، وذلك عبارة عن تلطف الكثيف بحسب كل مرتبة؛ فإن اللطائف متفاوتة في اللطافة. ثم رجع على

طريقه إلى ما منه عرج، وذلك عبارة عن تكثف اللطيف، بحسب كل مرتبة، فإن الكثافت متفاوتة في الكثافة. فكلما وصل العارج إلى مرتبة انصبغ بحكمها، كانت ما كانت. وكلما وصل إليها هابط إلى مرتبة انصبغ بحكمها كذلك. وكيف يستبعد عروجه - ﷺ - بجسمه الشريف مستبعد، وينكره منكر، وهو يرى نفوذ الشعاع البصري - وهو جسم - في كرة الزجاج إلى ما هو داخلها من الألوان؟! وكذا القول في إدريس - عليه السلام - إذ رفعه الله بجسده إلى السماء الرابعة؟! وما أنكر حشر الأجساد مع الأرواح الذي وردت به الشرائع الإلهية إلا من لم يطلع على حقائق الأشياء.

### ٢٥ - فصل في السماء الثالثة

وهي باردة يابسة كالسما الدنيا، جعل - تعالى - كوكب هذه السماء الزهرة، ويومها يوم الجمعة، فكل أثر علوي يكون في ركن النار والهواء في هذا اليوم؛ فمن روحانية الزهرة، وكل أثر سفلي يكون في الماء والتراب في هذا اليوم؛ فمن حركة فلك الزهرة، وأسكن - تعالى - هذه السماء روحانية يوسف الصديق - عليه السلام - وكل أمر علمي يكون للعلماء بالله في هذا اليوم؛ فمن روحانية يوسف الصديق - عليه السلام - ومنه يستمد البذل الذي يحفظ به الإقليم الثالث. والمناسبة بين يوسف - عليه السلام - وبين هذه السماء؛ هي أن هذه السماء حضرة التخيل والتصوير والتمثيل. ويوسف - عليه السلام - كان من الأنمة في علم التخيل والتعبير، وذلك معلوم من الكتاب السنة.

### ٢٦ - فصل في السماء الرابعة

وهي حارة يابسة، جعلها - تعالى - قلب العالم، فإن تحتها سبع أكر: التراب والماء والهواء والسماء الدنيا، والثانية والثالثة. وفوقها سبع أكر: العرش والكرسي والأطلس وفلك البروج، وفلك الثوابت، وسماء زحل وسماء المشتري، وسماء مريخ، وجعلها قلب السموات، فإن فوقها ثلاث سموات، وتحتها ثلاث سموات؛ فلهذا سماها تعالى مكاناً علياً، فهو علو مكانة ورفعة لا علو مكان، فإن التي فوقها أعلى منها، وجعل كوكبها الشمس، وهو الكوكب الأعظم القلبي. ومن نور جميع الكواكب السيارة وغيرها، ونور الشمس ما هو من حيث عينها، بل هو من تجل دائم لها، من اسمه تعالى «النور» فما ثم نور إلا نور الحق - تعالى - والناس يضيفون النور إلى الشمس، ولا فرق بين الشمس والكواكب في ذلك، وإن نورها ليس لذاتها،



إلا أن التجلي من اسمه «النور» للشمس، على الدوام. فلا يذهب نورها إلى يوم القيامة، زمان تكويرها، قال تعالى:

﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾﴾ [التكوير: الآية ١].

وتكويرها إذهاب ضوئها، فإن ذلك التجلي النوري، يستتر عن أعين الناظرين بالحجاب الذي بينهم وبين الشمس. وبخلق الشمس في هذا الفلك؛ ظهر الليل والنهار، فقسّم اليوم بين ليل ونهار. وأما اليوم فإنه حدث بحركة الفلك الأطلس، ولم يكن ثمّ ليل ولا نهار، وكما تضيء الشمس على ما تحتها كذلك تضيء على ما هو أعلى منها. وكلُّ أثر علويّ يكون في عنصري الهواء والنار يوم الأحد، وهو يوم الشمس؛ فمن روحانية الشمس ونظرها. وكل أثر سفليّ يكون يوم الأحد في عنصري التراب والماء، فمن حركة الفلك الرابع، فلك الشمس، وأسكن تعالى هذه السماء إدريس - عليه السلام - فكلُّ أمر علمي يكون يوم الأحد، يوم الشمس، للعلماء بالله؛ فمن روحانية إدريس - عليه السلام - والمناسبة بين إدريس - عليه السلام - وبين هذه السماء هي القطبية، وعلو المكانة؛ فإنه تعالى أخبر أنه رفع إدريس مكاناً عليّاً، وهو السماء الرابعة، فإنها قطب الأفلاك، وعليها تدور رحاها. وإدريس - عليه السلام - هو قطب الوجود العلوي والسفلي، وعليه تدور أرواحه وصوره، فهو مظهر حقيقة محمد، ونائبه. فالقطب خليفة الله في الأرض، أي أرض الإمكان. ولا بدّ أن يكون الخليفة على صورة من استخلفه، فيظهر بأسمائه وصفاته على الكمال، والخلافة مخصوصة بهذا النوع الإنساني، خصّه الله بها منّة وفضلاً. ولا بدّ أن يكون موجوداً بجسده وروحه، فروحه قطب الأرواح، عليه تدور، وهو يمدّها، ويدبّرها الأرواح العلوية والسفلية. وصورته قطب الصور، عليه تدور، وهو يمدّها ويدبّرها الصور العلوية والسفلية، فهو مجلى الحق - تعالى - من آدم إلى يوم القيامة. ولما كان القطب على صورة الحق - تعالى -، لم يصح أن يكون أزيد من واحد في كل زمان:

﴿لَوْ كَانَ فِيمَا ءِلهٖ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: الآية ٢٢].

ولما كان إدريس - عليه السلام - هو القطب لم يصح أن يموت؛ لأن الله حي لا يموت، وهو المستثنى في قوله:

﴿فَصَبَقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللهُ﴾ [الرؤس: الآية

فإدريس نائب محمد - ﷺ - على قلبه، كما أن الأقطاب في كل زمان، نواب إدريس - عليه السلام - وخلفاؤه؛ فجميع الأقطاب التي تأتي وتذهب وتتوارث القطبية، كما هو معروف عند أهل هذه الطريق هم نواب إدريس - عليه السلام - ولا يعرف أحد هذا من الأولياء، سوى التواب عند نيابتهم.

## ٢٧ - فصل في السماء الخامسة

وهي حازة يابسة، جعل - تعالى - كوكب هذه السماء الأحمر مريخ، ويومها الثلاثاء. فكل أثر علوي يكون يوم الثلاثاء في عنصري الهواء والنار؛ فمن روحانية الأحمر. وكل أثر سفلي في عنصري الماء والتراب، يكون يوم الثلاثاء، فمن حركة فلك الأحمر. وأسكن تعالى هذه السماء روحانية هارون - عليه السلام - فكل أمر علمي يكون للعلماء بالله يوم الثلاثاء؛ فمن روحانية هارون - عليه السلام - ومن روحانيته يستمد البدل، الذي يحفظ الله به الإقليم الخامس. والمناسبة بين هارون - عليه السلام - وبين هذه السماء أنها سماء اللين والتؤدة والرحمة. وأخبار هارون وظهوره بهذه الصفات مشهور مسطور في التواريخ والكتب القديمة. وهارون - عليه السلام - كان خليفة موسى ووزيره. والوزير هو الذي له تدبير المملكة وسياسة الرعايا. ولكون هارون - عليه السلام - كان له علم القربان بذبح الحيوان، كانت الكهونة، وهي تولية القرايين، مخصوصة ببني هارون دون سائر بني إسرائيل، أيام استقامة بني إسرائيل.

## ٢٨ - فصل في السماء السادسة

وهي حازة رطبة، جعل - تعالى - كوكب هذه السماء البرجيس، ويسمى المشتري، كما يسمى بهرام، ويومها الخميس. فكل أثر علوي في عنصري الهواء والأثير، وهو النار في يوم الخميس؛ فمن روحانية البرجيس، وكل أثر سفلي يكون في عنصري الماء والتراب يوم الخميس، فمن حركة فلك البرجيس. وأسكن تعالى هذه السماء روحانية موسى - عليه السلام -، فكل أمر علمي يكون للعلماء بالله يوم الخميس؛ فمن روحانية موسى - عليه السلام - ومنه يستمد البدل الذي يحفظ الله به أهل الإقليم السادس. والمناسبة بين موسى - عليه السلام - وبين هذه السماء أنها سماء الغيرة، وسماء علم خلع الصور من الجوهر واللباسه صوراً غيرها. وموسى - عليه السلام -، كان مظهر الاسم الغيور، كما علم من أخباره، وفهم من آثاره. فقد نقل أنه - عليه السلام - كان إذا غضب - ولا يغضب إلا الله -

اشتعلت قلنسوته نازًا من قوة غضبه لله. وكانت آيته خلع الجوهر صورة العصا وإلباسه صورة الحيّة. وخلع الجوهر الصورة التي تكون لِيَدِهِ، وإلباس اليد صورة بيضاء من غير سوء ولا برص ولا عاهة، ليعلم موسى ومَن شاء من عباد الله، أن الحقائق لا تنقلب، وإنما الإدراكات تتعلق بالمدركات، تلك المدركات لها صحيحة لا شكّ فيها؛ لأنّ القوّة البصرية أعطت ما فيها، فيتخيّل من لا علم له بالحقائق أن الحقائق انقلبت، وما انقلبت، وإلى هذا إشارة عليم الأسود في قصته المشهورة المتقدمة الذكر في قوله: «يا هذا، إن الأعيان لا تنقلب، ولكن لحقيقتك بربك تراها هكذا»، يعني حقيقتك مع ربك. فالباء بمعنى مع، أي من حقيقتك أنك ترى ربك تبدّل عليه الصور بحسب الاعتقادات والتجليات التي يتجلّى بها عليك، وهو واحد العين. ولا يمكن أن تراه إلّا كذلك؛ فإنه الأمر الذي اقتضته حقيقتك. كما رأيت الجوهر الذي تبدّلت عليه الصور الحجرية والذهبية، وهو واحد، كما ترى النور إذا ضرب في الزجاج مختلف الألوان، والنور واحد العين ما تلوّن ولا اختلف والألوان ظاهرة الاختلاف، ولا تشكّ فيها، ولا يمكن أن تراه إلّا هكذا:

العين واحدة والحكم مختلف      ويدرك العلم ما لا يدرك البصر

## ٢٩ - فصل في السماء السابعة

وهي باردة يابسة، جعل الله كوكب هذه السماء زحل، ويسمى المقاتل، ويسمى كيان، ويومها السبت، فكل أثر علوي في عنصري الهواء والنار يكون في يوم السبت؛ فهو من روحانية زحل. وكل أثر سفلي يكون في عنصري الماء والتراب يكون في يوم السبت؛ فمن حركة فلك زحل. وأسكن - تعالى - هذه السماء روحانية إبراهيم الخليل - عليه السلام - فكل أمر علمي يكون للعلماء بالله يوم السبت؛ فمن روحانية الخليل - عليه السلام - ومنه يستمد البدل، الذي يحفظ الله به أهل الإقليم السابع. ووجه المناسبة بين هذه السماء والخليل - عليه السلام - هو أنه من هذه السماء؛ يعلم أن ملة الخليل - عليه السلام - هي الملة السمحاء، لا ضيق فيها ولا حرج، وهي ملة محمد - ﷺ - قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: الآية ٧٨].

وقال: ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الحج: الآية ٧٨].

فكلُّ شيءٍ فيه ضيقٌ وحرَجٌ على المكلف فليس هو من دين محمد - ﷺ - ولا من ملته، ولا جاء به. وكل ما كان فوق الاستطاعة فهو حرج، فليس من الدين. ومن المرجحات عند أهل الله - تعالى - الذين تعدُّوا على قواعد الشريعة المحمدية أن يكون أحد القولين والدليلين أسمعَ وأسهلَ من مقابله، فيترجح بذلك على ما هو أصعب وأضيق. فاحفظ هذه القاعدة، واعمل عليها، على أي مذهب كنت. وإن خالفت الفقهاء الذين حجروا على أمة محمد - تعالى - ما وسع الله به عليهم، فضيقَ الله عليهم أمرهم في الآخرة، وشدَّد عليهم المطالبة والمحاسبة يوم القيامة؛ لكونهم شدُّدوا على عباد الله - تعالى - أن لا ينتقلوا من مذهب إلى مذهب في نازلة، طلبًا لرفع الحرج. واعتقدوا أن ذلك تلاعب بالدين، وما عرفوا أنهم بهذا القول مرقوا من الدين. بل شَرَّخَ اللهُ أوسع، وحكمه أجمع وأنفع. وهذه السماء أيضًا سماء الثبات في الأمور، ولا أثبت من الخليل - عليه السلام -، فإنه ثبت على قوله: «حَسْبِيَ اللهُ» حين رمي بالمنجنيق في النار، حضر إليه جبريل - عليه السلام -، فقال لإبراهيم الخليل: هل لك من حاجة؟ فقال إبراهيم: أمَّا إليك فلا. فقال: إلى من؟ قال: إلى الله، هكذا ورد في الأخبار النبوية؛ ولذا قال بعض سادة القوم في قوله:

﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ [التغيم: الآية ١٣٧]. يعني بقوله: «حَسْبِيَ اللهُ».

أ - تنبيه:

وما قدَّمناه من اختصاص كل نبيِّ بسماء، هو على أحوالهم ومراتبهم التي كانت مجالي أحكام هذه السموات؛ فمن كان الغالب عليه ظهور تجلٍّ مخصوص أضيف إليه. ولا نشكُّ أن أشباحهم مدفونة في الأرض إلا من رفع حيًّا، وهما: إدريس وعيسى - عليه السلام - وأرواحهم ليست بمتخيِّزة.

ب - تنبيه:

السموات السبع والدراري لا ترى أعيانها للبعد المفرط، فرؤيتها بالأبصار غير ممكنة عادة؛ فقد ورد في الخبر: «بين سماء الدنيا والأرض سبع طباق، بين كل طبقتين بضع وسبعون سنة»<sup>(١)</sup>.

(١) هذا الحديث لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع.

فيكون بين سماء الدنيا والأرض خمسمائة سنة والزرقة التي نراها جهة السماء هي أدخنة وأبخرة، أشرقت عليها أشعة الشمس والكواكب. وأما الدراري والكواكب الثابتة فإنما نرى الشعاعات التي تنبعث منها إلى جهتنا؛ فإن السموات وما تحتها من الأكر شفاقة لا تحجب ما وراءها، ولجميع الأكر والسموات وما فوقها وما تحتها خاصة، ولكل خاصية صبغة، فلا يدخل شيء في تلك الأكر إلا إن صبغ بصبغة خاصيتها، فلو قدرت حجراً قذف من الأرض علواً، حتى وصل إلى الأكرة التي تلي الأرض؛ لانصبغ وتلطّف بلطافة ما دخل فيه. وكلما رقي إلى أكرة تلتطف بتلطّفها، حتى ينتهي إلى منتهى الدوائر الجسمانية، ولو أن روحانياً نزل من العرش - على لطافته - إلى الكرسي لتكاثف بحسب ما نزل إليه. وكلما نزل تكاثف، إلى منتهى أكرة التكاثف. ومن ثمّ تسرى الأجرام، فتتروحن وتنفذ في الأجرام السموية، نفوذ الشعاع البصري في كرة الزجاج، حتى تتصل بما في باطنها، من غير أن تفرق اتصالاتها تلك الكرة، وتنزل الروحانيات فتتجسّم بتكاثفها، حتى يكون الروح الذي هو أطف الأشياء بشراً سوياً. وبهذا تفهم إسرائه - ﷺ - بجسمه، إلى فوق العرش المحيط.

### باب في الاستحالات

فكلمات كملت هذه الأركان والأفلاك، على الترتيب الذي ذكرناه، ودارت الأفلاك الأحد عشر وتحركت، ومنها ما حركته معنوية، وهي الآباء العلويات، وتحركت الأركان الأربعة بتحريكها، وهي القوابل والحوامل الأمهات السفليات، وأعطت الحركات في الأركان الحرارة، فسخن العالم؛ لأنه - تعالى - جعل لأنوار الكواكب أشعة متصلة بالأركان، تقوم اتصالاتها مقام نكاح الآباء والأمهات، والكواكب هي صور الأرواح، فبأرواحها تفعل؛ فالأرواح كلها آباء. والطبيعة الظاهرة الحكم بالأركان أمّ، لأنها محل الاستحالات، تتوجّه الأرواح على الأركان الأربعة القابلة للتغيير والاستحالة فتظهر فيها المولدات، وهي المعدن والنبات والحيوان والجان والإنسان - وهو أكملها - وقد أراد - تعالى - بحكمته وسابق علمه، أنه ما يوجد شيئاً إلا وللعقل الأول الذي هو القلم الأعلى، وللنفس الكلية التي هي اللوح المحفوظ، وللعنصر الأعظم الذي هو مادة الكل وحقيقته؛ توجّه خاص لما يريد - تعالى - إيجاده، فالعنصر الأعظم هو مادة الكل وحقيقته، توجّه خاص لما يريد - تعالى - إيجاده، فالعنصر الأعظم كنقطة الدائرة للعالم، والعقل الأول له كالمحيط. والنفس الكلية ما بينهما، وكما أن نقطة الدائرة تقابل محيط

الدائرة بذاتها؛ كذلك العنصر الأعظم يقابل بذاته جميع أفراد كرة العالم جزءاً جزءاً، فيوجد الله - تعالى - عند هذا التوجُّه توجه الأرواح والحركات ما يريد، فتوجد الصور الطبيعية العنصرية، فمن الصور ما لا نموُّ له، وهو المسمَّى نباتاً. وهذان النوعان بطنت حياتهما، وأخذ الله بأبصار أكثر الناس عنهما. ومنها ما لها نموُّ واعتداء، وظهرت حياته بالحركة الإرادية والإحساس، وهو المسمَّى حيواناً. وفي نفس الأمر والتحقيق، كلُّ صورة - كانت ما كانت - هي حيَّة نفخ الله فيها روحاً من أمره، ولا يمكن أن تكون صورة في العالم لا حياة لها ولا نفس ناطقة ولا عبادة ذاتية أو أمرية، سواء كانت الصورة ممَّا يحدثها الإنسان أو غيره من الحيوانات، أو غيرها، عن قصد وغير قصد. فما ثمَّ إلا حيٌّ لأن وجوده عين حياته، والوجود لا يتجزأ، وإن بطن بعض توابعه، وخفي عن الأكثرين بعض آثاره.

### ٣٠ - فصل في المعدن من المولدات الأربعة

فأول ما أوجد الله من المولدات من العناصر الجماد، وهو المعادن، وهو الذي بطنت حياته جملة واحدة، فلم تظهر إلا لأهل الإيمان، وأهل الكشف من أولياء الله. فالمسمَّى جماداً عندهم حيٌّ ناطق، ينطق وجودي، ذرّاك بإدراك وجودي؛ فالحياة سارية في جميع الموجودات. وكذلك النطق والإدراك والعلم، قال - تعالى -:

﴿وَأَنَّ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: الآية ٤٤].

وشيء: نكرة، ولا يُسَبِّح إلا حيٌّ ناطق عالم بمن يسبح وبما يسبح، وقال:

﴿الَّذِينَ تَرَأَتْ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالْدَّوَابُّ﴾ [الحج: الآية ١٨].

فذكر الجماد والنبات، وهما اللذان بطنت حياتهما، إلى غير هذه من الآيات، وقد ورد في الصحيح تسبيح الحصى في كفه<sup>(١)</sup> - ﷺ - وورد في الصحيح أيضاً قوله - ﷺ - في جبل أحد: «هذا جبل يحبنا ونحبه»<sup>(٢)</sup>.

(١) رواه القاضي عياض، في الشفا بتعريف حقوق المصطفى، (ج ١ ص ١٨٩ - ١٩٠)، طبعة دار الكتب العلمية - بيروت.

(٢) رواه البخاري: كتاب الجهاد، باب فضل الخدمة في الغزو، حديث رقم (٢٨٨٩). ورواه مسلم، كتاب الحج: باب فضل المدينة، حديث رقم (٤٦٢ - ١٣٦٥).



وهل تكون المحبة إلا من حيّ عالم بالمحبة وبمن يحب؟! إلى غير هذا من الأخبار الصحيحة. وهذا كله ينكره غير المؤمن، ويؤوله المؤمن الذي غلب عقله إيمانه، اللهم غفرًا. ثم اعلم: أن الكلام والنطق المنسوب إلى الجماد والنبات والحيوان غير الإنسان، هو ما يحدث من ذلك الذي يريك إفهامك بما يريد الحق - تعالى - أن يفهمك، فيوجد فيك أثرًا تعرف منه ما في نفسه، ويسمى هذا كلامًا. كما أن العاقل من أي أصناف الإنسان كان، إذا أراد أن يوصل إليك ما في نفسه لم يقتصر في ذلك التوصيل على العبارة بنظم حروف. ولا بد، فإن الغرض من ذلك إنما هو إعلامك بالأمر الذي في نفس ذلك المعلم. فوقتًا بالعبارة اللفظية المنطوق بها في اللسان المستمأة قولًا وكلامًا. ووقتًا بالإشارة بيد أو برأس أو بما كان، ووقتًا بكتابة ورفوم، ويسمى هذا كلامًا؛ فليس المقصود من الكلام إلا إفهام السامع مراد المتكلم بما تكلم به، سواء كان المتكلم ممن ينسب إليه الكلام في العرف، كالطير والنمل، أو ممن ينسب إليه النطق والقول بالإيمان، كالأرض والسماء والجلود في قوله: ﴿قَالنَّا أَنِنَا طَاعِينَ﴾ [فُصِّلت: الآية ١٦].

وقوله في الجلود: ﴿قَالُوا أَنطَقَنَا اللهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [فُصِّلت: الآية ٢١].

أو ممن لا ينسب إليه قول ولا نطق ولا كلام في العرف، وهو الذي نسب إليه التسييح الذي لا يفقه، وما قال لا يسمع؛ إذ الكلام والقول هو الذي من شأنه أن يتعلّق به السمع والتسييح، لو كان قولًا أو كلامًا لنفى عنه سمعًا. وإنما نفى عنه فهمنا، وهو العلم، والعلم قد يكون عن كلام وقول. وقد يكون بما أراد الله أن يعلم عبده، وقد قال تعالى: ﴿أَخْرَجْنَا لَهُم دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ﴾ [النمل: الآية ٨٢].

وكلامها المنسوب إليها - في العموم - إنما هو نفخها في وجوه الناس الموجودين على وجه الأرض شرقًا وغربًا، برًا وبحرًا، فيرتقم في جبين كل أحد، ما هو عليه في علم الله، من إيمان وكفر. بهذا ورد الخبر النبوي، وجميع المعادن، على تنوع أجناسها تنحصر في خمسة أقسام؛ فإنها إن كانت قوية التركيب وتطرقت فهي المعادن السبعة، الذهب والفضة، والنحاس والحديد، (الآنك) والخارصيني والرصاص والأسرّب. وإن لم تطرّق إما لشدة صلابتها، وهي الأحجار المعدنية كالألماس والياقوت وغيرها. وأما لشدة لينها، وهي المعادن السائلة كالزئبق. وإن

كانت ضعيفة التركيب، وانحلت بالرطوبة؛ فهي المعادن الملحية كالنوشادر. وإن لم تنحل بالرطوبة فهي المعادن الذهبية، فهذه خمسة أنواع، تنحصر جميع أنواع المعادن. وتنحصر بتقسيم آخر في ثلاثة أنواع: هائيات وترايبات وحجريات. جعل - تعالى - تكوين المعادن كلها في الأرض، عن سباحة الكواكب السبعة في السبعة الأفلاك، والطبائع الأربعة، والعناصر الأربعة، ومادة المعادن كلها البخار يجتمع في باطن الأرض، فلا يجد منفذاً لصلابة الأرض، ويصيبها بردٌ ما فيصير ماءً سائلاً، ويختلط بتراب تلك البقعة التي هو فيها، فيصير رجراجاً، وتطحنه الحرارة، ويطول به المكث، ويمرُّ عليه برد الشتاء وحرارة الصيف، فيسخن ويبرد، ويكثف ويلطف، ويرطب وييبس... فتخلق منه الجواهر المعدنية، بحسب تلك الأرض وتلك الجهة. فتختلف أنواع المعدن: لاختلاف الاستعداد، لاختلاف تربة الأرض التي هي فيها، وكيفية اختلاط البخار المنحلُّ بذلك التراب، ومقدار الطبخ الحاصل بالحرارة، ومدّة المكث... فلكل ما ذكر أثر في المعادن. وأكثر تكوين المعادن في الجبال، لأنها أصلب من الأرض، فيتحفظ البخار فيها، وقد قلنا: إن أصلها كلها البخار، غير أن بعضها يستحيل إلى بعض، كما يستحيل الكبريت باختلاط الزئبق إلى السبعة المعادن المتطرقة؛ فكل واحد من السبعة لا بد أن يكون أصله من الكبريت والزئبق. والاختلاف للأمر التي ذكرناها، ولتوجهات الأسماء الإلهية. وأمّا الحجارة فتتكوّن بأمر الله - تعالى - وإرادته، عن عمل الحرارة في الطين، الذي صار بواسطة البخار لزجاً حتى استحکم رطبه بيباسه، فصار حجراً، كما يشاهد في كوز النقاغ إذا تحجّر. وأمّا الرمل، فإنه متى صادفت الحرارة الطين اليابس بقوة البخار، وعملت فيه عملاً قوياً، فزقت أجزاءه صغاراً على مرور الأيام فصار رملاً، وجعل - تعالى - في كل نوع من المولدات كاملاً منها؛ فأكمل صورة في المعدن الذهب. كما أنه - تعالى - جعل بين كل نوعين متوسطاً بينهما، كالكمأة، فإنها بين الجماد والنبات؛ فهي جماد من وجه ونبات من وجه. ثم اعلم: أن جميع أنواع المعادن تطلب الكمال، وهو مرتبة الذهب، فتعوقها في طريقها عوائق، وتمنعها موانع، وتعدم شروطاً، فتتغير أنواع المعدن غير الذهب، بإرادة الله، لمصالح الإنسان الذي خلق الله - تعالى - كل شيء من أجله، بالقصد الثاني. وأمّا القصد الأول بالخلق فتسبيحه - تعالى - وعبادته، فإنه - تعالى - علم احتياج الإنسان إلى آلات وأمر لا بد له منها، لا تكون في الذهب، ولا تكون هذه الآلات إلا بعدم بلوغ المعدن إلى رتبة الكمال، فيصير حديداً أو نحاساً، أو ما شاء الله، من غير الذهب، واختلف المعدن بالصورة، كما اختلف

النبات بالصورة، كما اختلف الحيوان بالصورة، وهو من حيث الجوهر واحد العين. ولهذا يعمُّه من حيث جوهره حدُّ واحد، وما تختلف الحدود فيه إلا من أجل الصورة. والاختلاف في الصورة والشكل واللون والمزاج، لا يخرجها عن كونها يجمعها حدُّ واحد وحقيقة واحدة، سواء المعدن والنبات والحيوان؛ فلا يخرج المعدن ما ظهر في أنواعه من الاختلاف عن كونه معدنًا، وكذا النبات والحيوان؛ بل ولا ما ظهر من الاختلاف في أشخاص كلِّ نوع، فإن المعدنية والنباتية والحيوانية والإنسانية، في كلِّ واحد واحد من أنواعها وأشخاصها، مع ظهور الاختلاف في الصور والمقادير والأشكال والألوان والأمزجة، وقد قدمنا: أنَّ سبب ذلك هو عدم تكرار التجلي الإلهي، والله واسع عليم. فلا تجد نوعين ولا شخصين من جماد أو نبات أو حيوان أو إنسان متفقين من كل وجه، هذا محال، وإنما كانت صورة الذهب أكمل الصور في جنس المعدن لأنها مظهر الاسم العزيز - تعالى - . وجميع المعادن تطلب هذه المرتبة؛ فلم يكن القصد لها إلا اسم هذه الصورة، فتعارضها أسماء إلهية كالاسم الضار فتمرضها، وتعديل بها عن قصدها وتردُّها عن مطلوبها. فالعالم بعلم التدبير الكيماوي هو الذي يعالج المعدن المريض؛ ويزيل عنه العلة، ويردُّه إلى حالة الصحة. وذلك بأن يلقى الدواء المسمى عند أهل هذه الصناعة بالإكسير، على الحديد والقرديز؛ فتقلب صورته صورة فضة. وعلى النحاس والرصاص فتقلب صورته ذهبًا، والإكسير واحد، ولكن القوابل تختلف استعداداتها. واختلف الناس في وجود هذا العلم والعالم به. فقال بعضهم: لا وجود له، فهو بلا مسمى، كعقلاء مغرب. حتى قال قائلهم:

كاف الكنوز وكاف الكيماء معًا لا يوجدان فدع عن نفسك الطمعا

فقال بعضهم: هو موجود، والعالم به موجود، والحق أنه موجود ملحق بالمعدوم، فإنَّ لا نشك أن الله - تعالى - قد أعطى علم ذلك لبعض الأولياء. غير أنه جعل ذلك أمانة عنده، كبعض الأسرار الإلهية؛ فهو لا يذيعه أمانة وموافقة للحكمة الإلهية. وكذلك إن أعطى الله - تعالى - علم ذلك إلى بعض الأشخاص غير الأئمة، الذين ليسوا من الأولياء، فهو يشخُّ به عن الناس بخلاً وتعاسة أن يكون غير مثله، فهو يترك العمل به مخافة أن يصل خبره إلى الملوك، لا أمانة وموافقة للحكمة الإلهية، فإن الله - تعالى - جعل للملوك رغبة في علم التدبير والكيماء، فلو ظهر لهم عالم به سألوه أن يعلمهم؛ فإن منعهم قتلوه غيظًا وحسدًا. وإن علمهم قتلوه غيرة، فلما عرف العالم بهذا العلم، هذا وأن ماله مع الملوك إلى هذا لم يظهر بهذا العلم

عالم جملة واحدة. فلهذا هو كالمعدوم، وما ينسب لسيدنا خاتم الولاية محيي الدين، من الكتب المؤلفة في علم التدبير والكيمياء، ولغيره من الأولياء الداعين إلى الله - تعالى -، فزور وافتراء، فإنه محال أن يدلّ ولي من أولياء الله عبادة الله، على ما يقطعهم عن الله - تعالى -؛ فإن الدنيا قاطعة لغير الأولياء عن الله - تعالى - . وكذا ما ينسب لسيدنا محيي الدين، من الكتب المؤلفة في الملاحم والجفر كالشجرة النعمانية وغيرها. وقد اجتمعت به - رضي الله عنه - في واقعة، وسألته عن الجفر المنسوب إليه فقال: كذب وزور، وكذلك الفتاوى المنسوبة إليه، كذب وزور. وما كنت سمعت أن هناك فتاوى تُنسب إليه - رضي الله عنه - حتى أخبرني بعض الإخوان، أنه اجتمع بعالم في مكة المشرفة، أخبره أنه رأى فتاوى تنسب إلى سيدنا محيي الدين. وأما كتابه المقنع في السهل الممتنع، الذي توهم كثير من الأغنياء الحمقى، أنه موضوع في تدبير الكيمياء المعدنية، وأتعبوا أنفسهم في فهمه، على الطريق الذي توهموه؛ فإنما هو موضوع في كيمياء السعادة، كيمياء النفوس. وهذا الإكسير هو الذي يعتبر عنه سيدنا الشيخ الأكبر بالحجر المكرم، وبالكبريت الأحمر العزيز الوجود، يلقي على النفس الكافرة فتتقلب مؤمنة، وعلى النفس العاصية فتتقلب مطيعة، وعلى النفس الجاهلة فتتقلب عالمة. وفيه يقول - رضي الله عنه -:

مَدَّعي الصنعة مِن غير سبب	عشَّتْ في زور ودعوى وكذب
فاستمع قول محبِّ ناصح	صادق اللهجة محفوظ الطلب
نزل النير من أفلاكه	واسع في تحصيل تركيب النسب
وخذ الأبق من معدنه	وأمط عنه القذار المكتسب
فإذا مارضته واحتملت	ذاته التركيب فيه ورسب
صعد الفاضل وانظر حاله	بامتزاج النيرات في لهب
فإذا أفناه يبقى سبب	يقلب الآنك في العين ذهب

ثم اعلم أن هذه المعادن نفيسها وخسيسها، تنقل إلى الدار الآخرة على صور أجمل وأحسن وأفضل، فالجئة مبنية، وخلقتها من نفائس المعادن، من اللؤلؤ والمرجان، والجوهر والدرّ والياقوت، والذهب والفضة، والزمرد والمسك، والعنبر والكافور... وما أشبه ذلك. فإذا سمعت أو رأيت في الأخبار النبوية، أن مراكب الجئة من درّ وياقوت ومرجان، وحورها وولدانها وجميع ما فيها... فافهم ذلك، كما تفهم أن خلق آدم من تراب وحماً مستون، وأن بني آدم مخلوقون من ماء مهين.

قولك تبنيه على الأصل، وكذلك النار، فإن فيها كل معدن خسيس، مثل الكبريت والحديد والرصاص والنحاس والقار والقطران، وكل نتن وقذر، وقد ورد في الأخبار النبوية: «صَبَّ فِي أذنيه الآنك، ويجعل لمن كان يسجد اتقاء ورباء، ظهره طبقة نحاس»<sup>(١)</sup>.

وقال تعالى: ﴿سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطْرَانٍ﴾ [إبراهيم: الآية ٥٠].

وقال: ﴿وَلَهُمْ مَقْلِعٌ مِنْ حَدِيدٍ﴾ [الحج: الآية ٢١].

### ٣١ - فصل في النبات

ثم أوجد الله - تعالى - النبات بعد الجماد، مختلف الألوان والأشكال والأحوال والطعوم والروائح والمنافع. فمنه قوت الإنسان، ومنه قوت الحيوان، ومنه دواء، ومنه داء لبعض الحيوان؛ بل كل نبات هو دواء وداء، أي فيه منفعة لبعض الأمزجة، ومضرة لبعضها. ومنه لباس كالقطن والكتان. ومنه ضروري للحيوان، ومنه غير ضروري. وللنبات نوعان من الحياة، حياة تمسك أجزائه العنصرية، والأخرى تعطيه تغذية ونموًا في الأقطار، وهو نوعان من وجه: شجر، ونجم. وأربعة أنواع من وجه: مزروعات، وغير مزروعات، وكل منها إما مشمرًا أو غير مشمر. وجميعه ذو نفس، عالم بخالقه، ومدرك، مسبح لله، ساجد، كما أخبر تعالى بقوله:

﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ [الرَّحْمَنُ: الآية ٦].

ومادة النباتات جميعها، الماء الممزوج بالتراب، أجرى الله - تعالى - العادة: أن يوجد صورة النباتات وكيفياتها من الماء والتراب. ففي الماء قوة فاعلة، وفي التراب قوة قابلة، مع ما تعطيه الشمس والكواكب من الحرارة، لأنها تطرح أشعتها إلى الأرض؛ فتمر بالآثير، وهو ركن النار، فتكتسب حرارة؛ لأنها غير حارة في ذاتها، وهي أضواء. والضوء أحد أسباب حرارة الأجسام الكثيفة. والسببان الآخران: الحركة وملافاة الأجسام. فإذا وصلت الأشعة إلى الأرض، أكسبتها حرارة، فتنعش النباتات بالحرارة، وتصلح وتنمو. ولهذا المواضع التي لا تصل إليها أشعة الشمس، لا يتكوّن فيها نبات، فلا يكون فيها حيوان، لأن الحيوان من النبات، مثل الموضوعين للذين

(١) رواه البخاري: كتاب التفسير، باب: «إن الله لا يظلم مثقال ذرة، حديث رقم (٤٥٨١). ورواه

مسلم: كتاب الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية، حديث رقم (٣٠٢ - ١٨٣).

تحت القطبين، فإن الذي يستضيء من الأرض بالشمس أبداً؛ هو أكثر من نفعها، وأشد ما يكون الضوء في وسط ما استضاء منها، فالتراب والماء بلدان، والشمس تربي، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ﴾ [السجدة: الآية ٢٧].

وهي التي لا نبات فيها، ﴿فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ﴾ [السجدة: الآية ٢٧].

وقال: ﴿أَنَا صَيِّبٌ أَلْمَاءَ صَبًّا ۖ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا﴾ [عبس: الآيات ٢٥، ٢٦]. بخروج النبات.

﴿فَأَلْبَسْنَا فِيهَا حَبًّا﴾ [عبس: الآية ٢٧]. وهو كل ما يزرعه الناس ويرونه: ﴿وَعَبًّا وَقَبًّا﴾ [عبس: الآية ٢٨]. النبات.

﴿وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ۗ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ۗ وَفَلَكِهَةً وَأَنَا ۖ﴾ [عبس: الآيات ٢٩ - ٣١]. وهو كل ما تأكله الأنعام.

﴿مَنْعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ [عبس: الآية ٣٢].

وافتقار الإنسان وجميع الحيوان إلى التغذي، ليس من كونه حيواناً ذا نفس ظاهرة الحياة، وإنما ذلك من كونه نباتاً، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ [نوح: الآية ١٧].

أي أنبتكم فبنتم، لأنه - تعالى - إنما يخلق الإنسان وجميع الحيوان من النطف، والنطف متولدة من الأغذية، والأغذية متولدة من النبات، والنبات متولد من الأرض. أو يكون المراد آدم - عليه السلام -، فإنه ورد في خبر نبوي، صححه أهل الكشف: «أن آدم - عليه السلام - كان شجرة بوادي نعمان»، يعني على صورة ترتيب أعضائه التي الأدميون عليها اليوم، ثم ظهر حكم النفس الحيوانية في تلك النفس النباتية؛ فتحركت الشجرة بشراً سوياً، وهو آدم - عليه السلام -؛ فإن النفس التي تحفظ نظام أجزاء الجماد، تسمى نفساً جمادية، فإن كانت مع ذلك تتغذى وتنمو وتولد مثلاً، فهي نفس نباتية، فإن كانت مع ذلك تتوهم وتختار وتخيّل فنفس حيوانية؛ فإن كانت مع ذلك تعقل وتتفكر وتختار فنفس ناطقة. وكل نفس باطنة في التي قبلها بالقوة، وظاهرة عنها بالفعل. فإذا نظرنا إلى الجمادية، كانت النباتية باطنة فيها، والحيوانية



باطنة في النباتية، والناطقة باطنة في الحيوانية، وكذلك ورد في خبر، صحَّحه أهل الكشف أيضاً في البعث الجسماني، أنها تنشأ سحابة من تحت العرش، فتمطر مطراً كمني الرجال، فتنبت أجسام الناس كما تنبت الحبة في حميل السيل، يعني أنهم يكونون كما كان آدم، شجرة بوادي نعمان، ولذا ورد في الحديث: «أن أهل الجنة يدخلونها على صورة أبيهم آدم»<sup>(١)</sup>.

ستون ذراعاً في الهواء، وإنما كان ستين ذراعاً، وهو شجرة نباتية، وفي صحيح مسلم: «كل ابن آدم يبلى إلا عجب ذنبه، منه كان، وفيه يحشر، ومنه يبعث»<sup>(٢)</sup>.

وعجب الذنب، هو الذرة الأولى، والجزء الذي ينبت منه البدن، وهو يكون جماداً، ثم نباتاً، ثم حيواناً، ثم آدمياً، بحسب ظهور أحكام النفوس متمثلة في صور هياكلها. ثم اعلم: أنه - تعالى - جعل بين كل نوعين من المولدات وسطاً، فجعل بين الجماد والنبات الكمأة؛ فهي تشبه الجماد والنبات. وجعل النخلة بين النبات والحيوان، فإن رائحة طلوعها كرائحة المنى، ولطعمها غلاف كالمشيمة التي تكون للولد، ولو قطع رأسها ماتت، بخلاف النباتات، وجمارها كالمخ للحيوان. فإذا أصاب جمارها آفة هلكت، وجعل القرد والنسناس بين الحيوان والإنسان، بما جعل الله لهما من قوة الإدراك والفهم، مما يقرب من الإنسان. وذلك مشهود لكل أحد؛ كما أنه تعالى جعل في كل نوع من المولدات كاملاً. وأكمل صورة في النبات، شجرة الوقواق، وهذه الشجرة توجد في جزيرة من جزائر الصين، تحمل ثمرًا كالنساء، بصورة وأجسام وعيون، وأيد، وأرجل وشعور، وأبزاز وفروج كفروج النساء، وهنَّ حسان الوجوه، معلقات بشعورهم، يخرجن من غلف كالأجربة الكبار، فإذا أحسنن بالهواء والشمس، يصحن واق واق، حتى تنقطع شعورهن فإذا انقطعت، ماتت.

وكما خلق - تعالى - النباتات مختلفة المنافع والمضار؛ كذلك خلق - تعالى - بعض أصول النباتات تخالف فروعها في الخاصية، فقد نقل سيدنا الشيخ الأكبر أن

(١) رواه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب خلق آدم وذريته، رقم (٣٣٢٦). ورواه مسلم:

كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب يدخل الجنة أقوام أفنتهم مثل أفئدة الطير.

(٢) رواه مسلم: كتاب الفتن، باب ما بين النفتين، حديث رقم (١٤٢) - (٢٩٥٥). ورواه أحمد في

المسند، حديث رقم (٩٥٤٠).

أبا العلاء بن أزهري، من أهل الأندلس؛ كان من أعلم الناس بالطب والنباتات والحشائش، ركب يوماً هو وأبو بكر بن الصائغ وكان دون ابن أزهري في علم الحشائش والنبات، وكان يزعم أنه أعلم من ابن أزهري بذلك، فمرّاً بحشيشة، فقال ابن أزهري لغلامه: اقطع لنا من هذه الحشيشة، فأخذ شيئاً منها، وقتلها بيده، وقربها من أنفه كأنه يشمها، ثم قال لأبي بكر: أنظر ما أطيب ريحها؟! فشمها أبو بكر، فرعف من حينه، فما ترك شيئاً في علمه يمكن أن يقطع به الرعاف، مما هو حاضر إلا عمله، وما نفع، حتى كاد يهلك. وأبو العلاء يتبسم ويقول: يا أبا بكر عجزت!! قال: نعم. فقال أبو العلاء لغلامه: استخرج لي أصول تلك الحشيشة، فجاء بها فقال: يا أبا بكر! استنشقتها، فاستنشقتها أبو بكر، فانقطع الدم عنه، فرعف فضل أبي العلاء عليه في علم النباتات.

ولأنواع النباتات خواص عجيبة، منها: النبات الذي يفتح به القيد من الحديد عن قوائم الفرس عند إصابته، وهو مشهور في بلاد العجم، والجمهور على أن حركة النبات منكوسة، ووافقهم على ذلك سيدنا الشيخ الأكبر مرة، وخالفهم أخرى، قال: حركة النبات عندنا مستقيمة، فإنه ما تحرك إلا للنمو. وما تحرك إنسان ولا حيوان هذه الحركة التي للنمو إلا من كونه نباتاً. والحركة المنكوسة، كل حركة في متحرك تكون بخلاف طبيعته، وذلك لا يكون إلا في الحركة القسرية، لا في الحركة الطبيعية. فكل جسم تحرك نحو أعظمه، فحركته طبيعية، كحركة اللهب إلى العلو، وحركة الحجر إلى السفلى. فإذا تحرك بخلاف ذلك فتلك الحركة القسرية. وإن البزرة تمدد فروعاً إلى جهة فوق، وتمدد فروعاً إلى جهة التحت، وغذاؤها ليس أخذ النبات له من الفروع التي في التحت، المسمّاة أصولاً، وإنما أخذ النبات الغذاء من البزرة التي ظهرت عنها هذه الفروع. ولهذا يحصل اليبس في بعض فروع التحت، كما يحصل في الفروع الظاهرة الحاملة الورق والثمر، مع وجود النمو والحياة في هذه الفروع.

### ٣٢ - فصل في الحيوان

ثم بعد النبات، أوجد الله الحيوان، وهو أشرف الأجسام الموجودة في العالم السفلي بعد الإنسان، لاختصاصه بالقوة الشريفة، وهي الحواس الظاهرة والباطنة من الجاذبة، وهي التي بها يجذب الحيوان الأغذية، والقوة الماسكة، وهي التي بها يمسك ما يتغذى به الحيوان. ثم القوة الهاضمة، وبها يهضم الغذاء، ثم القوة

الدافعة، وبها يدفع الفضلات عن نفسه من عرق وبخار ورياح وبراز. فحفظُ القوة الدافعة ما تخرجه من الفضلات، والقوة الغازية والمنمّية والحاسية والخيالية والوهمية والحافظة والذاكرة، فهذه القوى كلها في الحيوان، بما هو حيوان. وأنه - تعالى - أخبر أنه خلق جميع ما في السموات والأرض للإنسان. ومن جملتها الحيوان، فهو مخلوق لمنفعة الإنسان؛ فمنه ما هو ظاهر المنفعة كالأزواج الثمانية وهي: الضأن والمعز والإبل والبقر والخيل والبغال والحمير. فبعضها للأكل والشرب واللبس، وبعضها لحمل الأثقال، وبعضها للركوب والزينة. ومنها ما هو غير ظاهر النفع كالحشرات وبعض دواب البر والبحر؛ فهو - تعالى - إنما خلقها من عفونات الأرض، ليصفو الهواء لنا من بخارات العفونات، التي لو خالطت الهواء الذي أودع الله فيه حياة هذا الإنسان والحيوان، الذي فيه منفعته وعافيته لكان سقيمًا مريضًا معلولًا، فصمّي له - تعالى - الجوّ؛ لتكوين هذه المعقّنات، فقُلّت الأسقام والعلل. وإن من الحيوان مولدات مرضعات، ومنه حاضنات، ومنه معقّنات، وما سُمّي الحيوان حيوانًا، لكونه مختصًا بالحياة دون الجماد والنبات، وإنما ذلك لظهور الحياة فيه بالقوة الحساسة وخفائها في الجماد والنبات كما تقدم. فالحياة في كلِّ موجود، لأن وجود الشيء عين حياته. فإذا كان الموجود موجوداً لنفسه، فحياته تامّة. وليس إلا الحق - تعالى - . وحياة ما سواه حياة إضافية. فهي حياة غير تامّة؛ لأن المخلوقات جميعها موجودة للحقّ - تعالى - لا لأنفسها، لكنها متفاوتة في الحياة. فمنهم من ظهرت فيه الحياة على صورتها التامّة، وهو الإنسان الكامل، ويلتحق به الملائكة المهيمون، والعقل الأوّل والنفس الكلية، ومنهم من ظهرت فيه الحياة على صورتها، لكن غير تامّة، وهو الإنسان والحيوان والملك والجنّ. ومنهم من ظهرت فيه الحياة لا على صورتها، وهو ما عدا الحيوان. ومنهم من بطنت حياته كالجماد والمعدن والمعاني. وقولنا: حياة تامّة وغير تامّة، إنما ذلك بالنظر إلى الأجسام القابلة. وإلا فكلُّ موجود حيٌّ بحياة الله، وهي لا تتجزأ ولا تنقسم. فحياة كلِّ حيٍّ قديمة، من حيث أنها حياة الله - تعالى - . ومن حيث الموصوف بها حادثه، فبالحياة يعقل الحيّ ويسمع ويبصر ويريد ويقدر ويفعل. وليست البنية المعروفة شرطًا في الحياة، فيجوز أن يكون الجوهر الفرد أعلم العالمين وأقدر القادرين. والحيوان أبلغ من الحياة، لما في بناء «فعالان» من الزيادة، ولذا قال تعالى في حياة الآخرة: ﴿وَإِنَّكَ أَلَدَارَ الْآخِرَةِ لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾ [العنكبوت: الآية ٦٤].

لما في تلك الحياة من الكمال .

وقال في الحياة الدنيا: ﴿إِنَّمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ [محمَّد: الآية ٣٦].

حيث كانت حياة ناقصة، ولما كان كل موجود حيًا. كان كل موجود عالمًا ذرًاكًا، فإن العلم يلازم الحياة، عند أهل الكشف والوجود، فكلُّ حيٍّ لا بدَّ أن يعلم علمًا ما، فإن كان إلهاميًا فهو علم ما عدا الإنسان، كعلم الحيوانات والهوام بما ينبغي لها، وما لا ينبغي، من المأكل والمسكن والحركة والسكون. وانظر وتأمل في أشياء تصدر من بعض الحيوانات كالنحل في صناعة بيوته المسدَّسة، التي يعجز عنها أعظم علماء الهندسة؛ إذ كان أفضل الأشكال الشكل المسدَّس، فإنه لا يبقى فيه خلاء يذهب ضائعًا، وانظر إلى العنكب في شباكها التي تضعها لصيد الذباب، وإلى بعض الطيور في صناعة أوكارها، وإلى دود القزِّ كيف يصنع تلك الأكر، وكيف يتقنها؟! قيمن عرف هذا، عرف أن للنفوس الحيوانية - مطلقًا - قوتين: قوَّة علمية وقوَّة عملية. كما ظهر ذلك في صنائعها المعجزة للإنسان، ثم اعلم: أن حركة الحيوان أفقية عند الجمهور، لأنهم اعتبروا الجهات بوجود الإنسان، وجعلوا الاستقامة في نشأته وحركته إلى جهة رأسه، والحركة التي تقابل حركة الإنسان على سمتها سموها منكوسة، وهي حركة النبات عندهم، والحركة التي بينهما، يقابل المتحرك برأسه الأفق سموها حركة أفقية، وهي حركة الحيوان عندهم. والحقُّ خلاف هذا، عند سيِّدنا إمام أهل الكشف والوجود. بل حركة الحيوان والنبات مستقيمة كالإنسان، فإنه ما تحرك إلا للنمو، وما تحرك حيوان ولا إنسان حركة للنمو إلا من كونه نباتًا، فحركة كلِّ جسم حركة واحدة، سواء كان جسم حيوان أو إنسان أو نبات، فإن حركة الأجسام من أصل البزرة، التي عنها ظهر الجسم بحركة النمو، فيتسع في الجهات كلها، وهي حركة طبيعية. وكل حركة طبيعية فهي مستقيمة، كانت ما كانت، وفي أي جسم كانت. وإنما الحركة المنكوسة ما خالفت الطبيعة، وليس إلا الحركة القسرية كما قدمنا.

### ٣٣ - فصل في الجان

ثم بعد خلق الحيوان خلق الله - تعالى - الجان. وماذتهم من مارج من نار، والمرج الاختلاط، ومنه سُمِّي المرج مرجًا، لاختلاط النباتات فيه، ومرج أمر الناس؛ اختلط. فهم مخلوقون من نار مركبة فيها رطوبة، ولهذا يظهر لها لهب، وهو احتراق الهواء، ففتح الله في ذلك المارج صورة الجن، فهو عنصري، فيه جميع الأركان الطبيعية. ولكن الأغلب فيه ركن النار والهواء، فلهذا نُسب إلى النار. كما أن آدم أبا

البشر فيه جميع الأركان، ولكن الأغلب عليه التراب الممزوج بالماء، فينسب إلى التراب. فللجن وجه إلى البشرية كان به عنصرياً، ووجه إلى الملائكة به كان لطيفاً ينحجب عن أبصارنا ويتشكّل بالأشكال والصور المختلفة، وللطافته يجري من ابن آدم مجرى الدم حقيقة، وينفذ في باطنه، ويفضي إلى قلبه، كما ورد في الأخبار الصحيحة، ولا يشعر به. ولولا أخبار الشارع بوسوسته في صدور الناس ما علم أحد بذلك غير أهل الله، أصحاب الكشف. وكما وقع التناسل في البشر بالتناكح، كذلك وقع التناسل في الجن، بإلقاء الهواء في الأنتى منهم، فكان الذرية في صنف الجن، ونكاح الذكر للأنثى هو التواء الذكر على الأنتى والتواؤها عليه، مثل ما تبصر الدخان في فرن الفخار، يدخل بعضه في بعضه، فيلنذ الذكر والأنثى بذلك، ويكون ما يلقونه رائحة فقط كلقاح النخلة، كما أن غذاءهم بشم الرائحة فقط، أخبر بعض المكاشفين: أنه يرى الجنّي يأتي إلى العظم فيشمه، فيكون ذلك غذاءه، وهذا معنى ما ورد في الخبر الوارد: أن الله جاعل لهم (أي للجن) فيه (أي العظم) رزقاً، ولهذا الشاهد العظم لا ينقص شيء من جوهره، والتغذي للجن هو الفارق بينه وبين الملك، وإن اشتركا في الروحانية. ولم يكن الله - تعالى - خلق للموجود الأول من الجن أنثى منه، كما خلق حواء آدم. وإنما خلق الله للموجود الأول من الجن فرجاً في نفسه، فنكح بعضه ببعضه، فولد مثل آدم ذكراً وإناً، وكان خلق الجن على ما ذكر سيدنا إمام أهل الكشف محيي الدين، قبل خلق آدم بستين ألف سنة، من السنين التي نعدّها بأيامنا المعروفة، وهم محصورون في اثنتي عشر قبيلة، ويتفرعون إلى أفخاذ وعشائر وقبائل. وتقع بينهم حروب عظيمة يقتل بعضهم بعضاً فيها، وليس الحارث الذي سمّاه الله إبليس؛ أباً أولاً للجن، كما كان آدم الأب الأول للبشر، كما يتوهم الكثير من الناس ذلك، وإنما هو واحد من الجن. وأبو الجن الذي هو كآدم للبشر غيره. قال تعالى:

﴿إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾ [الكهف: الآية ٥٠].

أي: من صنف الجن، فالحارث أوّل الأشقياء من الجن، كما كان قابيل أول الأشقياء من البشر. ومن الجن: الطائع والعاصي، والشقي والسعيد، مثل البشر. قال تعالى حاكياً عنهم ومصداقاً قولهم: ﴿وَأَنَا مِنَّا الضَّالِّينَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ﴾ [الجن: الآية ١١].

وقال: ﴿وَأَنَا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ﴾ [الجن: الآية ١٤].

فالشياطين هم الأشقياء، والسعداء بقي عليهم اسم الجن؛ فأول من سمي من الجن شيطاناً الحارث، فأبلسه الله وطرده من رحمته، وطرد الرحمة عنه. ومنه تفرعت الشياطين بأجمعها، فمن آمن من أولاده التحق بالمؤمنين من الجن، مثل هامة بن إلهام بن لاقيس بن إبليس. ومن بقي على كفره كان شيطاناً، وقال بعض علماء الظاهر: الشيطان لا يسلم. وتأول الحديث الوارد في ذلك. وقال بعضهم: قد يسلم الشيطان، وهو الذي ذهب أهل الكشف والوجود إليه، ومن آمن من الجن كان أقرب مناسبة لعالم الغيب، فإنهم لهم التحول في الصور. ولهذا كانوا أعلم بكلام الله - تعالى - من الأنس. فقد ورد في الصحيح: «أن جن نصيبين، لما مرؤا بنخلة وجدوا رسول الله - ﷺ - في صلاة الفجر يقرأ القرآن، فلما سمعوا القرآن أصغوا إليه»، فلولا معرفتهم برتبة القرآن وعظم قدره ما تفتنوا له ورجعوا إلى قومهم، وقالوا:

﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾<sup>(١)</sup> [الجن: الآية ١] الآيات.

وفي الصحيح: أن رسول الله - ﷺ - تلا عليهم سورة الرحمن؛ فكان كلما قال: ﴿فِي آيَاتِ آلاءٍ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: الآية ١٣]!؟.

قالوا: ولا بشيء من آلائك ربنا نكذب، ثم تلاها رسول الله - ﷺ - على أصحابه من الإنس فلم يقولوا شيئاً مما قالته الجن. فقال لهم رسول الله - ﷺ - إني تلوتها على إخوانكم من الجن، فكانوا أحسن استماعاً لها منكم<sup>(٢)</sup>. وقد قدمنا في هذا الموقف أن التشكل والتصور للأرواح النورية والنارية ذاتي لها. وتكون الصورة عين الروحاني، وإذا اتفق موت الصورة، كما في الشاهد، مات الروحاني. وقد بيئنا هناك معنى الموت الروحاني. وقد حدث الشيخ الأكبر، أنه حدثه الضرير إبراهيم بن سليمان، عن رجل ثقة حطاب، كان قتل حيّة، فاحتفظته الجن، فأحضرته بين يدي شيخ كبير منهم، هو زعيم القوم فقالوا له: هذا قتل ابن عمنا. قال الحطاب: ما أدري ما تقولون، وإنما أنا رجل حطاب، تعرّضت لي حيّة فقتلتها. فقالت الجماعة: هو كان ابن عمنا. فقال كبيرهم: خلّوا سبيل الرجل، وردّوه إلى مكانه، فلا سبيل

(١) رواه البخاري: كتاب الأذان، باب الجهر بقراءة صلاة الفجر، حديث رقم (٧٧٣). ورواه

مسلم: كتاب الصلاة، باب الجهر بالقراءة في الصبح والقراءة على الجن.

(٢) رواه الترمذي في الجامع الصحيح كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة الرحمن، حديث رقم

(٣٢٩١). والحاكم في المستدرک حديث رقم ٣٨١٢.



لكم عليه. فإني سمعت رسول الله - ﷺ - وهو يقول لنا: «مَنْ تصوّر بغير صورته فقتل، فلا عقل فيه ولا قود»<sup>(١)</sup>.

وابن عمّكم تصوّر في صورة حيّة، وهي من أعداء الإنس. قال الحطاب: فقلت له: يا هذا! أراك تقول سمعت رسول الله - ﷺ - فهل أدركته؟! قال: نعم، وأنا واحد من جنّ نصيبين، الذين قدموا على رسول الله - ﷺ - فسمعنا منه، وما بقي من تلك الجماعة غيري، فأنا أحكم في أصحابي بما سمعته من رسول الله - ﷺ -. وفي الصحيح: أنه - ﷺ - قال: إن عفريتًا نفلت عليّ البارحة ليقطع عليّ صلاتي، فأمكنني الله منه، فدعرتّه، وهممت أن أربطه إلى سارية من سوازي المسجد، حتى ينظر إليه ولدان المدينة، فذكرت قول أخي سليمان:

﴿وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي﴾ [ص: الآية ٣٥].

فردّه الله خاسئًا<sup>(٢)</sup>، أو كما قال، وفي رواية: حتى سال لعابه على يدي؛ فلولا حكم الصورة على العفريت ما تمكّن له - ﷺ - أن يفعل به هذا، بخلاف البشر، إذا تروحن وصار له التشكّل والتصوّر في الصور، وماتت صورة من تلك الصور في الشاهد، فإنه لا يلحقه شيء من ذلك؛ لأن الشكل والتصوّر ليس بذاتي له، فلا تحكم عليه الصور، ومع هذا فتصوّر الإنسان في حضرة الخيال أقرب وأولى من الملك والجنّ؛ لأنه في نشأته له دخول بروحه، الذي هو ناطقه، إلى عالم الخيال، وله دخول بشهادته، الذي هو جسمه، إلى عالم الشهادة. والروحاني ليس له كذلك، فليس له دخول إلى عالم الشهادة إلا بالتمثّل في عالم الخيال صورة ممثلة، فإن أراد الإنس أن يتروحن بجسمه، ويظهر به في عالم الغيب وجد المساعد، وهو روحه المرتبط بتدبيره، فهو أقرب إلى التمثّل من الروحاني. وهذا المقام يُكتسب وينال، فيظهر صاحبه في أي صورة شاء من صور بني آدم أمثاله. وفي صور النباتات والأحجار والملائكة، فيظهر زيد في صورة عمرو، وليس للملك أن يظهر في صورة ملك آخر غيره.

(١) أخرجه ابن عساکر في تهذيب تاريخ دمشق (٤/١٥٥) طبعة بيروت.

(٢) رواه البخاري (١/١٢٤) - (٦/١٥٦) طبعة دار الفكر، بيروت. ورواه أحمد في المسند حديث رقم (٧٩٨٨) طبعة دار الكتب العلمية - بيروت. ورواه غيرهما (انظر موسوعة أطراف الحديث النبوي الشريف لمحمد زغلول).

## ٣٤ - فصل في المرتبة السادسة

ثم بعد الجنّ أوجد الله - تعالى - الإنسان، وهي مرتبة الإنسان الجامعة لجميع المراتب المتقدمة، ما عدا مرتبة الأحدية، فإنها لا تتجلى لمخلوق، لمناقضتها الإثنيّة. فلما دارت الأفلاك، ومخضت الأركان بما حملته، مما ألفت فيها الأفلاك، كما يلقي الأب النطفة في رحم المرأة، فإن الأفلاك آباؤنا العلويّات، والعناصر أمهاتنا السفليّات، فهو نكاح معنوي، وظهرت المولدات من جماد ونبات وحيوان وجان. واستوت المملكة وتهيات، ورُتّب - تعالى - العالم ترتيباً حكماً، أنشأه - تعالى - هذه الصورة الآدميّة، وسماه إنساناً؛ لأنه بمنزلة إنسان العين من العين، وهو ما به النظر، فإن به نظر الحقّ - تعالى - إلى العالم فرحمهم. فكما ابتداء الأمر بحقيقة الإنسان اختتم بصورته. وكان العالم قبل ظهور الصورة الآدميّة، كجسم مسوّى، لا روح فيه. وكان خلق آدم بعد مضيّ إحدى وسبعين ألف سنة من سني الدنيا، ممّا نعدّ، على ما أخبر به إمام أهل الكشف والوجود، سيدنا الشيخ الأكبر - رضي الله عنه -، فهذه الصورة الآدميّة هي صورة الإنسان الذي هو مادة كل مخلوق، ونقطة الكون التي منها انبثت حروف العالم جميعه. وقد ذكرنا بعض أسمائه في التعيين الأوّل، وهي المرتبة الثانية، وهو نور محمد - ﷺ - كما ورد في الخبر، الذي خرجه عبد الرزاق في مسنده، في تجزئة النور المحمّدي المعبر عنه بالجوهرة الفريدة. وخلق العالم كلّ منه، من أوّل مخلوق إلى أن انتهى الأمر إلى خلق صورة آدم - عليه السلام - التي هي أوّل صورة ظهرت من هذا النوع. فكانت هذه الصورة كما لعصن من الشجرة، فكلّ المخلوقات خرجت من العدم إلى الوجود إلا الإنسان، فإنه خرج من غيب إلى شهادة، لا من عدم، فإنه أزليّ قديم، باعتبار حقيقته التي هي حقيقة الحقائق. وأوّل التعينات، وأوّل عين ثبتت في العلم الإلهي، فهو الأوّل من حيث الصورة الإلهيّة، فإنه ورد: «إن الله خلق آدم على صورته»<sup>(١)</sup>.

والآخر من حيث الصورة الكونيّة، فأوّليته حق، وأخريّته خلق. وإلى الصورة الإلهيّة الإشارة بقوله: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: الآية ٤].  
وإلى الصورة الكونيّة الإشارة بقوله: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ [التين: الآية ٥].

(١) هذا الحديث سبق تخريجه.

وقد كانت صورة آدم، بل وصور بنيه مبعوثه في العناصر والأفلاك، معلومة معينة في الأمر المودع في السموات، لكل حالة من أحواله، التي يتقلب فيها في الدنيا: صورة في الفلك على تلك الحالة، ولا تشهدها الملائكة ولا السموات، مع كونها فيها. وجعل الله وجود الصور في حركات الأفلاك، فمن الناس من يعلم نفسه في ذلك الموطن على غاية الكمال كالأنبياء والكمثل من ورثتهم. ومنهم من يشهد صورة ما من صورة فيحكم على نفسه بها، قال تعالى:

﴿وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾ [فُضِّلَتْ: الآية ١٢].

وهذا مما أوحى فيها، فتحفظ هذه الصورة إلى وقت إيجادها في الدنيا. فالصور كلها موجودة في الأفلاك، وجود الصورة الواحدة في المرايا الكثيرة المختلفة الأشكال. ولكل إنسان صورة في الكرسي، وصورة في العرش، وصورة في الهيولى، وصورة في الطبيعة، وصورة في النفس الكلية، وصورة في العقل، وصورة في العماء، وصورة في العدم، وكل ذلك مرثي له - تعالى - معلوم، خلق - تعالى - الصورة الآدمية بيديه، وسواها وعدلها؛ فاختصت لذلك بما اختصت به من علم الأسماء، التي تطلب العالم ويطلبها كلها، ومن التأهل للخلافة عن الحق - تعالى - على جميع المخلوقات علواً وسفلاً، وكانت صورة جامعة لجميع أجناس العالم وحقائقه وأنواعه، من عرش وكرسي وأفلاك وأملاك وشياطين وعناصر ونبات وبحار وغيب وشهادة؛ فهو العالم كله، وجعل - تعالى - جميع المخلوقات للإنسان، كأعضاء الجسم للروح المدبتر. فلهذا لا يكون الملك أشرف من الإنسان، فإنه جزء من الإنسان، ولا يكون العضو أشرف من الكل. ومن شرف الصورة الآدمية الإنسانية أنه خلق تعالى ما خلق من المخلوقات، إما عن أمر إلهي كما قال:

﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [النحل: الآية

[٤٠].

أو عن يد واحدة، كما ورد في الخبر الذي خرجه أبو نعيم في حلية الأولياء: «إن الله بنى جنات عدن بيده».

وورد أن الله غرس شجرة طوبى بيده، إلا هذه الصورة الآدمية فإنه - تعالى - جمع لها بين يديه، فقال لإبليس على طريق التشريف لآدم:

﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِدْعَىٰ﴾ [ص: الآية ٧٥].

والمراد من اليدين هنا الأسماء الجلالية والجمالية المتقابلة، فلهذا صَحَّ للإنسان - دون سائر المخلوقات - أن يتخلَّق ويتحقَّق بجميع الأسماء الإلهية، على تقابلها وتضادها، ويظهر بها ظهورًا حقيقيًا أصليًا. وما خلق - تعالى - مخلوقًا - أي مخلوق كان، في العالم العلوي والسفلي - إلا والقصد الثاني منه وجود الإنسان، والسعي في منعته ومصالحته. وأما القصد الأول من إيجاد المخلوقات فالمعرفة بالله والعبادة له. قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْإِنْسَ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [٥٦] [الذاريات: الآية ٥٦].

وكذا كل موجود، قال: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: الآية ٤٤].

وشيء أنكسر النكرات، وقال: ﴿كُلُّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾ [الشور: الآية ٤١].

بعد ذكر مَنْ في السموات وَمَنْ في الأرض، والمعنى بما ذكرناه من الشرف الإنسان الكامل، كآدم وَمَنْ ورث الخلافة من بنيه. فإذا لم يحز إنسان رتبة الكمال فهو حيوان، يشبه الإنسان صورة. تنبيه نبيه:

قال تعالى خطابًا للملائكة: ﴿إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِنْ طِينٍ﴾ [ص: الآية ٧١].

وفي صحيح مسلم: «إن الله خلق الملائكة من نور، وخلق الجن من نار، وخلق آدم مما قيل لكم».

وقال تعالى، خطابًا لأولاد آدم: ﴿أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَّاءٍ مَهِينٍ﴾ [٦٠] [المُرسلات: الآية ٢٠].

فلا تفهم من هذا خلاف الواقع، فإن الأمر لا يخلو إما أن يكون النور صار ملكًا، والنار صار جنًا، والطين صار آدمًا، والماء المهين، وهو المني، صار إنسانًا، فيكون في حالة واحدة طينًا وآدم إنسانًا، أو ماء مهينًا، وجسد إنسان، فهو محال. وإما أن يكون ذهب الطين بكليتها، وكذا الماء المهين، وهو النطفة. ولم يبق شيء من ذلك. ثم حصل آدم أو جسد إنسان، وحينئذ ما صارت الطين آدم، ولا النطفة جسد إنسان، بل ذلك شيء ذهب، وهذا شيء آخر حصل. وإما أن يكون هناك جوهر معقول، يقبل الصورة والهيئة الطينية والنطفية، ذهب عنه الصورة الطينية

والنظفية، وحصلت فيه صورة آدم أو جسد إنسان، وهو المطلوب. فوجود جوهر معقول يقبل جميع الصور، كانت ما كانت، والهيات الطينية والنظفية والدموية والإنسانية وغيرها متفق عليه عند الجميع، وإن اختلفوا في تسميته. فسماه العارفون بالله بالهباء، وسماه الحكماء بالهيولى الكل، وقد أخطأ من أنكره من أهل السنة.

### إشارة لأهل البشارة

قال تعالى خطاباً للملائكة في حق آدم - عليه السلام - : ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ وَمَا كُنَّا بِمَعْبُودِينَ﴾ [ص: الآية ٧٢].

وقال في حق أولاده: ﴿الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ﴾ [ص: الآية ٧] فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾ [الانفطار: الآيات ٧، ٨].

وقال: ﴿فَخَلَقَ فَسَوَّى﴾ [القيامة: الآية ٣٨].

فمعنى التسوية والتعديل في خلق آدم - عليه السلام - هو جعل صورته على هيئة واستعداد، تقبل به صورة الروح المنفوخ فيه قبولاً تاماً، أتم من قبول جميع الصور المخلوقة، ولا الملائكة والأرواح العلوية، فلا بد من فعل في الطين حتى يصير متغيراً متعتمناً؛ فإن المولدات ظهرت عن أربعة عناصر وأربعة أخلاط: صفراء وسوداء ودم وبلغم؛ فكان السوداء عن التراب، وهو قوله: «مِنْ طِينٍ»، وكان الصفراء عن النار، وهو قوله: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ﴾ [الرحمن: الآية ١٤].

وكان الدم عن الهواء، وهو قوله: ﴿مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾ [الحجر: الآية ٢٦].

وكان البلغم عن الماء الذي عجن به التراب فصار طيناً. والتسوية والتعديل في حق أولاده هي أن يصير الطين نباتاً، فيأكله الإنسان فيصير دماً، ثم تأخذ قوته القوة المميزة، فيصير نطفة، ثم يمتزج بماء المرأة فيزيد اعتدالاً، ثم ينضجه الرحم فيزيد تناسباً. ثم يزيد في الصفاء إلى أن يستعد لقبول الروح المنفوخ فيه قبولاً، لا مثل له، كالثقيلة التي تستعد بشرب الدهن وكمال النظافة والغلظ لقبول النار وإسماكها. وأشخاص الإنسان متفاوتون في التعديل والتسوية لصورهم، فكامل وأكمل وناقص وأنقص. وهذا هو السبب الثاني للتمايز بينهم في الأنوار والعلوم والمعارف.

فتتيلة، أعني صورة طبيعية في غاية النظافة صافية الدهن وافرة الجسم يكون قبولها أعظم في اتساع النور، وفي كمية جسم النور، وأكبر من فتيلة نزلت عن هذه الصفة من النظافة والصفاء، فكان التفاوت بين الأنوار بحسب استعدادات الفتايل. لذا كان في الناس شقي وسعيد، وعالم وبليد، فبالتعديل والتسوية للصورة صارت كالمرآة المجلوة، تقبل صورة ما فاض عليها وقابلها على الكمال، وتحكيه كما هو؛ فنفخ الروح عام في كل صورة، والتسوية والتعديل خاص بالصورة الآدمية الإنسانية، فهو كناية عن التجلي الجاعل لها مثالا لمتجلي في قبول المجلي. فالنافع كما هو الإنسان، لما يرى منه بواسطة الأجرام الصقيلة، منه ظهرت، وبه قامت، وإليه تعود، لأنها ظله ومثاله وهما. وإلا فهي هو حقيقة وعلمًا، فالروح المنفوخ عن الوجود الإلهي روح الله، من حيث أنه حق. وروح من نفخ فيه، من حيث أنه خلق؛ فله خصائص الإله وأحكامه بالحيثية الأولى. وخصائص الخلق وأحكامه بالحيثية الثانية. فانظر ما أجمعه!! ولا يعرف كيف ارتباط الحياة الإنسانية لهذا البدن، بوجود هذا الروح لمقارنة الطبيعة فيه، لوجود الروح الحيواني، فلا يدري هذه الحياة البدنية، للروح الظاهرة عن النفخ الإلهي، أو للطبيعية، أو للمجموع. وأما حقيقة الروح ففيه من الأقوال كثرة بلغت ألف قول! والقول الحق هو ما عليه أهل الكشف والوجود، أنه ليس بجسم يحل البدن، ولا عرض يحل في القلب أو الدماغ، وإنما هو جوهر مجرد، غير متحيز، ولا منقسم، ولا له صورة من ذاته، ولا هو داخل البدن، ولا خارج عنه، ولا متصل به، ولا منفصل عنه، ولا هو في جهة. فهو منزّه عن الحلول في المحال، والاتصال بالجهات، وعن جميع عوارض الأجسام فلا يدخل تحت مساحة، ولا يقبل إشارة حسية. فالأرواح متصلة بالأجسام بالتدبير، منفصلة بالحد، ولا يقبل إشارة حسية. فالأرواح متصلة بالأجسام بالتدبير، منفصلة بالحد، والحقيقة والتدبير للأرواح ذاتي كالشمس، غير أن الشمس لا علم لها بما تدبره من مصالح العالم. والروح لها علم، فإن كانت فاضلة، فلها علم بجزئيات الجسم الذي تدبره. فالإنسان عالم بجميع الأمور المغيبة فيه، من حيث روحه المدبر له، إما تفصيلاً وإما إجمالاً؛ فهو يعلم ولا يعلم أنه يعلم، بمنزلة الساهي والناسي. وليس المدبر لصور العالم كله روح واحدة، كما قيل. وإن روح زيد هي روح عمر، فإنه يلزم أن ما يعلمه زيد لا يجهله عمرو!! لأن العالم من كل واحد منهما روحه. واختلف في الأرواح: هل وجودها مع أجسامها أو قبلها أو بعدها؟! والحق عند أهل الله أن أرواح الكمّل، كالأنبياء



والرسل وكَمُل ورثتهم مساوقة للعقل الأوّل، فهي موجودة متعيّنة متميّزة قبل إيجاد أجسامهم، ولهذا قال - ﷺ -: «كنت نبياً وآدم بين الماء والطين»<sup>(١)</sup>.

يريد: أن آدم لم يخلق حينئذ، أعلمه الله بذلك، وهو روح!! والنبوة الخبر، ولا يكون مخبراً إلا لمخبرين. وما عداهم من إنسان وغيره، فأرواحهم المدبّرة لصورهم كانت موجودة في حضرة الإجمال، كالحروف في المداد، غير متميّزة لأنفسها. وهي متميّزة عند الله مفضلة في حال إجمالها. فإذا كتب القلم في اللوح ظهرت صور الحروف مفضلة بعدما كانت مجتمعة في المداد، فقيل: هذا ألف، وهذا باء، وهذا دال... في البسائط. وهي أرواح البسائط. وقيل: هذا زيد وهذا عمرو وهذا أخرج وهذا قل... وهي أرواح الأجسام المركّبة، فإذا سوى الله الصور، أي صورة كانت؛ كان الروح الكلّ، كالقلم ويمين الله الكاتبة والصور كالحروف في اللوح. فنفخ الروح في صور العالم فظهرت الأرواح متميّزة، فقيل: هذا إنسان وهذا فرس وهذه حيّة وهذا طير... فعين وجود الصور عين حياتها، عين نفخ الروح فيها كل صورة بحسب استعدادها ومرتبته، كما نبهنا على ذلك مراراً، وذكر سيدنا ختم الولاية المفيدة محيي الدين - رضي الله عنه - أن الرجل إذا أفضى إلى زوجه وواقعها، واتّحدا لهذا الاجتماع المخصوص، وعمّتهما اللذة لهذا الاجتماع، فكانا كالمقدمتين، عند ذلك ينفصل من روحيهما روح الولد الذي هو النتيجة. وينفصل من جسديهما جسد الولد، وليس إلا النطفة. فجسد كل إنسان روحه المتجسّدة في الخيال المنفصل. وإذا انفصلت النطفة من الوالدين واستقرت في الرحم دبّرت نفسها إلى زمان انطلاقها من قيد التجسّد، إما بالموت الإرادي أو الطبيعي، وتسمّى هذه الحقيقة المدركة من الإنسان بأسماء كثيرة، بحسب تنزلاتها واعتباراتها فلها بكل اعتبار وتنزل اسم. تسمّى علماً من حيث أنها تحققّت الأشياء وبانت مراتبها وتميّزت أعيانها. وتسمّى روحاً من حيث أنها صورة الحياة الإلهية، ومن حيث أنها لا صورة لها تخصّصها، فلا تعرف إلا بآثارها في الصور، مشتقة من الريح، فإنها لا تدرك إلا بما تحركه من الأشجار، وبما تحمله من الروائح مثلاً وتسمّى اللطيفة الإنسانية لأنها ظهرت بالنفخ الإلهي، فهي سرّ لطيف

(١) أخرجه أحمد والبخاري في تاريخه والبغوي وابن السكن وأبو نعيم في الحلية وصحّحه الحاكم بلفظ: «كنت نبياً وآدم بين الروح والجسد»، وقال الترمذي حسن صحيح. (انظر كشف الخفاء ومزيل الإلباس للعجلوني حديث رقم ٢٠٠٥ و ٢٠١٥) طبعة دار الكتب العلمية - بيروت.

ينسب إلى الله على جهة الإجمال، من غير تكييف، وتسمى بالنفس الناطقة، عند الحكماء، يعنون المفكرة بالقوة. وتسمى عقلاً، لأنها أول شيء عقل عن الله ما يلقي إليه، ولأنه قيد الأشياء وحددها بعد إطلاقها مأخوذ من العقال، وهو القيد، وتسمى نفساً؛ لتنفسها في صور المراتب وانبساطها وتكثرها مع وحدتها الحقيقية. وتسمى قلباً لتقلبها بحسب المراتب التي تنزل إليها، وانصبغها بكل شيء يريد الحق - تعالى - منها. وتسمى سرّاً لتجردها الحقيقي عن كل شيء يتوهم ملابتها له ومباينتها لكل صورة؛ فإنها الوجود الحق الذي ليس منه شيء في شيء، فلروح الإنسان باطن، وهو السر، وللسر باطن وهو سر السر، ولسر السر باطن وهو الخفا، وللخفا باطن وهو الأخفى. وباطن كل شيء حقيقته ومادته، مثلاً، السرير باطنه قطع الخشب، وباطن قطع الخشب الشجر، وباطن الشجر العناصر الأربعة، وباطن العناصر الهولي الأولى. فالروح الأمري، حال كونه في غاية اللطافة، يسمى الأخفى. وحال تنزله درجة، يسمى الخفا. وحال تكاثفه أقوى مما قبله، يسمى السر. ثم كذلك فيسمى القلب، ويسمى النفس الناطقة. فإن تنزل فيسمى بالنفس الأمانة، والمراد من هذا المعنى، الذي البدن مركبه ومحل تدبيره وآلات تحصيل معلوماته المعنوية والحسية، وكان ظهوره وتعلقه بالبدن عن وجود لا عن عدم. فما حدث إلا إضافة التولية إليه بتدبير هذا البدن، وأعطى الروح في هذا المركب الآلات الروحانية والحية، لإدراك علوم لا يعرفها إلا بوساطة هذه الآلات السمع والبصر والشم، لا الأذن والعين والأنف؛ فهو لا يدرك المسموع إلا من كونه صاحب سمع، لا صاحب أذن. ولا يدرك المبصر إلا من كونه صاحب بصر، لا صاحب حدقة وأجفان، وإضافة هذه الآلات لا يصح ارتفاعها، وليست ترجع إلا إلى عين الحقيقة الإنسانية. وتختلف الأحكام فيها باختلاف المدركات، والعين واحدة. هذا مذهب أهل الكشف والوجود، ولا عبرة بمن خالف هذا من الحكماء أهل النظر.

### مثال لمن ليس له مثال

لما أنشأ الله الصورة الإنسانية كانت بمثابة مدينة أنزل فيها الروح، وجعل بمثابة الخليفة، عين له موضعاً منها هو موضع أمره ومحل خطابه ونفوذ أحكامه، سمّاه تعالى القلب. أعني القلب النباتي، الذي هو مضغعة لحم، في الجانب الأيسر، وهو لا فائدة فيه إلا من حيث أنه مكان لهذا السر المطلوب المتوجّه عليه الخطاب، وهو المحيّب إذا ورد عليه السؤال، وهو الباقي إذا فني الجسم، والقلب النباتي. ثم

بنى - تعالى - للخليفة منتزهاً عجباً عاليًا في أرفع مكان في هذه المدينة الإنسانية، سمّاه الدماغ، وفتح له فيه طاقات وخוחات يشرف منها على مدينته وهي العبتان والأذنان والأنف والشم. ثم بنى له في مقدّم ذلك المنتزه خزانة سمّاهها الخيال، جعلها تعالى مستقرًا، وخزانة للمبصرات والمسموعات والمشمومات والمطعومات والملبوسات وما يتعلق بها. ومن هذه الخزانة تكون المرآتي التي يراها النائمون، وهي خزانة واسعة جدًا، وفيها من الأمور العظام وخرق العادات ما لا يوجد في هذه الدار، وفيها توجد المحالات العقلية كقيام الأعراض بأنفسها وحياتها لأنفسها ونطقها وإيراد الكبير على الصغير مع بقاء الكبير على كبره والصغير على صغره، وتكلم الجمادات ووجود الشخص الواحد في مكانين، واجتماع الضدين... وغير ذلك مما لا يتصور وقوعه في هذا العالم، وهي المكني عنها عند سادات القوم - رضوان الله عليهم - بأرض السمسة، وهذه الخزانة يسمّيها المتكلمون بالحس المشترك، ويسمّيها الحكماء البنطاسيا، يريدون لوح النفس. وبنى له - تعالى - في وسط هذا المنتزه، وهو الدماغ خزانة الفكر، وهي التي ترفع إليها المتخيلات، فيقبل الصحيح منها ويرد الفاسد. وبنى له في آخر هذا المنتزه، وهو الدماغ، خزانة الحفظ، أودع فيها محفوظات الإنسان وأكثر أهل السنة لا يثبتون الإحساسات الباطنة، ثم جعل - تعالى - للخليفة الروح وزيرًا هو العقل؛ لأن الحكمة الإلهية اقتضت أنه لا يستقيم أمر خليفة إلا بوزير، يكون واسطة بينه وبين رعاياه، أوجده - تعالى - في ثاني مقام من الخليفة، وهو موجود عجيب ومخترع غريب، نور مشرق في القلوب، فكما أن العالم الكبير له الروح الكلى، والعقل الكلى، والنفس الكلية، كذلك العالم الصغير، له الروح الجزئي، والعقل الجزئي، والنفس الجزئية، فالروح له الأولية؛ إذ هو أمر الله، والعقل ناشئ عنه. فالروح يمدُّ المدينة الإنسانية والصورة الأدمية بالحياة والقدرة والسمع والبصر والكلام، ويمدُّ العقل بالعلم وكيفية تدبير المدينة. ومن ثمّ ترى الذين لا عقول لهم يسمعون ويبصرون ويتكلمون ويقدرون... ومع ذلك ليس لهم تدبير ولا علم بمواقع الأمر والنهي، لخلق مدينتهم عن العقل، فإنه إنما سمّاه - تعالى - عقلًا؛ لأنه يعقل عن الله أمره ونهيه وخطابه، وكلما يلقيه إليه، فعليه يتوجب الخطاب، إذ هو وزير المدينة الإنسانية ومدبرها، فلو كانت المدينة خالية من الخليفة لكانت في حكم الجمادات. ولو كانت خالية من الوزير لكانت من جملة البهائم، وإن كان الروح فيها قائمًا عليها؛ إذ الروح ليس له تدبير المدينة الإنسانيّة، فلا يفرق بين الحلال والحرام، ولا بين

الطهارة والنجاسة، ولا بين الحسن والقبح، وإنما هذا للعقل، فلا تقوم المدينة الإنسانية إلا بالخليفة. ولا يستقيم أمرها إلا بالوزير. أنزل - تعالى - العقل الوزير، من الروح الخليفة منزلة القمر من الشمس، فليس للقمر نور في نفسه، فأشرق الشمس بنورها على القمر؛ فاكسب منها نورًا لضياته، فكان هو الشمس في نفس الأمر من حيث النور، وافتراقا بين حيث الرتبة، فإن الشمس نورها ذاتي لها، والقمر نوره مكتسب. فلذلك إذا طلعت الشمس بالنهار وأشرق نورها اختفى نور القمر وغيره. وإذا طلع القمر بالليل وأشرق نوره ظهرت معه جميع الأنوار. فالروح أمر الله، له النور التام، إذا ظهر لا يظهر معه نور، فلا يكون للعقل الوزير حكم. فلماذا إذا غلب حكم الروح على إنسان بهت، وتراه لا يعقل ولا يدرك، كالقمر إذا وقع في قبضة الشمس، فمتى لم يغلب على الإنسان نور الروح أو ظلمة الطبيعة كان معتدلاً يؤذي إلى كل ذي حق حقه؛ لأن الظلمة لها حق في مقام العبودية، فيؤذي حق الخالق والخلق. ومتى غلب على الإنسان النور أو الظلمة المحض كان الإنسان لما غلب عليه، وليس ذلك بكمال، فإنه إذا توجه بكلمة إلى النور المحض، ولم يراع ما يقتضيه العقل قبل كماله فسد أمر عبوديته والتحق بالمجانين أو الملحدين الإباحيين. وكذلك إذا وقف عند العالم بحيث يمنعه النظر في عالم طبيعته عن النظر في عالم النور والعقل، يمدح باعتبار أنه نور، وعليه يدور أمر الإيمان والشرائع ومقتضيات العبودية ويذم باعتبار أنه العقل المعاشي المربوط بشهوة النفس؛ لأن العقل من حيث هو مقيد تحت فلك القمر؛ فليس له قوة الإطلاق، وهو روحاني مهياً لقبول المعاني الإلهية، متوجه إلى العالم الأعلى. وحيواني مهياً لتدبير المعاش الكونية، متوجه إلى العالم الأسفل؛ فالأول عقل أصحاب الأرواح الطاهرة، والثاني عقل أصحاب النفوس الأمارة الحيوانية. فإذا اشتغل الجسم بالأمور الطبيعية السفلية يغيب الخليفة الروح عن المدينة الإنسانية، ويبقى الوزير العقل يفيض أنوار حكمه على المدينة الإنسانية، كالقمر ليلاً. وفيضاته إلى النفس النباتية، فتسوسه نفسه النباتية التي هي جسمه، بما هي عليه من صلاح المزاج، فيكون كالطفل الذي مات أبوه. فمتى احتجب الخليفة، كان للوزير الظهور وإنفاذ الأوامر والإعطاء والمنع. ألا ترى القمر إذا حصل في قبضة الشمس، لا يكون له نور ولا ظهور؟! فإذا كانت الليالي البيض كان له النور التام، لغية الشمس عن أعين الناظرين. فالقمر في ذلك الوقت، قد كمل نوره لكمال مشاهدته، لمن هو مستمد منه. والناس لا يشاهدون ذلك الوقت إلا القمر، ولما أنشأ الله - تعالى - بنيه العقل الوزير أودع فيه حسن

التدبير، وجميع الأمور اللازمة للمدينة الإنسانية، فصار محلاً للعلوم الإلهية ورأساً في تدبير الأمور الكونية، ولا يدري المحلات التي يصرفها فيها ولا متى يصرفها حكمة من الحق - تعالى - ليكون العقل مضطراً إلى الخليفة الروح، ليفيده ويعلمه ما جهل، وكيفية تلقي العقل الوزير العلوم من الروح الخليفة، أنه إذا أراد العقل معرفة شيء في تدبير المدينة الإنسانية وإصلاحها، توجه إلى مشاهدة الروح الخليفة. فعند مشاهدته يلوح له المراد، فيقوم له التجلي من الروح منزلة الخطاب، من غير حرف ولا صوت؛ إذ المراد حصول علم تدبير المدينة الإنسانية، فهو كشف روحاني ومعنى ذوقي. وبهذا يعبر عن مخاطبيه كل ما ليس له كلام، إذا لم تكن هناك حروف ولا أصوات ولا غير ذلك من الدلائل. فلك أن تنظر إلى ما تؤذي إليه تلك الأدلة من الأصوات وغيرها في قلب السامع، وهو حصول المعنى. وهو أثر الكلام من المخاطب. فإذا حصل للعقل آثار العلوم من فيض الروح عبر عنه بالكلام والقول والخطاب. فإذا أراد الخليفة الأعظم، وهو الروح الكل، العقل الأول، أن يظهر أمراً من الأمور من عالم الغيب إلى عالم الشهادة تجلي للقلب، فانشرح الصدر لذلك الأمر. وذلك عبارة عن كشف الغطاء عن ذلك الأمر، فارتقم في القلب مراد الإمام الأعظم الروح الكل، والقلب هو مرآة العقل الجزئي وزير الروح، المولئ على المرتبة الإنسانية، فرأى العقل في مرآته ما لم يكن رآه فقبل ذلك، لأن القلب هو النقطة التي يدور عليها محيط الأسماء. فإذا قابلت اسماً من الأسماء انطبع ذلك الاسم. أعني ما يطلبه ذلك الاسم من الأثر. فلهذا سمي قلباً، لسرعة تقلبه لمقتضيات الأسماء. فإذا رأى العقل ما رأى، وعرف أنه مراد الخليفة الأعظم الروح الكل استدعى الكاتب، وهو الروح الجزئي، فأطلعه على المراد وقال له: أكتب في لوح النفس، أعني النفس الجزئية، كذا وكذا. فإذا حصل في لوح النفس خرج على الجوارح. لا يقال العقل وزير الروح، فهو دونه، فكيف يستدعيه إلى الكتابة؟! لأننا نقول: الروح له حضرتان: حضرة في الغيب، وهو الروح الأعظم الذي لا يعبر عنه بعبارة، فإنه مقدس عن إدراك العقول، فضلاً عن غيرها، وله حضرة في الشهادة، وهو الروح المنفوخ في الصورة، المدبر لها بما يلقي إليه من روح الروح، فيكتبه في لوح النفس، بإشارة العقل؛ لأنه صاحب تدبير المدينة الإنسانية؛ فهو فرق اعتباري، ولا فرق بينهما في مقام الجمع، لكن له مراتب يظهر فيها؛ فالتعدد للمراتب لا للظاهر فيها. ومنها يظهر الفرق عند أهل الفرق. ثم أوجد الله - تعالى - للروح الجزئي الخليفة على المدينة الإنسانية، النفس الجزئية، وهي



متولدة بين الطبيعة وهي أمّها. والروح الإلهي أبوها، يقول سيدنا ختم الولاية المحمدية محيي الدين - رضي الله عنه :-

أنا ابن آباء أرواح مطهّرة وأمّهات نفوس عنصريات

فللنفس المقام الثالث، لأنها نشأت عن العقل، كما نشأت حواء من آدم فهي بعضه، وكما نشأت النفس الكلّيّة من العقل الأوّل، فهي بعضه، ولوح كتابته. فالنفس الجزئية لوح كتابة العقل الجزئي. والإنسان له أربع نفوس: نفس جمادية، وبحياة هذه النفس تشهد الألسنة والأيدي والأرجل والجلود يوم القيامة. ونفس نباتية، بها يطلب الإنسان التغذي. ونفس حيوانية، وبها يحسّ ويتحرّك، ونفس إنسانية. والنفس من حيث هي جوهر شأنه الإدراك والفعل والتعلّق بجسم تتصرّف فيه؛ فإن كان الجسم لا يقبل إلاّ تصرّفًا واحدًا على وتيرة واحدة فهي النفس الكلّيّة. ثم إن لم يكن أظهر أمور النفس إلاّ حفظ صورة الجسم ونظامه، فهي النفس الجمادية. وإن كانت النفس مع ذلك تعطي تنمية وتوليد الأشخاص من نوعه فهي النفس النباتية. وإن كانت النفس مع ذلك تعطي تحريكًا اختياريًا وإحساسًا، فهي النفس الحيوانية. وإن كانت مع ذلك تصدر الأفعال والحركات منها عن تميّز ونظر ورؤية فهي النفس الإنسانية. ثم إن كانت قوّة تمييزها ونظرها حاصلة لها حال تعلّقها بالجسم، وبعد مفارقتها فهي قوّة ربّانيّة، تسمّى النفس باعتبارها روحًا، فالنفس الإنسانية تفيض في النفس الحيوانية قوى فعالية. والنفس الحيوانية تفيض في النفس النباتية قوى حركيّة. والنفس النباتية تفيض في النفس الجمادية قوى هي مبادئ ما تمسك الجسم على صورته ونظامه. والنفس الإنسانية هي محل التغيير بالمخالفات الشرعيّة، ومحل التطهير بالموافقات والطاعات الإلهيّة. وفي الحقيقة لا مخالفة للنفس من حيث هي، ولا خبث فيها ولا معصية لها، وإنما الحق - تعالى - جعلها في كل هيكل على حسب ما يليق به، فتدبّره بما هو مكتوب له وعليه من الأزل، إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشرّ. فكلما يكتبه الكاتب في لوح النفس حسن جميل؛ لأنه أمر الله، حتى يصدر عن النفس، فيحكم عليه الشرع بحكمه، من حسن وقيح. فالنفس طاهرة مقدّسة، تنفّذ أمر الله بالعبد خبيثًا أو غيره، فلها وجهان: وجه إلى الملكوت، وهي بهذا الاعتبار أمر الله وروحه المقدّسة. ووجه إلى الملك وهي النازلة إلى أسفل سافلين. فقد دُنست بتدنّس أوانيها، كالماء الطاهر ينزل في الأواني النجسة، فلا تدمّ النفس إلا بتصرّفها آلتها في المذموم شرعًا، والنفس برزخ بين ظلمة الكون ونور العقل. والعقل برزخ بين النفس وظهور الروح. والروح برزخ بين



الخالق والمخلوقات، فالروح صورة الحياة، والنفس ظل الروح، والجسم قابل الروح والنفس، فالروح باق، والنفس فان، والجسم موات، فمنزلة النفس الإنسانية الناطقة من الجوهر الروح الكل منزلة قوى النفس الناطقة من الجوهر الجسم. فقد تبين مما ذكرنا: أن مجموع حقيقة الإنسان، باعتبار التفصيل روح وعقل ونبس؛ فهم الحاكمون على المدينة الإنسانية. أما الروح فهو واحد قدسي، تختلف أحكامه باختلاف الأعضاء، فهو واحد كثير، ولا يدبر الجسم، لأنه الخليفة، له الاحتجاب. وأما العقل فهو نور الروح، وهو يدبر المدينة الإنسانية بأمر الروح. وأما النفس فهي نور العقل، وهي بمنزلة الخادم، يصرفها كيف شاء، فإن كمل العقل في تدبيره كملت النفس في خدمتها، والعكس بالعكس. وجملة هذه الثلاث - في الحقيقة - أمرٌ واحد، هو أمر الله الواحد بالذات، المتكثر بحسب كثرة مراتبه. مثال ذلك: الشمس، إذا قابلت الجسم الصقيل فإنه ينبعث من ذلك الصقيل نور يضيء به موضع لا تقابله الشمس بقرصها، بانعكاس الشعاع؛ كضوء القمر، فإن الشمس بالليل تحجبها عن الأرض، فيضرب نورها إلى السماء، فإذا كان القمر فوق الأرض في السماء ضرب فيه نور الشمس، لكون القمر صقيلًا، وهو يقابل الشمس، فيخرج من القمر نور ينعكس إلى الأرض، فتشرق الأرض؛ فمن أراد أن يرى الشمس، من غير أن ينظر إليها فلينظر الموضع الذي ضرب فيه نور الشمس من الجسم الصقيل، فإنه يشهد الشمس في ذلك الموضع، من غير أن ينظر إليها في السماء، لأن الذي رآه هو عين ما في السماء؛ فهنا ثلاثة أركان: قرص الشمس، والجسم الصقيل، وموضع ضرب الشعاع المنعكس، ولما أوجد الله - تعالى - الروح الخليفة، على الكمالات التي ذكرناها، والأوصاف العلية التي أسلفناها، أراد - تعالى - أن يعرفه بعجزه وافتقاره، وأنه لا حول له ولا قوة إلا بالله مبدعه وربّه ومولاه. أوجد له - تعالى - منازعًا في مملكته، وأثار عليه في مدينته التي ولّاه الله عليها ثائرًا قويًا كثير الخيل والرجل، سمّاه - تعالى - الهوى، وهو كل ما تميل إليه النفس وتستحليه من الأمور الطبيعية واللذات المعجلة المحببة لها، المزينة في عينها في الوقت، فوقعت النفس بين أمرين قويين: هذا يناديها لطاعته ومشيتها على ما يرضيه، وهذا يناديها لطاعته واستعمالها لما يشتهي، فإن أجابت النفس داعي العقل، الذي هو وزير الخليفة ومدبر المدينة الإنسانية حصل لها اسم المظمئنة. وإن أجابت داعي الهوى والشیطان حصل لها اسم الأتارة بالسوء، والكلُّ من عند الله تعالى. قال:

﴿فَالْمَهْمَا جُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ ﴿الشمس: الآية ٨﴾.

وقال: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ [النساء: الآية ٧٨].

وقال: ﴿كَلَّا نُمَدُّ هَتُوْلَاءَ وَهَتُوْلَاءَ مِّنْ عَطَايِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاؤُ رَبِّكَ مَحْظُوْرًا﴾ [الإسراء: الآية ٢٠].

فعندما حصل الحرب والمنازعة بين الروح الخليفة، والهوى المنازع له رجع الروح بالشكوى إلى الله - تعالى - يطلب منه النصر والعون على دفع الثأر وقمعه وردّه على عقبه. وهذا كان مراد الحق - تعالى - وهو الحكمة في إجابة النفس داعي الهوى والشهوة، وعمائها عن رشدها وطريق سعادتها. وأن النفس عرفت ما عندها وما لها، من حيث حقيقتها في إجابة دعوة الخليفة. ولما سمعت داعي الهوى يدعوها أرادت أن تعرف ما عنده، وماذا تحت طيّ دعوته، فأصل النفس روح الله، وروحه أمره، وأمره صفته، وصفته عين ذاته؛ فما أعماها وأصلها عن أصلها إلا القرب المفرط، وما تشهده الحواس من العالم الطبيعي الكثيف، فلهذا صارت النفس جاهلة بأصلها، وهو الحق - تعالى - ولولا ذلك لظهر بالفعل ما هو باطن فيها من الكمالات الإلهية.

## خاتمة

### أسأله سبحانه حُسن الخاتمة

اعلم أن الروح المسمى باللطيفة، لما تعلق بالجسم وتديبره، وشهد ما هي الأجسام عليه، وما تنتجه مما لم يشهده في عالمه، عالم المجزئات؛ إذ عالم المجزئات، لا ذوق له في عالم الأجسام، فلما أهبط إلى عالم الأجسام تولّع بها وعشق الهيكل وأحبّه حباً لا يتصوّر أشدّ منه ولا أعظم؛ لأن الهيكل هو الوساطة في شهوده لعالم الأجسام، وإدراك الجزئيات من العلوم، وغيرها، وتحصيل ما لا يحصل إلاّ من تعلقه بالأجسام، ولشدة محبة الأرواح لنهايتها غفلت عن أنفسها، وذملت عنها، ولم يثبت عندها إلاّ أجسامها، فإنها نظرت إلى أجسامها نظر الاتحاد. فحلّت فيها حلول الشيء في هويته ومادته، فاكتسبت التصوير الجسمي. فليس عندها إلاّ الأجسام، كما يذوقه جميع الناس، حتى قالت طائفة: مسمّى الإنسان ليس إلاّ الجسم فقط. وهذا وإن ورد في القرآن فهو ظاهر لا نص، والحق أن مسمّى الإنسان: مجموع الجسم والروح، لا الجسم وحده، ولا الروح وحده، وإنما أحبّ الروح وحده الظهور لأن الوجود الحق الساري في جميع

الموجودات، الذي هو أصل الروح أحب الظهور، كما ورد في قوله: «أحببت أن أعرف»<sup>(١)</sup>.

وإذا فارقت الأرواح هياكلها وأجسامها لا ترى أنفسها إلا على صورة هياكلها وصورها قبل الموت الطبيعي وبعده. ولا تغفل عنها طرفة عين، إلا أهل الكشف والانسلاخ، من أهل الله، فإن أرواحهم مطلقة في الدنيا والبرزخ. وأرواح من عداهم مقيدة دنيا وبرزخاً، والتجسد والتصوّر للأرواح المقيدة إنما هو في نظرها وشعورها؛ وإلا فهي مجردة أبداً، فهيكلك كل إنسان وصورته هو روحه المتجسد حالة تجرّده في عالم الخيال المطلق، كما يتجسد العلم في الخيال المقيد، ويظهر بصورة اللين وهو هو، فتجسد الأرواح وظهورها بالهياكل والصور ليس إلا في شعورها لا غير. فإذا زال عنها ذلك الشعور، بالموت الطبيعي أو الإرادي؛ بقيت عند نفسها على ما كانت عليه في نفس الأمر من التجرد، فإنها في حال تجسدها في شعورها كانت في نفس الأمر مجردة، ولا يزول عنها هذا الدهول والغفلة إلا بالموت الطبيعي أو الإرادي، قال تعالى: ﴿فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: الآية ٢٢].

فالروح على حالها من الأزل إلى الأبد، وما كانت تنزله إلا بحسب شعوره بالمراتب الخلقية، والتنزلات الوهمية، ما انتقل إلى غيره ولا ارتحل إليه غيره. وأن أول المراتب التي تنزل إليها نشأة العقل الأول، وذلك عبارة عن شعوره بها لأنه لما شعر - وشعوره عينه وعين ما شعر به - انصبغت ذاته بها عنده، فظهر عند نفسه بصورتها، لا أنه انتقل إليها ولبسها، ولا أنها انتقلت إليه وقامت به. فإذا علمت أن الأرواح مجردة حال تجسدها، ومجسدة حال تجرّدها، أعني بعد الموت وما ورد في الآيات القرآنية، والإخبارات النبوية، من نسبة الدخول والخروج وغير ذلك من صفات الأجسام كالحلول والقبض عليها، والدخول والخروج وغير ذلك من صفات الأجسام كالحلول والقبض عليها، وفتح أبواب السماء لها، وغلقها دونها ونحو هذا؛ فكله تمثيل، وكناية وتوصيل؛ إذ الأرواح عند تعلّقها بالأجسام وتدبيرها لها لا تفارق أصلها، وهي ناظرة إلى أجسامها وهياكلها، فهي تحلّ موضع نظرها من غير مفارقة لمركزها الأصلي. وهذا أمر تحيله العقول المعقولة بعقال الحسّ والعادة. وبعد نظرها إلى الأجسام دخولاً وحلولاً، وإذا بطل

(١) هذا الحديث سبق تخريجه.

تدبير الأرواح لهذه الأجسام العنصرية بالموت الطبيعي انتقلت إلى تدبير أجساد خالية طبيعية. واختلف أهل الطريق في هذه المسألة على ثلاث فرق، والحق أن الأرواح المدبرة لا تزال مدبرة برزخاً وآخرة، لأنها لم تظهر إلا عن تدبير وهيكلي مدبر، وهو أصل وجودها، فلا تنفك عن التدبير أبداً، فهي تدبر صوراً طبيعية عينية حسية لها دنيا وبرزخاً وآخرة، وحيث كانت. فأول صورة لبستها الصورة التي أخذ عليها الميثاق فيها، ثم الصورة الدنياوية، فإذا مات - وموت كل صورة هو بطلان حكم روحها فيها - فإذا مات الإنسان حشر روحه إلى صورة أخرى، إلى وقت سؤاله، فإذا جاء وقت سؤاله حشر إلى جسده الموصوف بالموت، فيسأل فيه. وغير بعيد في الاقتدار الإلهي أن يصير جسم الأرض كجسم الهواء أو جسم الماء، فإن كثافة الأرض ما هي ذاتية لها. ثم بعد سؤاله يحشر إلى صورة أخرى في البرزخ، إلى نفخة البعث، فيبعث من تلك الصورة التي كان فيها في الدنيا، إن كان عليها سؤال، فإن لم يكن عليه سؤال حشر في الصورة التي يدخل بها الجنة. والمسؤول، إذا فرغ من سؤاله حشر إلى الصورة التي يدخل بها الجنة أو النار. وفي كل صورة ينسى صورته التي كان عليها، ويرجع حكمه إلى الصورة التي انتقل إليها. وتنقل القوى مع الروح إلى الصورة التي انتقل إليها، فتكون ذرّاة بجميع القوى، سواء لا سيما أهل الهياكل المنورة، فإنهم لا يبالون لمفارقتها متى كانت، لأنهم في مزيد علم دائماً، فهم ملوك أهل تدبير دائماً، والآلات مصاحبة لا تنفك في الدنيا ولا في البرزخ ولا في الآخرة. والصور البرزخية للأرواح على صور أخلاقها، وهي قوله:

﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ ﴿٨﴾ [الانفطار: الآية ٨].

أي الصور الروحية، فثم شخص، الغالب عليه البلادة والبهيمية، فروحه روح حمار؛ فتكون صورته في البرزخ صورة حمار، وثم شخص الغالب عليه المكر والخديعة والروغان، فروحه روح ثعلب، فصورته في البرزخ صورة ثعلب، وثم شخص الغالب عليه النهم والشراهة وكثرة الأكل، فروحه روح خنزير، فصورته في البرزخ صورة خنزير، وكذا كل صفة. وأكمل الأرواح صفة الإنسان وروحه، فليس الموت بعدم محض، ولا هو ضد الحياة، عند المحققين من أهل الله، أعني الحياة التي هي بغير سبب، فإن للأشياء حياتين: حياة بسبب، وحياة بغير سبب، وهي ذاتية للأشياء؛ إذ الحياة فيض من حياة الحق - تعالى - . فالأشياء حية في حال ثبوتها وعدمها. ولهذا سمعت وامتلئت الأمر «بكنن» فكانت لأنفسها، فما نسب - تعالى - الكون إلا لها بقوله: «فَيَكُونُ»، فمنه - تعالى - الأمر بالكون فقط. وإنما الموت عبارة عن

عزل الوالي عن تدبير الجسم، وتوليته لتدبير آخر، لا على طريق التناسخية؛ فإنهم يقولون برجع الأرواح إلى تدبير أجسام عنصرية في هذا العالم المحسوس، فالموت بطلان معترف الروح في الجسم، الذي كان لها التصرف فيه فقط. وإذا أراد الله أن ينشئنا النشأة الآخرة كانت الصورة التي ينشئها للبقاء طبيعة لا عنصرية، فتقبل الاستحالة والفناء، فهي كالأجسام التي خلقها الله للبقاء، العرش والكرسي والأطلس، وفلك الثوابت، أعني صور السعداء، وأما الأشقياء، فإن صورهم عنصرية. ولذا قبلت النضج والتبدل في الجلود، كما ورد؛ فالنشأة الآخرة، ما هي الأولى من كل وجه، ولا نشأة للناس كلهم فيها سواء. ولذا قال تعالى: ﴿وَنُنشِئُكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الواقعة: الآية ٦١].

وورد في الأخبار النبوية، من صفات أهل الجنة والنار، ما يخالف هذه النشأة التي علمناها، قال: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى﴾ [الواقعة: الآية ٦٢].

بعد قوله: ﴿وَنُنشِئُكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الواقعة: الآية ٦١].

وأما قوله: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ [الأعراف: الآية ٢٩].

فمعناه: كما بدأكم على غير مثال سبق، كذلك تعودون على غير مثال. فالخطاب للأرواح الإنسانية، يخبرها أنها تعود إلى تدبير أجسام في الآخرة، كما كانت في الدنيا، على المزاج الذي يخلق الله تلك الأجسام عليه. فهذه فائدة قوله: ﴿تَعُودُونَ﴾ [الأعراف: الآية ٢٩]، فلا تلتفت إلى أقوال المتكلمين وكثرة اختلافهم في هذه المسألة، أعني مسألة ما يعاد من الإنسان، فإنهم خبطوا خبط عشواء. فإذا سوى - تعالى - الصورة الآخرة كانت كالحشيش اليابس، وهو الاستعداد لقبول الأرواح، كاستعداد الحشيش لقبول الاشتعال، والصور البرزخية كالسراج، مشتعلة بالأرواح التي فيها، فينفخ إسرافيل - عليه السلام - فتمرّ النفخة على الصور البرزخية فتطفئها. وينفخ نفخة أخرى، فتمرّ على الصور المستعدة للاشتعال، فتشتعل بأرواحها، فإذا هم قيام ينظرون، وقد ورد في الخبر الذي قدمناه: أن السماء تمطر مطراً شبه المني، فتمخص به الأرض، فتنشأ منه الأجسام على عجب الذنب، ويؤيد هذا الخبر، ما ورد في آيات كثيرة، من تشبيه البعث بإخراج النبات من الأرض. قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبْرَكًا﴾ [ق: الآية ٩].

إلى قوله: ﴿كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾ [ق: الآية ١١]، الخروج يعني البعث.

وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ [الأعراف:

الآية ٥٧].

إلى أن قال: ﴿كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى﴾ [الأعراف: الآية ٥٧].

وقال: ﴿فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ

ذَلِكَ لَمُعْجَى الْمَوْقِفِ﴾ [الرُّوم: الآية ٥٠].

ونحو هذا كثير في القرآن، وقد ورد في الصحيح: «كل ابن آدم يأكله التراب،

إلا عجب الذنب»<sup>(١)</sup>.

وعجب «كفلس» وهو الذرة الي هي أصل شجرة الجسم، وحب بذره، وعليها أنشأ الله النشأة الأولى، وعليه ينشأ النشأة الأخرى، واختلف أهل الطريق في تفسير عجب الذنب الذي تركب عليه النشأة، وهو لغة، ما صممه الوركاب من الحيوان، وهو العصعص. فقال حجة الإسلام الغزالي: «هو النفس» يعني الجمادية. وقال أبو زيد الرقراقي: هو جوهر فرد، عليه تركبت النشأة الأولى الدنيا، ويبقى لا يتغير، وعليه تركب النشأة الأخرى، يعني بهذا الجوهر حقيقة الماء، الذي هو أصل الأجسام؛ فإن أصل كل مركب: جوهر صفته النفسية الجوهرية والفردية وقبول التحيز والاتصاف بأمر وجودية تحل فيه وترتفع منه وبسببانه يصنع مقداراً ذا أبعاد، وهو الجسم. وهذا الجوهر يقبل التغير والبلى، ولولا أن الشارع أخبر أنه لا يبلى ولا يأكله التراب، إن كان هو مراده - ﷺ - . وقال ختم الولاية المحمدية سيدنا محيي الدين - رضي الله عنه - : عجب الذنب الذي هو ما تقوم عليه النشأة، وهو لا يبلى، أي لا يقبل البلى، فإذا أنشأ الله النشأة الآخرة وسواها وعدلها، وإن كانت هي الجواهر فإن الذوات الخارجة إلى الوجود من العدم لا تنعدم أعيانها بعد وجودها. ولكن تختلف فيها الصور بالامتزاجات، والامتزاجات التي تعطي هذه الصور أعراض تعرض لها بتقدير العزيز العليم. ففسر - رضي الله عنه - عجب الذنب بما تقوم عليه النشأة الجسمانية، وهي إنما تقوم على عدة جواهر روحانية. وإن كانت في الحقيقة جوهراً واحداً، وهذه الجواهر لا تبلى، أي لا يجوز عليها البلى؛ فإن الجواهر لا تنعدم بعد إيجادها أبداً، بخلاف الجوهر الذي فسّر به الرقراقي، فإنه يقبل البلى، وأكل التراب إياه، لولا أنه - ﷺ - أخبر أنه لا يأكله

(١) رواه مسلم: كتاب الفتن، باب ما بين الضحيتين، حديث رقم (١٤٢) - (٢٩٥٥). ورواه غيره.



التراب، ولا يبلى. إن كان هو المراد، وإنما عبّر - ﷺ - عما يتركب عليه جسم الإنسان بعجب الذنب، حيث كان الإنسان نباتاً ينمو إلى فوق، وإلى تحت، كالنبات. وما يتركب عليه جسم الإنسان كالبذرة، ثم ينمو إلى فوق وإلى تحت؛ فحركته ونموه، من عجب الذنب الذي هو البذرة، إلى الرأس، حركة مستقيمة. وإذا ظهرت الرجل والساق، فعن حركة منكوسة، والكل في التحقيق مستقيمة، فإنها طبيعية، كما تبين فيما تقدم.

فها قد تم ما أراد الحق - تعالى - إظهاره على لسان عبده، من كشف بعض أسرار التجلي، بكليات المراتب، وبعض الأنواع تميمًا للفائدة، مع تقييد ما لساداتنا في ذلك من إطلاقات، وتفسير ألفاظ مبهمات، وتفصيل أشياء أرسلوها مجملات، وتنوير مسائل ما برحت مظلمات، وحسر النقاب عن مخدرات، لم نزل من وراء حجب الغيرة مصونات، ربما لا توجد في كتاب، فإنها من فتوح الوقت، وهب الوهاب حرصاً على توصيل العلم لإخواني، فإن قاسيت الجهل فعناني وأعياني. فمن عرف هذا الموقف حق المعرفة، وأقام جداره فاستخرج كنزه وكشفه كان ممن فتح له الباب، ورفع بينه وبين ربه الحجاب، وقيل له: ها أنت وربك، فإن الأمر كما قال بعض سادات القوم: «مَنْ دَلَّكَ عَلَى الدُّنْيَا فَقَدْ غَشَّكَ، وَمَنْ دَلَّكَ عَلَى الْعَمَلِ فَقَدْ أَعْبَكَ، وَمَنْ دَلَّكَ عَلَى اللَّهِ فَقَدْ نَصَحَكَ». وليست الدلالة على الله إلا العلم به، ومن شاء فليجعل هذا الموقف، رسالة مستقلة، يسميها «بغية الطالب، على ترتيب التجلي بكليات المراتب».

\* \* \*

### الموقف التاسع والأربعون بعد المائتين

قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَطَهَّرْتَ عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾ [التخريم: الآية ٤].

الخطاب لعائشة وحفصة - رضي الله عنهما - تظاهرا تعاونا على رسول الله - ﷺ - فإن الله هو مولاه وناصره ومؤيده، وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير، أعوان على نصره رسول الله - ﷺ - .. انظر وتأمل أمر هاتين السيدتين تجده أمراً إمرأ، وتعلم أن لهما المكانة الكبرى، حيث جعل تعالى نفسه في مقابلتهما نصره لرسول الله - ﷺ - مع جبريل وصالح المؤمنين وجميع الملائكة - صلى الله عليهم جميعهم - فهل هذا إلا شيء يُذهل العقول، ولا يبقى

معه معقول؟! وكم مرّة ذكر سيدنا في الفتوحات هذه الآية مستعظماً لها؟ وما كشف سرّها.

وكشف هذا السرّ، وإيضاح هذا الأمر، بطريق النذر والإشارة لا بالإسهاب، وتفصيل العبارة هو أن المرأة من حيث ما هي امرأة مظهر مرتبة الانفعال، وهي مرتبة الإمكان. ومرتبة الانفعال لها الشرف الباذخ، والمجد الراسخ؛ فإنه لولاها، أي لولا مرتبة الانفعال، وهي مرتبة الإمكان والقبول، لتأثير مرتبة الفعل، وهي مرتبة الألوهة، مرتبة الأسماء، ما ظهر لأسماء الألوهة أثر، ولا عرف لها خبر؛ إذ علة التأثير والإيجاد مركبة من الفاعل، وهي مرتبة الألوهة والوجوب. ومن القابل، وهي مرتبة الإمكان والانفعال، فلذا كان الفاعل لا يفعل في المستحيل، فإنه لا يقبل التأثير، ولا ينفعل لفعل الفاعل، مع ما حصلته هاتان السيدتان من الكمال بمظهريتهما لمرتبة أسماء الألوهة والتحقّق بها، فإن الكمال يكون في النساء، كما شهد بذلك رسول الله - ﷺ - فليس الكمال خاصاً بالرجال. والحق - تعالى - جلّ وعزّ أن يوصف بالانفعال، إلّا عن بعد، بالنظر إلى قوله:

﴿أَجِيبْ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: الآية ١٨٦].

وجبريل وجميع الملائكة ليس لهم الجمعية التي للإنسان، ولا التحقّق بمرتبة الإنسان، ولا المظهرية لمرتبة الانفعال، وصالح المؤمنين، وإن كانوا يظهرون بجميع ما اشتملت عليه مرتبة الفعل، وهي الألوهة، فيكونون مظهرًا لها؛ فليس لهم أن يكونوا مظهرًا لمرتبة الانفعال، التي للنساء التحقّق بها. فلهذا السرّ كانت لهاتين السيدتين القوة العظمى، التي أشارت إليها الآية الكريمة.

\* \* \*



## فهرس المحتويات

٥٢	الموقف الثامن	٥	تقديم
٥٥	الموقف التاسع		ترجمة الأمير عبد القادر الجزائري
٥٦	الموقف العاشر		(١٢٢٢ هـ - ١٣٠٠ هـ /
٥٦	الموقف الحادي عشر	٨	١٨٠٧ م - ١٨٨٣ م)
٥٧	الموقف الثاني عشر		الأمير عبد القادر يقيم دولة مستقرة
٥٨	الموقف الثالث عشر	١٠	أمنته
٦٠	الموقف الرابع عشر	١١	الأمير عبد القادر في الأسر
٦٢	الموقف الخامس عشر		الأمير وحادثة الستين ١٢٧٦ هـ /
٦٣	الموقف السادس عشر	١٥	١٨٦٠ م
٦٥	الموقف السابع عشر	٢٢	الأمير والتصوف
٦٦	الموقف الثامن عشر	٢٣	مؤلفات الأمير عبد القادر
٦٨	الموقف التاسع عشر	٢٣	من صفات الأمير عبد القادر
٦٩	الموقف العشرون	٢٥	وفاته
٧٠	الموقف الواحد والعشرون	٢٧	وبه نستعين
٧٢	الموقف الثاني والعشرون	٤٣	الحمد لله وحده
٧٤	الموقف الثالث والعشرون	٤٣	الموقف الأول
٧٥	الموقف الرابع والعشرون	٤٦	الموقف الثاني
٧٦	الموقف الخامس والعشرون	٤٨	الموقف الثالث
٧٧	الموقف السادس والعشرون	٤٩	الموقف الرابع
٧٧	الموقف السابع والعشرون	٥١	الموقف الخامس
٧٨	الموقف الثامن والعشرون	٥٢	الموقف السادس
٧٩	الموقف التاسع والعشرون	٥٢	الموقف السابع

الموقف التاسع والخمسون .....	١١٢	الموقف الثلاثون .....	٧٩
الموقف الستون .....	١١٤	الموقف الواحد والثلاثون .....	٨٠
الموقف الواحد والستون .....	١١٦	الموقف الثاني والثلاثون .....	٨٢
الموقف الثاني والستون .....	١١٦	الموقف الثالث والثلاثون .....	٨٣
الموقف الثالث والستون .....	١١٨	الموقف الرابع والثلاثون .....	٨٣
الموقف الرابع والستون .....	١٢١	الموقف الخامس والثلاثون .....	٨٤
الموقف الخامس والستون .....	١٢٢	الموقف السادس والثلاثون .....	٨٦
الموقف السادس والستون .....	١٢٤	الموقف السابع والثلاثون .....	٨٦
الموقف السابع والستون .....	١٢٥	الموقف الثامن والثلاثون .....	٨٧
الموقف الثامن والستون .....	١٢٥	الموقف التاسع والثلاثون .....	٨٩
الموقف التاسع والستون .....	١٢٧	الموقف الأربعون .....	٩٠
الموقف السبعون .....	١٢٩	الموقف الواحد والأربعون .....	٩١
الموقف الواحد والسبعون .....	١٢٩	الموقف الثاني والأربعون .....	٩٢
الموقف الثاني والسبعون .....	١٣١	الموقف الثالث والأربعون .....	٩٣
الموقف الثالث والسبعون .....	١٣٢	الموقف الرابع والأربعون .....	٩٥
الموقف الرابع والسبعون .....	١٣٤	الموقف الخامس والأربعون .....	٩٦
الموقف الخامس والسبعون .....	١٣٤	الموقف السادس والأربعون .....	٩٧
الموقف السادس والسبعون .....	١٣٦	الموقف السابع والأربعون .....	٩٨
الموقف السابع والسبعون .....	١٣٧	الموقف الثامن والأربعون .....	٩٩
الموقف الثامن والسبعون .....	١٣٩	الموقف التاسع والأربعون .....	١٠٠
الموقف التاسع والسبعون .....	١٤٠	الموقف الخمسون .....	١٠١
الموقف الثمانون .....	١٤٠	الموقف الواحد والخمسون .....	١٠٢
الموقف الواحد والثمانون .....	١٤١	الموقف الثاني والخمسون .....	١٠٥
الموقف الثاني والثمانون .....	١٤٢	الموقف الثالث والخمسون .....	١٠٥
الموقف الثالث والثمانون .....	١٤٣	الموقف الرابع والخمسون .....	١٠٦
الموقف الرابع والثمانون .....	١٤٧	الموقف الخامس والخمسون .....	١٠٨
الموقف الخامس والثمانون .....	١٤٧	الموقف السادس والخمسون .....	١٠٨
الموقف السادس والثمانون .....	١٤٩	الموقف السابع والخمسون .....	١١٠
الموقف السابع والثمانون .....	١٥٦	الموقف الثامن والخمسون .....	١١١

الموقف السابع عشر بعد المائة ... ٢١٦	الموقف الثامن والثمانون ..... ١٥٨
الموقف الثامن عشر بعد المائة ... ٢١٩	الموقف التاسع والثمانون ..... ١٥٩
الموقف التاسع عشر بعد المائة ... ٢٢٠	الموقف التسعون ..... ١٦٩
الموقف العشرون بعد المائة ..... ٢٢٢	الموقف الواحد والتسعون ..... ١٧٠
الموقف الواحد والعشرون بعد المائة ..... ٢٢٤	الموقف الثاني والتسعون ..... ١٧٠
الموقف الثاني والعشرون بعد المائة ..... ٢٢٥	الموقف الثالث والتسعون ..... ١٧٢
الموقف الثالث والعشرون بعد المائة ..... ٢٢٧	الموقف الرابع والتسعون ..... ١٧٤
الموقف الرابع والعشرون بعد المائة ..... ٢٢٩	الموقف الخامس والتسعون ..... ١٧٦
الموقف الخامس والعشرون بعد المائة ..... ٢٣١	الموقف السادس والتسعون ..... ١٧٩
الموقف السادس والعشرون بعد المائة ..... ٢٣٣	الموقف السابع والتسعون ..... ١٨١
الموقف السابع والعشرون بعد المائة ..... ٢٣٦	الموقف الثامن والتسعون ..... ١٨٣
الموقف الثامن والعشرون بعد المائة ..... ٢٣٧	الموقف التاسع والتسعون ..... ١٨٦
الموقف التاسع والعشرون بعد المائة ..... ٢٤٠	الموقف المائة ..... ١٨٨
الموقف الثلاثون بعد المائة ..... ٢٤١	الموقف الأول بعد المائة ..... ١٨٩
الموقف الواحد والثلاثون بعد المائة ..... ٢٤٣	الموقف الثاني بعد المائة ..... ١٩٠
الموقف الثاني والثلاثون بعد المائة ..... ٢٤٥	الموقف الثالث بعد المائة ..... ١٩٣
الموقف الثالث والثلاثون بعد المائة ..... ٢٤٧	الموقف الرابع بعد المائة ..... ١٩٦
الموقف الرابع والثلاثون بعد المائة ..... ٢٤٨	الموقف الخامس بعد المائة ..... ١٩٦
	الموقف السادس بعد المائة ..... ١٩٨
	الموقف السابع بعد المائة ..... ٢٠٠
	الموقف الثامن بعد المائة ..... ٢٠١
	الموقف التاسع بعد المائة ..... ٢٠٤
	الموقف العاشر بعد المائة ..... ٢٠٨
	الموقف الحادي عشر بعد المائة ... ٢١٠
	الموقف الثاني عشر بعد المائة ... ٢١١
	الموقف الثالث عشر بعد المائة ... ٢١١
	الموقف الرابع عشر بعد المائة ... ٢١٣
	الموقف الخامس عشر بعد المائة ... ٢١٤
	الموقف السادس عشر بعد المائة ... ٢١٥



٢٧٨	الموقف الخمسون بعد المائة	الموقف الخامس والثلاثون بعد	الموقف
	الموقف الواحد والخمسون بعد	المائة	٢٥١
٢٧٩	المائة	الموقف السادس والثلاثون بعد	
	الموقف الثاني والخمسون بعد	المائة	٢٥٢
٢٨١	المائة	الموقف السابع والثلاثون بعد	
	الموقف الثالث والخمسون بعد	المائة	٢٥٤
٢٨٣	المائة	الموقف الثامن والثلاثون بعد	
	الموقف الرابع والخمسون بعد	المائة	٢٥٨
٢٨٦	المائة	الموقف التاسع والثلاثون بعد	
	الموقف الخامس والخمسون بعد	المائة	٢٥٩
٢٨٧	المائة	الموقف الأربعون بعد المائة	٢٦١
	الموقف السادس والخمسون بعد	الموقف الواحد والأربعون بعد	
٢٨٨	المائة	المائة	٢٦٣
	الموقف السابع والخمسون بعد	الموقف الثاني والأربعون بعد	
٢٨٩	المائة	المائة	٢٦٥
	الموقف الثامن والخمسون بعد	الموقف الثالث والأربعون بعد	
٢٩١	المائة	المائة	٢٦٨
	الموقف التاسع والخمسون بعد	الموقف الرابع والأربعون بعد	
٢٩٤	المائة	المائة	٢٦٩
	الموقف الستون بعد المائة	الموقف الخامس والأربعون بعد	
٢٩٥	الموقف الواحد والستون بعد	المائة	٢٧١
	المائة	الموقف السادس والأربعون بعد	
٢٩٦	الموقف الثاني والستون بعد المائة	المائة	٢٧٣
	الموقف الثالث والستون بعد المائة	الموقف السابع والأربعون بعد	
٢٩٩	الموقف الرابع والستون بعد المائة	المائة	٢٧٣
	الموقف الخامس والستون بعد	الموقف الثامن والأربعون بعد	
٣٠٠	المائة	المائة	٢٧٥
	الموقف السادس والستون بعد	الموقف التاسع والأربعون بعد	
٣٠٢	المائة	المائة	٢٧٦
	الموقف السابع والستون بعد		
٣٠٤	المائة		

الموقف السابع والستون بعد المائة	٣٠٦	الموقف السابع والستون بعد المائة	٣٠٦
المائة	٣٣٠	الموقف الثامن والستون بعد المائة	٣٠٧
الموقف السادس والثمانون بعد		الموقف التاسع والستون بعد المائة	٣٠٨
المائة	٣٣١	الموقف السبعون بعد المائة	٣٠٩
الموقف السابع والثمانون بعد		الموقف الواحد والسبعون بعد	
المائة	٣٣٣	المائة	٣٠٩
الموقف الثامن والثمانون بعد		الموقف الثاني والسبعون بعد	
المائة	٣٣٥	المائة	٣١١
الموقف التاسع والثمانون بعد		الموقف الثالث والسبعون بعد	
المائة	٣٣٦	المائة	٣١٢
الموقف التسعون بعد المائة	٣٣٨	الموقف الرابع والسبعون بعد	
الموقف الواحد والتسعون بعد		المائة	٣١٤
المائة	٣٣٩	الموقف الخامس والسبعون بعد	
الموقف الثاني والتسعون بعد		المائة	٣١٥
المائة	٣٤٠	الموقف السادس والسبعون بعد	
الموقف الثالث والتسعون بعد		المائة	٣١٨
المائة	٣٤٢	الموقف السابع والسبعون بعد	
الموقف الرابع والتسعون بعد		المائة	٣٢٠
المائة	٣٤٣	الموقف الثامن والسبعون بعد	
الموقف الخامس والتسعون بعد		المائة	٣٢٢
المائة	٣٤٤	الموقف التاسع والسبعون بعد	
الموقف السادس والتسعون بعد		المائة	٣٢٣
المائة	٣٤٧	الموقف الثمانون بعد المائة	٣٢٥
الموقف السابع والتسعون بعد		الموقف الواحد والثمانون بعد	
المائة	٣٤٨	المائة	٣٢٦
الموقف الثامن والتسعون بعد		الموقف الثاني والثمانون بعد المائة	٣٢٧
المائة	٣٤٩	الموقف الثالث والثمانون بعد	
الموقف التاسع والتسعون بعد		المائة	٣٢٨
المائة	٣٥١	الموقف الرابع والثمانون بعد المائة	٣٢٩

الموقف الواحد والعشرون بعد المائتين ..... ٣٩٢	٣٥٣ ..... الموقف المائتان بعد المائة
الموقف الثاني والعشرون بعد المائتين ..... ٣٩٣	٣٥٤ ..... الموقف الأول بعد المائتين
الموقف الثالث والعشرون بعد المائتين ..... ٣٩٤	٣٥٥ ..... الموقف الثاني بعد المائتين
الموقف الرابع والعشرون بعد المائتين ..... ٣٩٤	٣٥٥ ..... الموقف الثالث بعد المائتين
الموقف الخامس والعشرون بعد المائتين ..... ٣٩٦	٣٥٧ ..... الموقف الرابع بعد المائتين
الموقف السادس والعشرون بعد المائتين ..... ٣٩٨	٣٥٨ ..... الموقف الخامس بعد المائتين
الموقف السابع والعشرون بعد المائتين ..... ٣٩٩	٣٦١ ..... الموقف السادس بعد المائتين
الموقف الثامن والعشرون بعد المائتين ..... ٤٠٥	٣٦٣ ..... الموقف السابع بعد المائتين
الموقف التاسع والعشرون بعد المائتين ..... ٤٠٥	٣٦٤ ..... الموقف الثامن بعد المائتين
الموقف العاشر والعشرون بعد المائتين ..... ٤٠٨	٣٦٨ ..... الموقف التاسع بعد المائتين
الموقف الحادي والثلاثون بعد المائتين ..... ٤١٠	٣٧١ ..... وصل
الموقف الثاني والثلاثون بعد المائتين ..... ٤١١	٣٧٢ ..... تدقيق
الموقف الثالث والثلاثون بعد المائتين ..... ٤١٤	٣٧٣ ..... نقض وصل
الموقف الرابع والثلاثون بعد المائتين ..... ٤١٥	٣٧٣ ..... تنبيه
الموقف الخامس والثلاثون بعد المائتين ..... ٤١٥	٣٧٤ ..... فائدة
الموقف السادس والثلاثون بعد المائتين ..... ٤١٧	٣٧٥ ..... فائدة
الموقف السابع والثلاثون بعد المائتين ..... ٤١٧	٣٧٦ ..... تمة
الموقف الثامن والثلاثون بعد المائتين ..... ٤١٩	٣٧٦ ..... تكميل
	٣٧٧ ..... الموقف العاشر بعد المائتين
	٣٧٨ ..... الموقف الحادي عشر بعد المائتين
	٣٨٠ ..... الموقف الثاني عشر بعد المائتين
	٣٨٢ ..... الموقف الثالث عشر بعد المائتين
	٣٨٣ ..... الموقف الرابع عشر بعد المائتين
	٣٨٤ ..... الموقف الخامس عشر بعد المائتين
	٣٨٦ ..... الموقف السادس عشر بعد المائتين
	٣٨٦ ..... الموقف السابع عشر بعد المائتين
	٣٨٧ ..... الموقف الثامن عشر بعد المائتين
	٣٨٩ ..... الموقف التاسع عشر بعد المائتين
	٣٩١ ..... الموقف العشرون بعد المائتين

٤٧١	٣ - فصل بل وصل	الموقف السادس والثلاثون بعد
٤٧٤	كسر طلسم وإيضاح مبهم	المائتين ٤٢٢
٤٧٧	إفصاح وإيضاح	الموقف السابع والثلاثون بعد
٤٧٩	٤ - فصل	المائتين ٤٢٣
٤٨١	حل مشكل وفتح مقفل	الموقف الثامن والثلاثون بعد
	٥ - فصل في التعيين الثاني	المائتين ٤٢٥
٤٨٦	والمرتبة الثانية	الموقف التاسع والثلاثون بعد
٤٨٨	(تكميل)	المائتين ٤٢٦
٤٩١	(تدقيق)	الموقف الأربعون بعد المائتين ٤٣١
٤٩٣	وطاء وكشف غطاء	الموقف الواحد والأربعون بعد
٤٩٥	٦ - فصل في المرتبة الثالثة	المائتين ٤٣٢
٤٩٩	تتميم	الموقف الثاني والأربعون بعد
٥٠٢	إفشاء سرّ، وهتك ستر	المائتين ٤٣٣
٥٠٨	تحقيق	الموقف الثالث والأربعون بعد
٥١٠	لطيفة	المائتين ٤٣٨
	إقامة جدار لإخراج كنوز	الموقف الرابع والأربعون بعد
٥١٠	وأسرار	المائتين ٤٣٩
٥١١	٧ - فصل بل وصل	الموقف الخامس والأربعون بعد
٥١٥	٨ - فصل	المائتين ٤٤٢
٥١٦	٩ - فصل	الموقف السادس والأربعون بعد
٥١٨	١٠ - فصل	المائتين ٤٤٣
٥٢١	١١ - فصل	الموقف السابع والأربعون بعد
٥٢٣	١٢ - فصل	المائتين ٤٤٥
٥٢٣	١٣ - فصل	الموقف الثامن والأربعون بعد
٥٢٤	١٤ - فصل	المائتين ٤٤٧
	١٥ - فصل في الكرسي هو	١ - فصل ٤٥٠
٥٢٧	العرش الكريم	تنبيهه ٤٥٤
٥٢٨	١٦ - فصل في الفلك الأطلس	٢ - فصل بل وصل ٤٥٥
٥٣١	١٧ - فصل في فلك الثوابت	إنك رمز وفتح كتر ٤٦٥

٥٥٦	٢٩ - فصل في السماء السابعة .....	تمهيد أوائل لإيجاد صورة
٥٥٧	أ - تنبيه .....	٥٣٣ الإنسان الكامل .....
٥٥٧	ب - تنبيه .....	٥٣٧ تنبيه .....
٥٥٨	باب في الاستحالات .....	٥٣٨ الأشكال .....
	٣٠ - فصل في المعدن من	٥٤٠ ١٨ - فصل في الأرض .....
٥٥٩	المولدات الأربعة .....	٥٤٣ ١٩ - فصل في الماء .....
٥٦٤	٣١ - فصل في النبات .....	٥٤٤ ٢٠ - فصل في الهواء .....
٥٦٧	٣٢ - فصل في الحيوان .....	٥٤٦ ٢١ - فصل في ركن النار .....
٥٦٩	٣٣ - فصل في الجان .....	٥٤٨ ٢٢ - فصل في خلق السموات .....
٥٧٣	٣٤ - فصل في المرتبة السادسة .....	٥٥٠ ٢٣ - فصل في السماء الدنيا .....
٥٧٥	تنبيه نبيه .....	٢٤ - فصل في السماء الثانية
٥٧٦	إشارة لأهل البشارة .....	٥٥٢ للسماء الدنيا .....
٥٧٩	مثال لمن ليس له مثال .....	٥٥٣ ٢٥ - فصل في السماء الثالثة .....
٥٨٥	خاتمة .....	٥٥٣ ٢٦ - فصل في السماء الرابعة .....
	الموقف التاسع والأربعون بعد	٥٥٥ ٢٧ - فصل في السماء الخامسة .....
٥٩٠	المائتين .....	٥٥٥ ٢٨ - فصل في السماء السادسة .....